

تاريخ الكنيسة المفصَّل

المجلَّد الأوَّل



دار المشرق





تاريخ الكنيسة المفصّل

المجلّد الأوّل

نقله إلى العربيّة
الأبوان
أنطوان الغزال
وصبحي حموي اليسوعيّ

دار المشرق

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت، ١٤/١١/١٩٩٩

دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ٩٤٦ - ١١
رياض الصلح، بيروت ٢٠٦٠ ١١٠٧
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-7055-8

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٤٨٥٧٩٣/٤/٥ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
Email: libor@cyberia.net.lb

صدر هذا المجلّد بالفرنسيّة تحت عنوان:

2000 ans de Christianisme, tomes I et II
Aufadi – Paris 1975 et S.H.C. International

الباب الأوّل

وِلادة الكنيسة

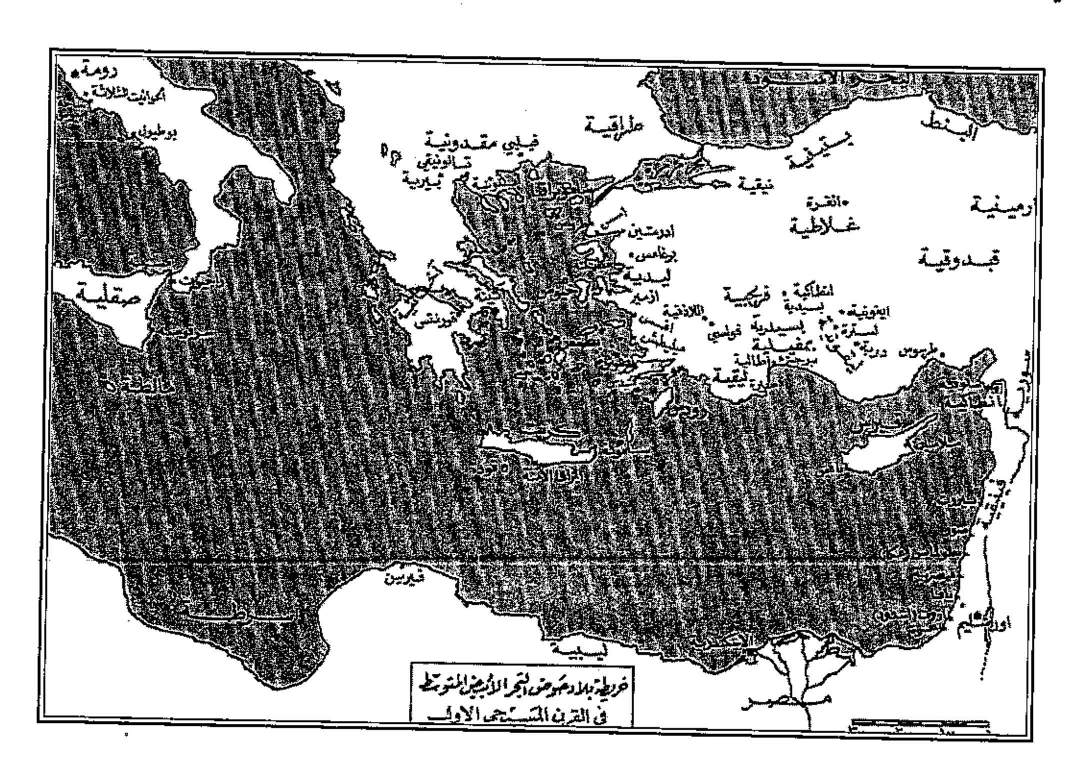
في القرن الميلاديّ الأوّل،
وفي وسط العالم اليهوديّ
الغنيّ بتقليده الدينيّ العريق
والمنقسم مع ذلك على ذاته شِيَعًا متعدّدة،
ظهر يسوع الناصريّ.
تعلّق به رجالٌ ونساء،
وتبعوه.
وبعد موته
ما زالت جماعة تلاميذه تنمو وتزداد،
وهكذا وُلدت الكنيسة
في صميم الشعب اليهوديّ.

الفصل الأوّل

العالم اليهوديّ عهد المسيحيّة

بقلم مَرْسال سِيمون(*)

ما من أحد يستطيع أن يفهم المسيحيّة الناشئة، إنْ لم يطّلع على أوضاع اليهوديّة في القرن الأوّل. فالمسيحيّة الناشئة هي يهوديّة بالولادة ويونانيّة رومانيّة بالتبنّي، تتّسم في آن واحد بطابع المكان الذي منه خرجت والمكان الذي ما لبثت أن نمت فيه. إلّا أنّه لم يكن ثمّة مِن حاجز عازل يفصل بين هٰذين المجتمعين، فإنّ الدين اليهوديّ كان قد انفتح على تأثيرات الهلّينستيّة، وغالبًا ما كان له الفضل في وصول الهلّينستيّة إلى الكنيسة الناشئة. وأيًّا كان الوجه الذي نتصوّر به اليهوديّة، فهي الخلفيّة التي ترتسم عليها المسيحيّة، تلك الشيعة اليهوديّة التي أصبحت منذ الجيل الأوّل - في بعض المجتمعات على الأقلّ - ديانةً مستقلّة. وفي الوقت الذي ظهرت فيه المسيحيّة، كانت فلسطين خاضعةً، منذ عدّة قرون، للسيطرة الأجنبيّة. فبعد الفُرس واليونان، جاء الرومان وفرضوا نيرهم. وبتمركزهم في سورية على عهد آخر الحشمونيّين وعلى عهد هِيرُودُس الكبير (٣٤-٤ق.م.)، جعلوا من فلسطين دولة تابعة لرومة، وأخيرًا (٥٦ب.م.) إقليمًا من أقاليم الأمبراطوريّة. وكانت السلطة المحلّيّة، الممثَّلةُ بالسَنْهِدرين - وهو مجلس القضاء الأعلى لجميع اليهود - وبعظيم الكهنة الذي يرئِسه، تُواجِه صعوبةً كبرى في تثبيت نفسها تجاه الحكم الأمبراطوريّ.



(*) Marcel Simon، أستاذ في جامعة ستراسْبُورغ (الفرع الثاني).

الشتات

لكنّنا نرى يهودًا خارج فلسطين أيضًا. إذ إنَّ تقلّبات تاريخ مضطرب للغاية، وضيقَ الأراضي الوطنيّة، وحيويّةَ العرق تفسّر قيام حركة هجرة مستمرّة حملت عددًا متزايدًا من اليهود، قبيل العصر المسيحيّ وفي مطلعه، إلى الإقامة بعيدًا من الوطن الأمّ. وهٰكذا تكوَّن الشتات، ولا شكّ في أنّ عدده، منذ زمن يسوع، قد أربى بكثير على عدد السكّان الفلسطينيّين. وأقامت جاليات يهوديّة متفاوتة الحجم والأهميّة حول حوض البحر المتوسّط - وحتّى ما وراء الحدود الشرقيّة في الأمبراطوريّة - خصوصًا في المراكز الكبرى كلّها: رومة، وقرطاجة، وأنطاكية، ولا سيّما الإسكندريّة. فإنْ لم نلتفت إلّا إلى الأرقام، لَبَقِيَت العاصمةُ المصريّةُ حاضرةَ اليهوديّة الحقيقيّة.

لكنّ أورشليم، وهي العاصمة الوطنيّة، القويّة بمكانتها كمدينة مقدّسة، كانت تَمُدّ إلى مجمل العالم اليهوديّ إشعاعًا لا يُضاهى. وكان الهيكل، وهو المعبد الوحيد لله الأوحد، رمزَ وحدة إسرائيل أيضًا. وكان جميع اليهود، بمن فيهم يهود الشتات، يُرسِلون إليه جزية العبادة، كما كان يتمسّك بالحجّ إليه جميعُ القادرين على ذلك، ولو مرّة في حياتهم، لمناسبة الاحتفال بأحد أكبر أعياد التقويم الطقسيّ.

وإذا كان الهيكل مركزَ الحياة الدينيّة، وهو أمر لا يقبل الجدل، فلم تكن له هٰذه الصفة فعلًا ودائمًا إلّا في نظر سكّان أورشليم وضاحيتها. أمّا سائر اليهود، أي غالبيّة الشعب المختار العظمى، فكانوا يكرمونه إكرامًا شديدًا. لكنَّ الغربة كانت تبعدهم عن احتفالاته الفخمة، فكانت عبادتهم تنتظم، بطبيعة الحال، حول مؤسّسة أُخرى هي المجمع.

المَجْمَع

ما زال المؤرِّخون يتناقشون في تحديد جذوره، من حيث المكان والزمان. أين نشأ ومتى؟ لا أحد يعلم ذلك علمًا ثابتًا. وقد يجب الرجوع إلى جلاء بابل الذي أعقب سيطرة نَبوكَد نَصَّر على أورشليم في ٥٨٦ق.م.

مهما يكن من أمر، فالمجمع يلبّي تلبيةً مباشرة من حيث الدين ما تحتاج إليه الأرياف الفلسطينيّة، ولا سيّما الشتات. وهو يجسّد في الوقت نفسه أمثَلَ تعبير عن ديانةٍ هي في الأساس ديانة الكتاب الموحَى.

ففي الواقع، لا ذبائح في المجمع، لأنّ تقديمها ممنوع خارج الهيكل، ولا كهنة أيضًا، لأنّ علّة وجود الكهنوت تكمن أساسًا في القيام بشعائر الذبائح. فالكتاب المقدّس هو أساس المجمع، وهو مَقْدِسٌ ومدرسةٌ في آن واحد، فيه يتمّ قراءة الأسفار والتأمّل فيها والتعليق عليها، بإشراف معلّمين هم الرابينيّون. وهؤلاء هم الذين يرئسون طقوس العبادة أيضًا، بحيث تتعاقب تلاوة الصلوات وإنشاد المزامير وقراءة الكتاب المقدّس والتفسير أو العظة، بمشاركة المؤمنين الفعّالة.

ولكن هناك أكثر من ذٰلك، فالمجمع الذي كان يهدف أولًا إلى القيام مقام الهيكل في نظر اليهود العائشين بعيدًا من أورشليم، ما لبث أن أصبح تكملةً له. لأنّ طقوس الهيكل الذبائحيّة لم تترك أيَّ مجال لِـ«خدمة الكلمة». ولذلك نجد، في مطلع عصرنا، العديد من المجامع في أورشليم نفسها. ثمّ نشأ شيئًا فشيئًا بعضُ التنافس بين المؤسّستين، وهو يعكس ذٰلك التنافسَ الذي ازداد يومًا بعد يوم بين الطبقة الكهنوتيّة و«معلّمي الشّريعة». وتماشى أيضًا مع التنافس الذي عرفَتْه النزعتان الكبريان عند اليهود في ذٰلك الزمان، وقد تجسّدتا في الصدّوقيّين والفرّيسيّين، من دون أن يطابقه في جميع وجوهه.

الشِيَع اليهوديّة في أيّام يسوع

إنّ وحدة العالم اليهوديّ، المبنيّة على الإيمان بالإله الواحد وعلى حفظ الشريعة الأخلاقيّة والطقسيّة، إلى جانب الاقتناع بأنّ إسرائيل هو شعب الله المختار، كانت ولا شكّ متينةً جدًّا. إلّا أنّها كانت ترضى باختلافات ملحوظة في العقيدة والممارسة. لأنّ العقيدة كانت مقصورة على بعض التأكيدات الأساسيّة التي من شأنها بالتالي أن تحدَّد وتُحسَّن بطرقٍ شتّى. أمّا الممارسة، ومهما تعدَّدت أحكامها، فإنّها تبقى مثارًا للجدل: لأنّ الكتاب المقدّس لم يَنصّ على جميع الحالات الخاصّة التي قد تطرأ على أيّ يهوديّ ورع. فمِن كلا الناحيتين على السواء، كانت الزيادات التي يرغب فيها بعضُهم ويدوِّنها، ويرفضها بعضهم الآخر، مُمْكنًا إضافتُها إلى النصّ المكتوب.

وعلاوةً على ذلك، لم يكن لأيّ مرجع في إسرائيل، حتّى للسَنْهِدرين - فضلًا عن أنّه كان منقسمًا هو أيضًا إلى أحزاب متنافسة - سلطةٌ كافية تمكِّنه من أن يحدِّد بالتفصيل قواعد التعليم والممارسة. وهٰذا ما يفسِّر نشوء الشِيَع، وهي لم تكن تجمّعاتٍ منشقّةً انفصلت عن اليهوديّة الأصليّة - باستثناء السامريّين أولٰئك الخوارج الممقوتين -، بل كانت مجرّد مدارس فكريّة مختلفة داخل الجماعة الإسرائيليّة. وقد ذَكَر المؤرِّخ اليهوديّ فلاڤِيُوس يُوسِيفُس، وهو مرجعنا الأساسيّ في شؤون يهود ذٰلك الزمان، أربعًا منها: الصَدُّوقيّون والفِرّيسيّون، الذين نعرفهم أيضًا من مطالعة الأناجيل، ثمّ الأَسِّينيّون والغَيُورون. وكانت المجموعتان الأُوليان تؤلِّفان ما يجوز لنا أن نسمِّيه الدين اليهوديّ الرسميّ. أمّا الأُخريان فكانتا أقلّ نفوذًا، وإنْ لم تكونا، في نظر يُوسِيفُس - الذي لا يُخفي مع ذٰلك نفورَه من الغيورين وانتماءَه إلى الفرّيسيّة - أقلّ تمثيلًا لألوان أصيلة نجدها داخل الدين اليهوديّ.

ولا شكّ في أنّ هناك تجمُّعات أُخرى أيضًا، يمتنع يُوسِيفُس عن ذكرها: إمّا لأنّها تتّسم بطابع التشيّع المميَّز، بمعنى الكلمة المألوف، وإمّا لأنّها كثيرة الامتزاج بالوثنيّة، وإمّا لأنّها لا تستحقّ الذكر لقلّة عددها. ونرى هذه التجمّعات متمركزة عمومًا في المناطق التي تحيط بفلسطين بعيدًا عن أورشليم، ولا سيّما في منطقة نهر الأردنّ. وكان لها، في بعض الأحوال، تأثير لا يتناسب مع قلّة عددها. وربّما صَبَّ بعضُها، على هامش الكنيسة الكبرى، في شيع مسيحيّة من أصل يهوديّ. ويبدو أنّ الحركة التي أحياها يوحنّا المعمدان عَرفت، في إسرائيل لبعض الوقت، نجاحًا مرموقًا. ولقد قامت هذه الحركة بدور حاسم في نشوء المسيحيّة، لأنّ يسوع أدرك دعوته من خلال اتّصاله بيوحنّا، حين اعتمد عن يده.

الصدُّوقِيُّون

عند اقتراب العصر المسيحيّ، ساد على تاريخ اليهوديّة الرسميّة التنافُسُ الذي قام بين الصدّوقيّين والفرّيسيّين، وكانوا يجلسون جنبًا إلى جنب في السَنْهِدرين. وكان الأوّلون، في الأمور الجوهريّة، لسان حال الأرستقراطيّة الكهنوتيّة. وكانوا حريصين على حفظ النظام القائم وغيرَ متوانين بالتالي عن التواطؤ مع المحتلّ الرومانيّ، فكانوا يعارضون كلَّ اضطراب سياسيّ أو دينيّ، وبالتالي كلَّ تحرُّك مسيحيّ. ويبدو أنّهم كانوا، من الجانب اليهوديّ، كبارَ الزعماء الذين عارضوا يسوع، والمحرِّضين على قرار الحُكم الذي أصدره الوالي بُنطِيُوس بِيلاطُس.

وكانوا محافظين في الدين وفي السياسة على السواء، فيكتفون بتفسير الشريعة تفسيرًا حرفيًّا، ويرفضون كلّ ما يتعدّى نصّ الكتاب المقدّس المدوَّن. ولمّا كان قانون الكتاب المقدّس، أي اللائحة الرسميّة التي تعدِّد الكتب المُلْهَمة، لم يكن

قد حُدِّد تحديدًا نهائيًّا، فمن الراجح أنّهم كانوا يرفضون أحدث النصوص. وكتَب يُوسِيفُس أنّهم كانوا ينكرون وجود أيّ حياة آتية، وربّما أفادنا العهد الجديد بوضوح عن موقفهم، حين ذكر أنّهم ينكرون القيامة. وكانوا لا يؤمنون بوجود الملائكة. والحال أنّ الاعتقاد بوجود الملائكة والأفكار المتعلّقة بالماورائيّات كانت تُعتَبر تجديدًا في اليهوديّة بالنسبة إلى ديانة إسرائيل القديمة، ولا شكّ في أن التأثيرات الغريبة، ولا سيّما الإيرانيّة منها، كان لها دَخْل في هذا الموضوع. فالرفض الذي واجه به الصدّوقيّون تلك الاعتقادات الجديدة يصوِّر إذًا نزعتهم المتأصِّلة إلى المحافظة تصويرًا حسنًا.

الفرِّيسيّون

يبدو أنّ الصدّوقيِّين لم يؤثِّروا في الشعب تأثيرًا بالغًا، رغم ارتباطهم بالهيكل، بل الفرّيسيّون هم الذين كانوا قادةَ الشعب الروحيِّين في أيّام يسوع.

ويوحي اسمُ الفرّيسيّين (بالعِبريّة «فروشيم»: المنفصلين) بأنّهم تكتّلوا باديءَ الأمر - غداة ثورة المكّابيّين ولا شكّ - في مجموعة متشدِّدة منطوية على نفسها، وكان هذا الأمر طريقة للاحتجاج على فتور مواطنيهم. ثمّ خرجوا تدريجًا من عزلتهم هذه وتمكّنوا من مدّ نفوذهم إلى مجمل العالم اليهوديّ، في فلسطين وخارجها. وبعد أن دمِّرت أورشليم العام ٧٠ وقضت الأحداث على النزعات الأُخرى، غدت الفِرّيسيّة واليهوديّة شيئًا واحدًا. واليهوديّة مدينة ببقائها إلى أيّامنا هذه للفرّيسيّين الذين كانوا يستندون إلى المجمع.

أمّا الأناجيل فإنّها تصف الفرّيسيّين بأنّهم مراؤون ومتمسِّكون بالشكليّات ومدقّقون في أصغر الأمور. وهٰذه الدقّة المفرطة والعقيمة كانت تخنق التقوى. ولشدّة تمسُّكِهم بحرف الشريعة، كانوا يهملون روحها ويساوون بين الواجبات الأخلاقيّة الكبرى وتفاصيل الأحكام الطقسيّة. إنّ صورة كهٰذه، وهي تعكس قساوة المسيحيّة الناشئة على خصومها الأشدّ تصلّبًا، لا تحفظ من الفرّيسيّة إلّا عيوبها الفاضحة وتتجاهل العناصر الإيجابيّة التي تكاد البحوث المعاصرة أن تُجمِع على الاعتراف بها.

فالفرّيسيّون كانوا في الأساس أنصارًا للشريعة، يتأمّلون فيها باستمرار ويطمحون إلى ممارستها بطريقة مثاليّة، من خلال تكييفها على مختلف الأحوال التي لم ينصّ المشترع عليها بالتفصيل. وقد حملهم مجهود التكييف الذي بلغوا فيه إلى الوسواس، بفعل إفراطٍ في التمييز ما نعجز غالبًا عن فهمه، إلى أبعد من النصّ المكتوب.

أوَليس التقليد، على كلِّ حال، متمِّمًا ضروريًّا للشّريعة؟ إذ إنَّه يوضحها، وهو والشريعة على السواء جزءٌ لا يتجزّأ من وحي سيناء. وهو أيضًا ينتقل شفويًّا، ويزداد غنًى من جيلٍ إلى جيل. وتتبلور المعتقدات كذٰلك. فكان الفرّيسيّون يُولُون وجود الملائكة أهميّة كبرى، كما أنّهم كانوا ينتظرون القيامة في آخر الأزمنة، خلافًا لِما كان يفعل الصدّوقيّون.

وفي آخر الأمر، دُوِّن تعليمُ الفرّيسيّين، الذي نشرته مدارس مختلفة متفاوتة في التشدُّد أو التساهل، في المِشْنَه والتَلْمُود. وهما شرعةُ ما نسمِّيه اليهوديّةَ الرابينيّة. ويمكِّنُنا البحثُ الدقيق في هذه النصوص من أن نكتشف في وقت واحد وجوه شبه حقيقيّة بين مواقف الفرّيسيّين ورسالة يسوع، وتناقضات جذريّة بينهما. لأنّ يسوع كان يتعامل بتصرّف مع تعليم «الأقدمِين» وينسب إلى نفسه سلطة مطلقة، وهٰذا ما دفعه إلى الزيادة على المستلزمات الأخلاقيّة التي تفرضها الشريعةُ أحيانًا، وعلى العكس من ذٰلك، إلى تخفيف الأحكام الطقسيّة، لا بل إلى إبطالها عمليًّا أحيانًا أُخرى.

الغَيورُون

كان الفِرّيسيّون يمثِّلون نوعًا من الطبقة الوسطى إلى جانب الأرستقراطيّة الكهنوتيّة. أمّا الغيورون فكانوا

يتّخذون أعضاءهم من طبقات العمّال الريفيّين الأشدّ بؤسًا. ويَذكر يُوسِيفُس أنّهم كانوا يتّفقون مع الفرّيسيّين على مسائل التعليم والممارسة كلّها. إلّا أنّهم كانوا يتميّزون عنهم بقوميّة عدائيّة، تناهض بعنف ذلك الاحتلال الرومانيّ الذي يريدون أن يستبدلوا به الحكم الإلهيّ الحقيقيّ. وكانوا يرغبون في تسريع مجيء ملكوت الله الذي هو رجاء اليهود جميعًا (لربّما باستثناء الصدّوقيّين). وكانت العناصر الأشدّ تعصّبًا بينهم تنصب الكمائن على الطرقات، ولا تتورّع عن استخدام الخناجر في مواجهة الوثنيّين المقيمين في الأراضي المقدّسة، وحتّى الإسرائيليّين الذين كانوا يتساهلون في القبول بوجود الغيورين.

وكان لتلك الشيعة التي نشأت يومَ أصبحت اليهوديّةُ إقليمًا رومانيًّا، دور كبير في الاضطرابات المستديمة التي أدّت، وبسبب رعونة بعض الحكّام وفظاظتهم أيضًا، إلى اندلاع الثورة وإلى كارثة ٦٦-٧٠.

وقال عدد من المؤلّفين المعاصرين بوجود وجوهِ شَبه جليّة بين حركة الغيورين والمسيحيّة الناشئة، حتّى إنّهم جعلوا من يسوع محرّضًا سياسيًّا من نمط الغيورين. وعلى هذا الأساس فعلًا، صلبَتْه السلطات الرومانيّة، من دون أن تهتمّ كثيرًا بالتعمّق في معنى بشارته. ومع ذلك، فليس في رسالة يسوع ما يحملنا على أن نرى فيه رجلَ عنف. وإذا كانت الأناجيل قد أطلقت على أحد الاثنَي عشر اسم سمعان الغيور، فذلك، على ما يبدو، لأنّه كان وحده ينتمي إلى تلك الفئة في محيط المعلّم: فإنّ كلمة «غيور» تعني هنا، على الأرجح، غيورًا تائبًا. وعلاوةً على ذلك، يبدو أنّ التلاميذ الأوّلين، الآتين من بيئةٍ مشبعة بالروح الغيوريّة، قد استمالتهم هذه الروح ولا شكّ، إلّا أنّ يسوع اضطرّ إلى اتّخاذ موقفٍ من هذه الحركة وشجبِها.

الأسّينيّون

كان الأسّينيّون، مِن عدّة نَواحٍ، أكثر الشيع اليهوديّة إثارةً للاهتمام. وكانوا أيضًا من أكثر الشيع شهرةً بفضل العثور على مخطوطات البحر الميت الشهيرة في منتصف القرن الحاليّ: وقد مكّننا هذا الأمر من إكمال تلك المعلومات التي وردت عند كلٍّ مِن يُوسِيفُس وفيلُون الإسكندريّ وپلِينُس الأكبر. فلا مجال هناك لأيّ شكّ، إذ إنّ أعضاء التجمّع اليهوديّ الذين كانوا يقيمون في قلب الصحراء، في قُمران، على ضفّة البحر الميت الغربيّة، والذين كَشَفَ علماءُ الآثار مساكنهم، لم يكونوا سوى النواة الأساسيّة التي نشأت منها الأسّينيّة. والوثائق التي عُثر عليها في المغاور المجاورة هي صادرة مباشرة عن الأوساط الأسّينيّة.

إنّ معنى كلمة «أسّينيّين» الأصليّ ليس واضحًا، لكن يبدو أنّ بدايات هذه الشيعة، كبدايات الشيعة الفرّيسيّة، كانت مرتبطةً بثورة المكّابيّين. إلّا أنّ الأسّينيّين استمرّوا في انفصال اختياريّ، خلافًا للفرّيسيّين. فانتظموا في نظام ديريٍّ حقيقيّ، وخضعوا لقوانينَ صارمة، وعاشوا عيشةً جماعيّة كانوا يوزّعونها بين العمل اليدويّ والتمارين الروحيّة. وبعد مرحلة امتحانٍ دقيقة جدًّا، كانوا يتلقّون تعليمًا باطنيًّا لا يقدر أيّ دنيويّ أن يحصل عليه. فكان الأسّينيّون يَعتبرون أنفسهم إسرائيل الحقيقيّ الوحيد ويشملون بكراهيتهم الوثنيّين النجسين وجماهيرَ اليهود على السواء.

ويبدو أنّ هذه الشيعة مرّت بأيّام صعبة، لا بل عانت الاضطهادات أيضًا بسبب ممارسات سلطات أورشليم. ولعلّ «معلّم البرّ» الذي يكتنف الغموضُ شخصَه، والذي يَرِد ذكرُه غالبًا في نصوص قمران، قد قضى شهيدًا. وفي مُطلق الأحوال، يبدو أنّه هو الذي أعطى الحركة الأسّينيّة شكلَها النهائيّ. غير أنّ الأسّينيّين كانوا يعيشون هانئين في مطلع العصر المسيحيّ، وكان يُوسِيفُس كثير الإعجاب بهم. ومع ذلك، كانوا يعيشون على هامش طقوس الهيكل التي دنّسها، في نظرهم، كهنوتٌ غير مستحِقّ، وكانوا يحتفلون في ما بينهم بطقوس لا يشترك فيها إلّا المطّلِعون على أسرارهم، وفقًا لتقويم يَختلف عن تقويم أورشليم.

وكان أدب الأسّينيّين المقدّس يتضمّن، إلى جانب

أسفار الكتاب المقدّس القانونيّة، مؤلَّفات أخرى مختلفة: بعضها كسِفْر **اليُوبيلات** وسفر **أخْنُوخ** ووصايا **الآباء الاثني عشر**، كُنّا نعرفه ولعلّه نشأ في الشيعة نفسها؛ وبعضُها الآخر عُثر عليه في قمران - كمختَصَر **الآداب** وكتاب **الحرب** ومجموعة **الأناشيد** - ويُطلعنا على تنظيم الجماعة وروحانيّتها ومعتقداتها. وهٰذه المؤلَّفات تظهر فيها تأثيراتٌ غريبة تتعلّق خصوصًا بالثنائيّة المزديّة[1] وهي أحد المصادر التي انبثق منها زُهد الأسّينيّين، علمًا بأنّ التناقض الجذريّ القائم بين الجسد والروح، الذي كان يقول به الأسّينيّون، لم يكن يَتّفق تمامًا مع الدين اليهوديّ الرسميّ.

وعلاوةً على ذٰلك، كانت هذه الشيعة تُزايد على الفرّيسيّين في شأن الغيرة على الشريعة والطهارة الطقسيّة، وتعيش في انتظار الأزمنة الأخيرة، والصراع الأخير الذي لا بدّ من شنّه على قوى الشرّ. وقد ابتعد بعضُ أعضائها عن المثال المسالِم الذي كان ينسبه إليهم يُوسِيفُس، وشاركوا في ثورة سنة ٦٦ بعد أن انتقلت إليهم عدوى الغيورين. ففي أثناء الحرب، على كلّ حال، دُمِّر دير قمران.

شبكة من التأثيرات المتعدِّدة

لعلّ المسيحيّة الناشئة قد استوعبت الشيعةَ الأسّينيّة، إلى حدّ ما، بعد هٰذا التاريخ. فإلى جانب وجود اختلافات حادّة، هناك أَوْجه شَبه مدهشة بين التيّارَين، سُلِّطت الأضواءُ عليها كثيرًا منذ اكتشاف نصوص قمران. فلا تمرّ صورة معلّم البِرّ ومصيرُه بدون أن يُذكِّرانا بالمسيح. وفي المؤسّسات والطقوس الأسّينيّة تَقاربٌ دقيق مع ما نجده في الكنيسة القديمة على أكثر مِن صعيد، كالوليمة المقدّسة التي احتلّت، على ما يبدو، في قمران ذٰلك المكان المميَّز الذي احتلّته الإفخارستيّا في المسيحيّة، والتي كانت، على غِرارها، استباقًا للوليمة المشيحيّة. كذٰلك، يجد تركيبُ الجُمَل والعباراتُ والعقيدةُ الأسّينيّة ما يوازيها بدقّة في العهد الجديد، ولا سيّما في بعض رسائل القدّيس بولس وفي الإنجيل الرابع.

مِن المستحيل طبعًا أن نجعل من يسوع أسّينيًّا، ومن المسيحيّة مجرَّدَ مشتقٍّ فرعيّ من شيعة قمران. إلّا أنّ وجوه التقارب غالبًا ما هي أدقّ من أن تكون وليدة المصادفة. فقد تمّت اتّصالات ومُورِسَت تأثيرات، وإنْ عَسُر علينا أن نرسم بدقّة طريقَ سيرها. هٰذا وإنّ طابع الأسّينيّة الباطنيّ لم يمنعها من التسرّب بدرجات مختلفة إلى قطاعات التفكير اليهوديّ كلّها. وإذا أردنا أن نردّ كلّ شيء إلى الأسّينيّة، حملنا حقيقةَ الأمور على غير محملها. ومع ذٰلك، لا بدّ من التأكيد بموضوعيّةٍ أنّ الأسّينيّة تُعتبَر عاملَ تفسيرٍ مهمّ في ما يختصّ بتاريخ جذور المسيحيّة.

اليهوديّة الفلسطينيّة، والهلِّينِستيّة، والمسيحيّة

إلّا أنّ الأسّينيّة لم تكن العاملَ الوحيد الذي أثّر في الجذور المسيحيّة. فلا بدّ، مِن هٰذه الناحية، أن نأخذ اليهوديّةَ الفلسطينيّة بأسرها بعين الاعتبار، لأنّ الشيع مجموعةً لم تكن سوى جماعاتٍ قليلة العدد. والسواد الأعظم من اليهود لم يكن ينتمي إلى أيٍّ منها، مع أنّه كان يتأثّر بهٰذه أو تلك. لٰكنّ جميعهم، أو معظمهم، كانوا يعيشون في رجاءِ الملكوت، يذكيه وجود الغرباء الكفّار الفاضح في الأراضي المقدّسة.

والمسيحيّة الناشئة كانت تلبّي هٰذا الرجاء، فهي حركةٌ مشيحيّة تُعلِن أنّ الأزمنة قد اقتربت. وإنْ لم تكنْ سوى واحدةٍ مِن حركات كثيرة، فقد كانت وحدها في تحدّي القرون. ولا شكّ في أنّ المسيح المتألّم الذي

---

(١) تَعتبر الديانةُ المزديّة التي انبثقت من ديانة إيران القديمة، بعد أن أصلحها زَرادَشت، أنّ العالم مسرحُ صراعٍ لا هوادة فيه بين مَبدئَي الخير والشرّ.

كانت المسيحيّةُ تنتسب إليه، وابنَ الإنسان الذي عُذِّب قبل أن يعود في المجد، لم يكن ذٰلك الملك الظافر الذي ينتظره الناس عامّةً.

إنّ صورةً كهٰذه نَجِدُ لها، مع ذٰلك، بعضَ السوابق في الرؤى اليهوديّة وفي معتقدات بعض المجموعات كالأسّينيّين. وفضلًا عن ذٰلك، كانت الفكرة التي كوّنَتْها المسيحيّةُ عن ملكوت الله والأزمنة الأخيرة تَستمدّ عددًا من ملامحها من المفاهيم اليهوديّة التقليديّة: وهي تُعتبر في وقت واحد اشتقاقًا أصليًّا منها وتكييفًا فريدًا لها.

ومع ذٰلك، لم تكن يهوديّةُ سكّان فلسطين المسألةَ الوحيدة المطروحة، إذ هناك أيضًا يهوديّة الشتات الذي وصلت إليه الرسالة المسيحيّة منذ الجيل الأوّل، ولا سيّما عن يد القدّيس بولس. وقد ضمّت المسيحيّةُ إليها أعضاءً جددًا مِن هٰذا الشتات فاتّسمت بطابعهم.

ولا شكّ في أنّه لم يكن هناك أيّ تَعارض بين نصفَي العالم اليهوديّ، فَهُما متّحِدان في مذهبٍ دينيّ واحد.

وكان الشتات، مع ذٰلك، يتمتّع بذهنيّةٍ مختلفة إلى حدٍّ ما عن ذهنيّة فلسطين، فقد كان أكثر تَهَلُّنًا إلى حدّ بعيد.

وإلى جانب ذٰلك، كان الشتات يعيش في محيط يتصرّف فيه الوثنيّون كأصحاب المكان ولا يجوز اعتبارُهم دخلاءَ عليه، فظلَّ أقلّ تعرّضًا لدفعات الحركة المشيحيّة الوطنيّة التي تُلهب اليهود الفلسطينيّين، وأكثر ميلًا إلى حمل الأمم على الاهتداء: وبالفعل، أخذ يهودُ الشتات يَضمّون «الدخلاء»، وبعد أن لاقت هٰذه الحركة نجاحًا باهرًا، مهّدت السبيل للرسالة المسيحيّة.

وكانت اليونانيّة، المنتشرة في فلسطين أيضًا، لغةَ اليهود المتداولة والطبيعيّة (كما كانت اللاتينيّة في الغرب أحيانًا). وقد حَلّت بوجهٍ عامّ مكان العِبريّة كلغةٍ طقسيّة. كما وَضعت الترجمةُ اليونانيّة، المعروفة بالسبعينيّة، والتي تَمّت ابتداءً من القرن الثالث ق.م.، الكتابَ المقدَّسَ في متناول اليهود الذين ابتعدوا عن موطن آبائهم فلم يعودوا يتكلّمون العبريّة أو الآراميّة. وقد درج استعمالُها في مجامع الشتات، قبل أن تعتمدها الكنيسة المسيحيّة.

وإلى جانب اللغة، لاقت فئات المفكّرين اليونان ترحيبًا من المشتّتين، خصوصًا في الإسكندريّة. فشُوهد فيها تطوّرُ تيّارٍ فكري يتميّز أساسًا بتركيب معطَيات الوحي الكتابيّ ومبادئِ الفلسفة الوثنيّة في نظام فريد. ويُعتبر فِيلُون الإسكندريّ الذي عاصر يسوع والقدّيس بولس - بدون أن يعرفهما -، أشهرَ مَن مثّل هٰذا التيّار الفكريّ.

ففي فلسطين وفي الشتات نرى أن اليهوديّة طبعت الكنيسةَ الناشئة بِسِمتها. ومع ذٰلك، تبدو هٰذه السمة بارزةً بوجهٍ شديدِ التفاوت بين قطاعٍ وآخر من المسيحيّة. وفي هٰذا الخصوص، يمكننا أن نميِّز نموذجَين أساسيّين في المسيحيّة القديمة.

نموذجان من المسيحيّة

النموذج الأوّل هو المسيحيّة التي من أصلٍ يهوديّ. إنبثقت من جماعة أورشليم القديمة وتجمّعت حول الاثني عشر وعلى رأسها يعقوب «أخو» الربّ. بقيت أمينةً، لا لِعدد من المفاهيم الموروثة من المجمع وحسب، بل خصوصًا لممارسة ما تفرضه الشريعة على نحوٍ تامّ، ولا سيّما في مظاهرها الطقسيّة. وإذا كانت هٰذه المسيحيّة تضمّ في الأساس أعضاءً من المؤمنين من أصلٍ إسرائيليّ، فقد سعت أيضًا، وبنجاحٍ أحيانًا، إلى استمالة أعضاء جدد آتين من الوثنيّة. وفي رسائل القدّيس بولس، والرسالة إلى أهل غلاطية خاصّةً، نرى الرسولَ في صراع مع هٰذه الدسائس «المتهوّدة» في قلب الجماعات التي أسّسها أو التي كان يُشرف عليها.

أمّا النّموذج الثاني فهو المسيحيّة التي من أصلٍ يونانيّ. وكان بولس أشهرَ وجوهها في الجيل الأوّل. والمسيحيّون من أصلٍ يونانيّ اعتبروا الشريعة ساقطةً ورفضوا الخضوع للممارسات الطقسيّة. ولٰكن يبدو أنّهم قبلوا، بوجهٍ عامّ إلى حدٍّ ما، الصيغة التوافقيّة التي تمّ التوصّل إليها في أورشليم في أثناء «المجمع الأوّل»،

والتي تُعرف بـ «المرسوم الرسوليّ». وكانت هٰذه الوثيقة تَفرض على جميع المؤمنين حدًّا أدنى من الواجبات الطقسيّة، كالامتناع عن أكل الحيوانات التي لم يُسحب دمُها أو تلك التي قُرِّبت ذبائحَ للآلهة، ومجموعةٍ من المحظورات التي تُنظِّم الحياة الزوجيّة والجنسيّة. وهٰذا «المرسوم الرسوليّ» الذي ظلَّ ساريَ المفعول في عهد نَضب فيه الانخراطُ اليهوديّ منذ أمدٍ بعيد، جعل من الكنيسة نوعًا ملطَّفًا من المسيحيّة المتهوّدة. أمّا المسيحيّة المتهوّدة المتشدِّدة، فقد وَجدت نفسَها تتحوّل تدريجًا إلى شيعةٍ، أو قُلْ إلى شيعٍ متنافسة تعيش عيشةً خاملة على هامش الكنيسة الكبرى، لأنّ علم اللاهوت توضّح في ما بعد وتنظّم شيئًا فشيئًا تبعًا للمقولات الفكريّة التي تَرتكز عليها الفلسفةُ اليونانيّة.

فالمسيحيّة التي من أصلٍ يونانيّ هي التي سادت آخرَ الأمر، وعلى الأقلّ في حوض البحر المتوسّط.

أمّا في الشرق السوريّ وبُلدان ما بين النهرين، فقد ظهر نموذجٌ من المسيحيّة يُعرف أحيانًا بأنّه مسيحيّ من أصلٍ يهوديّ. وكان هٰذا النموذج يَرفض الممارسات اليهوديّة، بلا شكّ، ويَبتعد عن المجمع، إلّا أنّه بقي متعلّقًا ببعض المقاييس التأديبيّة أو الطقسيّة المقتبسة من اليهوديّة، وبأطُرٍ فكريّة خاصّةٍ بالساميّين. وكان هٰذا النموذج حاضرًا في قلب الكنيسة الكبرى، فاستَخدم التعابير الآراميّة أو السريانيّة. وبعدما أُنكِرت أهمّيّتُه غالبًا في تاريخ الكنيسة القديمة، بَرزت في أيّامنا بوضوح أكبر، حتّى وإن لم يكن لها التأثير الذي تركه الفرع اليونانيّ اللاتينيّ في مصير المسيحيّة.

مِن الإسكندر إلى بَرْكُوخْبَه (Bar Cochba)

بعد أن أُلحقت فلسطين بالأمبراطوريّة الفارسيّة اعتبارًا من سنة ٥٣٨ق.م.، بقيت في حمايتها حتّى فتح الإسكندر ذي القرنين (٣٣٢ق.م.). ولمّا توفّي الإسكندر، أصبحت في سيطرة الملكيّات الهلّيستيّة، اللاجِئة في مصر أوّلًا، ثمّ السلوقيّة في سورية. وقد أثارت سياسةُ التّهلين الجذريّة، التي أطلقها أنطيوخُس الرابع أبيفانيُوس (١٧٥-١٦٤ق.م.) وأَتْبعَها بعدم تسامح هجوميّ في معاملة اليهود، حركةَ تمرُّد كبيرة. وكان قائد هٰذه الحركة، الوطنيّة والدينيّة في الوقت نفسه، الكاهن مَتّيا وابنه يهوذا الذي يُقال له المكّابيّ أي الطارق. ونالت فلسطين، في أعقاب هٰذه الثورة، استقلالها السياسيّ الفعليّ في ظلّ سلالة المكّابيّين (ويُدعَون أيضًا الحَشْمُونيّين، نسبةً إلى حشمون جدّ متّيا، وكانت سلالتهم مَلكيّة وكهنوتيّة مَعًا). ثمّ دخلت رُومة مسرحَ الأحداث مستفيدةً من الصراع على الخلافة. فاستولى پُومپيُوس على أورشليم سنة ٦٣ق.م. وفَقدت اليهوديّةُ كلّ حكمٍ ذاتيّ حقيقيّ.

إلّا أنّها احتفظتْ بعظيم كهنتها الذي كان يَخدم في الهيكل، من دون أن يكون له الواقع أيّ سلطة سياسيّة. وهِيرُودُس نفسه، مع كونه يَحمل لقب الملك، كان في الحقيقة واحدًا من أتْباع رومة، تمامًا كعظيم الكهنة، يراقبه والي سورية عن كثب.

ومن سنة ٦ إلى ٦٧ب.م.، أصبحت اليهوديّة في إدارة الولاة الرومانيّين المباشرة. وكان هؤلاء يقيمون عادةً في قيصريّة. أمّا في الأعياد اليهوديّة، فكانوا يصعدون إلى أورشليم ليتمكّنوا على وجهٍ أفضل مِن سحق أيّ عصيان محتمَل. ففي الواقع كانت الاضطرابات تتوالى وتستدعي دائمًا أعمال قمعٍ فظيعة.

وفي سنة ٦٦، وعلى عهد نيرُون، اندلعت ثورة شاملة فتمركزت في أورشليم إدارةٌ فرّيسيّة في غالبيّتها، إلّا أن سمعان بَرغِيُورا ويوحنّا الجِيْسكاليّ المتطرّفَين عارضاها واستوليا على الحكم. فأرسل نيرون جيشًا إلى الشرق بقيادة وِسْپَسْيانُس الذي أصبح أمبراطورًا في ما بعد. واعتبارًا من آذار (مارس) سنة ٧٠ حوصرت أورشليم، وأُحرق الهيكل في شهر آب (أغسطس). وفي سنة ٧١، احتفل طِيطُس ابنُ وسپسيانُس في رومة بالنصر الذي أحرزه. وبعد ستّين سنة، أُعِدّ لثورةٍ أخرى في ظروف غامضة، فاندلعت سنة ١٣٢ على عهد الأمبراطور هَدْرِيانُس بزعامة سمعان بركُوخْبَه الذي كان يدّعي أنّه المشيح. وأدّت إلى تحرير البلاد موقّتًا. غير أنّ الرومانيّين سرعان ما استعادوا السيطرة وانتهى التمرّد اليهوديّ إلى الكارثة، فدُمّرت أورشليم تمامًا، وشُيِّدت على أنقاضها مدينة وثنيّة حول معبدٍ مخصّص لجُوبِيتر كاپيتُولِينُس. فامّحت إسرائيل سياسيًّا وانتقلت المراكز الحيويّة في اليهوديّة إلى الجماعات الخارجيّة المقيمة في «الشتات».

الإسكندريّة

هي مدينة يونانيّة تقع في أقصى
الطرف الغربيّ من دِلتا النيل
مقابل جزيرة فارُس على شريط البرّ الضيّق
الذي يفصل البحر المتوسّط عن بحيرة المريُوط.
وكانت الإسكندريّة، التي أسّسها الإسكندر ذو القرنين
سنة ٣٣٢ق.م.، تعُدّ في القرن الأوّل من عصرنا مئات
الألوف من السكّان (ومن بينهم جماعة يهوديّة كبيرة).
وكانت المدينة الثانية في الأمبراطوريّة الرومانيّة.

لم تكن الإسكندريّة مدينةً بعيدة الشهرة فحسب، كرومة وأثينة والقسطنطينيّة، بل كانت تختصر حضارةً تتخطّى إطار مصر الجغرافيّ. ولمّا تُوفّي الإسكندر ذو القرنين، واقتسم خلفاؤه أمبراطوريّته، أصبحت عاصمةَ الأمبراطوريّة اللاجِيّة وكانت تشمل مصر وقيرينيَة وفلسطين (حتّى سنة ١٩٠ق.م.) وجزيرة قبرص وعدّة أراضٍ في آسية الصغرى. ولما توفّيت كليُوپاترة، سنة ٣٠ب.م.، أضحت مصر في يد أوغُسْطُس، وبالتالي في سيطرة الرومانيّين. وقد استثمرها الأمبراطور عن طريق مستخْدَمين خاصّين يخضعون لسلطة حاكم. وبقيت الإسكندريّة مقرّ الحكم المركزيّ والإدارة العليا: فكان كلُّ شيء ينطلق منها ويعود إليها، سواء أكان الأمر يتعلّق بالمال أم بالعدل أم بالشرطة أم بالجمارك... ولمّا كانت مفترقَ طُرقٍ دوليًّا، كان سكّانُها من أصول متنوّعة جدًّا، فكان العنصر المحلّيّ والعنصر الرومانيّ في مختلف أنحاء العالَم الهلّينستيّ يعيشان جنبًا إلى جنب وكثيرًا ما يشتبكان. وكانت تحرّكاتُ الجماهير والفتنُ كثيرةً، يزيد من خطورتها صُعوباتُ التموين أو الأوبئة. والجماعة اليهوديّة فيها كانت كبيرة. فاليهود الذين أقاموا في الإسكندريّة بعد مرور وقت قليل على تأسيسها، كانوا يقطنون بغالبيّتهم، في العهد الرومانيّ، في حيَّين من أصل خمسة أحياء من المدينة. ولم يكونوا يملكون حقّ المواطَنة الإسكندريّة، بل كان لهم ولايتُهم الخاصّة وماليّتُهم ومجلسُ شيوخ يتزعّمه أحد الولاة. وكانوا يؤلّفون جماعةً مستقلّة، رغم الاعتراف الرسميّ بها. غير أنّ العداء لليهوديّة لم يكن غائبًا. وكان اليهود في موقع وسط بين المجموعات المحلّيّة واليونانيّة. فغالبًا ما كانوا يتعرّضون لاعتداءات هٰذه المجموعة أو تلك. وكانت الإسكندريّة تقوم بدورٍ فكريّ مرموق، لأنّ التعايش بين عدّة مجموعات إتْنيّة كان يحمل على التنافس الخلّاق. فازدهرت العلوم والفنون والآداب والفلسفة. وفي الإسكندريّة تمكّن فِيلُون، وهو متحدّر من أُسرة يهوديّة كبرى، من إنجاز مؤلّفه الفلسفيّ واللاهوتيّ. ومنذ العهد الهلّينستيّ، واصلت المدينة عَمَل آثينة، فأكسبها متحفُها ومكتبتُها الغنيّةُ بـ ٥٠٠,٠٠٠ كتاب، وحيث كان يعمل العلماءُ والكتّاب الذين تعُولُهم الدولة، شهرةً لا مثيل لها في ذلك العصر.

إلتقاء حضارات ثلاث

ملخَّص زمنيّ

العالَم اليونانيّ

أحدثَ موتُ الإسكندر ذي القرنين سنة ٣٢٣ انقلابًا في العالم القديم، واقتسمت المَلكيّات الهلّينستيّة أمبراطوريّته. وخسرت أثينة تفوُّقَها الفكريّ لحساب الإسكندريّة التي ازدادت شهرتها العلميّة والأدبيّة ترسُّخًا: فكان عصر الرياضيّ أقليدِس والفيزيائيّ أرخميدِس والشاعرين ثِيُوكْرِيتِس وكاليماخُس.

وفي القرن الثاني (ق.م.)، احتلّت رومة العالَمَ اليونانيّ تدريجيًّا وحلّ العصر اللاتينيّ محلّ العصر الإسكندريّ. ولم يعد اليونانيّون يضعون سوى مؤلّفات قليلة الشأن. أمّا اللاتينيّون فقد حاولوا تقليد كبار الأدباء اليونانيّين في القرن الرابع، وكَتَب هُوراسِيُوس: «اليونان المغزُوّة تغزو غالِبَها الفظّ». وفي نهاية القرن الأوّل بعد المسيح، خفّت الخصوصيّات الثقافيّة. فقد تخرّج پلُوتارْخُس (٥٠-١٢٥ تقريبًا) في أثينة، ثمّ سافر إلى رومة ومصر. وكان يصِفُ الطباع ويؤلِّف في الأخلاق، فجمَع في كتابَيه **الأخلاق** و**السِّيَر المتوازية** تراجمَ اليونانيّين والرومانيّين.

أمّا أَبِقْطِيطُس (Epictète) (٥٠-١٣٠ تقريبًا) فكان يمثِّل فكرًا أكثر ابتكارًا. فقد وُلِد في اليونان، ثمّ نُقل أسيرًا إلى رومة حيث أُعتِق وأصبح فيلسوفًا. وكان، مع اللاتينيّ سِينِيكا والأمبراطور مَرْقُس أورِيلِيُوس (١٢١-١٨٠)، واحدًا من أشهر ممثِّلي المذهب الرواقيّ.

العالَم الرومانيّ

أتمّت رومةُ الاستيلاءَ على الأراضي الإيطاليّة سنة ٢٧٢ق.م. وأقام الرومانيّون علاقةً باليونانيّين المقيمين في جنوب إيطاليا. فشعروا بجهلهم وعمدوا على التعويض عن تأخّرهم.

فالمسرح اللاتينيّ أبصر النور مع الهزليّات الشعبيّة التي كتبها ممثِّلٌ خرج من صفوف الشعب، هو پْلَوطُس (Plaute). وبعد ذلك بقليل، كتب تِيرِنْتِيُوس (Térence)، وهو عبدٌ سابق جاءَ من قرطاجة، مسرحيّات هزليّة في الطباع موجّهة إلى جمهور مثقّف.

أمّا لُوقْرِيتِيُوس (Lucrèce)، وهو مفكّر مادّيّ وتلميذٌ لأبِيقُورُس (Epicure)، فقد اختار أنّ يعبِّر شعرًا عن فلسفته المبنيّة على الطبيعة.

والخطيب المثاليّ، شِيْشَرون، طهّر اللغة اللاتينيّة وطعّمها بمفردات فلسفيّة، كما حاول أن يوفّق بين نظريّاتِ مختلف المدارس اليونانيّة، ليستخلص منها أخلاقيّةً عمليّة ومدنيّة. فجاءَ تأثيره الأدبيّ بعيدًا جدًّا. وتُعتبَر مؤلّفاتُ صديقه ڤارون الأربعة والسبعون مَنهل معارف استقى منه العلماء، ولا سيّما آباء الكنيسة ومنهم القدّيس أوغسطينُس. وشكَّل مع طِيطُس لِيڤُس وأوڤِيدِيُوس (في **التقاويم**) مرجع معلوماتنا الأساسيّ حول الديانة الرومانيّة. أمّا يُولِيُوس قيصر فقد أرّخ هو نفسه مغامَرَته السياسيّة الشخصيّة.

وفي نهاية القرن الأوّل قبل المسيح، وحّد أوغُسطُس الأمبراطوريّة الرومانيّة، فكان «عصر أوغسطس» في أوجه. وفي الشعر، كان أوڤيديوس رائدَ المرثاة، وڤِرجِيلِيُوس رائد الملحمة وهُوراسِيُوس رائد الشعر الفلسفيّ. وقد أشاد هوراسيوس بالأبِيقُوريّة (Carpe diem: إجنِ النهار كما يحضُرك). في حين كان سِينِيكا داعيةً غيورًا للرواقيّة. وكان هٰذا الفيلسوف الذي عاصر المسيح مرشدًا روحيًّا يهتمّ لـ«خير الإنسان الأعلى». وقد حظيت إنسانيّته وردُّ فعله على سعي محيطه إلى الراحة المادّيّة بإعجابِ كبيرٍ من المسيحيّين. وكان مربّي نَيرُون، وقد أجبره تلميذُه السابق على الانتحار، فمات برباطة جأش تليق بالرواقيّة التي بشّر بها طوال حياته.

أمّا المؤرّخ طِيطُس لِيڤُس فقد وضع صورةً مجيدة عن ماضي رومة. وفي نهاية القرن الأوّل، بدأ مؤرِّخ آخر، وهو تاقِيطُس (Tacite)، بتشخيص أعراض الانحطاط الرومانيّ الأُولى.

العالَم اليهوديّ

وبين نهاية القرنين الرابع والثاني قبل المسيح، نُقلت نصوص الكتاب المقدّس إلى اللغة اليونانيّة لفائدة الجماعات اليهوديّة المقيمة في الشتات، ولا سيّما في الإسكندريّة. لا نعرف شيئًا عن أصحاب هٰذه الترجمة، في حين تَذكر الأسطورةُ أنّ سبعين حكيمًا قاموا بها في سبعين يومًا - ومن هنا اسمها: الترجمة السبعينيّة. وقد تبنّى المسيحيّون، ومعظمهم يتكلّمون اليونانيّة، تلك الترجمة السبعينيّة وأضافوا إليها مجمل العهد الجديد في بداية القرن الثاني من عصرنا.

وفي سنة ١٩٨ق.م.، خضعت فلسطين لسيطرة الحكّام السوريّين. وحاول أنطِيُوخُس الرابع جاهدًا أن

يفرض على اليهود العادات والديانة اليونانيّة. وغدت ممارسة الدين اليهوديّ تستوجب الموت. وفي سنة ١٦٨ اندلعت الثورة اليهوديّة التي يقال لها ثورة المكّابيّين. وكُتب سِفْر دانيال باسم مستعار في الخفاء أيّام الاضطهاد المظلمة، وحثَّ اليهود على التحرّك. فتحرّرت أورشليم، ومات أنطيوخس الرابع سنة ١٦٤. وحوالى سنة ١٥٢ق.م.، انتظمت جماعة قمران. وبفضل مخطوطات البحر الميت، التي عُثر عليها سنة ١٩٧٤، تمكنّا أن نعرف، على نحوٍ أفضل، شيعة الأسّينيّين وهم رهبان متشدّدون كانوا يعيشون منعزلين «في البرّيّة»، ويَعتبرون أنفسهم «بقيّة» إسرائيل الطاهرة الوحيدة.

وقد حاول فِيلُون، معاصر المسيح والمتحدّر من أُسرة يهوديّة شريفة من الإسكندريّة، أن يربط بين الوحي الكتابيّ والفلسفة اليونانيّة. وهو لم يَعرف يسوع أو تلاميذه، إلّا أنّ مؤلّفه كُتِبَ له البقاءَ بفضل المسيحيّين وقد ترك فيهم أثرًا عميقًا.

أمّا المؤرِّخ فلاڤِيُوس يُوسِيفُس فقد وُلد بعد موت المسيح في عائلة كهنوتيّة عريقة من أورشليم. وبعد أن تلقّى تعليمه عن يد معلِّمِي أهمّ الشيع اليهوديّة، اختار الحزب الفرّيسيّ في التاسعة عشرة من عمره. ثمَّ التزم سياسيًّا وشارك في الثورة اليهوديّة سنة ٦٦. وبعد مقاومة عنيفة، استسلم لِوِسْپَسْيانُس، فحماه الأمبراطوران وسپسيانُس وطِيطُس وتبنّى اسمهما (فلاڤِيُوس). وشهد، من المعسكر الرومانيّ، سقوط أورشليم ثمّ أقام في رومة - ويُعتبر مؤلّفه شاهدًا فريدًا وقيّمًا للسنوات الأخيرة من عمر الدولة اليهوديّة القديمة.

الحضارات الثلاث في إزاء التاريخ العالميّ

لوحة زمنيّة

معالم من التاريخ العالميّ	الحضارة اليونانيّة واللاتينيّة	العالم اليهوديّ والمسيحيّ
	٣٣١ تأسيس الإسكندريّة	
موت الإسكندر ذي القرنين نشأة الملكيّات الهلّينستيّة	٣٢٣ زينون القيسيُونيّ (de Cittium) (٣٣٢-٢٦٢ق.م.) مؤسّس المذهب الرواقيّ أوقليدس (٣١٥؟-٢٤٠؟ق.م.)	
	٢٧٠ موت الفيلسوف أبيقُورُس رومة تدخل في علاقة باليونانيّين في إيطاليا الجنوبيّة	
	أرخميدس (٢٨٧-٢١٢ق.م.)	٢٥٠ بدء ترجمة الكتاب المقدّس إلى اليونانيّة في الإسكندريّة
	پلوطُس (٢٥٤-١٨٤ق.م.)	
أنطيوخس الرابع ملكًا على سورية	١٧٥ تيرنتيُوس (١٩٠-١٥٩ق.م.)	١٧٥ محاولة تهلين فلسطين نحو ١٦٧ ثورة المكّابيّين نحو ١٦٥ سِفر دانيال نحو ١٥٠ نشأة الشيع اليهوديّة: الصدّوقيّون والفرّيسيّون والأسّينيّون
	١٠٠ ڤينُوس مِيلُو ڤارّون (١١٦-٢٧ق.م.) عالم موسوعيّ شيشرون (١٠٦-٤٣ق.م.)	
حملات پُومپيُوس في الشرق	٦٣ لُوقريتيوس (٩٩-٥٥ق.م.)	٦٣ پومپيوس يستولي على أورشليم
يوليوس قيصر يسحق پومپيوس في فارسال	٤٨	
مقتل يوليوس قيصر	٤٤ ڤرجيليُوس (٧٠-١٩ق.م.) هوراسيوس (٦٥-٨ق.م.) طيطس ليڤس (٥٩ق.م.-١٧ب.م.) أوڤيديوس (٤٣ق.م.-١٧ب.م.)	٤٠ رومة تعيّن هيرُودُس ملكًا على اليهوديّة
أقطاڤيوس يحمل اسم أوغسطس تأسيس الأمبراطوريّة الرومانيّة الرومانيّون يحتلّون مصر احتلالًا نهائيًّا	٢٧	
	٤ مولد الفيلسوف الرواقيّ سِينيكا	٤ ميلاد يسوع[2]
موت أوغسطس في السادسة والسبعين من عمره وطيباريُوس أمبراطورًا في السادسة والخمسين من عمره.	١٤	

(٢) يُعتقد عمومًا أن يسوع ولد قبل موت هيرودس الكبير (٤ق.م.) وهناك دلائل مستوحاة من أناجيل الطفولة تمكّننا من القول بذلك، إذ إنّ مقتل الأبرياء مثلًا ينسبه متّى إلى هيرُودس. أمّا تاريخ موت المسيح، فهناك إجماع على تحديده في حوالى السنة ٣٠ب.م.

معالم من التاريخ العالميّ (تابع)	الحضارة اليونانيّة واللاتينيّة (تابع)	العالم اليهوديّ والمسيحيّ (تابع)
		٢٦ بُنْطِيُوس بِيلاطُس حاكم اليهوديّة
		٣٠ صلب يسوع
	فيلون الإسكندريّ (١٣ق.م.-١٠٠ب.م.)	
		٣٧ استشهاد إسْطفانُس، اهتداء بولس
الرومانيّون يستولون على جنوب إنكلترا	٤٣	
	٤٦ مولد بِلُوتارْخُس	
انتصارات رومانيّة في جرمانيا	٤٩	٤٩ مجمع أورشليم
	٥٠ مولد الفيلسوف الرواقيّ أبقطيطس	٥٠ رسالتا بولس الأولى والثانية إلى أهل تسالونيقي
نيرون أمبراطورًا في السابعة عشرة من عمره	٥٤	
	٥٧ مولد تاقِيطُس	٥٧ رسائل بولس إلى أهل غلاطية وأهل قورنتس وأهل رومة وأهل فيلبّي
		٦٠-٦٢ رسائل بولس إلى أهل أفسس(؟) وأهل قولسّي وإلى فيلمون
حريق رومة	٦٤	٦٤ اضطهاد مسيحيّي رومة واستشهاد بطرس وبولس
	٦٥ موت سينيكا	٦٥؟ إنجيل مرقس (في رومة؟)
انتحار نيرون في الحادية والثلاثين من عمره	٦٨	٦٨ فلاڤيوس يوسيفُس (٣٧-١٠٠ب.م.)
وسپَشيانُس يقمع الثورة اليهوديّة في فلسطين	٧٠	٧٠ سقوط أورشليم
		٧٠؟ إنجيل لوقا وأعمال الرسل (في أنطاكية؟)
دُومِيتِيانُس أمبراطورًا في الثلاثين من عمره	٨١	٨١؟ إنجيل متّى (في فلسطين؟)
دُومِيتِيانُس يضطهد المسيحيّين	٩٥	٩٥؟ إنجيل يوحنّا (في أفسس؟) تحرير الرؤيا

الفصل الثاني

العَنْصَرة
ولادة الكنيسة

بقلم جان پُوتان (*)



«ولمّا أتى اليوم الخمسون،
كانوا مجتمعين كلّهم في مكان واحد، فانطلق من السماء بغتةً دويٌّ كريحٍ عاصفة،
فملأ جوانبَ البيت الذي كانوا فيه،
وظهرت لهم أَلْسِنة كأنّها مِن نار قد انقسمت فوقفَ على كلٍّ منهم لسان،
فامتلأُوا جميعًا من الروح القدس،
وأخذوا يتكلّمون بلُغاتٍ غير لغتهم،
على ما وَهب لهم الروحُ القدس أن يتكلّموا.
وكان يُقيم في أورشليم يهودٌ أتقياء من كلّ أمّة تحت السماء.
فلمّا انطلق ذلك الصوت، تجمهر الناس وقد أخذتهم الحيرة،
لأنّ كلًّا منهم كان يسمعهم يتكلّمون بلغة بلده.
فدهشوا وتعجّبوا وقالوا: «أليس هؤلاء المتكلّمون جليليّين بأجمعهم؟
فيكف يَسمعهم كلٌّ منّا بلغة بلده

(*) Jean Potin، من مفسّري الكتاب المقدّس.

بين فَرثيّين ومِيديّين وعَيْلاميّين وسكّان الجزيرة بين النهرين واليهوديّة وقَپَّدُوقِية وبُنطُس وآسية
وفَرِيجيَة ويَمْفِيلِيَة ومصر ونواحي لِيبية المتاخمة لِقيرين،
ورومانيّين نزلاء هٰهنا مِن يهود ودخلاء وكريتيّين وعرب؟
فإنّنا نسمعهم يحدّثون بعجائب الله بلغاتنا».
وكانوا كلّهم دهشين يقول بعضهم لِبعض:
«ما معنى هٰذا؟» على أنَّ آخرين كانوا يقولون ساخرين: «قد امتلأوا من النبيذ». **(رسل ٢/ ١-١٣)**

أورشليم، بعد عيد الفصح بخمسين يومًا. - وكلمة پِنْتيكُوسْتِي اليونانيّة تعني «اليوم الخمسين» -. كان ذٰلك اليوم عيد الحصاد أو العنصرة. وكان الرسل مجتمعين في أحد بيوت المدينة. . . وكانت الساعة الثالثة، أي التاسعة صباحًا **(رسل ٢/ ١٥)**. هٰذا هو الإطار الذي وضعه لوقا في سفر **أعمال الرسل** ليتحدّث عن ولادة الكنيسة، بعد مرور نحو خمسين سنة على «الحدث». أراد لوقا أن يضع مؤلَّفًا تاريخيًّا، وقد عبّر عن هٰذه الرغبة في **(لو ١/ ٣)**، وكتاباته تشهد على ذٰلك. ويُعتبر سِفرُ **الأعمال** مصدرنا الأساسيّ حول بدايات الكنيسة.

ومع ذٰلك، لا يجوز أن يُقرأ كمجرَّد أخبارٍ تاريخيّة. فإنّ رواية العنصرة، مثلًا، تَظهر وكأنّها تنقل الحدث كما عاشه الشهود، أي الرسلُ في الداخل وسكّانُ أورشليم الذين اجتذبَهم الدويُّ في الخارج. وتبدو الرواية، حتّى مشهد الألسنة الناريّة التي حطّت على الرسل، وكأنّها تحقيق صحافيّ، حتّى كثر عددُ الرسّامين الذين تأثّروا بقوّتها فحاولوا نقلها، مجسّدين الألسنة الناريّة بدقّةٍ بالغة يصعب علينا معها أن نتخطّى الصورة لندرك معناها.

«يتكلّمون بلغات غير لغتهم»

من الواضح أنّ لوقا لم يُرد أن يشدّد على تلك الألسنة الناريّة، فهي لم تكن في نظره، وفي نظر قرّائه، سوى تعبير مصوَّر يشير إلى الموهبة التي حصل عليها الرسل، موهبة «التكلّم بلغات غيرِ لغتهم».

وكانت تلك العطيّة وعدًا للمستقبل: فلن تكون العبريّة لغة الكنيسة، وسيُعْلَن الإنجيل إلى كلّ شعب بلغة بلده. هٰذا ما أراد لوقا أن يوحي به. وبعد هٰذا اليوم سيستطيع جميع شعوب الأرض، الممثَّلين في أورشليم بالحجّاج الآتين من جماعة الشتات اليهوديّ، أن يَسمعوا الإنجيل: وهو يصل إليهم من خلال ثقافتهم الخاصّة. وحين كَتب لوقا تلك «الرواية»، في حوالى السنة ٨٠، كان للكنيسة خمسون سنة من الخبرة الرسوليّة، وقد انتشرت في معظم المدن الكبرى في حوض البحر المتوسّط. ولا شك في أنّ الأكثريّة العظمى من الشعب اليهوديّ رفضت الإنجيل، وتمّ تدمير أورشليم، تلك المدينة التي وُلدت فيها المسيحيَّة. . . لٰكنّ الكنيسة، من رومة، عاصمة الأمبراطوريَّة، واصلت مسيرتها نحو الشعوب البربريّة. فنشأت الجماعات في كلّ مكان، وشهدت كلّها لعمل روح الله في الكنيسة.

العنصرة عيدُ ولادةٍ مزدوجة

كيف وُلدت تلك الكنيسة التي تمّ انتشارها في عالم البحر المتوسّط؟ لا يمكن، في نظر لوقا، أن تكون مِن صنع أولٰئك الرجال المختبئين في العلّيّة خوفًا من اليهود، بل إنّها ولدت من روح الله، كما وُلد الشعب الإسرائيليّ القديم من الله، لا من موسى. وأراد لوقا أن يوضح استمراريّة التدبير الإلٰهيّ، فربط بين خلق الكنيسة وخلق إسرائيل، مضيفًا بذٰلك إلى موضوع ولادة الكنيسة وجوهًا جديدة.

كان العبرانيّون في مصر يرزحون تحت أذلّ أنواع العبوديّة، فحرّرهم الله منها، وهو الذي جعل منهم في الواقع شعبًا حقيقيًّا. ففي اليوم الذي أقام الله عهدًا مع العبرانيّين على جبل سيناء، في وسط البروق والرعود، وأظهر لهم، من خلال الشريعة التي أعطاهم إيّاها، الطريق الذي يقودهم إلى حياة حقيقيّة، في ذٰلك اليوم وُلد إسرائيل حقًّا.

وبتلك الولادة كان يحتفل اليهود يومَ العنصرة (منذ القرن الثاني قبل المسيح، على ما يبدو).

والحال أنّ يوم العنصرة هٰذا هو، بحسب ما ورد في لوقا، يوم ولادة شعب الله الجديد، وهو سيَجمع البشريّةَ بأسرها، أي كنيسة المسيح المؤتمَنة على مواعد الله...

والشعب الجديد هذا، رافَق ولادتَه كما في سيناء، نارٌ ودويٌّ وزلزلةٌ أرضيّة. ذٰلك بأنّ لوقا تناولَ العناصر الروائيّة التي استُخدمت في سِفر **الخروج** (١٩/١٦-١٨). وأدخل أيضًا في وصفه حادثًا يعود إلى تقليدٍ يهوديّ حديث، هو الدعوة التي وجّهها الله إلى جميع شعوب الأرض عند سفح جبل سيناء، حيث تحدَّث إليهم بلغتهم، عارضًا عليهم الشريعة، غير أنّهم جميعًا رفضوا الدعوة، ما عدا إسرائيل. وفي سِفر **الأعمال**، جدَّد الله دعوتَه من خلال تبشير الرسل وكلَّم جميع الشعوب ثانيةً بلغتهم. ويَظهر مِن اهتداء الشعوب الوثنيّين إلى الإنجيل ودخولهم بأعدادٍ ضخمة الكنيسة أنّ رغبة الله في جمع الشعوب كلّها في وحدة الإيمان بالمسيح بدأت تتحقّق بعد اليوم.

الروح القدس، العامل الأكبر

وبَنى لوقا روايتَه على نحوٍ تُبرز فيه جميعُ عناصر الوصف، المقتبَسة من التقاليد الكتابيّة واليهوديّة، دورَ الروح القدس. فمِن الروح تنبثق شموليّةُ الكنيسة وديناميّتُها الرسوليّة. فلولاه لما كَفَى سخاءُ الرسل وحماستُهم... ولم يتوقّف لوقا طويلًا على وصف التطوّر النفسيّ الذي طرأ على المرسَلين الجدد. فقد تحوّلوا فجأةً وجذريًّا بفعل تدفّق الروح في قلوبهم، كما جرى لبولس على طريق دمشق. وجَعل لوقا حلولَ الروح يومَ العنصرة، أي بعد مرور خمسين يومًا على الاحتفال بالفصح، ولا شكّ في أنّه فعل ذلك إشارةً إلى معنى العيد في الليتُرجية اليهوديّة، عيدِ ولادةِ شعب الله.

أمّا يوحنّا فيبدو أنّه جعل هٰذا الحلول مساءَ عيد الفصح، حين تراءَى المسيحُ القائم من الموت لتلاميذه وقال لهم: «خذوا الروح القدس» (٢٠/٢٢)... ولٰكن لا أهمّيّة لتحديد اليوم والساعة. فمن الراجح أنّ لوقا فضّل أن يصوِّر في مشهدٍ واحد وفي إطار اليوم نفسه ولادةَ الجماعة المسيحيّة الأُولى في أورشليم ونموّها. فيُضفي بذٰلك على «الحدث» قوّةً أعظم وحضورًا أكبر، مع أنّ بقيّة سِفر **الأعمال** ستُظهر الصعوبات التي سوف تعترض انتشار الكنيسة لأنّه سرعان ما عارَضَتْها السلطاتُ الدينيّة اليهوديّة.

على كلّ حال، كان أهمّ ما في الموضوع أن يَفهم الجميع أنّه ما مِن شيء يقدر أن يعرقل انتشار الكنيسة إلى أقاصي الأرض، حتّى ولا أعنف الاضطهادات، لأنّ روح الله الذي حلّ على الرسل في يوم الكنيسة الأوّل سيواصل عمله في رسل المسيح إلى نهاية العالم.

الشتات

إلى متى ترقى ظاهرةُ التشتّت اليهوديّ أو «الشتات»؟ لقد تضاعفت، ولا شكّ، عند زوال إسرائيل سياسيًّا سنة ١٣٥ب.م. (عندما قمعت روما تمرُّد بَرْكوخبه). ولكن، قبل ذٰلك العهد بكثير، اجتاز بعضُ اليهود حدود فلسطين وأقاموا في أرضٍ غريبة. فمنذ سنة ٨٥٠ق.م.، أُنشئت جالية إسرائيليّة في سورية بمنطقة دمشق (١مل ٢٠/٣٤). فللظاهرة إذًا جذورٌ بعيدة.

وإن كان هٰذا المنفى اختياريًّا في بعض الأحيان، فقد كان مفروضًا في أكثر الأوقات. ففي سنة ٧٢٢، قام الأشوريّون، ومِن بعدهم البابليّون سنة ٥٨٦، بجلاء اليهود

إلى بلاد ما بين النهرين. وعندئذ، تكوّنت جماعاتٌ على ضفاف الفرات، في حين توصّل العديد من الإسرائيليّين إلى الفرار والإقامة في مصر. وفي وقت لاحق، في القرن الأوّل ق.م. قمع المستعمِرون الرومانيّون بقسوة الثورات التي اندلعت في إسرائيل. وسِيق كثيرٌ من اليهود عبيدًا، فزادوا أعداد الجماعات الإسرائيليّة التي كانت تقيم في إيطالية وإسپانية وسردينية. ثمّ تمَّ إعتاقُ معظم هؤلاء الأسرى أو افتداؤهم عن يد إخوتهم اليهود، مطبِّقين بذٰلك التعليمَ الدينيّ القاضي بـ«افتداء الأسرى».

وفي مطلع عهد الأمبراطوريّة الرومانيّة، كان عدد المشتَّتين نحو ثلاثة ملايين يهوديّ. وكانت مصر واليونان وبلاد ما بين النهرين تضمّ كبرى الجماعات، إذ إنّ جماعة الإسكندريّة وحدها كانت تتجاوز المائة ألف يهوديّ، في حين بلغ عدد جماعة رومة خمسين ألفًا.

وكان اليهود، منذ أيّام يوليوس قيصر، يتمتّعون بنظام شرعيّ يضمن لهم بعض الحرّيّات. فلم يُجبَروا على أداء العبادة للأمبراطور، ونالوا حصّتهم من توزيعات القمح والزيت العامّة.

وكان على رأس كلّ جماعةٍ مجلسُ شيوخ (كهنة) فَوَّض سلطاتِه إلى بعض أعضائه المسؤولين (أراخنة). وكان المؤمنون يجتمعون للصلاة والتعليم في مجامع (كانت تدعى «مصلّيات» في رومة).

كان اليهود غارقين في العالم الوثنيّ، ولٰكنّهم لم يعيشوا فيه منغلقين على أنفسهم. فكانوا يتكلّمون اليونانيّة ويقرأونها، وكان بعضُ كتّابهم، كفيلُون الإسكندريّ، يضعون مولَّفاتهم باليونانيّة. وعلاوةً على ذٰلك، كان الإيمان يدفع المؤمنين إلى نشر دينهم، فاسترعى انتباهَ طبقات المجتمع الوثنيّ كلّها. لٰكنّ الذين خصّوا المرسلَين بأفضل استقبال هم عامّةُ الشعب والعبيدُ المعتَقون.

هٰذا، وإنّه سرعان ما قامت منافسة رسوليّة بين المسيحيّين واليهود، وكلّهم حريصون بالقدر نفسه على هداية الوثنيّين...

الانتشار المسيحيّ

يا للغرابة! فإنّ الانتشار المسيحيّ لم يبدأ من أورشليم، بل، في الواقع، من أنطاكية سورية. لا شكّ في أنّ الجماعة المسيحيّة في أورشليم كانت شموليّة، في مبدإها على الأقلّ، إذ إنّ يسوع كان شموليًّا. إلّا أنّ تقواها التقليديّة كانت تربطها دائمًا بالهيكل، وكانت تميل إلى الاستئثار بالإنجيل لحساب اليهود وحدَهم. ولم يقم بعضُ المسيحيّين من أورشليم، ممّن أبعدهم الاضطهاد، بتبشير المناطق المجاورة والتسليم بالتوجّه إلى الوثنيّين، إلّا بعد رجم إسطِفانُس.

أمّا كنيسة أنطاكية فقد بدت أكثر إقدامًا، إذ إنّها كانت أولى مَن قام بعملٍ رسوليّ نظاميّ، وأولى مَن أفرد «مرسَلين» دائمين، أوفِدوا إلى الوثنيّين وموَّلتهم الجماعة. وكان الرسول بولس أحد هؤلاء «المرسَلين الدائمين». فمِن أنطاكية انطلقت رحلاته دائمًا وإلى أنطاكية عادت. وبفضل نشاطه، استمالت المسيحيّةُ كبارَ مدن آسية الصغرى واليونان ومرافئها.

واستند الانتشارُ المسيحيّ الأوّل هٰذا إلى الجماعات اليهوديّة، المقيمة في الشتات، فكان المَجْمع، في كلّ مدينة، الإطارَ المفضَّل للتبشير الرسوليّ. وإليكم مثلًا غريبًا: فإذا حرص بولس، في رحلته الأُولى، على الصعود إلى أنطاكية بِسِيدِيَة، وهي قرية منعزلة في الجبل، فلأنّ فيها أحد المجامع. وهٰذا الاختيار لا يعود إلى سببٍ عمليّ وحسب، (علمًا بأن المجمع يوفّر قاعة اجتماعات مناسبة تمامًا)، بل إلى سببٍ لاهوتيّ أيضًا. فعلى غِرار ما فعل يسوع، كان بولس يبدأ بتبشير الشعب المختار. وإنْ قَبِل اليهودُ رسالته، استخدمهم لهداية الوثنيّين. وإنْ رفضوا الاستماع إليه، تحوّل بولس نحو الغرباء (راجع **رسل ١٨/ ٥-٧**).

وفي الواقع، كان المسيحيّون الآتون من الدين اليهوديّ أو من أيّ دين آخر، لا يلبثون أن يصطدموا بِعِدائيّة اليهود. فعلى الصعيد الدينيّ، اعتُبر بولس في عداد الخصوم لأنّه كان يدعو إلى التحرير من الشريعة اليهوديّة. وعلى الصعيد السياسيّ، مثّل المسيحيّون خطرًا داهمًا: ذٰلك بأنّ الرومانيّين كانوا يعتبرونهم أعضاءَ شيعة يهوديّة. فكان يُخشى، في أيّ لحظة، أن يعرِّضوا للخطر أوضاعَ اليهود الشرعيّة والمدنيّة.

أمّا الجماعات المسيحيّة فتخلّت بصراحةٍ متزايدة عن تضامنها مع يهوديّةٍ ازدادت حدّةُ قوميّتها وتعصّبها. وتأثّر اليهود بالغيورين، فهاجموا بولس ولم ينجُ منهم إلّا بشقّ النفس. وفي سنة ٤٤، أُعدم يعقوب أخو يوحنّا. وسنةَ ٦٢، قُتل يعقوب «أخو» الربّ (خليفة بطرس على رأس كنيسة أورشليم)... وعندما أدّت الحربُ اليهوديّة التي شُنَّت على المحتلّ الرومانيّ إلى سقوط أورشليم سنةَ ٧٠، هاجرت الكنيسة الفلسطينيّة كلُّها إلى الشرق. وبقيت المسيحيّة الشرقيّة هذه، المتحدّرة من جماعات مؤلّفة في الأساس من يهود

مهتدين، شديدةَ التأثّر بجذورها المسيحيّة من أصلٍ يهوديّ. وهي تختلف إلى حدٍّ بعيد عن المسيحيّة من أصلٍ وثنيّ، التي نشأت في أنطاكية ونمت في حوض البحر المتوسّط. ولٰكن، إلى أين وصل الانتشار المسيحيّ في أثناءِ القرن الأوّل هذا؟ لا جَرَمَ أنّ المسيحيّة انتشرت في إيطالية، وفي رومة خاصّة: أفلم يُقْدِم نيرون سنة ٦٤ على قتل بضع مئات من المسيحيّين (سبعمائة على الأرجح)؟ علمًا بأنّه يجوز لنا أن نفترض أنّ عددًا منهم استطاع الإفلاتَ من يدِ الشرطة الرومانيّة. وفي بلاد الغال، ليس لنا شاهد على الوجود المسيحيّ حقيقةً إلّا في القرن الثاني. لٰكن من المحتمل أن يكون «قد حصل شيءٌ ما» في منطقة لِيُون. وكذٰلك في إسبانيا. فهل يُعقل أن يتحدّث بولس عن السفر إليها (روم ١٥/ ٢٤) إنْ لم يَدْعُه أمرٌ ما إلى ذٰلك؟ أمّا إفريقية فتبقى لنا لغزًا. ولم تطأ المسيحيّة أرضَ أفريقيا الشماليّة إلّا في القرن الثاني، بيد أنّها كانت حاضرة، ولا شكّ، في مصر حيث كانت جماعاتها في نشأة الكنيسة القبطيّة. ولماذا لا نعرف شيئًا عن الجماعة المسيحيّة في الإسكندريّة في القرن الأوّل، في حين ظهرت فيها فجأةً، مع بداية القرن الثاني، كنيسةٌ كبيرة أصيلة في أعماقها؟ فهل يعود ذٰلك إلى تلك الأصالة نفسها؟ وهل اعتَبرت الجماعاتُ الأُخرى المجتمعَ المسيحيّ هذا هرطوقيًّا؟ أم إنَّ الأحداث السياسيّة في فلسطين - الحرب اليهودية سنة ٧٠ - قطعت كلّ اتصال بين الإسكندريّة والكنائس الشقيقة؟ هٰذا أمر ممكن. ولٰكن لا نفهم تمامًا كيف وُجدت في مصر، في القرن الأوّل، نصوص من إنجيل يوحنّا مكتوبة على ورق البرديّ. هٰذه النصوص تُثْبِت بوضوح قيام علاقات منتظمة بين أفسس والإسكندريّة في تلك الحقبة. علمًا بأنّ أبُلّس، رفيق بولس، كان إسكندريَّ الأصل.

ومهما يكن من أمر، لم يبقَ على المسيحيّة، في نهاية القرن الأوّل، إلّا أن تبلغ أفريقيا الشماليّة حتّى تشمل مجمل البلدان التي تحيط بالبحر المتوسّط.

بقلم موريس كارّه Carrez، **أستاذ في كلّيّة اللاهوت البروتستانتيّة - باريس**

الفصل الثالث

المسيحيّون الأوائل وحياتُهم اليوميّة

بقلم أنّي جُوبِير(*)

من هم المسيحيّون الأوائل؟ أأغنياءَ كانوا أم فقراء؟
وهل كانت جماعاتهم كثيرة؟ وأين كانت تُعقد اجتماعاتها؟
وهل كان للنساء فيها مكانة تفوق ما لهنّ مكانة في أيّامنا؟
ماذا نعرف عن المعموديّة والإفخارستيّا
في تلك السنين الأُوَل من حياة الكنيسة؟
وأيًّا كانت ميزة الإيمان الأساسيّة عند المسيحيّين الأوائل؟

من هم المسيحيّون الأوائل؟

نحن على يقين مِن أنّ المسيحيّين الأوائل لم يأتوا كلّهم من محيطٍ واحد. فمنهم من كانوا يهودَ مؤمنين يتردّدون إلى الهيكل. ومنهم من كانوا ينتمون إلى مجموعات أبعدَ عن الدين القويم، كانت تعيش على هامش الهيكل والدين اليهوديّ الرسميّ (فكان يسهل عليهم أن يلتحقوا بإحدى الحركات المنشقّة). وأخيرًا، كان هناك فئة ثالثة تنتمي إلى جماعاتٍ يهوديّة تعيش في الخارج (في الشتات)، فكانوا يحجّون إلى أورشليم ويَسمعون الكرازة المسيحيّة الأُولى، ثمّ يعودون مقتنعين بأنّ المسيح قد جاء. وممّا لا شكّ فيه أنّ جميع المسيحيّين الجدد في أوّل عهد المسيحيّة كانوا يهودَ، حتّى أولٰئك الذين ندعوهم «هلّينستيّين» والذين، رغم كونهم يهود، كانوا ذوي ثقافة يونانيّة ويتكلّمون اليونانيّة عادة، فأصبحوا، في قلب أورشليم المسيحيّة التي من أصلٍ يهوديّ، عنصرًا أساسيًّا في التقدّم. وقد تَرك بعضهم تأثيرًا بالغًا، كإسْطِفانُس الذي مات شهيدًا، وفِيلِبُّس الذي بشّر السامِرَة...

ولٰكن، إن أردنا أن نتجاوز هٰذه التوضيحات، وَجَب علينا الاعتراف بأنّنا لا نستطيع أن نرسم على وجهٍ ثابت خارطةً سوسيولوجيّة توضح معالم اليهوديّة، حتّى في أورشليم، في الوقت الذي وُلدت فيه الرسالة المسيحيّة.

أأغنياءَ كانوا أم فقراء؟

في أورشليم، لا شكّ في أنّهم لم يكونوا أغنياء. فمن جهة، كانت المدينة تمرّ بأزمنةِ نقصٍ بَلَغ حدَّ المجاعة. ومن جهةٍ أخرى، حَرَمَ عددٌ من المهتدين أنفسَهم مِن مواردهم، بعد أن ابتعدوا عن الهيكل، وكانت تتدفّق إليه مبالغ ضخمة يتبرّع بها يهود العالم أجمع.

ويدلّ على هٰذا الوضع اضطرار بولس إلى جمع التبرّعات من جماعات الخارج (أي الشتات)، كما يشير تشديد **أعمال الرسل** على ذكر تقاسُم الخيرات، إلى أنّه كان من المهمّ جدًّا أن يسخى بعضهم على بعضهم الآخر.

لا يخفى علينا أنّ لكلمة «فَقْر» في التقليد الكتابيّ معنًى روحيًّا: هو الفقر الروحيّ أمام الله. ولٰكن، عندما

(*) Annie Jaubert، من المركز الوطنيّ (الفرنسيّ) للبحث العلميّ.

طلب رؤساء جماعة أورشليم («الأعمدة»، كما ورد في النّص) إلى بولس أن يتذكّر الفقراء، فرد بأنّ «هٰذا ما يجتهد أن يقوم به»، كما جاء في الرسالة إلى أهل **غلاطية**، وكان الأمر يتعلّق بالفقر الماديّ ولا شكّ. ولعلّ الوضع كان مختلفًا في الجماعات المسيحيّة البعيدة عن أورشليم. فيبدو أنّه كان بين المهتدين عدد من الميسورين أمثال أَرِسطُس، خازن مدينة قورنتس (**١ روم ١٦/ ٢٣**)، أو من التجّار، أمثال لِيدِيَة الوارد ذكرها في **أعمال الرسل** والتي دعت بولس ورفقاءه إلى الإقامة عندها (**رسل ١٦/ ١٤**).

هل كانت الجماعات كثيرة العدد؟ وأين كانت تجتمع؟

يتحدّث كتاب **أعمال الرسل** عن أعداد كبيرة من اليهود اهتدوا إلى المسيحيّة في أورشليم، ويقدّرها بنحو ثلاثة آلاف نفس. فهل نعوِّل على تلك الأرقام؟ إنّ الانتشار المسيحيّ المدهش يفرض علينا أن نأخذها على محمل الجدّ. وفي (**١ قور ١٥/ ٦-٨**)، وهو قديم جدًّا، يدور الكلام على «تَراءٍ لأكثر من خمسمائة أخٍ معًا».

ومن ناحية أُخرى، قيل لنا إنّ تلك الجماعات كانت تجتمع في بعض العائلات. فحين خرج بطرس من السجن، توجّه إلى بيت مريم، أمِّ يوحنّا مرقس، حيث «كان الإخوة يصلّون». وذُكر أيضًا أنّ الرسل كانوا يجتمعون في البيت لِـ«يكسروا الخبز». ففي وسعنا أن نستنتج أنّه كان هناك، على ما يبدو، إلى جانب المجتمعات الموسّعة، عدّة جماعات صغيرة تلتقي في بيوت بعض أعضاءٍ من أعضائها.

هيكل أورشليم ودوره

كَتب لُوقا أنّ تلاميذ يسوع كانوا يواظبون على الصلاة في الهيكل. فلم يكن هناك انفصالٌ حقيقيّ عن العادات الدينيّة القديمة، بل ظهرت، بشيءٍ من الاستمراريّة، أشياء جديدة. وكان هٰذا الجديد يكمن في الإيمان بالمسيح القائم من الموت، وهو حدث حاسمٌ تمامًا في نظر ما عاشه هؤلاء المؤمنون حتّى ذٰلك اليوم. فكانوا يؤمنون بأنّ المسيح، الذي كانوا ينتظرونه مع الشعب اليهوديّ بأسره، قد جاء، وأنّ يسوع هو المسيح وأنّه حيّ فيجب انتظار عودته.

وكان من الواضح أنّ هٰذا التعايش في الهيكل، بين مؤمنين يهود ينتظرون مجيءَ المسيح - مجيء مسيح ملكيٍّ ومَجيد - ومؤمنين مسيحيّين على يقينٍ بأنّه قد جاء في شخص يسوع ويرجون عودته، لن يلبث أن يتحوّل إلى مصدرِ منازعات. فأُوقف الرسل وحُكم عليهم، وكُتب للتعايش أن لا يَطول عمرُه.

دور النساء

إنّ اختيار الرسل الاثني عشر من بين الرجال، إلى جانب بعض صفحات من رسائل بولس، التي جعلته يُتّهم ببُغْض النساء، حَمَل على الاعتقاد أنَّ الكنيسة القديمة كانت كنيسةً محصورةً في الرجال. غير أنّ الأمر لم يكن هكذا إطلاقًا. ففي الأناجيل الأربعة، نرى النساءَ حاضراتٍ ونشيطات. فمنذ البدء كانت مشاركتهم في الرسالة مهمّة جدًّا. فقد كان دورهنّ الأوّل دورَ استقبال. ولمّا كان المسيحيّون الأوّلون يجتمعون في البيوت، فكثيرًا ما كان يُعهد إلى النساء باستقبالهم. وفي فِيلِبّي المقدونيّة، أصبح بيتُ لِيدِية أوّلَ مركزٍ رسوليّ في أوروبّا. وكذٰلك، كان النسوة يتنبّأن على غرار الرجال (في قيصريّة، كانت بنات فيلبّس يتنبّأن: **رسل ٢١/ ٩**).

وجاءَ في **أعمال الرسل** أنّ برِسْقِلَة وزوجَها أَقِيلا، وهما حُرَفيّان، تولّيا تعليم أَبُلُّس، ذٰلك الرجل الإسكندريّ المثقّف الذي أصبح أحد ألمع معاوني بولس. وتجدر الإشارة إلى أنّ اسم برِسقَة (أو برسقلة، وهو تصغير برسقة) ذُكِر قبل اسم زوجها.

إنّ بولس لم يُنكِر على الإطلاق دور النساء، بل الأمرُ على عكس ذٰلك. ففي ختام رسالته إلى أهل رومة، كَتب أنّ برسقة وأقيلا قد عرَّضا عنقيهما للضرب لكي يُنقذا حياته. في هٰذا النصّ نفسه، سَلَّم بولس على عدّة أصدقاء ذُكِرَت بينهم نساء لم يكنّ فقط أخوات

الذين يراسلهم أو نساءَهم، بل كنّ أيضًا نسوةً لهنّ دور أساسيّ في الجماعات: أمثال فِيبَة، شمّاسة كنيسة قَنْخَرِيّة (أي على الأرجح المسؤولة عن الجماعة الصغيرة في قنخريّة القريبةِ من قورنتس)، ومريم وطُروفانِيَة وطرُوفُوسَة وبَرْسِيس اللواتي «أجهدنَ أنفسهنّ كثيرًا في الربّ»، على حدّ قول بولس، علمًا بأنّ الرسول كان يخصّ بتلك العبارة أولٰئك الذين كانوا يضطلعون بمسؤوليّاتٍ ضخمة (**١ تس ٥/ ١٢ و ١ قور ١٦**).

ولٰكن، هل كان النسوة يشاركن في العبادة؟ إن مفهوم العبادة الذي يعرضه بولس يتلخّص تقريبًا في ما يلي: مِن حقّ الرجل وحده أن يتلو صلاة الحمد الرسميّة، وهٰذا مبدأ يهوديّ. ومع ذٰلك، كان النساء يشاركن مشاركة فعّالة في الاجتماعات الطقسيّة لأنّه يجوز لهنّ أن يصلّين (بصوت عال) أو يتنبّأن (**١ قور ١١/ ٥**)، وذٰلك أمر غير معقول في المجمع. ولٰكن، لا يجوز لهنّ أن يفعلنَ ذٰلك إلّا إن كان رأسهن مغطّى. فهناك التجديد والتقليد في ارتباط وثيق: التجديد لأنّ المرأة تقوم للمرّة الأُولى بوظيفةٍ ليتورجيّة، والتقليد لأنّها تَحترم العادةَ اليهوديّة القاضية بوضع القناع، رمزِ الحشمة والكرامة.

نظرة مجمَلة إلى الكنيسة في «أعمال الرسل»؟

صحيح أنّ وصف بدايات الكنيسة، كما ورد في **أعمال الرسل**، هو وصف مثاليّ. وهناك ما يبرّره. فقبْلَ كلّ شيء لم يَعرف لوقا حياة الكنيسة في أوّل أمرها. ولا يُستبعَد أن يكون قد أَسقط على الكنيسة، التي يعيش فيها ويكتب إليها، نظرةً مثاليّةً إلى ما كانت عليه في أوّل عهدها (في حين أنّ بولس الذي تَظهر وثائقُه على طبيعتها، كان أكثر واقعيّةً). وهٰذا شأن المقاطع التي نسمّيها «الفقرات بصيغة الجمع» (وهي نوع من يوميّات أدرجت في **الأعمال**، ولا تتّسم بالمثاليّة). وهناك سبب آخر، وهو أنّ لوقا مؤلّف، وهو يعلم أنّ التاريخ المقدّس لا يُرْوَى كأيّ تاريخ آخر. فاستخدم عناصر تاريخيّة ولٰكنّه صاغها في أسلوبٍ أدبيّ خاصّ. وعلى سبيل المثال، تشهد نصوصُ الصعود والعنصرة على تلك المعالجة الخاصّة التي أَخضع لها لوقا الكاتبُ تاريخًا حقيقيًّا. ويصعب علينا أحيانًا أن ندرك الحقيقة في دقّتها – «ما كان مُعاشًا» – من خلال «ما هو مرويّ». ولا شكّ في أنّه لا يجوز أن نأخذ كلّ تفصيل من التفاصيل على حرفيّته.

لا بدّ لنا من الفطنة في تفسير النصوص. يمكننا التيقّن من أنّ لوقا جمع من شهودٍ عاينوا الأيّام الأوائل تفاصيلَ تتعلّق بحياة المسيحيّين العمليّة واليوميّة.

وعندما يتحدّث عن تقاسم الخيرات في (**رسل ٤/ ٣٢**)، يتّفق مثلًا مع ما كشفته لنا نصوص البحر الميت عن حياة الأسّينيّين الديريّة. ولا شكّ في أنّ التقاسم كان منتشرًا في بعض الجماعات الأُوَل، والصعوبة تكمن في أنّ لوقا عالج تلك الحقيقة كـ«لوحة» ذات قيمة مثاليّة.

وجدير بالذكر، على كلّ حال، أنّه أشار إلى صعوبات كانت تعترض محاولة التقاسم هٰذه. فروى قصّة حننيا – وهي رواية منمّقة بدون شكّ – التي تشهد على تحفُّظ بعض المهتدين في وضع ممتلكاتهم في تصرّف الجماعة.

والعبارة الواردة في (**رسل ٤/ ٣٢**): «قلبًا واحدًا ونفسًا واحدة» هي عبارة مقتبسة من كتب الأنبياء. فإنّ المسيحيّين الأوّلين كانوا يشعرون بأيِّ اتّجاه يهبّ الروح. ويشهد التاريخ أنّه في أصل الحركات الدينيّة الكبرى غالبًا ما يكون ازدهارٌ روحيّ. فلا شكّ في أنّ السنين الأُوَل مِن عمر الكنيسة عرفت ربيعَ نعمةٍ وسخاء.

المواهب

من الواضح أنّ الجماعات الأُوَل شهدت «موجات مواهبيّة»، فكنتَ ترى في الاجتماعات بعضَ أعضاء من الجماعات يقومون باسم الله، فيعطون التوجيهات، ويكشفون لهٰذا أو ذاك، أو يوضحون له، الدعوةَ الإلٰهيّة الموجّهة إليهم، كما يشهد على ذٰلك نصّ من أقدم النصوص في سفر **الأعمال** (رسل ١٣/ ١-٣) في شأن

شاول وبرنابا. وكانت هٰذه أوّل مهمّة كبرى من مهامّ بولس الرسول.

وفي السنين الأُوَل تلك، كان دور النبيّ وظيفة واضحةَ المعالم، ومع ذٰلك، كان في قلب الجماعة نفسها نوع من الحركة النبويّة المنتشرة. وقد تجلّى ذٰلك في العنصرة، وكذٰلك في الجماعات التي تحدّث بولس عنها في رسالته الأُولى إلى أهل **قورنتس**.

هل كانت الكنيسة مؤسَّسة من المؤسّسات؟

إنّ الحديث عن المؤسّسات في شأن الكنيسة، بالمعنى الذي نستخدمه اليوم، مع ما يتضمّن من سلطة تسلسليّة وتنظيم... يكون في غير محلّه.

ومع ذٰلك، لا يُستبعد أن يكون «الاثنا عشر» قد قاموا بدور على جانب كبير من الأهمّيّة في الجماعة الأُولى، فكانوا من بين أوّل شهود القيامة، كما ورد في **(١ قور ١٥)**. والرقم ١٢ يستند بدون شكّ إلى أسباط إسرائيل الاثني عشر الذين كانوا بمثابة بنية شعب الله. وقد وصف لوقا مشهد العنصرة وفقًا لهٰذا التصميم (جَمْع يتألّف من نحو مائة وعشرين شخصًا يحيطون بالرسل، **(رسل ١/ ١٥)**. كذٰلك كان بطرس و«الأحد عشر» في وسط الجمهور المتجمّع **(رسل ٢/ ١٤)**. وتلك الكنيسة المبنيّة على هٰذا الشكل نالت الروح منذ قليل، ومنها انطلقت الرسالة.

الجماعة والمعموديّة

كان المهتدون ينضمّون إلى جماعة الرسل بالعماد الذي يجب أن يتمّ بالتغطيس، كاعتماد يسوع عن يد يوحنّا المعمدان.

ولا شكّ في أنّه كان هناك تشابه كبير بين المعموديّة المسيحيّة ومعموديّة يوحنا. لٰكنّ جميع النصوص تقيم فرقًا بين معموديّة الماء (التي مارسها يوحنّا) والمعموديّة بالروح (معموديّة يسوع). ومن الثابت أنّ تلاميذ يسوع، الذين عمّدهم يوحنّا، لم يُمنحوا العماد ثانية. فالعنصرة كانت عمادهم بالروح. لٰكنّ معلوماتنا عن تلك المرحلة الانتقاليّة تبقى غير واضحة. ففي إنجيل يوحنّا مثلًا، نقرأ أنّ يسوع كان يعمِّد، حتّى إنّ بعضهم رأوا في ذٰلك تنافسًا بين تعميد يسوع وتعميد يوحنّا المعمدان **(يو ٣/ ٢٦)**. ولٰكنّ الكاتب يوضح في (يو ٤/ ٢) قائلًا إنّ يسوع نفسه لم يكن يعمِّد، بل تلاميذُه. فيمكننا أن نستنتج أنّ يوحنّا المعمدان ويسوع قاما مدّةً من الوقت بخدمةٍ رسوليّة متوازية.

كانت معموديّة يوحنّا معموديّةَ توبة، تدعو إلى تطهيرٍ أخلاقيّ وتغيير في الحياة. ولقد دعا يسوع نفسُه إلى التوبة في أثناء حياته الأرضيّة. وهٰذه التوبة هي العنصر الأساسيّ، فالمعموديّة التي مَنحها هو أو تلاميذه لا يختلف معناها، على ما يبدو، عن معنى معموديّة يوحنّا.

ولٰكن بعد موت يسوع وقيامته، ظهر تطوّر في المعموديّة. ونحن نعلم من مطالعتنا **أعمال الرسل** أنّ بولس عند وصوله إلى أفسس، لقي فيها جماعةً مسيحيّة لم تكن تعرف سوى معموديّة يوحنّا ولم تسمع قطّ أنّ هناك روح قدس (رسل ١٩/ ١-٧). كذٰلك، أظهر أَبُلّس جهلًا تامًّا، فكان على برسقة وأَقيلا أن يرشداه (رسل ١٨/ ٢٦).

وكان بولس أحد الذين استفاضوا في علم لاهوت المعموديّة. فحتّى ذٰلك الحين، كانت المعموديّة تُعتبر نوعًا من الموت عن الخطيئة، ولٰكنّ بولس أوضح أنّ المقصود هو أن نموت «مع يسوع» لنولد ثانيةً «مع يسوع» لحياة الروح الجديدة. ولم يرَ بولس في المعموديّة حياةً أخلاقيّةً جديدةً وحسب، بل كائنًا جديدًا هو مشاركة في يسوع الكائن القائم من الموت.

ولٰكن، هل كانت هناك مرحلة تحضيريّة تسبق المعموديّة، كما نفعل اليوم في اعتماد الراشدين؟ لا، فإنّ نصوص **أعمال الرسل** كلّها تتحدّث عن معموديّة فوريّة. وجدير بالذكر ما ورد في سِفر **الأعمال** عند اهتداء قُرْنيليُوس حيث سبقت موهبةُ الروح رتبةَ المعموديّة. فبينما بطرس يتكلّم، «فاض الحاضرون بالروح القدس»، فدهش المؤمنون جميعًا عندما رأوا أنّ موهبة الروح القدس أُفيضت على الوثنيّين أيضًا. عندئذٍ قال لهم بطرس: «أيستطيع أحد أن يمنع هؤلاء من ماء

المعموديّة وقد نالوا الروح القدس مثلنا؟». ثمّ أمر بتعميدهم باسم يسوع المسيح (**رسل ١٠/ ٤٤-٤٨**).

فمنذ البدء، كان هناك تمييز بين الرتبة الضروريّة لدخول الكنيسة وعمل الروح القدس الذي يتجلّى بحرّيّة مطلقة. ولٰكن لا بدّ من التكرار: الرتبة ضروريّة.

إيمان المسيحيّين الأوّلين

يبدو أنّ شهادات الإيمان الأوَل كانت بمنتهى البساطة. وتقضي أساسًا بالإيمان بأنّ «يسوع هو الربّ» (كِيرِيُوس باليونانيّة).

وهذه الكلمة اليونانيّة تعني «سيّد» في اللغة الشائعة، أمّا في الإطار الدينيّ الذي عاش فيه اليهود الناطقون باليونانيّة، فقد استُعمل للتعبير عن اسم الله الذي لا يوصَف.

فَمَن اعترَف بأنّ يسوع هو «الربّ» اعترف حقًّا بأنّه «صعد إلى يمين الله». ومَن اعترف بأنّه، في الوقت نفسه، المسيح المنتظَر منذ عدّة قرون، آمَن بأنّه نال السلطة من الله ليُتِمّ الوعود الإلٰهيّة على أكمل وجه، وبأنّنا به ندخل العهد الجديد، وبأنّه يهب الروح الذي وَعَد به الأنبياءُ. فإنّ إيمان التلاميذ الأوّلين كان يحمل بذور التطوّرات المستقبليّة التي مرّ بها عِلم اللاهوت المسيحيّ، ولٰكنّه كان بمنتهى البساطة.

كسر الخبز والإفخارستيّا

يَعتبر معظمُ المفسّرين أنّ «كسر الخبز» كان يعني احتفالًا إفخارستيًّا. وبحسب هٰذا الرأي، يكون المقصود أمرًا واحدًا: أي حضور الربّ بين تلاميذ يسوع المجتمعين باسمه والمقيمين ذكرَه. لا شكّ في أنّ المسيحيّين الأوّلين لم يحدّدوا مفهومهم اللاهوتيّ حول «الحضور الحقيقيّ» كما تُعبِّر عنه اليومَ الكنيسةُ الكاثوليكيّة. ولٰكنّهم اختبروا بدون شكّ في اجتماعاتهم الأُولى، وبقوّةٍ شديدة، حضور المسيح، الربّ القائم من الموت، وارتباطَه برتبة الإفخارستيّا.

يصعب علينا جدًّا أن نعرف ما كانت تقوم عليه الرتبة الإفخارستيّة. وليس في وسعنا إلّا أن نذكر الافتراضات بحذر انطلاقًا من مختلف النصوص التي بين أيدينا.

إنّ أقدم النصوص هو **الرسالة إلى أهل قورنتس** حيث يروي بولس تقليدًا سابقًا: «فإنّي تسلّمت من الربّ ما سلّمته إليكم، وهو أنّ الربّ يسوع، في الليلة التي أُسلم فيها، أخذ خبزًا وشكر، ثمّ كسره وقال: «هٰذا هو جسدي، إنّه مِن أجلكم. إعملوا هٰذا لذِكري». وصنع مثلَ ذٰلك على الكأس بعد العشاء وقال: «هٰذه الكأس هي العهد الجديد بدمي. كلّما شربتم فاعملوه لذكري...»» (**١ قور ١١/ ٢٣** وما يلي).

ولا شكّ في أنّ تلك الطريقة في الاحتفال بالإفخارستيّا عريقة في القِدم. ولٰكن لا يمكننا أن نجزم أنّها كانت الطريقة الوحيدة. ذٰلك بأنّ نصوص **أعمال الرسل** تتحدّث عن «كسر الخبز» من دون الإشارة إلى وجود الخمر. ويبدو أنّ لوقا نفسه، وهو الذي كتب سِفر **الأعمال**، اعتبر أيضًا، في رواية تلميذَي عمّاوس، أنّ كسر الخبز هو رتبةٌ إفخارستيّة: «ولمّا جلس معهما للطعام، أخذ الخبز و... ناولهما. فانفتحت أعينهما وعرفاه... فرويا ما حدث في الطريق، وكيف عرفاه عند كسر الخبز». (**لو ٢٤/ ٣٠ و٣١ و٣٥**). ويرى معظم أهل الاختصاص أنّ هٰذا النصّ يعكس ليترجيا الاجتماعات التي كانوا يشرحون فيها الكتب المقدّسة أوّلًا، كما سبق ليسوع أن شرحها لتلاميذه، ثمّ «يعرفون» يسوع عند كسر الخبز.

وهناك نصّ آخر يُظهر لنا كيف تقاسم يسوع الخبز والسمك مع رسله (يو ٢١). ووردت هٰذه الرواية بعد القيامة أيضًا. فهل يمكننا أن نفترض أنّ بعض الجماعات لم تكن تستند في اجتماعاتها الطقسيّة إلى العشاء الأخير وحسب، بل إلى وجبات طعام أُخَر تَناولها يسوع مع رسله قبل موته وقيامته أو بعدهما؟ لا شكّ في أنّ حادثة الأرغفة (والسمك) اعتُبرت دائمًا صورةً إفخارستيّة.

وإذا كان المسيحيّون الأوّلون لم يستخدموا الخمر دائمًا في احتفالاتهم، فلعلّ ذٰلك يعود إلى كونهم استندوا إلى وجبات طعام أُخَر تختلف عن العشاء الأخير (الذي قُدّمت فيه الخمر لأنّه عشاء فصحيّ).

ولٰكنَّ هناك أمرًا آخر، وهو أنّ الخمر لم تكن دائمًا في متناول الكثير من مسيحيّي الكنيسة الأولى، وذٰلك بسبب فقرهم من دون شكّ.

الملامح الروحيّة التي امتاز بها المسيحيّون الأوّلون

إنّ أكثر ما يُذهل عند المسيحيّين الأوّلين هو جرأة إيمانهم. فكان لا بدّ من «الوقاحة»، إذا جاز التعبير، ليؤكّدوا في وجه السلطات اليهوديّة والرومانيّة كلها أنّ ذلك المصلوب الذي حَكم عليه الجميع هو المسيح الذي وَعد به الأنبياء. ولم يعد عندنا اليومَ أيّ فكرة عمّا كان يمثّله عِثار الصليب، فإنّه يناقض في الظاهر جميع المواعد.

ويجب أن نضيف أنّ هٰذا الإيمان تَعرَّض لتجارب قاسية لأنّ المسيحيّين الأوائل كانوا يرجون عودةً سريعة للمسيح. إلّا أنّ الوقت انقضى، والمسيح لم يعد. فتبلبلت القلوب متسائلة: «لِمَ تأخّر المسيح إلى هٰذا الحدّ؟ لِمَ لَمْ تُوافق نهايةُ الأزمنة عودتَه المجيدة إلى الآب؟ كيف يسمح المسيح القائم من الموت أن يموت المؤمنون به؟...».

حاول الرسل جاهدين أن يُجيبوا عن تلك الأسئلة قائلين: «إنّ الله لا يخلّ بمواعده، بل هو يُهمل الخاطئين فقط لكي يتوبوا. أمّا في ما يتعلّق بموتاكم فلا تحزنوا كمن لا رجاء لهم: فعند عودة المسيح القائم من الموت، سيصطحب جميع الذين رقدوا على محبّته. أمّا نحن فإن كنّا أحياء عند عودته فلن يكون لنا مصيرٌ أفضل...».

وفي حين نَجِد نحن صعوبةً كبرى في أن نعيش على رجاءِ عودة المسيح لشدّة ما تبدو لنا بعيدة، لم يكن في استطاعة المسيحيّين الأوّلين أن يتحمّلوا إبطاءَه. وقد احتاجوا إلى وقت طويل ليسلّموا بأنّ الوعد الذي وعده المسيح نفسه قد يمتدّ على قرون. فكانوا يعيشون في انتظارٍ حارّ للربّ يسوع، كما تشهد على ذٰلك خاتمة سِفر **الرؤيا**، وهو كتاب يرقى عهدُه إلى نهاية القرن الأوّل، وقد حَفِظ لنا هٰذا الدعاءَ وهو قديم حتّى إنّه لم يُصَغ باليونانيّة، بل باللغة القديمة المحكيّة في فلسطين أي الآراميّة: «مارانا تا! تعالَ، أيّها الربّ يسوع!».

رياح الحرّيّة

نلاحظ من أوّل نظرة ما قد ناله الفقراءُ والعَبيد والصغار من الإنجيل. لم يكن عندهم أيّ شيء. والعبد في اليونانيّة يقال له «جسد» Sôma. وكان الكثير من الكتابات يَدلّ إليهم في صيغة الجمع بكلمة Sômata ويُحلّهم بعد الماشية Ktèmata. هٰذه الكلمة التي تُستعمل لغير العاقل تعبّر عن فئة من الأشياء وعن الممتلكات التي في حوزتنا. وفي رومة، كان العبد Res أي سلعة تُشترى وتباع. وفي نظر الريفيّ كاتُون كانت قيمة العبد خارجَ وظيفته أقلَّ من قيمة بقرةٍ عجوز: لأنّ البقرة تؤكل على الأقلّ. وبعد أن روى تاقِيطُس حادثةَ مقتل جميع الخدّام في أحد البيوت، أضاف قائلًا: خسارة طفيفة! فهؤلاء المحرومون جميعًا أتتهم البشرى بكلّ شيء، إن هو إلّا الشعور بكرامتهم وشخصيّتهم الإنسانيّة. وهناك إلٰه قد أحبّهم ومات من أجلهم وخصّهم بأفضل مكان في ملكوته. وليس للشريف هنا أيّ امتياز، فكان يَختلط، في الاجتماعات، بسفَلَة الناس غير المغتسلين والذين تعبق أنفاسهم برائحة الثوم والخمر الغليظة. وهؤلاء الناس، المنتمون إلى عِرْق آخر والذين يستطيع هٰذا الشريف أن يضربهم ويقتلهم بكلمة واحدة، كانوا إخوتَه. ولا نَقُلْ إنّ هٰذا التطوّر كان نتيجةَ عاداتِ الزمن أو تعاليم الرواقيّة، إذ إنّ مواعد سِينيكا الرائعة لم تنجح قطّ في إحداث مثل هٰذا التغيير، وهو، على الرغم من رسالته المثاليّة السابعة والأربعين التي وجّهها إلى لُوقِيلِيُوس، لَما كان ليتناول مع عبيده لحوم الذبائح، ولأعدّوا له ولهم مائدتين منفصلتين. فالمساواة لم تبدأ عمليًّا إلّا على موائد الإفخارستيّا، وكان ذلك من أكبر المعجزات في الديانة المسيحيّة. لم يكن للعبد أجداد ولا تقاليد، وبما أنّه لم يكن من مواطني المدينة، فإنّ الآلهة التي ترمز إليها لم توفّر له الحماية. وكذلك لم يكن له مسكن ولا مذبح. وكان الغرباء أوفر السكان حظًّا، مع أنّ الناس كانوا يشكّون في عباداتهم، وكان الرومانيون الأصليّون يحتقرونها. ونرى يُوڤِينالُس يتشكّى من أنّ نهر العاصي قد لوّث مياهَ التيبر. وهناك تطوافات كهنة قُوبِيلا (Cybèle)، أولئك الذين خَصُوا أنفسهم إكرامًا لأُمّ الآلهة، فأقلّ ما يقال

فيها إنّها لم تكن تحمل على الفضيلة.

أمّا إيزيس وسيرابيس اللذان كانا يمدّان للصغار يد المساعدة، فكانت لهما حظوة لدى البغايا. وفي ظلام المعابد في أثناء الليالي، كانت المتعبّدات يمارسن الحبّ مع الكهنة، وفي اعتقادهنّ أنّهنّ يتّحدن بالآلهة. وكان الكهنة، لقاء شيء من المال، يدعمون أصحاب المغامرات الماجنة، وعلى حدّ قول فلاڤيوس يوسيفُس، قام أحد الفرسان الرومانيّين، بفضل احتيالهم، بإغراء سيّدةٍ نبيلة كانت تعتقد أنّها تضمّ بين ذراعيها إله النيل. ولكنّ الطقوس التي تمنح الخلود، وهي أشدّ الطقوس سرّيّة، لم تكن في متناول الفقراء. والذبيحة القاضية بسكب دم ثور على رأس المؤمن كانت باهظةَ الثمن، كما أنّ تلقين أسرار إيزيس كان يحتاج إلى آليّة بكاملها لا يمكن تحريكها بدون إنفاق شيء من المال. وكانت أسرار السحر والتنجيم تباع بأموال ضخمة، إذ إنّ المنجّم ڤيتّيُوس ڤالِنسيُوس، الذي عاش في عهد هدريانُس، ذاق الأمرّين بسبب ما ابتزّ منه المصريّون الذين أطلعوه على الفنّ المقدّس.

عندما تعطي ديانةٌ كلّ ما عندها، لا تعجب كثيرًا أن تلقى إقبالًا. فالمسيحيّة سدّت عوز البؤساء بأن وفّرت لهم ما هو الأهمّ. ولقد اتّخذتْ أوجاعُهم نفسُها، قيمةً حياتيّة، فأصبح في إمكان الحمّال في قرطاجة أو في أُوستِيا أن يعتبر نفسه وهو تحت الحمل، مساهمًا في خلاص العالم. فهو، باتّحاده بآلام المسيح، لا يفتدي إخوته في الشقاء وحسب، بل سيّده أيضًا، لا بل القيصر نفسه. وكان يحبّ أعداءه. فيا له من مَجدٍ منذ الآن في هذه الدنيا! وأيّ شرف يوازيه؟

(من كتاب الأب أ. ج. فستوجيار A.J. Festugière, *L'Enfant d'Agrigente*, Paris, Plon, 1941, p.104-106).

بالرغم من جميع العقبات

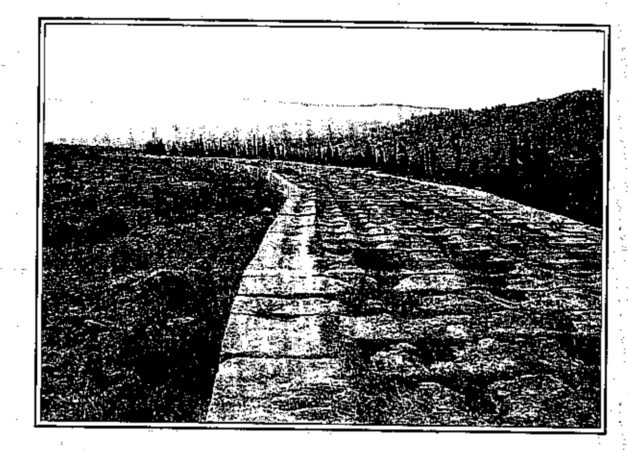
«انكسرت بي السفينةُ ثلاث مرّات، قضيتُ ليلة ونهارًا في عرض البحر. أسفار متعدّدة، أخطار من الأنهار، أخطار من اللصوص، أخطار من بني قومي، أخطار من الوثنيّين، أخطار في المدينة، أخطار في البرّيّة، أخطار في البحر، أخطار من الإخوة الكذّابين، جهد وكدّ، سَهَر كثير، جوع وعطش، صوم كثير، برد وعري..» (٢ قور ١١/٢٥-٢٧).

في قراءة هذا المقطع ما يكفي ليحملنا على الحلم أو... على الشكّ: أفلم يستسلم بولس لطلاقة لسانه فبالغ بعض الشيء في وصف الصعوبات التي صادفها؟ إلّا أنّ مجرّد النظر إلى خارطة أسفاره تدفع إلى حمل كلامه على محمل الجدّ: ما أكثر الكيلومترات التي اجتازها باسم الإيمان! فقد جاب بولس بلاد اليونان وتركيا الحاليّة، قبل أن يُلقى في السجن ويُقدم على تلك الرحلة الطويلة التي قادته إلى رومة عبر البحر الأبيض المتوسّط.

مسافر لا يتأثّر بمياه البحر

حين نتأمّل ظروف السفَر في ذلك الزمان، يحار عقلنا أمام المسافات التي كانوا يجتازونها. وكان بولس يقطعها تارةً على الأقدام وتارةً في البحر، علمًا بأنّه كان يفضّل صراحةً الحلّ الثاني. وحيثما كان معاونوه يسيرون على الأقدام، كان يركب السفينة كلّما سنحت له الفرصة. وُلد بولس في طَرْسُوس، وهي مرفأ، فلم يكن ممّن يخافون دوار البحر... ولم يكن، بدون شكّ، مولعًا بالمشي! على كلّ حال، كان السفر بحرًا في اليونان أسهل وأسرع، رغم بطء الملاحة الشراعيّة (كان السفر الذي يستغرق ثمانية عشر يومًا للانتقال من الإسكندريّة إلى رومة يُعتبر سفرًا سريعًا). لكنّ تنظيم الرحلات لم يكن محفوفًا بالمشاكل: فإنّ التجارة البحريّة كانت مزدهرةً إلى حدّ بعيد في الأمبراطوريّة الرومانيّة، لأنّ المواصلات البرّيّة كانت في منتهى الغلاء. وكان في إمكان المسافرين أن يستخدموا السفن التجاريّة، وهي سفنُ شحن مزوّدة جسورًا عالية، فكانت تقلّ، بالإضافة إلى حمولتها، عددًا من الركّاب. ولقد تحدّث فلاڤيوس يوسيفُس عن سفينةٍ سافر على متنها أكثر من ستّ مائة شخص. وورد في سفر **الأعمال** أنّ بولس، في أثناء رحلته الأخيرة إلى رومة، ركب سفينة كانت تقلّ ستّةً وسبعين راكبًا. وكان لا بدّ من أن تؤخذ بعين الاعتبار تقلّبات الرياح التي قد تهدأ - وما من شيء يفيد عندئذ سوى الانتظار - أو تهبّ عاصفة - والبحر المتوسّط قد يضطرب اضطرابًا شديدًا، وهذا ما اختبره بولس على حسابه.

على طرقات رومة



طريق رومانيّ

أمّا في تركيا، فكان لا بدّ من السير على الأقدام. فمشى بولس كثيرًا جدًّا، بالرغم من ميله إلى ركوب السفينة. وجاب هضبة الأناضول في كلّ اتّجاه واجتاز أحيانًا كثيرة الممرّات الجبليّة في مرتفعات طُورُس وسلسلة طورس الغربيّة، وكانت عرضةً لقطّاع الطرق الناشطين في تلك المنطقة: فكان يكفيهم أن يسدّوا بعض الممرّات حتّى يوقفوا القوافل كلّها. لذلك كان المسافرون يتّخذون عادةً ما يلزم من التدابير ليعبروا تلك الممرّات بأعداد كبيرة، بلغت أحيانًا عدّة مئات. لكنّ الطرقات الرومانيّة كانت آمنة على الإجمال.

وفي أثناء الحروب الأهليّة التي شُنّت بين قيصر وپُومپيُوس، ثمّ بين أوغسطس ومرقس أنطونيوس، شهد الوضع تفاقمًا في قطع الطرق وأعمال القرصنة. ولمّا استتبّ الأمن، سارع أوغسطس إلى تهدئة الأمور بتحويله الجنود الرومانيّين إلى رجالِ حِفظ النظام: ومنذ ذلك الحين توزّعتْ قوى الأمن في الأمبراطوريّة على مراكز تتألّف من مئتي عنصر تقريبًا انتشروا هنا وهناك. وبذلك، تمكّنت القوافل من المرور بأمان.

وكانت الطرق نفسها مبنيّة بناءً محكمًا، إذ إنّ الرومانيّين، وهم إستراتيجيّون ممتازون وحريصون على حماية أمبراطوريّتهم، كانوا يدركون أهمّيّة التنقّل بسهولة من مكان إلى آخر. وكانوا يسعون لأن تكون طرقاتهم قويمة وتجتاز العوائق، بفضل قيام أعمال فنّيّة كثيرًا ما تكون مكلفة. وكانت واسعة، يبلغ عرضها عادة أربعة أمتار، ومغطّاة ببلاط ضخم من الحجر. لكنّ شبكة الطرقات «التركيّة» كانت أقلّ «إتقانًا» من الشبكات الرومانيّة أو اليونانيّة أو الغاليّة (ولم تكن الطرقات كلّها مبلّطة).

يبقى أنّ المواصلات كانت بطيئةً جدًّا، إذ إنّ القوافل لم تكن تجوب ما يتجاوز أكثر من ستّين كيلومترًا. لكنّ البريد الأمبراطوريّ وحده، وهو خاصّ مبدئيًّا بموظّفي الدولة، كان يقطع مائةً وخمسين كيلومترًا في اليوم، جاريًا مدّة أربعٍ وعشرين ساعة على أربع وعشرين.

خطّ رحلات بولس

في رحلة بولس الأولى، وانطلاقًا من أنطاكية سورية، سافر بحرًا: فتوجّه إلى أطالية (أنطاكية الحاليّة)، على ساحل پَمْفِيلِيَة. ثمّ توغّل في داخل البرّ وتسلّق، من الساحل، هضبة الأناضول ليصل إلى طريق الهند الكبرى التي تمرّ بأنطاكية پِسِيدِية وأيقونيَة... وهي الطريق التي سلكها الإسكندر ذو القرنين، وكانت وعرة لأنّها ترتفع إلى ألفي متر (أي ما يعادل علوّ الممرّات السويسريّة الكبرى). ثمّ رجع بحرًا إلى نقطة انطلاقه.

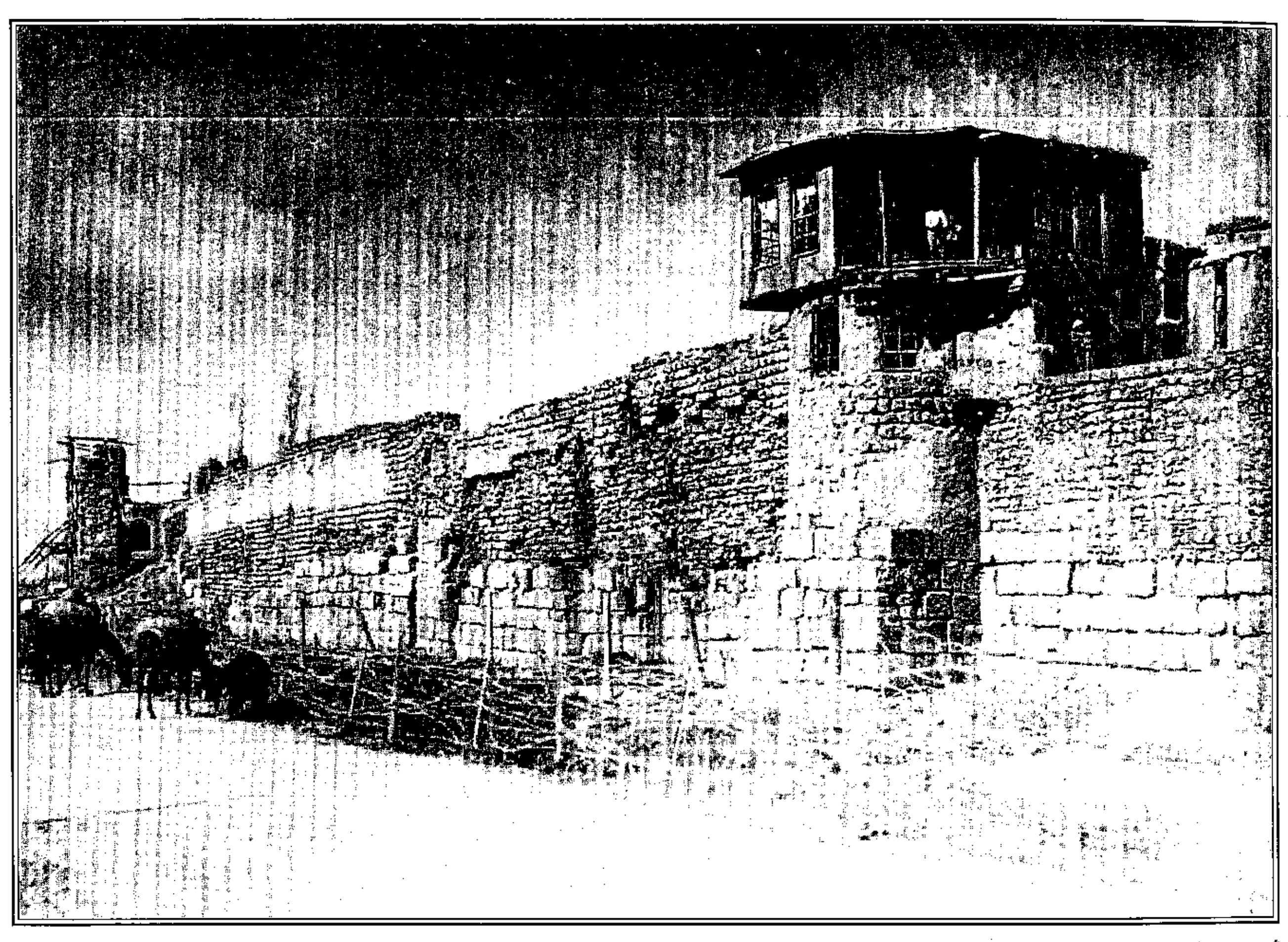
أمّا رحلتاه الثانية والثالثة فقد تمّتا تارةً برًّا وتارةً بحرًا. وفي تركيا، اجتاز طريق جبل طورس مرّتين على الأقلّ. وفي اليونان، سلك خاصّةً الطريق الإغناسيّة، وهي طريق كبرى تربط بيزنطية بروما (مع انقطاع العبور بين دِراقيُوم - أپِيدام الحاليّة - و برِنْدِيزي). وفي قدومه من تركيا، نزل في نِيَاپُولِس، ثمّ صعد إلى فيلبّي وبلغ تَسالُونِيقي وبِيرِيَة، سالكًا الطريق الإغناسيّة. وإذا صحّ أنّه وصل إلى إلِيرِيَة (ألبانيا الجنوبيّة)، كما وَرَدَ في (روم ١٥)، فقد كان ذلك باستمراره في الطريق الإغناسيّة.

وبعد ذلك، وصل بحرًا إلى أثينة وقورنتس وأفسس... أمّا رحلته إلى رومة بعد القبض عليه، فقد كانت بحريّة بأكملها تقريبًا: فقد سلك طريق أپِيُوس فقط لينتقل من ناپُولي إلى رومة.

ماذا حدث لبولس بعد السنتين اللتين قضاهما، وهو سجين، في رومة (من سنة ٦١ إلى ٦٣)؟ هل سافر إلى إسبانيا؟ في الرسالتين إلى طيطس وطيموتاوس ما قد يحملنا على اعتقاد ذلك، وفي الرسالة إلى أهل رومة ما يشهد على أنّه كان ينوي السفر إليها. وهل عاد إلى ألبانيا ويوغوسلافيا؟

وهل زار طيطس في كريت؟ ما زال أهل الاختصاص يتناقشون في هذا الأمر. فمنهم من يقول إنّه مات سنة ٦٥ (وهذا ما لم يترك له متّسعًا من الوقت ليقوم بتلك الرحلة كلّها)، ومنهم من يعتقد أنّه مات سنة ٦٧. لكن هناك أمر واحد أكيد، وهو أنّه مات في رومة في الوقت الذي مات فيه بطرس.

(بقلم موريس كارّه، أستاذ في كليّة اللاهوت البروتستانتيّة – باريس)



أسوار القدّيس بولس في دمشق

الفصل الرابع

حادثة أنطاكية

بقلم الأب هنري هُولْستاين اليسوعيّ(*)

«وكان جماعة الذين آمنوا قلبًا واحدًا ونفسًا واحدة»،
هذا ما يؤكّده **سفر الأعمال** عندما يتحدّث عن المسيحيّين الأوّلين.
لكنّ المشاركة لم تمنع قيام التوتّر في العلاقات.
فوقع جدال بين بطرس وبولس.
وعلى نتيجته توقّف مستقبل الكنيسة.
فماذا جرى حين وقع حادث أنطاكية الشهير؟

«يعقوب وصخر (بطرس) ويوحنّا، وهم يُحسَبون أعمدة الكنيسة... مدّوا إليّ وإلى برنابا يُمنى المشاركة» (**غل ٢/٩**).

تلك المصافحة، الرسميّة والرمزيّة، عُني بولس كثيرًا بإبرازها، لأنّها كانت، في الواقع، خاتمًا لتصالحه النهائيّ مع يعقوب.

كانت المواجهات قاسية والمقابلات كثيرة. وبولس لم يُخْفِ ذلك. لكنّ الرهان كان على جانبٍ من الأهمّيّة: فإنّ الأمر كان يتعلّق بمستقبل كنيسة المسيح. وكلّ ما قد يُعتبر مجرّد شِجار بين «الأقدمِين والمُحْدَثين» تمّ تخطّيه إلى حدّ بعيد. يتحدّث لوقا عن «خلاف شديد» صوّره من خلال المناقشة المجمعيّة التي تمّت في مجمع أورشليم (**رسل ١٥**). لكنّ بولس نفسه يروي حادثةً أُخرى مهمّة وذات مغزى، هي مشادّته مع بطرس في أنطاكية (**غل ٢/١١**)، ركّز فيها النقاش على استقلال الكنيسة المسيحيّة عن اليهوديّة.

في رأي يعقوب – وكنيسة أورشليم معه –، يجب على الجماعات المسيحيّة الغنيّة أن تبقى أمينةً على أحكام الشريعة اليهوديّة.

وعلى العكس من ذلك، كان بولس يرغب في أن يحرّر من الشريعة الوثنيّين المهتدِين.

توتُّر في العلاقات

حين انفجر النزاع علانيةً، كانت العلاقات بين كنيسة أورشليم وبولس متوتّرة، وكانت على أهبة الاحتدام في أيّ لحظة. في الحقيقة، كان ارتياب مسيحيّي أورشليم حيال بولس يعود إلى زمن اهتدائه: إذ إنّ معرفتهم للعداوة التي كان الرابّي الشابّ شاول يكنّها لهم كانت أكبر من أن لا يتردّدوا في التسليم بصدق اهتدائه.

«كانوا كلّهم يخافونه غيرَ مصدِّقين أنّه تلميذ» (**رسل ٩/٢٦**).

أمّا بولس فلم يكن مرتاحًا بقدرٍ كاف في الجماعات الفلسطينيّة. فزياراته إليها كانت سريعة وشبه خاطفة، حتّى إنّه لم يُقِم فعليًّا للمرّة الأُولى في أورشليم، كما يشهد هو نفسه، إلّا بعد مرور أربعة عشر عامًا على اهتدائه.

(*) Henri Holstein، أستاذ فخريّ في كلّيّة اللاهوت بجامعة باريس الكاثوليكيّة.

على كلّ حال، كان لمبادرات رسول الأمم الجريئة كلّ ما يلزم لإلقاء الرعب في كنيسة أورشليم. ففي الواقع، أدّت رسالاته، التي امتدّت شيئًا فشيئًا في الأراضي الوثنيّة، إلى تأسيس كنائس لم تكن «سُنَنُ الأقدمين» مراعاةً فيها على الإطلاق. واحتدّت ردود الفعل بقدرِ ما أهمل بولسُ دائمًا، على ما يبدو، أن يستشير الكنيسة - الأمّ... وتوالت تحذيراتُ أنصار يعقوب، وكانوا متصلّبين في أمانتهم لممارسات الشريعة. ولقد تشكّى بولس مرارًا من ذلك الوضع، وانتهى به الأمر إلى الشروع في طعنٍ لاذع وعنيف وجّهه إلى المتهوّدين.

دور الشريعة

قبل أن نعرف ما هي القناعات التي كانوا يَعرضونها بعضُهم على بعض، لا بدّ أن نوضح ما هي النقاط التي كانوا متّفقين عليها. فالجميع، سواء أأنصارًا ليعقوب كانوا أم لبولس، كانوا يعترفون بأنّ المسيح هو وريث المواعد التي وُعد بها إبراهيم، وأنّه يمثّل تحقيق العهد بوجهٍ كامل. ففي المسيح يَتّخذ النسلُ المبارك الذي وَعد به اللهُ إبراهيم أبعاده كلّها. وهنا يتوقّف كلّ تقارب بينهم...

فكان أنصار يعقوب، وهم المسيحيّون الذين من أصل يهوديّ، يرون أنّ العهد يصل إلينا عن طريق الشريعة.

والعهد، وهو وعدٌ مهيب وغير واضح، يتجسّد في ولادة الشعب المقدّس الذي جمعه موسى عند الخروج من مصر وأعطاه الشريعة. فبالشريعة والممارسة الموسويّة إذًا، يصبح المرءُ ويبقى وريثَ الوعد. لم يكن يعقوب يرفض استقبال الوثنيّين، لكنّه كان يفرض عليهم أن ينضمّوا إلى الشعب المختار باعتناقهم شريعته بتفاصيلها.

وعلى العكس من ذلك، يؤكّد بولس في شكلٍ قاطع أنّ «المسيح افتدانا من لعنة الشريعة» (**غل ٣/ ١٣**). فهي ليست في نظره سوى مجرّد مرحلة تربويّة وحِملٍ ثقيل فُرِضَ موقّتًا، يجب تخطّيه بعد ذلك.

ولا يقول فقط بأنّ الشريعة ليست الطريق المحتّم للحصول على نعمة الموعد، بل يضيف أنّه يخشى أنْ تُوقع في الخطأ وتُبقي في الوهم. وإنْ كان البِرّ (أي العطيّة التي تجعلنا أبناء الله) يمرّ بالشريعة، فهو «يُحصَل عليه بالشريعة» (**غل ٣/ ٢١**) لا بالنعمة. لكنّ إبراهيم لم «يُبرَّر» (أي لم يصبح قدّيسًا وصِدّيقًا وخليلًا لله) بالشريعة، بل بالإيمان كما ورد في الكتاب المقدّس.

ولو كُتب لنظام الشريعة أن يستمرّ ويُفرَض على الجميع، لتعطّلت المجّانيّة التامّة التي تتّسم بها عطيّةُ الله. فحتّى في نظر اليهوديّ الذي أصبح مسيحيًّا، ليست «أعمال الشريعة» (أي الأمانة لِحفظ أحكامها) هي التي تَحمل إليه الخلاص والحياة في المسيح، بل هو الإيمان. فما أحرى الوثنيّ بذلك، وهو الذي يجب أن يكون الإيمانُ عنده تحريرًا لا إكراهًا.

الموعد هو للجميع

أَرفَق بولس محاجّته اللاهوتيّة بتحليلٍ عمليّ لمتطلّبات المسيحيّة المتهوّدة، كان له دورٌ حاسم في تقرير مستقبل الكنيسة.

وكان إرغامُ كلِّ طالب عماد على الخضوع لنير الشريعة الثقيل يَعني ضمّه إلى الشعب اليهوديّ. لكنّ اليهود كانوا يؤلّفون شعبًا بين الشعوب، منفصلًا عن سائر الشعوب. فالذين يَرضَون بالانضمام إليه و«بالتميُّز بأن يعيشوا عيشة اليهود» (**غل ٢/ ١٤**) ينفصلون طوعًا عن سائر الناس. فلو أُخذ بعين الاعتبار حِفظُ الشريعة، من ختانٍ أو تحريم مؤاكلة الوثنيّين، على سبيل المثال، ماذا يحلّ بشموليّة دعوة يسوع وانفتاح الملكوت على الأمم كلّها؟

وعلى الاعتراض القائل بأنّ الله أراد أن يَعهدَ بوعده إلى شعبٍ معيَّن اختاره هو، يَردّ بولس أنّ المقصود هنا هو تدبيرٌ موقَّت وساقط: لأنّ الموعد أعطي الجميع وإبراهيم هو أبو جمهورٍ من الأمم ونسلٍ أوفر عددًا من نجوم السماء وذرّات الرمل الذي على شاطئ البحر.

ويَرى بولس أنّ يسوع مزّق الشرنقة التي حاكتها الخصوصيّات والتي كانت تَحتضن اليهود وتنبذ الوثنيّين. وبصليبه هدم الحاجز الفاصل (**أف ٢/ ١٤**) وقرّب الأباعد وجعل من اليهود والوثنيّين شعبًا واحدًا. ولقد خَلَقَ يسوعُ «في شخصه من هاتَيْن الجماعتَيْن (اليهود والوثنيّين)... إنسانًا جديدًا واحدًا.. وهَدم.. الحاجزَ الذي يفصل بينهما أي العداوة» (**أف ٢/ ١٤ و١٥**)...

التفسير الحاسم

فَهِمَ كلٌّ مِن بولس ويعقوب أنّ التباينات القائمة بينهما كانت تدور على نقطةٍ أساسيّة أضحى من الضروريّ أن تُبتّ، لتبنّي أحد المفهومَين عن الكنيسة. وإذا قرأنا رواية سِفر **الأعمال**، يبدو لنا أنّ اجتماعًا واحدًا يضمّ الرسولين بولس ويعقوب تداوَلَ الآراء... وأقرّ لبولس بالحقّ.

لكنّ مطالعة الرسالة إلى أهل غلاطية تمكّننا أن نوضح أنّه تمّت بين بولس وأولئك الذين يدعوهم «مَن هم رسلٌ قبلَه» (**غل ١/ ١٧**) عدّة لقاءات شبه رسميّة: من بينها لقاءان، ولا شكّ، مع بطرس، من المحتمل أن يَبْعد الواحدُ عن الآخر أربع عشرة سنة (**غل ١/ ١٨ و٢/ ١**) ويختلفان كلاهما، على ما يبدو، عن «المجتمع» الذي تحدّث عنه لوقا. ويختلف هذان اللقاءان أيضًا عن المشادّة التي حصلت في أنطاكية بين بولس وبطرس، حين أخذ الأوّل على الثاني انقياده لِـ«قومٍ من عند يعقوب» ورفضه الفجائيّ أن يأكل مع الوثنيّين المهتدين (**غل ٢/ ١١-١٤**). وبناءً على ذلك، يَعتقد عموم المفسّرين أنّ صياغة الفصل الخامس عشر من **أعمال الرسل**، مع ما تتضمّنه من تَتابُع خُطبٍ منمّقة، ليست سوى تركيب مؤلَّف من لقاءات امتدّت على عدّة سنوات. مِن المسلَّم به، على كلّ حال، أنه حصل بين بولس ويعقوب (ومن خلالهما بين الكنائس التي يمثّلانها) تفاهُم حاسم أدّى إلى قرارٍ مشترك يقضي بعدم فرض الشريعة اليهوديّة على الوثنيّين المهتدِين.

في خدمة الأمم كلّها

وبحسب ما ورد في ملخَّص **أعمال الرسل** المبسَّط، تبنّى بطرس، باسم الكنيسة جمعاء، براهين بولس المؤكِّدة أنّ الله يريد خلاص الوثنيّين. هٰذا وإنّ بطرس كان أوّل مَن استقبل في الكنيسة عائلةً وثنيّة هي عائلة قائد المائة قُرنيلِيُوس. وقد كان إيمانها العربونَ الوحيد الذي أدّى إلى تعميدها. وبالقرار الذي اتّخذه مجمع أورشليم بالإجماع، عدلت الكنيسة عن أن تكون مجرَّد «شيعةٍ يهوديّة» منشقّة على نحوٍ غير واضح، لتكون في خدمة الأمم كلِّها. لأنّ التحرير من الشريعة وحِفظ أحكامها يُمَكّن وحدَه من إعلان الإنجيل إلى كلّ ذي إرادة صالحة، أيًّا كان وأينما كان...

وعبّر بولس عن ذلك في نصّ رائع:

«إنّكم جميعًا أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، فإنّكم جميعًا، وقد اعتَمَدتم في المسيح، قد لبستم المسيح: فليس هناك يهوديّ ولا يونانيّ، وليس هناك عبدٌ أو حُرّ، وليس هناك ذَكَر وأنثى، لأنّكم جميعًا واحد في المسيح يسوع. فإذا كنتم للمسيح فأنتم إذًا نسلُ إبراهيم وأنتم الورثة وفقًا للوعد» (**غل ٣/ ٢٦-٢٩**).

أزمة في قلب الكنيسة

لم يكن مجمع أورشليم والأحداث العنيفة التي سبقته أوّلَ أزمةٍ عرفها تاريخُ الكنيسة، بل كانت تلك الأزمةَ التي تكوّنتِ الكنيسةُ في صميمها. قبل ذلك، لم تكن الكنيسةُ سوى مجموعة يهوديّة بين مجموعات يهوديّة أُخَر، رأت في يسوع ذلك المسيحَ الذي كان ينتظره الجميع. أمّا في ما بعد، فأصبحت فعلًا كنيسةَ الأمم، كنيسةً من أجل الشعوب كلّها، تُعبّر عن نفسها في الثقافات كلّها. فسِفر **أعمال الرسل** كلّه وفِكْرُ بولس كلّه تأثّرا بتلك الولادة الأليمة. واليوم أيضًا لم ينتهِ ذلك العبور: فمن جهة، نرى أنّ موقف الكنيسة مِن إسرائيل، من ذلك الجسم الأموميّ الذي كان لا بدّ من التخلّي عنه للحصول على كيانٍ بالذات، لم يجد مَخرجًا حتّى اليوم. وما زالت الأمّ والابنة تعانيان الصدمة. ومن جهةٍ أُخرى، لا ينتهي «العبور إلى الأُمَم» أبدًا، فإنّ هناك دائمًا أممًا جديدة وثقافاتٍ جديدة.

وكان على الكنيسة في ما يختصّ بها، أن تَجِدَّ وتَسلك، بفضل عملِ ابتكارٍ مُضنٍ، ذلك الطريق الذي سلكه يسوع، حين أعلن عبادة الله «بالروح والحقّ» متخطّيًا الهيكل والسبت والشريعة. وهل يمكن أن يُعبد الله في كلّ مكان وكلّ أمّة، وكلّ ثقافة حتّى لو كانت جديدة؟ وبأيّ ثمن يتمّ ذلك؟ إنّ طَرْحَ السؤال بهذا الشكل يبدو سهلًا، ولكنّه، في الواقع، كان يُثير أزمةً في كلّ مرّة لأنّ العبادة ترتبط دائمًا بأرضٍ وعِرْقٍ وممارسة خاصّة، وبالتالي بتعبير ثقافيّ، من دُون أن نشعر بذلك. وجدير بالذكر أنّ أعمال المجمع الأوّل لم تكن قطّ في إضافةِ قواعد جديدة، بل في حذف بعضٍ منها كان عقبةً في طريق كلمة الله. وفي ذلك كان المجمعُ مِن رأي يسوع الذي ردّ الشريعة اليهوديّة إلى وصيّتين هُما وصيّة واحدة. والعقبة التي اعترضت اعتراف الشعوب بالإيمان كانت تكمن في المطابقة بين الإيمان وأحد تعابيره الثقافيّة. والمبدأ الذي طرحه مجمع أورشليم (والذي يبقى) كان التالي: يجب ألّا يُرْغَم أحد على الخضوع لانتقالٍ ثقافيّ للوصول إلى الإيمان المسيحيّ. ويجب كذلك ألّا يُفْرَض على أيّ شخص يَرغب في أن يُصبح مسيحيًّا عاداتٌ تعود إلى ثقافة خاصّة ارتبطت بها الكنيسةُ في مراحل تاريخها.

(بقلم جان كلود إيلان Eslin).

الفصل الخامس

الخدمات الأوَل

بقلم أندره لُومِير(*)

كانت الجماعات الأُوَل تسعى لتنظيم أوضاعها
ولم يكن هناك أيّ شيءٍ صارم
بل مرونة كبيرة وتنوُّع واسع في توزيع «الخدمات».

كيف انتظمت الجماعات المسيحيّة الأُوَل؟

لَطالما نَقَص الصفاءُ اللازم عند الكاثوليك والبروتستانت، فلم يمكِّنهم من تناول هذه المسألة بكلّ موضوعيّة. فكانت كلُّ كنيسة أكثرَ أو أقلَّ ميلًا إلى جذب التاريخ إلى ناحيتها، لكي تُرجع إلى زمن العهد الجديد تنظيمَها الخاصّ، وتُرسي بذلك سلطةَ الخادمين فيها. لكنّ الروح المسكونيّة شقّت طريقها، وقد صارت العلاقات بين الكنائس أكثر مودّة، فأصبح التحرّر من الأفكار المسبَقة أكثر سهولةً في أيّامنا.

في الواقع، تطوَّر تنظيمُ الخدمات في الكنيسة القديمة، وتنوَّعَ بحسب تنوُّع حاجات مختلف الجماعات، ثمّ تغيّر على مدى المراحل الكبرى التي أثّرت في حياة الكنيسة الناشئة. فستكون مهمّتنا الأُولى إذًا إعادة رسم خطوط ذلك التطوّر، باستنادنا أساسًا إلى نصوص ذلك الزمان. وسنحاول بعدئذٍ، في مقالٍ ثانٍ، أن نعرف ما هي الاتّجاهات الكبرى التي قادت الكنيسة في وضع بِناها يومًا بعد يوم.

وسنجتاز هكذا نحوَ قرنٍ من التاريخ، في أربع مراحل:

- عهد الجماعة «القديمة» في أورشليم (حوالى السنين ٣٠ إلى ٤٣).
- العهد «الرسوليّ» (من السنة ٤٣ إلى ٦٥ تقريبًا).
- عهد «المبشِّرين والرعاة» (من السنة ٦٥ إلى ٩٥ تقريبًا).
- عهد «الآباء الرسوليّين» (من السنة ٩٥ إلى ١٥٠ تقريبًا).

وكلّ مرحلة يقابلها اتّجاه جديد في تنظيم الكنيسة.

وثيقة

الجماعة المسيحيّة الأُولى

«وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والمشاركة
وكسر الخبز والصلوات.
واستولى الخوف على جميع النفوس لِما كان يجري على أيدي
الرسل من الأعاجيب والآيات. وكان جميع الذين آمنوا

(*) André Lemaire، باحث في المركز الوطنيّ (الفرنسيّ) للبحث العلميّ.

جماعةً واحدة يَجعلون كلّ شيء مشتركًا بينهم، يبيعون أملاكهم
وأموالهم ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج
كلّ منهم، يلازمون الهيكل كلّ يوم
بقلبٍ واحد، ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام
بابتهاج وسلامة قلب، يسبّحون الله وينالون
حظوةً عند الشعب كلّه. وكان الربّ كلّ يوم يضمّ إلى الجماعة أولئك
الذين ينالون الخلاص». (**رسل ٢/ ٤٢-٤٧**)

«وكان جماعة الذين آمنوا قلبًا واحدًا ونفسًا
واحدة، لا يقول أحد منهم أنّه يملك شيئًا من أمواله،
بل كان كلّ شيء مشتركًا بينهم، وكان الرسل يؤدّون الشهادة بقيامة
الربّ يسوع تصحبها قوّة عظيمة،
وعليهم جميعًا نعمة وافرة. فلم يكن فيهم
محتاج، لأنّ كلّ من يملك الحقول أو البيوت كان يبيعها،
ويأتي بثمن المبيع، فيلقيه عند أقدام الرسل، فيعطَى
كلٌّ منهم على قدر احتياجه». (**رسل ٤/ ٣٢-٣٤**)

«وكان يجري على أيدي الرسل في الشعب
كثير من الآيات والأعاجيب. وكانوا يجتمعون كلّهم من دون استثناء
في رواق سليمان. ولم يجرؤ أحد من سائر الناس أن يلتحق
بهم، مع أنَّ الشعب كان يعظّم شأنهم، بل كانت جماعات
الرجال والنساء تزداد عددًا فتنضمّ
إلى الربّ بالإيمان. حتى إنّهم كانوا يَخرجون
بالمرضى إلى الشوارع، فيضعونهم على الأسرّة والفرش،
لكي يقع ولو ظلّ بطرس عند مروره على
أحد منهم. وكانت جماعة الناس تبادر من المدن المجاورة
لأورشليم، تحمل المرضى والذين بهم مسّ من الأرواح
النجسة فيشفون جميعًا». (**رسل ٥/ ١٢-١٦**)

الجماعة «القديمة» في أورشليم

(من السنة ٣٠ إلى ٤٣ تقريبًا)

ورد في مطلع **أعمال الرسل** وصفٌ لِما كانت عليه الجماعة المسيحيّة الأُولى تلك من حرارة التقوى (**رسل ٢/ ٤٢-٤٧ و٥/ ١٢-١٦**). هؤلاء هم مؤمنون يطبِّقون الإنجيل! إنّهم «يؤدّون الشهادة بقيامة الربّ يسوع».

ومع ذلك، لم يكن كلّ شيء مثاليًّا في اللوحة التي رسمها لوقا: فعلى جماعة أورشليم أن تواجه الاضطهادات في الخارج. وهناك في الداخل مشاكل لا بدّ من حلّها. ومِن بينها العقبات الصادرة عن تنظيم

الجماعة. ففي سفر **الأعمال** أكثَرُ من تلميحٍ إلى ذلك الأمر.

وهناك فقرتان خصوصًا تكشفان لنا إلى أيّ درجة كان إرساء بُنَى الخدمات في الجماعة يشغل بال المسؤولين عنها (**رسل ١/ ١٥-٢٦ و٦/ ١-٦**).

إختيار متِّيَّا

الفقرة الأولى تروي اختيار متّيّا لإكمال عدد جماعة الاثني عشر. واليوم يسلّم معظمُ المؤرّخين بأنّ اختيار مجموعة خاصّة من اثني عشر تلميذًا يرقى عهده إلى يسوع: فإنّ عبارة «أحد الاثني عشر» المستعملة في روايات الآلام للدلالة على يهوذا تشهد بوضوح على أنّ تلك المجموعة قد وُجدت قبل موت المسيح. أمّا لقب «رسول» فلم يكن مستخدمًا إلى ذلك اليوم، كما يتّضح من دراسة مفصّلة حول النصوص الإنجيليّة. لكنّ عبارة «الرسل الاثني عشر» لا يثبت استعمالها إلّا بعد موتهم، وهي تطابق طريقة الكلام عند المسيحيّين في نهاية القرن الأوّل. وفي الزمن الذي نحن بصدده، كانوا يشيرون إلى المجموعة التي يرئسها بطرس بعبارة «الاثني عشر» فقط. ولكن لماذا أسّسها يسوع؟ وماذا يعني عدد الاثني عشر هذا؟ في نظر اليهوديّ الذي عاش في القرن الأوّل ونشأ على تقليد العهد القديم، الجواب بديهيّ: في العدد اثني عشر إشارة مباشرة إلى أسباط إسرائيل الاثني عشر. وإذ كان يسوع قد اختار اثني عشر رجلًا، فلكي يجعل منهم كَوادِرَ إسرائيل الجديد، كما يؤكّد ما أورده متّى في إنجيله (١٩/ ٤٨): «الحقّ أقول لكم: أنتم الذين تبعوني، متى جلس ابنُ الإنسان على عرش مجده عندما يجدّد كلّ شيء، تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر عرشًا، لتدينوا أسباط إسرائيل الاثني عشر».

ففي تسمية «الاثني عشر» ما يكفي للتعبير عن المسؤولية التي أُلقِيَت على عاتق تلك المجموعة بعد رحيل المسيح.

ولكن ممّا يؤسَف عليه أنّ عدد الأعضاء الاثني عشر كان مبتورًا: فبعد أن شارك يهوذا في اعتقال معلّمه، أقدم على الانتحار. وإذا اقتصرت المجموعة على أحد عشر عضوًا، فقدت معناها. فما العمل إذًا؟ كان الحلّ عند بطرس، إذ إنّه اقترح على الجمع أن يختار بديلًا ليهوذا. فقُدِّم مرشَّحان يتمّمان الشروط، ولكي يثبت أنّ اختيار المسؤولين عن إسرائيل الجديد يعود إلى الله، أُجري الاختيار النهائيّ بالقرعة. فانتُخب متّيّا. ويتّضح من تلك الرواية أنّ «الاثني عشر» كانوا يؤلّفون إطار جماعة أورشليم «القديمة». وكانت تلك الجماعة مكوَّنةً آنذاك من مؤمنين من أصل يهوديّ كانوا يعترفون بأنّ يسوع هو المسيح. وكان مهمّة الاثني عشر الأساسيّة أن تُعلن قيامة يسوع (**رسل ١/ ٢٢**) إلى «رجال إسرائيل» (**رسل ٢/ ٢٢ و٣/ ١٢ و٥/ ٣٥**).

مشكلة الهلّينيّين

لاقى تبشير الاثني عشر نجاحًا كبيرًا. لكنّ هٰذا النجاح نفسه أثار مشكلةً جديدة: «في تلك الأيّام كَثُر عدد التلاميذ، فأخذ اليهود الهلّينيّون يتذمّرون على العبرانيّين لأنّ أراملهم يُهْمَلن في خدمة توزيع الأرزاق اليوميّة» (**رسل ٦/ ١**).

إن التوتّر الذي ظهر إذذاك يَسهل تبريرُه، إذ إنّ سكّان أورشليم كانوا متحدّرين من أصول مختلفة. فكان هناك «العبرانيّون» وهم فلسطين ولغةُ مولدهم هي الآراميّة (التي كانت تُكتب في ذلك الزمان بالحروف التي تكتب بها العبرانيّة). وهناك أيضًا «الهلّينيّون» الآتون من بلدان الشتات، أي من مختلف الجماعات اليهوديّة المنتشرة في حوض البحر المتوسّط، ولغة مولدهم هي اليونانيّة. وغالبًا ما كان الهلّينيّون أغنى وبالأخصّ أكثرَ انفتاحًا على الصعيد الثقافيّ من العبرانيّين. وكان «الاثنا عشر» عبرانيّين بأجمعهم. ففي إدارة صندوق المعونات التابع للجماعة، كانوا ميّالين إلى مساعدة أولئك الذين

يتكلّمون لغتهم قبل غيرهم، حتّى ولو قابلوا أرامل الهلّينيّين ببعض الإهمال.

كان هذا الأمر أخطر ممّا يبدو عليه للوهلة الأولى، لأنّ المسألة تتعلّق بوحدة المؤمنين وتضامنهم داخل الكنيسة. وقد أدرك الاثنا عشر تمامًا أنّهم لا يستطيعون القيام بكلّ شيء، وأنّهم لن ينقطعوا عن مواجهة الصعوبات في الاهتمام بالوثنيّين. فاختاروا إذًا أعقلَ الحلول، وهو يقضي بأن يتولّى الهلّينيّون بأنفسهم تنظيم أوضاعهم في جماعة مستقلّة يكون لها رجال يَخدمون فيها فقط، وهم «السبعة». وقد تحمّلت هذه المجموعة الجديدة، التي لا تمتّ بصِلة إلى تأسيس الشمّاسيّة، مسؤوليّة جماعة الهلّينيّين المسيحيّة في أورشليم.

ولم يتضمّن هذا الأمر مساعدة الأرامل وحسب، بل إعلان البشرى أوّلًا وقبل كلّ شيء.

تبشير محفوف بالمخاطر

أظهر إسْطِفانُس، رئيس السبعة، جرأةً كبيرة في تبشيره، حتّى إنّه ما لبث أن أُوقف: أَفَلَم يجرؤ على التعرّض لهيكل أورشليم؟ وألقى أمام قضاته خطبة لم يكن من شأنها أن تبرّئه، بل بالأحرى أن تزيد في خطورة قضيّته، فنُفِّذ فيه حكم الإعدام. وطال الاضطهادُ مجملَ الهلّينيّين، فتشتّتوا «في نواحي اليهوديّة والسامرة» (**رسل ٨/ ١**)، كما اضمحلّت أيضًا مجموعة السبعة بصفتها مجموعةً منظَّمة. لكنّ ذلك لم يَمنع بعضًا من أعضائها، كفيلبّس (**رسل ٨/ ٤-٤٠**)، من مواصلة التبشير بالإنجيل، كلٌّ من ناحيته.

وما لبثت مجموعة الاثني عشر أن لاقت المصير نفسه. فقد أهلك الملكُ هيرودس يعقوبَ أخا يوحنّا. وألقى القبضَ على بطرس (**رسل ١٢/ ٢-٣**). وكان هذا الاضطهاد الدامي نهايةَ جماعة «الاثني عشر»: أمّا الناجون فقد اضطُرُّوا، وأوّلهم بطرس، إلى مغادرة أورشليم (**رسل ١٢/ ١٧**) والتشتُّت. وهنا يُطرح السؤال التالي: لماذا لم يتمّ اختيار خَلَف ليعقوب، كما جرى في شأن يهوذا؟ ربّما صعب على الناجين المشتّتين أن يجتمعوا. لكنّ الراجح أنّه كان هناك سبب أوجَه: ففي ذلك الوقت قُبِل الوثنيّون الأوّلون في الكنيسة (**رسل ١٠ و١١**)، ولذلك فَقدت مجموعةُ الاثني عشر، المرتبطة برمزيّة إسرائيل الاثني عشر سبطًا، علّةَ وجودها. وقد أدّى الانفتاحُ على الوثنيّين إلى تنظيم خدمات أُخَر في الكنيسة.

العهد الرسوليّ

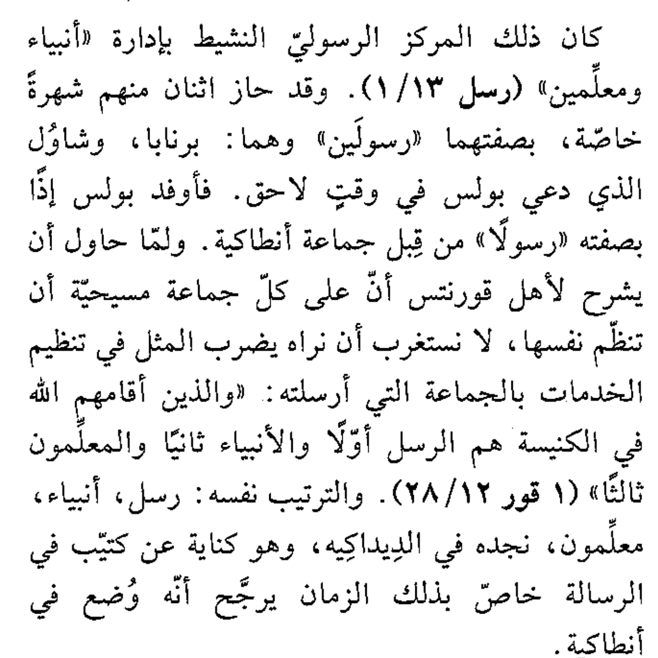
(من السنة ٤٣ إلى ٦٥ تقريبًا)

كان لا بدّ من إعلان البشرى إلى الوثنيّين واليهود على السواء، فكان من المستحيل تحمُّل تلك المسؤوليّة مع البقاء في أورشليم: فاقتضى الأمرُ إرسال رجال مكلَّفين بالتبشير إلى مجمل بلدان حوض البحر المتوسّط. وانتظمت هٰكذا الخدمةُ الرسوليّة التي قام بها «الرسل»، علمًا بأنّ هذه الكلمة تعني «المرسَلين».

وكان ذلك العهد عهدَ الإرساليّات الكبريات الذي انتهى بموت «الرسولَين» الكبيرين بطرس وبولس في روما حوالى السنوات ٦٤-٦٧.

ولكن مِن أين انطلقت مبادرةُ الرسالة لدى الوثنيّين؟ يبدو أنّ الفكرة تعود إلى جماعة الهلّينيّين في أنطاكية. ففي هذه المدينة سُمّي التلاميذ أولَّ مرّة «مسيحيّين» (**رسل ١١/ ٢٦**)، وفيها أعلنت البشرى أوّلَ مرّة لليونانيّين (**رسل ١١/ ٢٠**) ومنها أُرسل رسميًّا، أوّل مرّة على الأرجح مبشِّرون لإعلان الإنجيل في مدن حوض البحر المتوسّط (**رسل ١٣/ ١-٣**).

تنظيم الخدمات في أنطاكية

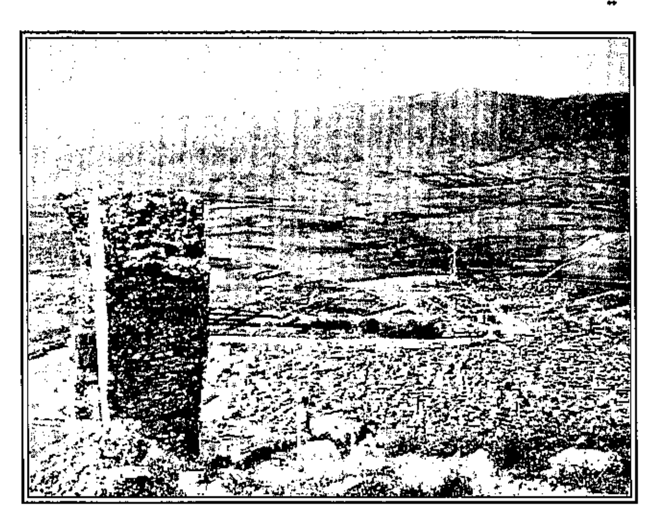


كان ذلك المركز الرسوليّ النشيط بإدارة «أنبياء ومعلّمين» (**رسل ١٣/١**). وقد حاز اثنان منهم شهرةً خاصّة، بصفتهما «رسولَين» وهما: برنابا، وشاوُل الذي دعي بولس في وقتٍ لاحق. فأوفد بولس إذًا بصفته «رسولًا» من قِبل جماعة أنطاكية. ولمّا حاول أن يشرح لأهل قورنتس أنّ على كلّ جماعة مسيحيّة أن تنظّم نفسها، لا نستغرب أن نراه يضرب المثل في تنظيم الخدمات بالجماعة التي أرسلته: «والذين أقامهم الله في الكنيسة هم الرسل أوّلًا والأنبياء ثانيًا والمعلّمون ثالثًا» (**١ قور ١٢/٢٨**). والترتيب نفسه: رسل، أنبياء، معلّمون، نجده في الدِيداكِيه، وهو كناية عن كتيّب في الرسالة خاصّ بذلك الزمان يرجّح أنّه وُضع في أنطاكية.

لنحاول أن نَحصر عن كثب أيًّا كانت بنية تلك الخدمات:

– إنّ «الرسل» هم في الأساس «مرسَلون» موفَدون لإعلان الإنجيل للجماعات الأُخَر. وهم أيضًا متنقّلون: فبعد أن تُعلَن البشارة في إحدى المدن وتصبح الجماعة المسيحيّة فيها متينةً بما فيه الكفاية، يواصل الرسول طريقه ليبشّر في مكان آخر. وعند انتهاء رسالته، كان يعود إلى الجماعة الرئيسيّة ليُطلعها على عمله (**رسل ١٤/٢٧ و١٨/٢٢**). وكان الرسل يرسَلون اثنين اثنين بوجهٍ عامّ: هكذا نرى برنابا وبولس (**رسل ١٣/٢**) ويهوذا وسِيلا (**رسل ١٥/٢٧**)...

في تلك الحقبة، يمكننا القول إنّ هناك رسالة مخطّطة على مستوى حوض البحر المتوسّط وقد كانت نتيجةً لِـ«اتّفاق أورشليم الذي أتى بولسُ على ذكره في (**غل ٢/٩**): ولم يكن توزيع حقول الرسالة جغرافيًّا، بل «إثنيًّا ثقافيًّا». فكان بعضهم مسؤولًا عن اليهود وبعضهم الآخر عن الوثنيّين. وكان كلّ رسول «متخصّصًا» إلى حدّ ما: وهكذا كان بولس «رسول الأمم» (**روم ١١/١٣**) في حين أنّ بطرس يقوم برسالته لدى يهود الشتات (**١ بط ١/١**). وهذا التوزيع «الإثنيّ



أنطاكية (منظر من جبل سلبيوس)

الثقافيّ» يفسّر لنا كيف أنّ الرسولَين الكبيرين أعلنا البشارة في المدن نفسها: في أنطاكية (**غل ٢/١١**) وفي رومة (**رسل ٢٨/٣٠**) وربّما في قورنتس (**١ قور ١/١٢**).

– وكان «الأنبياء» يُعرفون من حديثهم «بالروح» (**ذ. ١١/٧-٨** و**١ قور ١٤/٢٩-٣٢**). وقد حفظ لنا سِفر **أعمال الرسل** «نبوءتَين» نَطَق بهما بعض الأنبياء. أُعلنت الأُولى منهما في الاجتماع الطقسيّ الذي ضمّ مسيحيّي أنطاكية: «أَفرِدوا برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه» (**رسل ١٣/٢**). والثانية تلفّظ بها نبيّ اسمه أغابُس في قيصريّة وأرفقها بعملٍ رمزيّ: «إنّ الروح القدس يقول: صاحب هذا الزنّار يشدّه اليهود هكذا في أورشليم، ويسلمونه إلى أيدي الوثنيّين» (**رسل ٢١/١١**). ويمكننا أن نقول بوجه أعمّ إنّ الأنبياء كانوا يقومون بدور طليعيّ في الاجتماعات الطقسيّة: فقد كانوا «وُعّاظًا». كانوا في الواقع يُلقُون ما نسمّيه نحن اليوم العظة بعد قراءة الكتب المقدّسة ويَتلون صلاة الشكر أو ما نسمّيه اليوم الصلاة «الإفخارستيّة» (**الذيذاخة** *(Didaché)* ١٠/٤، راجع **١ قور ١٤/١٥-١٧**).

– أمّا «المعلّمون» فغالبًا ما كانوا يُجمَعون إلى

«الأنبياء» كما يتّضح من العبارة المزدوجة «الأنبياء والمعلّمون» (**رسل ١٣/ ٢، ذيذاخة ١٥/ ١**). وإلى جانب دورهم في الاجتماع الطقسيّ، كان عليهم أن يلقوا تعليمًا أكثر انتظامًا ومبنيًّا على الكتب المقدّسة على طريقة الرابّيين اليهود في ذلك الزمان. هذا وإنّ معظمهم كانوا رابّيين يهود مهتدين: هذا شأن شاول (بولس) الذي تدرّب على ممارسة الشريعة عند قدمَي الرابّي جَملائيل (**رسل ٢٢/ ٣**)، وهذا أيضًا شأن أبُلّس ذلك «الرجل الفصيح اللسان والمتبحّر في الكتب» الذي تلقّى تعليمه، بدون شكّ، وفقًا للتقليد التفسيريّ المتّبع في مدرسة الإسكندريّة (**رسل ١٨/ ٢٤**). إنّ هذه الهيكليّة في مركز أنطاكية الرسوليّ هي التي ساعدت على إشعاعه المدهش في القرن الأوّل. لكنّ الجماعات المسيحيّة كلّها في ذلك الزمان لم تكن منظّمةً وفقًا للنموذج نفسه. ففي «زيارة» الجماعات الأُخَر نجد نماذج أُخرى من التنظيم.

في سائر الجماعات

تبدو الجماعة المسيحيّة في أورشليم منظّمة على النمط التقليديّ الذي عرفته الجماعات اليهوديّة: كان على رأسها مجموعة «شيوخ» يرئسها يعقوب «أخو الربّ». وكانوا يسهرون معًا على الجماعة، على الصعيد الروحيّ بدراسة الشريعة والتوجيهات الرعويّة والأخلاقيّة (رسل ١٥)، وعلى الصعيد المادّيّ بتولّي إدارة صندوق الجماعة خاصّةً (**رسل ١١/ ٢٩-٣٠، راجع غل ٢/ ١٠**). ونرى التنظيم «الشيوخيّ» هذا في الجماعات المسيحيّة التي من أصل يهوديّ في قيليقية وجنوب آسية الصغرى حيث عَيَّن بعضُ الرسل، «يهوذا وسيلا» على الأرجح (راجع **رسل ١٥/ ٢٢-٣٥**) «شيوخًا في كل كنيسة» (**رسل ١٤/ ٢٣**).

وفي تسالونيقي، يَسأل بولس الجماعة أن تكرّم أولئك الذين يجهدون من أجلها بالرعاية والوعظ (**١ تس ١٢-١٣**).

وعندما يوجِّه بولس كلامه إلى كنيسة فيلبّي في مقدونية، يحيِّي على الأخصّ «المشرفين والخدّام» («إپيسكُوپُوي كاي دِياكُونُوي»: الأساقفة والشمامسة) في تلك الجماعة: ومن الراجح أنّ العبارة المزدوجة هذه تدلّ على المسؤولين عن الجماعات المحلّيّة المسيحيّة التي من أصلٍ وثنيّ والتي ترتبط بمركز أنطاكية الرسوليّ. وفي الواقع، يوصي **الذيذاخة** الجماعات الجديدة هذه بأن «اختاروا إذًا مشرفين وخدّامًا يليقون بالربّ، رجالًا ودعاء، متجرّدين، صادقين وممتحَنين، لأنّهم يقومون من أجلكم، هم أيضًا، بعمل الأنبياء والمعلّمين» (**ذ. ١٥/ ١**).

وهكذا، يتميّز العهد «الرسوليّ» بانتشارٍ مدهش للجماعات المسيحيّة بفضل خدمة «الرسل» المتخصّصة، من جهة، وبتنوّع كبير جدًّا في وضعِ بُنى الخدمات في الكنائس المحلّيّة، من جهةٍ أخرى.

عهد «المبشّرين والرعاة»

(من السنة ٦٥ إلى ٩٥ تقريبًا)

لمّا توفّي الرسولان الكبيران بطرس وبولس في رومة، كان الإنجيل قد بلغ أهمّ المراكز في حوض البحر المتوسّط. فانتشرت الجماعات المسيحيّة الكبرى في رومة، وقورنتس، وأفسس، وأنطاكية، وقيصريّة، والإسكندريّة على الأرجح.

وبعد الانتشار الجغرافيّ، جاء وقت الترسيخ. فبعد موت كبار الشهود، كان على المسؤولين عن الكنائس أن يسهروا خصوصًا على الأمانة لتعاليم المعلّم وعلى وحدة مختلف الجماعات. فكان ذلك العهد عهد الخدّام المدعوّين «مبشّرين ورعاة» (**أف ٤/ ١١**).

توصيات ملحّة

فاضت كتابات ذلك العهد بتوصيات خاصّة موجَّهة إلى المسؤولين عن الجماعات المحلّيّة: «فتنبَّهوا لأنفسكم ولجميع القطيع الذي جعلكم الروح القدس حرّاسًا له (إِپيسكُوپُوس) لتسهروا على كنيسة الله» (**رسل ٢٠/ ٢٨**).

«إرْعوا قطيع الله الذي وُكِل إليكم واحرسوه طوعًا لا كرهًا، لوجه الله، لا رغبةً في مكسب خسيس، بل لِما فيكم من حميّة. ولا تتسلّطوا على الذين هم في رعيّتكم، بل كونوا قدوةً للقطيع» (**١ بط ٥/ ٢-٣**).

وغالبًا ما كان يتخلّل تلك الإرشادات تحذيراتٍ شديدة اللهجة، كما نقرأ في المقطع التالي:

«وأنا أعْلم أن سيدخل فيكم بعد رحيلي ذئاب خاطفة لا تُبقي على القطيع ويقوم من بينكم أنفسكم أناس يتكلّمون بالضلال ليحملوا التلاميذ على اتّباعهم. فتنبّهوا...» (**رسل ٢٠/ ٢٩-٣١**).

ويُستخلص من هذه التحذيرات أنّ كنيسة ذلك الزمان كانت قد عاشت اختبارًا مؤلمًا بسبب سلوك الرعاة الشائن والأحاديث الخرق التي أدلى بها بعض المبشّرين.

شيوخ وشمامسة

وفي الإطار التاريخيّ هذا، ارتأى أحد تلامذة بولس أنّه من الضروريّ أن يعطي، باسم الرسول الكبير، بعض التوجيهات العمليّة والرشيدة في ما يختصّ بحياة الجماعات واختيار الخدّام وممارسة خدماتهم. فكَتب الرسالتين إلى طِيمُوثاوس والرسالة إلى طِيطُس، وقد دُعيتْ بحقّ «الرسائل الرعائيّة». وكانت غايته الأُولى من هذه الرسائل أن تنظِّم الجماعات المسيحيّة: «إنّما تركتُك في كريت لتُتمّ فيها تنظيم ما بقي من الأمور وتقيم شيوخًا في كلّ بلدة» (**طي ١/ ٥**). فلا بدّ من إقامة مجموعة «شيوخ» على رأس كلّ جماعة يتولّون رئاستها و«يتعبون في خدمة الكلمة والتعليم» (**١ طيم ٥/ ١٧**). وإلى جانب الصفات الخُلقيّة الطبيعيّة، على المرشَّح لتلك الوظيفة أن يكون بالتالي «أهلًا للتعليم» (**١ طيم ٣/ ٢**). وعليه أيضًا أن يُظهر أنّه قد كان ربّ عائلة صالح: «فكيف يُعنى بكنيسة الله من لا يحسن رعاية بيته؟» (**١ طيم ٣/ ٥**).

وإلى جانب هؤلاء الشيوخ الذين يدعَون أحيانًا مشْرفين (إپيسكُوپُوي)، كان في الجماعة المسيحيّة في أفسس «شمامسة» أيضًا. وهؤلاء الخدّام يَرِد ذكرهُم هنا، في (**١ طيم ٣/ ٨-١٣**)، للمرّة الأُولى. ولكن ممّا يؤسف له أنّ النصّ غير دقيق، نستنتج منه فقط أنّ الشمّاسيّة كان يمارسها، على ما يبدو، الرجال والنساء على السواء، وتَحْمِل بعضُ الدلائل على الافتراض أنّ الشمامسة كانوا يمارِسون خدمةً جوّالة انطلاقًا من المراكز الكبرى التي يشرف عليها «مبشِّر»: وهذا شأن طيموتاوس في أفسس (**٢ طيم ٤/ ٥**) وفيلبّس في قيصريّة (**رسل ٢١/ ٨**).

وكان الرعاة والشيوخ والشمامسة والمبشّرون يواصلون طبعًا عمليّة التبشير. ولكن يبدو أنّ خدّام الكنائس في نهاية القرن الأوّل كانوا حريصين بوجهٍ خاصّ على تنشيط الجماعات المحلّيّة، رغبةً منهم في السهر على وحدتها وأمانتها لتعليم المعلِّم.

عهد الآباء الرسوليّين

(من السنة ٩٥ إلى ١٥٠ تقريبًا)

إلى جانب نصوص العهد الجديد حفظ التقليد عدّة مؤلّفات يرقى عهدها إلى نهاية القرن الأوّل، وإلى النصف الأوّل من القرن الثاني بوجهٍ خاصّ. ويُطلَق عليها عادةً اسم مؤلّفات الآباء الرسوليّين. وثيقتان من

هذه الوثائق مصدرها رومة: وهما رسالة إقلِيمَنْضُس الرومانيّ إلى أهل رومة، **وراعي هرماس**. ووثيقتان أُخرَيان مصدرهما آسية الصغرى: وهما رسائل إغناطيوس الأنطاكيّ وبوليڤَرپُس الإزمِيريّ.

رسائل إقليمَنضُس وپُوليقرپُس

في الرسالة التي وجّهها إقليمنضس الرومانيّ إلى جماعة قورنتس، يواجه مباشرةً مشكلة وضع بُنى الخدمات في الكنيسة المحلّيّة. فقد تمرّد بعض أعضاء جماعة قورنتس على الشيوخ، وما كان من هؤلاء إلّا أن سألوا إقليمنضس أن يحكم في النزاع. وكان الحلّ الذي اقترحتْه رومة في منتهى البساطة: بما أنّ أولئك الشيوخ لم يرتكبوا أيّ خطأ، فمن الظلم إقالتهم من وظائفهم، وعلى المتمرّدين أن يطيعوهم أو أن يرحلوا عن الجماعة.

يبدو إذًا أنّ «الشيوخ»، على غرار «الأقدمين» في التقليد اليهوديّ، كانوا يقومون بوظائفهم مدى الحياة، ما لم يصدر عنهم خطأ ما.

والمؤسف أنْ نقول إنّ هذه الحالة لم تكن افتراضيّة تمامًا. ففي الرسالة التي وجّهها پُوليقرپس إلى أهل فيلبّي، رأى نفسه مضطرًّا إلى الموافقة على عزل الشيخ ڤالِنْسِيُوس من منصبه لأنّه أذنب على الأرجح، بالتواطؤ مع زوجته، باختلاس بعض الأموال. وبوجهٍ أعمّ، يشدّد مؤلِّفو هاتين الرسالتين، بشكلٍ شبه حصريّ، على دور الشيوخ الرعائيّ، من دون إشارةٍ واضحة إلى خدمة الكلمة. وبعد تحرير الأناجيل وإعلان قانونيّة نصوص العهد الجديد، كان من الطبيعيّ أن تتقدّم مسألة الأمانة لِلتعليم على مسألة الوحدة والمشاركة في داخل كلّ من الجماعات.

شهادة إغناطيوس الأنطاكيّ

لندَعْ جانبًا شهادة **راعي هِرماس** الذي يصعب تفسيرها بسبب نوعها الأدبيّ الخاصّ، ولنأخذ شهادة إغناطيوس الأنطاكيّ.

ففي الرسائل التي كتبها إغناطيوس إلى كنائس آسية الصغرى، يَظهر قوله واضحًا للغاية: لا بدّ من الحفاظ على وحدة الجماعات مهما كلّف الثمن. ولذلك، يجب على جميع الأعضاء أن يطيعوا رئيسًا واحدًا هو الأسقف: «لا يَقومنّ أحد بأيّ شيء يتعلّق بالكنيسة بمعزل عن الأسقف. ولا تُعَدّ أيّة إفخارستيّا شرعيّةً إلّا تلك التي يرئسها الأسقف أو مَن يكلّفه هو بذلك... مَن يقوم بعملٍ ما دون علم الأسقف، إنّما يخدم الشيطان» **(الرسالة إلى أهل إزمير ٧/١ و٩/١)**. فعلى الأسقف أن يكون رئيسًا من دون منازع لكلّ جماعة من الجماعات المحلّيّة. ومع ذلك يجب ألّا يمارس وظيفته منفردًا، بل أن يحيط به مجلسُ شيوخ الجماعة، البِرِسْبِيتارِيُوم (presbyterium) **(الرسالة إلى أهل إزمير ٨/١ و١٢/٢)**، وإليه يجب أن يستند الأسقف، إذ إنّ الانسجام في الجماعة يتوقّف على الانسجام القائم بين الأسقف والپرسبيتاريوم، وعلى هٰذا أن يكون متناغِمًا مع الأسقف «كالأوتار مع القيثار» **(الرسالة إلى أهل أفسس ٤/١)**.

وقد أشار إغناطيوس، وپوليقَرپُس من بعده، عدّة مرّات إلى الشمامسة: ويبدو أنّ هؤلاء كانوا مرتبطين مباشرةً بالأسقف، وهو قد يَعهد إليهم بمختلف المهمّات المتنقّلة. وكانوا يؤمّنون الاتّصالات بين الكنائس ويشاركون في خدمة «كلمة الله» **(الرسالة إلى أهل فِيلادِلْفِيَة ١١/١)**.

إنّ الهيكليّة التي اقترحها إغناطيوس الأنطاكيّ كانت على الشكل التالي: الأسقف، والشيوخ والشمامسة. وهذا ما اصطلح على تسميته السلطةَ الثلاثيّة. وقد استمرّت حتّى أيّامنا، نظريًّا على الأقلّ، في الكنائس الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة والأنغلِيكانيّة. وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ السلطة الثلاثيّة هذه لم يرِد ذكرُها في العهد الجديد وأنّ إغناطيوس الأنطاكيّ هو أوّل من أعطانا عنها شهادةً ثابتة.

وثيقة

رسالة إغناطيوس إلى أهل طرالّس (Tralliens)

فلا بدّ لكم، كما تفعلون، ألّا تعملوا أيّ شيء بمعزل عن الأسقف، بل أن تخضعوا أيضًا لمجلس الشيوخ كما لرسل يسوع المسيح رجائنا، الذي به نكون إنْ عشنا كذلك.

وعلى الشمامسة أيضًا، بصفتهم خدّام أسرار يسوع المسيح، أن يُرضوا الجميع من جميع الوجوه، لأنّهم ليسوا خدّام المأكل والمشرب، بل خدّام كنيسة يسوع المسيح! فلا بدّ إذًا من أن يجتنبوا كلّ ما يسبّب اللوم اجتنابَهم النار.

وكذلك، فليكرم الجميعُ الشمامسةَ إكرامهم يسوع المسيح، وليكرموا الأسقف الذي هو صورة الآب، والشيوخ، كأنّهم مجلس شيوخ الله، ومجلس الرسل: فبدونهم لا وجود للكنيسة.

(الرسالة إلى أهل طرالّس ٢/٢-٣/١)



إستشهاد القدّيس إغناطيوس الأنطاكيّ

في نهاية الجولة الخاطفة

في ختام الجولة التاريخيّة الخاطفة هٰذه على مختلف الخدمات في الكنيسة القديمة، تستولي علينا الدهشة من وفرة بُنى الخدمات: الاثنا عشر، والسبعة، والرسل، والأنبياء، والمعلّمون، والشيوخ، و«المشرفون والخدّام»... ففي كلّ مرحلة من المراحل واجهت الكنيسةُ القديمة حاجاتٍ جديدة وأولويّات جديدة. وقد أنشأت بعضَ الخدمات وطوّرتها بحسب ما تقتضيه تلك الحاجات الجديدة، في حين اختفت خدمات أُخَر لأنّها لم تعد تلائم الأوضاع الجديدة في الكنيسة. وقد طاول هٰذا التكييف حياةَ الخدّام مباشرةً، بحيث شهدنا «تكييفات» حقيقيّة: فبعد أن كان بطرس رئيسَ جماعة الاثني عشر، أصبح الرسولَ الأوّل إلى يهود الشتات، وكذٰلك فيلبّس، أحدُ السبعة، أصبح في ما بعد «مبشّرًا» مسؤولًا عن إعلان البشارة في منطقة قيصريّة...

وهذا التنوّع في تنظيم الخدمات الذي عَرَفته الكنيسةُ الأُولى ازداد الاعترافُ به في أيّامنا، فأصبحنا نعلم أن لا حاجة للبحث في العهد الجديد عن نمط نموذجيّ ووحيد لبناء هيكليّة الخدمات. ولٰكن، هل تستطيع الكنيسة بالتالي أن تنتظم كيفما كان؟ وهل يستطيع خدّام الكنيسة أن يقوموا بأيّ شيء كان؟ أوليس ممكنًا أن نستخرج من تنوّع الخدمات الواردِ ذكرُها في العهد الجديد بعضَ التوجيهات الأساسيّة التي لا يَستغني عنها تلاميذُ المسيح في كلّ زمان ومكان؟

الفصل السادس

في خدمة الجماعة

بقلم أَندريه لُومِير(*)

خدمة أو خدمة رسوليّة، كلمتان لهما معنًى واحد.
وفي السنين الأُوَل تلك من حياة الكنيسة، كانوا لا ينظرون
إلى المكلَّف بخدمة رسوليّة كإلى صاحب امتياز أو شرف،
بل إلى من يقوم برسالة.

لم ينشئ يسوع نفسُه سوى خدمة الاثني عشر الرسوليّة، وهي ما لبثت أن زالت. إلّا أنّه عرض، بقدوته وتعليمه، توجيهات فريدة لممارسة المسؤوليّات في الكنيسة.

إنّ السلطة خدمة. هذا هو المبدأ الأساسيّ الذي يرقى عهدُه إلى يسوع نفسه: «تَعلمون أنّ الذين يُعَدّون رؤساء الأمم يسودونها، وأنّ أكابرها يتسلّطون عليها. فليس الأمر فيكم كذٰلك. بل مَن أراد أن يكون كبيرًا فيكم، فليكن لكم خادمًا. ومَن أراد أن يكون الأوّل فيكم، فليكن لأجمعكم عبدًا. لأنّ ابن الإنسان لم يأت ليُخدَم، بل ليَخدم ويفدي بنفسه جماعة الناس» **(مر ١٠/ ٤٢-٤٥)**. والقدرة التي جعلها يسوع من نفسه انطلاقًا من هذا الأمر كانت في غاية الوضوح. فبعد أن ذَكَر كاتبُ الإنجيل الرابع غسْل الأقدام، حرص على التنويه بقيمته المقياسيّة لجميع خدّام الكنيسة: «أتفهمون ما صنعتُ إليكم؟ أنتم تدعونني «المعلّم والربّ» وأصبتم في ما تقولون، فهكذا أنا. فإذا كنتُ أنا الربّ والمعلّم قد غسلت أقدامكم، فيجب عليكم أنتم أيضًا أن يغسل بعضُكم أقدام بعض. فقد جَعلتُ لكم من نفسي قدوةً لتِصنعوا أنتم أيضًا ما صنعتُ إليكم. الحقّ الحقّ أقول لكم: ما كان الخادم أعظم من سيّده ولا كان الرسول (أَپوسْتُولُوس) أعظم من مُرسِله» **(يو ١٣/ ١٢-١٦)**. فهذا المبدأ يرتبط إذًا بأشدّ التقاليد الإنجيليّة أصالةً.

ونجد له صدًى مباشرًا في التوصيات التي وجّهها بطرس إلى الشيوخ في رسالته الأُولى قائلًا: «إرعَوا قطيع الله الذي وُكل إليكم واحرسوه طوعًا لا كرهًا، لوجه الله، لا رغبةً في مكسب خسيس، بل لما فيكم من حميّة. ولا تتسلّطوا على الذين هم في رعيّتكم، بل كونوا قدوةً للقطيع» **(١ بط ٥/ ٢)**.

ومن السهل أن نُكثر الشواهد من نصوص العهد الجديد، ولٰكن لا فائدة في ذٰلك. فالتوجّه الإنجيلي في هذه المسألة هو في غاية الوضوح، ومِن شأنه أن يساعد على التمييز بين القيام بالخدمة الرسوليّة في الكنيسة وممارسة السلطة في العالم. فالسلطة في الكنيسة لا تهدف إلى السيطرة بل إلى الخدمة.

في خدمة كلمة الله

مارس يسوع نفسُه خدمته الرسوليّة بإعلانه كلمة الله. فبحسب ما ورد في إنجيل القدّيس مرقس، أعلن يسوع البشارة منذ بدء أمره في الجليل: «حان الوقت واقترب ملكوت الله. فتوبوا وآمنوا بالبشارة...» (مر ١/ ١٥).

(*) André Lemaire، من المركز الوطنيّ (الفرنسيّ) للبحث العلميّ.

وكذلك في نهاية حياته، أجاب عن سؤال عظيم الكهنة فقال: «إنّي كلّمتُ العالم علانية، وإنّي علّمتُ دائمًا في المجمع والهيكل... فلماذا تسألني أنا؟ سَلِ الذين سمعوني عمّا كلّمتُهم به، فهُم يعرفون ما قلت» **(يو ١٨/ ٢٠-٢١)**.

ولمّا أرسل يسوعُ الاثني عشر في أوّل رسالة إلى الجليل، طلب إليهم أن يواصلوا خدمة الكلمة التي كان يقوم بها: «إذهبوا إلى الخراف الضالّة من بيت إسرائيل، وأعلنوا في الطريق أن قد اقترب ملكوت السموات...» **(متّى ١٠/ ٦-٧)**. وبعد رفع المسيح، أصبح تبشير الاثني عشر مركّزًا على إعلان القيامة **(رسل ١/ ٢١-٢٢)**. وهٰذه كانت رسالتهم الأولى. فلم يتردّدوا حين وجب عليهم أن يختاروا بين عدّة وظائف شاغلة: «لا يحسن بنا أن نترك كلمة الله لنخدم على الموائد» **(رسل ٦/ ٢)**.

وكثيرًا ما تمّ التعبير في نصوص العهد الجديد عن أولويّة خدمة الكلمة في القيام بالخدمة الرسوليّة المسيحيّة. فأعلن القدّيس بولس بشيءٍ من المبالغة، على ما يبدو: «أنّ المسيح لم يرسلني لأعمّد، بل لأبشّر» **(١ قور ١/ ١٧)**. وبعد ذلك بقليل، شدّدت الرسائل الرعائيّة على أنّ التبشير هو أهمّ الوجوه في وظيفة الشيوخ: «والشيوخ الذين يحسنون الرعاية يستحقّون إكرامًا مضاعفًا ولا سيّما الذين يتعبون في خدمة الكلمة والتعليم» **(١ طيم ٥/ ١٧)**.

وكان لهٰذا المبدأ العامّ نتيجة مهمّة: إذا وجب على السلطة أن تكون في خدمة كلمة الله، فهذا يعني عدم وجود أيّ مجال للتردّد، حين يجب الاختيار بين طاعة السلطات الكنسيّة وطاعة كلمة الله: «طاعة الله أفضل من طاعة البشر». وقد سبق ليسوع نفسه أن ندّد بتعليم معلّمي الشريعة، حين كانت إرشاداتهم تتعارض مع كلمة الله، لأنّهم ينقضون كلام الله باسم سُنّتهم **(متّى ١٥/ ١٦)**، راجع **متّى ٢٣/ ١٣-٣٢)**.

وقد تناول بولس الرسول هو أيضًا هذا التعليم بقوّة. والمبدأ العامّ واضح: «فلو بشّرناكم نحن أو بشّركم ملاك من السماء بخلاف ما بشّرناكم به، فليكن محرومًا!» ويضيف بولس وكأنّ ما ذَكَرَه لم يكن كافيًا: «قلنا لكم قبلًا وأقوله اليوم أيضًا: إنْ بشّركم أحد بخلاف ما تلقّيتموه، فليكن محرومًا!» **(غل ١/ ٨-٩)**. وهٰذا القول يوضح خبرته الشخصيّة التي رواها بعد ذلك بقليل في الرسالة نفسها: «لمّا قَدِم صخر إلى أنطاكية، قاومته وجهًا لوجه لأنّه كان يستحقّ اللوم» و«لا يسير سيرةً قويمة كما تقتضي حقيقة البشارة» **(غل ٢/ ١١ و١٤)**.

يحقّ إذًا للمسيحيّ أن يعترض باسم ضميره في حِضن الكنيسة نفسه، حين يُقدم الذين يتولّون السلطة فيها على معارضة الإنجيل. وهٰذا الحقّ هو النتيجة المنطقيّة لذٰلك المبدأ القائل بأنّ سلطة الخادم لا تفوق كلمة الله، بل تخضع لها.

في خدمة الجماعة

إنّ السلطة هي في خدمة الجماعة. وهذا المبدأ يرقى عهده إلى يسوع أيضًا. فقد عبّر عنه تعبيرًا رائعًا في صورة الراعي الصالح: «أنا الراعي الصالح، أعرف خرافي وخرافي تعرفني... وأبذل نفسي في سبيل الخراف. ولي خراف أخرى ليست من هذه الحظيرة، فتلك أيضًا لا بدّ لي أن أقودها وستصغي إلى صوتي فيكون هناك رعيّة واحدة وراعٍ واحد» **(يو ١٠/ ١٤-١٦)**.

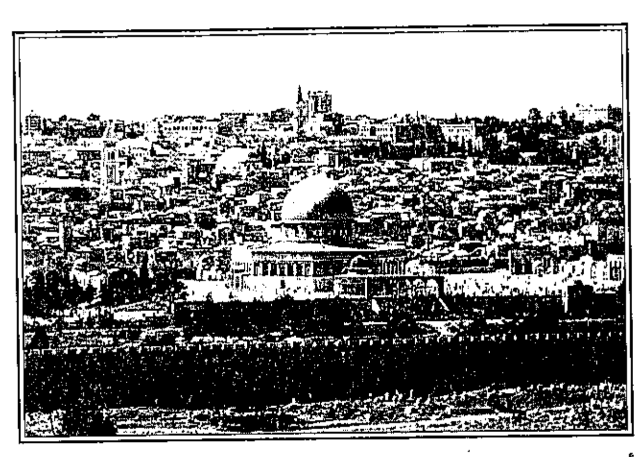
يبدو أنّ وحدة الكنيسة كانت أمرًا سهلًا في البداية، حتّى إنّها تجلّت بالتضامن الاقتصاديّ: «وكان جميع الذين آمنوا جماعةً واحدة، يجعلون كلّ شيء مشترَكًا بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم، ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كلٍّ منهم» **(رسل ٢/ ٤٤-٤٥)**. ومن الراجح أنّه لا يجوز أن نضخّم هٰذه المشاركة: فالتبرّعات كانت اختياريّة دائمًا **(رسل ٥/ ٤)** وتُستخدم خاصّةً في تمويل صندوق المعونات التابع للجماعة من أجل مؤازرة المحتاجين ولا سيّما الأرامل **(رسل ٦/ ١)**. وفي جميع الأحوال، يبدو أنّ الاهتمام بالتضامن

الحقيقيّ داخل الجماعة والاهتمام بأفقر الفقراء خاصّةً، كان جزءًا لا يتجزّأ من مسؤوليّة الخدّام في الجماعة.

سبق أن رأينا كيف عَرف الاثنا عشر أن يحافظوا على الوحدة التي يهدّدها التوتّر في العلاقات القائمة بين العبرانيّين والهلّينيّين، فاعترفوا باستقلاليّة كلّ جماعة (**رسل ١/٦**). وبعد ذلك بقليل، اعتُمد حلّ مماثل في مجمع أورشليم، حين عاد التوتّر، الناشئ بين المسيحيّين الذين من أصلٍ يهوديّ والمسيحيّين الذين من أصل وثنيّ، ليهدّد بتفجير الكنيسة. وقد روى بولس خلاصة تلك المواجهة: لمّا «رأوا أنّه عُهد إليّ في تبشير القُلْف كما عُهد إلى بطرس في تبشير المختونين. . .، يعقوب وصخر ويوحنّا، وهم يُحْسَبون أعمدة الكنيسة، . . . مدّوا إليّ وإلى برنابا يُمنى المشاركة، فنذهب نحن إلى الوثنيّين وهم إلى المختونين، بشرطٍ واحد هو أن نتذكّر الفقراء، وهٰذا ما اجتهدتُ أن أقوم به» (**غل ٢/٧-١٠**).

ولم يكن بولس حريصًا على الدفاع عن وحدة الكنيسة الجامعة في احترام كلّ ثقافة وحسب، بل تدخّل أيضًا وبحزم شديد حين كانت تهدّد وحدةُ إحدى الجماعات المحلّيّة، كجماعة أهل قورنتس مثلًا: «أناشدكم أيّها الإخوة، باسم ربّنا يسوع المسيح، أن تقولوا جميعًا قولًا واحدًا وألّا يكون بينكم اختلافات، بل كونوا على وئام تامّ، في روح واحد وفكر واحد» (**١ قور ١/١٠**). وهٰذا الحثّ على الوحدة نجده، بلهجة أخفّ حدّة غالبًا، في جميع رسائل القدّيس بولس تقريبًا. وعلى كلّ حال، يعود لخدّام الجماعة المحلّيّة عادةً، بصفتهم «رعاة» (راجع **١ تس ٥/١٢** و**١ طيم ٥/١٧**)، أن يسهروا على أمن الجماعة ووحدتها.

فالخادم المسيحيّ هو مسؤول إذًا بوجهٍ خاصّ عن وحدة الكنيسة والمشاركة فيها. إلّا أنّ مسؤوليّته تجاه



أورشليم

الجماعة لا يجوز أن تبعده عن إخوته أو تجعله فوقهم. وحول هذه المسألة أيضًا يَظهر الإنجيل حاسمًا في شأن العادات التي ألِفَها العالم. وهو يعرض توجُّهًا جديدًا: «أمّا أنتم فلا تَدعوا أحدًا يَدْعوكم «رابي»، لأنّ لكم معلّمًا واحدًا وأنتم جميعًا إخوة. ولا تَدْعُوا أحدًا أبًا لكم في الأرض، لأنّ لكم أبًا واحدًا هو الآب السماويّ. ولا تَدعوا أحدًا يَدْعُونكم مرشدًا، لأنّ لكم مرشدًا واحدًا وهو المسيح. وليكن أكبركم خادمًا لكم» (**متّى ٢٣/٨-١١**).

ويبدو أنّ التلاميذ الأوّلين فهموا جيّدًا هٰذا التعليم الذي ألقاه عليهم معلّمهم. فلمّا ارتمى قائد المائة قُرنيليُوس على قدمَي بطرس وسجد له، وراح يمانعه قائلًا: «قم، فأنا نفسي أيضًا بشر» (**رسل ١٠/٢٦**). بعد ذلك بقليل، ومع أنّ كاتب الرسائل الرعائيّة لا يتوانى في إعطاء توجيهاتٍ حازمة، فإنّه توجّه إلى طِيمُوتاوُس قائلًا: «لا تُعنِّف شيخًا، بل عِظْه وَعْظَك لأبٍ لك، وَعِظ الشبّان وَعْظَك لإخوةٍ لك، والعجائز وعظك لأمّهات لك، والشابّات وعظك لأخوات لك، بكلّ عفاف» (**١ طيم ٥/١-٢**). فليس على طيموتاوس أن يجعل نفسه فوق الجماعة، متصرّفًا كـ«أب»، بل ينبغي أن تكون علاقاته بالأعضاء كافّة طبيعيّة بأجمعها.

لا للطموح إلى الاحتكار

ثمّة توجُّه آخر يرقى عهده أيضًا إلى يسوع نفسه: لا يجوز للسلطة أن تطمح إلى أيّ احتكار. وقد كُشف لنا هٰذا المبدأ في مقطع إنجيلي لم نتوصّل دائمًا إلى إدراك مغزاه. فبعد عودة الاثني عشر من رسالتهم في الجليل،

روى يوحنّا ليسوع: «يا معلّم، رأينا رجلًا يطرد الشياطين باسمك، فأردنا أن نمنعه لأنّه لا يتبعنا». لكنّ يسوع أجاب: «لا تمنعوه...» (مر ٩/٣٨-٣٩). كان معنى جواب يسوع في منتهى الوضوح: حتّى الاثنا عشر الذين اختارهم يسوع نفسه وأرسلهم ليعملوا رسميًّا باسمه (مر ٦/٧-١٣)، لا يجوز لهم أن يطمحوا إلى احتكار العمل باسمه، أيًّا كان نوعه. فإنّ الروح حرّ في العمل كما يحلو له.

والموقف المنفتح هذا نفسه نجده في تفكير بولس في المواهب الروحيّة: «كلّ واحد يتلقّى ما يُظهره الروح لأجل الخير العامّ. فأحدهم يتلقّى من الروح كلام حكمة، والآخر يتلقّى وفقًا للروح نفسه كلام معرفة، وسواه الإيمان في الروح نفسه..» (١ قور ١٢/٧-٩).

ويَستخلص الرسول من ذلك نتيجةً عمليّة: ففي وسع كلّ من يشارك في الاجتماع الطقسيّ أن يتدخّل، شرط أن يهدف تدخُّلُه هٰذا إلى الخير العامّ: «فماذا إذًا أيّها الإخوة؟ إذا اجتمعتم، قد يأتي كلّ منكُم بمزمورٍ أو تعليم أو وحي أو كلام بلغات أو ترجمة، فلْيكن كلّ شيء من أجل البنيان!» (١ قور ١٤/٢٦). وبولس نفسه، مع أنّه كان يعي تمامًا مسؤوليّته عن إعلان الإنجيل للوثنيّين، أدرك أنّه لا يتمتّع بأيّ احتكارٍ في هذا المجال. وقد بلغ في ذلك الفرح بتبشير خصومه، مع أنّه في السجن (فل ١/١٨)، في حين اضطُرَّ بطرس، مرغمًا بعض الشيء، إلى الاعتراف بأنّ الروح القدس وُهِب للوثنيّين وأنّه يحقّ لهم أيضًا بالتالي أن ينضمّوا إلى الكنيسة (رسل ١٠/٤٤-٤٨).

على سبيل الخاتمة

ماذا يمكننا أن نستنتج من هٰذه الدراسة حول خدّام الكنيسة القديمة وخدماتها الرسوليّة؟ يجوز لنا، على ما يبدو، أن نلفت النظر إلى أمرين مهمَّين قد يُلقيان الأضواء على كنيسة اليوم:

١ - إنّ كلّ جهد يُبذل لتبرير أو تقديس هٰذا النظام أو ذاك في وضع بُنًى للخدمات انطلاقًا من العهد الجديد هو جهد عقيم تمامًا، لأنّ العهد الجديد يشهد على تطوّر الصيَغ وتنوّعها في تنظيم خدمات الكنيسة. والسلطة التسلسليّة الثلاثيّة، المؤلّفة من الأسقف والكهنة والشمامسة، التي استمرّت طويلًا في تاريخ الكنيسة، لم يكن ذِكرها قد ورد في العهد الجديد. وفي الواقع، تبدو الكنيسة حرّةً في تنظيم نفسها ووضع بُناها بحسب الحاجات الخاصّة بكلّ عصر.

٢ - وإن كانت الكنيسة القديمة لم تقدّس أيّ هيكليّة للخدمات، فقد اجتهدت أن تكون أمينةً على التوجّهات التي عرضها يسوع نفسه لممارسة كلّ مسؤوليّة في الكنيسة. والتوجّهات الأربعة التي تَمكّنّا من استخلاصها هي التالية:

- السلطة هي خدمة
- خدمة كلمة الله
- خدمة الجماعة
- خدمة لا تطمح إلى أيّ احتكار.

وهذه التوجّهات تُعتبر جزءًا لا يتجزّأ من الوديعة الإنجيليّة المقياسيّة في حياة الكنيسة.

كيف نجحت المسيحيّة في التأصّل داخل العالم الرومانيّ؟

قد يَطرح القارئ المتنبّه سؤالًا لم يُجب عنه أيّ مقالٍ من مقالات هذا الفصل: ما الذي يفسّر الانتشار السريع الذي حقّقته المسيحيّة منذ القرن الأوّل في العالم الرومانيّ، مع أنّه لم يكن صحراءَ دينيّة؟

نظرًا إلى تعذّر تقديم جوابٍ جازم، يمكننا أن نعرض تفسيرَين على الأقلّ: الأوّل يتعلّق بالوضع الدينيّ في رومة، والثاني بطبيعة الرسالة المسيحيّة نفسها.

وضع رومة الديني

أيًّا كان الوضع الديني في رومة عند نشأة المسيحيّة؟ إنّ العالِم اللامع في الشؤون اللاتينيّة جان بايِيه (Bayet)، في كتابه **تاريخ الديانة الرومانيّة السياسيّ والنفسيّ** (منشورات پايو، باريس، ١٩٧٣) يساعدنا على الإجابة عن هٰذا السؤال:

«أصبحت رومة عاصمةً تجمع أجناسًا مختلفة، فعاشت اختبارًا أكثر تعقيدًا. ولم تكن فقط نقطة تدفُّق جميع تجارات البحر المتوسّط ومَرْكزَ كلّ الاختلافات الإداريّة والعسكريّة المعروفة في الأقاليم، بل كانت تستقبل جموع الغرباء، ولا سيّما الشرقيّين منهم، وكانوا يتوافدون إليها سعيًا إلى كسب رزقهم، إمّا فرديًّا وإمّا تسوقهم حركاتٌ جماعيّة إلى حدٍّ ما كالـ«شتات» اليهوديّ. وكانوا يتجمّعون أحيانًا في أحياء جعلوها ترتدي طابع الحيّ المنعزل، بتصرّفاتهم القوميّة وأعيادهم الدينيّة الخاصّة. وبِنِسَب متزايدة أيضًا، كان المعتَقون، وأكثرهم من أصل آسيويّ، يختلطون إمّا بعامّة الناس الحرفيّين، وإمّا بمَوالي العائلات الكبرى والأباطرة، وكان هؤلاء يقدّرون ذكاءَهم ومرونتهم وعملهم. وحتّى في العبوديّة كان المجال منفسحًا أمام تأثير النساء الفاتنات واللبقات، والرجال ذوي الفكر الثاقب الذين لا يُستغنى عنهم. وتحت ستار الديانة الرسميّة، كان التساهل في العبادات الخاصّة أمرًا تقليديًّا على ضفاف نهر التِيبر، فتحوّل إلى أمرٍ ملزم بعد أن تحمّلت رومة كامل المسؤوليّة عن عالمٍ غير متجانس، وتُركَت معظمُ الأبواب مفتوحةً أمامَ أكثر أشكال التبشيريّة تنوّعًا. ومنها ما دفع إلى تأسيس تجمّعات ضخمة من المؤمنين، وأثار بذلك مشاكل حكوميّة. لكنّ معظمها أكثر من المنتديات التي لا تلفت الانتباه وتَختار أعضاءَها من أوساط مختلفة جدًّا: فمنذ أيّام أوغسطس، كان بعض الرومانيّين من سَراة القوم يعبدون سَبازِيُوس التراقيّ وأدُونيس السوريّ. ولكن نكاد لا نستطيع أن نتصوّر ما أكثر الصِيَغ الدينيّة، الغامضة أو الدقيقة، والسامية أو العامّيّة، المطروحة في رومة على العائشين في القلق الروحيّ أو في مجرّد الفضول، من جميع طبقات الشعب. ففي تلك المدينة وحدها كان الانصهار تامًّا، ومنه خرجت للغرب والشرق على السواء عقائد المستقبل الإيمانيّة.

«وكان الرومانيّ حائرًا في أمره من جرّاء الأقدار أو مسحوقًا تحت وطأة حتميّات الوجود. فلم يجد أيّ سند في دين دولةٍ آليّ إلى أبعد حدّ، ولا في برودة احتفالات يقيمها أحد الحكّام باسم الجماعة. فكان يحتاج إلى ما قد يجده في إلٰهٍ خاصّ من استقبال شخصيّ يشدِّد عزيمته، ويبحث عن هٰذا الاستقبال برغبة وخشية. فأيّ إلٰه يستطيع أن يَفهم همَّه؟ وأيّ كاهن عالِم يسهّل له الاقتراب منه؟ وأيّ جماعة متفهّمة توفّر له الثقة والأمان؟ وبأيّ وسائل يمكنه أن ينجو، لو لبعض الوقت، من شقاء الوضع البشريّ؟ وبأيّ أجرٍ يأتيه من الطهارة والعفّة والتقشّف والاقتداء بالله، يستطيع أن يحصل على شيءٍ يَضمن له الخلاص والبقاء؟...»

إنّ انصهار الجموع وما في دِين الدولة من تقصيرٍ في ميادين شتّى هما، على ما يبدو، سبب نجاح العبادات الشرقيّة، لا في المدينة الكبرى وحسب، بل في أصغر مناطق الأمبراطوريّة. فعبادة مِيترا مثلًا كانت مزدهرةً في الوادي الأسفل من نهر الرُون الفرنسيّ، وقد حالت مدّةً طويلة دون الانتشار المسيحيّ في تلك المنطقة.

الرسالة المسيحيّة

ذلك هو العالم الشديد التنوّع الذي واجهه المرسلون المسيحيّون الأوائل. فبعد سنين قليلة، نجد تلاميذ ليسوع في أبعد مناطق الأمبراطوريّة. لقد بلغت البشرى جميع الأوساط، مِن أرقاها إلى أوضعها. وتغيّرت قلوب الرجال والنساء، بعد الإعلان عن إلٰهٍ قريب جدًّا، حتّى إنّه أصبح واحدًا منّا، ولم يبقَ في «عليائه»،

بل صار بشرًا ووضع نفسه في مستوى العبد (فل ٢/ ٦)، وأزال نهائيًّا كلّ تمييز بين الطبقات الاجتماعيّة والعروق والأجناس.

كتب جان باييه: «يمكننا أن نتصوّر فعّاليّة الجماعات المتكاثرة، بحيث يَعرف الجميع بعضهم بعضًا وهم متساوون في سعيهم إلى التواضع والمحبّة بإشراف عدد قليل من المسؤولين، كما أنّهم ما لبثوا أن خضعوا (بحكمة) لنظام تسلسليّ مع الشعور بأنّهم جميعًا إخوة، إلى أيّ كنيسةٍ انتموا. وكان للجماعات المسيحيّة هذه فضل التميّز بالوحدة الروحيّة، إزاء العبادات القديمة في دين الدولة. فقد كانت هذه العبادات موزّعة بين المعابد الخليطة والاحتفالات الرسميّة الرتيبة. وكان لتلك الجماعات فضل التميّز أيضًا بالنشاط المرن والمتنوّع الذي كانت تقوم به مجموعات مكيّفة مع محيطها، إزاء عبادات شرقيّة معروفة بمجدها وأسيرةِ أُبّهتها الطقسيّة اليوميّة والموسميّة. وكان لها فضل التميّز باختيارٍ أوسع لأعضائها، ضمّ النساء بقدر ما ضمّ الرجال، وفضل التميّز بمحافل ازدادت عددًا بعد ذلك اليوم، وبمجموعة إداريّة أكثر ترسُّخًا، إزاء تَوزُّع المنتديات المِترِيّة التي كان في وسعها، على ما يبدو، أن تنافس الديانة الجديدة بشهرة فكرها العالميّ وسموّ أخلاقها المعترَف به».

ولٰكن، كان من المحتمل أن ينقلب نجاح المسيحيّة إلى إخفاقها. ففي هذا الانصهار الكبير بين الأفكار والتطلّعات الدينيّة، كان من الممكن أن يتّخذ يسوع مكانًا إلى جانب الآلهة البَشر كباخُوس وهِرَقل. أو كان من الممكن أن يُخلَط بالآلهة القائمين من الموت كأتِيس أو أدونيس أو أُوزِيرِيس. فكيف توصّلت المسيحيّة الناشئة إلى حفظ نفسها من كلّ مزج وكلّ تلوّث؟ لن تلبث الاضطهادات أن تُسهم في تطهير إيمان المسيحيّين. وقبل ذٰلك الحين، كان عدمُ تساهل الرسل في موضوع العقيدة، والقساوةُ التي استَنكروا بها محاولات الانحراف الأُوَل، إن لم نقل الهرطقة - وقد تَركت أثرًا في رسائل بولس وبطرس ويوحنّا - علامتَين تدلّان على أنّ الصراع كان عنيفًا، ممّا حفظ انتشار المسيحيّة السريع من كلّ حلٍّ وسط قد يُفسد جوهر رسالة يسوع.

الفصل السابع

المناداة

بقلم كلود ڤينر(*)

حول أيّ حقائق أساسيّة نظّم المسيحيّون الأوائل إعلان البشرى
وأيّا كان أوّل إعلان للإيمان؟
يمكّننا البحث في نصوص العهد الجديد من الإجابة
عن هذه الأسئلة المطروحة بإلحاح في أيّامنا.

في الماضي، كان أحد الموظّفين الرسميّين يتولّى نقل الأخبار إلى الشعب، بعد تجميع الناس في الساحات العامّة أو عند مفترقات الطرق. وبعد ذٰلك، استُعيض عن هٰذا الموظّف بلوحاتٍ إعلانيّة كانت تُعلّق عليها أوراق تحمل الأنباء التي تهمّ أهل البلدة أو المدينة. وفي مرحلة لاحقة، استُبدِلت بهذه الوسيلة التقليديّة وسائلُ اتّصال جماعيّة أوسع انتشارًا وأسرع إعلامًا، هي الصحف والإذاعات والتلفزيون.

فكان «المنادي» أوّل رجل إعلام ينقل أخبار التعبئة العامّة والحروب والانتصارات ومعاهدات السلام وتغيير نظام الحكم وجلوس الملوك على العرش أو وفاتهم... وباختصار، كان ينادي في الساحات بأخبار الأحزان والأفراح الكبرى والأنباء السعيدة والسيّئة على السواء.

فلا عجب أن يكون حاملو «البشرى» قد اعتبروا أنفسهم «منادين» أرسلَهم مَلِكُ العالَم ليُعلنوا في كلّ مكان مجيءَ مُلكه. وفي اللغة اليونانيّة، يُدعى المنادي κῆρυξ ونداؤه κήρυγμα، أي المناداة. وعندما يَستعمل اهلُ الاختصاص في العهد الجديد أو علماء اللاهوت هذه الكلمة العلميّة في ظاهرها، فإنّما يوحون بتلك الصورة البسيطة والمألوفة التي تدلّ على أناس ينادون في مفترقات العالم كلّها بالـ«بشرى» الوحيدة التي تستحقّ فعلًا أن يُزعج المرء نفسه ليأتي فيَسمعها ويغيّر حياته بناءً عليها. ولقد صُوِّر لنا يسوعُ نفسه في الإنجيل بأنّه يقوم بهذا الدور، وهو يذهب به دائمًا إلى أبعد على طرقات الجليل:

«فقال لهم: «لنذهب إلى مكان آخر، إلى القرى المجاورة، لأنادي فيها أيضًا بالبشرى، فإنّي لهٰذا خرجت». وسار في الجليل كلّه، ينادي بالبشرى في مجامعهم» (مر ١/٣٨-٣٩). ولم يذكر لنا صاحب الإنجيل هنا حتّى ما كان مضمونُ تلك المناداة (ولكنّه يلخّصه في مكان آخر، في (مر ١/١٤-١٥) مثلًا). فالمهمّ هو أنّ يسوع «خرج» إلى البلاد كلّها وخاطب الشعب. والكنيسة منذ بداياتها لم تكن مجموعةً منطوية على نفسها، أو شيعة يتهامس أعضاؤها بالأسرار، بل مجموعة تدفعها قوّة باطنيّة على أن تنادي في كلّ مكان برسالة موجّهة إلى الجميع.

(*) Claude Wiener، من مفسّري الكتاب المقدّس.

مختصر مفيد

إلّا أنّ تلك الرسالة كان لها، بدون شكّ، مضمون صِيغَ أحيانًا بكلمات قليلة. فإنّ بولس نفسه، وهو يعرف كيف يتوسّع في شرح فكره ويتقصّاه إلى أبعد حدّ في رسائل طويلة، كان قادرًا، في بعض الأحيان، على اختصار «مناداته» بالبشرى ببضع كلمات:

«فالبشرى التي نناديء بها هي المسيح المصلوب» (**١ قور ١/ ٢٣**).

«فلسنا ننادي بأنفسنا، بل بيسوع المسيح الربّ. وما نحن إلّا خَدَم لكم من أجل يسوع» (**٢قور ٤/ ٥**).

والكلام الذي يتحدّث عنه العهد القديم «هو كلام» الإيمان الذي ننادي به. «فإذا شهِدتَ بفمك أنّ يسوع ربّ، وآمنتَ بقلبك أنّ الله أقامه من بين الأموات، نلتَ الخلاص» (**روم ١٠/ ٨-٩**).

وفي رسائل بولس وردت أيضًا صِيَغ أُخَر مماثلة لا يَستخدم فيها كلمة «المناداة بالبشرى».

«لا يستطيع أحد أن يقول: «يسوع ربّ» إلّا بإلهام من الروح القدس» (**١ قور ١٢/ ٣**).

«نحن نؤمن بأنّ يسوع قد مات ثمّ قام» (**١ تس ٤/ ١٤**)

فقد استُعملتْ أقصر صيغة للتعبير هنا عن البشارة مرّتين. وهي تتألّف من كلمتَيْن تَختصران كلَّ ما هو أساسيّ: يسوع ربّ.

ومَن يعلِن أنّ نجّار الناصرة، يسوع، هو ربّ، أو سيّد (κύριος)، إنّما يعترف في الوقت نفسه بأمرين لهما أهمّيّة كبرى:

فمن جهة، كان لقب «سيّد» يُطلق على الأمبراطور الرومانيّ، فالحاكم فِسْطُس يتحدّث عن الكتابة «إلى السيّد» (**رسل ٢٥/ ٢٦**) في إطارٍ لا يَفترض أن يكون الأمبراطور إلٰهًا، بل يعظّمه تعظيمًا رسميًّا ويضعه في مرتبة فريدة على رأس المجتمع. ومَن يعلن أنَّ يسوع هو ربّ، أو سيّد، إنّما يعلن سيادته المطلقة على عالمنا ومحدوديّة كلّ شكل من أشكال السلطة بوجهٍ جذريّ.

ومن جهة أخرى، تُستعمل دائمًا كلمة «سيّد» (κύριος) في اليونانيّة للتعبير عن اسم إلٰه إسرائيل الذي لا يوصَف، أي يهوه: ومَن يدعو يسوع «سيّدًا»، قد لا يؤكّد بالضبط أنّ يسوع هو الله، بل يؤكّد في جميع الأحوال أنَّ الله يشركه في مجده وأنّه يضعه في مرتبةٍ تفوق كلّ المراتب التي يمكن لأحد الناس أن يحتلّها.

وثمّة كلمة أُخرى استُعملت في الصيغ التي ذكرناها، هي كلمة مسيح. ونحن لا نجهل أهمّيّتها: فإنّها الكلمة التي توحي بالمسحة الملوكيّة التي قَبِلها داود وخلفاؤه. و χριστός هي الترجمة اليونانيّة للكلمة العِبريّة Mashiah التي جعلناها «مسيح». ومَن يعلن أنَّ يسوع هو المسيح، إنّما يعترف بأنّه المشيح الذي ينتظره إسرائيل منذ عدّة قرون والذي وَعَد به الأنبياء، ويعلِن أنّ هٰذا الانتظار قد انتهى وأنّ مَلك المجد قد أقام مُلكه بيننا.

لكنّ القول بمسيح مصلوب يحمل مفارقة، لا بل عثارًا. فعلى المسيح (المشيح) أن يكون مَلك مجد وقوّة لا تُقهر. والصليب هو عقوبة العبيد الشائنة. فكيف السبيل إلى التوفيق بين هاتَيْن الكلمتَيْن، وبوجهٍ خاصّ حين نستعمل باليونانيّة، كما فعل بولس، لا صيغة اسم المفعول التي توحي بأنّ هٰذا الصلب هو مجرّد حَدَث تمّ في وقتٍ ما (اسم مفعول «غير محدّد»)، بل صيغة تجعل من هٰذا الصلب حالةً ثابتة (اسم مفعول «تامّ»): فيبدو أنّ الصلب الشائن طُبع للأبد في مميّزات هٰذا المشيح الغريب.

وهناك أخيرًا نصّان من النصوص التي سبق ذكرهما يتحدّثان عن يسوع القائم من الموت، وهو الموضوع الأساسيّ الذي سنجده باستمرار في بقيّة هٰذا البحث، إذ إنّه بالقيامة يَتّخذ صلبُ المسيح معنًى. والقيامة هي، في الوقت نفسه، تلك المفارقة الكبرى التي ينبغي دائمًا للإيمان أن يَتّخذ القرارَ إزاءها. فإنّ المقصود هو التسليم بأنّ الذي مات على الصليب لم يجد فيه نهاية مصيره، بل إنّه عاد الى الحياة، إلى حياة لا تنتهي، وباختصار أنّه حيّ بين ذويه. وهٰذا التأكيد أنّ يسوع حيّ

نجده في بعض العبارات الرائعة التي تستحقّ أن تُذكر هنا، وإن لم تكن «مناداةً بالبشرى» بحَصر المعنى. وهٰذه العبارات لا نقرأها في رسائل بولس، بل في إنجيل لوقا وفي **أعمال الرسل**.

قال الملاكان للنسوة عند القبر:

«لماذا تبحَثْنَ عن الحيّ بين الأموات؟» **(لو ٢٤/ ٥)**.

وروى تلميذا عمّاوُس هٰذه الرسالة نفسها: «قالوا إنّه حيّ» **(لو ٢٤/ ٢٣)**.

ولَخّص الحاكم فِسْطُس الاتّهامات الموجّهة إلى بولس بأنّ الأمر يتعلّق بـ«امرئٍ اسمه يسوع قد مات، وبولس يزعم أنّه حيّ» **(رسل ٢٥/ ١٩)**.

في كلّ مكان تتردّد الكلمة نفسها: لا شكّ في موت يسوع... ومع ذٰلك فهو حيّ. أيًّا كانت تلك الحياة بالضبط؟ وهل هي الحياة نفسها التي كانت سابقًا، أم إنّها حياة «أخرى»؟ فالنصوص القصيرة جدًّا هذه لا تقول شيئًا عن ذٰلك. أمّا معنى الحدث، فقد قال يسوع لتلميذَي عمّاوس جملةً تأتي في تلك الأجواء العابقة بإعلان البشرى:

«أما كان يجب على المسيح أن يعاني تلك الآلام فيدخل في مجده؟» **(لو ٢٤/ ٢٦)**.

وهنا نقع مرّةً أُخرى على مفارقة المسيح المصلوب، ولٰكن على المجد أيضًا، وعلى تأكيدِ حتميّةٍ خفيّة، وتدبيرٍ إلٰهيّ.

قانون إيمان بولس

والآن هٰذا نصّ أكثر توسّعًا إلى حدٍّ ما وجدير بانتباهٍ كبير. يعرضه لنا بولس على النحو التالي:

«... البشارة التي بشَّرتكم بها وقبلتموها ولا تزالون عليها ثابتين، وبها تنالون الخلاص» **(١ قور ١٥/ ١-٢)**.

فهناك إذًا ما هو أساسيّ للمسيحيّين: وهٰذا ما أتى بولس ليقوله عند وصوله إلى قورنتس. وهو كلام لا يصدر عنه:

«سلَّمتُ إليكم قبل كلّ شيء ما تسلَّمته أنا أيضًا» **(١ قور ١٥/ ٣)**.

ولا شكّ في أنّ العبارة القصيرة والموزونة هذه هي التي تلقّاها من «الإخوة» فور دخوله الكنيسة:

«... أنّ المسيح (المشيح) مات من أجل خطايانا، كما ورد في الكتب، وأنّه قُبِر وقام في اليوم الثالث كما ورد في الكتب، وأنّه تراءى لصخر (بطرس)، فالاثني عشر» **(١ قور ١٥/ ٣-٥)**.

ويضيف بولس الكلمات التالية، وهي ليست جزءًا من النواة الأُولى:

«ثمَّ تراءى لأكثر من خمسمائة أخ معًا... ثمَّ تراءى ليعقوب، ثمَّ لجميع الرسل، حتّى تراءى آخِر الأمر لي أيضًا... هٰذا ما نادي به وهٰذا ما به آمنتم» **(١ قور ١٥/ ٥-٨ و١١)**.

نشير هنا إلى استخدام فعل «نادى» وإلى التواصل الذي يقيمه بولس بين الشهود الأوّلين (بطرس والاثني عشر) وبينه هو «الأخير». فالإيمان الذي تلقّاه من الجماعة اختبره هو نفسه.

ولكن لنعد إلى الألفاظ التي تضمّنها ملخّص الإيمان هٰذا. فهو يُقسم، بدون شكّ، إلى مقطعَيْن:

أ - في المقطع الأوّل كلام على موت يسوع، يبدأ بالمفارقة التي نعرفها: فالمشيح، مَلك المجد، مات في أحد الأيّام (يشير الفعل باليونانيّة إلى نقطةٍ محدَّدة من الزمن). والقبر هو العلامة والبرهان الذي لا يُدْحَض على هٰذا الموت. وهناك توضيحان آخران:

- أوّلًا، مات «من أجل خطايانا»: فليس هٰذا الموت موتًا عاديًّا وغير معقول خَضع له يسوع، بل هو موت ذو معنى، موت يهدف إلى انتشالنا من الخطيئة التي تُلقي بثقلها علينا وتمنعنا من أن نكون في اتّحادٍ بالله.

- ثمّ إنّ هٰذا الموت يأتي وفقًا لما ورد في الكتب: وهو صدى لذلك النشيد الشهير، نشيد العبد المتألِّم:

«طُعن بسبب معاصينا...
وبجرحه شُفينا» **(أش ٣٥/ ٥)**.

ولكنّ المقصود ليس مجرَّد مقارنة غريبة. ولا يكفي أن نقول إنّ أحد الملهَمين في الماضي قد «رأى سابقًا». إذ إنّ الاستناد إلى الكتب المقدَّسة يعني التأكيد أنّ للحدث مكانًا في تدبير الله من أجل العالم، وأنّه ليس معزولًا، بل هو مُعَدّ منذ زمن طويل. لا بل نضيف أنّ حدث المسيح هو، بوجهٍ من الوجوه، الحدث الوحيد الذي تمّ وفقًا لِـ«ما ورد في الكتب»، لأنّه النتيجة الوحيدة التي يؤدّي إليها تاريخ الخلاص الذي عاشه إسرائيل.

ب – لكنّ المقطع الأوّل يَذكر هنا تمهيدًا للمقطع الثاني المبنيّ على التصميم نفسه، وفيه كلام على القيامة. وهنا نقع على مفارقة أُخرى، وهي أنّ المشيح الذي مات عاد من الموت. والفعل اليونانيّ يُستعمل في صيغة المجهول (والكلمة تعني «أُنهِض»)، للإشارة إلى أنّ الله هو الذي أعاده إلى الحياة، وفي صيغة «تامّة» للدلالة على أنّ هٰذه الحالة ليست انتقاليّة، بل نهائيّة: فهو لا يزال إلى اليوم قائمًا من الموت. والعلامة التي تثبت القيامة (في موازاة علامة القبر التي تثبت الموت) هي أنّه «أرى نفسه» (وتُستعمل صيغة الفعل اليوناني هٰذه في مواضع أخرى للدلالة على مبادرة الله): وقد تدخَّل بوجهٍ حاسم في حياة بطرس والاثني عشر، فيكونون منذ الآن شهودًا على ذٰلك. وثمّة توضيحان آخران هنا هما «اليوم الثالث» و«كما ورد في الكتب». وقد أظهر أهل الاختصاص أنّ «اليوم الثالث» هٰذا ليس مجرّد إشارة زمنيّة إلى يوم الأحد. ففي الكتاب المقدّس، غالبًا ما يعني اليوم الثالث يوم تدخُّل الله (**تك ٢٢/ ٤ وخر ١٩/ ١٦ وهو ٦/ ٢**). وورد في نصّ يهوديّ أنّه «يوم إحياء الموتى». والتلميح إلى الكتب المقدّسة، وهو يضع الحدث في صُلب التدبير الإلٰهيّ كما رأينا سابقًا، من الراجح أنّه ينطبق تمامًا على نصّ **هوشع ٦/ ٢** الذي يشير إلى خلاص إسرائيل:

«بعد يومين يُحيينا وفي اليوم الثالث يقيمنا».

ذاك هو مضمون قانون الإيمان العريق في القِدم، الذي ينقله بولس إلينا: إنّ يسوع الذي مات عاد إلى الحياة للأبد، والله حقّق في شأنه كلّ ما وعد به إسرائيل لما سيكون في آخر الأزمنة. وبذٰلك يُتمّ الله تدبيره المليء بالحبّ للعالم، فكما أنّ القبر المفتوح أثبَتَ موتَ المسيح، أثبتَتْ شهادةُ الرسل قيامتَه.

الرسل يوضحون فكرهم

جميع الإثباتات الإيمانيّة التي وجدناها حتّى الآن لها حتمًا مصدر مشترك هو مناداة الرسل بالبشرى في أورشليم أوّلًا، ثمّ في أماكن أُخرى. ولٰكن، هل يمكننا أن نرجع إلى ذٰلك المصدر؟

مع أنّ هٰذا السؤال بسيط، لا بدّ من الجواب عنه بنَعَم ولا في وقتٍ واحد: نُجيب بنعم، علمًا بأنّ سِفر **أعمال الرسل** يروي أخبار التبشير الأوّل هٰذا، ولا سيّما التبشير الذي قام به بطرس. ونجيب بلا لأنّ سفر **الأعمال** هو مؤلَّف أدبيّ ولاهوتيّ وُضع بعد مرور بضع عشرات من السنين على وقوع الأحداث: فلا نجد فيه أقوال الرسل كما خرجت من أفواههم.

فما الذي ينقله إلينا هٰذا الكتاب بالضبط؟ إن مؤلِّفه لوقا هو رجل مؤمن أراد أن يبشّر بالمسيح من خلال حديثه عن بدايات الكنيسة. وهو أيضًا كاتبٌ سار على طريقة المؤرِّخين الأقدمين، ولقد أخذ عنهم أسلوب الخطاب خاصّة. ففي المراحل الحاسمة مِن سرد الأحداث، كانوا يضعون على لسان أهمّ الأشخاص كلامًا لم يقولوه حتمًا، بل هو يلخِّص الوضع الراهن ووجهة نظر الشخص حوله. فحين يضع لوقا كلامًا على لسان بطرس أو بولس، ليس من البديهي أنّه ينقل كلامهم بمضمونه الدقيق، بل ينقله بأسلوبه الخاصّ الذي هو أسلوب كاتب موهوب. لكنّ هٰذا المؤمن الذي يخدم الرسالة لم يَختلق تلك الخطب، بل استخبر عن طريقة الرسل في التبشير بالمسيح. وعلى كلّ حال، لم يكن في استطاعته أن ينسى رسالتهم لأنّها كانت سبب اهتدائه. فإذا صحّ أنّ سفر **الأعمال** لا يروي لنا حرفيّة تبشير الرسل في هذه المناسبة أو تلك، فهو يكشف لنا مضمونه الأساسيّ وأهمّ موادّه.

يعرض لنا سفر **الأعمال** مناداة الرسل بالبشرى في ستّ خطب متفاوتة الطول، خَمس منها ألقاها بطرس (**٢/١٤-٤٠ و٣/١٢-٢٦ و٤/٩-١٢ و٥/٢٩-٣٢ و١٠/٣٤-٤٣**) وواحدة ألقاها بولس (**١٣/١٦-٤١**، ولخطبةٍ آثينة في (**١٧/٢٢-٣١**) طابَعٌ مختلف إلى حدٍّ ما، فندعها جانبًا).

وأوّل ملاحظة لا بدّ من ذكرها هي أنّ بين هٰذه النصوص كلّها أربعة عناصر أساسيّة مشتركة:

- حُكِم على يسوع بالموت وقَتَله يهودُ أورشليم،
- لكنّ الله أقامه،
- والرسل هم شهود على تلك الأحداث أمام الناس،
- ومن شأن قبول هٰذه الشهادة أن يَحمل أولئك الناس على الاهتداء لينالوا مغفرة الخطايا، أي، بلغة الكتاب المقدس، المصالحةَ مع الله والوصولَ إلى الحياة الحقيقيّة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الموضوعات الأساسيَّة هذه، التي نجدها في كلّ مكان، يعبِّر عنها (ولا سيّما عن الموضوعات الأُولى) بكلمات يختلف بعضها عن بعض إلى حدّ ما، وإلى أنّ هناك موضوعات أخرى تتشابك مع الموضوعات المهمَّة هذه. وهٰذا يعني أنّ الكنيسة، التي حرصت على تركيز إيمانها على هٰذه المحاور الأساسيّة، لم تُرد مع ذٰلك أن تفرض صياغةً موحَّدة ولغة مقولبة تشبه «الكلمات السحريّة». فالإيمان هنا يُثبَت بقوّة ولا يُتلى على نحوٍ آليّ.

ويترسّخ هٰذا الانطباع نفسه، حين نتعمّق في القراءة. فهناك موضوعات أُخرى تظهر في كل مكان تقريبًا، ولٰكن بصياغات متنوّعة جدًّا هٰذه المرّة، نختار منها أربعة عناصر أساسيّة:

- إنّ مصدر تلك الأحداث كلّها هو الله، وهو يُذكر باستمرار ويَرِد في محلّ الفاعل في معظم الجمل، ولا سيّما في قيامة يسوع من الموت. وليس المسيح وحده في وسط كلّ شيء، بل هو لا يزال مرتبطًا بالآب وبتدبيره الأزليّ.
- وهٰذا الارتباط بتدبير الله نراه صراحةً من الاستناد إلى العهد القديم. ويَظهر هنا بوضوح في ذكر الأنبياء (**٣/١٧ و١٠/٤٣ و١٣/٢٧**) و«الآباء» (**١٣/٣٢**)، وفي الجملة التي ورد فيها حجر الزاوية (**٤/١١**) وهي استشهاد من أحد المزامير (**مز ١١٨/٢٢**). وفي تلك الخطب الستّ نجد سلسلةَ نصوص كتابيّة تنطبق على المسيح. وفي **أعمال** (**١٣/١٧-٢٢**)، يتناول بولس تاريخ إسرائيل منذ الخروج وصولًا إلى يسوع. فموضوع تتميم الكتب المقدَّسة (راجع **١ قور ١٥**) هو موضوع أساسيّ في تفكير المسيحيّين الأوّلين.
- ولمّا جاء يسوع إلى العالم بعد المسيرة الطويلة التي قام بها إسرائيل، قضى حياةً بكاملها قبل بلوغه ذروة موته. وفي ألفاظ المناداة بالبشرى تلميحات متنوّعة إلى حياة يسوع هذه: يوحنّا والمعموديّة (**١٠/٣٧ و١٣/٢٤**) والمعجزات والأشفية (**٢/٢٢ و١٠/٣٨**)، وعدم تفهُّم اليهود (**١٣/٢٧**)، ومَشاهد الآلام بما فيها مشهد بيلاطس وبرأبّا (**٣/١٣-١٤ و١٣/٢٨**). ولا يمكن تفهُّم موت يسوع كما يجب إلّا في أعقاب مسيرةٍ وَجَد فيها نفسه في مواجهة مع البشر. ولا يصعب علينا أن نرى كيف أنّ المهتدين الجدد، بعد التلميحات القصيرة هٰذه التي ذكرَتْها المناداة بالبشرى، لم يتأخّروا في المطالبة بمعرفةٍ أوسع لرسالة يسوع ومأساته، فكان أن وُضعت الأناجيل.
- وإنّ يسوع، الذي أقامه الله من الموت، هو الآن في مجد الله (**٣/١٣**). والله يغمره بروحه (**٢/٣٢**)، ويمنحه ألقابًا لامعة: الربّ والمسيح (**٢/٣٦**) وحجر الزاوية (**٤/١١**) والسيّد والمخلِّص (**٥/٣١**) وديّان الأحياء والأموات (**١٠/٤٢**). ويتعمّق الفكر المسيحيّ في هٰذه الألقاب كلّها، ويسعى أيضًا إلى توضيح ما أضافته القيامة على ما كان عليه يسوع منذ البدء، لأنّ المناداة بالبشرى كانت لا تزال غير واضحة تمامًا حول هٰذا الأمر. فالمناداة بالبشرى إذًا هي قبل كلّ شيء تأكيد مقتضب وموجَز لحدث هو أنّ يسوع مات وقام، ولدعوة إلى التوبة ونيل الغفران. ولٰكن، منذ ذلك الحين، تركَّزت على هٰذه النواة عناصر روائيّة وخطوط تفكير أولى تحمل بذور التطوّرات اللاحقة التي عرفها الفكر

المسيحيّ، بدءًا بتفكير كلّ من بولس ويوحنّا. وفضلًا عن ذلك، فإنّ تلك المناداة بالبشرى، بطبيعتها الإعلانيّة، حَمَلها شعب بأسره تجمَّع حول شهود القيامة المحظيّين: فالمناداة بالبشرى حملتها الكنيسة، وهي التي ولدت الكنيسة.

نشيدان قديمان

ولكي تعبِّر الكنيسةُ عمّا هو أساسيّ في إيمانها، لم يكن لديها شهادات إيمانها أو إعلانات بشرى وحسب، بل كان لديها أيضًا احتفالات تتناول فيها الصلاةُ المشتركة ما هناك من تأكيدات جوهريّة، وإنْ بكلمات وأجواء مختلفة. لعلّ الأمر لم يعُد مناداة بالبشرى تمامًا، ولٰكن قد نستفيد هنا من الاستشهاد بنصَّين شهيرين، ذَكرهما بولس في رسائله.

ورد النصّ الأقصر في الرسالة الأُولى إلى طيموتاوس (**١ طيم ٣/١٦**):

«قد أُظهِر (المسيح) في الجسد
وأُعلِن بارًّا في الروح
وتراءى للملائكة
وبُشِّر به عند الوثنيّين
وأُومِنَ به في العالم
ورُفع في المجد».

والنصّ الثاني نقرأه في الرسالة إلى أهل فيلبّي (**فل ٢/٦-١١**):

«فمع أنّه في صورة الله
لم يَعُدَّ مساواته لله غنيمة
بل تجرَّد من ذاته متّخذًا صورة العبد
وصار على مثال البشر
وظهر في هيئة إنسان
فوضع نفسه وأطاع حتّى الموت، موت الصليب.
لذٰلك رفعه الله إلى العلى
ووهب له الاسم الذي يفوق جميع الأسماء
كيما تجثو لاسم يسوع
كلُّ ركبة في السموات وفي الأرض وتحت الأرض
ويشهد كلّ لسان أنّ يسوع المسيح هو الربّ
تمجيدًا لله الآب».

وما يدهشنا في هٰذين النصّين، ولا سيّما في الأوّل منهما، هو أنّ الاستناد إلى أحداث الموت والقيامة المتتالية يفسح المكان لرسم آخر لم يَظهر قطّ في مناداة الرسل بالبشرى، هو رسمُ عالمَين متعارضَيْن، عالم «الجسد» (وفيه البشر والأرض) وعالم الروح (وفيه الملائكة والمجد)، كما ورد في النصّ الأوّل، أو عالم البشر «والوَضْع» وعالم الله «والرفع»، كما ورد في النصّ الثاني. فإنّ ما يهمّ المؤمن هنا لم يعد التلميح إلى أحداث يشهد لها، بل تأمُّل السرّ: لأنّ الذي شارك في الوضع البشريّ مشاركةً تامّة قد دخل في مجد الله. وهٰذا ما يؤدّي إلى المناداة بعبارة «يسوع المسيح هو الربّ» التي قرأناها منذ بدء هٰذا البحث، بكلّ ما يتضمّنه هٰذا الإعلان من بهاء ومعان. وهٰذه قراءة أقرب إلى التأمّل من الأُولى، ولكنّها لا تقلّ أهمّيّة عنها، فإنّ تلك الصياغة تفترض وقوع حدث الموت والقيامة، لكنّها تجعلنا ندرك بُعده الحقيقيّ، ذٰلك البعد الذي يتعلّق بمصيرنا، بما أننا مدعوّون في النهاية إلى المشاركة في المجد الذي دخل المسيحُ فيه قَبلنا.

كلمات الإيمان

تلك هي الكلمات التي نطق بها الجيل المسيحيّ الأوّل في وجه العالم. فكانت في أصل حركةٍ امتدّت إلى العالم القديم وحوّلت فكره وثقافته تحويلًا جذريًّا، حتّى وصلت إلينا نحن مؤمني العالم المعاصر. ولٰكن، إن أَمعنّا النظر في هذه الكلمات، لا يسعنا إلّا أن نتعجّب. فإنّ الأمر ليس صرخةً ثوريّة أو برنامج عمل أو مفهومًا جديدًا حول الوجود البشريّ والكون، ولا حتّى وعدًا بالتغيير في حياة العالم وعلاقات الناس بعضهم

بعض. فذٰلك كلّه سيأتي من دون شكّ، وسيكون نتيجةً لإعلان البُشرى الأوّل. لٰكنّ هٰذا الإعلان هو من نوعٍ آخر ويتركّز كلّه على شخصٍ هو نجّارٌ قرويّ متواضع. ولا يدور الحديث على قدرته على الاستمالة ولا على فعّاليّته في العمل أو ذكائه ونفاذ بصيرته، بل ليس المقصود سوى القول بأنّه حُكم عليه بالموت وقُتل ظلمًا، وبأنّه ما زال حيًّا تعدّى حدود هٰذا الموت، وبأنّ مصيره يهمّ كلّ إنسان، وبأنّنا أخيرًا إن اتّحدنا به ننال الحياة الحقيقيّة التي هي مصالحة مع الله.

وما يدهش فعلًا هو أنّ اسم يسوع اكتَسب ما يكفي من الشهرة، حتّى إنّ الدعوة التي أطلقت سرعان ما تقبّلها رجال ونساء ردّدوها هم أيضًا. ولا شكّ في أنّ حياة الشهود نفسها وقناعاتهم والقوّة الساكنة فيهم أسهمت هي أيضًا في النجاح المدهش هٰذا. وفي ذلك رأى المسيحيّون عملَ الروح القدس...

وهٰذا هو الإيمان المسيحيّ: انضمام إلى الربّ يسوع، يصبح من خلاله ممكنًا (وضروريًّا) أن يعيد المرء النظر كلّيًّا في حياته وأن يغيّر مفهومه عن الله والعالم، وأن يحوّل العلاقات الاجتماعيّة تحويلًا عميقًا... وذٰلك الانضمام يؤدّي أيضًا إلى نتائج كثيرة أُخرى لا يمكن توقُّعها.

كان الإيمان دائمًا من الأمور العسيرة

لا يحقّ لنا أن نجعل الماضي مثاليًّا وأن نتصوّر أنّه كان ومنْ بَدا فيه الإيمانُ أمرًا سهلًا. ولا يجوز أن نعتقد أنَّ الوضع الذي عاش فيه المسيحيّون الأوّلون كان مميَّزًا: فإنّ إطار الحضارة الهلّينستيّة لم يكن أكثر ملائمةً للإيمان بيسوع المسيح مِن عصرنا، والأمبراطوريّة الرومانيّة في القرن الأوّل لم تكن قد وصلت بعد إلى مرحلة «العاطفة الدينيّة الجديدة» التي عاشتها الحضارةُ القديمة المتأخّرة. ففي ذٰلك الزمن، كانت النزعة العلميّة، على سبيل المثال، أشدّ ثقةً بنفسها من النزعة العلميّة التي شهدنا نهوضها، إذ إنَّ علم الطبيعة عند أرسطو والرواقيّين، والحكمة الإبيقُوريّة، من دون كبير عناء، شرحت أمور الطبيعة والعالم شرحًا وافيًا؛ وقد توصّل علم الفلك، مع أنّه لم يَعرف منظار غَليليه في ذٰلك الزمن، إلى أن يحصي بدقّة مجموع النجوم! فكلّ شيء كان واضحًا في ذٰلك الكون (Cosmos)، ومنظَّمًا تنظيمًا محكمًا داخل حدوده. فبدا فيه حَمَلَةُ رسالة الإنجيل وكأنّهم معكّرو الأجواء ودُعاة إلى أيديولوجية فظّة وهمجيّة: وردّة الفعل التي ينسبها سفر **الأعمال** إلى الفلاسفة الإبيقوريّين والرواقيّين الذين استمعوا إلى خطبة بولس في الأرِيُوباغُس تُعبِّر تمامًا عمّا نقوله: «فما إن سمعوا كلمة قيامة الأموات حتّى هزئ بعضهم وقال بعضهم الآخر: «سنستمع إليك عن ذٰلك مرّةً أُخرى!»».

ويكفي أن نقلب صفحات الأناجيل حتّى نلاحظ مدى حضور مشكلة الإيمان وصعوبة إعلانه في فكر التلاميذ الأوّلين. فحتّى أيةُ القيامة الساطعة لم تكن كافية: فلنذْكر، على سبيل المثال، ما ورد عن عدم إيمان توما في إنجيل يوحنّا (٢٠/ ٢٤-٢٩) أو الجملة المعترضة «ولٰكنَّ بعضهم ارتابوا» في خاتمة إنجيل متّى (٢٨/ ١٧، راجع مر ١٦/ ١٤ ولو ٢٤/ ٣٨)، إن أردنا أن نكتفي بالأناجيل الإزائيّة. ويتردّد هٰذا الموضوع بإلحاح في صفحات الإنجيل: ففي الناصرة، «لم يُكثر (يسوع) من المعجزات هناك لعدم إيمانهم» (**متّى ١٣/ ٥٨**). وقد قال يسوع: «كلّ شيء ممكن للذي يؤمن». فصاح أبو الصبيّ لوقته: «آمنتُ، فشدّدْ إيماني الضعيف!» (**مر ٩/ ٢٤**). والاثنا عشر أنفسهم طلبوا العون من يسوع: «وقال الرسل للربّ: «زدنا إيمانًا»» (**لو ١٧/ ٥**). وبطرس نفسه – ولقبه «صخر» يشير بوضوح إلى صلابة إيمانه – «طوبى لك يا سمعان بن يونا...» (**متّى ١٦/ ١٧**)، كان يحتاج إلى عونٍ خاصّ: «سمعان سمعان، هوذا الشيطان قد طلبكم ليغربلكم كما تُغربَل الحنطة. ولكنّي دعوتُ لك ألّا تفقد إيمانك. وأنتَ ثبّت إخوانك متى رجعت» (**لو ٢٢/ ٣٢**).

هنري مارُو

الفصل الثامن

النظرات الأوّل إلى المسيح

بقلم إتْيان ترُوكمِه(*)

هل يمكننا، ونحن نقرأ الإنجيل، أن نلاحظ
التنوّع الكبير في نظرة المسيحيّين الأوّلين إلى المسيح؟
وهل يمكننا أن نشعر بالتوتّر ومخاطر الانقسام
التي أثارها، منذ اللحظة الأُولى،
ذلك الذي لا يمكن تقييده في أيّ صياغة كانت؟
من خلال البحث الفريد هٰذا في نصوص العهد الجديد
يبرز السؤال الذي وجّهه يسوع إلى تلاميذه:
«ومن أنا في قولكم أنتم؟»

نشأت الكنيسة في فلسطين، وهي بلد صغير يقع بين البحر ونهر الأردنّ، وكان فيه التعايش والتواجه بين العديد من الإثنيّات والثقافات والديانات. وكانت اليهوديّة، بلا شكّ، الديانة السائدة فيها، إلّا أنّها كانت هي أيضًا شديدة التنوّع. وفي البوتقة الثقافيّة والدينيّة هذه، كُتب للكنيسة المسيحية في القرن الأوّل، على ما يبدو، إنْ لم يكن الانقسام، فالتنوّع السريع على الأقلّ. وكان من شأن تمركز الكنيسة المبكّر، في أقاليم تختلف كلَّ الاختلاف عن الوسط الفلسطينيّ الذي نشأت فيه، أن يضاعِف النزعة إلى التفتّت.

لٰكن، وحتّى في أخطر أنواع التمزّق، ومع أنّ المؤسِّس غاب قبل الأوان، فقد حافظت الكنيسة على الشعور بوحدتها، ونظرت إلى هٰذه الوحدة على أنّها في وقت واحد اعتبار لا يُمَسّ وتطلُّع لا يفنى، وأنّها تستند مباشرةً إلى شخص يسوع. وإذا صحّ أنّ الكنيسة قد تمكّنت بذٰلك من المحافظة على تماسُكها، فلأنّها عرفت أنّها تحمل رسالةً إلى العالم هي «المناداة ببشرى» غير عاديّة. وفي صلب هٰذه البشرى، برز أمران هما المطابقة بين يسوع والمسيح المنتَظَر، ودورُه الحاسم في تاريخ البشريّة. وقد أصبح هٰذان الأمران مرجعًا مَكّن المسيحيّين جميعهم أن يَبقوا متلاحمين في إيمان واحد ومتعالين على الاختلافات اللغويّة كلّها.

لٰكنّ الوحدة الراسخة هٰذه لم تخلُ من الفوارق ولم يعبَّر عنها بالطريقة نفسها في كلّ مكان. وهناك تأكيدان من التأكيدات الأساسيّة التي وردت في المناداة بالبشرى – وهما أنّ يسوع هو المسيح وأنّ هٰذا المسيح قد قام – يبدوان غريبَين ويصعب التعبير عنهما بألفاظٍ تكون في متناول جميع الناس، حتّى إنّهما أصبحا موضع تفسيرات اختلفت باختلاف الأوساط. فكانت كلّ جماعة أو مجموعة من الجماعات تجد نفسَها مضطرَّة إلى التفكير في معنى هٰذه العناصر التي تضمَّنَتها البشرى، وإلى التعبير عنها بألفاظ يفهمها مَن يحيطون بهٰذه الجماعة. فعاد التنوّع وبرز داخلَ تلك العناصر التي توحِّد المسيحيّين.

(*) Etienne Trocmé، رئيس جامعة ستراسبورغ الثانية.

المسيح حيّ، ولكن أين؟

كيف تصوَّر المسيحيّون الأوّلون شخص يسوع المسيح القائم من الموت؟

كان التلاميذ الأوّلون كلُّهم يهودَ التربية، فكانت فكرة قيامة الموتى، في نظرهم، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمأساة الأخيرة الكبرى التي وصفتْها رؤى ذٰلك الزمان. وليست قيامة يسوع مجرَّد عودته إلى الحياة: فقد تبدَّلَ «جسدُه»، كما ستتبدّل أجساد الموتى الذين سيعيدهم الله إلى الحياة في اليوم الأخير (راجع **١ قور ١٥/ ٣٥-٥٢**). ولقاؤه، وهو يبقى خفيًّا دائمًا، اتّصالٌ بالعالم الآتي كما سيتحقَّق يومَ الدينونة العظمى. ومع أنّ يسوع هو حيّ أكثرَ منه في أيّ وقت مضى، فإنّه لا يخضع للقوانين الطبيعيّة العاديّة. وهٰذا ما يعبِّر عنه ما ورد في روايات التَرائيات مِن صُور لا تخلو مِن السذاجة: فهو يَدخل في أماكن مغلقة أبوابها بإحكام، ويصعب التعرّف إليه، ويختفي بالغرابة التي حضر بها...

ولٰكن أين هو يسوع الحيّ هذا؟

غالبًا ما نتصوّر أنّ المسيحيّين الأوّلين كانوا يعتقدون أنَّ هٰذا الشخص الذي ينتمي إلى العالم الآتي كان يسكن في العالم العُلويّ حيث يقيم الله والملائكة ومِن حيث يَنزل ليزور تلاميذه.

في وقت مبكِّر جدًّا، تآلفت فكرتا صعود يسوع في المجد وقيامته من بين الأموات (**رسل ٢/ ٣٤-٣٥ وفل ٢/ ٩**). غير أنّ المسيحيّين لم يتصوّروا، حتّى ذٰلك اليوم، صعود يسوع بصورة انطلاقٍ للإقامة في السموات حتّى عودته المجيدة في اليوم الأخير.

إذ إنَّ التفسير الجديد هذا الذي فُسِّر به صعود يسوع لم يظهر إلّا في وقت لاحق، في مؤلَّفات لوقا ويوحنّا، حوالى السنين ٨٠ إلى ١٠٠ من عصرنا. أمّا عند الإنجيليّين مرقس ومتّى وحتّى في رسائل بولس، فلم يكن يسوع القائم من الموت منعزلًا في سماء بعيدة، بل كان حاضرًا حُضورًا خفيًّا بين أولٰئك الذين ينتمون إليه.

فهناك إذًا صورتان مختلفتان لحدث أساسيّ واحد. والغاية من هٰذا المِثال هي توضيح ذٰلك الاختلاف وكشف الأسباب التي منعته من إفساد وحدة الكنيسة الناشئة.

مسيحٌ حاضر

في التقليد الذي سبق كتابة الأناجيل، وفي إنجيلَي مرقس ومتّى وفي رسائل بولس، يَظهر يسوع القائم من الموت حاضرًا بين تلاميذه وجميع الذين ينتمون إليه. ويصغي هٰؤلاء إلى تعليم معلِّمهم إصغاءَهم إلى كلمةٍ موجَّهة مباشرةً إليهم. وعندما يكيِّفون هٰذا التعليم، آخذين في الاعتبار أوضاعهم الخاصّة (راجع تعليم يسوع في الطلاق **مرقس ١٠/ ٢-١٢ ومتّى ٥/ ٣١-٣٢ و١٩/ ٣-١٢**)) فإنّهم يُسلِّمون ضمنًا بأنّ يسوع ما زال يرشدهم، كما فعل في السابق حين كانوا يرونه إلى جانبهم. وحين كانوا يَشفُون الناس ويطردون الشياطين، كانوا يدركون أنّ قوّتهم مستمدَّة من حضوره بينهم (**مر ٩/ ١٤-٢٧**).

مفهوم يشارك فيه بولس...

يردّ بولس الحياة المسيحيّة كلَّها إلى الاتّحاد بالمسيح: وهو يستعمل عبارة «في المسيح» أكثر من ١٥٠ مرّة في رسائله. فهل هٰذا يعني في نظره أنّ جميع المؤمنين يستطيعون أن يقوموا باختبارٍ تصوّفيّ؟ طبعًا لا. لأنّه، حين يشير إلى اختبار من هٰذا النوع، فهو يعرضه كحدث استثنائيّ ويستخدم ألفاظًا أُخرى (**٢ قور ١٢/ ١-٤**). ولٰكنّه يريد التنويه بأنّ كلّ مسيحيّ يحيا حياته اليوميّة «في المسيح» حقًّا. بولس مقتنع أيضًا بأنّ القائم من الموت هو الذي يرافق ويقود جميع الذين اتّحدوا به بإيمانهم ومعموديّتهم (روم ٦/ ١-١٤). فهٰذا

هو التأكيد أنّ يسوع حاضر في قلب الجماعة المؤمنة، وقد عُرض في صيغةٍ أكثر تطوّرًا من التي نجدها في التقليد الذي سبق كتابة الأناجيل.

... ومتّى

ومتّى أيضًا يوحي بأنّ يسوع حاضر بين البشر، بوجه ضمنيّ أوّلًا، ثمّ بشكلٍ واضح جدًّا، حين يصل، في كلامه، إلى المرحلة التي تلت عيد الفصح. ويبدو الكلام الذي ينسبه متّى إلى المعلّم في (١٨/ ٢٠ و٢٨/ ٢٠) في منتهى الصراحة: «فحيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، كنت هناك بينهم». «هاءنذا معكم طوال الأيّام إلى نهاية العالم». فليس هناك شيء أوضح من ذٰلك. إنّ القائم من الموت حاضر بالقرب من الرسل الملتزمين بالمغامرة الرسوليّة الكبرى، لٰكنّه حاضر أيضًا في وسط كلّ مجموعة من المسيحيّين، مهما صغرت. أمّا مشهد الدينونة العظمى (متّى ٢٥/ ٣١-٤٦)، فلا يمكن فهمه، إنْ لم يكن ابنُ الإنسان حاضرًا بوجهٍ خفيّ في كلّ أخ فقير أو مريض أو مضطهَد.

... ومرقس

وهٰذا الاتّجاه نفسه يظهر أيضًا في إنجيل مرقس، مع التشديد هنا على العمل الذي يجب مواصلته. فإنّ مرقس يشدّد على أنّ القائم من الموت يواصل، بمؤازرة تلاميذه، العمل الذي بدأه بين البشر قبل أن يُصْلَب. ولا نستغرب التشديد على هٰذه الفكرة، في إطار جدال متخفٍّ بين كاتب هٰذا الإنجيل وتلاميذ يرتبطون على الأرجح بكنيسة أورشليم.

وتَركَّز رهان هٰذا الجدال على طريقة تَصوُّر العلاقة بالمسيح القائم من الموت. فما من أحد كان يشكّ في في حضور المسيح في وسط الجماعة. ولٰكن كيف يجب التصرف إزاءه؟

كانت الكنيسة القديمة قد شعرت بحاجة ملحّة إلى سبر أغوار الكتب المقدّسة لتكتشف فيها كلّ ما أُنبِئَ به عن المسيح. وبهٰذه الوسيلة جمعت حول «المناداة بالبشرى» كلّ ما كان له مغزًى في نصوص العهد القديم (راجع رسل ٢/ ٢٥-٣١، ٣٤ و٣/ ٢٢-٢٦ و٤/ ١١) وجميعَ الألقاب التي نَسَبَها أنبياءُ ذٰلك الزمن إلى مسيح إسرائيل: لا إلى الممسوح فقط (المشيح بالعبريّة وخْرِسْتُس باليونانيّة)، بل إلى النبيّ والمعلّم والربّ والملك وابن الإنسان وابن الله وعبد الله الأزليّ والقدّوس والبارّ وأمير الحياة... كما أنّها اجتهدت أيضًا في تصنيف هٰذه المجموعة من الألقاب (راجع مر ٦/ ٢٧-٣٠) والدفاع عنها في وجه الانتقادات (راجع مر ١٢/ ٣٥-٣٧). وقد أدّى العمل المسيحانيّ الأوّل هذا خدمةً جليلة للفكر المسيحيّ في كلّ العصور. ولٰكن، مع أنّ هٰذا العمل كان في منتهى البساطة، فقد تضمّن أمورًا فكريّة، لا بل علميّة، أثارت ردود فعل لا تخلو من العنف في بعض الأوساط: أفلا يُعدّ التيهان في دقيق المناقشات خيانةً للإنجيل؟ أَوَلا يُنسى أنّ الصِلة بالمسيح الحاضر هي قبل كلّ شيء اشتراك في حياته الرسوليّة والمتألّمة؟ وقد ذَكر مرقس في إنجيله مِثْل ردود الفعل هٰذه (راجع مر ٨/ ٣١-٣٨ وهو يتناقض مع ما ورد في ٨/ ٢٧-٣٠). لقد نشأ هٰذا الإنجيل في بيئة تضمّ مجموعات من «الفعّاليّين»، الذين كانوا يُعَدّون هامشيّين بالنسبة إلى جماعة أورشليم، فأراد أن يُشعر قرّاءَه بالمشروع الكبير الذي التزموا به مع المعلّم. ومن أجل الوصول إلى ذٰلك الهدف، يُؤَوِّن إنجيلُ مرقس باستمرار كلَّ ما يرويه عن يسوع الذي كان يُرى في الأمس سائرًا على طرقات فلسطين. وإذا حثّ المسيحيّين على «اتّباع يسوع»، فهو يقصد الاتّباع بمعناه الحرفيّ: فالقائم من الموت يسير على هٰذه الأرض، وعلى التلاميذ أن يقتفوا آثاره، مهما كلّفهم الأمر (مر ١٠/ ١٧-٣١).

خلافات عائليّة...

كان هٰذا أوّلَ خلافٍ عائليّ بين «الفعّاليّين» و«المفكّرين»، يجمعهم إيمانٌ واحد بالمسيح وتُباعِد بينهم طريقةُ مقاربتهم سرّه. وثمّة خلافات أُخرى كثيرة... فكان على بولس الرسول أن يسارع إلى الردّ بقسوة على المتمسّكين باليهوديّة الذين أبدوا استعدادًا لتقديم الخضوع للشريعة على الاتّحاد بالربّ يسوع (**غل ٢/ ١٤-٢١**)، وكان عليه أيضًا أن يحارب «الفجّار الروحيّين» الميّالين إلى تفضيل حرّيّتهم الشخصيّة على اشتراكهم مع المسيح (**١ قور ٦/ ١٢-٢٠**).

وفي ما بعد، وحوالى السنة ٩٠، يبدو أنّ متّى الإنجيليّ ألقى المسؤوليّة على بولس، أو أقلّه على بعض تلاميذه، في بعض فقرات من العظة على الجبل، وهي الفقرات التي يغيِّر فيها مضمونَ التقاليد المألوفة ليزيدها إلزامًا. ففي (**٥/ ١٧-٢٠**) ينتقد متّى الإفراط في الابتعاد عن الشريعة («لا تظنّوا أنّي جئت لأُبطل الشريعة...»)، وفي (**٧/ ١٣-٢٣**) يستنكر الميل إلى استخدام الربّ من دون الخضوع له.

... يقابلها وحدةٌ دينيّة عميقة

ربّما كانت هٰذه الخلافات تحجب الأُخوّة التي جمعت تلاميذ يسوع. إلّا أنّ جميع المسيحيّين كانوا متساوين في الاقتناع بأنّ القائم من الموت حاضر في وسطهم حضورًا يفوق الطبيعة، وكانوا يرون في هٰذا الحضور - كما أشرنا إلى ذٰلك سابقًا - استباقًا للعالم الآتي. وهٰذا الاقتناع كان يوجّه بمنتهى الوضوح حياةَ الجماعات التي أيّدته.

وهٰذا ما يفسّر الحرارة الأخيريّة تلك التي كانت تلتهمهم. لم يتوقّعوا نهاية العالم وكأنّها ستحدث في الغد، ويبدو أن هٰذه الفكرة لم تكن أكثر شيوعًا عند المسيحيّين الأوّلين منها عند اليهود المعاصرين لهم. إلّا أنّهم كانوا يشعرون بأنّهم معنيّون بمأساةٍ كونيّة في مراحلها الأُوَل، وأنّهم محرَّرون من قوانين كثيرة لم يفكّروا قطّ في تجاوزها إبّان مجرى الأمور العاديّ، كراحة يوم السبت والأحكام المختصّة بالطهارة الطقسيّة والواجبات العائليّة... (راجع **مر ٢/ ١٥-١٨ و٧/ ١-٢٣**...). وفي المقابل، يَفرض يسوعُ الحاضر على رفقائه نظامَ حياةٍ صارمًا لا يمكن تصوُّره في عالم ثابت: كالتخلّي عن الثروات والضمانات وحتّى عن النفس.

ومن جهة أُخرى، كان المسيحيّون المنتمون إلى مختلف الجماعات ممتلئين بأجلّ مشاعر الاحترام لرفيقهم الخفيّ. وقد عَبّروا عن هٰذا الاحترام الفائق بكثرة ما أضفَوا عليه من الألقاب الجليلة: فإنّه المشيح (خرِسْتُس باليونانيّة) وابن الإنسان وابن الله والنبيّ والمعلِّم والرابي والربّ وملك إسرائيل. ولكلٍّ من هٰذه الألقاب تاريخٌ طويل ومعنى قابِل للتكييف، عَمِل على تحويله، في بعض الأحيان، الانتقال من محيطٍ ساميّ إلى محيط يونانيّ. وبالرغم من هٰذه التقلّبات، ثمّة أمر بقي ثابتًا في موقف الكنائس الملتفّة حول المسيح الحاضر، وهو أنّ إكرام الربّ لم ينقلب إلى عبادة. فكانوا يتبعون يسوع ويقتدون به ويطيعونه، من غير أن يرفعوا إليه الصلاة بحصر المعنى أو يؤدّوا له شعائر العبادة.

وفي الختام يمكننا أن نقول من دون مبالغة إنّ هٰذه الكنائس ظلّت في حضن الدين اليهوديّ، شرطَ ألّا نحصر هٰذا الدين في التفسير الخاصّ الذي تبنّاه الفرّيسيّون بعد خراب هيكل أورشليم سنة ٧٠. فالتوحيد غير المتساهل والتشديد على ممارسة الديانة، بدلًا من تكوين المفاهيم عنها، وأهمّيّة الكلمة كوسيلةٍ تَنقل الوحيَ الإلٰهيّ، هي كلّها عناصر يهوديّة نجدها أيضًا في حياة المسيحيّة وتفكيرها. وعلى كلّ حال، كانت المسيحيّة تَعرف أنّها يهوديّة وتريد ذٰلك رغم كلّ المناظرات التي حملَتها على مواجهة السلطات

الدينيّة في الدين اليهوديّ. فإنّ بولس أعلن أنّه يهوديّ وكتب بدمه الفصول الثلاثة (من ٩ إلى ١١) من الرسالة إلى أهل رومة، واجتهد مرقس أن يجذب الجموع اليهوديّة إلى اتّباع يسوع، وخلط متّى بين الكنيسة وإسرائيل.

وبناءً على ذٰلك، استمرّ مفهوم حضور القائم من الموت بين ذويه من دون انقطاع منذ بدايات الكنيسة إلى السنين الأخيرة من القرن الأوّل، بالرغم من أنواع الانقطاع العائد إلى الأسباب الثقافيّة أو الكنسيّة.

ربٌّ سماويّ

ومع ذٰلك، ففي نهاية القرن الأوّل، نافَس مفهومَ المسيح الحاضر بين البشر تعليمٌ أتت به كتاباتٌ مسيحيّة أُخرى كانت ترى في القائم من الموت كائنًا سماويًّا ابتعد عن ذويه بعد صلبه.

ومع أنّ فكرة حضور المسيح كانت أساسيّة في نظر بولس الرسول، فقد أخذت الفكرة الثانية ترتسم في رسائله: أنّ يسوع رُفع إلى المَقام الأعلى بعد موته على الصليب (**فل ٢/ ٩-١١**) وهو يقيم بالقرب من الله (**قول ٣/ ١-٤** و**أف ١/ ٢٠-٢٢**) ويُنتَظَر أن يَنزل من أعالي السموات في نهاية الأزمنة (**١ تس ٤/ ١٥-١٧** و**٢ تس ١/ ٧**). إلّا أنّ هٰذه الصور المقتبسة من (**المزمور ١١٠**) ومن الرؤى لم تُستخدم على نحوٍ منطقيّ. فهي تفيد خصوصًا حاجات الإرشاد الأخلاقيّ. أمّا ما يبقى جوهريًّا في فكر بولس فهو الشركة بين المؤمن والمسيح القريب منه بوجهٍ خفيّ.

لوقا شاهِدُ المفهوم الآخر

إنّ الانتقال الحقيقيّ إلى مفهومِ ربٍّ سماوي تمَّ بصدور إنجيل لوقا وسِفر **أعمال الرسل**، وقد كُتبا بعد مرور نحو عشرين سنة على موت بولس. وهما يوليان مسألة رفع القائم من الموت إلى الله وجلوسِه على عرشٍ سماويّ حتّى اليوم الآخرِ أهمّيّةً خاصّة. والرواية المزدوجة التي تَنقل خبر الصعود - وهو يَختتم الإنجيل (**لو ٢٤/ ٥٠-٥٣**) ويَفتتح سفر **الأعمال** (**رسل ١/ ٩-١٢**) - تشير بوضوح إلى الفرق القائم بين زمن حياة يسوع الأرضيّة والزمن الذي يلي عيد الفصح. فقبل الفصح، كان يسوع يعيش برفقة تلاميذه، وبعد ذٰلك، نشاهد انفصالًا جذريًّا بين الربّ في السماء والمؤمنين الباقين على الأرض. ويقضي التدبير الإلٰهيّ بأن تَستقبل السمواتُ القائمَ من الموت حتّى يوم عودته في نهاية الأزمنة (**رسل ٣/ ٢١**). ونلاحظ أنّ زمن تَرائيات المسيح عند لوقا أقصر بكثير ممّا هو في رسائل بولس (راجع **١ قور ١٥/ ٥-٨**)، علمًا بأنّه حُصِر في أربعين يومًا (**رسل ١/ ٣**). أمّا الرؤيا التي رآها بولس على طريق دمشق فتبدو وكأنّها استثناء أتى من السماء حيث يسكن المسيح منذ صعوده (**رسل ٩/ ٣** و**٢٢/ ٦** و**٢٦/ ١٣**).

لِمَ هٰذا التطوّر؟

يبدو مِثلُ هٰذا التطوّر مدهشًا للوهلة الأُولى. فاليقين بالقيام قُرْبَ المعلِّم كان مشحونًا بقوّةٍ عاطفيّة كبرى. فلِمَ التخلّي عنه بهٰذه السرعة؟

لا شكّ في أنّ تطوّر التفكير المسيحانيّ كان له دور في ذٰلك: فكلَّما ظهر المسيح إلٰهيًّا، برز الميل إلى التشديد على الطابع المتعالي الذي يميّز شخصَه. وفي الزمن نفسه، شدَّدت اليهوديّة بإلحاح على فكرة تعالي الله، فتأثّرت بذٰلك كنيسة لوقا، وهي ما زالت يهوديّة في جوهرها رغم صبغتها اليونانيّة. ولٰكنَّ هناك سببًا آخر أدّى إلى هٰذا التطوّر. وإذا صحّ أنّ المحيط الذي يتوجّه إليه لوقا ما زال يهوديًّا إلى حدّ ما، فهو لم يَعُد فيه أيّ شيء فلسطينيّ. فلا شكّ في أنّ مسيحيّي مقدونية

وآخائية وَجدوا روايات يسوع وأقواله «غريبة» بعضَ الشيء، لأنّها تَصِلهم في تقليد متأثّر بالدين اليهوديّ المنتشر في اليهوديّة والجليل. وحيث لم يجد قرّاءُ إنجيل مرقس الأوّلون أيّ عناء في الشعور بأنفسهم قريبين من القائم من الموت، وهو يواصل عمل يسوع الأرضيّ، كان قرّاءُ إنجيل لوقا معرَّضين للشعور بالغربة بسبب التعذّر الشديد عليهم أن يتصوّروا ربَّهم بمظهر رابي أو طبيب على طريقة يسوع التاريخيّ. وعلى العكس من ذلك، فحين جَعلوا السموات مسكن القائم من الموت، تمكّنوا أن يكوِّنوا عنه فكرةً أكثر تجريدًا، تُبعد عنهم هواجس الغربة.

التشديد على أمرين جديدين

وهذا الانتقال من مفهوم المسيح الحاضر بين البشر إلى مفهوم الربّ السماويّ كان يحمل خطرًا في طيّاته: أفلا يُخشى أن تتراخى الروابط التي تجمع بين القائم من الموت والمؤمنين؟ أوَلا يُخشى أن يصبح الإيمان المسيحيّ تافهًا؟ كان الأمر محتمَلًا، لو لم تحافظ الكنيسة التي يتوجّه إليها لوقا على شعورٍ قويّ بالشركة الوثيقة التي توحّد مؤمنيها بالمسيح. وهناك ظاهرتان تعويضيّتان تشهدان على ذلك. قامت الظاهرة الأولى على التوسّع في عنصر كان قد ورد عَرَضًا عند بولس (**روم ١٠/١٢-١٤**) واتّخذ أهمّيّةً في سفر **الأعمال**: وهو الصلاة الموجَّهة إلى الربّ يسوع (**رسل ٢/٢١ و٧/٥٩ و٩/١٤ و٢١/١٦**). ولا شكّ في أنّ هذه الصلاة تكاد لا تتميّز عن شهادة الإيمان، ولكنّها تؤلِّف رابطًا جديدًا بين المؤمن وربّه، فتتضاءل المسافة بينهما.

وقامت الظاهرة الثانية على التعمّق في التعليم الخاصّ بالروح القدس. وهذا التعليم، بعد أن كان بدائيًّا في إنجيلَي مرقس ومتّى، اتّخذ أهمّيّةً كبرى عند بولس. ففي نظره، لا يصلّي المسيحيّون ولا يعيشون في الكنيسة ويتقدّسون إلّا بفعل روح الله (راجع **١ قور ١٢ و١٤** مثلًا). لكنّ بولس لم يَجمع بين الروح والمسيح إلّا استثنائيًّا (**روم ٨/٩ وفل ١/١٩**). وعلى العكس من ذلك، يشدّد سفر **الأعمال** على أنّ القائم من الموت هو الذي يُفيض روحه على ذويه (**رسل ٢/٣٣**، راجع **١/٥ و٨**). وهذه العطيّة تُمْنَح كلَّ مؤمن، لأنّها، باستثناءِ بعض الحالات (**رسل ٨/١٤-١٧ و١٠/٤٤-٤٨ و١٩/١-٧**)، ترتبط بالمعموديّة (**رسل ٢/٣٨**). وهذا ما أدّى إلى قيام علاقات مباشرة ووثيقة بين الربّ السماويّ وكلّ مسيحيّ، بالرغم من الهوّة الكبيرة التي تفصل بينهما والتي لا يمكن اجتيازها.

وأسطع برهان على أنّ العلاقات القائمة بين المسيح والكنيسة المسيحيّة لا تَفقد شيئًا من متانتها في نظر لوقا هو روايته للعنصرة في (**رسل ١٢**) وهي توازي تمامًا رواية الصعود. وكان لوقا يحرص على ألّا يُفْهَم الصعود وكأنّه نقصٌ تُعانيه الجماعة المؤمنة التي حُرمت حضورَ معلّمها شِبه الجسديّ. لذلك أُحِيط إرسالُ الروح القدس مِن قِبَل الربّ، الذي رفعه الله إليه، بأبّهةٍ خاصّة. وصُوِّرت العنصرة بصورةِ نقطةِ تحوُّلٍ حاسم في تاريخ الخلاص. فهي تَمنح الرسل قدرةً فائقة الطبيعة تضفي على تبشيرهم الرسوليّ فعّاليّة لا تضاهى. ومن خلال عظات الرسل، يعمل المسيح السماويّ نفسه وينشئ جماعات مؤمنة.

لا شكّ في أنّ مؤلِّف لوقا لا يجسِّد فكرًا لاهوتيًّا مستفيضًا، ولكنّه يشهد على إعادة صياغةٍ شاملة للأفكار العائدة إلى الصلة التي تربط المسيح بكنيسته في بعض الأوساط المسيحيّة في الجيل الثاني.

المسيح في إنجيل يوحنّا

إنّ ما يعرضه الإنجيل الرابع من مفهوم للمسيح السماويّ ولصلته بالكنيسة يحاكي فكر لوقا عن قرب. وُضع هذا الإنجيل بعد مرور عشرين أو خمسٍ وعشرين سنة على كتابة مؤلّفات لوقا، ومن الراجح أنّه يعكس

أفكار مجموعةٍ صغيرة، ولٰكنّها ذات نفوذ من حيث التأثير الذي أحدثته.

ويحتلّ موضوع رَفع يسوع إلى الله في ختام رسالته بين البشر مكانةً مرموقة في هٰذا الإنجيل. وهٰذا الرفع يكاد أن يتطابق تمامًا مع الصلب («وأنا إذا رُفعت من الأرض جذبت إليّ الناس أجمعين» **يو ١٢/ ٣٢**، راجع أيضًا **يو ٣/ ١٤-١٥ و٨/ ٢٨ و١٢/ ٢٤**)، وهو يُعتبر موازيًا للنزول من أعلى السموات، الذي ابتدأت به رسالة يسوع («فما من أحد يصعد إلى السماء إلّا الذي نزل من السماء» **يو ٣/ ١٣**، راجع أيضًا **٣/ ٣١-٣٢**). ويَدخل النزولُ من السماء والصعود إليها في إطار تعليم مسيحانيّ مسهب يقوم فيه كيانُ يسوع السابق بدورٍ مهمّ (**يو ١/ ١-١٨**).

ولٰكنّنا نخطئ إن قصرنا مفهوم ابن الله هٰذا على نظامٍ مجرَّد يكون صورةً مسبقة للخلاصات التعليميّة الكبرى التي شهدتها القرون اللاحقة. وعلى غرار ما فعل لوقا، يحرص يوحنّا في إنجيله على الإشارة إلى الشركة الوثيقة التي تربط القائم من الموت بذويه.

ويَظهر رفعُ المسيح في إنجيل يوحنّا بمظهر رحيلٍ وانفصال يَشعر التلاميذ بمرارته (**يو ٧/ ٣٣-٣٤ و١٣/ ٣٣، ٣٦-٣٨ و١٦/ ٥-٦**). فإنّ ابتعاد القائم من الموت يطرح مشكلةً للكنيسة، فلقد ظهر، على ما يبدو، حنين إلى الأيّام التي كان يسوع يسير فيها مع تلاميذه على طرقات فلسطين. وبدا الوجود المسيحيّ مستحيلًا في غياب المسيح (راجع **يو ١٤/ ١-٢١**). فهل يكفي وجود ربٍّ لا يكون إلّا سماويًّا، لتغذية الإيمان؟

ولذٰلك حاول كاتب الإنجيل الرابع جاهدًا أن يبرهن أنّ الانفصال عن يسوع هو لخير التلاميذ: «إنّه خير لكم أن أذهب» (**يو ١٦/ ٧**). ذلك بأنّ ذهاب المعلّم يقابله في الواقع عودة (**يو ١٤/ ١٨ و٢٨**)، وليس المقصود هنا المجيء الثاني في آخر الأزمنة، بل إنّها، في الوقت الحاضر، عطيّة الروح القدس التي أصبحت ممكنةً بعد رفع ابن الله إلى المجد السماويّ: «فإنْ لم أذهب لا يأتكم المؤيّد. أمّا إذا ذهبت فأُرسله لكم» (**يو ١٦/ ٧**، راجع أيضًا **يو ١٤/ ١٦، ٢٦ و١٥/ ٢٦**). فالروح الإلٰهيّ يوصَف هنا بأنّه «بارقليط»، وأحد معاني هٰذه الكلمة هو «المؤيِّد». وليس ذٰلك مجرَّد مصادفة. فما من أحد يستطيع أن يشدِّد على البُعد العاطفيّ الذي يميّز العلاقة القائمة بين المسيح وكنيسته، أكثر ممّا فعل كاتب الإنجيل الرابع. ومع أنّ الربّ القائم من الموت غائب وبعيد، فهو، بفضل الروح، متّحد بذويه اتّحادًا أشدّ متانةً ممّا لو كان حاضرًا بالجسد.

وقد نستطيع أن نجسّد تطوّر مفهوم الربّ السماويّ بالاستناد إلى كتاباتٍ مسيحيّة أُخرى تعود إلى نهاية القرن الأوّل ومطلع القرن الثاني. وقد نستطيع أيضًا أن نُثبِت أنّ علم اللاهوت المسيحيّ تخلّى عن كلّ ما هو يهوديّ، اعتبارًا من بداية القرن الثاني، واتّسم شيئًا فشيئًا بالطابع الهلّينيّ. ولكنّنا نكتفي هنا بالإشارة إلى أنّ الكنائس المسيحيّة التي يجمعها إيمان واحد بالمسيح يسوع أَلّفت، نحو السنة ١٠٠، مجموعتَيْن تختلفان من حيث مفهومهما لطريقة حضور القائم من الموت بين المؤمنين به.

الحياة بالمسيح

أن يكون مِثْلُ ذٰلك الانقسام حول أهمّ موضوعات الإيمان المسيحيّ أمرًا خطيرًا، فهٰذا ما أثبته بوضوح سياقُ تاريخ الدين المسيحيّ. ولٰكن، لا بأس أن نتساءل لماذا نجحت الكنائس طوال القرون الثلاثة أو الأربعة الأوائل في تجنُّب الانشقاق الكبير، رغم اختلافها في الأمور المسيحانيّة في وقتٍ كان المسيح في صلب الإيمان المسيحيّ نفسه ولم يكن ينافسه أيّ موضوع دينيّ آخر.

إنّ أسباب الحفاظ على هٰذه الوحدة لم تكن سياسيّة أو ثقافيّة. فمنذ البدء انتشرت المسيحيّة في المناطق الواقعة في جهتَي الحدود الاجتماعيّة التي كانت تفصل الشعب اليهوديّ عن جيرانه، وتخطّى انتشارُها السريع

الحدودَ الشرقيّة في الأمبراطوريّة الرومانيّة، وخطوط التماس اللغويّة بين المناطق التي تبنّت الثقافة اليونانيّة وتلك التي بقيتْ محافظةً على اللغة الآراميّة في فلسطين وسورية. وباختصار، بدت كلّ الظروف مؤاتيةً لحصول تفتُّتٍ سريع في الجماعات المسيحيّة.

فهل ينبغي إذًا أن نردّ وحدة الكنائس إلى أسباب تتعلّق بالناحية التأسيسيّة؟ فإنّ سفر **الأعمال** يشهد على تمركز السلطة الكنسيّة في أورشليم من الثلاثينيّات إلى الستّينيّات من عصرنا. ولٰكنّ هٰذا التمركز بقي جزئيًّا إلى حدٍّ بعيد، ويبدو أنّه لم يتجاوز قطّ مستوى السلطة الأخلاقيّة. وعلى كلّ حال، أدّى خراب أورشليم سنة ٧٠ وانهيارُ الكنيسة فيها إلى وضع حدٍّ نهائيّ لنواة ذٰلك النظام المركزيّ. وحتّى في وقتٍ متأخِّر من القرن الثاني، عاشت الكنائس المسيحيّة في ظلّ نظام المركزيّة الشاملة أو نظام «الرعايا». وبالرغم من ذٰلك، لم تُسِئ الخلافات حول المسائل المسيحانيّة إلى وحدة الكنائس قبل مطلع القرن الثاني.

ولئن كانت الأمور على هٰذا النحو، فلا شكّ في أنّ مردّ ذلك إلى أنّ هٰذه الخلافات أبقت على الشعور بالاتّفاق على الجوهر. وهٰذا الجوهر هو أوّلًا الاستناد المشترك إلى يسوع، وهو أيضًا التعبير العمليّ في حياة المؤمنين عن الصورة التي كوّنوها عن المسيح القائم من الموت. وسواء أمسيحًا حاضرًا بوجهٍ خفيّ كان هذا القائم من الموت أم ربًّا سماويًّا، فقد كان يحرِّر الإنسان من القيود التي تُرخي بثقلها عليه ويَمنحه حرّيّةً جديدة تمكّنه من إعادة بناء حياته بأكملها. أمّا إعادة البناء هٰذه فكانت، في وقتٍ واحد، من عمل القائم من الموت وبإرشاد يسوع الأرضيّ وتعليمه وقدوته. وكانت تتمّ في أجواء تشبه أجواء نهاية الأزمنة، وهي حالةٌ تبرِّرُها القيامة.

فلم يكن يسوع موضوع تفكيرٍ نظريّ، بقدر ما كان يعني لجميع مسيحيّي القرن الأوّل حياةً جديدة تتفتّح في جماعتهم. وإذا صحّ أنّ كنائس القرون اللاحقة لاقت صعوبةً كبرى في الحفاظ على وحدتها، فقد يعود ذٰلك إلى أنّها نسيت هٰذا الأمر تمامًا.

الباب الثاني

الكنيسة في مواجهة العالم الرومانيّ

منذ نهاية القرن الأوّل
بدت الكنيسة في نظر مسؤولي الإمبراطوريّة
الرومانيّة المترامية الأطراف، كأنّها جسم غريب.
لذا هُوجِمت واضطُهِدَت.
إلّا أنّ المسيحيّين قاوموا، ونظّموا صفوفهم،
ودافعوا عن أنفسهم. ولم يردّوا الضربات
إلّا بتبرير إيمانهم وصحّته.
وأخذت الكنيسة تحتلّ مكانها شيئًا فشيئًا
تجاه العالم الرومانيّ،
فاستفادت من عبقريّة اليونان
لصقل ما تعرفه عن أسرار الله والمسيح
وما تعرفه عن ذاتها،
كما استعانت بعبقريّة اللاتين
لإنشاء نُظُمها وتثبيتها.
وبرز في القرنين الثاني والثالث
مفكّرون مسيحيّون كبار، وأساقفة عظام
أدّوا الشهادة بتآليفهم وأحيانًا باستشهادهم.
وفي نهاية تلك الحقبة ثبّت المسيحيّون وجودهم
في جميع ولايات الإمبراطوريّة،
وتألّقت الكنائس الأفريقيّة تألّقًا ملحوظًا:

الفصل الأوّل

مرحلة حاسمة

بقلم هنري مَرُو(*)

استفادت الكنيسة، في القرنين الثاني والثالث،
من التجدّد الدينيّ والفلسفيّ الذي ميّز تلك الحقبة
من تاريخ رومة. وتحوَّل إليها رجال نساء
يبحثون عن الحقيقة. ولكنّهم، لمّا أصبحوا مسيحيّين،
أدخلوا أحيانًا في الكنيسة معتقداتهم القديمة. فكان ذلك
محنةً رهيبة وميمونة في الوقت نفسه،
لأنّها مكّنت من إعداد الخُلاصات اللاهوتيّة الكبرى الأُوَل.

على عتبة القرنين الثاني والثالث، كيف يمكن تصوُّر العالم اليونانيّ الرومانيّ الذي انتشرت فيه المسيحيّة وترعرعت؟ وهل كان للدينِ فيه مكانة مرموقة في حياة رجال ذلك العصر ونسائه؟

أجل، لقد احتلّ الدين في العالم اليونانيّ الرومانيّ مكانة مرموقة. ولكي نقيِّمها تقييمًا سليمًا، نقترح إلقاءَ نظرة خاطفة إلى التاريخ الدينيّ الخاصّ بعالم البحر المتوسّط في ما نسمّيه الحضارة المدرسيّة القديمة - أي حضارة اليونان ورومة والإمبراطوريّة الرومانيّة. وفيه نميّز ثلاث مراحل. المرحلة الأُولى هي مرحلة المدينة القديمة، وتمتدّ على الإجمال من القرن العاشر إلى القرن الرابع ق.م.، وقد جسّدها في اليونان كثير من الوجوه الشهيرة مِن هُوميرُس إلى أفلاطون. وهي أيضًا مرحلة الجمهوريّة الرومانيّة القديمة، المتقشِّفة والفاضلة، مرحلة الحياة الدينيّة الكثيفة. فالآلهة قريبة «والقدسيّ» منتشر في كلّ مكان، في الطبيعة والإنسان على السواء. ومظاهر الحياة اليوميّة كلّها ترتدي طابعًا دينيًّا، سواء كان الأمر يتعلّق بالحياة الاجتماعيّة أو بالحياة اليوميّة، أي بكلّ شيء - وصولًا إلى الرياضة (فبطولات ألعاب القوى والألعاب الأولمبيّة مثلًا كانت قبل كلّ شيء أعيادًا دينيّة).

ولٰكنّ نظام المدينة السياسيّ والدينيّ انهار فجأةً، في اليونان. ابتداءً من سنة ٣٣٨، عند إخضاعها للمَلَكيّة المقدونيّة بقيادة فيلِبُّس أبي الإسكندر الكبير، وفي رومة، بعد ما يربو على القرن بقليل - أي في سنة ٢٠١، حين انتصرت على قرطاجة وبسطت نفوذها على الشرق اليونانيّ. ولم تقم الإلٰهة أثينا، وهي حامية آثينة، بأيّ شيء لتنقذ مدينتها. فكيف لا يحوم الشكّ، إن لم يكن حَوْلَ وجودها، فحَول قدرتها على الأقلّ؟ وهٰذا شأن سائر الآلهة. وها هي مرحلتنا الثانية، مرحلة الحضارة الهلّينستيّة التي دامت خمسة قرون أو ستّة، والتي تميَّزت بشيء من فتور الحسّ الدينيّ وشيء من الشكّ. لقد استمرّت العباداتُ القديمة وبقيتْ المحافظةُ الدقيقة على ممارسات الأجداد القديمة، ولٰكنّ ذٰلك كلّه فَقَدَ معناه (فمَن كان في وسعه بعد ذٰلك أن يتصوَّر أنّه يمكن لمباراة رياضيّة أن تكرِّم الآلهة؟)، ولم تَعُد

(*) Henri Marrou عضو المجمع الفرنسيّ. أستاذ في جامعة باريس - السوربون.

الوثنيّة سوى أثر باقٍ، في حين أنّ الشكّ غزا النفوس. وكذٰلك، فَقَدَ الوجود معناه الدينيّ، ولم تعد الحضارة تهتمّ إلّا بقيم الأُفق الأرضيّ. ونكاد أن نتحدّث، في شأن اليونان الهلّينستيّة وفي شأن رومة الإمبراطوريّة، عن «مدينة علمانيّة» بالمعنى الذي نستخدم هٰذا التعبير في وصف عصرنا. فلنتذكّر كيف اسْتُقبِل بولس وخطبته في الأريوباغُس: فقد سئل ذٰلك المبشّر الغريب بفضول عن تعليمه (وكان بين السذّج الفضوليّين فلاسفة أبيقوريّون ورواقيّون). ولٰكن، ما إنْ تكلّم بولسُ على القيامة، حتّى انفجروا بالضحك وقالوا: «سنستمع إليك عن ذٰلك مرّةً أُخرى» **(رسل ١٢/٣٢)**. هٰذه الحادثة تُصوِّر تمامًا عقليّة ذٰلك العصر القليلة التديّن، وهو، من هٰذه الناحية، لا يختلف كثيرًا عن عصرنا.

ولٰكن ورد في النصّ بعد ذٰلك: «غير أنّ بعض الرجال انضمّوا إليه وآمنوا». وفي هٰذا إعلانٌ عن الروح الجديد الذي حوّل الأجواء شيئًا فشيئًا، وراح يسود اعتبارًا من السنين ٢٥٠-٣٠٠، مميّزًا مرحلتنا الثالثة، وهي مرحلة «التديّن الجديد»: فصار الإنسان مرّةً أُخرى، في الحضارة القديمة المتأخِّرة، كائنًا يَعتبر نفسَه إنسانًا متديّنًا قبل كلّ شيء.

ولٰكن كيف نفسِّر تلك العودة إلى التديّن؟

يصعب علينا أن نوضح الأمر. باختصار، يعود ذٰلك، في الطبقات الشعبيّة، إلى ما كان العبيد والفقراء عليه من مِصير بائس يجعلهم يرجون الخلاص؛ وفي الطبقات الميسورة، عند بعضهم على الأقلّ، إلى القرف من حضارة لم يعد للحياة فيها مِن قيمة إلّا لأمور ثلاثة: المشاهد، والحمّامات العموميّة (ما يوازي «الصُونا» عندنا: الراحة والاسترخاء)، والجنس.

ولئن كان من الصعب تفسير هٰذه الظاهرة، إلّا أنّها ثابتة وأساسيّة. وإن أردنا أن ندرك معناها، فما علينا إلّا أن ننظر حولنا، في مدينتنا العلمانيّة المعاصرة، إلى رواج تلك الصوفيّات الشرقيّة وتقنيّاتها الروحيّة، كاليُوغا والزِين... فهل يسير مجتمعنا الاستهلاكيّ إلى «تديّن جديد»؟

المدن الكبرى التي ظهر فيها التجدّد الدينيّ

هٰذه المدن هي بحسب أهمّيّتها: رومة، والإسكندريّة في مصر، وأنطاكية في سورية، وقرطاجة في أفريقيا الشماليّة أو تونس الحاليّة. ولٰكنّ التجدّد الدينيّ ظهر أيضًا في مدن أخرى كثيرة، كقورنتس التي قيل فيها: «لم يُعْطَ الجميع أن يلهوا ويمرحوا في قورنتس!» ولا بدّ هنا من التشديد على أنّ ظاهرة التجدّد هي في منتهى الأهمّيّة، لأنّها تساعدنا على أن نفهم كيف أنّ المسيحيّة، وقد كانت في البداية ديانةَ مجموعات صغيرة من المطّلعين، أصبحت ديانة جماهير. وهٰذه الجماهير كانت جائعة وعطشى إلى غير ما يقدّمه إليها المجتمع: أي البؤس لبعضها، والبطالة والترف لبعضها الآخر. فانتشرت المسيحيّة إذًا، في القرنين الثاني والثالث، في جميع طبقات الشعب، ولم تقتصر على البؤساء، بل شملت النخبة أيضًا.

النخبة المفكّرة تأثّرت هي أيضًا بظاهرة التجدّد الدينيّ

لا شكّ في أنّ ظاهرة التجدّد الدينيّ قد بلغت أوساط النخبة المفكّرة. ولهٰذا الأمر ما يفسّره، إذ قابل تجدُّدَ التديّن تحوُّلٌ كبير في الروح الفلسفيّ. ففي أثناء المرحلة الثانية، تسرّب الشكّ إلى كلّ شيء، حتّى إلى قلب المدرسة - «الأكاديميّة» - التي كانت تُعلن نفسَها وريثة أفلاطون. والرواقيّة أيضًا، وهي الفلسفة السائدة في القرنين الأوّل والثاني من عصرنا، تحوّلت عن التنظير الميتافيزيقيّ ولم تعد تهتمّ إلّا بالأخلاقيّة العمليّة. ولٰكن، إذ بحركة فلسفيّة جديدة تظهر، ثمّ تتطوّر، وقد بدت كأنّها عودة إلى تفكير أفلاطون الأصيل، ويمكننا أن نحدّدها بميزتَيْن أساسيّتين: إمكان الإنسان أن يعرف الحقيقة، وما للوجود من معنى دينيّ. وقد بلغت هٰذه الحركة أوجها مع الأفلاطونيّة الحديثة التي أتى بها أفلاطون، في منتصف القرن الثالث. ولٰكنّنا نعرف اليوم أنّ فلسفته لم تولد بين ليلة وضحاها، بل أُعِدَّ لهٰذه الحركة منذ مدّة طويلة. وقد كشف المؤرِّخون في جيلنا عن وجود فلسفة وسيطة وعن دورها، وهي ما نسمّيه «الأفلاطونيّة الوسيطة». وهٰذا

الاكتشاف الحديث العهد يساعدنا، إلى أبعد حدّ، على معرفة أحوال آباء الكنيسة، أمثال إيريناوس وإقْلِيمنضُس الإسكندريّ وأورِيجانِيس.

من الكنيسة الناشئة إلى كنيسة الجماهير

إنّ المسيحيّة هي ديانة رسوليّة. فكان شاغلها الأوّل إعلان الإنجيل للأمم كلّها، منذ أن أوكل إليها مؤسّسُها تلك المهمّة العظمى.

نشأت الكنيسة في فلسطين وتأثّرت بالحضارتين الهلّينيّة والساميّة، فانتشرت في اتّجاهين: نحو الغرب، ونحو الشرق أيضًا.

نحو الغرب أوّلًا، أي نحو عالم البحر المتوسّط وفي مجمل الإمبراطوريّة الرومانيّة. ولا بدّ من أن نؤكّد بوضوحٍ وحدةَ ما يسمّيه المؤرّخون الألمان «الحضارة الهلّينستيّة الرومانيّة». فما من شيء أسخف من الادّعاء أنّه وُجد في ذٰلك الزمان حضارة رومانيّة إلى جانب الحضارة اليونانيّة. ففي الأصل، كان الرومان شعبًا مؤلّفًا من فلّاحين أشدّاء وأصحّاء، «بدائيّين» إلى حدّ ما. ولٰكنّهم كانوا على جانب كبير من الذكاء. ولمّا اكتشفوا أنّ لديهم تلك الحضارة اليونانيّة الباهرة سارعوا إلى استيعابها. وتمّ ذٰلك قبل نهاية القرن الثاني ق.م. فالدين المسيحيّ انتشر بسرعة كبرى في كلّ أنحاء الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، بعد أن أخصبها الفكرُ الهلّينستيّ.

ولٰكن يجب أن نضيف على الفور أنّ الانتشار المسيحيّ تمّ، في الوقت نفسه، في اتّجاه الشرق أيضًا، أي في البلدان الساميّة، نحو سورية والعراق الحاليّة. واتّخذت تلك المسيحيّةُ الناطقةُ باللغة السريانيّة من الرها مركزًا فكريًّا لها، ومن طيسفُون (Ctésiphon)، بين بابل القديمة وبغداد اليوم، عاصمةً لها. ولم تصبح تلك الجماعات أكثريّة، لأسباب سياسيّة معقّدة، غير أنّها كانت نشيطةً جدًّا. فإلى جانب المسيحيّين ذوي الذهنيّة الهلّينستيّة، كان هناك مسيحيّون ذوو ذهنيّة ساميّة.

ولٰكن، هل كان الفرق كبيرًا بين الذهنيّتين؟

أجل، كان الفرق كبيرًا جدًّا والمثال التالي يمكّننا من تقديره. فالكنيسة «اليونانيّة» في الغرب حافظت على الأناجيل الأربعة. أمّا المسيحيّون «الساميّون» فلم يستطيعوا أن يقبلوا هٰذا التعقيد. فقام طَطْيانُس، وهو أحد أولٰئك المسيحيّين، بتركيب الأناجيل الأربعة تركيبًا بارعًا، وأسماه **الدياطسَّرُون**، وتفسيرُه «(إنجيل) وُضع انطلاقًا من أربعة» [الرباعيّ]، وتفسيره أيضًا: «تآلُف الأربعة (الأناجيل)»، إذ إنّ كلمة دياطسّرون تعني الفاصل الموسيقي بين نغمتَيْن ونصف نغمة، وهو تناغم كامل!

إنّ الشعوب الساميّة تحتاج إلى الحقائق البسيطة، وهٰذا ما يفسّر نجاح الإسلام: «الله هو الله، ولا إلٰه إلّا الله»؛ وكذٰلك تحريم تناول بعض الأطعمة. وفي هٰذا الشأن، نعلم أنّ ططيانس (وفي ذلك اعتُبر هرطوقيًّا بالإجماع) أوصى بعدم شرب الخمر، فكان يحتفل بالإفخارستيّا مستخدمًا الماء!

أمّا المسيحيّون «السريان»، وهم يختلفون كلّ الاختلاف عن المسيحيّين «اليونان»، فقد بلغوا من الحيويّة مبلغًا حملهم على التبشير بالإنجيل في آسية الوسطى كلّها فانطلقوا مع التجّار على طرق الشرق. وفي القرن السابع، وجدناهم مقيمين في قلب الصين.

رجحان الفرع اليونانيّ الرومانيّ على الفرع الساميّ

صحيح أن قد نما فرعان من الانتشار المسيحيّ، إلّا أنّ الفرع اليونانيّ الروماني بَلَغَ أهمّيّةً أكبر في النهاية. وذٰلك لعدّة أسباب، أبرزها أنّه استفاد من «السلام الرومانيّ»، وهو السلام الذي نشرته رومة، ومن شبكة الطرقات الرائعة التي كانت تزرع أراضي الإمبراطوريّة. وتُعتبر الرحلة إلى إسبانيا، التي اعتزم بولس القيام بها، رحلةً تكاد توازي بحجمها رحلة القدّيس فرنسيس كسفاريوس من لشبونة إلى ماكاو، غير أنّ ذٰلك كان مستحيلًا لولا شبكة الطرقات والنظام السائد في كلّ مكان. وكان تَهْلِين المسيحيّة فرصةً سانحةً لها، ولم يكن، كما زعم البروتستانت الليبراليّون في نهاية القرن التاسع عشر، نزعًا للطابع القدسيّ، أو تخفيفًا للطابع الدينيّ، أو «تحويلًا إلى ما هو دَهْرِيّ».

ولمّا عبّرت المسيحيّةُ عن نفسها في مقولات الفلسفة اليونانيّة، دخلت طورها التفكيريّ اللاهوتيّ، إذ لا يمكن لديانة ما أن تقتصر على العاطفيّة المبهمة. فالكائن البشريّ هو كائن عاقل. وقال القدّيس أنسِلْمُس في القرن الثاني عشر، كما يليق بتلميذ للقدّيس أوغسطينس: «إنّ الإيمان يبحث عن العقل». والديانة التي لا تسعى إلى التفكير في نفسها تبحث عن حتفها بظِلفها. ليس اللاهُوت والتنظير العقائديّ تطوّرات طفيليّة، بل هما نتيجة تلاقي الإيمان والعقل. فلنأخذ مثالًا واقعيًّا على ذٰلك: لأنّ أوريجانيس وَجد، بين طالِبِي العماد عنده، رجالًا ونساء في مستوًى ثقافيّ يُذْكَر ولهم متطلّبات فكريّة، اضطُرَّ إلى تنمية ثقافته الفلسفيّة الشخصيّة، والإقدام بجرأة، على وضع أوّل ملخّص تعليميّ، كان أوّل محاولة لإعداد «خُلاصة» لاهوتيّة حقيقيّة انطلاقًا من تقليدٍ فلسفيّ غير مسيحيّ.

والسؤال الذي يُطرح الآن هو التالي: لمّا اتّسمت المسيحيّةُ بطابع فكريّ، ألم تعرِّض نفسَها للانحرافات وبالتالي للأزمات؟

لا شكّ في ذٰلك. فالعالم اليونانيّ الرومانيّ كان في حالة غليان شديد. ولم تكن مشكلة المسيحيّة - كما هو الوضع اليوم - أن تقول للناس: «كونوا متديّنين»، بل «لا تخطئوا في اختيار دينكم، فالدين الذي يعرضه علينا يسوع هو الدين الحقيقيّ». وقد رأينا المسيحيّة تتصدّى، منذ القرن الثاني، لصِيغ دينيّة غير مقبولة في نظرها، ولا سيما الغنوصيّة، لأنّ المسؤولين المسيحيّين رأوا في العِرْفان خطرًا كبيرًا جدًّا.

العرفان

العرفان هو المعرفة، مع أل التعريف، أو المعرفة الفائقة.

والعرفان هو ديانة أخرى ظهرت على هامش اليهوديّة السليمة، في الوقت الذي ظهرت فيه المسيحيّة تقريبًا. ومنذ أن عُثر على مخطوطات قُمران، نعلم أنّه وُجد في الحقبة عينها ما يمْكِننا أن نسمّيه شيعة من الرهبان اليهود: أي الأسّينيّين. فالأسّينيّة والمسيحيّة والعرفان هي من مظاهر الغليان الشديد الذي شهده العالم اليهوديّ في مطلع عصرنا.

وأهمّ ما تميّز به العرفان تشاؤمٌ جذريّ. قبل عدّة سنين أنشدت إحدى المغنّيات الفرنسيّات: «الحبّ خطيئة والعالم سيّئ الصنع»؛ إنّما كلامها ردّةُ فِعل غنوصيّةٌ نموذجيّة!

كان الغنوصيّون يقولون: «إنّ العالم الذي نعيش فيه هو عالم رهيب مقرف، وجسد الإنسان هو أسوأ ما فيه، ولا بدّ من الأكل ومن كابوس الجنس والألم، ولا بدّ من الموت في أحد الأيّام...»

فهناك إذًا تشاؤم جذريّ يقود حتمًا إلى تفسير العالم تفسيرًا ثنائيًّا، مفاده أنّه كان في بدء العالم مبدأان: مبدأ الخير ومبدأ الشرّ، وأنّ العالم الحاليّ لم يخلقه الإلٰه الصالح. وكان الغنوصيّون يستعينون بميثولوجية في منتهى التعقيد ليشرحوا أنّ عالمنا خلقه إلٰهٌ أدنى، أو قليل المواهب، أو فاسد. والتشاؤم يولّد الثُنائيّة دائمًا. ونجد ذٰلك في منتصف القرن الثالث، عند المانويّين (نسبةً إلى مؤسّسهم مانِي)، وفي وقت لاحق، في القرن الثاني عشر، عند الكَتار الفرنسيّين.

الغنوصيّة والكنيسة

لا شكّ في أنّ الغنوصيّة كانت خطرًا كبيرًا يهدّد عقول المسيحيّين. فالمسيحيّون لم تَستمِلْهم الديانة الرومانيّة، وما كان أحد منهم ليحسب الإمبراطور إلٰهًا؟ولم تستملهم العبادةُ المِترِيّة (نسبةً إلى مِثْرا إلٰه النور عند الفرس)، وهي أشبه بمحافل ماسونيّة للعسكريّين الرومان. أمّا الغنوصيّة فكان من شأنها أن تستغويهم بقدر ما كانت تَظهر بمظهر صيغة متفوّقة من صيغ المسيحيّة. وكأنّي بـ«المرسَل» الغنوصيّ يقول لأنصاره: «إنّ الديانة المسيحيّة التي تعلّمتموها هي لعامّة الشعب، أمّا أنا فسأشرح لكم ديانةً مسيحيّة سرّيّة، جديرةً فقط بعقول النخبة - مثلكم!» وذٰلك هو الخطر! لقد كانت الباطنيّة على مرّ الزمان إغراءً كبيرًا. ولدينا أناجيل غنوصيّة، كإنجيل توما وإنجيل فيلبّس، وهي تبدو وكأنّها تعليم من درجة متفوّقة يُقال إنّ يسوع خَصَّ به،

بعد قيامته، بعض التلاميذ المختارين.

فالغنوصيّة لم تظهر إذًا بمظهر ديانة غريبة، بل بمظهر صيغة متفوّقة من صيغ المسيحيّة.

أمّا المسؤولون عن الكنيسة، فقد حاربوا الغنوصيّة بشدّة. وكان أوّل من قام بذٰلك، القديس إيريناوس، أسقف ليون المولود في سمِرْنا (إزْمير التركيّة في أيّامنا). وهو يمثّل ديانةً مسيحيّة تسعى إلى التفكير في نفسها، من غير أن يكون لديها أداة فلسفيّة مدروسة. ويفكّر في المشاكل الداخليّة الخاصّة بحياة الكنيسة أكثر منه في تلاقي المسيحيّة والفلسفة اليونانيّة. صحيحٌ أنّ إيريناوس ليس هو أوريجانيس، لٰكنّ إسهامه كان كبيرًا جدًّا. فهو الذي أثبت ما لكنيسة رومة من سلطة خاصّة وما للخِلافة الرسوليّة من شأن. وقد ردّ على الغنوصيّين قائلًا: «تدّعون أنّ يسوع سلّم تعليمه إلى بعض الرسل. فهل يُعْقَل أنّه لم يسلِّمه إلى بطرس وبه إلى المسؤولين عن الكنائس الكبرى؟» (ووَضَعَ قائمةً «بخلفاء بطرس» الاثني عشر الأوّلين).

ولإيريناوس آراء غنيّة جدًّا عن «التربية الإلٰهيّة». وكان يقول بأنّ الإنسان خُلق في البدء في حالة الطفولة، وأنّ الله تكيّف تربويًّا مع هٰذه الحالة. واستخلص إيريناوس من ذٰلك أنّه كان على الإنسان أن ينمو وعلى الروح أن يتعوّد العيش بين البشر. وهٰذه النظرة هي نظرة عصريّة إلى أقصى حدّ وأكثر انسجامًا بكثير مع اكتشافات التطوّر، من النظرة الجامدة التي عرفتها الفلسفة المدرسيّة في القرون الوسطى، والتي كانت تجهل كلّ من يختصّ بزمنٍ ما قبل التاريخ، فكانت تتصوّر أنّ آدم عاش في الفردوس في حالة من النضوج الكامل. وإلى جانب ذٰلك، كان لإيريناوس نظرة شديدة التفاؤل إلى الإنسان وتصوّرٌ مشرق للمسيحيّة، على عكس التشاؤم الغنوصيّ القاتِم.

القرنان الثاني والثالث: نقطة تحوّل في حياة الكنيسة

يُعتبر القرنان الثاني والثالث من عصرنا مرحلةً حاسمة في تاريخ الكنيسة. فلم تعد المسيحيّة محصورةً في مجموعات صغيرة، تنتمي اجتماعيًّا إلى الأقلّيّات، بل أصبحت ديانةَ جماهير، متأصّلةً تأصُّلًا متينًا في طبقات المجتمع كلّها، ومنتشرةً جغرافيًّا انتشارًا واسعًا من المحيط الأطلسي إلى بلاد فارس.

وعلى عكس ما نتصوَّره غالبًا، لم تتعرّض المسيحيّة لاضطهاد منتظم من الأباطرة الرومان، إذ إنّ اضطهادات القرون الثلاثة الأوائل، المنحصرة في أغلب الأحيان والمؤقّتة دائمًا، لا تشبه بأيّ وجه من الوجوه مجازر عصرنا التي هي أوحش بكثير ممّا كان عليه أسوأ الأباطرة! وقد عرفت الكنيسة مراحل هدوء طويلة: وهٰكذا أمكن التحدّث - في شأن سُلالة ساوِيرُس (Sévère) (١٩٣-٢٣٥) - عن «سلام الكنيسة الصغير». فكان ذٰلك فُرَصًا مؤاتية لانتشار الرسالة ونموّ الكنيسة الداخليّ على السواء.

ولقد رأينا أنّ الحاجة إلى محاربة البدع أدّت إلى وَضع عِلم لاهوتٍ حقيقيّ، وأنّ هٰذا التطوّر الذي شهده الفكر المسيحيّ بلغ شأوًا أوقع الفلاسفة الوثنيّين في القلق. فحوالى السنوات ١٧٧-١٨٠، قام قِلسُس (Celsus) أوّل «معلّمي الفكر المضادّ للمسيحيّة» بنشر مقالة تُهاجم الديانة الجديدة بعنف. وكانت صياغة تلك المهاجمة شديدة الإحكام، حتّى إنّ أوريجانيس العظيم، بعد مرور نحو سبعين سنة على الأمر، انصرف طويلًا إلى دحضها.

وفي الوقت نفسه، اجتهدت الكنيسة في وضع بُنًى متينة لمؤسّساتها: وظهر ذٰلك في تطوير إكلِيرس خاضع لنظام تراتُبيّ حول الأسقف، وفي ليترجيا لم تتغيّر بعد ذلك ميزاتها الأساسيّة، وفي نظام كنسيّ، وفي شرعٍ كنسيّ أيضًا، إذا صحّ القول. وانعقدت مجامع ضمّت أساقفةَ منطقة جغرافيّة معيّنة، فوثّقت الوحدة وعبّرت عنها. وجَعلت هٰذه الوحدة من مُجمل الكنائس المحلّيّة كنيسةً واحدة وحيدة «كاثوليكيّة»، أي جامعة: وبذٰلك تمكّن القدّيس قِبْريانس، سنة ٢٥٦، أن يجمع حوله في قرطاجة جمعيّةً مؤلَّفة من واحد وسبعين أسقفًا من الأقاليم الرومانيّة في أفريقيا ونُومِيدِيا (تونس الشماليّة والجزائر الشرقيّة).

فيمكننا والحالة هٰذه أن نقدّر مدى التقدّم الذي تمّ،

إذ إنّ الكنيسة ترسّخت منذ تلك الأيّام حتّى إنّها استطاعت أن تجتاز المحنة وتتغلّب عليها، مع أنّها كانت شاقّةً جدًّا. وقد تجسّدت تلك المحنة الأخيرة والأعنف في الاضطهادات التي شنّتها عليها الإمبراطوريّة الرومانيّة، أي اضطهاد دِيُوقْليتيانُس وخلفائه (في الشرق اليونانيّ)، علمًا بأنّ هٰذا الاضطهاد عصف بالمسيحيّين من السنة ٣٠٣ إلى السنة ٣١١.

وثيقة

التربية الإلهيّة

إن اعترض أحدُهم قائلًا: «ما هٰذا؟ ألم يكن في وسع الله أن يصنع الإنسان كاملًا منذ البدء؟» - علينا أن نجيب: إنْ لم ننظر إلّا إلى الله، المساوي لذاته دائمًا والأزليّ، فلا شكّ في أنّه على كلّ شيءٍ قدير. أمّا الكائنات المخلوقة، وقد نالت في وقت معيَّن بدءَ وجود، فلا تتميّز بالكمال نفسه. ففي الوقت الذي تظهر فيه، تكون كالأطفال، فلا تكون بالتالي صالحةً لمسلكٍ كامل أو مدرَّبةً عليه. وكما أنّ الأمّ تستطيع أن تُطعم مولودَها الغذاءَ المناسب، في حين أنّه لا يزال غيرَ قادر على تناول غذاء البالغين، كذلك كان الله يستطيع، من جهته، أن يمنح الإنسان الكمالَ منذ البدء، ولكنّ الإنسان كان غيرَ قادر على قبوله لأنّه لم يكن إلّا طفلًا. وللسبب نفسه، جاءَ ربُّنا إلينا في آخر الأزمنة، لا كما كان يستطيع، بل كما كنّا قادرين على أن نراه. وفي الواقع، كان في إمكانه أن يأتي إلينا في كلّ مجده، ولٰكن كنّا لا نزال عاجزين عن تحمُّل عظمته. كذٰلك، وَهَبَ خبزُ الآب الكاملُ نفسَه لنا في شكل لبن حليب، كأنّنا أطفال، أي أنّه ظهر لنا كإنسان حتّى إذا ما تعوّدنا أن نأكل كلمة الله ونشربَه، نستطيع أن نحفظ في قلوبنا خبزَ الخلود، وهو روح الآب... هٰذا هو الإيقاع والنظام والحركة التي بها يصبح الإنسان، المخلوق والمجبول، على صورة الله غير المخلوق ومثاله... كان لا بدّ أوّلًا أن يُخلق الإنسان، ثمّ أن يكبر، ويُصبح بالغًا، ويزداد قوّة، وأن يمجَّد أخيرًا ويصل بالتالي إلى مشاهدة الله، لأنّه سيشاهد الله يومًا ويحظى بالمنعة من الفساد التي تجعله قريبًا جدًّا من الله.

(القدّيس إيريناوس، **الردّ على البدع**، الكتاب الرابع، ٣٨، ١ و٣)

الفصل الثاني

مذنبون؟ غير مذنبين؟

بقلم أندره مَنْدُوز(*)

لا يمكننا أن نتصوّر اليوم حدّة الهجمات التي وقعت
الكنيسة ضحيّتها في بداية القرن الثاني،
إذ كانت أخطرُ الشكوك وأسوأ الافتراءات تُرخي بثقلها على
المسيحيّين. ولٰكنّهم كانوا يدركون أنّ قضيّتهم محقّة حتّى إنّهم دافعوا
عن أنفسهم خطوةً خطوة بشجاعة،
وبتهكّم أحيانًا، وباقتناعٍ دائمًا.

هناك دعوى مزدوجة لا نهاية لها: دعوى الوثنيّين على المسيحيّين، ودعوى المسيحيّين على الوثنيّين.

قامتا منذ أوّل عهد المسيحيّة، وسرعان ما أفسحتا في المجال «للمقالات الدفاعيّة»، وهي مرافعات تهدف إلى إثبات براءة المتَّهَم. ومِن ردّ الاتّهام وتحويل الدفاع عن مجموعةٍ من الناس، إلى تبرير حقيقةٍ من الحقائق، كان العبور سهلًا. فمِن «الدفاع عن النفس» تمّ الانتقال إلى الدفاع عن الدين.

في المرحلة الأُولى من هٰذا النقاش – وهي التي تهمُّنا الآن – كان المسيحيّون في وضع المتَّهَمين، وكانوا مهدَّدين في حياتهم. وفي الواقع، عاقبت الاضطهاداتُ «ذنبَ» المسيحيّين عدّة مرّات بالموت. يبقى أنّ الأمر كان يتعلّق أيضًا بنقاش فكريّ وأنّه من الظلم أن نجعل من الوثنيّين عامّةً أناسًا متعطِّشين إلى الدماء. فالغالبيّة العظمى منهم كانت مؤلَّفة من أناس هادئين ورثوا تقليدًا أخلاقيًّا ودينيًّا وثقافيًّا عريقًا، كانوا يخشَون أن يروه يتعرّض للخطر على يد عقيدة المسيحيّين المتفشِّية.

ولذٰلك، سنترك الكلمة لهؤلاء وأولٰئك معًا.

وحين نقول: «سنترك الكلمة»، فإنّنا لا نستخدم تعبيرًا مجازيًّا. وهٰذه «المواجهة» المثيرة بين المسيحيّين والوثنيّين قامت في الأساس على «وثائق أصليّة» صادرة عن الفريقَين وهي تُعتبر مستندات أصيلة للدعوى.

وحين نوضح أنّنا «سنترك الكلمة (للمسيحيّين والوثنيّين) معًا»، نريد أن نقول أيضًا إنّ مستندات الملفّ تُظهِر في الواقع، «وجهًا لوجه»: الاتّهامَ على صفحات اليمين، والدفاع على صفحات اليسار.

نريد بالفعل أن يُقرأ الملفّ بطريقتين: من اليمين إلى اليسار حين نرغب في تفحُّص عنصرِ اتّهام بطريقة متعارضة من جهة، ومن أعلى إلى أسفل حين نريد أن نكوِّن فكرةً إجماليّة عن كلٍّ من الملفَّين على حدة. و«القراءة» الثانية هٰذه أساسيّة لمن يريد أن يدرك المنطق الداخليّ الذي بُنيت عليه كلٌّ من وجهتَي النظر.

لٰكنّنا نسارع إلى الإضافة أنّ التوازن الخطّيّ في هٰذا العرض، وإن لم يحوّر الواقع، لا يضمن مع ذٰلك موضوعيّةً كاملة، بقدر ما يكون كلام الخصمَيْن نفسُه كلامًا شديدَ «الالتزام». فمَنْ أراد أن يلغي ما في المناقشة من طابع جدليّ يكون مزوِّرًا أكثر منه مؤرِّخًا.

(*) André Mandouze.

وما إن بدأ «التصعيد» العقائديّ حتى اتّخذ في الواقع منحًى خطابيًّا عدائيًّا بين هؤلاء سكّان شواطئ البحر المتوسّط، وهم محامون بالفطرة، سواء أمسيحيّين كانوا أم وثنيّين. وتُظهر لنا صيغةُ «المداخلات» نفسها أنّ المسألة تدور، انطلاقًا من مدلول الكلمة التقنيّة هٰذه، على دعوى حقيقيّة. ومن هنا، على سبيل المثال، الطابع الدفاعيّ المقصود الذي يميّز مؤلّف طرطليانس، **الدفاع عن الدين**، حتّى في عنوانه، ومنه سنقتبس الكثير، لأنّه نظّم مادّة النقاش إلى أقصى حدّ.

ومع ذٰلك، فمن الأسهل علينا أن نصنّف عناصر الاتّهامات المختلفة في أبواب دقيقة جدًّا، لأنّ المناقشة نفسها، وهي تتجاوز شخصيّة المشاهير - سواء أمسيحيّين كانوا أم وثنيّين -، كانت تميل إلى التنظيم وفقًا لبعض الخطوط الأساسيّة التي أصبحت، بسبب المناظرة، «شعارات» ما لبثت أن رَدّت عليها شعاراتٌ مضادّة. وبالإجمال، تأثّر الوثنيّون، إلى حدٍّ ما، بالإشاعات الغامضة، فكانت مآخذُهم على المسيحيّين هي هي. وبالتالي، كانت ردود المسيحيّين على الوثنيّين هي هي أيضًا، مع الاختلافات الطفيفة. ففي تركيب السيناريو، ليس لتسلسل المقاطع الزمنيّ أيّ قيمة جازمة، وهٰذا يعني أنّنا لن نُلزم أنفسنا بجعل الأشخاص يتكلّمون بحسب الترتيب الدقيق الذي ظهروا به على مسرح التاريخ.

لا بل، لا بدّ من تحذير القارئ من المظاهر الخدّاعة التي تدلّ على ترتيب زمنيّ - أو جغرافيّ - دقيق يَحجب ما هناك من تطوّرات غير مُجدية في المناقشة. وتبدو الردود السريعة هنا أقلّ بكثير من الهجمات المضادّة الموقوتة.

تنطلق الحقبة التي سنتطرّق فيها هنا إلى المناقشة، من أوّل اضطهادٍ أصاب المسيحيّين في رومة سنة ٦٤، في عهد نيرون، وتنتهي عند اتّفاق ميلانو (٣١٣) بين الإمبراطورَين قسطنطين وليقينيوس. وقد اعترف هٰذا الاتّفاق، للمسيحيّين والكنيسة، بحقّهم في الوجود الشرعيّ. وهٰذه الحقبة التي استغرقت قرنين ونصف، هي حقبة «المدافِعين عن الدين» بكلّ معنى الكلمة.

وبما أنّ المتَّهم، وبأولى حجّة الجلّاد، هما غير شعبيّين عادةً، فلا نستغرب أن يميل التعاطف تلقائيًّا إلى الضحيّة، أي إلى المسيحيّين. ونضيف مرّةً أخرى أنّه ينبغي ألّا يؤخَذ بعين الاعتبار أنّ المستنَدات المكتوبة منحازةٌ حتمًا وحسب، (لأنّنا، في أغلب الأحيان، لا نعرف المؤلَّفات الوثنيّة إلّا من خلال الردود المسيحيّة)، بل إنّ الوثنيّين لم يؤلّفوا أيضًا جبهةً صلبة في وجه «تلك الظاهرة المسيحيّة» التي كانت، مع ذٰلك، تبدو لهم جميعًا رفضًا باتًّا لوجودهم.

فإن أخذنا بعين الاعتبار ما للمستندات من طابع كثيرًا ما يميّز أحد الطرفين فقط، نرى أنّ الاطّلاع على تاريخ الكنيسة القديمة وعلى ردود فعل الوثنيّين مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالاطّلاع على أحوال الإمبراطوريّة الرومانيّة الوثنيّة الحديثة وعلى ردود فعل المسيحيّين.

نريد أن نسهّل العرض، علمًا منّا بأنّ التصميم الإجماليّ التالي يوافق التصميم العامّ الذي تميّزت به المناقشة، كما جرت على مدى قرنَيْن ونصف (٦٤-٣١٣). ولذٰلك نميّز بين مرحلتَيْن في الدعوى.

I - الاستجواب عن الهويّة

أو، بوجهٍ أوضح، هل يُعَدّ «الاسم» المسيحيّ جرمًا في حدّ ذاته؟

II - المناقشة نفسها

وهي تدور على الشكاوى الدقيقة التي رُفعت على المسيحيّين. وتتعلّق، في الأساس، بثلاثة ميادين بغضّ النظر عن المسائل الأوّليّة: الجرائم السّريّة - الأعمال العلنيّة - الأضاليل العقائديّة والدينيّة.

وأردنا أن نعرض موقف الوثنيّين بغير تحيُّز، فكان لا بدّ من إعادة تركيب حججهم بالاستناد إلى الاستشهادات. وأمّا الردّ المسيحيّ فقد ترابطت فيه النصوص تلقائيًّا بطريقة واضحة إلى حدّ ما.

الاستجواب عن الهويَّة

الوثنيُّون للمسيحيّين: اسمكم يدينكم

في أثناء القرن الأوّل، سَرَت إشاعة تقول: هناك «خرافة جديدة وسحريّة ومؤذية» تعلنها مجموعةٌ من الناس يُدعَون «مسيحيّين» (سُويتُونيُوس Suétone، **حياة نيرون ١٦، ٢**).

«خرافة»، أي إنَّها تشويه للديانة يُعرِّضها للخطر. و«جديدة»، أي إنَّها تهدِّد استقرار الدولة ونظامها. و«سحريّة مؤذية»، أي إنَّها تشبه السحر إلى حدّ ما. والحال أنّ رومة كانت تحترس كثيرًا من السحر.

وفي نظر المؤرّخ سُويتونيوس، كانت محاربة هٰذه «الخرافة» جزءًا من التدابير التي اتّخذها نيرون للقضاء على الفوضى، أيًّا كانت طبيعتها: وكانت هٰذه التدابير تبدأ بالحدّ من البذخ وصولًا إلى إبعاد الممثِّلين الإيمائيّين وأنصارهم على السواء. أمّا الإجراءات التي تستهدف المسيحيّين فكانت تتراوح بين تنظيم الموادّ الغذائيّة المقدَّمة في الحانات، وقمع المجاوزات التي يسبِّبها سائقو العربات بأربعة أحصنة!

فليس المقصود إذًا الدفاع عن الديانة الوثنيّة في حدّ ذاتها. ومن جهة أخرى، يَكشف لنا تاقِيطُس أنّ هدف الإمبراطور الأساسيّ كان تحويل الشبهات الشعبيّة عنه بعد أن نَسبت إليه حريق رومة في تلك السنة ٦٤. ولٰكنّ الأمر انتهى بتاقِيطس أيضًا إلى اعتبار الإجراءات المتَّخذة في حقِّ المسيحيّين شرعيّةً، مستعينًا بما يقتضيه حِفظ النظام عمومًا:

«بعد أن قُمِعتْ تلك الخرافة المشؤومة في مهدها (على عهد الإمبراطور طِيبارِيُوس)، عادت فظهرت، لا في اليهوديّة وحسب، حيث نشأ الشرّ، بل في رومة أيضًا، إلى حيث يَفِد كلّ ما هو قبيح ومشين في العالم، ويجد زبائن كثيرين» (**«الحَوْليّات XV»**، ٤٤). أفلم يكن طبيعيًّا، بالرغم من كلّ شيء، أن تقوم محاولة لحماية العاصمة من الخطر؟

ولٰكن أيّ خطر؟ لم يوضِح أيٌّ مِن تاقِيطُس أو سُويتُونيُوس طبيعة «الجرائم» التي كان المسيحيّون يعاقَبون عليها. بل يقتصر القول على أنّ «تلك الجرائم كانت تُدفع إلى كره أولٰئك الذين كان يدعوهم الجمع مسيحيّين». فالاسم المسيحيّ وحده كان كافيًا لحمل الناس على الاشتباه بأنّهم قادرون على فعل كلّ شيء. وهٰذا ما يتّضح، على كلّ حال، من الرسالة الشهيرة التي أرسلها، بعد حوالى النصف قرن، حاكمُ إقليم بِيثِينِيَة في ذٰلك الوقت، پلِينُس الأصغر إلى الإمبراطور طرايانُس (Trajan).

فقد كتب: «إنّي أتساءل هل يُعاقَب الاسمُ المسيحيّ فقط، في غياب أيّ جرم، أو هل تُعاقَب الجرائم التي ينطوي عليها ذٰلك الاسم؟».

أمّا ردّ الإمبراطور فكان ملتبسًا بعض الشيء: لا ينبغي قبول ما يبلِّغه مجهولون عن المسيحيّين، غير أنّه «لا بدّ من الحكم على» كلّ شخص «يُتَّهَم» بالوقوع في تلك الخرافة ويرفض أن ينكرها وأن يَذبح للآلهة. وكان الاستنتاج العمليّ والموافق تمامًا لتصرّف پلِينس: كان يكفي أن يُثبِت أحدُهم أنّه يدعى مسيحيًّا حتّى يُحكَم عليه.

وبعد نحو عشر سنوات، جاء الأمر الذي وجّهه الإمبراطور هَدْرِيانُس إلى والي آسية، مِينُوقِيُوس فُنْدانُس (Minucius Fundanus)، يصبّ أيضًا في الاتّجاه نفسه: إنّ «الاسم المسيحيّ» يَجعل من حامله مجرمًا. وفي المقابل، لا يُقبَل الافتراء كسلاح مشهور في وجه المسيحيّين ولا بدّ من قمعه بشدّة:

«إن اتّهم أحدُهم المسيحيّين وأثبت أنّهم يتصرّفون خلافًا للقوانين، فاتَّخِذِ القرار وفقًا لجسامة الذنب.

ولٰكن، قسَمًا بِهرَقل! إن ادّعى أحدهم ذٰلك افتراءً، فأَصدِرْ حكمًا على تصرّفه المجرم واهتمَّ بمعاقبته».

من الواضح أنّ الأمر لم يكن سهلًا: فمن جهة، كانوا يحكمون على «الاسم المجرم»، ومن جهة أخرى كان المتَّهمون مضطرّين إلى إثبات جرائم أولٰئك الذين يدّعون أنّهم مسيحيّون! فكان الباب مفتوحًا أمام جميع المواقف، من الأكثر تساهلًا إلى الأشدّ قمعًا. وعلى كلّ حال، كان هٰذا الاختلاف في التعامل مع المسحيّين منتشرًا بين القضاة والشعب على السواء. وهٰذا ما يحملنا تلقائيًّا على أن نحاول أن نستعرض، بوجهٍ اعتراضيّ، الشكاوى الواضحة المسندَة إلى المسيحيّين وردود هؤلاء، وهي لا تَقِلّ وضوحًا عنها.

وثيقة

جواب طرايانُس إلى پلينُس

«عزيزي پلينس، لقد تصرَّفتَ كما يجب في تفحُّص قضايا أولٰئك الذين أبلغتَ عنهم أنّهم مسيحيّون، لأنّه لا يمكننا وضع قاعدةٍ عامّة تكون لها صيغة ثابتة، إن صحّ القول. ولا يجوز ملاحقتهم حكمًا. إن أُبلِغ عنهم واتُّهموا بالجرم، يجب الحكم عليهم، ولكن وفقًا للقيد التالي: مَن أنكر أنّه مسيحيّ وأعطى برهانًا واضحًا على ذٰلك بالوقائع نفسها، أي بالذبح لآلهتنا، حتّى وإن كان مشتبَهًا به في ما يختصّ بحياته السابقة، ينال الصفح جزاءً على توبته. أمّا ما يبلّغه المجهولون، فلا يجوز أن يكون له أيّ دور في الاتّهام، أيًّا كان، لأنّ هٰذا الإجراء مثالٌ ممقوت، لا يتماشى مع عصرنا».

المسيحيّون للوثنيّين: إنّ اسمنا لا يكفي لإدانتنا

طرطُليانُس: إنّ أمر طرايانس إلى پلينس يناقض نفسه لفظًا

«أجاب طرايانس (إلى پلينس) أنّه لا يجوز البحث عن مثل أولٰئك الناس، ولٰكن، إن أُحيلوا على المحكمة وجب معاقبتهم. يا لَلحكم الغريب والمخالف للمنطق حتمًا! يقول إنّه لا يجوز البحث عنهم، وكأنّهم أبرياء، ويوصي بمعاقبتهم، وكأنّهم مجرمون! إنّه حكم يَرحم ويقمع، يغضّ النظر ويعاقِب».

(الدفاع عن الدين II، ٧-٨)

يُسطِينُس: لا يكون الاسم في حدّ ذاته جيّدًا أو سيّئًا

«لا يكون الاسم في حدّ ذاته جيّدًا أو سيّئًا: بل يجب الحكم على الأعمال التي تُنسَب إليه. إنْ لم يُنظَر إلّا إلى ذٰلك الاسم الذي يتّهموننا به، فنحن أفضل الناس. ولا نظنّ أنّه من العدل أن ندّعي أنّنا مبرَّؤون بسبب اسمنا فقط، إن كنّا متَّهمين بالجرم. ولٰكن في المقابل، إنْ لم يكن أيُّ ذنب في اسمنا وسلوكنا، فمِن واجبكم أن تبذلوا ما في وسعكم لكي لا تَستوجبوا اللومَ أمام العدل بمعاقبتكم الأبرياء ظلمًا!»

(الدفاع الأوّل، ٤)

أثيناغُوراس: مهما قيل، فإنّ الحكم علينا بسبب «اسمنا» يفي بغرض الوشاة

... «إنّكم لا تهتمّون لنا أبدًا، نحن المدعوّين

مسيحيّين. ومع أنّنا لا نرتكب أيّ ظلامة، بل نتصرّف بأكثر الطرق تقوى وعدلًا - كما سيتّضح الأمر ممّا يلي- نحو الآلهة ونحو إمبراطوريّتكم على السواء، تَسمحون بأن نُلاحَق ونخطف ونطارد وبأن تحاربنا الغالبيّةُ بسبب اسمنا وحده. غير أنّنا نُجيز لأنفسنا أن نعبّر لكم عمّا يخصّنا: سيُظهر لكم خطابُنا أنّنا نتعذّب ظلمًا، خلافًا لكلّ قانون وخلافًا لكلّ منطق، ونسألكم أن تَدرسوا لمصلحتنا الطُرُقَ التي تجنِّبنا أن نكون ضحايا الوشاة».

(إلتماس في شأن المسحيّين I)

طرطليانس: في كره «اسمنا» اعتراف بجهلكم وعجزكم

فها هي الشكوى الأُولى التي نُعرب عنها حيالكم: جور الكراهية التي تُضمرونها للاسم المسيحيّ. والدافع الذي يبدو أنّه يبرّر هٰذا الجور هو بالضبط ذٰلك الدافع الذي يزيده خطورةً ويربكه، وأعني جهلكم. لأنّه هل مِن أمر أشدّ جورًا مِن كره ما نجهله، حتّى وإن كان يستوجب الكراهية؟ ذٰلك بأنّه لا يستوجب كراهيتَكم إلّا إن كنتم تَعلَمون أنّه يستوجبها. وإن أَعْوَزكم معرفةُ ما يستوجبه، فكيف تُثبتون أنّ الكراهية عدل؟

فإنّه لا يمكن أن يُثْبَت هٰذا العدل بالحَدَث، بل باليقين العميق. ولذٰلك، فحين يَكره البشرُ لأنّهم يَجهلون موضوعَ كراهيتهم، لِمَ لا يكون هٰذا الموضوعُ ما لا ينبغي لهم أن يكرهوه؟ وبالتالي، نخزي كراهيتَهم وجهلهم معًا، الواحدة بالآخر: فيبقون في الجهل لأنّهم يَكرهون، ويَكرهون ظلمًا لأنّهم يَجهلون».

(الدفاع عن الدين I، ٤-٥)

تعترفون بمزيّة الاسم المسيحيّ من دون أن تنتبهوا إلى ذٰلك

. . .«إنّ الغالبيّة منكم تضمر للاسم المسيحيّ هذا بغضًا أعمًى حتّى إنّهم لا يستطيعون أن يشهدوا للمسيحيّ شهادةً حسنة إلّا ويشوبونها باللوم لأنّه يحمل هٰذا الاسم. يقول أحدهم: «إنّ غايُس سِيُوس رجل نزيه، فمِن المؤسف أن يكون مسيحيًّا!» ويقول آخر أيضًا: «أمّا أنا فأستغرب أن يكون لُوقِيُوس طِيطُس، ذٰلك الرجل الواعي، قد أصبح مسيحيًّا فجأة». ولا أحد يتساءل هل غايُس ليس هو نزيهًا ولوقيوس ليس هو واعيًا إلّا لأنّهما أصبحا مسيحيَّين، ولا هل هما لم يصبحا مسيحيَّين إلّا لأنّ الواحد نزيه والآخر واعٍ؟ فالناس يمدحون فيهما ما يعلمونه ويذمّون ما يجهلونه، ويهاجمون ما يعلَمونه بسبب ما يجهلُونه!»

(الدفاع عن الدين III، ١-٢)

ثيُوفِيلُس الأنطاكيّ: «اسمنا» مبارَك

«أمّا عن الطريقة التي تَسخر بها منّي حين تدعوني «مسيحيًّا»، فأنت لا تَعلم ما تقول. أوّلًا، إنّ المَمْسوح محبَّب ومفيد وليس فيه ما يثير السخريّة. فهل يُستخدم القارب ويكون سالمًا قبل مَسحه؟ وهل يكون البرج أو البيت حَسَنَي المَنظر وصالحَين للاستعمال ما لم يُمْسَحا؟ والإنسان الذي يُولَد أو يستعدّ للقتال، ألا يَقبَل مسحة الزيت؟ أيّ تحفة فنّيّة أو أيّ زينة تروق العين إنْ لم تُمسح وتُلمَّع؟ وأخيرًا، فإنّ الجوّ وكلّ الأرض التي تحت السماء ممسوحان بالنور والنسيم، إن صحّ التعبير. وأنت، أفلا تريد أن تقبل مسحة الزيت المقدّس؟ في نظرنا، هٰذا هو تفسير اسمنا المسيحيّ: إنّنا ممسوحون بزيت الله».

(إلى أُوتوليكُس I، ١٢)

المناقشة: المسائل الأوّليّة

الوثنيّون للمسيحيّين: أنتم خارجون على القانون

في الرسالة التي بعث بها پلينُس إلى طرايانُس، تساءل إنْ كان يجب معاقبة «الاسم المسيحيّ» في حدّ ذاته. ولٰكنّه لم يَبْقَ مكتوف اليدين قبل أن «يعلّق» التعليمات المعادية للمسيحيّين «ويلجأ إلى رأي (الإمبراطور)». وهٰذا هو التقرير الذي رفعه عن التدابير التي رأى أن يتّخذها:

«وفي الانتظار، هٰذه هي القاعدة التي اتّبعتُها في معاملة أولٰئك الذين أحيلوا عليّ لأنّهم مسيحيّون. لقد سألتهم إن كانوا مسيحيّين. فالذين اعترفوا بذٰلك سألتهم ثانيةً وثالثةً مهدِّدًا إيّاهم بالتعذيب. والذين أصرّوا على جوابهم أعدمتُهم: فأيًّا كان معنى اعترافهم، كنتُ مقتنعًا بأنّه لا بدّ من أن أعاقب على الأقلّ ذٰلك العناد وذٰلك التعنّت. وهناك آخرون، ممّن يتمتّعون بالمواطنيّة الرومانيّة، يمتلكهم الجنون نفسه، فكتبتُ في حقِّهم ليُرسَلوا إلى رومة. . . أمّا الذين أنكروا أنّهم مسيحيّون أو كانوا مسيحيّين قبلًا، فإن دَعَوا الآلهة في الصيغة التي أُمليها عليهم وقرّبوا الذبائح بالبخور والنبيذ أمام صورتك التي أحضرتُها لهٰذا الغرض مع تماثيل الآلهة، وإن جدّفوا على المسيح علاوةً على ذٰلك - وهي أمور يُقال إنّه من المستحيل أن يُحصَل عليها مِن قِبَل مَن هم مسيحيّون حقيقيّون - فقد رأيتُ من واجبي أن أُطلق سراحهم».

(الرسالة X، ٩٦، ٢-٥)

نلفت النظر إلى عبارة پلينس الاعتراضيّة الفطنة: «أيًّا كان معنى اعترافهم»، فإنّ تصرّفه لا يهدف إلى الحكم المسبَق على الحلّ «الجذريّ»، بل يحرّكه دافعان: الدافع الأوّل عقلانيّ: يجب على الإطلاق أن تُمنَع رياح «الجنون» من الهبوب على الإمبراطوريّة، وهناك «تعنُّت» لا يمكن السلطةَ أن تقبل به. أمّا الدافع الثاني فكان مصدره الاهتمام بالفعّاليّة: فَلْنَقْضِ على الشرّ ما لم يَفُت الأوان.

. . . «لقد علّقتُ الاستجوابات لألجأ إلى رأيك، إذ بدا لي أنّ المسألة تستحقّ أن أقف على رأيك، بسبب عدد المتّهمين خاصّة. فهناك جَمع من الناس من كلّ الأعمار وكلّ الأوضاع ومن الجنسين أيضًا، الواقعين في الخطر أو المعرَّضين له. إنّ دعوى تلك الخُرافة لم تنتشر في المدن وحسب، بل في القرى والأرياف أيضًا. غير أنّني أعتقد أنّه يمكن القضاء عليها والتخلّص منها».

(الرسالة X، ٩٦-٩)

المسيحيّون للوثنيّين: أعمالنا وحدها تديننا

طرطليانس: في الواقع، أنتم تحرِّمون علينا «الوجود»

«أوّلًا، حين تطرحون بحكم القانون، المبدأ التالي: «لا يجوز لكم أن توجَدوا»، وترفضون ذٰلك من دون أيّ اعتبار إنسانيّ، تمارسون عنفًا وهيمنةً جائرة، كالمستبدّ الذي يأمر من أعالي معقله، إن ادّعيتم على الأقلّ أنّ ذٰلك لا يجوز لنا لأنّ تلك هي إرادتُكم المطلقة، لا لأنّه يجب ألّا يجوز ذٰلك فعلًا».

(الدفاع عن الدين IV، ٤)

أصول الاستثناء المطبّقة في حقّنا تناقض القضاء الرومانيّ

. . . «إنْ تأكّد أنّنا مجرمون كبار، فلماذا تعاملوننا على غير ما تعاملون به أمثالنا، أي سائر المجرمين؟ فإنْ كانت الجريمة واحدة، فلا بدّ أن تكون المعاملة واحدةً أيضًا. فحين يُتَّهم آخرون بكلّ الجرائم التي نُتَّهم بها، يستطيعون أن يثبتوا براءَتهم، سواء هم أنفسهم أم بوساطة أشخاص مأجورين. ولهم ملء الحرّيّة في أن

يجيبوا ويردّوا، لأنّه لا يجوز أبدًا أن يُحكم على المتّهم من دون أن يكون قد دافع عن نفسه واستُمِع إليه.

المسيحيّون وحدهم لا يُسمح لهم بأن يقولوا ما مِن شأنه أن يردّ الاتّهام ويدعم الحقيقة ويمنع القاضي من أن يكون ظالمًا. ولا يُنتَظر في شأنهم إلّا أمر واحد، ذٰلك الذي لا بدّ منه لتحريك البُغض الشعبيّ: الاعتراف باسمهم، لا التحقيق في جريمتهم».

(الدفاع عن الدين II، ١-٣)

تحكمون مسبقًا على «جرائمنا»، بدل أن تثبتوها

... «هٰذه مسألة أخرى لا تعاملوننا فيها بحسب صِيَغ الأصول الجنائيّة: حين يُنكِر المتّهمون الآخرون، تعذّبونهم لتحملوهم على الاعتراف. والمسيحيّون وحدهم تعذّبونهم لحملهم على الإنكار. ومع ذٰلك، لو كان هناك جريمة، لأنكرنا وللجأتم إلى التعذيب لتجبرونا على الاعتراف. فلا تقولوا إنّكم لا ترون فائدةً في البحث عن جرائم المسيحيّين بالتعذيب، لأنّ الاعتراف بالاسم المسيحيّ يمنحكم اليقين بأنّ تلك الجرائم قد ارتُكبت: لأنّكم أنتم، كلّ يوم، إن أَقْدَم قاتِلٌ على الاعتراف، تنتزعون منه بالتعذيب ذكرَ الظروف التي ارتكب فيها جريمتَه، مع أنّكم تعلمون ما هي جريمة القتل. وبما أنّكم تفترضون جرائمنا بمجرّد أنّنا نعترف باسمنا، تجبروننا بالتعذيب على أن نرجع عن اعترافنا فتُخالفون قواعدَ العدالة مرّتين، لأنّكم تحملوننا على أن ننكر مع اسمنا، ولا شكّ، جميع الجرائم التي جعلكم الاعترافُ بالاسم تفترضون وجودها».

(الدفاع عن الدين II، ١٠-١١)

يُسْطِينُس: يجب أن تدينونا على أعمالنا

«ولٰكن ربّ قائلٍ يقول إنّ بعض المسيحيّين قد أُوقِفوا واتُّهموا بجرم. لا شكّ في أنّكم حين تنظرون في سلوك المتّهَمين، غالبًا ما تدينون الكثيرين منهم، ولٰكن لا لأنّه قد استُدْعي آخرون قَبلهم للمثول أمام القضاء. وهٰذه حقيقة عامّة نعترف بها: كما أنّه، عند اليونان، كثيرًا ما يدعو الناس فلاسفةً أولٰئك الذين يَعرضون التعاليم التي تحلو لهم، مهما كانت متناقضة، كذٰلك عند البرابرة، حصل الحكماءُ، أو الذين يُعْرَفون بأنّهم حكماء، على اسم مشترك: فهم جميعًا يُدعَون مسيحيّين. فإن اتُّهموا أمامكم، نطلب أن يُنظَر في سلوكهم وأن يُحكَم على الذي يثبت اتّهامه، كمذنب لا كمسيحيّ: وإن ثبتت براءَة أحدهم، فليبرّأ كمسيحيّ، لأنّه ليس مذنبًا في شيء. نحن لا نسألكم أن تعاقبوا متّهِمينا، فإنّ شعورهم بخداعهم وجهلهم الخيرَ يعاقبهم بما فيه الكفاية».

(الدفاع الأوّل، ٧)

طرطليانُس: وإنْ توصّلتم إلى أن تنتزعوا منّا إنكارًا لإيماننا قد يَخْلُص أو لا يخلص، فماذا تربحون من ذلك؟

«ما مِن قاضٍ يرغب في تبرئة مجرم يَعترف (...). لذٰلك أيضًا لا يُكْرَه أحدٌ على الإنكار. أمّا المسيحيّ فأنت تعتقد بأنّه مذنب بالجرائم كلّها، وعدوّ للآلهة والأباطرة والقوانين والأخلاق والطبيعة كلّها، وتجبره على الإنكار لتبرّئه، ما دمتَ لا تستطيع أن تبرّئه إن لم يُنكر. إنّك تخرق القوانين، إذ إنّك تريده ينكر جريمتَه لتبرّئه، رغمًا عنه، وها إنّ ماضيه نفسه خالٍ من أيّ جريمة! مِن أين لكم ذٰلك العمى الغريب الذي يمنعكم حتّى أن تفكّروا في أنّ تصديق متّهَم يَعترف تلقائيًّا أولى مِن تصديق متّهم يُنكِر بالقوّة، وأن تتساءلوا هل هو، حين أُجبر على الإنكار، لم ينكر بغير صدق؛ وهل هو لم يهزأ بكراهيتكم حين صدر قرار بتبرئته، فور مغادرته المحكمة، فبقي مسيحيًّا كما كان؟

(الدفاع عن الدين II، ١٦-١٧)

المناقشة: الجرائم السرّيّة

الوثنيّون للمسيحيّين: «أسراركم» تخفي الفظائع

لماذا تختبئون، إن كنتم تصنعون الخير؟

«لماذا يجهد (المسيحيّون) أنفسَهم في ستر ما يُكرمونه وإخفائه، أيًّا كان، ما دامت الأعمال الحسنة تَرغب في أن تكون علنيّة دائمًا، في حين أنّ الجرائم تبقى سرّيّة؟ ولماذا ليس عندهم مذابح ومعابد وصورُ آلِهةٍ معروفة؟ ولماذا لا يريدون أبدًا أن يخطبوا أمام الناس ويجتمعوا بحرّيّة، إن كان ما يعبدونه ويخفونه عن الأنظار لا يستوجب العقاب أو الخزي؟ وفي الواقع، مِن أين أتى ومَن هو وأين يقيم ذٰلك الإلٰه الوحيد والمنعزل والمتروك وحده، الذي لا تعرفه الشعوب الحرّة ولا الممالك ولا الديانة الرومانيّة بالتأكيد؟ فالجماعة اليهوديّة التعسة وحدها تكرم هي أيضًا إلٰهًا وحيدًا، ولٰكنّها تفعل ذٰلك علانية، مستخدمةً المعابد والمذابح والضحايا والاحتفالات. وعلى كلّ حال، فهو مجرّدٌ من كلّ قوّة وسلطان، حتّى إنّه سجين الرومان، هو وشعبه الخاصّ».

(أُقطافِيُوس X، ٢-٤)

الشائعات تتّهمكم بممارسة رتبٍ فظيعة

«يتعارف (المسيحيّون) بعلامات وإشارات سرّيّة ويتحابُّون، إنْ صحّ التعبير، قبل أن يتعارفوا. وعلاوةً على ذٰلك، فإنّهم يمارسون هنا وهناك، وهم مختلطون بعضهم ببعض، عبادةَ فجور حقيقيّة، حتّى إنّهم يدْعون بعضُهم بعضًا إخوة وأخوات من دون تمييز، لكي يطبعوا العمل الجسديّ المبتذل بطابع الفاحشة، عن طريق اللجوء إلى اسم مقدّس، إذ إنّ خرافتهم الباطلة والحمقى تفاخر بالجريمة. على كلّ حال، لو صحّ أنّ اتّهامات خطيرة ومتنوّعة إلى هٰذا الحدّ، ونحن لا يمكننا أن نذكرها قبل أن نستأذن في ذٰلك، لا تستند إلى أساس الحقيقة، لَمَا نشرتها الإشاعة، وهي حادّة البصيرة.

لقد سمعتُ أنّه ثمّة اعتقاد سخيف حَمَلَهم على تقديس رأس أقبح الحيوانات، أعني الحمار، وعلى تكريمه: إنّها لعبادة جديرة بمثل ما هم عليه من عبادات ومطابقة لها تمامًا! ويروي آخرون أنّهم يكرمون الأعضاء التناسليّة عند زعيمهم الدينيّ، عند كاهنهم نفسه، ويعبدونها عبادَتَهم لصورة والدهم: قد يكون ذٰلك شبهة مخطئة، ولٰكنّها ملائمة على كلّ حال للاحتفالات السرّيّة والليليّة! وهناك من يَنسب إليهم، كموضوعات خاصّةٍ بالتكريم عندهم، رجلًا معاقَبًا على جريمةٍ بالإعدام، وخشبَةَ صليب مشؤومة، كما يَنسب إليهم مذبحًا يليق بالفاسقين والمجرمين، حاملًا إيّاهم على إكرام ما يستوجبونه.

أمّا ما يُروى عن تدرُّج الأعضاء الجدد المنضمّين، فهو فظيع بقدر ما هو مشهور، إذ يوضع، أمام الذي يستعدّ للتدرّج على العبادة، وَلَدٌ صغير مغطّى بالطحين، يُخْدَع به الناسُ البسطاء، ويقوم الحديثُ التنصُّر وقد أثارته طبقةُ الطحين، بضرب الولد الصغير بكلّ سذاجة، ويقتله بعد أن يكون قد أشبعه ضربات عُميًا ومصطنعة. ثمّ يلحسون، ويا للكفر، دماء الولد بِنَهَم ويتناتشون أجزاء جسده. تلك هي الجريمة التي تكرّس تعهّدَهم، وذٰلك هو التواطؤ في الجريمة الذي يلزمهم بالمحافظة على الصمت المتبادل. إنّ هٰذه الذبائح هي أفظع من انتهاك الحرمات على أنواعها.

وقد أُخبِرنا أيضًا عن وليمتهم. فالناس كلّهم يتحدّثون عنها هنا وهناك، ورسالة مواطنٍ لنا من قِيرتا، بين جملة رسائل أُخرى، تشهد لها. ففي يوم محدَّد، يجتمعون ليشتركوا في الوليمة مع جميع أبنائهم وأخواتهم وأمّهاتهم، مع أناس من الجنسين ومن كلّ

الأعمار. وهناك، بعد مأدبة فاخرة، وحين تبلغ الوليمة شيئًا من أجواء الحماسة، وتُلهب شدّة هوى الفاحشة الجُلساء الثَمالى، يُعمَد إلى إثارة كلب مربوط بالشمعدان ليقفز ويثب، بعد أن يكونوا قد رموا له كرةً صغيرة إلى أبعد من دائرة المقود الذي يربطه. وما إن يُقْلَبُ النورُ الشاهدُ ويُطفأ بهٰذه الطريقة، حتّى يغلّفوا في فجور الظلمات معانقات هواهم الكريه، كيفما أتت، وهم جميعًا فاحشون، إن لم يكن بالفعل، فأقلّه بالتواطؤ، لأنّ أمانيهم جميعًا تشتهي كلَّ ما يمكن أن يحصل في الأعمال الفرديّة».

(**أقطاڤِيوس** IX، ٢-٧)

المسيحيّون للوثنيّين: اتّهاماتكم نسيج افتراءات

مِينُوڤِيُوس فِلِيكس: إلٰهنا لا يُقيم في مَعبد

«أتظنّون أنّنا نخفي موضوع عبادتنا لأنّه ليس عندنا معابد أو مذابح؟ في الحقيقة، أيّ صورة يمكنني أن أصنع لأُمثّل الله، في حين أنّ الإنسان، إن حَكَمنا بالصواب، هو صورة الله؟ وأيّ معبد يمكنني أن أُشيد له، في حين أنّ هٰذا الكون كلّه، وهو الذي صَنعه، لا يقدر أن يحويه؟»

(**أُقطافيوس** XXXII، ١)

أوريجانِيس: ليس تعليمنا سرّيًّا

«بما أنّ قِلْسُس غالبًا ما يدعو تعليمنا تعليمًا سرّيًّا، فلا بدّ من الردّ عليه أيضًا حول هٰذا الأمر... فمَن الذي يجهل أنّ موضوع الإيمان لعدد كبير هو ولادةُ يسوع من عذراء وصلبُه وقيامته والإنذارُ بدينونة الله الذي سيعاقِب الخاطئين ويكافئُ الأبرار، كلًّا بحسب استحقاقاته؟ هٰذا وإنّ سرّ القيامة هو أضحوكة دائمة لغير المؤمنين لأنّه لم يُفْهَم على الإطلاق. وإنْ قيل، حول هٰذه الأمور، إنّ تعليمنا سرّيّ، فذٰلك هو في منتهى السخافة!».

(**الردّ على قِلْسُس** I، ٧)

مينوڤيوس فليكس: عبادتُنا المزعومة لحمار هي افتراء!

... «(من الشائعات الكاذبة التي تتناقلها الشياطين) صدرت شائعة تردِّدُها وتقول بموجبها إنّ رأس حمار هو شيء إلٰهيّ عندنا. من تُراه يكون غبيًّا إلى هٰذا الحدّ حتّى يؤدّي العبادة لمِثل هٰذا الشيء؟ ومن تُراه يكون أكثر غباوةً حتّى يصدِّق أنّ مثل هٰذا الشيء يُعبد؟».

(**أقطاڤيوس** XXVIII، ٧)

عبادتنا المزعومة لعورة الكهنة افتراء!

«والذي يذيع ترّهات في حقّنا عن عبادة نؤدّيها لِعَوْرة الكهنة، فذٰلك أيضًا يجتهد في أن يَنسب إلينا ميزةً تخصّه. فإنّ مثل أشكال الفجور هٰذه قد تكون رتبًا مقدّسة يحتفل بها أناس يضعون الأعضاء الجنسيّة كلَّها قبل جميع أعضاء الجسد الأُخرى، ويطلقون على الفجور، بجميع أشكاله، اسم التفنّن، ويشتهون انحراف الزواني...».

(**أقطافيوس** XXVIII، ١٠)

زعمُهم أنّ ديننا دين رجل مجرم افتراء!

«أمّا أن تُظهروا أنّ موضوع ديننا هو رجل مجرم وصليبه، فإنّكم تتيهون بعيدًا عن جوار الحقيقة باعتقادكم أنّ رجلًا مجرمًا استحقّ أن يُظنّ أنّه إلٰه أو أنّ كائنًا أرضيًّا حصل عل ذٰلك. آه! يا للشفقة على من يرتكز رجاؤه كلّه على رجلٍ فانٍ! لأنّ سنده يزول تمامًا بغياب ذٰلك الرجل...

وكذٰلك، ليست الصلبان موضوع عبادة أو أماني من قِبَلِنا. أمّا أنتم طبعًا، فإنّكم تقدِّسون آلهةً من خشب، فمَن المحتمل جدًّا أن تعبدوا صلبانًا من خشب وكأنّها أعضاء من أجساد آلهتكم».

(**أقطافيوس** XXIX، ٢-٣ و٦)

قَتْلُنا المزعوم للأولاد افتراء!

... «هناك شخص أرغب في مقابلته، ألا وهو

ذٰلك الذي يدّعي أو يؤمن بأنّ تدرُّجنا يتمّ بمقتل ولد صغير وبدمه... لا يصدِّق أمرًا كهٰذا إلّا مَن بإمكانه أن يجرؤ على القيام به. في الواقع، أنتم مَن أراهم يُنجبون الأولاد ثمّ يعرضونهم للحيوانات المفترسة والعصافير، أو يقضون عليهم شرَّ قضاء عن طريق خنقهم. وهناك نساء يجرؤن على الحيلولة دون ولادة الكائن الآتي في أحشائهنّ بتناولهنّ العقاقير، ويرتكبن بذٰلك جريمة قتل طفلٍ قبل الولادة».

(**أقطافيوس** XXX، ١-٢)

ولائمُنا الفاحشةُ المزعومة افتراء!

«أمّا الولائم الفاحشة فهي أسطورة ضخمة حاكتها ضدّنا الشياطين المتحالفة لتلوّث مجد عفّتنا بإلباسنا عارًا فظيعًا...

في الواقع، إنّ هٰذه الممارسات تصدر بالأحرى عن شعوب من نوعكم. فعند الفُرس يجوز للرجل أن يقترن بأمّه، وعند المصريّين وفي آثينة، الزواج بأخت هو شرعيّ، والفواحش مفخرة في حَوليّاتكم ومآسيكم التمثيليّة، وأنتم تحبّون أن تقرأوها أو تسمعوها. وكذٰلك تكرمون أيضًا آلهةً فاحشين، اقترنوا بأمّهم أو بابنتهم أو بأختهم. فمن الطبيعيّ إذًا أن تُلاحظ الفاحشة غالبًا في وسطكم وأن تُرتَكَب باستمرار في ما بينكم...»

(**أقطافيوس** XXXI، ١-٤)

المناقشة: الأعمال العلنيّة

الوثنيّون للمسيحيّين: أنتم مواطنون سيّئون

طرطُليانُس: «إنّكم لا تقرِّبون الذبائح للأباطرة»: فأنتم مذنبون «بجرم الإساءة إلى الجلالة»

(**الدفاع عن الدين** X، ١ وXXVIII، ٣)

لِم هٰذا الاتّهام؟ لأنّ الأباطرة، في ذٰلك الزمان، كانوا يُعْتَبرون آلهةً أرضيّة. وكانت الوحدة السياسيّة تتمّ حول الوحدة الدينيّة: فالمواطن الصالح هو الذي يؤدّي العبادة للأباطرة.

إنّكم لا تتقيّدون بعادات المجتمع الروماني. فأنتم إذًا «أعداء الجنس البشريّ»

(تاقيطس، **الحوليّات** XV، ٤٤)

إذا كان هٰذا الاتّهام القديم قد استمرّ بمثل هٰذا الثبات، فلأنّ المسيحيّين كانوا يوحون، من خلال موقفهم الممتنع عن بعض المظاهر الخاصّة بالمجتمع الرومانيّ، بأنّهم يؤلِّفون نوعًا من الدولة في داخل الدولة.

«إنّ نفوسكم حائرة ومغمورة بالقلق، ولذا تمتنعون عن الملذّات الشريفة: إنّكم لا تحضرون العرض المسرحيّ، ولا تشاركون في التطوافات، وتغيبون عن الولائم العامّة. تهربون بهلع من المباريات المقدَّسة وبقايا الأطعمة المأكولة طقسيًّا وبقايا المشروبات المسكوبة على المذابح، وذٰلك لخوفكم الكبير من الآلهة التي تنكرونها! إنّكم لا تحبكون الأزهار على رؤوسكم، ولا تزيدون جسمكم بهاءً بالعطور. تحفظون المراهم للجنازات وتمنعون الأكاليل حتّى عن القبور... وهٰكذا، لا تقومون من الموت، أيّها التعساء، وفي الانتظار لا تعيشون أيضًا.

(مِينُوقِيوس فليكس، **أقطافِيوس** XII، ٥-٦)

والنتيجة: أنتم سبب المصائب العامّة

«كان (الوثنيّون) ينظرون إلى المسيحيّين على أنّهم سبب الكوارث العامّة كلّها والمصائب الوطنيّة كلّها. فإن فاضَ نهر التيبر في المدينة، وفاض النيل في الأرياف، وإن بقيت السماء ساكنة واهتزّت الأرض، وإن أعلن عن انتشار المجاعة أو الطاعون، سرعان ما يعلو الصراخ: «لِيُلْقَ المسيحيّون إلى الأسود!»

(طرطليانس، **الدفاع عن الدين** XI، ١-٢)

المسيحيّون للوثنيّين: نحن مواطنون أكثر منطقًا منكم

طرطليانس: الاعتراف بتفوّق الله على الإمبراطور ليس ذنبًا بجرم الإساءة إلى الجلالة

«... نحن نتوسّل إلى الله الحقّ، وإلى الله الحيّ من أجل خلاص الأباطرة، وهم أنفسهم يفضّلون حمايته على حماية الآلهة الأخرى كلّها. إنّهم يعرفون مَن الذي وهبهم الإمبراطوريّة، ويعرفون، بصفتهم بشرًا، مَن الذي وهبهم الحياة. ويشعرون بأنّه هو الله وحده، الذي يَخضع لسلطته وحدها الأوّلون بعده، وهم في المرتبة الثانية، قبل جميع الآلهة وفوقها... إنّهم ينظرون إلى أين تمتدّ قوى إمبراطوريّتهم، وبهٰذا يرون أنّ الله موجود، ويدركون أنّهم لا يستطيعون شيئًا لمقاومته، فيعترفون بأنّهم أقوياء بفضله... لا يكون الإمبراطور كبيرًا إلّا بقدر ما يكون أصغر من السماء: فإنّه هو نفسه يخصّ ذٰلك الذي يملك السماءَ وكلّ مخلوق. إنّه إمبراطور بذٰلك الذي جعله إنسانًا قبل أن يجعله إمبراطورًا، فلسلطانه وللروح الذي يُنعشه مَصدر واحد».

(الدفاع عن الدين XXX، ١-٣)

لا نرفض الحياة، بل التسليات المُذلّة، ولا نتدخّل في السياسة

«إنّنا... نعيش معكم، ونأكل مثلكم، ونلبس مثلكم، ونعيش بحسب النمط الذي تعيشون به، ونخضع لضروريّات الوجود التي تخضعون لها.

... دون أن نتوقّف عن التردّد إلى ساحتكم العامّة، وسوقكم، وحمّاماتكم، ومحلّاتكم، ومخازنكم، وفنادقكم، ومعارضكم، وسائر الأماكن التجاريّة، نحن نقيم في هٰذا العالم معكم. ومعكم أيضًا نسافر بحرًا، ومعكم نخدم خدمة الجنود، ونعمل في الأرض ونمارس التجارة: وكذٰلك نبادلكم منتجات فنوننا وعملنا. فكيف يمكن أن نبدو غير نافعين لأعمالكم ما دمنا نعيش معكم ومنكم؟ في الحقيقة، إنّي لا أفهم ذٰلك».

(الدفاع عن الدين XLII، ١-٣)

... «في نظرنا، نحن الذين لا يؤثّر فيهم المجد والمقامات، لا نحتاج في الحقيقة إلى أيّ رابطة، وما من شيء أغرب عنّا من السياسة. إنّنا لا نعرف إلّا جمهوريّة واحدة مشترَكة للجميع: وهي العالم.

أمّا عروضكم المسرحيّة: فنتخلّى عنها، لأنّنا نتخلّى عن الخرافات التي منها تستقي مصدرَها، كما نعلم، ولأنّنا غرباء عن الأشياء التي تجري فيها. فما من شيء يجمع بين لساننا وعيوننا وآذاننا من جهة، وجنون الملعب الشعبيّ ولا أخلاقيّةِ المسرح وفظاعة الميدان وتفاهة صالة الجمباز من جهةٍ أخرى».

(الدفاع عن الدين XXXVIII، ٣-٤)

والمصائب العامّة، أفلم تكن معروفةً قبل المسيح؟

«إنّي أسألكم: ما أكثر الكوارث التي نكبت الأرض والمدن قبل طيباريوس، اي قبل مجيء المسيح!... ولٰكن أين كانت آلهتكم نفسها، ولن أقول أين كان المسيحيّون، أولٰئك الهازئون بآلهتكم، حين أهلك الطوفانُ الأرض بأسرها؟»

(الدفاع عن الدين XL، ٣ و٥)

المناقشة: الأضاليل الدينيّة

الوثنيّون للمسيحيّين: أنتم جهّال تؤمنون بالخرافات

فهل تكون المناقشة بين الوثنيّين والمسيحيّين اجتماعيّةً أو حتّى سياسيّة فقط؟ كلّا. لأنّ كلّ شيء في العالم القديم كان دينيًّا، بدءًا بالوطنيّة التي تفرض عبادةَ الإمبراطور. فمِن هنا الصعوبة التي واجهها المسيحيّون في حمل الآخرين على التسليم بأنّهم مواطنون أوفياء، في الإمبراطوريّة، بِغضّ النظر عن ممارساتهم «الدينيّة».

وحتّى بمعزل عن الموقف المتطرّف الذي اتّخذه بعضُهم (حيال «الخدمة العسكريّة» مثلًا)، كان من المستحيل ألّا تُوقِع المواقفُ المسيحيّة الوثنيّين في الحيرة. فكان هٰؤلاء يشتبهون بأنّ «أمرًا ما» يخفي عنهم ويبدو لهم خطرًا بالتالي. وهٰذا «الأمر» يشبه «العمل السحريّ» شبهًا مدهشًا. فكيف يمكن الوثنيّ أن يرى، من الخارج، فرقًا بين التعزيم المسيحيّ والعمل السحريّ؟

على كلّ حال، إنّ ما سيُذكر هنا من الشياطين التي قد يتفوّق عليها المسيح والمسيحيّون لا يمكنه أن يسهم في دفع الالتباس من نفوس الوثنيّين. بل على عكس ذٰلك، إذ إنّ الشياطين جزء من عالمهم.

كانت مشكلتهم الحقيقيّة أن يعرفوا إن كان المسيحيّون منصرفين أم لا إلى شقّ مضمارٍ منفصل عن الوثنيّة، وهل هم سيؤثّرون أم لا تأثيرًا هدّامًا إلى حدّ بعيد في الآلهة الوثنيّة.

ولكي يُعيد الوثنيّون تثبيت وضعِهم، وكان متزعزعًا بما لا يقبل الجدل، جرّبوا نوعَيْن متكاملَيْن من العرض.

قِلسُس: تستغلّون جهل الشعب، ومسيحيَّتُكم ليست سوى تعليمٍ واهٍ

«يَحثّ (قِلسُس) على عدم قبول تعليم من التعاليم إلّا بقيادة العقل ومرشدٍ عاقل، لأنّ الضلال واقع لا محالة حين ننضمّ إلى بعض الناس من دون أن نتّخذ هٰذا الاحتياط. ويشبّههم بأولٰئك الذين يؤمنون، من دون أيّ سبب، بكهنة قُوبيلا المتسوّلين وبالعرّافين، وبعبّاد ميترا وسَبازِيُوس. وبكلّ ما يمكن أن نصادفه، كأشباح هَيْكاتِس أو شيطانٍ آخر من الشياطين. لأنّه، كما لا يندر أن يعمل بعضُ الأشخاص الفاسدين منهم على الاستفادة مِن جهل أناس يسْهل خداعُهم ويريدونهم كما يشاؤون، فكذٰلك يجري عند المسيحّين. وهو يضيف أنّ بعضهم، ممّن رَفضوا حتّى أن يعطُوا أو يقبلوا أسبابًا لما يؤمنون به، يستخدمون مثلَ هٰذه الصيغ: لا تتفحّص، بل آمن، فالإيمان يخلّصك. ويؤكّد أنّهم يقولون: إنّ الحكمة في هٰذا الدهر شرّ والجنون خير».

(أوريجانيس، **الردّ على قِلسُس** I، ٩)

لا شكّ في أنّ «المفارقات» المسيحيّة لا تُفهم بسهولة. ولذٰلك، تحاشى أوريجانيس أن يسير مع قِلسُس فوق تلك الرمال المتحرّكة. وتقوم حجّته (أنظر الصفحة المقابلة) على إثبات أنّ المسيحيّة هي «الفلسفة» الحقيقيّة، تلك التي تمكّن الشعب، لا بعض المطّلعين القليلين، كما كان الأمر سابقًا، من استخدام العقل.

ولٰكن، من المستبعَد أن يكون رجلٌ يونانيّ مثل قِلسُس قد اكتفى بهٰذا الردّ، على افتراضٍ أنّه وُجّه إليه مباشرةً، بدل أن يأتي... في القرن التالي. فإنّ تشبيهه المسيحيّين «بعبّاد ميترا وسَبازيوس» ليس خدعة: بل هو، على العكس، ذٰلك العَرْض الثاني الذي يتقدّم به الوثنيّون ردًّا على المسيحيّة.

ما من شيء صالح يمكنه أن يصدر عنكم أيّها «البرابرة»

ذٰلك هو الشعور الأكثر انتشارًا بين اليونانيّين اللاتين. ولئن لم يكن تهجُّمُ قِلسُس حاسمًا في هٰذه المسألة، إذ أقرّ «بأنّ البرابرة قادرون على اكتشاف التعاليم»، إلّا أنّه ما لبث أن صَحّح: «إنّ اليونانيّين أمهر في الحكم على اكتشافات البرابرة وتأسيسها والمطابقة بينها وبين ممارسة الفضيلة» (**الردّ على قِلسُس**، أنظر الصفحة المقابلة).

وهٰكذا لا يمكن أن تردم الهوّة القائمة. ففي نظر المثقّفين ظهرت المسيحيّة بمظهر فلسفة هزيلة جدًّا، بقدر ما تدّعي أنّها موجّهة إلى جمهور الناس، ولا سيّما إلى أفقرهم حالة. وفي نظر الشعب، بدت وكأنّها شيعة «غريبة»، ومشبوهة بالتالي، بسبب ردّة فعل غريزيّة دفاعيّة. وفي نظر الطبقة السياسيّة - والأباطرة بوجهٍ خاصّ - بدت وكأنّها إعادة ظهور السحر، ذٰلك السحر الذي حاربته رومة منذ بداية تاريخها، حارقةً كتبه ومرسلةً أنصاره إلى التعذيب والموت.

تأثيركم سيّئ

«إنّ هٰؤلاء الناس يَختارون من حثالة الشعب أُشابةً من الجُهّال والنساء الساذجات اللواتي يدفعهنّ ضعف جنسهنّ إلى أنواع العجز، فيؤلّفون جمعًا من المتآمرين الكفّار الذين يستعينون بالاجتماعات الليليّة والأصوام المنتظمة والأطعمة التي لا تليق بالإنسان ليثبّتوا تعهّدهم، لا باحتفالٍ مقدّس، بل بانتهاكٍ للحرمات: إنّهم جنس محبّ للمخابئ وعدوّ للنور، أخرس أمام العالم وثرثار في الزوايا. إنّهم يحتقرون المعابد احتقارَهم القبور، ويبصقون على الآلهة، ويهزأون بالاحتفالات المقدّسة. هٰؤلاء الكائنات الذين يثيرون الشفقة (. . .) يشفقون على كهنتنا، ويحتقرون الأرجوان ومراتب الشرف، هم الذين يكونون شبهَ عراة».

(مِينُوقِيُوس فلِيكس، **أقطافيوس** VIII، ٤)

بمجرّد أن تتدخّل السلطة، يختلّ التوازن القائم بين منطقين متصلّبين إلى هٰذا الحدّ. وكل ملفّ يستدعي ملفًّا آخر. وأكثر من المناقشة الكلاميّة، برز الصراع في الأعمال: فكان عصر الاضطهاد والاستشهاد.

المسيحيون للوثنيّين: المسيحيّة هي الفلسفة الحقيقيّة

أوريجانيس: تعزيماتنا ليست أعمالًا سحريّة

«يعلن قِلسُس قائلًا، ولا أدري بأيّ دافع يفعل ذٰلك: «يبدو أنّ المسيحيّين يمارسون سلطانًا باستدعاء أسماء بعض الشياطين»، ملمّحًا بذٰلك، على ما أعتقد، إلى المعزِّمين الذين يطردون الشياطين. ولٰكن يظهر بوضوح أنّه يفتري على الإنجيل. فهم يمارسون سلطانًا، على ما يبدو، لا بالأدعية، بل باسم يسوع، مقرونٍ بقراءة مقاطع من حياته قراءةً علنيّةً. وذٰلك بأنّ هٰذه القراءة تؤدّي غالبًا إلى طرد الشياطين من الناس، خصوصًا حين يتلو القرّاء النصوص في حالة صحيحة من الإيمان الحقيقيّ. ولٰكنّ اسم يسوع له من القدرة على الشياطين ما يجعله يفعل فعله حتّى وإن تلفّظ به الأشرار».

(**الردّ على قِلسُس**، ٦)

مينوقيوس فليكس: ولٰكنّ آلهتكم ليست سوى شياطين، وصحيح أنّنا قادرون على طردها

إنّ الشياطين نفسها - ولا يخفى الأمر على أكثركم - تعترف بهٰذه الوقائع كلّها على حسابها، في كلّ مرّة نطردها من الأجساد البشريّة بفضل التعذيب الصادر عن كلامنا والحروق المنبعثة من صلواتنا. أجل، إنّ زُحَل وسِيرابِيس وجُوبِيتِر وجميع الشياطين التي تعبدونها تُظهر مَن هي، بعد أن يكون الوجع قد غلبها، ولا تكذب أبدًا، بعد أن يعتريها الخجل، ولا سيّما في حضور عدد كبير منكم. فصدّقوا شهادتها، وهي تقرّ بأنّها شياطين، معترفةً بالحقيقة على حسابها. فإنّنا، حين نناشد تلك الأرواح المسكينة باسم الله الحقّ الواحد، ترتعش في الأجساد، رغمًا عنها، وتهرب بوثبة واحدة أو تتبدّد تدريجًا، بحسب العون الذي يقدّمه إيمان المريض، أو

المفعول الذي تطلقه نعمة الشافي».

(أُقطافيوس XXVII، ٥-٧)

أوريجانيس: المسيحيّة هي «الفلسفة» الحقيقيّة، وهي لا تَحصر استخدام العقل في النخبة، بل تجعله في متناول الجماهير

«... لو أمكن أن يتخلّى جميع الناس عن شؤون الحياة ليكرّسوا أوقات فراغهم للفلسفة، فليس على أحد أن يسلك طريقًا آخر إلّا ذٰلك الطريق. لأنّنا في المسيحيّة لا نجد - بكل تواضع - تقصيرًا في استقصاء المعتقدات، وشرح الألغاز النبويّة، والأمثال الإنجيليّة، والكثير الكثير من الأحداث الأُخرى أو من التعاليم ذات المعنى الرمزيّ. ولٰكن، وإن لم يكن ذٰلك ممكنًا، نظرًا إلى ضآلة عدد الناس الذين ينصرفون إلى أعمال العقل، بسبب ضرورات الحياة أو الضعف البشريّ، فهل سنجد منهجًا أكثر فعّاليّةً لمساعدة الجماهير من ذٰلك الذي سلّمه يسوع إلى الأُمم؟»

(الردّ على قِلسُس، ٥، ٩)

قد نكون «برابرة»، ولٰكنّ قوّة الإثبات في الإنجيل تفوق الجدليّة اليونانيّة

«ثمّ يتابع قِلسُس قائلًا: «للتعليم مصدر بربريّ»، وهو طبعًا الدين اليهوديّ الذي ترتبط به المسيحيّة. ومن الحكمة أنّه لا يأخذ أبدًا على الإنجيل أصلَه البربريّ، لأنّه هو الذي كتب هٰذا المديح: «إنّ البرابرة قادرون على اكتشاف التعاليم». ولٰكنّه أضاف: «إنّ اليونانيّين أمهر في الحكم على اكتشافات البرابرة وتأسيسها والمطابقة بينها وبين ممارسة الفضيلة». غير أنّي، انطلاقًا من ملاحظته، يمكنني أن أقول ما يلي للدفاع عن حقيقة القضايا المسيحيّة: كلّ من ينتقل من العقائد والموادّ التعليميّة اليونانيّة إلى الإنجيل يقدر، لا أن يحكم بأنّ القضايا المسيحيّة صحيحة وحسب، بل أن يُثبت أيضًا، بوضعه إيّاها موضع التنفيذ، أنّها تستوفي الشرط الذي كان يبدو غائبًا بالنسبة إلى البرهان اليونانيّ، مثبتًا بذٰلك صحّة المسيحيّة. ولٰكن لا بدّ من الإضافة أنّ للكلمة (الإلٰهيّة) برهانها الخاصّ، وهو أكثر ألوهيّةً مِن برهان اليونان بالجدليّة».

(الردّ على قِلسُس ٣، ٢)

وهٰكذا، في غضون قرنين ونصف من الاتّهامات والردود، عبثًا حاول المسيحيّون، على ما يبدو، أن يجدوا أجوبةً عن كلّ شيء. لٰكنّ المسيحيّة ظلّت في نظر الوثنيّين - على عتبة السنة ٣١٣ - تلك «الخرافة السحريّة المؤذية» التي تحدَّث عنها سُويتُونيُوس. وهٰذه خلاصة منطقيّة إجمالًا، إنْ اعتبرنا أنّه، طوال حوار الطرشان هٰذا، لم يتّفق الطرفان إلّا على مسألة واحدة - وهي مسألة القطيعة: فكلٌّ مِن الخصمين يمكنه أن يُعتَبَر «ملحدَ الآخَر».

يُسْطِيُنس: نحن ملحدو آلهتكم المزعومة

«يدعونا الناس ملحدين. أجل بالتأكيد، نحن نعترف أنّنا ملحدو تلك الآلهة المزعومة، ولٰكنّنا نؤمن بالله الحقّ، أبي العدل والحكمة وسائر الفضائل، الذي لا يشوبه أيّ شرّ. وبالإيمان به نكرم ونعبد بالروح والحقّ الابنَ الذي جاء من لدنه وأعطانا هٰذه التعاليم، ونكرم صفوف سائر الملائكة الصالحين الذين يواكبونه ويشبهونه، وكذلك نكرم الروح النبويّ. ذٰلك هو التعليم الذي تعلّمناه والذي ننقله بسخاء إلى كلّ من يريد أن يتعلّم».

(الدفاع الأوّل، ٦)

الفصل الثالث

المسيحيّون يُلقَون إلى الأُسود

بقلم فرنسوا هايم(*)

لم يكن الأمر مجرّد أسطورة، حتّى وإن بالغ بعضهم أحيانًا
في إحصاء عدد المسيحيّين المضطهَدين،
لأنّ الكنيسة كابدت الاستشهاد طوال قرنين ونيّف،
وكان كثير من النساء والرجال يفضّلون الموت
على جحود إيمانهم.

«فقُل لنا ما رأيك: أيحِلّ دفعُ الجزية إلى قيصر أم لا؟». عن هٰذا السؤال الفخّ، الذي طرحه الفرّيسيّون، أجاب يسوع: «أدّوا لقيصر ما لقيصر، ولله ما لله» (**متّى ٢٢/١٧-٢٢**). تنطوي هٰذه الجملة على الفصل بين السلطة الزمنيّة والسلطة الروحيّة. ولٰكنّها تضمر أيضًا أنّ يسوع يقبل بسلطة الرومان على العالم الفلسطينيّ فلا يتجنّب الدخول في صراع مع الرومان وحسب، بل يطلب إلى تلاميذه أن يعترفوا بهم وأن يخضعوا لهم. وحين أراد الجمع أن ينصّبه ملكًا، أي مغتصِبًا السلطة في نظر رومة، انصرف هاربًا. وأمام بنطيوس بيلاطس، أَوضح أنّ مملكته ليست من هٰذا العالم. وهٰذا ما فهمه بيلاطس، فبدلَ أن ينافسه على لقب الملك، كما هو منتظَر (**يو ١٩/١٢-١٦**)، جَعل على الصليب، بالرغم من مساعي عظماءِ الكهنة، رقعةً كتب فيها أنّ يسوع ملك (**يو ١٩/١٩-٢٢**).

وتحاشى الرسل هم أيضًا تحدّي السلطات الرومانيّة. وأوصَوا الجماعات بأن تطيع السلطات القائمة. فقد كتب بولس إلى أهل رومة قائلًا: «ليخضع كلُّ امرئٍ للسلطات التي بأيديها الأمر، فلا سلطة إلّا من عند الله، والسلطات القائمة هو الذي أقامها. فمَن عارض السلطة قاوم النظام الذي أراده الله» (**روم ١٣/١-٢**). وردّد بطرس هٰذه الوصيّة، طالبًا من المسيحيّين أن يخضعوا «لكلّ نظام بشريّ من أجل الربّ: للمَلِك على أنّه السلطان الأكبر، وللحكّام على أنّ لهم التفويض منه أنْ يعاقِبوا فاعل الشرّ ويُثنوا على فاعل الخير» (**١ بط ٢/١٣-١٤**). فمن أين نشأ الصراع إذًا؟

أسباب الصراع

لم يكن المسيحيّون هم المبادرون إلى الدخول في صراع مع الإمبراطوريّة الرومانيّة. فقد قَبلوا بالنظام السياسيّ السائد في ذٰلك الزمان، وقبلوا أيضًا بالمجتمع كما كان قائمًا. ولعلّ موقفهم من العبوديّة كان أسطع برهان على ذٰلك. فإذا صحّ أنّ بولس أوصى السادة «بأن يتجنّبوا التهديد في معاملة عبيدهم»، لأنّ السيِّد «هو في السَّموات ولا يحابي أحدًا»، فقد طلب من العبيد أيضًا أن «أطيعوا سادتكم في هٰذه الدنيا بخوفٍ ورعدة وقلبٍ صافٍ كما تطيعون المسيح، لا طاعة عبيد العَيْن، كمن يبتغي رضا الناس، بل طاعة عبيدٍ للمسيح تطيب

(*) François Heim، أستاذ مساعد في جامعة نانسي.

نفوسهم أن يعملوا بمشيئة الله» (أف ٦/ ٥-٩). أصبح الخضوع أمرًا باطنيًّا، ولٰكنّه ازداد ضغطًا بوجهٍ من الوجوه.

لا شكَّ في أنّ ما ورد في الرسالة إلى فيلمون يكشف عن العلاقة القديمة القائمة بين السيّد والعبد وكأنَّها أُفرِغَت من مضمونها بالانتماء إلى الدين المسيحيّ. ولٰكنّ بولس لم يتعرّض، مع ذٰلك، للإطار القانونيّ الذي ينظِّم العبوديّة. فهو بالأحرى لا يطرح على بساط البحث سائر المؤسَّسات الاجتماعيّة المعروفة في الإمبراطوريّة. فلماذا، والحالة هٰذه، أقدم الأباطرة على اضطهاد المسيحيّين؟

ذٰلك بأنّ مفهوم الإمبراطوريّة كان يتّسم بطابعٍ مقدَّس، فالحماسة الوطنيّة عند الرومان كانت تُفضي بهم إلى العبادة الدينيّة. فمنذ زمنٍ بعيد، كُرِّمت رومة على أنّها إلٰهة. وفي نهاية القرن الثاني من عصرنا، نرى أنّ الشاعر الغاليانيّ رُوتيلِيُوس نَمَتِيانُس يحيّيها بحماسة على أنها إلٰهة. ولقد غذّى الأدبُ الرومانيّ هٰذا الشعور الدينيّ وأشاد به. إذ إنَّ قراءة **الإنيادة** تذكِّر الرومان بأنّه ما من نبرات تهزّ المشاعر بالقدر الكافي للتغنّي بعظمة الإمبراطوريّة وخلودها. هٰذا وإنّ قراءة ما كتبه المؤرِّخ طيطس ليڤُس تعلِّمهم أنّ الوطن يستحقّ كلّ أنواع التضحية، بما فيها التضحية الأسمى. وكان لا بدّ للمواطن الروماني أن يوجّه طموحه كلّه وجهوده كلَّها إلى خدمة الدولة، فإنّ ديانته الوثنيّة لا تعرض عليه سوى حياة أُخرى ليس لها أيّ قوام حقيقيّ. وكانت فرصته الفضلى للبقاء أن يقوم بأعمالٍ عظيمة في سبيل الجمهوريّة وأن يكتسب من المجد ما يحمل الأجيالَ الآتية على تخليد ذكراه.

مواطنون هامشيّون

إزاء تلك الدولة الموسومة بالطابع القدسيّ، أكّد المسيحيّون أنّهم ينتمون إلى مدينة أُخرى ووضعوا رجاءَهم في مملكة أُخرى. ولم تكن الإمبراطوريّة الرومانيّة في نظرهم شيئًا مطلقًا، بل واقعًا ملتبسًا وانتقاليًّا ونسبيًّا، كما هي حال الممالك الأرضيّة كلّها. فكانوا يجرؤون على عدم الاهتمام بها، وعلى التعلّق حتّى الولع بمملكتهم الروحيّة والانصراف كلّيًّا إلى خدمتها. أفما كانوا يَعتبرون أنّ مملكتهم تجعلهم في حال «استنفارٍ» دائم، كما يكون الجنود في خدمة الملك؟ ولم يجدوا في الحياة العسكريّة صورًا وحسب، بل نموذجًا يقتدون به في ممارسة الصراع المسيحيّ مع الشرّ: فكان تأهُّب الجنديّ وخضوعه التامّ للقائد وتلاحُم الجيش أمثلةً يحتذونها.

وحين كانوا يُحالون على القضاء، غالبًا ما كانت ردودهم الغامضة تثير استياءَ القضاة: فعن الأسئلة التقليديّة المرتبطة بهويّتهم، كانوا يجيبون أنّهم يُدعَون «مسيحيّين»، وأنَّ هٰذا هو اسمهم الحقيقيّ وأنّهم من أورشليم (أي من أورشليم السماويّة). وإن كانوا أساقفة، أضافوا أنّ لهم عددًا كبيرًا من الأولاد، وقصْدُهم أنّهم مسؤولون عن عدد كبير من المؤمنين أو أنّهم وَلدوا الكثير منهم للحياة المسيحيّة. ولم تكن أجوبتهم كلُّها لِتُسَوّيَ قضاياهم، بل تُظهر بذٰلك إلى أيّ درجة يستخفّون بمدينتهم الأرضيّة ويتمسّكون بمدينةٍ أخرى سرّيّة لا تُدرك، بدلًا من نذر أنفسهم للإمبراطوريّة.

ومن جهة أخرى، كان المسيحيّون في القرون الأوائل مقتنعين بأنّ عودة المسيح وشيكة. وبالتالي، كانت حقائق هٰذه الدنيا تبدو لهم باطلة، والإمبراطوريّة الرومانيّة كسائر الأمور. فماذا ينفع العمل على نشرها أو الدفاع عنها مقابل حروب دامية؟ الأفضل هو الحفاظ على يدَين نقيّتين من الدم البشريّ في انتظار عودة الربّ. وعلاوةً على ذٰلك، كان انحطاط الإمبراطوريّة، في نظرهم، علامةً على اقتراب الأزمنة الأخيرة. ووفقًا لتفسيرٍ شِبه عامّ للرسالة الثانية إلى أهل تسالونيقي (٢/ ٦-٨)، يظهر أنّ ما «يعوق» مجيءَ الملحِد، الذي يسبق مجيءِ الربّ، هو الإمبراطوريّة الرومانيّة. وكان المسيحيّون يخشون حلول تلك الأزمنة بقدر ما كانوا يتشوّقون إلى عودة المسيح. ذٰلك كلُّه حملهم على اتّخاذ

موقفٍ ملتبس من الإمبراطوريّة: ونادرًا ما كان هٰذا الموقف عدائيًّا، وغالبًا ما كان متّسمًا باللامبالاة والتحفُّظ والاستمهال.

وبقدر ما كان عدد هٰؤلاء المواطنين يزداد، لم يكن ممكنًا، بعد أن وضعوا أنفسهم عمدًا على هامش المدينة، إلّا أن يلفتوا انتباه السلطات الرومانيّة، فيجلبوا لأنفسهم مراقبتَها فاستنكارَها.

رَفْضُ تقريب الذبائح

تركَّز الصراع في أغلب الأحيان على مسألة واضحة هي رفض تقريب الذبائح. لم تكن الذبيحة للآلهة المحلّيّة مجرّد دليل على الولاء للإمبراطوريّة، بل كانت تنطوي أوّلًا على مدلولٍ دينيّ لدى السلطات الرومانيّة والمسيحيّين على السواء. وبحسب معتقدٍ ظلّ سائدًا حتّى نهاية القرن الرابع، كانت الآلهة المحلّيّة حليفةَ الرومان الوفيّة: فقد ظلّت لقرونٍ طويلة عوامل فعّالة في نشر الإمبراطوريّة وحفظها. وظلّ عامّةُ الشعب والموظّفون وحتّى المفكّرون متمسّكين بعضَ الشيء بذٰلك المعتقد، حتّى في حال تحوُّلهم إلى ديانات تَعِد بالخلاص الشخصيّ. ولٰكنّ الإيمان بالآلهة التقليديّة يعود فيشتدّ حين تقع كارثة تهدّد الإمبراطوريّة أو تضرّ بها.

على كلّ حال، كان جهاز الدولة يولي تلك الآلهة المحلّيّة أهميّةً كبرى، ويسهر على أن تُكرَّم كما يجب. وهٰذا ما كان يصدم توحيد المسيحيّين الصارم. وبما أنّهم كانوا يرفضون بعناد تأدية شعائر العبادة للآلهة التقليديّة، فقد اعتُبِروا ملحدين ومذنبين إلى الدولة والديانة على السواء.

وكانت قرارات الاتّهام تتحدّث عن جرائم «الاعتداء على الجلالة»، لأنّ رفض تأدية العبادة القوميّة ينال من «عظمة» الشعب الرومانيّ، عن طريق استفزاز الآلهة التي تصنع تلك العظمة وتضمنها. ولم يكن في وسع المسيحيّين، مع ذلك، أن يقبلوا بعبادة الإمبراطور فقاوموها مثلما قاوموا عبادة الآلهة القوميّة. كانوا يحترمون الإمبراطور ويطيعونه بصفته المسؤول عن السلطة العليا، ولٰكنّهم كانوا يرفضون أن يعترفوا به كإله. والحال أنّ الإمبراطور كان يجسّد في شخصه الإمبراطوريّة الرومانيّة الموسومة بطابع المثال والألوهة. وكانت قدرته تضعه بازديادٍ مستمرّ في هالة الألوهة، وهو على قيد الحياة. وكانوا يعتبرونه الوسيط المفضَّل بين الإمبراطوريّة والآلهة، وانتهى به الأمر، في عهدٍ لاحق، إلى اعتبار نفسه ابنًا للآلهة. وكان جلوسه على العرش ظهورًا إلٰهيًّا. ففي نظر المواطن العاديّ، كان أداء العبادة للإمبراطور يعني، في وقتٍ واحدٍ، الاعتراف بالطابع الإلٰهيّ الذي تتميَّز به الإمبراطوريّة وإكرام الآلهة بوجه غير مباشر، فهي التي منحتها هٰذا الطابع. وعلى عكس ذٰلك، من شأن رفضِ أداء هٰذه العبادة أن يظهر وكأنّه تمرُّد على الإمبراطوريّة نفسها. والحال أنّ المسيحيّين لم يكونوا يعترفون إلّا بالمسيح «سيِّدًا» بالمعنى المطلق وآمرًا (Imperator). فحتّى وإن كانوا يؤكِّدون ولاءهم السياسيّ، لم يكن واردًا عندهم على الإطلاق أن يحرقوا البخور أمام أحد تماثيل الإمبراطور.

جميع هذه الأسباب، مع أنّها لم تكن واضحة المعالم على الصعيد النظريّ والقانونيّ، ولّدت عند السلطات والشعب انطباعًا بأنّ المسيحيّين هم غرباء في الإمبراطوريّة، وبأنّهم أعداء بالتالي. أَضِف إلى ذلك الإشاعات السارية عن اجتماعاتهم الليليّة - البَيْرَمُونات - حول الوليمة الإفخارستيّة التي كانت تظهر غامضةً لأنّ نظام السرّيّة يحميها: فقد كان الوثنيّون يُسِرُّون بعضهم إلى بعض بأنّ المشتركين في هذه الوليمة يمارسون ربّبًا فاحشة وجرائم طقسيّة، وأنّهم يأكلون فيها جسد طفل مذبوح. فما كان من المسيحيّين، الموصوفين بالملحدين والفجّار والمواطنين الفاسدين، إلّا أن أثاروا على أنفسهم عداء الشعب والسلطات الرومانيّة على السواء.

زمن الاضطهاد

امتدّت الاضطهادات على قرنين ونصف، من السنة ٦٤ إلى ٣١١. ولٰكن لا يجوز أن نتصوَّر أنّ السلطة الرومانية شنَّت، في أثناء تلك الحقبة، حربًا لا هوادة فيها على جميع المسيحيّين في أنحاء الإمبراطوريّة كلّها. فقد أعقبت أزمنةَ التوتّر أوقاتُ هدوء كانت طويلة في بعض الأحيان. وكان من الممكن ألّا يُحدِث وضعٌ خَطِر، في أفريقيا أو في آسية الصغرى مثلًا، أيَّ تأثير في غاليا أو إسبانيا أو إيطاليا. فالكنيسة الناشئة لم تكن على مثال جماعةٍ من المتآمرين، تقتصر حياتهم على اجتماعات ليليّة في سراديب تحت الأرض، بل كانت تظهر في وضح النهار، وسرعان ما امتلكت الجماعاتُ أموالًا ومدافن وكنائس رئيسيّة. أمّا في الإسكندريّة، فكان المسيحيّون يديرون مدرسةً فلسفيّة كبرى. وكثيرًا ما كان انتخاب أحد الأساقفة يؤدّي إلى انطلاق تظاهرات شعبيّة. كذٰلك، كانت المجامع تُعقد غالبًا وكان عدد الأساقفة المشاركين فيها مرتفعًا. ففي عصر القدّيس قبريانُس مثلًا، كانت قرطاجة على موعد سنويّ مع مجمع أو مجمعين في بعض الأحيان. وقد شارك في آخر مجمع سبعة وثمانون أُسقفًا.

وحتّى في عاصمةٍ مزدحمة كقرطاجة، لم يكن معقولًا أن يتجاهل أحد مثلَ تلك الاجتماعات. غير أنّ شرطة الإمبراطوريّة لم تكن تقوم، على ما يبدو، بأيّ شيء لتمنعها، أو على الأقلّ لتوقف الأساقفة المجتمعين. مع أنّ الصيد كان وفيرًا في كلِّ مرّة!

ديانة غير شرعيّة

يبقى أنّ المسيحيّة هي ديانة غير مسموح بها. ولٰكن، أيُّ نصٍّ تشريعيّ أتاح للموظَّفين أن يعاقبوا المسيحيّين بقساوة؟ ليس هناك جواب واضح عن هٰذا السؤال. فقد تحدّث طرطليانُس عن «نظام نيرونيّ» يستهدف المسيحيّة. ولٰكن، يجب أن نفهم أنّ المقصود في هٰذا التعبير هو، على ما يبدو، «ممارسات نيرون»، أوّل مضطهد للمسيحيّين، أكثر ممّا هو «قانون خاصّ صدر في حقّ المسيحيّين». أمّا أُوسابيوس فقد تكلّم على «قانون قديم» ولعلّه قصد النهي عن إكرام آلهةٍ غريبة، الذي ورد في «قوانين شيشرون»، وينصّ هٰذا القانون على ما يلي: «لا يكن لأحدٍ آلهة خاصّة، لا جديدة ولا غريبة، إنْ لم تعترف بها الدولة» (**في القوانين II**، ٨، ١٩).

على أيّ حال، كان يكفي أن يكون المرء مسيحيًّا ليستوجب العقاب، أو الموت في أغلب الأحيان. وقد حاول الكتّاب المدافعون عن المسيحيّة عبثًا أن يحصلوا على إلغاء ذٰلك التشريع الجائر. لٰكنّه ظلّ حبرًا على ورق مدةً طويلة. أمّا في الأزمات، حين كانت الإمبراطوريّة أو أحد الأقطار يلقى صعوبات كبرى، وحين كانوا يشعرون بحاجة إلى البحث عن المذنبين، كان المسيحيّون كباشَ فداء جاهزة. وإن حلّت مصيبة – من هزيمة أو وباء أو جفاف أو غلال غير كافية –، سرعان ما كان الرومان يرون فيها علامةً على غضب الآلهة. فيأخذون في البحث عن الخطأ المُرتكَب حيالهم: وكان «كُفْر» جمهور المسيحيّين يوفّر عليهم عناء الاستفاضة في البحث.

وفي كثير من الأحيان، كان الشعب نفسه يقوم بالمبادرة فيسوق المسيحيّين ليمثلوا أمام القاضي. في بداية الأمر، قام اليهود بدور بارز، على ما يبدو، في تلك الانتفاضات المضادّة للمسيحيّين (كما نراه في وقائع تعذيب بُولِيقَرْبُس مثلًا). وكذٰلك يبدو أنّهم لم يكونوا غرباء عن أوّل اضطهاد شنّه نيرون في ٦٤. وسرعان ما كان الوثنيّون يشاركون في مطاردة المسيحيّين. وقد كتب بِلِينُس الأصغر، حاكم بِيثِينِيَة ما بين ١١٢–١١٣، إلى الإمبراطور، معبّرًا عن حيرته أمام كثرة حالات التبليغ التي تُعرَض عليه. فأجاب طرايانُس بأنّه لا يجوز البحث عن المسيحيّين، بل إنّه يجب أخذ ما يبلَّغ عنه بعين الاعتبار ومعاقبة الوشاة، إذا

تبيَّن أنّ اتّهاماتهم كاذبة. ويَبرز العداءُ الشعبيّ بوجهٍ خاصّ في النصّ الذي يروي مقتل شهداء ليون. «لقد عامَلَنا الناس بضراوة وكأنّهم وحوش» («رسالة كنائس ليون وڤِيِينا إلى كنائس آسية وفريجية»). وفي تولوز، أقدم الشعب الوثنيّ، بتأليب وتحريض من الكهنة، على إعدام الأسقف ساتُرْنِينَس سنة ٢٥٠، من دون المرور بأيّ محاكمة. فبينما هو يسير بمحاذاة معبدٍ وثنيّ متّجهًا إلى حضور حفلة دينيّة، أمسكوا به، وربطوا رجليه بثورٍ معدٍّ للذبيحة. ثم همزوا الثور، فوثب من أعلى المعبد. وتضيف الرواية: «ما إن نزل الدرجات الأُوَل، حتّى تهشَّم رأسه وسال دماغه».

وفي أحيان أخرى، كانت السلطة المركزيّة هي التي تبادر إلى الاضطهادات بإرسالها تعليمات إلى الموظَّفين الإقليميّين تقضي بإرغام المسيحيّين على جحود إيمانهم. وكان هٰذا الأمر يحدث في أوقاتٍ تشهد صعوبات داخليّة أو خارجيّة، حين كان الإمبراطور يسعى إلى استنفار جميع الطاقات الروحيّة في الإمبراطوريّة. وهٰذا ما فعله سپتيمُس ساويرُس ومكسيمِينُس وداقيوس وڤاليريانُس وديوقليتيانُس.

الأباطرة المضطهِدُون

كان نيرون أوَّل إمبراطور يضطهد المسيحيّين، وكان وضعه خاصًّا بعض الشيء. فحين اشتبه الناسُ بأنّه صانع الحرائق التي أتت على عدّة أحياء في رومة، حاول توجيه الغضب الشعبيّ نحو المسيحيّين واتّهمهم بالجرم الذي يُنسَب إليه. ويا له من حلّ!

وبعد فترة هدوء طويلة، قام سپتيمُس ساويرُس، سنة ٢٠٢، بنهي المسيحيّين واليهود على السواء عن الانصراف إلى أيّ دعاية دينيّة، ثمَّ كثّف الاضطهاد. وفي عهده تمَّ استشهاد پِرْپِيتُوا (خالدة) وفِلِيسِيتِه (سعادة)، وقد رواه طرطليانُس.

ومن السنة ٢٣٥ إلى ٢٣٨، أقدم مكسيمِينُس، وهو راعٍ أمّي تراقِيّ أصبح إمبراطورًا، على مطاردة رؤساء الكَنيسة، معتبرًا إيَّاهم مسؤولين عن ديانة تُضعِف الإمبراطوريّة بصرف المنتمين إليها عن الخدمة العسكريّة. وفي الواقع، عانى مسيحيّو قَپدوقِية وحدهم اضطهاد مكسيمينُس، وقد طُبِّق بصرامة على يد حاكم يسيء الظنّ فيهم.

ومنذ أن اعتلى داقِيُوس سدَّة الإمبراطوريّة سنة ٢٥٠، عمل على بعث الاضطهاد. وكان أوّل إمبراطور ينظِّمه في كلّ أنحاء الإمبراطوريّة، فارضًا على كلّ مواطن أن يشارك في تقريب إحدى الذبائح للآلهة. وللتمكّن من مراقبة تنفيذ المرسوم، سلَّم إلى من قرَّب ذبيحة شهادةً (Libellus)، موقَّعة من أحد ممثِّلي السلطة. فصعب على المسيحيّين أن يُفلِتوا من شباك جهاز الشرطة: فكان عدد المسجونين والمعذَّبين والمقتولين ضخمًا، ولا سيّما في الشرق. لٰكنَّ عدد الذين كانوا ينفِّذُون الأمر الإمبراطوريّ كان ضخمًا أيضًا: فهناك **المقرِّبون**، أي أولٰئك الذين انتهى بهم الأمر إلى المشاركة في تقريب إحدى الذبائح. وهناك **المبخِّرون** الذين خرجوا سالمين بإحراقهم حبَّتين أو ثلاث حبّات من البخور أمام أحد الأصنام. وهناك أخيرًا **أصحاب الشهادات** الذين تدبَّروا أمرهم بشراء شهادة مجاملة من أحد الموظَّفين القابلي الرشوة. أمّا المسيحيّون الذين «سقطوا» (Lapsi)، فقد أُثيرت حولهم مشاجرات حادّة داخل الكنيسة. فمِنهم من رغب في إعادة قبولهم في الجماعات، ومنهم من اعتبرهم مفصولين عنها للأبد.

وفي سنة ٢٥١، حلَّ ڤالِيريانُسُ محلّ داقيوس. وكانت الصعوبات الداخليّة والخارجيّة ترهقه، فعاد إلى الهجوم على المسيحيّين بتجديده أمْرَ تقريب الذبائح للآلهة، ولٰكنّه حصر هٰذا الأمر في السلطة الكنسيّة، أي في الأساقفة والكهنة والشمامسة. وقد حكم المرسوم الصادر سنة ٢٥٧ على العصاة بالنفي، وحكم عليهم مرسوم سنة ٢٥٨ بالموت. فقد نُفي قبريانُس، أسقف قرطاجة، إلى قُورُوبيس أوّلًا، ثمّ استُشهد. وفي الوقت نفسه، سعى ڤاليريانُس إلى تعويم خزائن الدولة عن

طريق التهجّم على المسيحيّين الأثرياء: فحكم على أعضاء مجلس الشيوخ والنبلاء وسيّدات الطبقة الراقية الذين يرفضون تقريب الذبائح بمصادرة أملاكهم أوّلًا، ثمَّ بالموت.

وأعقب ذٰلك مرحلةٌ من الهدوء إلى أن علّق ديوقليتيانُس في ٣٠٣، وبتحريض من غالِيرِيُوس قيصر، مرسومًا عامًّا في نِيقُومِيدِيا يبيح الاضطهاد في الإمبراطورية كلِّها: فأمر بتدمير الكنائس ومصادرة الكتب والآنية المقدَّسة. وكان على المسيحيّين الذين يشغلون وظائف عامّة أن يُقالوا من مناصبهم. وما لبثت هٰذه الإجراءات غير الدمويّة أن تحوّلت إلى اضطهاد دام، في إثر نشوب حريق في القصر نُسب إلى المسيحيّين. وشُنَّت في نيقوميدية حركة قمع عنيفة أدّت إلى سقوط عدد كبير من الشهداء. ثمّ توالت مراسيم أخرى جاءَت لتعزِّز المرسوم الأوّل، وقضت بسجن الإكليرُس وإلزام كلِّ مواطن بتقريب الذبائح للآلهة القوميّة والحكم على كلِّ من يرفض ذٰلك بالعمل في المناجم وبالموت. وفي الغرب، حيث كان قسطنسيوس كلور، والد قسطنطين، حاكمًا، نجا المسيحيّون في الواقع من هٰذه الإجراءات. أمّا المسيحيّون الشرقيّون فقد قدَّموا عددًا كبيرًا من الشهداء. حتى إنّ المؤرِّخ أوسابيوس القيصريّ، وهو أحد الشهود على الأحداث، تحدَّث للمرة الأُولى عن أعمال إعدام جماعيّ. وقد وصف في كتابه **شهداء فلسطين** العذابات الوحشيّة التي تعرَّض لها المسيحيّون على يد جهاز الشرطة من أجل حملهم على الانضمام إلى العبادة التقليديّة.

وبعد أن تنازل ديوقليتيانُس عن العرش، واصل خَلَفُه غاليريوس، وقد أصبح أوغسطس، اضطهاد المسحيّين بمؤازرة قيصره مكسيمينُس دايا. وأُحصي ما بين السنة ٣٠٥ و٣١١ عدد كبير من الشهداء في إلِّيرية وآسية الصغرى وسورية ومصر. وبعد أن تعب غاليريوس من المقاومة وروَّعه مرض مبرِّح، على ما يبدو، كما يؤكِّد لَقْطَنْقيوس (Lactance)، وقَّع أخيرًا مرسوم تساهل في نيسان (إبريل) ٣١١، وفي السنة التالية، وانطلاقًا من مِيلانو، تولّى قسطنطين ولِيقِينِيُوس الذي خلف غاليريوس، إحلال السلام في الكنيسة، ووضعا حدًّا نهائيًّا لعصر الاضطهادات.

بقيت المسيحيّة إذًا، طوال قرنين ونصف، عرضةً لهجمات السلطة المتكرِّرة. لا شكَّ في أنّ المسيحيّين الأوّلين لم يقعوا جميعًا ضحايا الاضطهاد، ولٰكنّهم عاشوا جميعًا في القلق. فكان كلّ جيل يواجه في أيّ وقت إمكانيّة الاستشهاد. وقد أتاح الخطرُ للالتزام المسيحيّ أن يكون مثالًا في الجدِّيّة وغذّى الأخوّة في الجماعاتِ، فعاشت في جوّ من البطولة تشهد عليه «مواعظ الحثّ على الاستشهاد» التي وصلت إلينا، كما يشهد عليه تصرّف الشهداء أنفسهم في أثناء المحاكمات أو في أنواع التعذيب التي أُنزلت بهم.

أعمال الشهداء

تُطلعنا **أعمال** الشهداء، وهي مجموعة وثائق في منتهى الوضوح والصحّة، على سير الدعاوى المرفوعة على المسيحيّين. وكما لو كانت المسألة مسألة أدوار فُرضت شبكتها، مع إفساح المجال للممثّلين في أن يطرِّزوا عليها بحريّة، كان الموظَّف الرومانيّ والمتّهم المسيحيّ يتواجهان ويتبادلان الردود. وفي معظم الحالات، كان الاستجواب قصيرًا – نحو عشر دقائق – ويؤدّي إلى الحكم بالإعدام. وكان الحوار عامّةً في منتهى التهذيب. وكان الموظَّف الرومانيّ لا يسعى إلى الحكم على المسيحيّ بقدر ما كان يسعى إلى حمله على إنكار إيمانه. ومن خلال أقوال الحثّ، لا بل المناشدة، التي كان بعض القضاة يوجِّهونها إلى المسيحيّين، برز الإعجاب بقدر ما برزت الشفقة.

سوء تفاهم رهيب

روى مؤلِّف **استشهاد بُولِيقَرْبُس** أنَّ الوالي ناشد جِرمَنيقُس – وهو أحد رفقاء پوليقرپُس – «بأن يُشفق على شبابه». وحين مثل أمامه پُوليقَرپُس، أسقف إزمير الشيخ، «ألحّ عليه ليحمله على إنكار إيمانه. وقال له: «ألا راعيتَ سنَّك» وأشياء أُخرى مماثلة اعتاد القضاة أن يردِّدوها». وفي أثناء التوقيف، سبق لأمير السِلم، وهو يشبه قاضي الصلح، أن عرض على العجوز اقتراحًا فقال له: «ما الضير في أن تقول الربُّ قيصر، وفي أن تقرّب الذبائح وتقوم بما تبقّى لتنقذ حياتك؟». وبقدر ما كان الشعب يُظهر حقدًا وسفالة، عن طريق الوشايات وإطلاق الصرخات، كان الاستجواب يتمّ في جوّ من الاحترام. وهٰذا الفارق في المستوى يذكّرنا غير مرّة بموقف بنطيوس بيلاطس وموقف اليهود في أثناء محاكمة يسوع. وغالبًا ما كان القاضي الرومانيّ يسلم المسيحيّ كَرْهًا إلى التعذيب: قال الوالي أُپِتِمُس الپِرْغاميّ لِپاپِيلُس: «أَشفق على نفسك. يشقّ عليّ أن أعذّبك على هٰذا النحو». كذٰلك أراد الوالي ساتُرنينُس أن يمنح شهداء صِقِيلي (وهي قرية صغيرة في ضواحي تونس الحاليّة) مهلة ثلاثين يومًا للتفكير لكي يعيدهم إلى مشاعرَ أفضل. وأشار كاتب **آلام قبريانُس** إلى أنّ الوالي غالِيرِيُوس مكْسيمُس أصدر الحكم على الأُسقف «آسِفًا»: «كاد ألّا يستطيع الكلام». أمّا في حالة الشهيد فِيلِياس، فقد بلغ الأمر بالوالي قُلقِيانُس، بالتواطؤ مع محامِي فيلياس الذين عيَّنتهم العائلة، إلى التنازلات القصوى حيال المسيحيّ، حتّى إنَّه كان على استعداد لأن يقبلَ كذب المحامي الذي زعم أنّ فيلياس سبق أن قرّب الذبائح، لو لم ينكر الشهيد ذٰلك بسخط. فما كان من كاتب المحكمة والقيِّم إلّا أن ارتموا عند أقدامه وراحوا يتوسّلون إليه أن يُشفق على زوجته وأولاده: إلّا أنّ ڤيلياس ظلَّ على موقفه و«نال» أخيرًا الحكم على نفسه.

وفي بعض الأحيان، كان كلا الطرفين يصل إلى

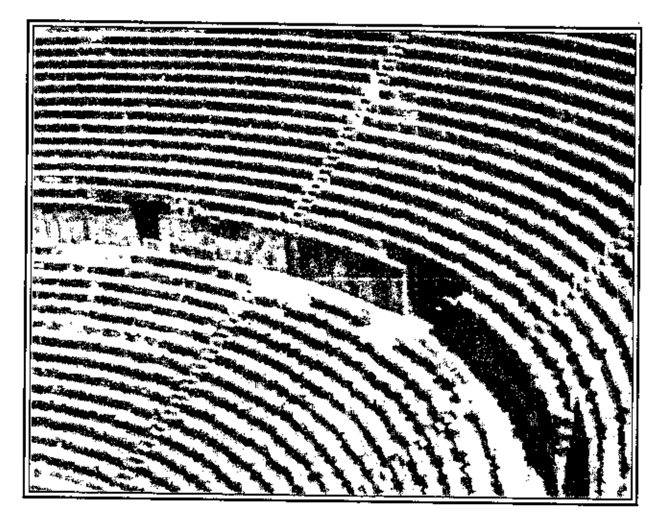


إستشهاد القدّيس پوليقرپس

أقصى حدود التنازلات الممكنة. نعرف من استجواب قبريانُس أنّ مرسوم الإمبراطور ڤالِيرِيانُس لم يطلب من المسيحيّين أن يجحدوا دينهم، بل أن يشاركوا فقط في احتفال وثنيّ، على أن يعودوا بعد الاحتفال إلى إلٰهِهم وعبادتهم. وقد أوضح قبريانُس أنّه لا يمكنه أن يخضع لمثل هٰذا المرسوم، لأنّ ذٰلك يساوي في نظره جحودَ الدين، غير أنّه مستعدّ لأن يصلّي إلى إلٰهه بكلّ طيبة خاطر من أجل خلاص الإمبراطور والإمبراطوريّة على السواء.

يبدو إذًا أنّ الاضطهادات كانت نتيجة سوء تفاهم رهيب، باستثناء ما كان من أمر بعض المتعصّبين من الفريقين. وممّا يؤسَف له أنّ سوء التفاهم هٰذا أدّى إلى نتائج مأسويّة: فقد قضى ألوف المسيحيّين بأعمال تعذيبٍ مبرِّحة. وتتباين تقديرات المؤرِّخين كثيرًا: فمنهم من يحدِّد مجموع الشهداء بثلاثة آلاف وخمسمائة أو بأربعة آلاف، في حين يتحدَّث غيرهم عن عشرات الألوف. ولا شكّ في أن الحقيقة هي بين الطرفين، مع تعذُّر تحديد رقمٍ دقيق، نظرًا إلى غياب وثائق وافية.

فظاعة التعذيب



مدرَّج رومانيّ

في المقابل، يُمكن وصف أنواع التعذيب بدقّة، لأنّ الوثائق المسيحيّة والوثنيّة على السواء تفيدنا عن التفاصيل كلّها: فلا مجال للمبالغة في وصف فظاعتها. في بعض الأحيان كانت أعمال التعذيب تبدأ منذ التوقيف في السجن: فهناك الضرب بالعصيّ، والجلد والتمديد على المِنصَب. وفي الحالتين الأخيرتين، تُمزَّق أجساد الشهداء تمزيقًا تامًّا، سواء بأحزمة مجَهَّزة بكريات من رصاص أو بأظافر من حديد. كذٰلك حُكِم على عدد كبير من المسيحيّين بالعمل في المناجم، ولا سيّما في عهد اضطهادات ديوقليتيانُس، ومن أجل الحؤول دون هروبهم، كانوا يختمون جباههم بالحديد المُحمَّى. وبالإضافة إلى ذٰلك، أقدم حاكم فلسطين في ٣٠٧ على إحراق أوتار مآبِضهم ليجعلهم عُرجًا. ولٰكن هٰذا التدبير الاحتياطي لم يُجدِ نفعًا، لأنَّ أقدامهم كانت مقيَّدة بسلال قصيرة جدًّا. وفي السنة التالية، أضاف إلى البتر قلع إحدى العينين: فكانت تُفقأ عين المسيحيّ اليمنى بالخنجر ويُكوى الجرح بالحديد المُحمَّى.

أما قطع الرأس فكان أكثر أنواع الموت شرفًا وأقلّها إيلامًا. وكان محفوظًا لذوي المقام الرفيع. في خاتمة كتاب **أعمال** قبريانُس، ورد وصف مبسَّط لقطع رأس الأسقف: «اقتيد قبريانُس إلى ميدان سِكْستُس. وهناك، خلع معطفه ووضع ركبته إلى الأرض وانحنى ليصلّي أمام الله. ثمّ نزع دَلْماسِيَّته وسلَّمها إلى الشمامسة. وراح ينتظر الجلّاد، وهو مرتدٍ قميصًا من كتّان. وحين وصل السيّاف، أمر قبريانُسُ ذويه بأن يَعُدّوا له خمسًا وعشرين قطعةً ذهبيّة. ثم مدَّ الإخوة أغطيةً ومناشف أمامه. وبعد ذٰلك، عصب الطوباويّ قبريانس عينيه هو نفسه. ولمّا تعذَّر عليه أن يوثق يديه، أوثقهما كاهنٌ وشدياقٌ اسم كلٍّ منهما يوليانُس. وهٰكذا كانت آلام الطوباويّ قبريانس». وهٰذا الوقار السامي الذي تميَّز به موت الأسقف أدّى مباشرةً إلى الإكرام الذي أحاط به المسيحيّون جثمانه وذكراه. أمّا التعذيب نفسه، فغاب حتّى ذِكرُه.

كان الإعدام حرقًا يفسح المجال بوجهٍ عامّ أمام نوع من العرض المسرحيّ. فكانت المحرقة تُنصب في وسط الملعب أو المدرّج، ويوثَق المحكوم عليه إلى عمود أو يُسمَّر عليه. ثمّ تتصاعد النيران وسرعان ما تضع حدًّا لعذابات الشهيد. فپوليقرپُس مثلًا حُكم عليه بالموت حرقًا، وقد نُقل خبر استشهاده على النحو التالي: «أُوثق پوليقرپس إلى العمود ويداه خلف ظهره، فكان يبدو حَمَلًا ممتازًا... ثمّ أشعل رجال المحرقة النار، فتصاعدت ألسنتها عاليةً وهَّاجة... وارتفع لهيب النار على شكل قبّة أو كشراع تنفخ فيه الريح، وغطّى جسد الشهيد». وفي بعض الأحيان، ولا سيّما في عهد داقيوس وديوقليتيانُس، تحوَّل الإعدام حرقًا إلى أنواع تعذيب متفنَّن فيها: كالكرسيّ والمشواة المحمَّيتين، ومِرْجل الزيت المغليّ والقتل على نار خفيفة. ومن أجل تطويل العذابات، كان يُعمَد إلى إنعاش المحتضَرين المساكِين برشّ المياه الباردة على وجوههم...

وكان إلقاء المسيحيّين إلى الوحوش أكثر أنواع القتل مأسويّةً، وكان يُربط دائمًا بالألعاب. أمّا العرض فكان يتنوَّع بقدر ما توفِّر ذٰلك مخيّلةُ مدير الألعاب أو ذوق الجمهور الذي كان يطالب بمشاهد متجدِّدة. وكان

يُستعان بالأسود والنمور والدببة والخنازير البرّيّة والثيران والبقر الوحشيّ وكلاب الصيد. وغالبًا ما كان الشهداء يُلبَسون لباسًا تنكّريًّا: فكان نيرون يغطّيهم بجلود الحيوانات قبل أن يُفلت الوحوش عليهم. وفي غالب الأحيان، كانت الحيوانات تقتصر على جرح المسيحيّين، فكان أحد غلمان الملعب يجهز عليهم بضربةٍ من سيفه. وهٰذا ما حدث مثلًا في مدرَّج ليون للشابّة بلانْدِين التي ألقاها الثور في الجوّ عدّة مرّات، وفي قرطاجة لساتُورُس الذي جرحه الفهد ولپرپيتُوا وفِلِيسِيتِه اللتين أنهكتهما بقرةٌ هائجة... وإنّ أوسابيوس، الذي غالبًا ما شاهد الأمور بأمّ عينه، قد عدّد في كتابه **شهداء فلسطين** أنواعًا أُخرى من التعذيب عاناها المسيحيّون: فهناك أعمال الإغراق الجماعيّ، والشنق على الشجر، وتوتير الأعضاء، والذبح في السجون...

إنّ هٰذا المقدار من الوحشيّة - وكثيرًا ما كانت بلا سبب - حتّى وإنْ قبلنا بدوافع الدولة المضطهِدة، يحطّ من سمعة الإمبراطوريّة الرومانيّة. فالشغف بالألعاب والغرائزُ الوحشيّة التي كانت المشاهدُ الدامية تولّدها بازدياد لا ينقطع، وخساسةُ الرعاع المنحطّ، بل التعصُّب الدينيّ عند بعض الموظَّفين، والغيظ الذي أثارته فيهم مقاومةُ المسيحيّين التي لا تنثني، كلّ ذٰلك يكشف عمّا لهٰذه الظاهرة من أسباب نفسيّة ولٰكنّه لا يسوّغها.

أمّا المسيحيّون فقد رأوا في الاضطهادات عملًا شيطانيًّا، واعتبروا الاستشهاد صراعًا مع الشيطان. وكان عندهم شعور مرهف بأنّ رهان ذٰلك الصراع يفوقهم: فالمسيح هو الذي فيهم ومن خلالهم يواجه الشرّ. وهٰذا ما يكشف إلى حدٍّ بعيد عن دوافع شجاعتهم الرائعة وهدوئهم وسط الآلام المبرِّحة: فليسوا هم المتألّمين، بل المسيح هو المتألّم فيهم. ومنذ اللحظة التي يبدأ فيها استشهادهم، كانوا يدخلون في جذب فيكفّون عن أن يكونوا أنفسَهم ليجدّدوا آلام يسوع. ولمّا كانت الجماعة المسيحيّة تحتفل ببطولتهم، لم تكن لتنسى أن تنسبها إلى المسيح بصفته مصدرها. ففي القرون الأوائل، لم ينحرف الإكرام الذي خُصّوا به نحو الإشراك، لأنّ الكنيسة، بإكرامها الشهداء، كانت تؤدّي التمجيد لله الذي يصنع الشهداء.

وثيقة
تعذيب پرپيتوا وفِلِيسِيتِه في قرطاجة

للسيّدات الشابّات حُفظت بقرة هائجة.
وقد ألهمَ الشيطانُ الجلّادين أن يحصلوا على ذٰلك الحيوان
غير المألوف في الألعاب، كما لو كان إمعانًا في تحقير جنسهنّ.
حُبستا عاريتَيْن تمامًا في شباك وأُحضرتا على هٰذا النحو إلى الحلبة.
فارتعش الجمهور خجلًا من المشهد، حين رأى أنّ إحداهما في
غاية الهزال، وأنّ الأُخرى تكاد أن تنهض من الولادة،
والحليب يسيل من ثدييها. فاستُرجعتا وأُلبستا قمصانًا بلا حزام.
كانت پرپيتوا أوّل من أُلقي في الجوّ، فوقعت على كليتيها.
وما إن تمكّنت من الجلوس، حتّى اكتشفت أنّ ثوبها
تمزّق من جانبه، فسارعت إلى شدّه لتغطّي
ساقَيها، إذ كان اهتمامها بالاحتشام أكبر من اهتمامها بالأوجاع.

ثمّ أخرجت دبّوسًا وربطت شعرها بعد أن انفكّت خُصَلُه:
لأنّه لا يمكن للشهيدة أن تموت وشعرها مشعَّث،
لكي لا تبدو وكأنَّها في حالة حداد يوم تمجيدها.
ثمّ نهضت ورأت فِيليسيته وهي تبدو مهشَّمة،
فاقتربت منها ومدّت إليها يدها وساعدتها على النهوض.
وحين رآهما الجمهور وهما واقفتان، انهزمت قساوته الوحشيّة:
فأُخرِجتا من باب الأحياء.

(أعمال الشهداء)

الفصل الرابع

طرطُليانُس سائح تائه في البحث عن المطلق

بقلم جاكلين ڤِييه(*)

كان الكاهن القرطاجيّ طرطليانس أحد مفكّري عصره النوابغ، ومعلّم قبريانُس. وقد أنار الكنيسة قبل أن يبتعد عنها.



طرطليانس

نعرف المؤلَّفات ولا نعرف صاحبها. ومع ذٰلك، ما أشدّ ميلنا إلى أن نرسم لكُوينتُس سِبتِيمُس فلُورنْس طرطليانُس، ذٰلك الكاتب المجادل المرهوب وأحد آباء الكنيسة والهرطوقيّ، صورة شخصيّة على هامش كتاباته... ولٰكن لن تساعدنا أيُّ بطاقة شخصيّة على تحديد ملامح تلك الصورة. فالمعطيات الخاصّة بسيرته قليلة وغالبًا ما كانت موضوع نزاع. إنّنا «نتخيّل» طرطليانُس، ولٰكنّه يظهر دائمًا بمظهره الجانبيّ.

وُلد طرطليانُس في قرطاجة حوالى السنة ١٥٠ أو ١٦٠. وربّما كان ابن أحد الضبّاط، وقد تلقّى تربية متينة. كان يتقن اليونانيّة واللاتينيّة على السواء، وهو أمر خاصّ بالمثقّفين في قرطاجة. وكانت تنشئته قانونيّة، غير أنّ الفلسفة كانت مألوفة لديه، فتدرّب على فنّ الكتابة كما كان الآخرون يتدرّبون على استخدام الأسلحة.

كان طرطليانُس وثنيّ المولد والثقافة وعاش بين الوثنيّين، وقد ذكّرهم بذٰلك بلا مواربة حين قال: «مرّ وقت كنّا نهزأ فيه، مثلكم، بهٰذه الحقائق. لقد خرجنا من صفوفكم. فالمرء لا يولد مسيحيًّا، بل يصبح مسيحيًّا». (**الدفاع عن الدين** ١٨، ٤). لقد اهتدى

(*) Jacqueline Vier.

طرطليانُس إذًا إلى المسيحيّة، ولٰكنّنا نجهل الوقت الذي حصل فيه الاهتداء أو الأسباب التي دعته إليه... ونعرف أنّه تزوّج، ولٰكن هل اختير ليكون كاهنًا؟ تختلف آراء المؤرّخين في هٰذا الشأن. وعلى أيّ حال يصعب علينا أن نتخيّل وضعه والمسؤوليّات التي اضطلع بها في إطار الجماعة المسيحيّة. غير أنّنا لا نشكّ في أنّه عرف أن يجد فيها مكانًا على مستواه، ألا وهو مكان المناضل: ومؤلّفاته بأكملها هي دليل على هذا الأمر. ولٰكنّ المؤرّخ يصطدم بالسرّ هنا أيضًا: فقد اجتاز طرطليانس سالمًا - ولٰكن لماذا وفي أيّ ظروف؟ - الاضطهادات التي حصدت المسيحيّين عدّة مرات في قرطاجة.

لاهوتيّ المعترك

دخل طرطليانُس الكنيسة باسم الإيمان، وباسم الإيمان أيضًا دخل الآداب. وكان دخوله الثاني صاخبًا.

أولم تفرض قساوة الظروف ذلك؟ ففي سنة ١٩٧ كانت السجون القرطاجيّة تعجّ بالمسيحيّين. وما كان من طرطليانُس إلّا أن توجّه إلى الوثنيّين - أو بالأحرى تهجّم عليهم. فكتب أوّلًا مؤلّفه **إلى الأمم**، ثمّ تحفته **الدفاع عن الدين**.

لم يكن هٰذا الهدف ولا هٰذا الفنّ الأدبيّ جديدَين: فالمقصود كان الدفاع عن المسيحيّة في وجه الانتقادات والافتراءات. ولكنّ الطريقة كانت ثوريّة: عند ذٰلك القانونيّ المتمرّس بالجدل، تحوّل الدفاع إلى اتّهام. فندّد بالوثنيّين لكي يدافع عن المسيحيّين بوجهٍ أفضل، مستمدًّا حججه القانونيّة من الشرع الرومانيّ وحججه الفكريّة من ثقافته الفلسفيّة والأدبيّة.

كان طرطليانُس مسيحيًّا، ولٰكنّه لم يخن ثقافته الوثنيّة، بل أدخلها طوعًا أو كرهًا في إيمانه. وكان فضلها عليه أكبر من أن يطأها بقدميه، ولٰكنّ عصره وطبعه دفعاه إل إصدار أحكامٍ مفرطة وإدانات نهائيّة: «أيّ شركة بين أثينة وأورشليم، وبين الأكاديميّة والكنيسة، وبين الهراطقة والمسيحيّين؟».

إنّ تصلّب طرطليانُس هنا هو تصلُّب المقاتلين. فهو يرفض التواطؤ حتّى مع عقول غيره من الباحثين المسيحيّين، ويقول: «بئس أولٰئك الذين اخترعوا مسيحيّةً رواقيّة أو أفلاطونيّة أو جدليّة...» (**توصيات للردّ على كلّ البدع VII**، ٩-١١).

وكان يستفيد من أيّ فرصة للتنديد بالفلاسفة، وقد قال إنّهم «آباء الهراطقة». وهٰذا الموقف، تبنّاه كثير من المتطرّفين في كلّ العصور. لٰكنّنا نعذر طرطليانُس فنضيف أنّ الخلط في الأديان والمزج بين التعاليم والتوفيق بين المذاهب كانت أمورًا رائجة في نهاية القرن الثاني، وأنّ طرطليانس كان يحرص على أن يحفظ سلامة الدين المسيحيّ، مهما كلّفه الثمن. وهٰذا ما دفعه على كلّ حال إلى صياغة عقائد إيمانه صياغةً لامعة، مستخدمًا عبارات جعلت منه أحد أوائل آباء الكنيسة. وكان تعليمه عن الثالوث وأبحاثه في طبيعة المسيح الإلٰهيّة من بين الوثائق الأساسيّة التي استند إليها الآباء المشاركون في مجمع نيقية.

سلطان المطلق

كان طرطليانُس لاهوتيّ المعترَك، وكان كاتبًا أخلاقيًّا أيضًا. وقد تميّز بالتزمُّت والمبالغة في الدقّة، فأَولى الحياةَ اليوميّة بالغ الأهمّيّة، منصرفًا إلى دقائق الأمور على نحوٍ لا يعرف الفتور، حتّى إنّه بلغ اهتمامه الزوجيّ إلى إهداء زوجته كتيّبًا عن آداب السلوك. وراقب طرطليانُس أمورًا كثيرة أثارت استنكاره، فأوحت إليه بالعديد من المقالات التوجيهيّة والإرشادات والنصائح في مختلف الموضوعات. وكان دافعه الوحيد إلى ذٰلك رغبته الجامحة في حمل الشعب المسيحيّ كلّه على السير معه نحو الكمال... ولٰكن، على ممرّ أيّام حياته، اشتدّ فيه دوار ذٰلك الكمال الصعب المنال، وبلغ الأمر به إلى الانفصال عن

الكنيسة الكاثوليكيّة لأنّها، في نظره، شديدة التعلُّق بالغذاء الأرضيّ. وكان قد تأثّر منذ سنة ٢٠٧ بالمونطانيّين (وهم أتباع الكاهن الوثنيّ مونطانُس الذي ادَّعى أنّه صوت الروح القدس) ثمّ ما لبث أن انضمَّ إليهم. تأكّلته المرارة، فانكبّ على مطاردة الشرّ واستسلم لرؤى الكون الجلّيانيّة.

كتب طرطليانس: «أنّ انتصار الشرّ في تزايدٍ دائم، وهٰذا ما ينبئ بنهاية العالم. ولا يمكن للخير أن يولَد بعد اليوم، من شدّة فساد البذور، ولا أن ينمو من شدّة ترك العملِ، ولا أن يُفرَض من شدّة عزل العدل...» (**في الحياء ١**).

وقد نصَّب نفسه متخصّصًا بالخطيئة ومفتِّشًا في تدهور النفس، فسخر من رجاء الخاطئ، وفي مقابل الأخطاء التي تُغتفَر، عرض الجرائم التي لا يُعفى عنها وهي عبادة الأوثان والقتل والفجور...

بذٰلك يبدو أنّ طرطليانس، بعد أن نجا من اضطهادات الإمبراطور، لم يعرف كيف ينجو من التعذيب الذي أنزله هو بنفسه بسبب حاجته إلى الإفراط. وقد أرغمه اختياره المتواصل للتطرّف على قطع اتّصاله بالمونطانيّين. كان سائحًا تائهًا في البحث عن المطلق، وانتهى به الأمر إلى تأسيس شيعة خاصّة به.

وأخيرًا، هل يخطر ببالنا أن نرسم له صورة محامٍ من خلال مقالاته الدفاعيّة المستميتة - ومن خلالها فقط؟ لقد كتب طرطليانُس كلامًا لاذعًا، ولٰكنّ أقسى أنواع الكلام يمكنه أن يخفي إحساسًا سريعَ التأثّر وطيبةً عفويّةً بقيا في السرّ بسبب الضرورة... ولعلّ ذٰلك ما كان وراء الحكم الذي أدلى به بُوسُوِييه، وفيه يغلب الاحترام على التحفّظ:

«إنّ الكاهن القرطاجيّ طرطليانُس أنار الكنيسة بكتاباته، وتركها أخيرًا بسبب قساوته المتشامخة». (بوسوييه، **مقالة في التاريخ العالميّ**).

الفصل الخامس

قِبْريانُس بابا أفريقيا

بقلم إلْيان غُونْدِينِه(*)

الكنيسة واحدة حول أسقفها ولٰكنّ الشركة مع رومة ضرورة قصوى. كان قبريانُس بطلَ تلك الوحدة المزدوجة طوال أسقفيّة مضطربة تُوّجت بالاستشهاد.

من كان قبريانُس القرطاجيّ؟ كان لاتينيًّا وأرستقراطيًّا ومفكِّرًا. وهي ثلاث صفات لا بدّ من أخذها بالاعتبار في منتصف القرن الثاني هٰذا، لأنّها تعبِّر عن تطوُّر الكنيسة. **لاتينيّ**: فإذا صحّ أنّ المسيحيّة، حتّى ذٰلك الزمن، ظاهرة شرقيّة، فقد تقدَّمت تقدُّمًا ساحقًا نحو الغرب، وازدادت أهمّيّة البلدان الناطقة باللغة اللاتينيّة، بدءًا بأفريقيا. **أرستقراطيّ**: فبعد أن انتشرت الديانة الجديدة بنسبة كبيرة بين العبيد وعامّة الشعب، بلغت الآن طبقات المجتمع الراقية. **مفكِّر**: ففي إمكان الكنيسة، من الآن فصاعدًا، أن تختار قادتها من بين النخبة المفكِّرة في الإمبراطوريّة.

لم يدخل قبريانُس التاريخ إلّا في نهاية ٢٤٨ أو بداية ٢٤٩، حين انتُخِب أُسقفًا على قرطاجة. بيد أنّ هٰذا الأمر لا يشفِي غليلنا: فلئن كنّا نعلم من بُنطيوس الشمّاس الذي كَتب سيرتَه، ومن مراسلاته الشخصيّة، أنّه اهتدى إلى الإيمان المسيحيّ في عنفوان شبابه، إلّا أنّنا نحبّ أن نعرف قليلًا ما كانت عليه حياته قبل ذٰلك الاهتداء.

غير أنَّ حياة قبريانُس الوثنيّ لم تكن لتثير اهتمام بنطيوس، على ما يبدو. فما كان يهمّه هو حياة قبريانُس المسيحيّ التي ابتدأت حين ولد لله في يوم اعتماده. فعلينا إذًا أن نلتقط من هنا وهناك بعض المعلومات التي أفلتت من ريشة قبريانُس حين كان يكتب إلى أصدقائه.

قبريانُس القديم والجديد

من المفترض أن يكون قبريانُس قد وُلد نحو مطلع القرن الثالث في أفريقيا، وفي قرطاجة على الأرجح، لأبوين غنيَّين وثنيَّين. وقد جعلاه يتبع سَيْر الدروس المعتاد إلى أن أصبح «خَطيبًا»، أي أستاذًا في البلاغة والفلسفة بمفهوم اليوم. أمّا حياته الخاصّة فمِن الراجح أنّها لم تكن مثاليّة: فهو يعترف في رسالة بعث بها إلى صديقه دوناطُس سنة ٢٤٩ بأنّ العلاقات العاطفيّة العابرة لم تكن غريبةً عنه. وعلى الصعيد المهنيّ، لقي نجاحًا أكيدًا، وحين اهتدى إلى المسيحيّة كان خطيبًا ذائع الصيت. وفي أحد الأيّام، التقى كاهنًا عجوزًا في قرطاجة اسمه قاﭬِيلِيُوس، فوضع الكتاب المقدَّس بين يديه وأطلعه على يسوع المسيح. فأُغوى قبريانُس. ولٰكنَّ ذٰلك لم يتمّ من دون صراع. فقد كان يحبّ حياة العالم المتأنِّقة، وكتب إلى دوناطُس أنّه وجد مشقّةً كبيرة في التخلّي عنها.

مهما يكن من أمر، فقد جعل منه يومُ اعتماده إنسانًا

(*) Eliane Gondinet.


القدّيس قبريانس

آخر، وهو الذي قال: «حين أعادت الولادةُ الثانية الإنسانَ الجديد، إليّ، حَدَثَ انقلابٌ مدهش: إستنارت الشكوك وانهارت الحواجز، واستضاءت الظلمات. وما بدا لي صعبًا في الماضي اتّضح أنّ تحقيقه أمر ممكن، وما كنت أراه مستحيلًا بدا إنجازه ممكنًا (. . .) ذٰلك هو عمل الله: فكلّ ما نستطيع القيام به يأتي من الله» **(الرسالة إلى دوناطُس، ٤)**.

وفي الواقع، لم يقبل المعمَّد الجديد بأنصاف الحلول. فقد قرّر أن يعيش في العفّة ليكرّس قلبه وعقله لله تكريسًا تامًّا. وتخلّى عن الفنون الأدبيّة والشعريّة التي بنت شهرته، حتّى إنّنا لا نجد في كتاباته أيّ استشهاد بكاتب وثنيّ. كما أنّه وزّع على الفقراء الجزء الأكبر من أمواله. وكان مرشداه **الكتاب المقدس** ومؤلَّفات طرطليانُس، علمًا بأنّ قبريانُس لم يذكر اسمه (هل لأنّه رأى من الأفضل ألّا يثير الضجّة حول اسمٍ أصبح متّهمًا بالهرطقة !)، بل كان يدعوه «المعلّم»، وهٰذا ما يكشف مدى التأثير الذي خلّفه طرطليانُس في أفريقيا.

كان اهتداء قبريانُس حدثًا في قرطاجة. ولم يكن في وسع المسيحيّين إلّا أن يفتخروا بمثل ذٰلك المنتمي الجديد: فإلى صفات القائد، كان يجمع ممارسة الفضائل الإنجيليّة. وحين احتاجت المدينة إلى أُسقف، تحوّلت الأنظار تلقائيًّا إليه، والشعب المسيحيّ هو الذي اختاره. مانَع قبريانُس في بادئ الأمر، ووصف بنطيوس الشعب وهو يحاصر المنزل الذي اختبأ فيه، فقال: حُرِست جميع المنافذ وحوصر قبريانُس. فهل يُدلَّى من النافذة كما حصل للقدّيس بولس في دمشق؟ وبعد أن تردّد، تخلّى عن فكرة القيام بما قام به مار بولس وأذعن للهتافات. ها نحن إذًا أمام شخص حديث العهد في الكنيسة وَجَد نفسه كاهنًا وأسقفًا من دون أيّ تمهيد. وقد اعترض بعضهم فقال إنّ ذٰلك جنون، فلا يجوز أن ينادى بحديث التنصّر أسقفًا، وبأولى حجّة إن كان الأمر يتعلّق بكرسيّ قرطاجة وهو أوّل كرسيّ أسقفيّ في كنيسة إفريقيا. ولٰكن، على الرغم من مُعَارضة أولٰئك المسيحيّين (وقد اصطدم قبريانُس بهم طوال خدمته)، وصل إلى الأسقفيّة «بحكم الله وصوت الشعب» (بنطيوس).

كشفت أعماله الأوائل التي قام بها وهو أسقف عن حسّه الإداريّ. فكان يجمع بين الاعتدال والحزم، بصفته رئيسًا يريد أن يكون خادمًا أمانةً للمسيح، ولٰكنّه تمسّك بتعزيز النظام، وهو أمر ضروريّ لوحدة الكنيسة. فلم يعد قبريانُس يحبّ أن يسمع ما يشاع في إفريقيا عن شمامسة يشتمون أساقفتهم، أو عن عذارى يظهرن بهيئات مثيرة، أو عن ممثّلين يعلّمون مهنتهم للأولاد بعد أن تخلّوا عن ممارستها أمانةً للمسيحيّة. وأصلَحَ العادات، من دون تقديم أيّ تنازل، ولٰكنّه سعى إلى إقناع الخاطئين بالتغيير أكثر منه إلى استخدام القمع.

اضطهاد داقيوس

بعد مرور أقلّ من سنة على بدء خدمة الأسقف الجديد، قام داقيوس باضطهاد المسيحيّين. وقد دعا المرسوم الذي أصدره الإمبراطور (في كانون الأوّل (ديسمبر) ٢٤٩ أو كانون الثاني (يناير) ٢٥٠) جميعَ المواطنين إلى تقريب الذبائح للآلهة، وتسلُّم شهادة على تقريب الذبائح. وحلَّت الكارثة. فالكنيسة كانت تتمتّع ببعض السلام منذ سنين كثيرة وقد أصبح لها موارد ومؤسّسات ظاهرة. فبدا أنّ عصر الشهداء قد ولّى. وكان استتباب الأمن قد ضاعف عدد المسيحيّين المهتدين، مع أنّهم كانوا يشعرون بأنّهم غير مستعدّين للبطولة. كان إضطهاد داقيوس قصيفَ رعد في سماء صافية. وهبّت على الكنيسة رياح الهلع. فتدافع الكثير من المسيحيّين المذعورين إلى مبنى الكابيتول، حتّى قَبْل أن يُستَدعوا لتسوية أوضاعهم. وسارعت عائلات بأسرها إلى إعلان ارتدادها: فجرَّ الأعيان عبيدَهم والأزواجُ نساءَهم وأولادهم، حتّى إنّ بعض الكهنة قاموا بتقريب الذبائح للآلهة. وكان الناس ينتظرون دورهم للحصول على الشهادة. أمّا مَنْ كانوا أكثر مهارة، فقد حصلوا عليها مقابل مبلغ من المال وأمّنوا بذٰلك الحمايةَ لأنفسهم.

ولٰكن، ماذا عن قبريانُس؟ كان يعلم بأنّ حياته مهدَّدةٌ بالموت، وكان الوثنيّون مطَّلعين على دوره في «الشيعة المدنّسة القدسيّات»، ويعلمون أنّ أسقف قرطاجة هو «بابا» الكنائس الإفريقيّة (لم يكن هٰذا التعبير مقصورًا في ذٰلك الزمان على أسقف رومة، وكان نحو مائة وخمسين أسقفًا مُناطين بقبريانُس). فكان يُخشى أن يُحدِث غيابه خللًا في تنظيم الكنيسة، فقرَّر أن يلجأ إلى مكان غير بعيد عن قرطاجة ويتجنَّب «أن يفضي الأمر إلى غرق السفينة بعد القضاء على ربّانها»، كما قال في إحدى المناسبات (**الرسالة التاسعة والخمسون إلى قرنيليوس، ٦، ١-٢**). إلّا أنّ بعضهم حكم على هٰذا القرار بقسوة.

وفي قرطاجة قامت المعارضة وقعدت، وفي رومة احتجّ الإكليرُوس: فإنَّ فابيانُس، بابا رومة، قد قُتِل، فحاول بعضهم في رسالةٍ صريحة وجَّهوها إلى قبريانُس أن يُفهِموه أنّ الاستشهاد أكثر مطابقةً لتعاليم الإنجيل من الهرب.

على أيّ حال، استمرّ قبريانُس في قيادة كنيسته عن بُعد مدّة خمسة عشر شهرًا. وتَشهد رسائله على حِسِّه التنظيميّ وعطفه على المؤمنين المُمتحنين، فقد نَقل إلى كنيسته الإدارة الرومانيّة التي اختبرها يوم كان متخصّصًا بالشرع اللاتينيّ، وانشغل فكره على الوضع الماديّ عند المسيحيّين الذين صودرت ممتلكاتهم، ونظَّم زيارات «المعترفين بالإيمان» المُحتَجَزين في السجون، داعيًا إلى توخّي الحذر، فنصح الكهنة والشمامسة بأن يتوجَّهوا مناوبةً إلى السجون لئلّا يثيروا الحرّاس عبثًا. وفي الوقت نفسه، عنَّف كبرياء بعض المعترفين الذين يفخرون بأنّهم قدّموا إيمانهم على حرّيّتهم، فيظنّون أنّ كلَّ شيء مباح لهم في الأمور الأخرى.

مشكلة الجاحدين

وأخيرًا، عاد الهدوء وأُفرِغت السجون. فعاد المسيحيّون «الساقطون» (Lapsi) في الجحود إلى التطلّع نحو الكنيسة. ولٰكن هل يعاد قبولهم فيها؟ استفسر بعضُ الكهنة عن الأمر لدى قبريانُس، وكان هو يريد أن يعود إلى كنيسته مستفيدًا من الهدوء وأن يبتّ المسألة في مدينته بعد استشارة إكليرُسه وشعبه. وهناك مَن كتب إليه بعدم العودة، إذ يمكن لهٰذه العودة أن تُطلِق الاضطهادات ثانية. فأذعن قبريانُس ولٰكنّه رفض أن يتّخذ أيَّ موقف قبل عودته.

أمّا «الساقطون» فلم يُسَرُّوا بالانتظار، بل أظهروا استعجالًا فاضحًا في الحصول على المغفرة. وقد وافقت قلّةُ صبرهم استعجالَ كهنةِ المعارضة، فهم لم يروا أيَّ

ضَير في حلِّ المشكلة بمعزل عن الأسقف، واستعجالَ المعترفين، فقد اعتبروا أنّهم مؤهّلون لسنّ القوانين في الكنيسة. فأعاد الكهنةُ إلى الشركة أولٰئك الساقطين الذين تقدَّموا منهم مُزَوّدين «شهادات السلام» التي سلّمهم المعترفون إيّاها. وباسم الاستحقاقات التي اكتسبها المعترفون بأمانتهم، لم يتردَّدوا في منح تلك الشهادات التي تَطلب السلامَ للجاحد الفلانيّ، أو حتّى «الفلانِ وذويه». فتحوَّل الأمر إلى تجارة الشهادات وإلى إعادة قبول «الساقطين» في الكنيسة من دون أيّ توبة مسبقة.

كان من الطبيعيّ أن يثير هٰذا الموضوع استياءَ قبريانُس. ولٰكنّ وضعه كان دقيقًا. فالمعترفون، بمقاومتهم التعذيب، يتفوّقون على الأُسقف الهارب، وموقفهم المؤيِّد لإعادة القبول الفوريّة يُثقِل كفّة الميزان إلى حدٍّ ما. وفي المقابل، كان من الممكن أن يحتمي أنصار الإدانة التامّة بالموقف المتشدِّد الذي اتّخذه طرطليانُس.

ولمّا كان قبريانُس مُعرَّضًا لأن يتّهمه بعضهم بالقساوة وبعضهم الآخر بالرخاوة، تبنّى موقفًا وسطًا. فرفض رفضًا باتًّا تجارة الشهادات التي تشرِّع الأبواب أمام كلِّ أنواع التجاوزات. وأبدى قبوله بالموافقة على أن يَعهد المعترفون إلى رعاية الأسقف بهٰذا الجاحد المعيَّن باسمه أو ذاك، شرطَ ألّا يَربط هٰذا الدعمُ الأسقفَ وألّا يُعفى الجاحد من التوبة. في جميع الأحوال، لا يمكن إعادة قبول «الساقطين» في الشركة ما دام هناك معترفون منفيّون ومحرومون ممتلكاتهم. وعلى كلّ حال، إن كان الجاحدون يتمسّكون بالمصالحة إلى هٰذا الحدّ، فأمامهم وسيلة في غاية البساطة: ليقدِّموا أنفسهم للاضطهاد وهو ما زال حاضرًا!

كان متوقَّعًا ألّا يرضى الجميع بهٰذه التعليمات. فقد حلّ صيف سنة ٢٥٠ من دون أن يكون إكليرس قرطاجة قد استجاب لرسالة أُسقفه. ولمّا كانت حرارة الصيف تساعد على انتشار الأوبئة، أطلق قبريانُس العنان لقلبه وقدّم تنازلًا: فسمح بأن يُحمَل سلامُ الكنيسة إلى المنازعين المستفيدين من الشهادة حين يُقرّون بأخطائهم للكاهل أو للشمّاس.

لٰكنّ ذٰلك كان غير كافٍ في نظر الكثير من المعترفين. فأقرّوا هم أنفسهم تدابيرَ سلام عامّة وأطلعوا قبريانُس عليها بطريقة لا تخلو من العجرفة. وكان الانشقاق على الأبواب. فتجمّعت المعارضة حول خمسة كهنة انضمّ إليهم لاحقًا الكاهن نوڤاطُس والعلمانيّ فِلِيقِسِّمُس الذي ما لبث أن رقّاه دوناطُس إلى الشماسيّة. ثمّ استمالوا أنصارًا ودعوهم إلى الانفصال عن قبريانُس، فما كان منه إلّا أن حرمهم. وفي الوقت نفسه، نَقل أسقف قرطاجة إلى كنيسة رومة (التي كانت مؤقّتًا بلا رئيس بعد استشهاد البابا فابيانُس) الرسائل المتبادلة في شأن «الساقطين»، وحصل من إكليرُس الكنيسة الأمّ على موافقة بلا تحفّظ، سرعان ما أبلغها إلى الكنيسة الإفريقيّة.

وما إن حلّ فصح سنة ٢٥١ (٢٣ آذار) (مارس) حتّى دقّت ساعة العودة. فبعد مرور بضعة أيّام على الاحتفال بالعيد، عاد قبريانُس إلى قرطاجة وعقد مجمعًا إقليميًّا مع الأساقفة الأفارقة لتحديد الموقف الواجب اتّخاذه من «الساقطين». فالذين اشتروا شهادة تقريب الذبائح، وبفعلهم هٰذا اكتفوا بالكذب، يُغفر لهم إن تابوا توبةً صادقة. أمّا الآخرون فعليهم أن يكفِّروا طوال حياتهم. ولن يُحلّوا إلّا على فراش الموت. وقد أُطلِعت كنيسة رومة، وهي تعاني المشاكل نفسها، على الحلول المقترَحة.

لٰكنّ هٰذه الحلول خُفِّفت صرامتُها في السنة التالية، حين لوَّح المرسوم الذي أصدره الإمبراطور الجديد غالُس، سنة ٢٥٢، بتجدُّد الاضطهاد. فقرَّر المشتركون في مجمع أفريقيا الإقليميّ مصالحةَ «الساقطين» الذين لا ارتياب في توبتهم، لكي يتيحوا لهم أن يتناولوا القربان فيتقوّوا بذٰلك الذي قد يفرض عليهم أن «يعترفوا» به:

«كيف نشجّع هٰؤلاء الضعفاءَ على أن يُهرِقوا دمهم وهم يعترفون باسم المسيح، إن منعنا أولٰئك الذين يحاربون (مِن تناول) دم المسيح؟ وكيف نَعدُّهم ليشربوا كأس الاستشهاد من دون أن نسمح لهم أوّلًا بأن يشتركوا في كأس الربّ ضمن الكنيسة؟» **(الرسالة السابعة والخمسون، ٢، ٢)**.

وحدة الكنيسة

في قرطاجة، انشقّ نوڤاطُس عن الكنيسة. وفي رومة، انشقّ نوڤاطيانُس عنها بمعارضته انتخاب الأسقف قُرنيليوس خلفًا لفابيانُس وبإعلانه أنّ «الساقطين» لا يُغفَر لهم. وتوجَّه نوڤاطُس إلى رومة ليحاول أن يحرِّض النفوس على أسقف قرطاجة، كما حاول نوڤاطيانُس أن يحرِّض إفريقيا على أُسقف رومة. أمّا قبريانُس وقرنيليوس فقد تبادلا رسائل كثيرة واشترك كلٌّ منهما في الدفاع عن الآخر.

وقد تضمَّنت مقالة قصيرة كتبها قبريانُس في المنفى بعنوان **في وحدة الكنيسة الكاثوليكيّة** صفحاتٍ عنيفة ينتقد فيها نوڤاطُس والرؤساء أمثاله، ولٰكنّها تضمّنت أيضًا صفحات تُشيد بتلك الوحدة فتهزّ المشاعر:

«إنّ الكنيسة واحدة... أفصلوا أحد أشعّة الشمس من مصدره المشعّ، فلن يحتمل تجانُسُ النور ذٰلك الانقسام، أو اقتلعوا غصنًا من الشجرة فلن يستطيع الغصن المقطوع أن ينمو، أو أقيموا حاجزًا بين الساقية ومنبعها فتشحّ الساقية المعزولة. هٰذا هو شأن كنيسة الربّ: فهي تغمر الكون بنورها (...)، ونحن نولد من أحشائها ونغتذي بلبنها الحليب ونحيا بروحها». (**في وحدة الكنيسة الكاثوليكية**، ٥).

هل يسعى نوڤاطيانس إلى الحلول محلّ قُرنيليوس بحمله الناس على انتخابه أسقفًا بدلًا منه؟ لن يتساهل معه قِبريانُس أكثر ممّا تساهل مع نوڤاطُس في كنيسته. وقد أُخِذ بعض أصدقاء قبريانُس المقيمين في رومة بكلام نوڤاطيانُس. فكتب إليهم قبريانُس واستحثّهم على العودة إلى الوحدة. ولٰكنّه بعث أوّلًا بهٰذه الرسالة إلى قرنيليوس ليقرِّر هل على الضالّين أن يتلقّوها أم لا. فأُرسِلت الرسالة واقتنع الضالّون.

ولم يكن قرنيليوس يعاني وحده وجود أسقف زائف إلى جانبه. ففي قرطاجة، انتخب فِلِيقِسِّمُس وأنصارُه الأسقفَ فُرتُوناطس مكان قبريانُس. وسافر فِلِيقِسِّمُس بمهمّة إلى رومة. لٰكنّ قرنيليوس أقفل الباب في وجهه، وبعد قليل، شعر «ببعض الخوف» (والعبارة لقبريانُس) من جلبته. فبعث قبريانُس برسالة حزينة إلى بابا رومة يُصلح فيها حقيقة الوقائع، وألحقها برسالة ثانية خالية هٰذه المرّة من القلق. وحين توفّي قرنيليوس منفيًّا بسبب اضطهاد غالُس، سنة ٢٥٣، كانت الصداقة والثقة اللتان تربطان الأسقفين في أوجها. وحين علم أهل قرطاجة بما يحصل في رومة، استعدّوا هم أيضًا للاضطهاد: ولٰكنّ وباءَ الطاعون تفشّى فجأة. ولم يعد للقرطاجيّين اهتمام إلّا بأمر واحد وهو الهرب من العدوى. فرُمِيَ المنازعون في خارج البيوت وتكدّست الجثث في الشوارع، أمّا المسيحيّون فيقول فيهم بنطيوس إنّهم لم يكونوا أشجع من الآخرين. فأثار قبريانُس حميَّتهم مذكِّرًا إيّاهم بما ورد في الإنجيل: على المسيحيّ أن يسعف الآخرين، لا إخوته المسيحيّين وحسب، بل كلّ إنسان، لكي يستحقّ رأفة أبيه الذي في السموات. فسُمِع نداؤه ونُظِّمت أعمال الإغاثة من دون تمييز بين الأديان، وأثار هٰذا الأمر إعجاب عدد كبير من الوثنيّين. ولٰكنّه لم يمنع الآخرين من اتّهام المسيحيّين بالتسبُّب في الطاعون (وكان أسهل تفسير يُعطى حين ينتشر وباء ما أنّ كفرهم يُغضب الآلهة الرومانيّة!). حارب قبريانُس هٰذا الاتّهام مستندًا إلى الكتاب المقدّس وإلى مؤلّفات طرطليانُس. ودعا المسيحيّين الذين رأوا في إصابتهم بالوباء على غرار الوثنيين أمرًا غير طبيعيّ إلى أن يقبلوا الموت على أنّه الدخول في فرح المسيح.

معموديّة الهراطقة

أظهرت قرطاجة ورومة، في قضيّة «الساقطين» اتّحادًا وثيقًا في وجه المنشقّين، فساعدت كلُّ كنيسة شقيقتها الأُخرى. ولٰكن، ماذا لو تباينت الآراء؟

ليس السؤال نظريًّا محضًا. ففي بعض الأحيان، كان بعض التوتّر يرتسم بين كنيسة رومة وسائر الكنائس. وإذا صحّ أنّ الجميع كانوا يعترفون منذ زمن بعيد

بالأوّليّة الفخريّة التي لروما، إلّا أنّ أوّليّتها في السلطة القضائيّة كان موضع نزاع عند سنوح الفرصة. فغالبًا ما كانت الكنائس المنتشرة في مختلف الأقاليم تنزعج من تساهل روما في إعطاء الحقّ لأصحاب الشكاوى المستنجدين بها. وهٰذا ما حصل مثلًا للأسقف الإسبانيّ الجاحد باسِيلِيدِس الذي عزله إكليرُسُه وأعادته روما إلى منصبه من دون أن تُجري التحقيق اللازم. ومن جهةٍ أُخرى، كان الناس يلجأون تلقائيًّا إلى قبريانُس، صاحب المقام الرفيع، طالبين مساندته لموازنة السلطة الرومانيّة. إلّا أن ذٰلك لم يُرضِ إسطفانُس، وهو أسقف على روما منذ سنة ٢٥٤. وقد عملت مسألة معموديّة الهراطقة على تجسيم التوتّر. فإنّ قبريانُس تلقّى، سنة ٢٥٥، رسالةً من شخص يُدعى ماغنُس طرح عليه السؤال التالي: حين يعود المسيحيّون المعمَّدون في شيعة نوڤاطيانُس إلى وحدة الكنيسة، فهل يجب إعادة تعميدهم؟ وبعبارة أخرى، هل يجب أن يُمنَح العماد عن يد كاثوليكيّ لكي يكون صحيحًا؟ لم تكن المسألة جديدة في أفريقيا، فلقد كان موقف طرطليانُس صريحًا في هٰذا الشأن: لا يستطيع الهراطقة أن يمنحوا عمادًا حقيقيًّا. وأضاف ماغنُس: هٰذا صحيح ولٰكنّ نوڤاطيانُس، مع كونه ثائرًا، لم يُتَّهَم بالهرطقة. فماذا لو مَنح العمادَ كما يَمنحه كاهنٌ كاثوليكيّ؟ وماذا لو فَرَض على طالب العماد الإيمانَ نفسه؟

فأجاب قبريانُس أن لا قيمة لعماده. إنّ الكنيسة واحدة، ولٰكنّ وحدتها كانت عند قرنيليوس أو عند نوڤاطيانُس، لا عند الاثنين معًا. وعماد المسيح هو في كنيسة المسيح. فانشقّ نوڤاطيانُس عن قرنيليوس: وهو لا يستطيع أن يعطي ما لا يملكه **(الرسالة التاسعة والستّون إلى ماغنُس)**.

لم يكن ماغنُس وحده منشغلَ البال، إذ إنّ ثمانية عشر أسقفًا من نُومِيدِيا سألوا قبريانُس هل لهم الحقّ في إعادة تعميد أولٰئك الذين قبلوا هٰذا السرّ عند المنشقّين أو الهرطوقيّين. فأيّدهم في ما يقومون به مجمعٌ ترأّسه أسقف قرطاجة.

ولٰكن، لماذا القلق، أو حتّى المقاومة أحيانًا، نشعر بهما في الرسائل المتبادلة؟ ذٰلك بأنّ موقف قرطاجة يناقِض موقف روما. ففي روما والإسكندريّة، كان الهراطقة والمنشقّون يُصالَحون من دون أن يُعاد تعميدهم. أمّا في أفسس وقرطاجة فكانوا يُعمَّدون ثانيةً.

ومع حلول ربيع سنة ٢٥٦، اجتمع واحد وسبعون أسقفًا في قرطاجة وكرّروا تأييدهم موقف قبريانُس، ثمّ أبلغوا قرارهم إلى إسطفانُس. وأوحت رسالتُهم الحذرة بأنّهم لا ينوون إملاء أيّ قانون عليه، «علمًا بأنّ كلّ أسقف له ملء الحرّيّة في إدارة كنيسته، إلّا في ما يختصّ بأداء الحساب لله عن سلوكه» **(الرسالة الثانية والسبعون)**. وبكلام آخر، ليس ما يهمّ هو التشابه في القرارات، بل الوفاق بين الكنائس الشقيقة.

ومِن ردّ إسطفانس لم يصلنا إلّا مقاطع قليلة ولٰكنّها معبِّرة. فقد طالب، من دون أيّ مراعاة، بالأوّليّة الرومانيّة: إنّ روما لا تعيد منح العماد للهراطقة، ومن اللائق أن يقتدي الجميع بروما تحت طائلة الحرم.

إنزعج قبريانُس كثيرًا من هٰذا الكلام، وفي رسالة بعث بها إلى الأسقف پُومپيُوس **(الرسالة الرابعة والسبعون)**، انتقد انحرافات إسطفانُس انتقادًا عنيفًا، مع أنّه أصرّ على تسميته أخًا، ولٰكنّه ألمح إلى أنّ ضميره سيكون مثقلًا يوم الدينونة إن استمرّ في «ضلاله»! وما كان من أساقفة أفريقيا إلّا أن تبعوا رئيسهم. ففي غرّة أيلول (سبتمبر) سنة ٢٥٦، اجتمع سبعة وثمانون أسقفًا في قرطاجة وأصرّوا على ضرورة إعادة تعميد الهراطقة. وأيّدهم في ذٰلك فِرمِيليانُس أسقف قيصريّة قپّدوقية.

ووراء المواقف المختلفة، ظهر أنّ هناك مفهومَين مختلفين لوحدة الكنيسة: صحيحٌ أنّ قبريانُس وإسطفانُس يريدان وحدة الجسم الأسقفيّ بالاتّحاد بكنيسة روما، ولٰكن الجماعيّة، في نظر قبريانُس، تتيح احترام استقلاليّة الكنائس المحلّيّة، علمًا بأنّ كلّ أسقفٍ مسؤول عن وحدة كنيسته. فالاختلاف أمر ممكن، ولٰكنّه لا يعني فسخ الشركة. أمّا إسطفانُس، فيرى، على العكس، أنّه من واجبِ مختلف الكنائس أن تتقيّد بالممارسة الرومانيّة تحت طائلة الحرم، حين تبدي كنيسته رأيها في أمرٍ مهمّ.

إلى أيّ حدٍّ كانت الأمور ستصل، لو لم يطرأ الاضطهاد الذي شنّه ڤاليريانُس (تمّوز/يوليو ٢٥٧) ولو لم يمت إسطفانُس (٢ آب/أغسطس من السنة نفسها)؟ فالخطر وَضَع حدًّا للخلاف، واستعادت الكنيستان وحدة القلوب مع حفاظهما الموقَّت على الاختلاف في الممارسات. لقد حافظت الكنيسة الإفريقيّة إذًا على ممارستها الخاصّة إلى أن تخلّت عنها من تلقاء نفسها في مجمع آرل سنة ٣١٤ في عهد قسطنطين.

عصر الاستشهاد

ما إن علم والي إفريقيا بمرسوم ڤاليريانُس حتّى استدعى قبريانُس في ٣٠ آب ٢٥٧. وأُنجِز الاستجواب بسرعة. وأعلن قبريانُس إيمانًا لا التباس فيه، فقال: «أنا مسيحيّ وأسقف. لا أعترف بآلهة أُخرى غير الإلٰه الواحد والحقيقيّ، خالق السماء والأرضِ والبحر وكلّ ما فيها. ونحن المسيحيّين، نخدم هٰذا الإلٰه ونتضرَّع إليه نهارًا وليلًا من أجلنا ومن أجل جميع البشر ومن أجل خلاص الأباطرة أنفسهم». ثمّ رفض الإفصاح عن أسماء كهنته، مستندًا ببراعة إلى الشرع الرومانيّ، فقال: «لقد أقرّت قوانينكم بحكمة ومنفعة أنّ الوشاية ممنوعة». وعلى الفور، نُفي إلى مدينة صغيرة في جنوب الرأس الصالح تدعى كُورُوبِيس. ومن المنفى، كان يشجِّع قطيعه المشتَّت بسبب الاضطهاد.

وبعد انقضاء سنة، استدعاه الوالي الجديد غاليريوس مكسيمُس إلى قرطاجة. وسرت إشاعات تقول إنّ الاضطهاد يتفاقم وإنّ مرسومًا جديدًا قد صدر. وأُبلِغ قبريانُس من رومة أنّ الإمبراطور أصدر أمرًا بقتل الأساقفة والكهنة والشمامسة وأنّ أسقف قرطاجة مستهدفٌ شخصيًّا، حتّى إنّ رومة نفسها باتت من دون أسقف، إذ استُشهِد سِكْستُس وأربعة شمامسة في السادس من آب (أغسطس). فكلّف قبريانُس أحد زملائه بأنْ ينبِّه مجمل الأساقفة.

وما إن مضى بعض الوقت، حتّى أبلغ الأسقف بأنّ رجال الشرطة سيحضرون ليصطحبوه إلى مقرّ الوالي في أُوتيكا. غير أنّ قبريانُس أراد أن يعترف بالمسيح في قرطاجة. فاختبأ بانتظار فرصةٍ أفضل.

لم تتأخّر هٰذه الفرصة في الوصول. فقد أُوقِف في منزله يوم الثالث عشر من أيلول (سبتمبر) ٢٥٨، وأمضى الليل عند أحد رجال الشرطة. وعند الصباح، سيق إلى الوالي. وهناك اضطرّ إلى الانتظار قبل المواجهة. كان الجوّ حارًّا والسير متعِبًا، فأخذ قبريانُس يعرق. فقدَّم له أحدُ الجنود، وهو مسيحيّ سابق، ثوبًا جافًّا (هل يكون ذٰلك ليجعل من ثوب الشهيد ذخائر؟). فراح قبريانُس يمانع بشيء من الظرف قائلًا: «إنّنا نستعمل علاجًا لأمراضٍ سنتعافى منها ولا شكّ قبل حلول المساء».

ثمّ ما لبث أن مَثُل أمام الوالي فقال له:

- «أنت ثاسِيُوس قبريانُس؟
- أنا هو.
- أأنت «بابا» تلك الشيعة المدنِّسة القدسيّات؟
- نعم، أنا هو.
- لقد أمر الأباطرة الكُلِّيّو القداسة بأن تُقرِّب الذبائح للآلهة.
- لن أقوم بذٰلك أبدًا.
- فكِّر جيِّدًا.
- إفعَل ما أُمِرتَ به. ففي مثل هٰذه الحالة، لا يجدي التفكير نفعًا».

بعد ذٰلك، عقد الوالي مَشْورة، وبكلّ أسًى وأسف، كما ورد في المحضر الرسميّ الخاصّ بالجلسة، أصدر الحكم التالي: «نأمر بأن يُعدَم ثاسيوس قبريانُس بحدّ السيف». فأجاب قبريانُس: «الشكر لله».

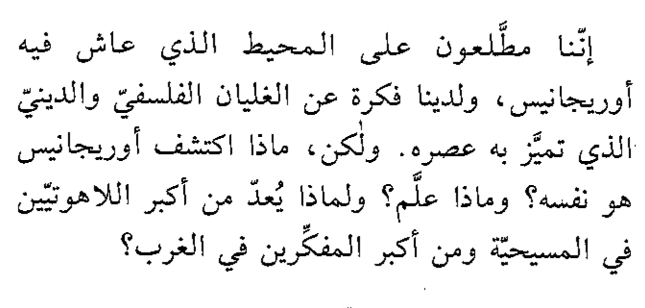
وعلى الأثر، بدأت مسيرة مهيبة. وسيق الأسقف إلى مكان التعذيب، حيث نزع معطفه وركع غارقًا في صلاة طويلة. ثمّ طلب أن يُعطى السيّاف، وقليلون هم الذين يرغبون في القيام بهٰذا الدور، خمسًا وعشرين قطعةً ذهبيّةً. وبعدئذٍ، عصب عينيه وسلَّم نفسه لتُضرَب عنقه. وقد ذكر بنطيوس أنّ السيّاف كان يرتجف. وكان ذٰلك في الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) سنة ٢٥٨.

الفصل السادس

أُوريجانِيس باحثٌ مولعٌ بالحقيقة

بقلم جان پُويُو (*)

لقي أوريجانيس، بين طالبي العماد عن يده، أُناسًا مولَعين بالثقافة، فأصبح من أكبر المفكّرين المسيحيّين وشقّ طرقًا جديدة بجرأةٍ ما زالت تُدهِشنا حتّى اليوم.



إنّنا مطّلعون على المحيط الذي عاش فيه أوريجانيس، ولدينا فكرة عن الغليان الفلسفيّ والدينيّ الذي تميّز به عصره. ولٰكن، ماذا اكتشف أوريجانيس هو نفسه؟ وماذا علّم؟ ولماذا يُعدّ من أكبر اللاهوتيّين في المسيحيّة ومن أكبر المفكّرين في الغرب؟

عقلٌ متعطّش إلى المعرفة

وُلد أوريجانيس في الإسكندريّة سنة ١٨٥ لعائلة ميسورة ومسيحيّة. وتلقّى تربيةً متينة في الشؤون الدنيويّة والدينيّة على السواء. وكان يونانيّ الثقافة، يميل كاليونانيّين إلى المعرفة، وهو يريد أن يعرف كلّ شيء وأن يلمّ بكلّ شيء. فتتلمذ لفلاسفة عصره من أفلاطونيّين ورواقيّين، وجدّ في العمل، تحدوه رغبة في تفهُّم الأشياء. وإذا صحّ أنّ الإنسان كان عظيمًا في عينيه، فلأنّه «صورة» المسيح، كلمةِ الله. والمعرفة هي أن يحقّق المرء تلك «الصورة» فيه، وأن يصبح ابنًا لله. فبفضل العقل يستمدّ الإنسان قَرابتَه من الله.

أَظهرَ أوريجانيس من الجرأة الفكريّة ومن الرغبة في تفسير كلّ شيء ما أدّى به إلى التيه في تفسيراتٍ للعالم وللإنسان في العالم، تبدو لنا اليوم معقّدةً وقليلةَ الفائدة. ولٰكنْ ثمّة أمر أكثر تأثيرًا من النتائج التي توصّل إليها بحثُه، وهو المغامرة التي خاضها ذٰلك العقل الفذّ



أوريجانيس

في سبر أغوار العالم وفي تقصّي الكتاب المقدّس حرفًا حرفًا ليرى وجهَ الله في كلّ شيء ويفهم معنى الحياة البشريّة.

وبكتابه **مقالة في الأصول**، أجاب أوريجانيس عن الأسئلة التي كان يطرحها في الإسكندريّة، حوالى السنة ٢٣٠، مسيحيّون كان لا بدّ لهم أن يَفهموا إيمانهم في وسط تيّارات يهوديّة وغنوصيّة وأفلاطونيّة جديدة. وفي ذٰلك العصر، كانت مجموعتان من الأسئلة تشغل العقول. أولاهما: كيف يمكن اللهَ «الذي لا جسد له»

(*) Jean Puyo.

أن يكون قد خلق الإنسان «الجسديّ» في عالَم مادّيّ؟ وكيف نستطيع أن نعرفَ ذٰلك الله الذي لا جسد له؟ تعلِّم الكنيسة أنّ الله سيكون، عند نهاية الأزمنة، «كلَّ شيء في كلِّ شيء» (**١ قور ١٥/ ٢٨**)، وهي تعني أنّ حضور الله سيحوِّل الإنسان كلَّه، أي جسده ونفسه على السواء. ولٰكن كيف نفهم أن تستطيع المادّة أن تشارك في من هو غير مادّي؟ نرى عَرَضًا أنّنا هنا أمام عدد من أسئلتنا الحاضرة، التي نبحث لها عن أجوبتنا نحن. أمّا أوريجانيس فقد تصدّى للإغراء الذي تسرَّب إليه من بعض التيّارات الأفلاطونيّة، وهي كانت تعلِّم أنّ الأجساد ستزول وتصبح خفيفةً أثيريّة، حتّى إنّها لن تعود أجسادًا. فأكّد أوريجانيس، بعد القدّيس بولس، أنّ الأجساد ستكون «ممجَّدة» و«روحيّة»، ولٰكنّه بدا مُصِرًّا على أنّ المقصود هنا هو نوع من الجسدانيّة.

أمّا المجموعة الثانية من الأسئلة فتتعلّق بمسألة الشرّ، وقد كانت في أساس التعاليم الغنوصيّة. فلم يعد السؤال هنا: «لماذا خلق الله - الروحُ إنسانًا جسديًّا؟»، بل «لماذا خلق الله الرؤوف إنسانًا مُعرَّضًا للشقاء؟». رفض أوريجانيس، بلا شكّ، تمييز الغنوصيّين بين إلٰهين هما الصانع الظالم الذي خلق هٰذا العالم، وأبو يسوع المسيح. فبنى فرضيّةً جريئةً تقول بوجود النفوس السابق، في محاولةٍ لشرح الوضع الحاليّ السائد في العالم. وقال إنّ الله عادلٌ ورؤوفٌ في وقتٍ واحد. فقد خلق جميع الكائنات «عاقلة»، ومتساوية وحرّة، ولٰكنّها لم تبقَ جميعًا مُتَّحِدةً بالله بالقدر نفسِه، ذلك بأنّ حماستَها الأُولى «بردت»، بعد أن «شبعت» من الله، وابتعدت عنه بنِسَبٍ متفاوتة. ولا يَسَعُنا هنا أن نوغل في تفاصيل هٰذا التفسير المعقَّد إلى حدٍّ بعيد، والمستوحَى من فكر أفلاطون، والذي دانته الكنيسة في نهاية الأمر. فالمهمّ هو أن نحفظ من ذٰلك أنّ أوريجانيس عمل على إبراز الحرّيّة البشريّة، وردَّ على الغنوصيّين مؤكّدًا أنّه ما من كائنٍ مدفوع إلى الشرّ «بالطبيعة» - إذ ليس هناك «طبيعة شرّيرة» وبالتالي لا وجود «لإلٰه شرّير» -، وأنّه بقدر ما تشارك المخلوقات، حتّى الأكثر سقوطًا (نَفْس إبليس)، في الكيان، فإنّها تشارك بوجهٍ من الوجوه في الخير. ويُشدِّد أوريجانيس على أنّ الإنسان خُلِقَ «على صورة الله كمثاله» (**تك ١/ ٢٦**). فالحياة البشريّة هي حياة تدريب على الحرّيّة. وفي آخر الأزمنة، حين يتمّ كلّ «التدبير» الذي أعدّه الله لخلاص مخلوقاته، يُمكِن جميع الكائنات أن تُعاد إلى حالة النعيم التي خُلِقَت فيها. ولا يعلم أوريجانيس هل تحتاج طريقة الله التربويّة إلى عدّة عوالم لتُكمل عملها. ولٰكنّه أظهر، في مقابل ذٰلك، تحفّظًا شديدًا في التكهّن بما كانت عليه «بدايات» العالم (على الرغم من نظريّته القائلة بوجود النفوس السابق) وفي تفسير ظروف «النهاية»: فهي موضوعات ستبقى مُغلقةً للأبد على العقل البشريّ. ولنَقُلْها ثانيةً: لقد بنى كلّ نظرته إلى خلاص الإنسان على رأفة الله وعلى قيمة العقل والحرّيّة البشريّة.

تقدّم لا نهاية له

لا بدّ من التشديد على فكرة التقدُّم، وهي غالية على قلب أوريجانيس. فإنّه يقول: في البدء، كانت عبوديّة مصر والشقاء والخطيئة، ثمّ أرسل الله كلمتَه بوساطة موسى ليحرِّر شعبه ويحمله على التقدُّم، إلى أن جاء كمال المسيح. لذٰلك، يعلِّم أوريجانيس في تعليقه على مَثَل «اللؤلؤة الثمينة»، أنّه لا يجوز لنا أن نرفض العهد القديم: فهو تلك المعرفة الأُولى وذٰلك «التجمُّع من الحجارة الكريمة» الذي يسبق العثور على الحجَر الوحيد والكامل الذي هو المسيح.

استند أُوريجانيس إلى معرفة الكتب المقدَّسة، فشجّع جميع المؤمنين، حتّى «أبسَطهم» على التقدُّم في دوافع إيمانهم. ففي البدء، تكون المعرفة ناقصة، ولٰكنّ البحث المتكرِّر، وطلب المعونة الإلٰهيّة التي «تُنير» الحواسّ الباطنة، يمكّنان المؤمن من الطموح إلى المعرفة الكاملة، إلى «العرفان» الحقيقيّ الذي يُحفَظ أمر كشفه التامّ للعالم الآخر. وقد طلب أُوريجانيس إلى

جميع المؤمنين، لا أن «يؤمنوا» وحسب، بل أن «يفهموا» أيضًا، كما أنّه دعاهم إلى «الحكمة»: لا حكمة العالم، بل تلك التي يوحي بها الله.

كتبت مَرغَريت هارل، صاحبة مؤلَّف ضخم استوحينا منه: «إذا كان أوريجانيس قد تصوَّر المعرفة، التي يمكن الإنسان أن يحصل عليها من الله، مسيرةً تدرُّجيّة، فهو لم ينكر أنّ الإنسان لا يُنهي أبدًا اقترابه من الله وأنّه ما من شيء يكون كاملًا قبل انقضاء الدهور. كلُّ شيءٍ كُشِف، ومع ذٰلك ما زال علينا أن نكتشِف كلَّ شيء، والله أَظهر ذاته، ومع ذٰلك ما زال علينا أن نُظهر الله. والمسيح جاء، ومع ذٰلك فهو لا يكفّ أبدًا عن المجيء، والمسيحيّون ما زالوا ينتظرونه[١]».

يا لها من نظرة ديناميّة إلى علاقتنا بالله، نحبّ اليوم أن نعودَ إليها. وهي مدعوّة إلى تقدُّم لا نهاية له. فالموت نفسه لا «يُقرّنا» للأبد في حالة يُستبعَد فيها كلُّ تقدُّم. ونفس الشيطان أيضًا ليست مستقرَّة في الشرّ!

كان أوريجانيس يحلم بمغامرة روحيّة تستمرّ ما وراء الموت، لشدّة إيمانه بلا محدوديّة الله وبدعوة الإنسان إلى المشاركة فيها.

الله يلاقي الإنسان والإنسان يبحث عن الله

لم يُترك الإنسان وقواه الشخصيّة في لقاء الله. فالله يتكيَّف مع الإنسان. وفي هٰذا الأمر أظهر أوريجانيس جرأةً عظيمة إذ لم يكن هناك، في تلك الأيّام، أيُّ تقليد يرخي بثقله على بحث اللاهوتيّين، ولا مجامع تُسمِع دويّ أيِّ حرم أو تُصدر أيَّ تحديد لا بدّ من العود إليه بعد ذٰلك في ضبط النصوص. فقد عبَّر أوريجانيس عن رأيه بحرّيّة تامّة. ولم يخشَ أن يؤكِّد أنّ الله، بتجسُّده، «خفَّف» وهجه لكي لا ينبهر بصرُنا. وليس هٰذا «التخفيف» «إنقاصًا» لطبيعة المسيح، بل هو تكييف لقدرتنا عل استقبال الكلمة بيننا. فهو يُلمّح بطُرقٍ مختلفة إلى أنّنا عاجزون عن تلقّي «يسوع كلّه» (**شرح القدّيس يوحنّا** X، ٨، ٣٦). فلو أظهر الكلمةُ في يسوع كلَّ ما لديه من قدرة لَما استطاع العالَمُ أن يسعَها. لذٰلك سكت يسوع أكثر ممّا تكلَّم. ولم يُظهر وهجه إلّا قليلًا، وحين أظهره - كما حصل في التجلّي - انبهر رسله. فالكلمة صار بشرًا لكي نستطيع أن نستقبله.

ولٰكن، علينا نحن أيضًا أن نبحث عنه. ويطيب لأُوريجانيس أن يشرح على هٰذا النحو نصّ اللقاء الأوّل الذي تمَّ بين يسوع وتلاميذه (**يو ١/ ٢٩**). فيذكر الخطوات التي قام بها تلميذا يوحنّا المعمدان: كانا «يبحثان» عن مكان إقامة يسوع، ثمّ «تبعاه»، ثمّ «رأيا» أين يقيم، ثمّ «أقاما عنده» وأخيرًا «وجدا» ابن الله، الكلمة والحكمة.

ويختم أوريجانيس بهٰذه العبارة: «كلُّ من انطلق من مقدّمة كلام الله ومن صوت ذٰلك الذي يصرخ في البرّيّة (أي يوحنّا المعمدان)، يستمدّ من هٰذا التمهيد سلطانًا لأن يصبح قادرًا على تقبُّل الكلمة الروحيّ، وهو سلطان يُعطى بفضل المعموديّة بالروح» (**شرح القدّيس يوحنّا** VI، ٤٣).

(١) MARGUERITE HARL, *Origène et la fonction révélatrice du Verbe Incarné*, éd. du Seuil, Paris, 1958, page 373

وثيقة

آلام الحبّ

لقد نزل المخلِّص إلى الأرض رحمةً للجنس البشريّ.
وتحمَّل آلامنا قبل أن يتحمَّل الصليب،
وصنع ذٰلك حتّى قبْل أن يتنازل ويتَّخذ جسدنا: لأنّه لو لم
يتحمَّل آلامنا أوّلًا، لَما
أتى ليشاركنا في حياتنا البشريَّة.
ولٰكن، ما هي تلك الآلام التي تحمّلها أوّلًا من أجلنا؟
إنّها آلام الحبّ.
ولٰكنّ الآب نفسه، إلٰه الكون، المملوء
طولَ أناة ورأفةً ورحمة، أفلا يتألّم بوجهٍ من الوجوه؟
أم إنّك تجهل أنّه، حين يهتمّ بشؤون البشر،
يتحمَّل آلامًا بشريّة؟
لأنّ «الربَّ إلٰهك حمَلكَ كما يحمل المرء ولده» **(تث ١/ ٣١)**
فالله يحملنا إذًا، كما يحمل ابن الله آلامنا.
وليس الآب منزَّهًا عن الألم!
إنْ صلّينا إليه، رحِمَ وأشفق. إنّه يتحمّل آلامَ الحبّ...

(أوريجانيس، **مواعظ في حزقيال ٦,٦**)

أين نلتقي الله في أيّامنا؟

إن استنار الإنسان بالروح، استطاع أن يجد الله في كلِّ شيء. لأنّه حاضرٌ في كلّ مكان. وقبل كلّ شيء في العالم المادّيّ، في الكون. والعالم الذي تحدّث عنه أوريجانيس نقيض عالمٍ غير معقول، وتافه. فهو يراه مطبوعًا بعقل الله، والله في خليقته هو على موعد مع الإنسان.

لٰكنّ الله حاضر بوجهٍ خاصّ في الكتب المقدَّسة. كتبتْ مرغريت هارل: «لقد تجسَّد الكلمة الإلٰهيّة في الكتب المقدّسة كما تجسَّد في يسوع الإنسان». ولا يخشى الأب هادُو (Hadot)، مدير الدروس في معهد الدراسات العُليا، أن يؤكِّد ما يلي: «إنّ الكتاب المقدّس، في نظر أوريجانيس، هو أحد أشكال حضور الكلمة في هٰذا العالم، على غرار ناسوت المسيح أو ربّما أكثر منه».

وهٰذه القناعة تشرح لنا لماذا شُغف أوريجانيس في تفحُّص الكتاب المقدّس، كلّ الكتاب المقدَّس بعهديه القديم والجديد على السواء. فالروح لم يُلهِم هٰذا أكثر ممّا ألهمَ ذٰلك، وليس أحدهُما الظلَّ والآخَر النور، بل النظرة التي نُلقيها إلى العالم وإلى الكتاب المقدّس، هي التي قد تكون نظرةَ ظلٍّ أو نور. أمّا أُوريجانيس فكان يلتقي المسيح في الكتاب المقدَّس كما التقى الرسلُ يسوعَ في شخصه الجسديّ. وحين كان يقرأ رسالةً من الكتاب المقدّس، كان يشعر فجأةً في قلبه، كتلميذَي عمّاوس، «بنارٍ» تدلّه على أنّ المسيح حاضرٌ هنا وهو يكلّمه **(لو ٢٤/ ٣٢)**. وإذا تأمّل أوريجانيس في النصوص التي تخبره عن الابن، كان أشبه بالرسل الذين شاهدوا التجلّي: ففي النصّ، وأمام يسوع الإنسان، ومن خلال الحركات والكلمات المذكورة،

كان يكتشف لاهوت الابن الذي يُظهِر له الآب. ولٰكنّ أوريجانيس كان يشدّد على أنّ «القبض على» يسوع مستحيلٌ من دون فعل الروح، فيقول: «وأنت أيضًا، إنْ أردتَ أن تقبض على يسوع وتأخذه بين ذراعيك وتستحقّ أن تخرج من السجن، فاسعَ بكلّ قواك لأن يكون الروح مرشدَك ولأن تأتي إلى هيكل الله، كما فعل سمعان الشيخ» (**شرح لوقا XV**).

في ختام هٰذا الملخَّص الوجيز، حاولنا فقط أن نَلْمَحَ أوريجانيس. وكان جلّ مرادنا أن نُظهِر «الباحثَ» المولع باكتشاف الله. ولو عاش في أيّامنا، لكان على رأس أحد المختبرات في معهدٍ للأبحاث. وفي ذٰلك قال الأب هادو: «كانت تنظيماتُه قبل كلّ شيء نداءات إلى روح البحث الحرّ، وتمارين روحيّة تهدف إلى رفع الروح إلى وجهة نظرٍ أسمى، وحثًّا على الجرأة الفكريّة». فأين لنا أوريجانيس آخر يُطلِق البحث اللاهوتيّ في عصرنا!

ولٰكنّنا لم نكتشف هنا سوى وجه من وجوه تلك الشخصيّة الفذّة. وهو يستحقّ شروحًا أكثر استفاضةً تتيح لنا ألّا نرى فيه باحثًا لا يخلو من المغامرة في بعض الأحيان وحسب، بل «رجل الكنيسة» الراغب في العمل من أجلها وفيها ومعها، - حتّى حين كان يشعر بأنّه يقترح ما لا يزال في فكره فرضيّة ونظرةً موقّتة. ويحسن بنا أن نأخذ بعين الاعتبار، في هٰذا الرسم الأكمل، تطوُّر تفكيره على مدى حياته الطويلة، علمًا بأنّ الأفكار التي رأت فيها الأجيال اللاحقة أنّها أكثر أفكاره مثارًا للنزاع، وردت في كتابه **مقالة في الأصول**، وهو عملُ مبتدئ ما زال في سنّ الشباب. وكنّا نودّ أيضًا أن نتمكّن من التحدّث عن حياته الكهنوتيّة في قلب كنيسةٍ قيصريَّة، وعن دوره، لا أستاذًا للطلّاب المتقدّمين وحسب، بل واعظًا أيضًا، يضع كلّ علمه في خدمة جمهور من المؤمنين البسطاء وفي متناولهم. وكيف لا نتذكّر أخيرًا أنّه مات، إن لم يكن شهيدًا، فعلى الأقلّ من عواقب أعمال التعذيب التي تعرَّض لها، بصفته شاهدًا للمسيح، في أثناء اضطهاد داقيوس؟

الفصل السابع

غاليا المسيحيّة

تبشير يُسرع ببطء

في ذلك الوقت، ابتدأ إعلان البُشرى للغاليّين.
وكانت لِيُون مسيحيَّةً قبل لُوتيسِيا
وهنا تختلط الأسطورة بالتاريخ.

إبتدأ تاريخ كنيسة الغاليّين في لِيون والنّربونيز (مقاطعة نَرْبُون). ولم يكن ذٰلك بالمصادفة. فقد استهوت النربونيز - أو الإقليم، كما كان يسمّيها الرومان - المستعمرين بفضل تعرُّضها للشمس ووقوعها على شاطئ البحر المتوسّط ممّا شجّع الإيطاليين والشرقيّين على الحلول في ربوعها. وكانت التجارة مزدهرةً فيها، وطرق المواصلات متعدّدة، تربطها برومة والشرق، وبالمنشآت التجاريّة أيضًا، المنتشرة على طول نهر الرين. وعلى عكس ذٰلك، كادت أقاليم «غاليا أهل الشعر الطويل»، التابعة لقيصر - أي الإقليم البلجيكيّ والليونيّ والأكيتانيّ - لا تلفت الأنظار. فإنّ «بساطتها المتوحّشة» ما زالت تخيف. ومع ذٰلك، قامت بعض المدن بدور مهمّ في معالم الحضارة الغاليّة - الرومانيّة. وكان هناك الاستثناء، ألا وهي مدينة ليون. كانت ليونِ-فُورڤِيير عاصمة الإقليم الليونيّ الإداريّة والسياسيّة وعاصمة النربونيز قلبًا وقالبًا.

نزل المُرسَلون في النربونيز. فطال التبشيرُ المدنَ أكثر ممّا طال القرى، وتأصّلت الكنائس الأُوَل في المدن النشِطة والمزدهرة، مع تفضيل المدن الجنوبيّة التي كانت تضمّ جاليات أجنبيّة كبرى. غير أنّ شبكة الطرق الموزَّعة في غاليا أصبحت تدريجًا شبكة الطرق التي استخدمها الانتشار المسيحيّ.

ليون عاصمة غاليا المسيحيّة

يرقى عهد أوّل وثيقة محفوظة عن كنيسة الغاليّين إلى سنة ١٧٧. وهي رسالة كتبها مسيحيّو ليون إلى إخوتهم في آسية وفريجية، وقدّمها المؤرّخ أوسابيوس القيصريّ على النحو التالي: «كم من غاليّ مضى بكفاحه في سبيل الدين حتّى النهاية في عهد ڤيروس (Vérus) وبأيّ طريقة!». وبالفعل، تروي هٰذه الرسالة بدقةٍ أنواع الذلّ التي تعرّض لها المسيحيّون والاضطهادات التي عانوها، كما تفيدنا بمعلومات قيّمة عن الجماعة المسيحيّة.

يعود تأسيس كنيسة ليون، بلا شكّ، إلى الخمسينيّات بعد المئة. وكان يرئسها أوّل أسقف على الغاليّين وهو پوتينُس (Pothin) الأسيويّ، والراجح أنّه كان يُشرف أيضًا على عدّة جماعات مسيحيّة صغيرة، لا نعرف منها إلّا قِينًا، ولٰكن من الطبيعيّ أن نُقِرّ، في النَربونيز على الأقلّ، بوجود مجموعات مسيحيّة في مرسيليا وآرل ونيم ونَربون مثلًا.

مات پوتينُس في السجن سنة ١٧٧. فخلفه أحد مواطنيه الناجين من الاضطهاد، وهو الكاهن إيريناوُس. وكان هو أيضًا أسقف الغاليّين الوحيد. ولٰكن، في ظلّ ولايته الأسقفيّة، تكاثرت الجماعات المسيحيّة وبدأت من جهة أخرى، في ذٰلك الوقت، تتخطّى حدود النربونير، ولا سيّما في الاتّجاه الشماليّ الشرقيّ نحو نهر الرين (Rhin). وقد حصل معظم الجماعات المهمّة على أسقف في النصف الأوّل من القرن الثالث (أي بعد وفاة إيريناوس بمدّة غير قصيرة)،

بعد أن كانت متجمّعة بادئ الأمر حول كاهنٍ أو شمّاس. ويمكننا أن نذكر، في النربونير، آرل ونربون وڤيينّا وتُولُوز، وفي بلجيكا، رانس وتريڤ فقط، وفي منطقة باريس الحاليّة لُوتِيسِيا وأُوتُون.

رواج الأساطير السحريّ

ومع ذٰلك، فلا بدّ من الإشارة إلى أنّنا نجهل التواريخ الدقيقة التي تأسّست فيها الكنائس الأسقفيّة. فعدم الدقّة والتفاوت في قيمة المصادر التاريخيّة يفسدان كلّ يقين، نظرًا إلى أنّ الأساطير حلّت بسرعة محلّ تردُّد التاريخ: فأصبح إعلان البشرى في غاليا قصيدةً ملحميّةً كثيرة الحلقات. فمنهم من يتحدّث عن وصول المريمات القدّيسات العجائبيّ إلى مقاطعة پرُوفانس. أمّا المسيحيّون الجنوبيّون والباريسيّون والليمُوزينيّون فلهم مطالب ساذجة ونفعيّة في وقت واحد، فهم لا يقبلون إلّا بأقرباء المسيح أو أصدقاء الرسل كمرسلين إليهم. فنادى أهل مرسيليا بلعازر، صديق يسوع، أوّلَ أسقفٍ عليهم. وزعم آخرون أنّ ترُوفِيمُس، أسقف آرل، كان صديق بطرس الرسول، وأنّ دنيس (ديونيسيوس)، مؤسّس كنيسة باريس، كان معاون بولس الرسول. أمّا مارسيال، أوّل أسقف على لِيمُوج، الذي سبق له أن حمل الأرغفة والأسماك وهو صغير، فقال بعضهم إنّه ليس إلّا ذٰلك الولد الذي ذكره الإنجيل في معجزة تكثير الأرغفة. وقيل إنّ القدّيس فرُونتُس، مؤسّس كنيسة پرِيغُو (Périgeux)، كان تلميذًا سابقًا ليسوع. . . وأمّا «الأساقفة السبعة» وهم غاتِيانُس التُورِيّ، وتروفِيمُس الأرليّ، وبولس النربونيّ، وساتُرنينُس التولوزيّ، ودنيس الباريسيّ، وأُوسْتْرِمْوان الأرڤِرْنيّ (منطقة كِلرمون فِرّان) ومارسيال اللِيمُوجيّ، فقيل إنّهم انطلقوا من رومة سنة ٢٥٠ للتبشير في غاليا. . . فلقد جعلت الأسطورة من الأساقفة السبعة مرسلين من رومة، مع أنّ المرسلَينْ الأوّلَينْ إلى غاليا، وهما پُوتِينُس وإيريناوس، قدما من كنيسة آسية. . . يبقى من المعقول أن تكون كنيسة رومة قد أخذت على عاتقها مهمّة إيفاد المرسلين، بعد أن ازدادت قوّتها في القرن الثالث. صحيحٌ أنّ الأساقفة ليسوا أسطوريّين، ولٰكن من المستبعد أن يكونوا من جيلٍ واحد. أمّا التحدّث عن التزامن في تأسيس كنائسهم السبع فإنّما هو تفسير رمزيّ، ولٰكنّه قد يلقي بعض الأضواء على الواقع: فاعتبارًا من منتصف القرن الثالث، امتدّ تبشير غاليا، التي اقتصرت حتّى ذٰلك الوقت بِلِيون كمركز لها وبالنربونيز كموطن لها، إلى غاليا الكِلتِيَّة (celtique).

أقلّيّة مُنظَّمة

إلّا أنّ ظروف العصر لم تبدُ مؤاتيةً على الإطلاق، بل، على عكس ذٰلك، كانت غزوات البرابرة واندلاع الحرب الأهليّة تُمزِّق أوصال غاليا بالنار والدم. وفي سنة ٢٧٧، طُرد الغزاة إلى خارج الحدود، ولكنَّ عصر الكوابيس والدمار لم ينته. فكانت غاليا، المشلولة بسبب الخوف، تعيش ببطء. ولم تستعِدِ السلام والأمن إلّا اعتبارًا من ٢٩٣ في عهد قسطنسيوس كلور، أحد شركاء ديوقليتيانُس. فقد أظهر قسطنسيوس كلور - خلافًا لديوقليتيانُس - رخاوةً وعطفًا تجاه المسيحيّين، مع احتفاظه بحزمِ رجل الدولة لتسوية الشؤون الإداريّة. أمّا ابنه قسطنطين، الذي خلفه بعد أن استولى على السلطة سنة ٣٠٦، فقد اختاره طريقًا أفضل من مجرّد اتّباع سياسية أبيه. وسنتحدّث عنه مطوّلًا في ما بعد، وإذا أثرنا الآن هٰذا الموضوع، فلأنّ مطلع القرن الرابع هو مَعلَم تاريخيّ في انتشار المسيحيّة في غاليا. ففي السنة ٣١٤، عقد أساقفة الغرب مجمعًا في آرل، وتمثّلت فيه ستّ عشرة كنيسة غاليّة (قد يكون هناك ضعف هٰذا العدد في ذٰلك الوقت. . .)، وقد يبدو هٰذا الأمر مدهشًا لأن المسيحيّين كانوا لا يزالون أقلّيّة صغيرة، بلا شكّ، في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع. ولٰكنّهم كانوا «أقليّة منظّمة» ومؤهّلة بالتالي لبناء مستقبلها.

الفصل الثامن

في تلك الأثناء شرقًا

لم تنتشر الكنيسة نحو الغرب، باتّجاه
إيطاليا وإسبانيا وغاليا وحسب...،
بل مدّت نفوذها حتّى حدود إيران الحاليّة. ولكنّ أخطارًا
كثيرة كانت تتهدّدُها

الإرساليّة المسيحيّة

يروي تقليد قد يكون أسطوريًّا أنّ أوّل إرساليّة مسيحيّة في بلاد ما بين النهرين ولدى الفَرثيّين قام بها الرسولان يعقوب وتوما. والثابت هو أنّ قسمًا من أعضاء الكنيسة المسيحيّة في فلسطين انطلق إلى الشرق بوجه نهائيّ، بعد أن استولى الرومان على أورشليم سنة ٧٠. فمنذ القرن الأوّل، نشأت عدّة جماعات مسيحيّة في سورية العليا، في منطقة الرها وفي الرها نفسها. وبعد ذلك، في نهاية القرن الأوّل، امتدّت المسيحيّة إلى ما وراء نهر دِجلة ووصلت إلى أشور في منطقة نينوى (الموصل حاليًّا). وبقيت هذه المسيحيّة التي يُقال لها سريانيّة، ساميّةً إلى حدّ بعيد، أي متأثّرةً بجذورها اليهوديّة. فقد شدّدت على بعض الممارسات الغذائيّة وعلى الفضائل النسكيّة وعلى البتوليّة. وفي بداية القرن الثالث، كانت في غمرة حيويّتها على كامل أراضي العراق الحاليّ، إذ قامت أكثر من ٢٠ أسقفيّة على ضفاف نهر دجلة وهناك ما يدلّ على وجود المسيحيّين في مِيدِيا وفَرْثِيا وبَكْتريانا (أفغانستان حاليًّا).

ومع ذلك، فسرعان ما قاست الكنيسة السريانيّة مصاعب كثيرة في حمل الإنجيل إلى قلب الإمبراطوريّة الإيرانيّة، لأنّ الحكّام الساسانيّين، الذين قلبوا النظام الفرثيّ سنة ٢٢٤، كانوا يعتبرون المزديّة، وهي ديانةٌ إيرانيّة قديمة أصلحها زرادشت (ربّما في القرن السادس ق.م.)، ديانةً وطنيةً. ومن جهة أُخرى، كان هؤلاء الحكّام خصوم رومة الألدّة، فكانوا يشتبهون بأنّ المسيحيّين يتعاطفون مع «العدوّ التقليديّ». وقد اشتدّت هذه الشبهات، في القرن الرابع، في إثر اهتداء قسطنطين إلى المسيحيّة (٣١٣)، وطوال نحو أربعين سنة (من ٣٤٠ إلى ٣٨٠ تقريبًا) تعرّضت الكنيسة لاضطهاد وحشيّ على كامل الأراضي الإيرانيّة. وفي نهاية القرن الرابع، تبنّى أحد الحكّام الساسانيّين، بعد أن اعتراه القلق من ازدياد قوّة الإكليرس المزديّ، سياسةً أكثر تساهلًا إزاءَ المسيحيّين. ولكن كان على هؤلاء أن يبقوا على مسافة من إمبراطور الشرق الرومانيّ، المقيم في بيزنطية، وأن يُظهروا باستمرار ولاءَهم للسلطة الإيرانيّة. وفي نهاية الأمر، أرغم موقف الحكّام الساسانيّين كنيسةَ إيران على إعلان استقلالها عن الكنيسة الغربيّة سنة ٤٢٤. ومع ذلك، لم تنجُ من اضطهادات جديدة في القرن الخامس.

المزديّة ديانة الدولة

وعلى الصعيد الدينيّ، تميّز العصر الساسانيّ في الواقع بردّة فعل قوميّة معادية للنفوذ الأجنبيّ. ففي القرن الثالث، شهدت إيران على أراضيها تكاثر الديانات المتنافسة والتبشيريّة والتي تدّعي كلُّها الشموليّة. فحاولت البوذيّة أن تتوغّل في شرقِ البلاد، وامتدّت المسيحيّة إلى بلاد ما بين النهرين، وحوالى

٢٤٠، انتشرت ديانة جديدة هي المانويّة، كبقعة الزيت، انطلاقًا من إقليمها الأصليّ بابل. فكان من هٰذا الغليان الدينيّ المميَّز في تاريخ إيران أن حمل الحكّامَ الساسانيّين على تعزيز المزديّة حتّى إنّهم جعلوا منها ديانة الدولة الرسميّة، ودَفَع بالإكليرس المزديّ إلى اضطهاد «الديانات الغريبة». وبالفعل، تحوّلت ديانة زرادشت، اعتبارًا من القرن الثالث، من ديانة طالما رضيت بالعبادات الأشوريّة البابليّة واليهوديّة والمصريّة أو اليونانيّة، إلى ديانة غير متساهلة صراحةً. وقد ظلّت على هٰذه الحال حتّى القرن السادس.

ماني والمانويّة

وفي هٰذا الإطار، نشأت المانويّة وتطوّرت بسرعة مدهشة، وهي عبارة عن تعليم جديد نادى به ماني ما بين ٢٤٠ و٢٧٤. وكانت الديانة الجديدة هٰذه، التي ميّزت ذٰلك العصر، تمزج عناصر مستمدَّة من المزديّة والمسيحيّة على السواء، ومن البوذية أو من «العِرفان». وعلى كلّ حال، ظهرت المانويّة بمظهر عِرفانٍ أو «وحي» موسَّع فقط، على قياس ديانة حقيقيّة. وكان ماني في نظرها نبيًّا مُلْهمًا والسليل الأخير لسلسلة طويلة من المُرسَلين السماويّين المبعوثين إلى البشريّة تباعًا، وأحدثهم عهدًا هم زرادشت وبوذا ويسوع، وكان المنوِّر الأسمى الذي يكشف الحقيقة التامّة للبشريّة ويسير بتعاليم أسلافه إلى تمامها، بدمجها في تعليمه. أمّا وحْيُه فقد علَّم الإنسان طبيعته الحقيقيّة، زاعمًا أنّ الخلق هو نتيجةُ مَزْجٍ غير طبيعيّ وموقّت بين جوهرين، هما الروح والمادّة، كانا منفصلَين قبل السقوط ولا بدّ لهما أن يعودا إلى الانفصال. فكان رفضُه الزواج والإنجاب رفضَ الاشتراك في المزج بين المبادئ ومستوى المادّة، وكان عدمُ القتل تجنُّبَ الضغط على أجزاء الحياة الإلٰهيّة الحاضرة والمتألِّمة في كلّ ما يحيط بنا. وكذٰلك كان عدم التملّك، وعدم الزراعة، والامتناع عن أكل اللحوم وشرب الخمر، تجرُّدًا من العالم وإمساكًا عن نظامه النجس، وعاملًا على انتشال الروح من المادّة والنور من الظلمات. وبذٰلك، تكون المانويّة قد استمدّت من المزديّة الإطار العامّ الذي يحدّد تعليمها وفكرة الصراع الدهريّ والكونيّ بين الخير والشرّ، كمبدأين أخلاقيّين مجسّدين ومرفوعَين إلى حالة مبادئ ميتافيزيقيّة حقيقيّة. تلك هي الثنائيّة.

إنّ فكرة المزج وفكرة السقوط العرضيّ الذي يُغرِق النفس في المادّة ويُنسيها طبيعتها الحقيقيّة، وكذٰلك الفكرة المعاكسة القائلة بالارتفاع من خلال العمل البطيء الذي يقوم به التذكُّر والتجرُّد، لهي أفكار مشتركة بين التيّارات الغنوصيّة كلِّها.

والمانويّة مدينةٌ للبوذيّة بنظريّتها في الانبعاث، أي بالفكرة القائلة بأنّنا، إن استمرَّينا في النجاسة ها هنا في هٰذا العالم، فإنّنا نحكم على أنفسنا بالتولُّد اللامتناهي و«بالانتقال» في سلسلة لا متناهية من الأجساد.

وأخيرًا، استمدّت المانويّة من المسيحيّة فكرة الآلام ووسّعتها على قياس الكون كلّه: فرأت في الكون صليبًا يتحمَّل عليه الروحُ آلامًا طويلة ومبرّحة. ولٰكنّه قُلب معناه: فإذا صحَّ أنّ الإلٰهيّ يَخضع بتجسّده للآلام، فليس ذٰلك دليلًا على رغبته في الالتحاق بالبشريّة، بل بالأحرى إشارة إلى خطأ مأسويّ. والهدف الذي كانت روحانيّة ماني تسعى إليه هو إعادة الإلٰه إلى نفسه وحفظه سالمًا من كلّ «تجسُّد».

وكان من الممكن أن تبقى المانويّة مجرَّد شيعة وحركة سرّيّة مخصَّصة للمتدرّجين، كما هي حال كلّ الحركات الغنوصيّة الأُخَر، لو لم يتنبه ماني ويضع لها بنى، على غرار الكنيسة المسيحيّة في أيّ حال، ولو لم يدوِّن هو نفسه عقائد حركته وطقوسها وأسرارها.

وبذٰلك، اتّخذ النبيُّ المؤسِّس تدابيرَ عمليّة ليكشف «عرفانه» لأكبر عدد ممكن. ومن جهة أُخرى، أدرك ماني أنّ كنيسةً مؤلّفة من الأنقياء وموجَّهة تمامًا إلى ترويض النفس لن تتمكّن أبدًا من الإقامة في العالم، إن لم تعقد بعض الصفقات معه، فميَّز بين نظامين في الكنيسة، ثمَّ سمح بهما، وهما: نظام «الكامل» الذي يقف نفسه كلّها على الجهاد الروحيّ، ونظام «المستمع»

الذي يؤمّن استمرار الكنيسة بعمله وزواجه.

نال ماني حظوةً في أعين الحكّام الساسانيّين الأوّلين (حظوةً لم تدم على كلّ حال)، فجاب الإمبراطوريّة الإيرانيّة في كلّ اتّجاه وبشّر بديانته الجديدة بحرّية تامّة: فوصل إلى شمال غرب الهند (بَلوشِستان)، ونظّم إرساليّات إلى مصر وأفغانستان... ولقد أدّى التحوُّل في موقف الحكّام الإيرانيّين، ابتداءً من ٢٧٤، إلى مقتل النبيّ (أُوقِف ماني وسجن ومات في جنديسابور، عاصمة الأباطرة الساسانيّين، بعد أن عانى العذاب مدّة ستة وعشرين يومًا)، ولٰكنّه لم يوقف انتشار المانويّة. فتغلغلت سريعًا في سورية الرومانيّة، وأحدثت اضطرابات في الإسكندريّة في عهد ديوقليتيانُس (٢٩٧)، واجتازت بلدان أفريقيا الشماليّة. ثمّ وصلت إلى رومة في مطلع القرن الرابع (٣١١) ومن هناك امتدّت إلى يوغوسلاڤيا الحاليّة وغاليا الجنوبيّة وإسبانيا. ومع أنّ المانويّة كانت حاضرة في كلّ مكان، فقد تعرّضت للمقاومة والمطاردة في كلّ أماكن وجودها. أمّا الكنيسة المسيحيّة والدولة الرومانيّة، فقد تساندتا ولم تبرحا حتّى تغلّبتا عليها. وفي السنة ٥٢٧، أمَر يُسطنيانُس بتنفيذ عقوبة الإعدام بحقّ «المتشيّعين». وقد طبّقت السلطات المدنيّة والكنسيّة هٰذا القرار بتصلُّب لا رحمة فيه. فكانت التدابير القمعيّة في منتهى الفعّاليّة، وبعد أن شهدت المانويّة ذروة انتشارها في الغرب في القرن الرابع، اختفت تقريبًا من أوروبّا الغربيّة بعد مرور نحو قرن. ولم تبقَ حتّى أيّامنا إلّا بمشقّة، من خلال تسلسل لا يُعدّ ثابتًا بوجه عامّ، في حركات كالبُوغُومِيل أو الكاتار. ونرى في أيّامنا جماعات «مانويّة محدَثة» تسعى لبعثها، وأنشطها اتّخذ مقرًّا له في أَرْك (Arques) بمحافظة الأُود (فرنسا).

الفصل التاسع

قواعد الإيمان

بقلم أنْدرِه بنُوا(*)

لم تكن قواعد الإيمان قد حُدِّدت في ذٰلك الوقت.
فكانت قوانين الإيمان متعدِّدة، والانحرافات كثيرة.
وفي غليان بحثٍ فكريّ كان أشدّ ممّا شهده أيُّ
عصر آخر، توضَّحت تدريجًا القناعات
الأساسيّة التي ما زال المسيحيّون يعيشون بموجبها في أيّامنا.

في النصف الثاني من القرن الثاني، مرَّت المسيحيّة بأزمة حادّة: لقد أدّى وجود تنوّع كبير في تفسير الإنجيل الأساسيّ، إلى نشأة عدد كبير من التجمّعات المتنافسة بنِسبٍ متفاوتة وإلى نموّها. وكانت هٰذه التجمّعات تتعارض وتتنافى، وتعرِّض بالتالي وجود المسيحيّة نفسها للخطر. وقد دُعي بعضُها مخالفًا للرأي القويم لأنّه ابتَعد عن التعليم المشترَك أو عن الرأي القويم، كما اعتُبِر هرطوقيًّا، لأنّه اختار اختيارًا سيّئًا شُجب في آخر الأمر. وسنستعمل هٰذه الألفاظ، لعدم وجود ما هو أفضل منها، محاولين أن نتحرَّر من الحكم القِيَميّ الذي تفترضه. وإنّه لمن المفيد أن نتعرَّف، ولو بسرعة، إلى تلك التيّارات الكبرى المخالفة للرأي القويم، التي نشأت في القرنين الثاني والثالث، قبل أن ننتقل إلى البحث في التفسير الأكثر تقليدًا أو الأكثر مطابقةً للرأي القويم.

الحركات المخالفة للرأي القويم

يمكننا أن نختصر بثلاثٍ تلك الحركات الكبرى المخالفة للرأي القويم التي حاولت أن تفسِّر الحدثَ يسوعَ المسيح من وجهة نظر لم يقبلها التاريخ اللاحق: وهي الغنُوصيّة والمَرْقِيُونيّة والمونطانيّة.

ولٰكنّه من المناسب، قبل عرضها، أن نُبدي ملاحظةً عامّة. ففي أساس تلك الحركات المخالفة للرأي القويم، سؤال لم يزل يشغل بال البشر: كيف يُمكننا أن نفسِّر وجود العالم الماديّ والألم والشقاء البشريّ؟ إنّه حجر عثرة أمام الناس في كلّ عصر، ولا سيّما إن كانوا متديِّنين. ذٰلك بأنّهم يعجزون عن تصوُّر إلٰهٍ صالح خَلَقَ الشرّ، فيحاولون أن يبتكروا «إلٰهَ شرّ»، إلٰهًا غير كامل أو محدودًا، يكون مسؤولًا عن وجود الشرّ. وسنعود فنرى أنفسَنا، في تلك التيّارات المخالفة للرأي القويم، أمام هٰذا العثار وأمام السعي للتخفيف من حدّته.

العِرفان أو الغنُوصيّة

تعني كلمةُ «غنُوصِيس» اليونانيّة المعرفةَ. والغنوصيّ هو من يقوم بفعلٍ أفضل من الإيمان، فإنّه يَعرف، وهو

(*) André Benoît، عميد كلّيّة اللاهوت البروتستانتيّة في ستراسبورغ.



القدّيس إقليمنضس الإسكندريّ

يعرف لأنّه تلقّى وحيًا. فهو يعْلَم «مَن كُنّا ومَن أصبحنا، أين كنّا وأين أُلقِينا، إلى أيّ هدف نسرع ومِن أين افتُدينا، وما هي الولادة و«الولادة الثانية»» (إقلِيمَنْضُس الإسكندريّ، **مختارات من ثِيودُوطُس** (٧٨، ٢)). وبما أنّ الغنوصيّ «يعرف»، فله نظرات إلى المصير البشريّ أكثر نفاذًا من نظرات سواه. وبالتالي، فإنّه يُحرَّر ويخلص. وحين يتحرَّر من نفسه، يُمكنه أن يلتفت إلى اتّجاهه الحقيقيّ. ولٰكن ماذا يَعلم؟ يعلم أنّ العالم شرّير لأنّه ليس من عمل الله، بل من عمل «صانع» أدنى. وما هو هذا الصانع؟ مِن بين الأنظمة الغنوصيّة كلّها، أتى أحدُها (وهو نظامٌ علّمه ڤالِنتِينُس فأُطلِق عليه اسم الغنوصيّة الڤالنتينيّة) بهٰذا التفسير الذي نورده هنا، لنبيِّن ما في التعاليم الصادرة عن الأنظمة الغنوصيّة من تعقيد.

في رأس هرم الآلهة، إلٰهٌ أعلى، مكوَّن من مبدأ ذَكَريّ ومبدأ أنثويّ هما الآب والفكر. ومن هٰذا الزوج الأوَّل انبثق خمسة عشر زوجًا إلٰهيًّا آخرون يؤلِّفون ثلاثين «أيونًا» ويكوّنون «المجموع». وفي قلب هٰذا المجموع، دارت مأساة: فإنّ الحكمة، وهي آخر الأيونات، أرادت أن تمسك بالآب وأن تَفْهَمه كما يسع الابنُ وحده أن يفعل هٰذا. فنتج عن ذٰلك الفوضى والشرُّ والأهواء. ثمّ طُرِدت العناصر الرديئة من المجموع، لإعادة النظام، فولَّدت الحكمة السفليّة. ثمّ خُلِق زوجٌ جديد هو المسيح والروح القدس المكلَّفان الحفاظَ على النظام والانسجام في المجموع. وحين عاد النظام إلى الألوهة، أوجدت المخلِّص الذي يُدعى يسوع أيضًا. وهو يمارس عمله على الحكمة السفليّة. فمن العناصر المادّيّة التي في تلك الحكمة، خَلق المخلِّصُ المادّةَ غير المنظورة، ومن العناصر النفسيّة، خَلَقَ صانعَ الكون، وهو الخالق الوارد ذكره في سفر التكوين. وقام هٰذا يخلق العالمَ المحسوس والبشر الذين هم إمّا مادّيّون فقط، وإمّا نفسيّون أيضًا. ومع ذٰلك، دخلت عناصر روحيّة، آتية من المجموع، في بعض الأشخاص من دون علم صانع الكون. نحن إذًا أمام ثلاث فئات من البشر: المادّيّون العاجزون عن نيل الخلاص، والروحيّون الواثقون من خلاصهم، والنفسيّون المؤهَّلون للخلاص. أمّا المخلِّص، فبعد أن أخذته الشفقة على العناصر الروحيّة المشتّتة في المادّة، نزل إلى هٰذه الدنيا ليجمعها. ولم يكن في استطاعته أن يأخذ جسدًا مادّيًّا، فاستخدم مظهرًا بشريًّا. وبتبشيره المحرِّر حمل المعرفة التي تُمكِّن العناصرَ الروحيّة من العودة إلى الآب والرجوع إلى المجموع.

لم يَحفظ هٰذا النظامُ إلّا القليل من الكرازة الرسوليّة، باستثناء وجه الخالق ويسوع المخلِّص. ومع ذٰلك، فلا بدّ من الاعتراف بأنّ صورة يسوع هٰذه مشوَّهة إلى حدّ بعيد. لا شكّ في أنّهم يستعملون ألفاظًا ذات نبرة مسيحيّة، كالابن الوحيد، والحقّ، والكنيسة، والمسيح، والروح القدس، ولٰكنّها ألفاظ أُفرِغت من مضمونها اللاهوتيّ والكتابيّ.

نلاحظ إذًا – من خلال ذٰلك التعليم الخاصّ – أنّ هناك فكرًا **ثنائيًّا** في أساس كلّ غنوصيّة، أي إنّهم يَعْزُون وجود الشرّ إلى وجود **إلٰهَين**: إلٰه الخير وإلٰه الشرّ. ويكون الإخراج هو هو في كلّ مرّة: فهناك أساطير لا هدف لها إلّا التحدّث عن مصير النفس، وسقوطها في العالم المادّيّ، وعن نزول المخلِّص الذي أتى لتحريرها، كاشفًا لها حالتها الحقيقيّة، والذي سبَقَها في صعوده عبر أجواء الآراض.

يجوز لنا اليوم أن نستغرب كيف أنّ تفسيرات معقّدة إلى هٰذا الحدّ أثّرت تأثيرًا بالغًا في نساء القرن الثاني ورجاله. إلّا أنّ لذٰلك عدّة أسباب. كان نظام المجتمع في ذٰلك العصر مختلًّا أعظم اختلال؛ ثمّ إنّ الفلسفة

والديانة الهلّينستيّتين اللتين هما، بلا شكّ، في أساس الغنوصيّة المسيحيّة، أثّرتا تأثيرًا كبيرًا في العقول؛ وأخيرًا، اعتبَرت الغنوصيّة نفسَها مسيحيّةً متفوّقة واقتبست الألفاظ وبعض الحقائق - مع أنّها شوّهتها - من الكرازة الرسوليّة.

المَرْقِيُونِيَّة

وُلد مَرْقِيون، ابن أسقفٍ من سِينُوب في بلاد البُنط، حوالى السنة ٨٥. حُرِم أوّلًا في مسقط رأسه، على أثر ظهور ميوله الهرطوقيّة، فراح ينشر تعليمه في آسية الصغرى، ثمّ في رومة حيث رفضته الكنيسة حوالى السنة ١٤٤. لٰكنّه واصل دعايته في بلدان حوض البحر المتوسّط كلّها وأنشأ عدّة جماعات محكمَة التنظيم وبالغة الحيويّة حتّى إنّها نافست الكنائس التقليديّة.

كان التعليم الذي نادى به مرقيون ثمرة تفكير مستفيض في بشارة بولس. فقد تأثّر مرقيون بسلسلة التناقضات التي اكتشفها عند قراءته رسائل بولس: الشريعة والإنجيل، العدل والمحبّة... واعتبر أنّ الإنجيل المبنيّ على المحبّة يتعارض مع العهد القديم المبنيّ على العدل والشريعة. فرفض بالتالي العهد القديم وإلٰهه، ولم يعترف إلّا ببشرى الإنجيل التي هي بشرى إلٰه صالح ومجهول أرسل ابنه عن محبّة إلى العالم ليخلّص البشر.

لم يُنكر مرقيون وجود إلٰه العهد القديم، إلّا أنّه لم يكن في نظره سوى خالق أدنى وجاهل، صنع خليقةً ضعيفة، بلا وقاية، زائلة وعاصية. وقد حاول جادًّا أن يخلّصها باختياره شعبًا وهو إسرائيل، سلّمه الشريعة، ووعده بإرسال مَشِيح، ولٰكن كان ذٰلك من دون جدوى.

أمّا الإنجيل فهو يكشف إلٰهًا **آخر** يجهله «صانعُ الكون الخالق» والبشر، هو الله المحبّة، وهو أشفق على البشر وأرسل إليهم ابنه يسوع ليحرّرهم من نير الشريعة. ولٰكن، حين علم «صانع الكون» بوجود الإلٰه المجهول، اضطهَد ابنه يسوع وسلّمه إلى الموت على الصليب. وقد افتدى هٰذا الموتُ البشريّةَ من «صانع الكون الخالق»، فضلًا عن أنّ الخلاص، وهو ما يزال موضوع رجاء، سيتجلّى في آخر الأزمنة، حين يكشف الإلٰه الصالح ذاتَه كلّيًّا للبشر وَيقبل خاصّتَه في ملكوته.

وأراد مرقيون أن يؤيّد تعليمه، فحاول أن يبنيه على النصوص. وبما أنّه لم يرَ أيَّ فائدة في أسفار العهد القديم، لقدْ راح يجمع النصوص المسيحيّة التي تعود إلى الرسل، وإلى بولس بوجهٍ خاصّ. فاختار عددًا من المؤلّفات كوّنت العهد الجديد الخاصّ به. وحين كان يصطدم بنصوص بولُسيّة تزعجه، كان يدّعي أنّها ليست من الرسول، بل من مسيحيّين من أصل يهوديّ. وعلى كلّ حال، لم يعترف إلّا بعشر رسائل لبولس (رافضًا الرسائل الرعائيّة والرسالة إلى العبرانيّين)، كما أنّه لم يحتفظ إلّا بإنجيل واحد هو إنجيل لوقا، جاعلًا بدايتَه في الآية الحادية والثلاثين من الفصل الرابع، أيّ عند تبشير يسوع في كفرناحوم. وبذٰلك، كان مرقيون أوّل مَن ألّف عهدًا جديدًا.

يبدو واضحًا أنّ المرقيونيّة كانت حركةً ذات تفكير مبتكَر، مع أنّها استمدّت عدّة عناصر من الغنوصيّة، ولا سيّما نظرتها الثنائيّة إلى الله.

المونطانيّة

وفي الستّينيّات أو السبعينيّات بعد المائة، أخذ مونطانُس وامرأتان معه يتنبّأون قائلين إنّ الروح القدس البارقليط قد جاء، وإنّ أورشليم الجديدة ستنزل إلى الأرض لمدّة ألف سنة. فكان لا بدّ من الاستعداد لذٰلك الحدث بترويضٍ صارم للنفس.

وبناء على ذٰلك، كانت عودة المسيح وشيكة، حتّى إنّ بعضهم حدَّد زمانها ومكانها. وكان لا بدّ أن يستعدّ المؤمنون لمجيء الربّ بترويض النفس ترويضًا شديدًا: بالصوم والتعفّف ورفض الزيجات الثانية...

ولٰكنّ العنصر المحرّك في المونطانيّة كان التنبّؤ.

ففي نظر مونطانُس، كان النبيّ إناءَ الروح، وهو الذي يتحدَّث بلسانه ويأتي بالتالي بالوحي النهائيّ. وخلافًا للغنوصيّة والمرقيونيّة، لم تدَّعِ المونطانيّة التجديد عن طريق تفسير الإنجيل تفسيرًا جديدًا، بل ظهرت، على عكس ذٰلك، بمظهر المحافَظة: فقد أرادت أن تذكِّر ببعض قِيَم الماضي المسيحيّ التي كانت، على ما يقولون، مجهولةً أو مُهمَلة. إنّها «حركة توعية»، كالتي عرفتها مختلف العصور في تاريخ الكنيسة، تشبه الحركة المواهبيّة التي نشاهدها في أيّامنا! ففيها نجد الموضوعات نفسها، كالألْفيَّة، وانتظار عودة يسوع بتلهّف... الخ.

ولاقَت المونطانيّة رواجًا عظيمًا. فإنّنا نجدها في نهاية القرن الثاني، لا في الشرق وحسب حيث عمَّقت تأصّلها، بل في الغرب أيضًا، في رومة وليون وأفريقيا.

بحثًا عن تفسير الإنجيل تفسيرًا صحيحًا

لم تدَّعِ جميع الحركات التي درسناها إلّا أن تكون تفسيرًا للإنجيل. وكانت كلُّها تسعى إلى الارتباط بيسوع عن طريق الرسل، فهم يُعتبرون نقطةَ عبور محتومةً للوصول إلى المسيح، حتّى إنّ لفظَي «تقليد» و«خِلافة رسوليّة» وردا للمرّة الأُولى بقلم كتّاب غنوصيّين (رسالة بَطْلِيمُس إلى فلُورِس ٧، ٩).

وإلى جانب هٰذه الحركات، سعت الغالبيّة الساحقة من الجماعات المسيحيّة هي أيضًا لنقل الإنجيل الأصليّ والصحيح، من دون أن تنزلق إلى تفسيرات مخالفة للرأي القويم، كما أنّها استندت إلى سلطة الرسول، علمًا بأنّ المسيح لا يُعرف إلّا عن طريق الرُسل.

لٰكنّ هٰذا الرجوع إلى الرسل لم يكن أمرًا سهلًا، فبرزت رغبة في تعميق فكرة الصفة الرسوليّة: فأيٌّ هو الرجوع السليم أو المخطئ إلى الرسل؟ وأيٌّ هي الرسوليّة الصحيحة أو الزائفة؟ لم يُحفظ إلّا أربعةُ مقاييس أصبحت الأسس اللاهوتيّة التي ارتكز عليها الرأي القويم في القرون التابعة، وهي: الكتب الرسوليّة، والتقليد الرسوليّ، والخلافة الرسوليّة، وقانون الإيمان الرسوليّ.

وثيقة
الإيمان الذي سلّمه الرسل

إنّ الكنيسة، مع أنّها منتشرة في الكون قاطبةً
حتّى أقاصي الأرض،
فقد تسلَّمت من الرسل وتلاميذهم الإيمان بإلٰه واحد،
آبٍ ضابط الكلّ، صانع السماء والأرض والبحار وكلّ ما فيها، وبمسيح واحدٍ
يسوع، ابن الله، الذي تجسَّد من
أجل خلاصنا، وبالروح القدس الواحد...
ذٰلك هو التبشير الذي تسلَّمَتْه الكنيسة، ذٰلك هو الإيمان كما
ذكرنا. ومع أنّها مشتَّتة في العالم كلّه، فهي تحافظ
عليه بعناية وكأنّها تسكن في بيتٍ واحد،
وتُجمِعُ على الإيمان به وكأنّ لها نفسًا واحدة وقلبًا واحدًا.
وباتفاقٍ تامّ، تبشِّر به وتعلِّمه، وتنقله وكأنّ
لها فمًا واحدًا.

(القدّيس إيريناوس، **الردّ على البِدَع** I، ١٠)

الكتُب الرسوليّة

لوحظ في النصف الثاني من القرن الثاني أنّ الكنائس الكبرى أخذت تعترف بعددٍ من الكتب العائدة إلى الرسل كقاعدةٍ للإيمان. وأدخلَتها تدريجًا في مجموعةٍ أخذت مكانها إلى جانب العهد القديم، فظهرت بمظهر العهد الجديد.

ذٰلك بأنّ الأدب المسيحيّ شهد في ذٰلك العصر ازدهارًا واسعًا، وكثُر عدد المؤلَّفات التي ادّعى أصحابها أنّ الرسل كتبوها أو أيّدوها. فكان لا بدّ أن يُعرف أيّ مؤلَّفات، من بين ذٰلك النتاج، تمثِّل الكرازة الرسوليّة الأصليّة. وقد أجاب عن هٰذا التساؤل تكوين العهد الجديد تدريجًا.

ضمّت تلك المجموعة الجديدة، المُعترَف لها بالسلطة الرسوليّة، الأناجيلَ الأربعة، التي أصبحت تقليديّة في ذٰلك الوقت، و**أعمالَ الرسل** ورسائلَ بولس، وهٰذا المؤلَّف أو ذاك، في حال اعتباره رسوليَّ المصدر. وفي بعض الأحيان، كانت الأُطُر غامضةً إلى حدٍّ ما، ولٰكنّ ما هو جوهريّ ضُبِط ضبطًا تامًّا.

وهٰكذا، حدَّدت الكنائس، كلٌّ منها على حدة بلا شكّ، ولٰكن باتّفاق فعليّ ملحوظ، وفي داخل التقليد الذي تعيش منه، ما هو التقليد الرسوليّ المكتوب المثاليّ، أي ما هو التقليد المرجعيّ. وكان ذٰلك حدثًا مهمًّا في تاريخ المسيحيّة، لأنّ وجود الكتب المقدّسة المسيحيّة رَسم حدودًا بين ما يُعترَف بأنّه رسوليّ، بالمعنى التامّ والنموذجيّ، وما هو رسوليّ تقريبًا. وبذٰلك، لم تعد الرسوليّة قياسًا غامضًا ومتحرّكًا، بل حقيقة ثابتة المعالم. فالرجوع إلى العهد الجديد هو معيار كلِّ تبشير مسيحيّ حقيقيّ.

التقليد الرسوليّ

غير أنّ مقياس الرسوليّة يرتبط أيضًا وفي الوقت نفسه بالتقليد الشفويّ. ذٰلك بأنّ الرسل لم يكتفوا بتحرير الإنجيل، بل بشَّروا به أوّلًا وكانوا أوّل مَن استخدَموا نقلًا كُتبت له الديمومة. وقد أضفى إيريناوس قيمةً على هٰذا التقليد الذي انتشر بين الجماعات، لأنّ الكتب المقدّسة وحدها لا تكتفي بنفسها: فالتقليد هو الذي يُثبت أنّها تتضمّن الإنجيل فعلًا. وعلاوةً على ذٰلك، فإنّ التقليد هو الذي يمكّن من تفهّم الكُتُب المقدّسة. إنّه مفتاحها. ولكي تُسمَعَ الشهادة الرسوليّة المكتوبة – أي الكُتُب المقدّسة – وتُفهم فهمًا تامًّا، فإنّها تحتاج إلى الشهادة الرسوليّة الحيّة في الكنيسة، ذٰلك المكان البشريّ الذي يؤمن الناس فيه بإنجيل الرسل ويعيشونه. وفي المقابل، تحتاج الشهادة الرسوليّة الشفويّة إلى أن تستند باستمرار إلى شهادة الرسل المكتوبة لكي تظلّ أمينةً لنفسها. وكان هٰذا الحوار بين نَوعَي التقليد المكتوب والشَفويّ أحد العناصر الأساسيّة التي قام عليها الرأي القويم في القرن الثاني.

الخلافة الرسوليّة

لم تكن مسألة الخلافة الرسوليّة في صلب اهتمامات لاهوتيّي ذٰلك العصر، ولٰكن بدأت تُطرَح نتيجةً طبيعيّة وتبريرًا لتعليم التقليد الرسوليّ. لأنّه كيف نبرهن أنّ التقليد الشفويّ، وبكلام آخر تبشير الكنيسة الحيّ، ذٰلك الإنجيل المُعلَن والحياة العمليّة التي تَنتج عنه، يسير في نهج الرسل؟ وللدلالة على ذٰلك، أخذوا يضعون لوائح بأسماء أساقفة شغلوا الكرسيّ الأسقفيّ في الكنائس منذ أيّام الرسل. ولمّا كانت هٰذه اللوائح علنيّة ومعروفة لدى الجميع، كانوا يستطيعون التحقُّق من أنّ أيًّا من الأساقفة لم يكن هرطوقيًّا، وبالتالي أنّ التقليد الرسوليّ حُفِظ سليمًا منذ البدايات. وعلاوةً على ذٰلك، كان الاتّفاق في التعليم الذي يعلِّمه الأساقفة عند انتهاء كلِّ خلافة

دليلًا إضافيًّا على حفظ التقليد الرسوليّ.

وكان هِجِسِيپُّس (Hégésippe)، على ما نعلم، أوّل مَن سعى لوضع مثل تلك اللوائح، ولا سيّما لكنيسة رومة. ثمّ أكملَ عملَه إيريناوس أسقف ليون. وأراد أن يُثبِت صحّة تقليده في وجه تقليد الهراطقة، فأعلن أنّ في استطاعته أن يعَدِّد تعاقب الأساقفة على جميع الكنائس الكبرى في العالم المسيحيّ.

ولٰكنّ إيريناوس أضاف أنّ مثل هٰذا التعداد قد يكون مُمِلًّا، فيكفي الاقتصار على كنيسة رومة. وبالفعل، كانت لائحة أسماء أساقفتها مثاليّة.

وفي المرحلة الأُولى تلك، بدت فكرة الخلافة الرسوليّة فكرةً تاريخيّة في الأساس: فكان مجرّد التثبّت من أنّ خلافة الأساقفة في إحدى الكنائس خلت من أيّ هرطوقيّ ضمانةٌ للحقيقة، فلا بدّ أن يكون الإنجيل الذي تنقله مطابقًا لإنجيل الرسل.

ومع ظهور إيريناوس، نستطيع أن نشعر بالمنعطف الذي اتّخذته التطوّرات اللاحقة والقائم على تفضيل كنيسة رومة كضمانة للخلافة، وعلى جعلها في آخر الأمر الضامنة الوحيدة لهٰذه الخلافة. وفضلًا عن ذٰلك، نجد عند إيريناوس فقرةً يصعب تفسيرها، وهي تتّجه، على ما يبدو، إلى مفهوم أسراريّ للخلافة. فإنّ الرسامة تَمنح الأسقف موهبةً أكيدة لإعلان الحقيقة (**الردّ على البدع IV**، ٢٦، ٢)، وقد رأى بعضهم فيها ضمانةً فائقة الطبيعة تمكّن من الاستمرار في الخلافة الصحيحة!

جذور قانون الرسل

منذ البدء، حدت الظروف بالمسيحيّين إلى إعلان إيمانهم بصِيَغ بسيطة ومُختصرة، يراد بها التعبير عمّا هو أساسيّ. وكان العماد بوجه خاصّ مناسبةً طبيعيّة لإثبات الإيمان.

وإذا صحّ أنّ شهادة الإيمان كانت في البداية مجرّد إثبات - «نؤمن» -، فسرعان ما تطوّرت وتوسّعت عند قيام أزمة القرن الثاني.

نجد في كتاب إيريناوس عدّة صِيَغ ذات منحًى قانونيّ إيمانيّ قد تكون عناصر شهادة إيمان. والحال أنّ عددًا منها عُرِض على أنّه صادر عن الرسل. كتب إيريناوس يقول: «مع أنّ الكنيسة منتشرة حتّى أقاصي الأرض، فقد تسلّمت من الرسل وتلاميذهم الإيمان بإله واحد، آبٍ ضابط الكلّ صنع السماء والأرض... وبمسيحٍ واحد يسوع، ابن الله، الذي تجسّد من أجل خلاصنا، وبالروح القدس...» (**الردّ على البدَع I**، ١٠، ١). وبذٰلك ظهرت تلك الصيَغ الإيمانيّة وكأنها توجز إيمان الرسل. فنحن هنا أمام جذور التطوّر الذي أدّى إلى الاعتقاد أنّ الرسل هم الذين كتبوا فعلًا قانون الإيمان، وهٰذا ما مكّن من التحدّث عن «قانون إيمان الرسل».

مهما يكن من أمر، فإنّنا نشهد ولادة قاعدةٍ لاهوتيّة جديدة هي قانون الإيمان الرسوليّ المعتبَر أنّه يلخِّص تعليم الرسل.

وبذٰلك، وأمام التحدّيات التي أطلقها تعدُّد التفسيرات المختلفة التي فُسّر بها الإنجيل الأصليّ، انتهى الأمر إلى التوسُّع في موضوع الرسوليّة، كضرورةٍ تضمن تفهّم الحدث المؤسّس للمسيحيّة تفهّمًا صحيحًا.

إيريناوس وخطوات علم اللاهوت الأوَل

كان القدّيس إيريناوس، أسقف ليون، أوّل من استخدم فكرة الرسوليّة بطريقة منطقيّة وأوّل من وضع خلاصةً لاهوتيّة واسعة. وُلد إيريناوس في آسية الصغرى، بأزمير على الأرجح، في الثلاثينيّات أو الأربعينيّات بعد المئة، وكان فيها من سامعي پُولِيقَرپُس. نجده بعد ذٰلك في ليون، في ايّام اضطهاد السنة ١٧٧. وبعد وفاة الأسقف پُوتِينُس، حلَّ مكانه على رأس الكنيسة. كان إيريناوس آسيويًّا بمولده وتربيته الأولى وغربيًّا بنشاطه الذي مارسه في غاليا، فجسّد تلاقي مُحيطَين ونَزْعتَين. وقد وضعته خدمته في صراعٍ

مع عدّة حركات غنوصيّة فكرّس أعظم مؤلّفاته للردّ عليها. غير أنّ كتابه **الردّ على البدع** لم يكن مُبتكرًا في جميع صفحاته، لأنَّ إيريناوس جمع فيه مختلف الموادّ المبعثرة التي قدّمها إليه التقليد الكنسيّ لكي يستخدمها، ولقد نظّمها في بعض الأحيان بشيء من عدم الحذاقة. ومع ذلك، توصّل إلى عرضِ أوّل خلاصة لِما تُعلّمه المسيحيّة، إلى تأليف أوّل عملٍ لاهوتيّ.

أمّا الموضوع الذي نظّم فكرَه، فقد كان **الوحدة**. وأراد بذلك أن يُعارض الثنائيّة. فأمام تمزُّق الشِيَع الغنوصيّة وتنوّعِها، برهن، انطلاقًا من الكتاب المقدّس، أنّ لا وجود إلّا «لإله واحدٍ وحيد». وأمام الانقسام الغنوصيّ بين الله المخلِّص والله الخالق، كرَّر من دون ملل، وبالاستناد إلى الكتاب المقدّس، أنّ الله الخالق في العهد القديم والله المخلِّص في العهد الجديد هما «إله واحد وحيد»، وأنّ الخلق والفداء يقعان تحت نظرة واحدة وحيدة. وأمام تمييز الغنوصيّين بين المسيح العلويّ ويسوع السفليّ، أكّد بقوّةٍ وحدة يسوع المسيح، الإله والإنسان في وقتٍ واحد. وردًّا على الغنوصيّة التي تقسّم الإنسان ولا تقرّ إلّا بخلاص جزئه الأعلى، شدّد إيريناوس على خلاص الإنسان بكامله. وفي وجه تعدّديّة الشيع الغنوصيّة، أعلن أسقف ليون وحدة الإيمان الآتي من الرسل، وبالتالي وحدة الكنيسة.

وقد أوضح موضوعَ الوحدة هذا في ضوء موضوع **التدبير**: فليس هناك سوى تصميم خلاصٍ واحد للعالَم، ينطلق من الخلق، ويمرّ بتجسُّد الابن، ويصل إلى ملكوت الله. ومن هنا، توسّع إيريناوس في علمِ لاهوتٍ خاصٍّ بتاريخ الخلاص: فإنّ هدف التاريخ هو السير بالبشريّة إلى ملكوت الله، وإلى ملء الشِرْكة مع الله. وقد وصف عمل المسيح، داخل تاريخ الخلاص هذا، من خلال فكرة «الجمع» الواردة في الرسالة إلى أهل أفسس (١/ ١٠)، ولكن بعد أن حوّلها وتوسّع فيها. فالمسيح يجمع عمل الله ويعيده ويختمه، ذلك العمل الذي ابتدأ في آدم وتعطّل بسبب الزلّة. ولقد أصبح آدم بعصيانه أبا بشريّةٍ ساقطة تسير إلى الموت.



القدّيس إيريناوس

وعلى العكس، أصبح المسيح بطاعته أبا بشريّة جديدة تسير إلى الحياة. وبناءً عليه، يتطابق آدم والمسيح بطريقة تناقضيّة. وقد طاب لإيريناوس أن يتوسّع في عرض ذلك التناقض فقال: عصى آدمُ بأكله من ثمرة الشجرة، وأطاع المسيح بموته على شجرة الصليب... وأوغل إيريناوس في ذلك البحث عن أوجه التطابق حتّى إنّه أفضى به إلى الموازاة بين حوّاء ومريم: أطاعت حوّاء، وهي لا تزال عذراء، صوتَ الحيّة، وأطاعت مريم وهي عذراء، صوت الملاك. وكما أنّ حوّاء كانت سبب هلاك الجنس البشريّ، أصبحت مريم سبب خلاص البشريّة. (**الردّ على البدع III**، ٢٢ و٤).

أرسى إيريناوس، بما وضعه في علمِ لاهوتِ الوحدة وتاريخِ الخلاص والجمع، أسسَ علمَ لاهوت الرأي القويم ونجح، في زمنه، في دحض البِدَع التي كانت تهدِّد نقل الكرازة الرسوليّة نقلًا صحيحًا.

وثيقة

التقليد واحد

لا شكّ في أنّ اللغات على وجه الأرض مختلفة، ولٰكنّ قوّة
التقليد واحدة وحيدة.
ليس للكنائس المؤسّسة في بلاد الجرمان
إيمان مختلف أو تقليد مختلف،
وهٰذا شأن الكنائس المؤسّسة عند الإيبيريّين، والكِلْتيّين،
وفي الشرق، وفي مصر وفي ليبيا، وفي وسط العالم. ولٰكن، كما
أنّ الشمس، وهي من صنع الله، واحدة وحيدة في العالم كلِّه،
كذٰلك يسطع التبشير بالحقيقة في كلّ مكان
وينير جميع البشر الراغبين في
الوصول إلى معرفة الحقّ.
إنّ أكثر رؤساء الكنائس اقتدارًا على الكلام لا يعلِّم
تعليمًا آخر
- لأنّه ما من أحدٍ يتفوّق على المعلِّم -
وأفقرهم في الكلام لا ينقِّص من هٰذا التقليد لأنّ الإيمان،
ما دام واحدًا وحيدًا، لن يُغنيه ذٰلك الذي يقدر أن
يتحدّث كثيرًا ولن يفقره ذٰلك الذي لا يستطيع
التكلُّم إلّا بمشقّة...

(القديس إيريناوس، **الردّ على البدَع I**، ١٠)

الفصل العاشر

حياة الجماعات المسيحيّة

إعداد أندرِه مَنْدُوز(*)

هل لنا أن نعرف كيف كان المسيحيّون يعيشون في ذٰلك العصر؟
نستطيع أن نستشفّ ذٰلك
من خلال بعض النصوص المختارة من نتاج أدبيّ وافر.

إنّ الاستشهاد هو الشهادةُ المثاليّة والنهائيّة. ولٰكنّنا نقع في خطرٍ جسيم إن استبعدنا شهادات أُخَر، ولا سيّما إن كانت الكنيسة هي المعنيّة. فلو كان الأمر كذٰلك، لفقدت وجودها الحقيقيّ خارج أزمنة الاضطهادات. ولٰكنّ الواقع هو العكس، فإنّ ما ميَّز بدايات المسيحيّة - وحتّى قبل أن تصطدم بالعقبات - كان تلك القوّة **الداخليّة** المنبثقة من رسالتها واقتناع أنصارها. إنّ الشهادة تفترض الحياة، والمسيحيّون يتميَّزون بنمط حياة معيَّن - حياة يوميّة قبل كلّ شيء - ما زالوا يعيشون بمقتضاه في أثناء المراحل الصعبة، كما عاشوه في حماسة البدايات أو سيحاولون أن يعيشوه من خلال أخطار النجاح الجسيمة.

والحال أنّ الحياة - حتّى الحياة المسيحيّة، وربّما الحياة المسيحيّة بوجه خاصّ - لا تقتصر على صِيَغ جاهزة، بل إنّها تبحث عن نفسها، وتتغلغل، وتتفجّر، وتتراجع، وتنطلق ثانيةً، وهي مهدَّدة دائمًا، وظافرة دائمًا، ومحتاجة دائمًا إلى التجدّد. ذٰلك هو، في الحقيقة، الانطباع الذي يتكوّن لدينا، على كلّ حال، حين نطّلع على حياة المسيحيّين في القرنين الثاني والثالث.

وهٰذا سببُ إضافيٌّ يحملنا على ألّا نقول عن ذٰلك أكثر ممّا نعرف، أي، في آخر الأمر، أشياء كثيرة، إن جمعنا الشهادات الشديدة التنوُّع التي تُخبر عن تلك الحياة، وأشياء قليلة، إن أردنا أن نتصوّر بالتفصيل الحياة الحقيقيّة التي عاشها رجال ونساء لم يكونوا رؤساءَ تلك الجماعات أو أبطالها وحسب، بل كانوا أعضاء «عاديّين» فيها. فلذٰلك، ولكي نتجنّب تلك التجربة التي سقط فيها كثير من مؤرِّخي الكنيسة، لن نحاول هنا أن نعرض لوحةً مركَّبة عن حياة الكنيسة في تلك الحقبة، بل سنكتفي بوضع عدد من النصوص جنبًا إلى جنب.

في أثناء النقاش الذي دار بين المسيحيّن والوثنيّين، والذي عرضناه في أعلاه، سبق أن أتتنا عدّة نصوص، في ضوء الحرب الكلاميّة الحامية، ببعض الملامح الأساسيّة التي تميَّز بها ذٰلك الوجود، بعد أن حدت به الظروف إلى تحديد هويّته بمقاومة الإشاعات والصور الساخرة التي أراد خصومُ تلاميذ المسيح أن يَصِفوهم بها. وسنضيف هنا، متّبعين تسلسلًا تاريخيًّا تقريبيًّا، بعض النصوص التي تكشف ملامح أُخرى تميّزتْ بها تلك الحياة - المعتَبرة هٰذه المرَّة بوجهٍ أقرب إلى داخل الكنيسة، لا في عدّة نقاط أساسيّة منها وحسب، بل على مستويات مختلفة من المسؤوليّة أو الفكر: ممّا يمكّننا، في الوقت نفسه، أن نستشعر، وراء حياة الأفراد اليوميّة أو الاستثنائيّة، علامات تبشّر بظهور

(*) André Mandouze.

صيغ تأسيسيّة فرضت نفسها وتعمّمت، بعد أن كانت مائعةً في القرنَيْن الثاني والثالث. هٰكذا تسير الحياة. . .

وداعًا أيُّها الحزن

هناك نصّ قديم (مليء كلّه بالرؤى، كما كان شائعًا في فجر المسيحيّة) يطرد الحزن لأنّه يتنافى مع «الرؤية» المسيحيّة الحقيقيّة. لا تنشأ الصلاة على الإطلاق من الرغبة، المعترَف بها إلى حدّ ما بالهروب من أحزان هٰذا العالم، بل تنبع من قلبٍ على استعداد دائم لتسبيح الله على عطايا روحه القدّوس.

وباختصار، هل المسيحيّون، الذين غالبًا ما يُعتبرون في أيّامنا معكّري الأجواء، ما زالوا مسيحيّين؟

«إلبَس المَرَح (سي ٢٦/ ٤) فإنّ الله يرتاح إليه دائمًا ويَقْبله برضى: فالتذّ به. كلّ إنسان مرح يصنع الخير ويفكّر في الخير ويرذل الحزن. والإنسان الحزين يصنع الشرّ دائمًا. إنّه، قبل كلّ شيء، يصنع الشرّ لأنّه يُحزن الروح القدس، ويرتكب الظلم لأنّه لا يلتمس وجه الله ولا يسبّحه. لأنّ صلاة الإنسان الحزين لا تقوى أبدًا على الارتفاع إلى مذبح الله. - ولِمَ لا ترتفع صلاة إنسان حزين إلى المذبح؟ - لأنّ الحزن يتمركز في قلبه. فالحزن يختلط بالصلاة ولا يدعها تصعد نقيّةً إلى المذبح. وكما أنّ الخلّ والخمر، إن مزجتَهما، يفقدان طيبتهما، فكذٰلك الحزن، إن اختلط بالروح القدس، عجز عن رفع الصلاة نفسها».

(هرماس، **الراعي** ٤٢/ ١-٣)

الخِلافة الرسوليّة

منذ فجر الكنيسة، وقعت مواجهات عنيفة في داخلها. تشهد على ذٰلك جماعة قورنتُس، من خلال رسائل بولس ورسائل إقليمنضُس. ومن الأمور اللافتة أن تُظهِر رومة، بصوت إقليمنضس، وحتّى قبل نهاية القرن الأوّل، شيئًا من السلطة: لا شكّ في أنّ هٰذه السلطة كانت أخويّة، ولٰكنّها كانت تشدّد بوجه خاصّ على النظام. فكلّ شيء يصدر «بترتيب حسن» عن إرادة الله، وقبل كلّ شيء الخلافةُ الرسوليّة، تلك الركيزة الأُولى التي تُبنى عليها المؤسَّسة - الكنيسة.

«تلقّى الرسل البشرى من أجلنا عن يد الربّ يسوع المسيح. ويسوع الذي هو المسيح، أرسله الله. فالمسيح أتى من لدن الله، والرسل أتوا من قِبَل المسيح. والأمران خرجا من إرادة الله بترتيب حسن. فقد تلقّى الرسل التعليمات، وبعد أن امتلأوا يقينًا بفضل ربّنا يسوع المسيح، وتثبّتوا بكلمة الله، إلى جانب تأييد الروح القدس التامّ، انطلقوا ليعلنوا البشرى بأنّ ملكوت الله آتٍ. فكانوا يَعِظون في الأرياف والمدن ويُقيمون فيها البواكير، ويمتحنونهم بالروح القدس، ليجعلوا منهم أساقفةً وشمامسة للذين سيؤمنون».

(إقليمنضُس الرومانيّ، **الرسالة إلى أهل قورنتس ٤٢، ١-٤**)

الأسقف يجسِّد وحدة الجماعة

سبق لنا أن رأينا في الملفّ الأوّل أنّ إدارة الجماعات في الكنيسة الناشئة وتدبيرَ شؤونها لم يمارَسا إطلاقًا بحسب تصميم مُقَوْلب. إلّا أنّ ذٰلك لم يمنع رجلًا مثل القدّيس إغناطيوس أن يشدّد، منذ عهد الآباء الرسوليّين، على الاحترام الذي يجب أن يُحاط به الأسقف (حتّى وإن كان أصغر سنًّا من الكهنة) بقدر ما «يُمثِّل» الخضوع «لا لشخصه، بل لأبي يسوع المسيح، أسقف الجميع».

«أمّا أنتم فيحسن بكم ألّا تستغلّوا سنّ أسقفكم، بل أن تؤدّوا له كلّ إكرام، مراعاةً لقدرة الله الآب. وأنا أعلم أنّ كهنتكم القدّيسين لم يستغلّوا الشباب الظاهر فيه، بل يخضعون له كأُناسٍ عقلاء في

الربّ، لا لشخصه، بل لأبي يسوع المسيح، أسقف الجميع. ومن اللائق إذًا أن نطيع من دون أيّ رياء، احترامًا لذاك الذي أحبَّنا، لأنّنا لا نستغلّ الأسقف المنظور، بل نسعى إلى خداع الأسقف غير المنظور. لأنّ المقصود في هٰذه الحال ليس الاعتبارات البشريّة، بل الله الذي يَعلم الأشياء الخفيّة. فلا يَجْدُر بنا إذًا أن نحمل الاسم المسيحيّ وحسب، بل أن نكون مسيحيّين أيضًا. فهناك أناس لا ينفكّون يتحدّثون عن الأسقف، ولٰكنّهم يقومون بكلّ شيء بمعزل عنه. فلا يبدو لي أنّ هؤلاءِ ذوو ضمير صافٍ، لأنّ اجتماعاتهم ليست شرعيّة، ولا مطابقةً لوصيّة الربّ».

(إغناطيوس الأنطاكيّ، **الرسالة إلى أهل مغنيسية** IV-III)

إيمان واحد، معموديّة واحدة

إنّ يُسْطِينُس هو «فيلسوف وشهيد» رَبط ربطًا رائعًا بين فلسطين، حيث وُلد لأبوين وثنيّين، وروما حيث علَّم وقُطِع رأسُه. وفي الفقرات التي نوردها من «دفاعه الأوّل» نرى كيف تمَّ، منذ القرن الثاني، التعبير عن الإيمان، ومَنْح المعموديّة والاحتفال بالإفخارستيّا بوجهٍ لا يصعب على مسيحيّي أيّامنا أن يتعرّفوا إليه.

«أيُّ إنسان عاقل لا يعترف بأنّنا لسنا مُلحدين؟ نحن نعبد خالق هٰذا الكون. ونعترف، كما ورد في تعليمنا، بأنّه لا يحتاج إلى الدم ولا إلى السكيب ولا إلى البخور، فنسبِّحه، بحسب استطاعتنا، بأناشيد التقوى والشكران، في كلِّ ما نأكله. إنّ الطريقة الصحيحة لإكرامه، كما تعلَّمنا، ليست في أن نحرق في النار، من دون فائدة، ما صنعه لمعيشتنا، بل في أن نستعمله لمنفعتنا ونُشرك الفقراء فيه، وفي أن نرفع إليه شعائر إكرامنا الاحتفاليّة وأناشيد شكرنا على الحياة التي وهبها لنا، واهتمامه بأن يحفظنا أصحّاء، وعلى نوعيّة الأشياء وتقلّبات الفصول. كذٰلك نطلب إليه الخلود في الدهر الآتي بسبب إيماننا به.

سنُظهر لكم أيضًا أنّنا نعبد على حقّ ذاك الذي علّمنا تلك الأشياء، ووُلِد لهٰذه الغاية، يسوع المسيح الذي صُلِب على عهد بنطيوس بيلاطُس، حاكم اليهوديّة، في أيّام طيباريوس قيصر، ونرى فيه ابنَ الإلٰه الحقِّ ونضعه في المرتبة الثانية، ونضع الروح النبويّ في المرتبة الثالثة».

(يُسطينُس، **الدفاع الأوّل** ١٣)

«إنَّ الذين يؤمنون بحقيقة إرشاداتنا وتعليمنا يَعِدوننا أوّلًا بأن يعيشوا وفقًا لهٰذه الشريعة. فنعلِّمهم كيف يصلّون ويطلبون إلى الله، في الصوم، مغفرة خطاياهم، ونحن أيضًا نصلّي ونصوم معهم.

وبعد ذٰلك، نذهب بهم إلى مكانٍ فيه ماء، وهنا يولَدون ولادةً ثانية هم أيضًا، كما وُلدنا نحن أنفسُنا ولادةً ثانية، ويُغسَلون في الماء باسم الله أبي كلِّ شيء وسيّد كلِّ شيء، وباسم يسوع المسيح مخلِّصنا والروح القدس. لأنّ المسيح قال: «إن لم تولدوا ثانيةً، لن تدخلوا ملكوت السموات»...

يُدعى هٰذا الاغتسال استنارة، لأنّ الذين يتلقَّون هذا التعليم تمتلئ روحُهم نورًا. وكذٰلك يُغسَل المستنير باسم يسوع المسيح الذي صُلب على عهد بُنطيوس بيلاطس، وباسم الروح القدس الذي أنبأ، على لسان الأنبياء، بسيرة يسوع كلّها».

(يسطينس، **الدفاع الأوّل** ٦١)

الإيمان بالثالوث

قبل مائة وخمسين عامًا من انعقاد مجمع نيقية الذي أوضح بدقّةٍ، في السنة ٣٢٥، إيمانَ الكنيسة الثالوثيّ في «قانون إيمانٍ» يحمل اسمه، عبَّر أثِيناغُوراس بكلّ وضوح عن إيمان الذين ليسوا على الإطلاق من «الملحدين»، بل يؤمنون بالآب والابن والروح القدس.

«إنّنا لسنا ملحدين، بل نعترف بإلٰه واحد، غير

مخلوق، أزليّ، لا يتألّم ولا يُدرَك ولا يُحصَر، لا يُدرَك إلّا بالروح والعقل، مُحاطٍ بنور وجمال وروح وقدرة لا توصف. خَلق العالم ونظَّمه، ويَحفَظه بالكلمة (الذي هو لديه). هٰذا ما أَظهرتُه بوضوح.

ونعترف أيضًا بابنٍ لله. ولا يَسْخَرَنَّ أحدٌ من اعتقادي بأنّ لله ابنًا. فنحن لا نرى الله الآب أو الابن كما يتصوَّره شعراؤكم حين يتحدَّثون عن آلهة ليست أفضل من البشر بشيء. لٰكنّ ابن الله هو كلمة الآب بالفِكر والقوّة. كلُّ شيء صُنع بمقتضاه وبوساطته، لأنّ الآب والابن واحد. ولمّا كان الابن في الآب والآب في الابن، بوحدة الروح وقدرته، فإنّ ابن الله هو روح الله وكلمته».

(أثيناغوراس، **عريضة في شأن المسيحيّين X**)

تنظيم الإيمان المسيحيّ في أفريقيا

رأينا أعلاه، في النقاش الذي تَواجه فيه المسيحيّون والوثنيّون، أنّ طرطليانُس مجادل ممتاز. ومع ذٰلك، فإنّ الشهادة التي يأتينا بها، وهو يصف بوجهٍ إيجابيّ جدًّا حياة المسيحيّين في إفريقيا، هي أشدّ حسمًا بكثير: فقد وصف موقفهم حيال الأباطرة وتنظيمهم الداخليّ ومساهمتهم في حياة أفقر الفقراء، وممارستهم «المحبّة»، إلى جانب احترامهم القِيَم الأخلاقيّة.

«إنّنا «جسد» واحد بشعورنا المشترك بمعتقَد واحد، وبوحدة النظام، وبرباطِ اختبارٍ واحد. ونحن نؤلِّف رابطةً وجمعيّة لنُحاصرَ الله بصلواتنا، كما لو كُنّا كتيبةً متراصّة. وهٰذا العنف يستحسنه الله. ونصلّي أيضًا من أجل الأباطرة، ووزرائهم، ومن أجل أصحاب النفوذ، ومن أجل حالة العالم الراهنة، ومن أجل سلام العالم، ومن أجل إرجاء النهاية. ونجتمع كذٰلك لكي نقرأ الكُتب المقدَّسة، إنْ فَرَضَ علينا سيرُ الزمن الحاضر أن نبحث فيها إمّا عن تحذيرات للمستقبل، وإمّا عن تفسيرات للماضي. فعلى الأقلّ، نغذّي إيمانَنا بتلك الكلمات المقدَّسة. ونبعث رجاءَنا، ونثبّت ثقتنا، كما أنّنا نشدّد على نظامنا في تعليم الوصايا. وفي تلك الاجتماعات أيضًا، تُلقى الإرشادات وتتمّ أعمال التأديب والرقابة باسم الله. وذٰلك بأنّنا نُصدر أحكامًا ذات أهمّيّة قصوى، تيقّنًا منّا بأنّنا حاضرون أمام الله، وإنّه لَحُكْمٌ سابق رهيب للحُكم المستقبَل، إن ارتكبَ أحدٌ منّا خطأً يُحرَم بسببه المشاركة في الصلوات والاجتماعات ومِن كلّ ما يمتّ بِصِلة إلى الأشياء المقدَّسة.

إنّ الشيوخ ذوي الفضيلة المجرَّبة هم الذين يترأّسون، علمًا بأنّهم يحصلون على هٰذا الشرف، لا بالمال، بل بما يُظهرونه من فضيلة، لأنّ أيًّا من أمور الله لا يكلِّف مالًا. وإذا وُجِد عندنا نوع من الصندوق المشترَك، فهو ليس مكوَّنًا من «مبلغ فخريّ»، يتبرّع به المختارون، وكأنّ الديانة تُعرض للمزاد. فكلُّ شخصٍ يدفع قسطًا زهيدًا، في يوم محدَّد من الشهر أو حين يشاء، وإن أراد ذٰلك ما يُشبه مستودعًا للتقوى، وبالفعل، فإنّنا لا نسحب منه لإقامة الولائم وجلسات السكر، ولا لأماكنِ القصوف العقيمة، بل لإطعام الفقراء ودَفْنهم ولإغاثة الصبيان والبنات الذين لا ثروة لهم ولا أهل، والخدّام الذين تقدَّموا في السنّ، والغرقى أيضًا، وإنْ تألم المسيحيّون في المناجم والجُزُر والسجون في سبيل الله فقط، فهم يصبحون رضعاء الديانة التي اعترفوا بها.

ولٰكنّ ممارسة المحبّة هٰذه هي التي تَصِمُنا بوصمة شائنة في نظر الكثيرين. فهم يقولون «أنظروا كم أنّهم يحبّون بعضُهم بعضًا»...

وهٰكذا، فبفضل اتّحادنا الوثيق بالروح والنفس، لا نتردَّد في تقاسم خيراتنا مع الآخرين. وكلُّ شيء يصلح للاستعمال المشترَك بيننا، باستثناء زوجاتنا. فنفسخ نظامَ الاشتراك حيث يمارسه سائر الناس...

فما الغرابة في أن يكون لمثل هٰذه المحبَّة الفائقة ولائمُ مشتركة؟

إنّ وليمتنا تستمدّ سبب وجودها من اسمها: فنحن

نطلق عليها اسمًا يعني «المحبّة» عند اليونانيّين (أغابي). ومهما كلّفت من نفقات فمن المفيد أن نُنفق لأسباب تقويّة: ذٰلك بأنّها وجبة طعام نساعد بها الفقراء...

لا نجلس إلى الطاولة إلّا بعد أن نكون قد تذوّقنا صلاةً نرفعها إلى الله. ونأكل بقدر ما يفرضه الجوع، ونشرب بقدر ما يسمح به الاعتدال. ونشبع كأناسٍ يتذكّرون أنّ عليهم أن يعبدوا الله حتّى في الليل، ونتحدّث كأناسٍ يعرفون أنّ الله يسمعهم. وبعد أن نغسل أيدينا ونضيء الأنوار، يُدعى كلُّ واحدٍ ليُنشِد، إكرامًا لله، نشيدًا يقتبسه، بحسب إمكاناته، إمّا من الكتُب المقدَّسة، وإمّا من روحه هو. وهٰذا امتحانٌ يُظهِر كيف شرب. ثمّ تنتهي الوليمة بالصلاة كما بدأت. وينصرف كلُّ واحد إلى ناحية... كأناسٍ أخذوا درسًا عن الطاولة أكثر ممّا أخذوا طعامًا».

(طرطليانُس، **الدفاع عن الدين** XXIX، ١-٧، ١١-١٢، ١٤، ١٦-١٩)

يسوع «المربّي»

في العالم القديم، كان المربّي، قبل كلّ شيء، خادمًا في إحدى العائلات، «يقود الولد» إلى المدرسة ويتولّى تربيته بوجهٍ عامّ. وقد رأى إقليمنضس الإسكندريّ في المسيح ذٰلك المربّي الأكبر المثاليّ: الذي يقود الإنسان إلى الله.

«لقد بيّنّا إذًا أنّ الكتاب المقدّس يدعونا جميعًا أبناء، وإنّنا، إلى جانب ذٰلك، حين نباشر اتّباع المسيح، نحصل على اسم «الصغار» التمثيليّ، وإنّ أبا الكون وحده كامل - لأنّ الابن فيه والآب في الابن. وإن اتّبعنا تصميمنا، توجَّبَ علينا أن نقول مَن هو مربّينا: إنّه يُدعى يسوع...، فالمربّي هو الكلمة طبعًا لأنّه يقودنا نحن الأبناء إلى الخلاص. والكلمة قال بوضوح بلسان هوشع: «أنا مربّيكم». أمّا التربية فهي الديانة: إنّها في الوقت نفسه تعليم في خدمة الله، وتربية في سبيل معرفة الحقّ وتنشئةٍ متينة تقود إلى السماء. إنّ اسم «التربية» يشمل حقائق متعدّدة: تربية مَن يتلقّى التوجيه والتعليم، تربية من يُلقي التوجيه والتدريس، وثالثًا، التنشئة التي يُحصل عليها، كما أنّ التربية هي الموادّ المُدرَّسة كالوصايا. أمّا تربيةُ الله فهي الإرشادُ إلى طريق الحقّ المستقيم من أجل مشاهدة الله، والإرشادُ إلى سيرةٍ مقدَّسة في ثبات أبديّ».

(إقليمنضس الإسكندريّ، **المربّي** VIII, I، ٥٣-٥٤)

الليترجيا الرومانيّة

نودّ، من خلال النصّين التاليَين، أن نوفّر للقارئ ما يمكِّنه، لا أن يكوّن فكرةً عن الليترجيا الرومانيّة في مطلع القرن الثالث وحسب، بل أن يحضر فعلًا قدّاسًا يرقى عهْده إلى ذٰلك العصر. وإذا وجد نفسه من خلال ذٰلك أمام موضوع معروف، استطاع من تلقاء نفسه أن يقدّر استمراريّة «التقليد» الذي يُعيد تمثيلَه بأسلوب رائع هٰذا النوع من التحقيق الدقيق الذي قام به هِيپُولِيطُس.

«حين يُرسَم أُسقفًا، فليقدِّم له الجميع قُبلة السلام وليحيُّوه لأنّه أصبح مُستحِقًّا. وليقدّم له الشمامسةُ القربان وليَقُلْ هو، في أثناء وضعه يديه عليه قبل جماعة الكهنة كلِّهم، صلاة الشكر هٰذه:

«الربّ معكم».

وليجيبوا جميعًا: «مع روحك».

«إرفعوا قلوبكم!» - «نوجّهها إلى الربّ».

«لنشكر الربّ». - «إنّه لائق وعدل».

وليواصل قائلًا:

«إنّنا نشكرك، أيُّها الإلٰه، بابنك الحبيب يسوع المسيح، الذي أرسلته في آخر الأزمنة مخلّصًا وفاديًا ورسولَ إرادتك، وهو كلمتُك غير المنفصل الذي به خلقتَ كلَّ شيء وفيه وضعتَ رضاك، وهو الذي أرسلته من السماء إلى حضن عذراء، فحُبِل به وتجسَّد وظهر ابنًا لك، مولودًا من الروح القدس ومن العذراء، وهو الذي أتمّ مشيئتَك ومدّ يديه حين كان يتألّم ليقتني لك شعبًا مقدّسًا ويخلِّص من الألم

أولئك الذين يؤمنون بك».
«وفي الوقت الذي أسلم نفسه إلى العذاب طوعًا، ليبيد الموت ويحطِّم أغلال إبليس، ويدوس الجحيم برجليه، وينير الأبرار، ويقيم العهد، ويُظهِر قيامته، أخذ خبزًا وشكرك، وقال: خذوا، كلوا، هٰذا هو جسدي يُكسَر من أجلكم. وكذٰلك صنع على الكأس قائلًا: هذا هو دمي يهراق من أجلكم. كلَّما فعلتم هٰذا، أقيموا ذكري».
«فنحن، إذ نذكر موته وقيامته، نقرِّب إليك الخبز والخمر. ونشكرك على أنّك أعددتنا أهلًا لنقوم أمامك ونخدمك. ونسألك أن تُرسِل روحَك القدّوس إلى تقدمة الكنيسة المقدَّسة. إمنح جميع القدّيسين الذين يقبلونها، بجمعك إيّاهم، أن يمتلئوا من الروح القدس ليوطِّدوا إيمانهم بالحقّ، لكي نسبِّحك ونمجِّدك بابنك يسوع المسيح، الذي به لك التمجيد والإكرام، للآب والابن، مع الروح القدس في كنيستك المقدَّسة، الآن ولدهر الدهور آمين».
(هِيپُوليطُس الرومانيّ، **التقليد الرسوليّ ٤**)
وليَقُل الأسقف: «نتوسَّل إليك أيضًا، أيّها الآب القدير، أبو ربِّنا يسوع المسيح، أن تهب لنا أن نقبل ببركةِ هٰذا السرِّ المقدّس: لا يكن لإدانة أحدٍ منَّا، بل ليؤهِّل جميع الذين يقبلون السرّ المقدّس، جسدَ ودمَ المسيح، الربِّ القدير، إلٰهنا».
وليقل الشمّاس: «صلّوا».
وليقل الأسقف: أيُّها الإلٰه القدير، لِيقوِّنا قبولُنا سرَّك المقدَّس، ولا يكنْ لإدانة أحدٍ منّا، بل ليباركْنا جميعًا بالمسيح، الذي به لك المجد والقدرة الآن ودائمًا وللأبد. آمين».
وليقل الشمّاس: «إحنوا رؤوسكم أيُّها الواقفون».
وليقل الأسقف: «أيُّها الإلٰه الأزليّ، يا من يَعْلَم ما هو خفيٌّ وما هو ظاهر، ها إنّ شعبك يحني رأسه أمامك ويُلين صلابة قلبه وجسده: إلتفتْ من أعالي مسكنك الشريف، فبارك الرجال والنساء معًا، وأَمِلِ أُذنك إليهم وأصْغِ إلى صلاتهم، وقوِّهم بقدرة يمينك واحفظهم من كلِّ هوى رديء. كن حارسَ أجسادِهم ونفوسهم، زد فيهم وفينا الإيمان بك وخوفَك، بابنك الوحيد، الذي به لك، معه ومع الروح القدس، المجد والقدرة الآن ودائمًا وللأبد. آمين».
وليقل الشمّاس: «كونوا متنبِّهين».
وليقل الأسقف: «الأقداس للقدّيسين».
وليقل الشعب: «آب واحد قدّوس، وابن واحد قدّوس وروح واحد قدّوس».
وليقل الأسقف: «الربّ معكم».
وليقل الشعب: «ومع روحك».
وليرفعوا أيديَهم للتمجيد وليقترب الشعب من أجل خلاص نفسه لكي تُغفَر خطاياه.
صلاة بعد أن يكونوا قد تناولوا:
«أيّها الآب القدير، أبو ربِّنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، نشكرك على أنّك وهبتَ لنا أن نقبل سرَّك المقدَّس: لا يكن لنا سببَ خطأ أو إدانة، بل سبب تجديد النفس والجسد والروح، بابنك الوحيد، الذي به لك، معه ومع الروح القدس، المجد والقدرة الآن ودائمًا وللأبد».
وليقل الشعب: «آمين».
وليَقُلِ الكاهن صلاة وضع الأيدي بعد أن يكونوا قد تناولوا: «أيّها الإلٰه الأزليّ القدير، أبو ربِّنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، بارك خدّامك وخادماتك، احفظْهم، وأَعِنْهم، واجعلهم سعداء بقدرة رئيس ملائكتك.
إحفظ وقوِّي فيهم خوفك بعظمتك. إمنحْهم السلام بلا خوف ولا قلق، بِ...».
وليقل الشعب: «آمين».
وليقل الأسقف: «الربُّ معكم».
وليقل الشعب: «ومع روحك».
وليقل الشمّاس: «إذهبوا بسلام».
وبعد ذٰلك، تنتهي الذبيحة».
(هيپوليطُس الرومانيّ، **التقليد الرسوليّ ٧**)

المِهَن المحرَّمة على المسيحيّين

إذا كان هيبوليطُس دقيقًا في ما يختصّ بالليترجية، فهو ليس أقلّ دقّةً في ما يختصّ بالشروط التي وضعتها الكنيسة لقبول أولئك الذين كانوا يطلبون أن ينضمّوا إليها. ويمكننا أن نرى أنّه، إذا كانت الأخلاق – بمعنى الكلمة الحاليّ – تدخل في الحسبان قبل كلّ شيء، فلم تُعتبَر وحدها وفي جوهرها، بل في جميع المضامين التي حملتها حضارة متأثّرة بالوثنيّة في أصغر التفاصيل. يبقى لنا أن نعرف إنْ كان الاختلاط في بعض الأحيان بين «الأخلاق» و«الدين»، حتّى في أيامنا هٰذه، لم ينتج عن تلك المحرَّمات القديمة.

«ليُستَخبَر عن الحِرَف والمهن التي يمارسها الذين يُحضَرون ليتلقّوا التعليم.

فإن كان أحدهم مديرَ بيت يُنفِق على البغايا، فليَكفّ أو فليُصرَف.

وإن كان أحدهم نحّاتًا أو رسّامًا، فليُعلَّم ألّا يصنع أصنامًا. وإن لم يُرد أن يكفّ، فليُصرَف.

وإن كان أحدهم ممثّلًا أو مقدِّم عروضٍ مسرحيّة، فليكفّ أو فليُصرَف.

وإن كان أحدهم يعلِّم الأولاد العلوم الدنيويّة، فمن الأفضل أن يكفّ، ولٰكن إذا لم يكن له مهنة أخرى، فليُسمَح له بذٰلك.

وكذٰلك، فليكفّ السائق أو من يشارك في الألعاب العامّة أو من يذهب إليها، وإلّا فليُصرَف.

ليكفّ المصارع أو من يعلِّم المصارعين كيف يصارعون أو من يهتمّ بالصيد أو الضابط الذي يهتمّ بألعاب المصارعين، وإلّا فليُصرَف.

إن كان أحدهم كاهنَ أصنام أو حارس أصنام، فليكفّ، أو فليُصرَف.

ليُطلَب إلى الجنديّ الذي يخدم عند الحاكم ألّا يقتل. إن تلقّى أمرًا بذٰلك، فلا ينفِّذه، وإن لم يرضَ، فليُصرف.

ليكفّ من كان له سلطان السيف أو كان قاضي مدينة، ومن يلبس الأرجوان، وإلّا فليُصرف.

إن أراد طالبُ العماد أو أحد المؤمنين أن ينخرط في الجنديّة فليُصرَف، لأنّه احتقر الله.

لتُصرَف العاهرة وليُصرَف اللوطيّ أو من يقوم بما لا نستطيع ذكره، لأنّهم دنسون.

وكذٰلك فلا يُقبَل المجوسيّ في الامتحان. وليكفّ الساحر والمنجِّم والعرّاف ومفسِّر الأحلام والمشعوذ وصانع التعاويذ، وإلّا فليُصرَف.

لتُقبَل خليلةُ أحدهم، إن كانت عَبْدَتَه وربّت أولادَه ولم تُقِم علاقة إلّا معه، وإلّا فلتُصرَف.

ليكفّ من له خليلة وليتزوّج بها شرعيًّا. وإن رفض، وإن رفض، فليُصرَف.

وإن نسينا شيئًا، فاتّخذوا أنتم القرار المناسب، لأنّ لدينا جميعًا روحَ الله».

(هيبّوليطُس الرومانيّ، **التقليد الرسوليّ** ١٦)

المسيحيّون والفقر

تكيَّفت المسيحيّة تدريجًا مع المجتمع، وخفَّفت بالتالي من ذٰلك المقتضى الأساسيّ الذي وقف حجر عثرة أمام حديثي النعمة: ألا وهو تفضيلها الفقراء. وهناك اعتبارات تحملنا على الاعتقاد أنّ الخضوع المطلق للعناية الإلٰهيّة بدا للمعاصرين رفضًا رهيبًا «للمجتمع الاستهلاكيّ» الإمبراطوريّ.

«أمّا ما اشتهرنا به من فقر، فليس هو عارًا علينا، بل هو مجدُنا: لأنّه إذا كان البذخ يُضعف النفوس، فالحياة البسيطة تشدِّدها. هل يمكن، على كلّ حال، أن يكون المرء فقيرًا، إن كان لا يشعر بالحاجة، ولا يشتهي خيرات الآخرين وكان غنيًّا بالله؟ فمن يملك الكثير ولٰكنّه يرغب في المزيد، إنّما هو أشدّ فقرًا. وفضلًا عن ذٰلك، سأُبيِّن لك طريقتي في التفكير: ما من أحدٍ يستطيع أن يكون فقيرًا في

الحياة بقدر ما كان فقيرًا عند الولادة. تعيش العصافير بلا إرث، وترعى القطعان يومًا فيومًا... وكما أنّ السائر على الدرب يتقدّم بارتياحٍ أكبر بقدر ما خفّ حملُه، كذٰلك على درب الحياة يكون أكثرَ الناس سعادةً أولٰئك الذين جعلهم الفقرُ خفافًا، والذين لا تضيّق أنفاسَهم أثقالُ الثروات. ومن جهةٍ أخرى، إن كنّا نعتقد أنّنا محتاجون إلى الموارد، فسنطلبها إلى الله: فإنّه يستطيع، في أيّ حال، وهو الذي له كلّ شيء، أن ينعم علينا ببعضٍ منها. ولٰكنّنا نفضّل أن نحرّم امتلاك الثروات على أن نحصرها، ونطمح إلى البراءة، ونطلب الصبر أو نؤثِر الفضيلة على التبذير».

(مينوقيوس فليكس، **أقطافيوس** XXXVI، ٣-٧)

المسيحيّون والأزهار والموت

إذا صحّ أنّ المسيحيّين الأوّلين لم يكونوا حزانى، كما رأينا في بداية هٰذا الفصل، فذٰلك لأنّهم كانوا يَقبلون الخليقة كلّها عطيّةً من الله وتجلّيًا للحياة. فلا عجب أن نراهم يتميّزون عن الوثنيّين حتّى في استعمال الأزهار التي يريدون قبل كلّ شيء «أن يستنشقوا رائحتها الطيّبة بالأنف» بدل أن «يكلّلوا الموتى» بها.

«فمن هو ذٰلك الإنسان الذي يشكّ في حنوّنا على أزهار الربيع، علمًا بأنّنا نرحّب بالورد الربيعيّ والزنبق وكلّ الأنواع التي لها لون ورائحة طيّبة؟ ذٰلك بأنّنا نستعمل الأزهار إمّا واحدةً واحدة وطريّة ومن دون رباط، وإمّا على شكل إكليل حول العنق. وإذا كنّا لا نريد أن نكلّل بها رؤوسنا، فلا تقسوا علينا: فنحن معتادون أن نستنشق رائحة الأزهار بالأنف، لا أن نتشرّبها بمؤخّرة الرأس أو بالشَعر! وكذٰلك، نحن لا نكلّل الموتى... إذ إنّنا ننقل إلى أبّهة المآتم ما تحمله من الصفاء في حياتنا: فبدل أن نعلّق إكليلًا يذوي، ننتظر من الله إكليلًا معمّرًا من الأزهار الأبديّة: نعيش في سلام واعتدال وثقة بسخاء إلٰهنا، فنرجو كلّ الرجاءِ السعادةَ الآتية من ثقتنا بعظمتِه الحاليّة. وبذٰلك نقوم طوباويّين ونعيش هٰكذا منذ الآن بفضل تأمُّل المستقبل».

(**أقطافيوس** XXXVIII، ٢-٤)

الفصل الحادي عشر

فجر الفنّ المسيحيّ

بقلم ماري - لُويز تِيريل(*)

لا يمكننا أن نتحدَّث عن وجود فنٍّ مسيحيٍّ حقيقيّ وعن إيقونوغرافيّة منظّمة قبل القرن الثالث. أمّا عن الهندسة فلا معلومات لدينا عنها لأنّنا لا نجد أيَّ أثر مهمّ لأيّ مبنى يرقى عهده إلى ما قبل ٣١٣، باستثناء الدار - الكنيسة المسيحيّة الواقعة في مدينة دورا أوروبُس المحصَّنة على الفرات، والتي اكتُشِفَت سنة ١٩٢٠، وهي تعود، بلا شكّ، إلى ما قبل ٢٣٢.

يبدو إذًا أنّنا لن ننال مبتغانا في ما يختصّ بالقرن الثاني. فنحن نعلم تمام العلم بوجود أدوات للاستعمال المنزليّ وخواتم وغيرها . . . من المفترَض أن تكون قد سُكَّت برموز مسيحيّة، لأنَّ إقليمنضس الإسكندريّ (المتوفَّى قبل ٢١٥) أوصى «مربّيه» بأن يضع السمكة على بعض الأغراض: «إن رأينا عليها صيّادًا، نتذكّر الرسول وحديثي التنصُّر عند خروجهم من الماء». ولٰكن، باستثناء تلك الأغراض الرمزيّة الصغيرة وتلك العلامات الصغيرة المُستَخدمة لبيان الانتماء أو لعرفان الجميل، لا يجوز البحث عن أيّ دليل مسيحيّ، في القرن الثاني، حتّى داخل الدياميس (لأنّ الدياميس ليست ابتكارًا مسيحيًّا، علمًا بأنّ سكان رومة مثلًا كانوا يدفنون موتاهم في سراديب تحت الأرض قبل انتشار المسيحيّة).

وفي ذٰلك العصر، كان المسيحيّون يحتفلون بالإفخارستيّا عند الأفراد أو على ضرائح شهدائهم، وما عدا ذٰلك كانوا ينتمون إلى عائلاتهم. فكانوا يُدفنون كالفقراء في قبور عائليّة، أي من دون بلاطة ضريح، على الأرض رأسًا، مع الإشارة إلى الجثمان بأكمة محاطة بألواح قرميد مائلة. وقد عُثر على بعض تلك الألواح في مقبرة أُوستِيا القديمة والمدعوّة إيزُولا سَلكْرا، والراجح أنّها كانت موضع مدافن مسيحيّة منذ وقتٍ باكر جدًّا. وقد مكَّنت الدمغات المطبوعة على تلك اللوحات من إرقاء أقدمها إلى القرن الأوّل من عصرنا. فمن المحتمَل جدًّا أن يكون القبر الذي وُضع فيه بطرس أوّلًا، على سبيل المثال، مجرّد قبرٍ من قرميد.

وعلى كلِّ حال، فإنّ المعلومات الأثريّة القليلة هٰذه تؤكّد ما نعلمه عن المسيحيّة في القرنَين الأوّلَين: فهي انتشرت أوّلًا بين طبقات المجتمع المتوسِّطة والفقيرة. فلم يكن لدى المسيحيّين الأوّلين الوسائل التي تمكّنهم من ابتياع مدافن ضخمة، وبأولى حجّة من تزيينها. فضلًا عن ذٰلك، يبدو أنّ الجماعة المسيحيّة الأُولى بقيت إجمالًا شديدةَ التمسّك بالمشاركة في الأموال. لذا لا نلاحظ أيَّ فرق يُذكَر بين مقابر المسيحيّين الأغنياء ومقابر المسيحيّين الفقراء. ذٰلك كلُّه أمر مؤثِّر ولا بدَّ من التشديد عليه: فلقد عاش المسيحيّونَ الأوَّلون كغيرهم من الناس في عصرهم ولم يتميَّزوا عنهم إلّا بحياتهم الشخصيّة وإيمانهم، لا بعلامات خارجيّة على الإطلاق.

ولٰكن، ماذا حصل في نهاية القرن الثاني؟

بدأت الأمور تتغيّر، حين دخلت المسيحيّةُ طبقاتِ المجتمع الميسورة. وفي رومة، مثلًا، كان لدى بعض المسيحيّين الأثرياء ما يمكّنهم أن يزيّنوا باللوحات الجداريّة قبورهم العائليّة في الدياميس (على كلّ حال،

(*) Marie-Louise Thérel، باحثة في المركز الوطنيّ (الفرنسيّ) للبحث العلميّ.

كانوا وحدهم قادرين على القيام بذٰلك، وإنّه لأمر ذو دلالة أن تكون مقابر الشهداء، وهي موضع عبادة منذ وقت مبكّر، خالية من أيّ رسوم). ثمّ في العشرينيّات أو الثلاثينيّات بعد المئتين، وبفضل «السلام القصير» الذي نعمت به الكنيسة في عهد سلالة ساويرُس، تغيَّر الشرع، إن لم يكن من حيث المبدأ، فعلى الأقلّ من حيث الممارسة: خرجت الكنيسة من «شبه الخفاء»، ومع أنّها لم تحظَ باعترافٍ رسميّ، فقد حصلت على ملْكيّة قبورها ومدافنها. أمّا الأفراد الذين سبق لهم أن اشتروا أماكنَ دَفن، باسمهم الشخصيّ ولٰكن لحساب الجماعة في الواقع، فكان بوسعهم بعد ذٰلك اليوم أن يهبوها للكنيسة. فشهد ذٰلك العصر ظهور أوّل الدياميس الرومانيّة المقصورة على المسيحيّين: كدياميس دُومِيتِلّا وكاليستُس وبرِسقِلّة وبْرِتِكْستا.

الدياميس بين الواقع والأسطورة

وفي القرن الماضي، تناول أدب «رومنطيقيّ» موضوع الدياميس، وأصبحنا، من دون علم منّا، ضحيّة عدد من الكليشيهات: فهناك الدياميس المخفيّة، والاجتماعات السرّيّة، والجنود الرومان الذين ينزلون إلى ما تحت الأرض بحثًا عن المسيحيّين. ونهاية الدياميس حين نعمت الكنيسة بالسلام، أي اعتبارًا من زمن اهتداء قسطنطين. هٰذا كلّه صحيح، ولا بدّ من إعلانه! لا يمكن أن تكون الدياميس مخفيّة، لأنّها مدافن روما العامّة، لا أكثر ولا أقلّ. ولا خوف أن يدخلها الجنود، لأنّ المدافن كلّها، سواء أفوقَ الأرضِ كانت أم تحتها، كانت محظورةً عليهم بصفتها أماكن مقدّسة. وبما أنّ استخدام الدياميس لم يكن مرتبطًا بالاضطهادات، فلم يكن هناك من داع لأن ينتهي بانتهائها: لذا استمرّ الناس في استخدامها وفي توسيع تلك المدافن الواقعة تحت الأرض حتّى القرن السادس من عصرنا. وأخيرًا، فإذا احتفل المسيحيّون بالإفخارستيّا في الدياميس، فلم يكن ذٰلك ليختبئوا، بل بالأحرى ليكونوا قرب الشهداء الذي قرّبتهم ذبيحتُهم من المسيح. وهٰكذا تُعاد الوقائع إلى حجمها الصحيح: ليست الدياميس إلّا مدافن، ولا شك في أنّ طبيعة الأرض وحدها في الريف القريب من روما (هي البُوتسُولانُو المعروف، أو الفُليساء التي تيبس حين تتعرَّض للهواء) تفسِّر كيف تمكّن المسيحيّون من الامتداد إلى العمق، بدل أن يُضطرّوا إلى الابتعاد شيئًا فشيئًا عن المدينة للبحث عن المكان المناسب. إنّ المدافن الرومانيّة كانت كلُّها في الأساس مدافن سطحيّة ولم يُقدموا على توسيعها عن طريق حفر دهاليز إلّا عند امتلائها. فأحدثُ المقابر هي إذًا أعمقها.

ومن جهةٍ أُخرى، لم يكن تزيين الدياميس المسيحيّة الأُولى أمرًا مُبتكَرًا. وهنا أيضًا لا بدّ من أن نُعيد النظر في أفكارنا المسبقة. فالإيقونوغرافية المسيحيّة لم تبتكر شيئًا باستثناء ما كان من المثال الكتابيّ. فالتصاوير الأُولى التي نشاهدها على سقوف ديماس كالستُس مثلًا هي مقتبسة ممّا تزيَّنت به القبور الوثنيّة: من شخصيّات أسطوريّة صغيرة وأكاليل وآنية، مرسومة داخل أُطُر أو خانات. والأسلوب هو أسلوب الرسم المتّبع في مدينة بُومپيي. ففي هٰذه المرحلة، كان الفارق الوحيد الذي يميِّز قبرًا مسيحيًّا استبدال صورة كتابيّة بأحد تلك الزخارف: كدانيال بين الأسود، والراعي الصالح، ونوح. غير أنّ تلك التصاوير كانت رمزيّةً كلّها: فقد مثّلت شخصيّات كتابيّة أنقذها الله من الخطر إنقاذًا عجائبيًّا. فليست تلك الرسوم رسومًا جنائزيّة، كما اعتقدوا مدّة من الزمن، بل رسوم خلاص.

وهٰذا هو أيضًا معنى الصور التي تمثِّل الفردوس، فكانت على نوعين: تارةً، نرى مشهدًا رعويًّا محضًا حيث يلعب الرعاة مع خرافهم، ونتأمّل في سلام الفردوس السماويّ؛ وتارةً أُخرى، نرى في الإطار نفسه راعيًا يحمي قطيعه من الذئاب، مع أنّ الفردوس يخلو من الذئاب. فالمشهد يمثِّل إذًا الفردوس الأرضيّ الذي ما زال معرَّضًا لإغراءات العالم، وحيث يجب على الكنيسة المجتمِعة حول راعيها أن تكافح وتدافع عن نفسها.

كلّ ذٰلك يصبح واضحًا، إن أدركنا أنّ المسيحيّ في العصور الأوائل كان يعتبر نفسه إنسانًا مخلَّصًا بفضل

عماده: لقد مات عن العالم وعاد، منذ ذٰلك الحين، إلى الفردوس. وليس ذٰلك الفردوس الأرضيّ، الذي يجسّد الفردوس السماويّ، سوى حضن الكنيسة، حيث يشعر المسيحيّ منذ الآن بأنّه ينتمي إلى عالَم آخر. وعلى عكس ذٰلك، فإذا صحَّ أنّ العماد هو موتٌ أوّل، فليس الموت عند المسيحيّ إلّا عمادًا ثانيًا: لهٰذا السبب لا نجد الوجه المأساويّ في أيّ من الرسوم الجداريّة داخل الدياميس (ولهٰذا السبب أيضًا، لا يخشى المسيحيّون أن يذكروا تاريخ الوفاة من أجل الاحتفال بالذكرى، خلافًا لما فعله الوثنيّون).

فبقدر ما نتقدّم إذًا في ذٰلك القرن، نلاحظ أنّ عناصر التزيين القديمة (من آنية وأكاليل وانتصارات، الخ) راحت تفسح في المجال أمام الموضوعات الكتابيّة. إلّا أنّ ما دفع من الداخل إلى ابتكار تلك الصور والأشكال كان رغبةً في التعبير أكثر منه اهتمامًا بالجمال، وما كان يغذّي تلك الرغبة كان رمزيّة المعموديّة قبل أيّ شيء آخر. فقد أظهرت صُوَر الدياميس أوّلًا حالة المعمَّد وسروره بأنّه مخلَّص على غرار أجداده الإسرائيليّين، ورجاءَه لسعادة أبديّة في الفردوس. أمّا الاهتمامات التعليميّة فقد أتت في وقت لاحق.

الفصل الثاني عشر

الرسالة إلى ديوغنيطُس

أو وضع المسيحيّين الغريب في العالم

بقلم أندرِه مَنْدُوز(*)

يبدو أنّ الرسالة إلى ديوغنيطُس يرقى عهدها إلى نهاية القرن الثاني، ومع ذٰلك فإنّنا نتعجّب اليوم من انطباقها على أوضاعنا الراهنة.

لقد اجتزنا بخطوات سريعة أكثر من قرنَين من حياة كنيسةٍ لا يمكن فصلها عن العالم. ولٰكن، لا مجال لاستخلاص النتائج منذ الآن، فإنّ التاريخ يمنعنا من القيام بشمل هٰذا العمل. ذٰلك بأنّ الإمبراطورين قسطنطين وليقينيُوس عبثًا أصدرا في السنة ٣١٣ اتّفاق تسامح حيال المسيحيّين، لأنّ هٰذه المبادرة المتوافَق عليها لم تكن بمثابة عصًا سحريّة: فلم يكفّ الوثنيّون عن اتّهام المسيحيّين، ولم تختفِ «المقالات الدفاعيّة عن الدين» التي كتبها المسيحيّون للردّ على الوثنيّين، حتّى إنّ أوغسطينُس رأى من الضروريّ، بعد مرور مائة سنة على الأمر، أن ينكبّ هو أيضًا على درس مستندات الملفّ. ولٰكن، لِمَ لم يتوقّف تَجابُه الجدل والدفاع عن الإيمان؟ إنّ تيارات الوعي الكبرى، شأن السفن الكبرى، لا تقف دفعةً واحدة، بل تستمرّ في اندفاعها. فحين توقّفت الاضطهادات الرسميّة (مع العودة إلى تصعيدها في عهد يوليانُس الجاحد)، ظلّت النفوس منقسمة مدّة طويلة.

فبات من المستحيل تأريخ بعضٍ من أهمّ نصوص الأدب الدفاعيّ عن الدين. وكان ذٰلك نتيجةً ودليلًا على ماضٍ لم ينقضِ ومستقبلٍ لم يأتِ. فالمؤلَّف الصغير والأساسي المُعَنونَ **إلى ديوغنيطس** ما زال يثير تساؤلات النقّاد.

هناك مَن يعتقد بأنّ لديه من الأسباب ما يسمح له أن ينسب الرسالة إلى بَنْطِينُس، معلّم إقليمنضس الإسكندريّ، وأن يحدّد تاريخها في حوالى السنوات ١٩٠-٢٠٠، في حين يتردّد بعضهم - وليسوا أقلّ علمًا - فمنهم من يجعل تاريخها بين ٦٤ و٣١٣ ومنهم بين القرنين الرابع والسادس عشر!

لٰكنّ ذٰلك ليس الأمر الجوهريّ في نظرنا: حتّى وإن لم يكن ديوغنيطُس حاكمًا من حكّام مصر وإن لم يكن كاتب الإرشاد الذي وُجِّه إليه من سكّان الإسكندريّة، فإنّ النصّ يبقى. وهو يفرّق بين المفسّرين المعاصرين كما أنّه يعكس الانقسام الذي قام بين المسحيّين والوثنيّين في الزمن الذي كُتِب فيه.

لقد كُتِب الكثير حول هٰذا المؤلَّف، لٰكنَّ الطبعة التي نجده اليوم منشورًا فيها لا تتضمّن إلّا ما يقارب العشر صفحات. ومع ذٰلك، ففي تلك الصفحات القليلة، جُمعت واختُصرت جميع موضوعات الدفاع المسيحيّ تقريبًا. سلبيًّا: رَفْضُ الآلهة الوثنيّة، ونبذ الممارسات اليهوديّة. إيجابيًّا: التعريف بإلٰه المسيحيّين، وطبيعة العبادة التي يؤدّونها له، وموقفهم من العالم، وعدم مبالاتهم بالموت، والمحبّة المتبادلة التي يكنّها بعضهم

(*) André Mandouze.

لبعض، وأخيرًا أسباب ظهور تلك الديانة الجدّيّة في وقت متأخّر.

ففي **الرسالة إلى ديوغنيطُس** نجد الموضوعات الكبرى التي تناولها «المدافعون عن الدين»، غير أنّها تختلف عنها بسكوتها عن بعض الموضوعات. فلا ذِكْر فيها، مثلًا، للافتراءات المعتادة التي قيلت ردًّا على «جرائم» المسيحيّين وعاداتهم، ولا للمشاكل القانونيّة التي قامت عليها الاضطهادات، ولا لمسؤولية المسيحيّين المذعومة عن الكوارث العامّة، ولا للكتاب المقدّس كمصدرٍ للوحي، ولا لمسألة القيامة.

ولٰكن، لو لم تكن هٰذه الرسالة سوى ملخّص مبتور عن أعمال المدافعين عن الدين، لَما أثارت هٰذا القدر من الاهتمام. فلقد رأى بعضُهم في هٰذا الكتاب الصغير «سفسطائيًّا مسيحيًّا حقيقيًّا»، لا بل «غرفة مُهملات». ورأى بعضهم الآخر، على عكس ذلك، أنّه «لؤلؤة» العالم المسيحيّ القديم، لأنّه إن استثنينا العهد الجديد، «فما من مؤلَّف مسيحيّ له ما لهٰذا الكتيّب من وقع في قلوب الشعب المسيحيّ»، ولقد كُتب له مصير فريد.

لا نشكّ في أنّ **الرسالة إلى ديوغنيطُس** ما زالت في أيّامنا على كامل قوّتها: وهي قوّة تجذب المسيحيّين في عصرنا وتنفّر بعض من يرفضون المسيحيَّة! ولكي نكون أُمناء لِما قصدنا في البداية من أن نَعرِض ملفًّا جدليًّا، فلن نتّخذ موقفًا، بل سنكتفي بجعل القارئ ديوغنيطُسًا جديدًا وبحمله، أيًّا كان، على مواجهة أكثر أقسام هٰذا الكتيّب حماوةً.

«... لا يتميَّز المسيحيّون عن غيرهم من الناس لا بالبلد، ولا باللغة، ولا بالثياب. ولا يسكنون مدنًا خاصّةً بهم، ولا يستخدمون لهجةً غريبة، ولا يتميَّز نمط حياتهم بأيّ شيء فريد. ولا يعود اكتشاف تعليمهم إلى المخيّلة أو إلى أحلام العقول المضطربة، ولا يدّعون، كغيرهم، أنّهم أبطال تعليم بشريّ. ويتوزّعون على مدن اليونانيّين والبرابرة وفقًا لنصيب كلٍّ واحد. ويتقيّدون بالعادات المحلّيّة في ما يختصّ بالملبس والمأكل وطريقة العيش، مع إعلانهم ما في جمهوريّتهم الروحيّة من قوانين خارقة وغريبة حقًّا.

إنّهم يقيمون كلٌّ في وطنه، ولٰكن كالغرباء النزلاء. ويؤدّون جميع واجباتهم كما يؤدّيها المواطنون، ويتحمّلون جميع الأعباء كتحمّل الغرباء. وكلُّ أرض غريبة هي وطن لهم، وكلُّ وطن هو أرض غريبة لهم. يتزوّجون كسائر الناس، ولهم أولاد، ولٰكنّهم لا يتخلّون عن أطفالهم. ويتقاسمون جميعًا مائدةً واحدة، ولٰكن لا فراشًا واحدًا.

إنّهم في الجسد، ولٰكنّهم لا يعيشون بحسب الجسد. ويقضون حياتهم على الأرض، ولٰكنّهم مواطنو السماء. ويخضعون للقوانين القائمة، وطريقة عيشهم تفوق القوانين كمالًا.

إنّهم يحبّون جميع الناس والجميع يضطهدونهم. لا يُقدرون حقَّ قدرهم ويُحكَم عليهم. يُقتَلون وبذٰلك يظفرون بالحياة. إنّهم فقراء ويُغنون عددًا كبيرًا من الناس. يعوزهم كلُّ شيء ويفيضون في كلِّ شيء. يُحتقَرون وفي هٰذا الاحتقار يجدون مجدَهم. يُفترَى عليهم فيبرَّرون. يُشتَمون فيبارِكون. يُهانون فيُكرِمون. لا يصنعون إلّا الخير ويعاقَبون كالمجرمين. يعاقَبون فيفرحون كأنّهم يولَدون للحياة. يحاربهم اليهود محاربتَهم الغرباء، ويضطهدهم اليونانيّون، والذين يكرهونهم يجهلون سبب بغضهم.

وقصارى القول إنّ المسيحيّين هم للعالم ما هي النفس للجسد. فإنّ النفس منتشرة في أعضاء الجسد كلِّها، كما ينتشر المسيحيّون في مدن العالم. وتقيم النفس في الجسد ومع ذٰلك ليست من الجسد، كالمسيحيّين الذين يقيمون في العالم مع أنّهم ليسوا من العالم. إنّ النفس هي غير منظورة، ومع ذٰلك فهي أسيرة في جسد منظور. هٰذا شأن المسيحيّين: يَرى الناسُ بوضوح أنّهم في العالم، ولٰكنّ العبادة التي يؤدّونها لله تبقى غير منظورة. إنّ الجسد يكره النفس ويعلن الحرب عليها، من غير أن تكون قد سبّبت له الأذى، لأنّها تمنعه من التمتُّع بالملذّات: كذٰلك يَكره العالمُ المسيحيّين، مع أنّهم لم يسبّبوا له الأذى، لأنّهم يعارضون ملذّاته. تحبّ النفس ذٰلك الجسد، وهو

يكرهها، وتحبّ أعضاءه، كما يحبّ المسيحيّون مَن يكرهونهم. النفس مُحتَجَزة في الجسد، ومع ذلك فهي التي تحفظ الجسد، والمسيحيّون هم كالمُحتَجَزين في سجن العالم، ومع ذلك فهم الذين يحفظون العالم. النفس خالدة ومع ذلك فهي تقيم في خيمة فانية: كذلك يخيِّم المسيحيّون في ما هو فاسد، منتظرين عدم الفساد السماويّ. تتحسَّن النفس حين تموت جوعًا وعطشًا، وحين يتعرّض المسيحيّون للاضطهاد، يتزايد عددهم يومًا بعد يوم، فإنَّ المنصب الذي حدَّده الله لهم هو من الرِفعة بحيث لا يجوز لهم أن يتركوه».

(الرسالة إلى ديوغنيطُس، V-VI)

الباب الثالث

القرن الرابع
عصر لا مثيل له

إنّ القرن المسيحيّ الرابع
قرن لا مثيل له في العظمة.
فبعد اهتداء قسطنطين،
انتهت الاضطهادات الكبرى.
ورجال عباقرة
أثّروا في تاريخ الكنيسة.
وقامت مناقشات يتوقّف عليها مستقبل الإيمان،
أدَّت، عَبرَ المرور بأزمات خطيرة،
إلى انعقاد المجامع المسكونيّة الأوائل.
وبات من المستحيل بعد ذلك
أن تُعالَج قضايا الإيمان من دون الرجوع
إلى أحداث ذلك العصر ومؤلّفاته.

عصر آباء الكنيسة الذهبيّ

بقلم أندرِه مَنْدُوز(*)

تعترف الكنيسة بأنّها عاشت حقبة لا مثيل لها، بدأت، على وجه التقريب، بـ«المرسوم» الشهير الذي أصدره قسطنطين سنة ٣١٣، وانتهت بوفاة القدّيس أوغسطينُس واستيلاء الڤاندال على هِيبُّونَة سنة ٤٣٠ (ما لم نصل بها إلى انعقاد المجمع الخلقيدونيّ في السنة ٤٥١).

وكانت تلك الحقبة من تاريخ الكنيسة منقطعةَ النظير، لا لأنّها نعمت بالسلام وحسب (باستثناء اضطهادٍ قصيرِ المدّة في عهد يُوليانُس الجاحد وبعض ردود الفعل العنيفة من قِبَل الأباطرة الأريوسيّين أو المؤيِّدين للأريوسيّة)، بل، قبل كلّ شيء، لأنّ عدد العظماء كثر فيها جدًّا. ولم تَعرف بعد ذٰلك في حياتها قرنًا برز فيه، في وقتٍ واحد، رجالٌ أمثال أَثَناسِيوس الإسكندريّ وباسيليوس القيصريّ وغريغوريوس النازيانزي وغريغوريوس النيصِيّ ويوحنّا الذهبيّ الفم وهِيلارِيُون أسقف پُواتِييه، وأَمْبرُوسِيوس أسقف ميلانو وهِيرُونِيمُس وأوغسطينُس، مع أنّه يحسن بنا أن نضيف هنا أنّ أشخاصًا آخرين ككيرلّس الإسكندريّ وكيرلّس الأورشليميّ وإِپيفانِيُوس وثِيودُورُس المصّيصيّ، وثِيوُدُورِيطُس القُورشيّ وكثيرين غيرهم، لو عاشوا في حقبات أُخَر، للفتوا كلّ الأنظار إليهم، في حين أنّ ألمع الآباء الذين ذكرناهم قد غطّوا عليهم بعض الشيء.

إنّ مثل هٰذا الفيض من العباقرة يُلاحَظ ولا يفسَّر. ومع ذٰلك، فقد نرتكب خطأً فادحًا إنْ عَزَلنا أولٰئك العظماء. فإذا كان لهم مثل تلك الألمعيّة، فلأنّهم عاشوا أيضًا في حقبة تميَّزت بأمرين: من جهة، بلغت الكنيسة من الأهمّيّة مبلغًا مكّنها من نشر مؤلّفاتهم ومشاريعهم في العالم الرومانيّ كلّه، وحتّى ما وراء حدوده. ومن جهة أخرى، فبدلَ أن تَعمل شخصيّةُ أولٰئك الرجال - وكانوا أساقفة في معظمهم - على عزلهم عن الشعب المسيحيّ، فقد استندت إلى الجماعات وأهّلتها لمواجهة الإمبراطور أو البابا عند اقتضاء الحال.

بدا من بعض النواحي أنّ العصر الرسوليّ وحتّى عهد المدافعين عن الدين والشهداء قد أمسى بعيدًا جدًّا. ولٰكن لا تجوز المبالغة: فإذا صحَّ أنَّ المجمع النيقاويّ حدَّد ما هو أساسيّ في اللاهوت الثالوثيّ، فسرعان ما نلاحظ أنَّ المشاكل الجوهريّة تنقّلت ليس إلّا، طوال الحقبة نفسها، لأنّ المناظرات تطوَّرت حول تحديد شخص المسيح. أمّا الشهداء فقد حلَّ الرهبان محلّهم، بوجهٍ من الوجوه، إذ عادوا فأدخلوا، مع ترويض النفس، مثالَ كمالٍ عمِلَ انتصارُ الكنيسة نفسُه على التخفيف من قوّته. وليس من باب المصادفة أن يكون معظم الآباء رهبانًا، أساقفةً رهبانًا في كثير من الأحيان أو رهبانًا أساقفة، وفي جميع الأحوال مؤيِّدين للحياة الرهبانيّة.

وأخيرًا، لا يجوز أن تُنسينا صلةُ الآباء بحاضر الكنيسة وماضيها صلتَهُم بالمستقبل. ولا بدّ هنا من أن نفهم أنّ هناك، بالإضافة إلى المكاسب التي ندين لها

(*) André Mandouze، أستاذ في جامعة باريس - السوربون.

للآباء، تلك المخاطر التي لم تزل عظمتُهم، ولا تزال، تعرِّض الكنيسة لها، بسبب ما عندنا من أنواع التواضع المزيَّف أو الجبن الحقيقيّ.

منذ العديد من القرون، يبدو عصرُ الآباء الذهبيّ زمنًا لن يتكرّر أبدًا في تاريخ الكنيسة. منذ العديد من القرون، حين تقوم المناظرات في الكنيسة أو حين تُطرح المشاكل في العالم، لا تفكِّر الكنيسة في تسويتها إلّا بالاستناد إلى الحلول التي اقترحها الآباء في القرن الرابع أو الخامس. منذ العديد من القرون، يُرفع شأن الآباء، بدل القيام بما قاموا به، أي بدل الإبداع والابتكار والاتّكال على الروح القدس.

ومع ذٰلك، فلنكن واثقين بأنّ أغلى أُمنية على قلب آباء الكنيسة كانت أن يلِدُوا لها الأبناء.

الفصل الأوّل

إهتداء قسطنطين

بقلم كلُود لُوپِليه(*)

على عهد قسطنطين، حصل انقلاب سياسيّ لا يمكن تصوّره:
فبعد أن كانت الكنيسة مضطهَدة،
أصبحت صاحبة امتيازات.
إلّا أنّ حماية الإمبراطور لم تكن بدون مقابل.



قسطنطين الكبير

في مطلعِ القرن الرابع، كان المسيحيّون يعيشون في القلق والرعب. فبأمرٍ من الإمبراطور ديوقليتيانُس، ثارت عليهم أدمى الاضطهادات التي عانتها الكنيسة الناشئة. وقد بدأت في السنة ٣٠٣ وامتدّت حتّى السنة ٣٠٥ في الغرب وحتّى السنة ٣١١ في الشرق.

وبعد ذلك، وأمام استغراب المعاصرين، حصل في بضع سنواتٍ انقلابٌ سياسيّ لم تتصوّره الأجيال السابقة: وهو تأسيس الإمبراطوريّة المسيحيّة.

وكانت أُولى بشائرها العودة إلى التسامح الذي عُمل به في السنوات التي سبقت المحنة - ذلك بأنّ الكنيسة قد تمكّنت من العيش بسلام من ٢٦٠ إلى ٣٠٣. وفي الغرب، توقّف الاضطهاد منذ أن تنازل ديوقليتيانُس عن العرش سنة ٣٠٥.

هذا وإنّ الاضطهاد لم يكن عنيفًا على الإطلاق في غاليا وبريطانيا العظمى بفضل اعتدال قُسطَنسيوس كلُور. أمّا الانقلاب الأكثر وقعًا، فقد حدث في الشرق

(*) Claude Lepelley، أستاذ محاضر في جامعة ليل الثالثة.

حيث عاد الإمبراطور غاليريُوس، وهو ألدّ خصوم المسيحيّة، إلى التسامح، قبل وفاته سنة ٣١١، بعد أن لاحظ إخفاق القمع.

وقسطنطين هو الذي كُتب له أن يذهب إلى أبعد من ذلك...

فرصة سياسيّة في متناول المسيحيّين

قدَّم قسطنطين إلى المسيحيّين فرصتهم السياسيّة الأُولى. إذ إنَّ اهتداءه لم يكن شأنًا فرديًّا وخاصًّا، بل كان له انعكاسات سياسيّة ودلَّ على رغبة في تنصير الدولة. وتشهد على ذٰلك سياسة الإمبراطور الدينيّة.

أنْ يكون للمسيحيّين رئيس دولة منهم، فذٰلك ما يسهِّل حياتهم بلا شكّ، ولٰكنّه يجرّهم أيضًا إلى أنواع الحلّ الوسط والتواطؤ. وبعد أن كانت المسيحيّة ديانةَ أقليّةٍ متحمِّسة، أصبحت شيئًا فشيئًا ديانةَ الدولة. ولم يتمّ ذٰلك بدون عراك في الضمائر.

أمير طَموح

وُلد فلاڤيوس ڤالِيريوس قسطنطينُس، ابن قسطنسيوس الأوّل وخليلتِه هيلانة، في حوالى السنوات ٢٨٠-٢٨٥، في صربيا الحاليّة. وتربّى في بلاط ديوقليتيانُس ولم يطل به الأمر حتّى انخرط في الجيش حيث حارب بإمرة غاليريوس. لم يكن يحقّ لقسطنطين عادةً أن يقوم بأيِّ دور رسميّ، إلى أن استدعاه أبوه الذي أصبح أوغسطُس الغرب. ولٰكن، لمّا توفِّيَ قسطنسيوس كلور، تعثَّر نظام الخلافة القائم، فكَثُر عدد المرشَّحين لتولّي الإمبراطوريّة. إلّا أنّ قسطنطين كانت له حظوة عند الجنود، فما كان من الجيش إلّا أن أعلنه إمبراطورًا. وامتدّت سلطته إلى غاليا وبريطانيا وإسبانيا. لٰكنّ خصمه مَكْسانْسِيوس، ابن مكسيميانُس، أراد أن يُحبط مساعيه، فأوصل نفسه إلى الحكم في رومة. وأصبح سيِّد إيطاليا وقسمٍ من أفريقيا. لٰكنّ قسطنطين هزمه على أبواب رومة، عند جسر مِلْڤِيوس سنة ٣١٢.

سيطر قسطنطين على الغرب. والتقى سنة ٣١٣ في ميلانو نظيرَه الإمبراطور لِيقِينِيوس الذي حكم الشرق بعد أن تغلَّب، هو أيضًا، على خصومه. فعقد الرجلان حلفًا ولاحظا تطابق نظرتيهما إلى سياسة التسامح التي كانا ينويان أن يُنعِما بها على المسيحيّين. وسُمِّي هٰذا الاتفاق في ما بعد «مرسوم ميلانو»، مع أنّه لم يصدر أيّ مرسوم في تلك الأيّام.

إمتيازات

سرعان ما أظهر قسطنطين حسن التفاتٍ إلى المسيحيّين - وكان أبوه له مثالَ التسامح - وأراد أن يقرن أعمالَه بمشاعره. فما لبث أن عدَّل منحى سياسته ووجَّهها إلى مساعدة المسيحيّة. وهناك عدّة نصوص قانونيّة تشهد على عطف الإمبراطور ونواياه الحسنة.

فمنذ السنة ٣١٣، استفادت الكنيسة من هبات نقديّة وتمتَّعت بامتيازات ماليّة. وفي السنة ٣١٥، ظهرت رموز مسيحيّة على قطع النقد وانتهى بها الأمر إلى حجب الرموز الوثنيّة تمامًا.

وازدادت هيبة الأساقفة وأخذت السلطات المدنيّة تعترف بسلطتهم: فاعتبارًا من السنة ٣١٨، أصبح في إمكان المتقاضِين أن يرفعوا قضيّتَهم إلى محكمة الأسقف. فكان للحكم الأسقفيّ ما كان لحكم القضاة البلديّين من سلطة قانونيّة.

وفي السنة ٣٢٠، رُقِّيَ يوم الأَحد إلى يوم بطالة. فلا عجب أن يُصبح الكتّاب المسيحيّون شعراء غنائيّين وأن يقتدوا بالأسقف المؤرِّخ أوسابيوس القيصريّ، فيرفعوا شأن الإمبراطور «الذي باركه الله» والمُحسِن إلى الكنيسة.

أمّا الحِلف الذي قام بين لِيقِينيوس وقسطنطين، فلم يكن طويل الأمد، لأنّ كلّ واحد كان يسعى لإعادة الوحدة إلى الإمبراطوريّة لمنفعته وحده. فتدهورت العلاقات القائمة بين الإمبراطورين. وفي السنة ٣٢٣، خرج قسطنطين ليحارب خصمه. فانهزم ليقينيوس وقُتِل في ساحة المعركة سنة ٣٢٤.

لم ينفتح ليقينيوس على الإيمان المسيحيّ، بل كان أمينًا لقناعاته، حتّى إنّه حاول، تحدّيًا لخصمه، أن يستأنف سياسةً معاديةً للمسيحيّين. وفي تلك الأحوال، لم يصعب على قسطنطين أن يُظهِر حملَته في الشرق بمظهر محارَبة الوثنيّة وحملةٍ دينيّة عليها...

وما لبث المسيحيّون أن رأوا في السيِّد الوحيد على الإمبراطوريّة كلِّها، واحدًا منهم.

إهتداء الإمبراطور

لكنّ قسطنطين لم يقتبل المعموديّة إلّا على فراش الموت سنة ٣٣٧.

غير أنّ ذٰلك لم يمنعه أن يكون مسيحيًّا في قلبه منذ سنين طوال.

إلى أيّ وقتٍ بالضبط يرقى اهتداؤه؟

سرعان ما اختلق الناس أساطير تقويّة: فمنهم من يقول إنّ المسيح نفسَه أعلن لقسطنطين انتصاره في معركة جسر مِلْڤيوس. ومنهم من يعتقد أنّ صليبًا نيّرًا في السماء كشف له طريق النصر. وقد سبقت عظمةُ الأساطير روعةَ إعلان القداسة (فحتّى اليوم، ما زالت الكنيسة الشرقيّة تكرّم القدّيس قسطنطين...).

لا شكّ في أنّ الواقع هو أقلّ حَمْلًا على التقوى. فهيهات أن يكون قسطنطين حاكمًا «إنجيليًّا»، لأنه سار سيرة المستبدّ الصارم وغير المتساهل. ولم يكفّ، لأسباب ترتبط بمصلحة الدولة، عن التشديد على الطابع الجائر والبوروقراطيّ والبوليسيّ الذي تميَّزت به الإمبراطوريّة الرومانيّة منذ أيّام ديوقليتيانُس. وقد وقع عدّة أعضاء من عائلته ضحيّة قراراته السياسيّة، فأمر بقتل امرأته وابنه كريسپُس...

ولٰكن، على الرغم من أعمال قسطنطين - رجل الدولة - البشعة، فقد اعتنق المسيحيّة من صميم القلب. وكانت الأسباب دينيّة لا سياسيّة، خلافًا لِما وصفها بعض المؤرِّخين الحديثين. في الحقيقة، لم يكن المعتقَد الشخصيّ والمصلحة السياسيّة أمرين يستحيل التوفيق بينهما. ومن الممكن أن يكون تعاطُف قسطنطين مع المسيحيّة قد لاقى دعمًا كبيرًا من ملاحظته الإخفاق الدامي الذي مُنيت به سياسة ديوقليتيانُس الدينيّة، ومن ملامح وحدةٍ جديدة بين القلوب شقَّ الطريقَ إليها نجاحُ الديانة المسيحيّة المتزايد.

ويبدو أنّ اهتداء قسطنطين كان تدريجيًّا وربّما تمَّ بإرشاد المستشار الكنسيّ الإمبراطوريّ، أوزيوس أسقف قُرطبة الإسبانيّ. مهما يكن من أمر، فإنّ قسطنطين، بلا شكّ، قد أصبح مسيحيًّا يومَ جابه ليقينيوس.

ولٰكن، أفلم يلتمس العماد؟ في ذٰلك الزمان، كان من المألوف أن يُؤجَّل اقتبال هٰذا السرّ، وفي كثير من الأحيان إلى اللحظة الأخيرة، وبوجهٍ خاصّ إذا كان المعنيّون أشخاصًا تدفعهم وظائفهم الرسميّة إلى ارتكاب أعمال تُعتَبَر معارضة للمسيحيّة، كسَفْك الدم. علاوةً على ذٰلك، فلو تعمَّد قسطنطين، لأُجبر على التخلّي عن صلاحيّاته الدينيّة الوثنيّة وعن وظيفته كحبر الديانة الأعظم، علمًا بأنّ مثل هٰذا التخلّي، لو تمّ في ذٰلك العصر، لاعتُبِر خطأً سياسيًّا.

سياسة دينيّة حاضرة في كلّ مكان

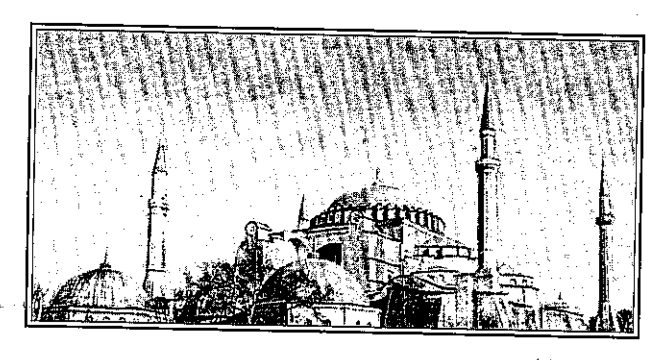
إعتبارًا من السنة ٣٢٤، ضاعف قسطنطين إجراءات المجاملة ومبادراته لمصالح الكنائس. وفي رومة، قدَّم إلى أسقف المدينة قصر اللاتران الذي بقي مقرّ البابوات لعدّة قرون.

ورغِب قسطنطين، على غرار كبار الأباطرة أسلافه، في أن تشهد الهندسة المعماريّة على قدرته وأراد أن يكون منسّق العمل. فطلب أن تُشيَّد قرب اللاتران باسيليكا واسعة لتكون كاتدرائيّة أسقف رومة. وبرغبة منه - وعلى نفقته -، تكلَّل الڤاتيكان بكنيسة ضخمة شُيِّدت إحياءً لذكرى القدّيس بطرس. وانتصبت كنيسة أُخرى على طريق أُوستِيا إكرامًا للقدّيس بولس.

أمّا الإمبراطورة الأمّ، هيلانة، فقد حجّت إلى الأماكن المقدّسة في فلسطين وأمرت بأن تُشيَّد، على حساب الدولة، باسيليكا القبر المقدّس في أورشليم وباسيليكا بيت لحم.

ولدوافع إستراتيجيّة، اختار قسطنطين عاصمةً جديدة هي بيزنطية على البُوسفور، في وجه البرابرة المحتشدين على جَبهتي الدانوب وبلاد فارس. وبعد القيام بأعمال ضخمة، تحوّلت بيزنطية إلى القسطنطينيّة. وفي السنة ٣٣٠، أفسح تدشينُها المجال لأربعين يومًا من الأعياد المهيبة، اختلطت فيها الاحتفالات المسيحيّة والوثنيّة. وكان من بين المباني المُشيَّدة ثلاث كنائس، هي: كنيسة القدّيسة صوفيا، وكنيسة القدّيسة إيرِنيي، وباسيليكا الرسل الاثنيَ عشر. وكان في هٰذه الباسيليكا تابوت من رخام سمّاقيّ معدّ للإمبراطور. وقد دُفِن فيه بصفته «الرسول الثالث عشر» أو المُساوي للرسل.

قوانين «مسيحيّة»


كنيسة صوفيا

إشترك التشريع والكَرَم في إغناء الكنيسة. فأذنت القوانين للكنائس في اكتساب الأموال. وتنافس عطف الأفراد الأغنياء وعطف الإمبراطور في تشجيع بناء أوقافٍ كنسيّة وافرة.

وتشرَّب التشريع التأثيرَ المسيحيّ. ورمت سلسلةٌ من النصوص إلى إقامة نظام أخلاقيّ صارم: فحرَّمت بعضُ القوانين الزنى مع الإماء وعرقلت طريق الطلاق، وجعلت الاستسرار جرمًا. واعتزمت نصوصٌ أخرى حمايةَ العبيد من خشونة سادتهم، والسجناءِ من شراسة حرّاسهم. وفي قانون أصدره قسطنطين، أمر بأن يمكَّن السجناء من رؤية نور الشمس يوميًّا. وبرزت مساعٍ لوقف ممارسة نبذ الأطفال، ولتجنيب الأولاد سوءَ المعاملة، ولحماية الأرامل والأيتام. ولقد أفادت عائلات العبيد من بعض التدابير التشريعيّة، إذ إنّ قسطنطين منع تشتيت أعضاء عائلة من العبيد في أثناء بيع أموال الدولة.

وفي السنة ٣٢٥، صدر قانون يمنع مشاهد المصارعين. ولٰكنّ تلك الألعاب التي تميّزت بوحشيّة فظيعة كانت شعبيّة إلى حدّ بعيد، فلم يُطبَّق القرار إلّا جزئيًّا. ومع ذٰلك، اختفت تلك المجازر العامّة والمشروعة تدريجًا في القرن الرابع.

حامي الكنيسة

تدخَّل قسطنطين في شؤون الكنيسة الداخليّة. فمنذ السنة ٣١٣، جاء إليه مسيحيّو أفريقيا المنقسمون إلى معسكرَين متنافسَين ليستشيروه. فأيّد قِقليانُس أسقف قرطاجة، وكان فريقٌ متشدِّد بقيادة دُوناطُس قد شكّ في صحّة انتخابه. إلّا أنّ دوناطُس أحدث انشقاقًا قَسَم كنيسةَ أفريقيا لأكثر من قرن.

وبعد انتصار قسطنطين على ليقينيوس، وَجَد في الشرق أنّ الأقاليم الناطقة باليونانيّة قد مزّقها الخلافُ

الأريوسيّ. وأراد أن يحسم المشكلة اللاهوتيّة الخطيرة التي طرحها هٰذا الخلاف، فبادر إلى دعوة أوّل مجمع مسكونيّ في التاريخ، هو المجمع النيقاويّ الذي انعقد سنة ٣٢٥.

ورأس الإمبراطور بنفسه جلسات المجمع، وحدّد جدول الأعمال وأصدر القرارات... وبذٰلك، لم يتمّ ازدياد الحُظْوة، التي نالتها الكنيسة عند الإمبراطور يومًا بعد يوم، من دون تدخُّل السلطة المدنيّة تدخّلًا خطِرًا في الشؤون الدينيّة.

أشاد أوسابيوس القيصريّ بإمبراطوره قسطنطين بصفته حاميَ الكنيسة، ولم يخشَ أن يرى مرارًا في الإمبراطوريّة المسيحيّة الجديدة ملكوت الله القائم على الأرض. وزعم أوسابيوس أنّ الإمبراطور، الذي كتب الله الحكمَ له، يحكم بالنعمة الإلٰهيّة ويحلّ على الأرض محلَّ الله الذي يلهمه قراراته. ولقد رأى أوسابيوس في الإمبراطور كائنًا يفوق البشر ويشارك في المعرفة الإلٰهيّة.

وثيقة

تجربة كُتب لها الإخفاق

«..مسألتان شغلتا فكر يوليانس: الجليليّون،
كما دعاهم من باب التحقير،
والفرس الذين قاوموه بأسلحتهم مقاومةً شديدة. ولكنَّ ما
يعنينا بدا له أهمّ بكثير فأولاه عنايةً أكبر
حتّى إنّ الحرب مع الفرس لم تكن في نظره سوى
مجرد أمر تافه...
إنّ ذلك الرجل النافذ البصيرة وذلك الوصيّ الكامل على الدولة
لم يرد أن يفهم أنّ الاضطهادات السابقة لم تؤدِ إلّا
إلى القليل من الاضطرابات والبلبلة
لأنّ تعليمنا لم يكن قد استمال الشعب، ولأنّ الحقيقة
لم تكن قد زُرعَت إلّا في عدد قليل
من العقول وكانت تفتقر إلى السطوع. أمّا الآن
وقد انتشرت كلمة الخلاص
وهي تتمتّع بسلطة كبيرة عندنا، فإنّ محاولة إزاحة الدين
المسيحيّ والحلول محلّه كانت تعني زعزعة الإمبراطوريّة
الرومانيّة وتعريض الدولة كلّها للخطر،
ولكانت كما لو فرض على نفسه معاملةً لا يتمنّى لنا أسوأ
منها أعداؤنا أنفسُهم..»

(غريغوريوس النازيانزيّ، **الردّ على يوليانُس I**، ٧٤ (كُتِب سنة ٣٦٣))

تساهلات الإمبراطوريّة المسيحيّة

قبل عدّة سنوات، كان المسيحيّون الذين شنّعت عليهم الإمبراطورية الرومانيّة، أوائلَ مَن اعتبروا أنّه لا يمكن التوفيق بين الله وقيصر. أمّا اليوم فقد أصبحوا أنصار الإمبراطوريّة. لكنّ ذلك الانضواء الباهر كان يحمل في طيّاته أيضًا صعوباته وتساهلاته الخطرة.

ومهما كان العطف رسميًّا وصادقًا، فلم يكن أبدًا خاليًا من المنفعة. والثمن الذي وجب على الكنيسة القسطنطينيّة أن تدفعه لقاء الحظوة لدى الإمبراطور كان باهظًا.

أُسقف الخارج

كان الأباطرة أحبار الديانة الرومانيَّة الأعظمين، فلم يكونوا مهيَّئين أو مستعدّين لأن يعترفوا للسلطة الكنسيّة باستقلالها في مجالها وسيادتها: ولم تكن فكرة الفصل بين السلطتَيْن المدنيّة والدينيّة ناضجة في ذلك الزمن. فعيَّن قسطنطين نفسَه «أُسقف الخارج» واعتبره أوسابيوس أهلًا لإصدار الأوامر لرؤساء الكنائس، «وكأنّه أسقف من قِبَل الله».

وفي أثناء الأزمة الأريوسيّة، ادَّعى قسطنطين وخلفاؤه أنَّ لهم أن يحدِّدوا الإيمان المسيحيّ، فحاول أيضًا قسطنسيوس الثاني، ابن قسطنطين، أن يفرض البدعة الأريوسيّة على المسيحيّين بالقوّة.

وبذلك، بدأت ترتسم منذ ذلك الحين خيوط ما دُعي في العصر الوسيط «القيصريّة البابويّة»، أي ذلك النظام الذي يحلّ فيه الإمبراطور محلَّ السلطات الكنسيّة (البابا والمجامع والأساقفة) في إدارة شؤون الكنيسة، حتّى على صعيد التعليم.

ردّ فعل الأساقفة

وأخذ الأساقفة يعارضون الأباطرة، فجلبوا على أنفسهم الصواعق الإمبراطوريّة. من ذلك أنّ القدّيس أثناسيوس، الذي «أذنب» بالدفاع عن الرأي القويم في وجه الأباطرة الأريوسيّين، دفع ثمن جرأته بعدّة سنوات في المنفى.

وفي بداية القرن الخامس، جرؤ أسقف القسطنطينيّة، القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، على توجيه بعض اللوم إلى الإمبراطور والإمبراطورة. فلم يتحمَّل الأسقف المعزول المعاملة السيّئة التي كابدها، ومات في المنفى.

وفي المقابل، عرف القدّيس أمبروسيوس، أسقف ميلانو من ٣٧٤ إلى ٣٩٧، أن يجد الكلمات والطريقة المناسبة والحازمة ليذكّر باستقلال السلطة الروحيّة: فعلى سبيل المثال، أقدم ثيودوسيوس على قتل بضعة آلاف شخص في تسالونيقي فحُرِم سنة ٣٩٠. وكان على الإمبراطور أن يكفِّر عن ذنبه قبل أن يعاد قبوله في الكنيسة.

كنيسة «متمركزة» في العالم

باتت الكنيسة في حماية الدولة ومرتبطةً بها، فكان ميلها أن تَقبل وتبارك بالإجمال جميع مظاهر الحياة السياسيّة والاجتماعيّة حتّى أكثرها عرضةً للجدل من وجهة نظر الأخلاق المسيحيّة. وأظهر الأساقفة فتورًا في احتجاجهم على خشونة الاستبداد البوليسيّ الذي يمارسه «الأباطرة الأتقياء» أو على قساوة بعض القوانين الجزائيّة. وفي الواقع، أثْرَت الكنيسة إثراءً سريعًا، وأصبحت صاحبة أراضٍ شاسعةٍ واسعةٍ ورضخت لعدم المساواة الاجتماعيّة. لا شكّ في أنّ آباء الكنيسة كثيرًا ما تدخّلوا لمصلحة المحرومين وضحايا الظلم، فهاجم

القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم بعنف في عظاته أنانيةَ الأغنياء. وبالطبع، اجتهدت الكنائس التي ازدهرت، في إسعاف الفقراء، وبكثير من السخاء أحيانًا. ولٰكن لا بدّ من الإقرار بأنّ التواطؤ بين المسيحيّة القسطنطينيّة والنظام القائم كانت له عواقب وخيمة في بعض الأحيان، وبأنّ الكنيسة المتمركزة في العالم والمستفيدة من إنعامات السلطات تخلّت كثيرًا عن دورها النبويّ. أفلم يعتقد أوغسطينُس، مع أنّه كان صاحب العقل المميَّز والمستقلّ، في كتابه **مدينة الله**، أنّه لا بدّ من تبرير العبوديّة بمسوِّغ لاهوتيّ؟

وهل يجب الاعتقاد، مع المؤرِّخ جاك زِيلِر، أنّ حماية الدولة الرومانيّة للكنيسة كانت «محنةً أرهب من عدائها»؟ قد يكون هٰذا الحُكم مبالَغًا فيه، ولٰكنّه يعبّر، على كلّ حال، عن واقع معيَّن.

ولٰكن لا يجوز أن ننسى أنّ المفاهيم العصريّة القائلة بالفصل بين الدولة، المسؤولة عن الشأن الدنيويّ، والكنيسة، الحرّة في رسالتها الروحيّة، لم تكن معقولةً في العالم القديم حيث كانت الديانة والحياة السياسيّة والحياة الاجتماعيّة تتشابك تشابكًا وثيقًا.

في الواقع، كان عدم التمييز بين السلطات نتيجةً مباشرة للحفاظ على الطابع القدسيّ الذي وُسِمت به المَلَكيّة الإمبراطوريّة في الإمبراطوريّة المسيحيّة. وإلى جانب ذٰلك، كان من البديهيّ أن تؤدّي بلاغةُ أساقفة البلاط - كأوسابيوس - في وصف الدور الأسقفيّ الذي يضطلع به الإمبراطور ومصدرِ سلطته الإلٰهيّ، إلى حضّه على القيام بمهمّة رئيسِ كنيسة.

نحو مسيحيّة تكون دينًا للدولة

منذ ٣٣١، عمل قسطنطين على إحصاء ثروات المعابد الوثنيّة ومصادرتها، وحرّم القيام ببعض الاحتفالات. لٰكنّ الوثنيّة ما زالت قوّة، فظلّت مسموحًا بها. وكان أنصارها والمدافعون عنها يَخرجون من طرفَي المجتمع: من الأرستقراطيّة - إنّ مجلس شيوخ رومة، وكان حارس التقليد، حافظ مدّةً طويلةً على غالبيّة وثنيّة - ومن الفلّاحين، علمًا بأنّ كلمة paganus (فلّاح) اتّخذت، في آخر الأمر، معنى الوثنيّ. وانطلقت هدايةُ أهل الأرياف انطلاقًا بطيئًا في القرن الرابع، ونذكر في هذا الصدد ما تمّ في منطقة اللُوار (غاليا)، حيث باشر القدّيس مَرتينُس أسقف تُور إرساليّات تبشيريّة.

نهاية الوثنيّة

ومع ذٰلك، اهتدت الأرستقراطيّة شيئًا فشيئًا، إلّا أنّها بقيت معقل ردود الفعل الوثنيّة حتى نهاية القرن. ولمّا أصبح يوليانُس «الجاحد»، نسيب قسطنطين، إمبراطورًا في ٣٦١، كان الوثنيّون لا يزالون يأملون في انقلاب الأوضاع: وبالفعل، عاد يوليانُس إلى الديانة القديمة وأبدى عدائيّة علنيّة للمسيحيّة. ولٰكنّ «الجاحد» مات في إحدى الحروب مع الفرس سنة ٣٦٣، فلم يبقَ أيُّ شيء من محاولته العودة إلى الماضي: إذ إنّ التحوّل الذي تمَّ منذ عهد قسطنطين لم يعد إلى الوراء. يشهد على ذٰلك الإخفاق الذي مُني به يوليانُس.

وفي نهاية القرن الرابع، أقدم الإمبراطور ثِيودُوسِيوس (٣٧٩-٣٩٥) على قطع آخر الروابط التي كانت تجمع بين الدولة الرومانيّة والوثنيّة: فتخلّى عن لقب الحبر الأعظم وألغى جميع الامتيازات الخاصّة بالمعابد الوثنيّة والكهنة الوثنيّين، وصادر ممتلكاتهم.

واعتبارًا من ٣٩١، اتُّخِذت تدابير تشريعيّة تقضي بمنع جميع المظاهر العامّة التي كانت الديانة القديمة تتميَّز بها. وأُغلِقت المعابد، ودُمِّرت التماثيل في أغلب الأحيان.

لم يُضطهَد الوثنيّون كما اضطُهِد المسيحيّون من قبل، ولٰكن مُورِسَ عليهم ضغط شديد كان يسعى إلى الحصول على اهتداءات جماعيّة. ولم تتأخّر النتائج قطّ في الظهور: فازداد عدد المسيحيّين ازديادًا، يتجاوز

الحدّ. ولٰكن، كان الكثير من المهتدين الجدُد مسيحيّين بالاسم فقط، فكان إيمانهم سطحيًّا وطريقة عيشهم قليلةَ التأثُّر بالتعاليم المسيحيّة. وبالتالي، مالت حرارة الجماعات المسيحيّة إلى الفتور.

منازعات هامشيَّة

حين زحف البرابرة على الإمبراطوريّة في مطلع القرن الخامس، وحين احتلّ الغُوط رومة بقيادة الملك ألاريك ونهبوها في ٤١٠، ارتفعت أصواتٌ تنسب الكارثة إلى غضب الآلهة التي أُهينَت بسبب التخلّي عن عبادتها، وتدّعي أنَّ المسيحيّين هم المذنبون. فبادر القدّيس أوغسطينُس إلى الردّ على تلك التهجمّات، واضعًا مؤلَّفه **مدينة الله**. وأوضح أنّ الإمبراطوريّة الرومانيّة تنتمي إلى المدينة الأرضيّة، فهي بالتالي حقيقة بشريَّة عابرة، وأنّ مدينة الله هي وحدها أبديّة. وكتب أوغسطينُس قائلًا إنَّ الأباطرة «يكونون سعداء إن حكموا بالعدل وإن لم يتعجرفوا، وسطَ المدائح الذي تشيد بهم بمذلَّةٍ بالغة، وإن تذكَّروا أنَّهم ليسوا سوى بشر».

كان أوغسطينُس مواطنًا رومانيًّا أصيلًا، ولٰكنّه رفض رفضًا قاطعًا أن يعتبر الدولة ورئيسَها مقدَّسَين أو إلهيَّين، كما كان الوثنيّون يفعلون وكما حاولَ أوسابيوس القيصريّ أن يفعل في عهد قسطنطين من وجهة نظر مسيحيّة أو مسيحيّة منتحلة.

وبعد مضيّ قرن على غياب قسطنطين، وبعد المحنة المأسويّة التي خلقتها الأزمة الأريوسيّة، ووسط الكارثة التي لا سابِق لها والتي تمثَّلت بالغزو الجرمانيّ، بدأ المسيحيّون يفهمون أنّ الإمبراطوريّة ليست ملكوت الله في الأرض.

وكان آخرون، وهم مسيحيّون هامشيّون، قد حاولوا أن يعترضوا على مواقف الكنيسة القسطنطينيَّة. وقد اتّخذت معارضتهم هذه أشكالًا شديدةَ التنوّع، نذكر منها تأسيس كنائس منشقَّة – وكان أبلغ الأمثلة الحجمُ الذي أخذته الدوناطِيّة الأفريقيّة في القرن الرابع –، ومعارضةُ بعض الأساقفة للتجاوزات التي ارتكبتها السلطة الإمبراطوريّة، والموقف المؤيِّد الذي اتّخذته بعض المجموعات المسيحيّة في زمن الاجتياحات... ولٰكن لا بدّ من أن نعلم بأنّ ردّ الفعل الوثنيّ، وتحفّظات بعض المسيحيّين كذٰلك، كان لها تأثير سياسيّ ودينيّ ضئيل في مقابل المصالحة بين المسيحيّة المنتصرة والدولة.

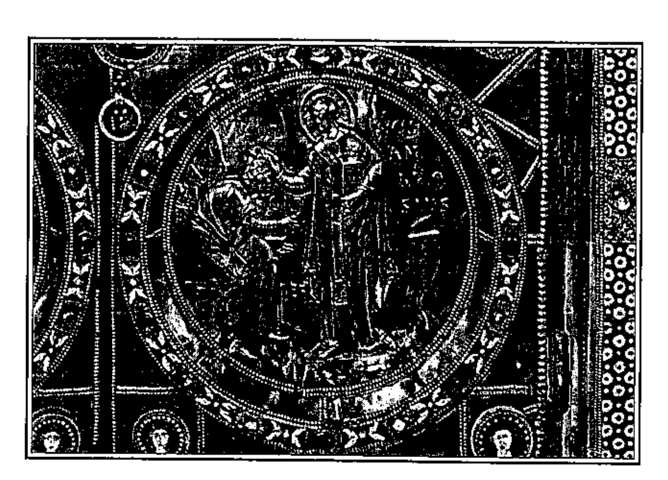
ومع ذٰلك، ظلّت حماسة عصر الشهداء حيَّةً في عهد قسطنطين عند الرهبان، وقد أصبح عددهم ضخمًا، وابتعدوا في عزلتهم عن كنيسةٍ اعتُبِرت كثيرة التواطؤ مع العالم. فاتّجه الشعب بحرارة إلى رجال الصلاة أولٰئك، وقد بقيت فيهم شعلة الأزمنة البطوليّة حيَّةً وسالمة: فكانوا هم، لا أساقفة البلاط، معلِّمي الشعب المسيحيّ الروحيّين.

الفصل الثاني

أمبروسيوس أسقف ميلانو
(٣٣٩-٣٩٧)

كان أمبروسيوس أحد كبار الموظّفين في الإمبراطوريّة وحاكم إقليم إيطاليا الشماليّة، ثمّ أصبح أسقفًا على ميلانو سنة ٣٧٤، في ظروف غير متوقّعة كاد أن يُكرَه عليها إكراهًا. وكان أرستقراطيًّا مشبعًا بالثقافة الرومانيّة، فسارع إلى إيلاء وظيفته أهمّيّةً كبرى. وفي تلك المدينة الإقليميّة، وهي مقرّ الإمبراطور أيضًا، كان الأسقف مضطرًّا إلى التعامل مباشرةً مع العظماء وأصحاب النفوذ. فأدّى القدّيس أمبروسيوس تلك المهمّة بسلطة خضعت لها الحكومة الإمبراطوريّة عدّة مرّات. ولعلّ أروع تدخّلاته في هٰذا الخصوص كان إطلاق الحرم على الإمبراطور ثِيودُوسِيُوس المتّهَم بتقتيل عدّة آلاف من الأشخاص في تسالونيقي، ردًّا على عمليّة اغتيال قائد رومانيّ. وقد خضع الإمبراطور وكفّر عن ذنبه علنًا كأيّ مسيحيّ آخر (٣٩٠).

وهذا الحدث، أكثر من سواه، لم يظهر نفوذ القدّيس أمبروسيوس الشخصيّ وحسب، بل، بوجهٍ خاصّ، مفهومه للسلطة الروحيّة التي تتمتّع بها الكنيسة: إنّ الإمبراطور هو في الكنيسة، لا فوق الكنيسة، وليست سلطته مطلقة. أمّا الكنيسة فهي تملك الحقيقة التي تلقّتها من كلمة الله نفسها: فلها الحقّ إذًا أن تتدخّل في الشؤون المدنيّة حين تهدّد السلطة تلك الحقيقة.



القدّيس أمبروسيوس

ولٰكنّ أمبروسيوس لم يكن رجل عمل وحسب. فقد أثارت فصاحته رعاياه وأثّرت تأثيرًا عميقًا في القدّيس أوغسطينُس، كما أنّه أغنى الليترجية بأناشيده. لم يكن لاهوتيًّا ابتداعيًّا، لٰكنّه قام بدورٍ وسيطٍ بالغ الأهمّيّة في تاريخ الفكر: وكان مشبعًا بتعاليم فِيلُون الإسكندريّ وأوريجانس والآباء اليونانيّين، فساهم مساهمة كبرى، من خلال شروحه ومواعظه، في نقل رسالتهم إلى القدّيس أوغسطينُس وإلى العصر الوسيط في الغرب.

وثيقة

وصل خبر مجزرة تسالونيقي إلى ميلانو
في وقتٍ كان القدّيس أمبروسيوس يترأّس فيه اجتماعًا أسقفيًّا.
ولكي يعبّر الأسقف عن استنكاره، ترك المدينة عند
وصول الإمبراطور،
ووجّه إليه، كتابةً، احتجاجًا رسميًّا.

الإمبراطور بشرٌ أمام الله

سيِّدي، اسمعْ ما يلي: لديك غيرة على الإيمان وأنا لا أنكر ذلك. إنّك تخاف الله وأنا أعترف بذلك. ولكنّ الطبيعة حَبَتك بحدّة تتحوّل إلى الحِلم، إن عُني بتهدئتك، ولكنّها تُلقي بك، عند إثارة غيظك، في أعمالٍ متطرّفة لا يمكنك العدول عنها إلّا بمشقّة قصوى...

إنّ ما حصل في تسالونيقي لا مثيل له في تاريخ الإنسان... حين تناهى خبرُ ما حصل إلى مسامعنا، كنّا نعقد مجمعًا (في ميلانو) بسبب حضور أساقفة أتوا من غاليا. فلم يبقَ أحدٌ إلّا وتألّم من جرّاء ذلك، ولم يستخفّ أحدٌ بما جرى. أمّا الشركة (القائمة) بينك وبين أمبروسيوس فلم يكن من شأنها أن تبرّئك. بل على العكس، فلو لم يُعلِن أحدٌ ضرورةَ مصالحتك مع الله، لازدادت شناعة الجرم ثقلًا عليّ.

هل تخجل، سيِّدي، من أن تقوم بما قام به داود - وهو مَلِكٌ أيضًا ونبيّ وجدّ يسوع المسيح بحسب الجسد؟ فقد صرخ ذلك العاهل قائلًا: «لقد خطئتُ إلى الربّ!». فلا تعصِ، إن قيل لكَ أنت: «لقد ارتكبتَ تلك الخطيئة».

لا أكتبُ إليك بهذه الأمور لخزيك، بل ليحثَّك مثالُ الملك على مَحو تلك الخطيئة من عهدك. والحال أنّك تمحوها بتذليل نفسك أمام الله. أنت بشر، والخطيئة أقبلت فاطرُدْها. ولا تُمحى الخطيئة إلّا بالتوبة والدموع، ولا يقدر الملاك ولا رئيس الملائكة أن يغفرها: بل الربّ وحده قادر على ذلك.

لا أجرؤ على تقديم ذبيحة (القدّاس)، إن أردتَ أن تحضرها. فما هو محرَّم عليّ أن أفعله في حضور رجلٍ سَفَك دمَ بريءٍ واحد، هل يحلّ لي أن أفعله أمام من أهرق دماء عديدٍ كبير من الأبرياء؟ لا أعتقد ذلك.

أكتب إليك بخطّ يدي رسالةً لَن يقرأها غيرك. إن كنتَ مؤمنًا، فافعل ما أقوله لك، وإلّا سامحني على ما أفعل. فللّه تفيضيلي.

(الرسالة الحادية والخمسون، ٤-١٧)

الفصل الثالث

رومة المسيحيّة

بقلم شارل پياتري (*)

«أسَّس» رومة رُومُولُوس ورِيمُوس، وهداها إلى المسيحيّة
بطرس وبولس،
فأصبحت، في القرن الرابع، المدينة المسيحيّة المثاليّة

«رومة، كرسيّ بطرس، وُضِعت على رأس المجمع الراعويّ، فكلّ ما لم تكسبه بالأسلحة، حصلت عليه بالإيمان». تلك أبيات للشاعر الغاليّ پرُوسْپِرس (Prosper) الأكيتانيّ، يشيد برومة الجديدة، جامعًا في المديح نفسه بين عاصمة الإمبراطوريّة القديمة التي يهدِّدها البرابرة، والمسيحيّةِ التي أرساها الرسول فيها.

لقد ولّى الزمن الذي كان الكاهن هِيپُّولِيطُس، المقيم في رومة في مطلع القرن الثالث، يرفض فيه أن يفتتن بأمجادها الأرضيّة ويندِّد ببابل الجديدة، الصورة المشوَّهة للأمجاد الروحيّة. ومنذئذٍ، أراد المؤمنون أن ينسوا لعنات **سِفر الرؤيا** (١٨/٢): «سقطت، سقطت بابل العظيمة!» (تمثِّل بابل هنا رومة). وكان الحجّاج أنفسهم، الوافدون من أقاليمَ بعيدة، يستسلمون لمفاتنها المادّيّة. ولقد انبهر القدّيس فُلْجانْس الرُوسپِيّ الأفريقيّ بمدينةٍ ما زالت تختلط فيها ذكريات الأمجاد الماضية ومعابدُ الإيمان، وظنَّ أنّه يلمح فيها، عند قيامه بزيارة مقدّسة، صورةً عن أورشليم السماويّة.

وفي ثلاثمائة سنة - من هِيپّوليطُس إلى پرُوسپِرُس وفُلْجانْس - وفي المرحلة الأخيرة من عمر الإمبراطوريّة، أصبحت رومة مدينةً مقدَّسة. وقد تمَّ ذٰلك بتأثير متزايد من الأساقفة المتعاقبين على المدينة القديمة. وبالفعل، كان تاريخ رومة المسيحيّة، من قسطنطين إلى ڤالنتينيانُس الثالث - من ٣١٢ إلى ٤٥٥ - قبلَ كلّ شيء تاريخَ اهتداء ورسالة ناجحة، رغم مقاومة وثنيّةٍ نشيطة تراعيها السلطة وتحميها أرستقراطيّةٌ من المفكِّرين التقليديّين المحافظين المتعلِّقين بالآلهة التي تحمي مجدَ رومة. لأنّه لا بدّ من تصحيح رأيٍ مسبَق غالبًا ما يشوِّه الأفكار في التواريخ التي دَرست البابويّة القديمة، إذ إنّ هٰذه التواريخ تَحصر، إلى حدّ بعيد، تَطوُّر رئاسة أسقف رومة في ممارسةِ دبلوماسيةٍ كنسيّة. إن طُرِحت المشكلة على هٰذا النحو، يُخشى كثيرًا أن نغلط في معنى تلك السياسة الخارجيّة، وأن نبحث فيها عن خطّة منظَّمة لكسب النفوذ، تكون نوعًا من الإمبرياليّة المقدَّسة، تَبْني وحدةَ الكنيسة كما بنَت منطقةُ پيامونتِه وحدةَ إيطاليا في القرن التاسع عشر، ونكون قد شوَّهنا تاريخ كنيسة رومة، الذي هو قبل أيّ شيء آخر، تاريخَ جماعة مجتمعة حول راعيها، ومنشغلة خصوصًا - أيًّا كانت مسؤوليّاتها المسكونيّة - بتأدية عمل مساعدة وهداية بكلّ صبر وتواضع.

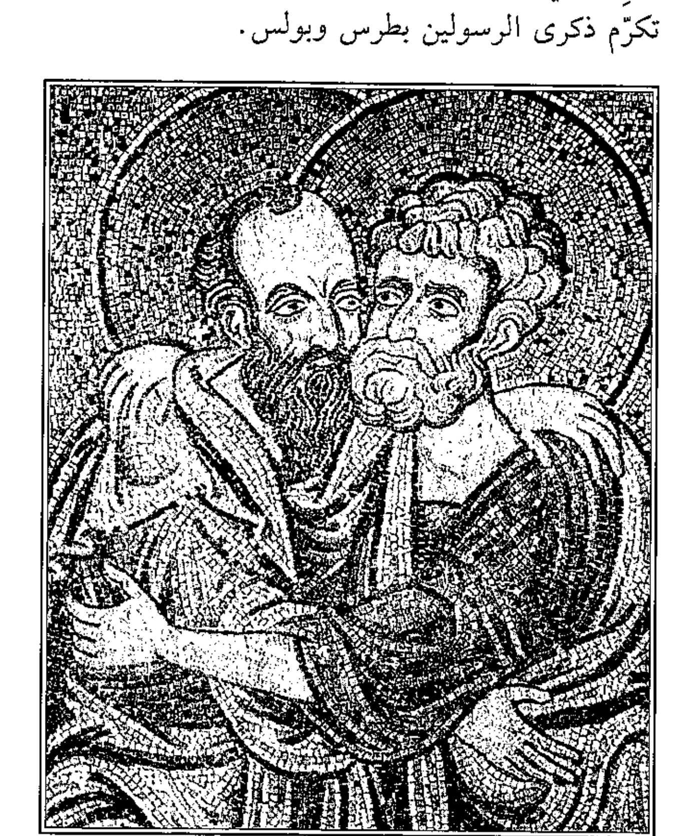
(*) Charles Piétri، أستاذ محاضر في التاريخ الرومانيّ بجامعة باريس العاشرة.

قيام «النظام المسيحيّ» في رومة

بنهاية عصر الاضطهادات وحلول سلام الكنيسة الذي منحه قسطنطين (٣١٢-٣٣٧)، نشأ في الواقع «نظام مسيحيّ» حقيقيّ خاصّ بالمدن: فقد تلقّى الأساقفة من الأمراء أُولى باسيليكاتهم، وما زال علماء الآثار يعثرون على بقاياها الضخمة. ووزّع الإمبراطور على مختلف أوقافه كنوزًا ثمينة من الآنية المقدّسة والكؤوس وصينيّاتها، وأجهزة تنوير متشعّبة الشَّمْعدانات، وعقاراتٍ تُخصَّص إيراداتها لصيانة المباني الواسعة.

وفي أثناء السنوات العشر الأُوَل من عهد قسطنطين، قدّم الإمبراطور للأساقفة باسيليكات منظَّمة وفقًا لتصميم جديد: فهناك أربعة صحون قائمة اثنين اثنين بموازاة صحن مركزيّ، أعرض وأفضل تنويرًا، يودّي إلى صحن عَرْضي تتوزّع فيه، قرب المذبح، سبع موائد للقرابين، وإلى قَبا (abside) نجد فيه الكرسيّ الأسقفيّ. وتجدر الإشارة إلى أنّه، على مقربةٍ من الباسيليكا القسطنطينيّة في رومة، حصل البابا، وكان يقيم في ذلك الحيّ منذ عدّة قرون، على أوّل مبنى مُخصَّص للعماد في المدينة العظمى.

وغالبًا ما بدت هبات الإمبراطور أقلّ تجرّدًا: فقد شُيِّدت «الكنيسة البِلاَتِينيَّة» الكبيرة على أرض الإمبراطورة الأمّ، وجاورت الباسيليكا الكبرى ضريحًا إمبراطوريًّا بالقرب من الطريق اللَّبِيكيَّة. وفي حالات أُخرى، كان قسطنطين وأمراء سلالته أقلّ اهتمامًا بهبة الكنائس للشعب المسيحيّ منهم بتشييد تُحف فاخرة تخلّد اسمهم من باب تكريم مشاهير الشهداء. فمن هذه التحف الباسيليكات المبنيّة على محيط المدينة: بالقرب من القدّيس لُورنطيُوس على الطريق التِيبُرْتِينَة، وبالقرب من القدّيسة أغنيسيا على الطريق النُومِنْتِينَة، وبالقرب من الدياميس، على الطريق الآبِيّة، في منطقة مدافن، حيث كانت التقوى الرومانيّة تكرّم ذكرى الرسولين بطرس وبولس.



القدّيسان بطرس وبولس يتعانقان

ولكنّ المشروع الكبير الذي تمّ في الفاتيكان يجسّد بوجهٍ خاصّ فعّاليّة كرم الإمبراطور الباذخ: فقد مهّد قسطنطين مقبرة وطمرها، وأمر بتشييد باسيليكا ضخمة (كنيسة القدّيس بطرس في الفاتيكان) حول «النصب التذكاريّ الرسوليّ[1]»، حيث تحقّق، بشيء من الصواب، من وجود قبر بطرس. ومن وجهة النظر هذه - وبهذه الصفة فقط - تُعتَبَر رومة «كنيسة قسطنطينيّة» بحسب العبارة المستعملة في مناظرات حديثة.

(١) عبارة مجازيّة استخدمها نصّ سابق لقسطنطين للإشارة إلى مكان الاستشهاد الرسوليّ أو على الأرجح إلى موضع قبر بطرس.

كنيسة روما تنظّم نفسها

ولٰكن لا بدّ أن نقدّر بدقّة تأثير الهبات الإمبراطوريّة، من دون أن نبالغ فيه: إنّ الهبات - من أراضٍ وكنوز ليترجيّة - لم تَمنح الكنيسةَ قوّةً اقتصاديّة كبيرة، بل كوّنت، إذا ما قُورِنت بالثروات الأرستقراطيّة، رأسَ مال زهيدًا لا يستطيع الأسقف، فضلًا عن ذٰلك، أن يتصرّف فيه بحرّيّة. ومن جهة أُخرى، لم يكن توزيعُ تلك المؤسّسات الجغرافيّ صالحًا لخدمة الإرساليّات المحلّيّة في أحياء المدينة. وقد فهم الباباوات ذٰلك تمامًا. ففي النصف الأوّل من القرن الرابع، قام كلٌّ من سِلفسترس ويُوليُوس وليباريُوس بجمع مواردهم كلِّها لإنشاء أُولى كنائس المدن، بالقرب من الميدان، على تلّة إسْكيلِينو (Esquilin)، في ترَستِفِره (Transtevere). وأصبحت تلك الكنائس مراكز دائمةً للاحتفال بالليترجية وإلقاء المواعظ. يبقى أنّ هبات قسطنطين نفعت أيّما نفعٍ عملَ الاهتداء، لمّا وُهب اللاتران للبابا: فللمرّة الأُولى، كان في وسع الشعب المؤمن أن يعبِّر عمليًّا عن وحدته، بتجمُّعه حول راعيه وهو يترأّس الليترجية. وفي تلك الحقبة، بدأ استعمال اللغة اللاتينيّة في الخدمة الإلٰهيّة، وانتشرت في ذٰلك الإطار المهيب، وبفعل استعمال الصلوات التقليديّة، رتب تُشجّع على المشاركة الشعبيّة: كالزيّاح الذي يواكب القرابين إلى الموائد السبع التي يُشْرف عليها الشمامسةُ السبعة، كلٌّ مكلّف بمنطقة في المدينة لجمع التبرّعات وللمساعدة. ثم وُضع تقويم يؤمِّن انتظام مظاهر الوحدة هٰذه. فمن جهة، بالأعياد التقليديّة في اللاتران: عيد الأسبوع المقدّس والفصح، يمهّد له بصوم يدوم ثلاثة أسابيع، وفيه يصالح الأسقف التائبين ويَقبل، بالعماد، المؤمنين الجدد. ومن جهة أُخرى باحتفالات جديدة: كعيد الميلاد الذي احتُفل به في كنيسة القدّيس بطرس في الڤاتيكان منذ أواسط القرن الرابع.

روما مدينةٌ مقدّسة

لاقى ذٰلك العمل الإرساليّ، الذي قام به الأساقفة بثبات، نجاحًا باهرًا، حتى إنّ المسيحيّين الرومانيّين، اعتبارًا من النصف الثاني من القرن، منذ حبريّة داماسيوس (٣٦٦-٣٨٤)، استطاعوا أن يستخدموا مواردهم الخاصّة وموارد الأرستقراطيّين المهتدين، وأن يضاعفوا عدد الأوقاف - في حين لم يعد لدى الإمبراطوريّة المنحطّة إمكانات كثيرة لتمويل أعمال بناء ضخمة -. وكان الكهنة أنفسهم يأتون أحيانًا من أوساط أكثر يُسرًا، فشاركوا في الحركة، وجَمَعَ البابوات التبرّعات لينشئوا في المدينة شبكةَ كنائس «أصيلة»، ومزوَّدة الموارد واللوازم الطقسيّة: وكان لقب الأصيل[٢]، وهو كثيرًا ما يحمل اسم مؤسّسه الذي قدّسته الأجيال اللاحقة بتقوى، يرسّخ، في حيٍّ من أحياء العاصمة القديمة، إرساليّةً دائمة للإيمان الجديد: وإن أردنا أن نكتفي بمَثَلٍ واحد، نذكر «أصيل» سابينا الذي أصبح كنيسة القدّيسة سابينا على تلّة أَفَنْتينو. وفي القرن الخامس، كان في وسع البابا أن يدير مؤسّسات ضخمة كمؤسّسة القدّيسة ماريًّا مادجُوره: وهي باسيليكا كبرى مزّينة بعددٍ من لوحات الفُسيفِساء تصوِّر تصويرًا فخمًا التاريخَ المقدّس ومجد الرسولَين، بلغةٍ جماليّة كاملة تشهد على نهضةٍ كلاسّيكيّة حقيقيّة. وحول رومة، نظّم البابوات، مع إكليرسهم، الإطار المادّيّ لتكريم الشهداء، وهيّأوا للحجّاج معابد تكمّل شبكة كنائس الشهداء التي أُسِّست بهمّة الأباطرة وسخائهم.

يكفي أن نشير من هذا القبيل إلى عمل داماسيوس الذي وضع قرب المقابر المقدَّسة قصائد محفورةً بخطّ فيلوكالُس الرائع، للإشادة بمجد القدّيسين، جامعًا بين ذكريات من ڤرجيليوس وذكريات من الكتب المقدّسة.

(٢) كان هذا اسم كنائس مبنيّة في أحياء المدينة ويخدمها الكهنة.

وفي أيِّ وقت من السنة - باستثناء الصوم الكبير ومدّة الشتاء التي تسبق الميلاد - كان في إمكان المؤمنين الآتين من رومة أو من الأقاليم أن يجدوا فرصة للصلاة بالقرب من ضرائح أولٰئك الشهداء الذين أصبحوا رومانيّين (على حدّ قول داماسيوس)، لأنّهم سفكوا دماءهم في سبيل اهتداء المدينة. وإنّ قيام النظام الماديّ هٰذا، الذي أُنجز في بضعة أجيال، وتنظيمَ إكليرسٍ دائم في الأحياء مع الكهنة وخدّام المذابح، وتطوُّرَ المساعدة مع الشمامسة والشدايقة، وإنشاءَ كنائس متعدِّدة في المدينة وإكليلٍ مقدَّسٍ من الكنائس الصغرى في محيطها، كلّ ذٰلك جعل من رومة مدينةً مقدَّسة وعاصمة التقوى، كما قال پْرُودَنْتِيُوس وهو شاعر إسبانيّ انبهر بتلك الصور الماديّة التي رافقت الاهتداء.

الفصل الرابع

كنيسة على صورة الإمبراطوريّة

بقلم بيار نُوتان(*)

بدأت الكنيسة تكُون «قسطنطينيّة» قبل وصول قسطنطين بمائة سنة على الأقلّ.

في القرنين الثاني والثالث، اتّخذت الكنيسة المسيحيّة الشكل السوسيولوجيّ الذي حُفِظ، في أهمّ مظاهره، حتّى أيّامنا في الطوائف الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة. ويستحيل علينا أن نصف، في بضع صفحات، مراحل ذلك التطوّر الأوّل وأن نبحث عن أسبابه، ولكنّنا سنكتفي بإبراز بعض وجوهه، لأنّنا نكوّن أحيانًا فكرةً مغلوطة عن القرون الأوائل، باعتقادنا أنّ هناك طريقةً معيَّنة لتصوُّر الكنيسة وتنظيمها، وحقوقِها على المسيحيّين، وعلاقاتها بالسلطة العلمانيّة، وأنّ هناك أيضًا طريقة معيَّنةً لممارسة السلطة فيها، وأنّ ثمّة بعضَ تصرّفات رؤساء الكنيسة المطابِقة تمامًا لتصرّفات السلطات المدنيّة، يَرقى عهدُها إلى زمن اهتداء قسطنطين فقط، وإلى أنّ المسيحيّة أصبحت ديانة الدولة في القرن الرابع. إلّا أنّ المؤرِّخ الذي لا يخلو من الانتباه يجدها قائمة في الواقع منذ القرنين الثاني والثالث.

من وجهة نظرِ سوسيولوجيّةِ الكنيسة المسيحيّة، قد تميَّز تلك الحقبة، في ما تتميَّز به، بالملامح الآتية:

- انحصار السلطة على نحوٍ ما تتركّز في الملوك، واتّساع مجالاتها.
- اتّسام شخص الأسقف بالطابع القدسيّ.
- ظهور تراتبيّة داخل الأسقفيّة نفسها.
- قيام علاقات من الندّ إلى الندّ بالسلطة المدنيّة.
- قيام ذهنيّات وتصرّفات مرتبطة بهٰذا التطوّر في المؤسَّسات.

السلطة على غرار ما هي في الحكم الملكيّ

كان تنظيم الجماعات المسيحيّة القديمة على شيء من التنوُّع، ومع ذٰلك، ظهر في معظم الأحيان أنّ مجموعة من الشيوخ كانت تديرها بطريقة جماعيّة. ثمَّ نلاحظ في القرن الثاني، من خلال رسائل إغناطيوس الأنطاكيّ، أنّ أحد الأشخاص انفصل عن جماعة الشيوخ presbyteroi، وقد تسمّى بالأسقف episcopos، متولّي السلطة الفعليّ. لم يعد هو والآخرون في مستوى واحد: فهو يُشبَّه بالله الآب أو بالمسيح، في حين أنّ الشيوخ لا يُشبَّهون إلّا بالرسل. لا يجوز أن يُعمل أيّ شيء ممّا يختصّ بالكنيسة بمعزل عنه، بل كلّ ما يَرضى به يُعتبَر مرضيًّا عند الله.

وفي الوقت نفسه، نلاحظ أنّ سلطة الأسقف توسَّعت، بمعنى أنّ بعض الشؤون التي لم تكن من اختصاص رؤساء الجماعة دخلت في مجال الأسقف

(*) Pierre Nautin، مدير أبحاث في المعهد التطبيقيّ للدراسات العليا – باريس.

(كالتحكيم في الدعاوى بين المسيحيّين).

وقد مُورِسَت تلك السلطة ممارسةً شديدة إلى حدٍّ بعيد على فئتين من الأشخاص، لأنّ غِذاءَهم مرتبط بالأسقف: وهم الإكليريكيّون والفقراء.

وبالفعل، ظهر تجديد في ذٰلك العصر، يقضي بدفع أجرة للإكليريكيّين، ولا نجد ذٰلك في زمن **الذيذاخة**. فحين تتحدَّث **الذيذاخة** عن ضريبة العُشْر، توصي بدفعها، لا لرؤساء الجماعة، الذين تدعوهم أساقفة episcopoi وشمامسة diaconoi، بل «للأنبياء»، أي لأشخاص كانوا كالمرشدين «الروحيّين» في ذٰلك العصر، وكان بعضهم متنقِّلًا وبعضهم مقيمًا، أو للفقراء في حال عدم وجود الأنبياء. ولٰكننا نعلم بأنّ الكهنة والشمامسة وسائر الإكليريكيّين كانوا يتقاضون أجرًا في القرن الثالث. ومنذ ذٰلك الحين، وجدوا أنفسهم حيال الأسقف، الذي كان يختارهم ويتصرّف بثروة الكنيسة، في وضعٍ جديد هو وضع التبعيّة الاقتصاديّة.

أمّا الفقراء، فلم تخلُ الكنيسة منهم بين أعضائها فمدَّت إليهم يد المعونة. وفي الأصل، فإنّ التبرّعات التي تُجمع كل أحد عند القيام بالإفخارستيّا كانت من أجلهم، لا من أجل الإكليريكيّين، وإليهم مبدئيًّا كانت ترسَل الأموال التي جمعتها الكنيسة. ويحسن بنا أن نوضح هنا أنّ الكنيسة لم تكن تنوي أن تساعد من الفقراء إلّا المسيحيّين. وكان عدد المسيحيّين المعوزين مرتفعًا جدًّا في المدن الكبرى. وقد أورد الأسقف الرومانيّ قرنيليوس في إحدى رسائله الأرقام الآتية: «٤٦ كاهنًا، و٧ شمامسة، و٧ شدايقة، و٥٢ مُعَزِّمًا وقارئًا وبوّابًا، وأكثر من ١٥٠٠ أرملة ومعوز، وكانت نعمة الرب ومحبّته تغذّيانهم جميعًا». وفي نظرهم، كان الأسقف يقوم بدور المحامي patronus، كما كانوا يفهمونه في المجتمع المدنيّ في ذٰلك العصر، بما كان يتضمّن هٰذا الوضع من تقييد لحرّيّة المستفيدين.

وعن ذٰلك نشأت نتيجتان كان لهما دور حاسم. الأُولى أنّ الأسقف في المدن الكبرى كان في حوزته مبالغ طائلة، إذ كان من الضروريّ أن يتوافر المال لديه ليقوت ذٰلك العدد الكبير من الفقراء ومن خدَّام الكنيسة. ولٰكنّ الأسقف، بفعلِ ذٰلك المال وأولٰئك «الزبائن» الكُثُر، وجد نفسَه مُرَقًّى إلى مستوى اجتماعيّ رفيع. وأصبح أحدَ أرباب السلطة والقوّة في المدينة، وهٰذا ما أثّر على السواء في موقف المسيحيّين من أسقفهم – ومفهومهم للكنيسة – وفي تصرُّف الأسقف نفسه.

اتّسام الأسقف بالطابع القدسيّ

ولمّا كان ذٰلك المجتمع مجتمعًا دينيًّا، كان من الحتميّ أن تؤدّي تلك الأهمّيّة، التي ارتداها الأسقف، إلى ظاهرة الاتّسام بالطابع القدسيّ. وهٰذا ما نراه منذ أيّام إغناطيوس الأنطاكيّ، حين شبَّه في رسالةٍ له الأسقف بالله فقال: «فليكرم الجميع... الأسقفَ الذي هو صورة الآب». وعلى الصعيد الليترجيّ، تجسَّد ذٰلك في إنشاء احتفالٍ لتكريس الأسقف.

وتكشف لنا الوثائق أنّ هناك مرحلتَيْن:

– المرحلة الأُولى، ونعرفها من الطريقة التي تصوَّر بها إيريناوس التقليد الخاصّ بتعليم الرسل في قلب الكنائس التي أسّسوها، كرومة وأفسس. ويرى إيريناوس ذٰلك التقليد – وهو ليس تعليمًا وحسب، بل موهبة أيضًا – ينتقل عن طريق تعاقب الأساقفة، وذٰلك في قلبِ كلٍّ من الكنائس. وهٰذا ما يَفترض إمّا أنّ الأساقفة كانوا ينالون وضع الأيدي من الشيوخ في الكنيسة المحليّة، وإمّا أنّه لم يكن هناك وضعُ يدٍ آخرُ على الأسقف إلّا ذٰلك الذي ناله عند دخوله مجلس الشيوخ presbyterium.

– وبعد ذٰلك بقليل، نرى، من خلال وثيقة عنوانها «التقليد الرسوليّ»، أنّ الأُسقف ينال وضعَ الأيدي عند تسلّمه مهمّاته الجديدة وأنّ وضع الأيدي هٰذا يمنحه أساقفة آخرون فقط. وفي وضع الكهنة من المشاركة فيه ما يدلّنا بوضوح على أنّهم كانوا يشاركون فيه سابقًا وعلى أنّهم أُبعِدوا عنه بعد ذٰلك.

إنّ الفكرة التي أوحت بهٰذا التطوُّر هي أنّ الأسقفيّة تؤلّف طبقةً خاصّة مُنِحت موهبةً خاصّةً لا يقدر أن يمنحها إلّا أولٰئك الذين سبق لهم أن نالوها. ولا حاجة إلى التنويه بأنّ ذٰلك المفهوم الجديد، الذي يَعتبر الأسقفيّة طبقةً روحيّة، ليس إلّا تجسيدًا، على الصعيد الدينيّ، لما كانت عليه الأسقفيّة على الصعيد السوسيولوجيّ.

ظهور تراتبيّة داخل الأسقفيّة

ظاهرة أُخرى من ظواهر ذٰلك العصر كانت التراتبيّة داخل الأسقفيّة نفسها، إذ لم يكن للأساقفة جميعًا شأن واحد. وأبلغُ دلالة في هٰذا الأمر هو عنوان الرسالة السينودسيّة التي أصدرها المجمع الذي عُقِد في أنطاكية حوالَى السنة ٢٦٥، والذي دان أسقف تلك المدينة، المدعوّ بولس (والمعروف بـ«بولس الشُّمَيْشاطيّ»)، نسبةً إلى مكان ولادته). وكانت الغاية من تلك الرسالة أن يُطلب إلى الكنيسة جمعاء ألّا تعترف بعد اليوم ببولس كأسقف على أنطاكية، بل بدِيمِتْرِيُوس الذي انتُخِب بدلًا منه. وكانت تحمل العنوان التالي: «إلى ديونيسيوس ومكسيمُس وجميع زملائنا في الخدمة على كلّ الأرض المسكونة، من أساقفة وكهنة وشمامسة، وإلى كلّ الكنيسة الكاثوليكيّة التي تحت السماء». فالرسالة موجَّهة مبدئيًّا إلى كنائس الأرض كلّها، وفي تلك الكنائس إلى كلّ مراتب السلطة وإلى المؤمنين أنفسهم. ولٰكن، في الواقع ليس هناك إلّا شخصان حقيقيّان توجَّه الرسالة إليهما: وهما ديونيسيوس أسقف رومة ومكسيمُس أسقف الإسكندريّة. لِمَ هما فقط؟ تجدر الإشارة إلى أنّ المقصود هو أكبر مدينتَين في الإمبراطوريّة. فإن مَنَح هٰذان الأسقفان شركتَهما لأسقف أنطاكية الجديد، فسيكون ذٰلك كافيًا، في نظر مرسِلي الرسالة، ليُعتبَرَ معترَفًا به في الكنيسة الجامعة، لأنّه من الطبيعيّ أن تحذو الكنائس حذو هاتَيْن الكنيستَيْن.

ويَظهر في نصوصٍ أُخرى، لا نذكرها هنا نظرًا إلى كثرة تفاصيلها، أنّ أسقف أنطاكية كان يتمتّع هو أيضًا منذ ذٰلك الزمن بسلطة واسعة، لا في سورية وحسب، بل في آسية الصغرى كلّها. وهٰذا شأن أسقف قرطاجة في أفريقيا، وأسقف المدينة الكبرى داخل كلّ إقليم.

وكانت تلك السلطة تتجسَّد، بوجهٍ خاصّ، عند انتخاب أسقفٍ على الكنائس الأُخرى، فنشأت عادةٌ تقضي باستمزاج رأي مَن كان أكثرهم نفوذًا في المنطقة، لعلمهم بأنّه، إن لم يكن راضيًا عنه، لم يصعب عليه، وبأقلّ حجّة، أن يأتي مع سائر الأساقفة ويَعزل من لا يوافق على انتخابه.

والحال أنّنا نلاحظ أنّ قدرة الأساقفة في المدن الكبرى لا ترتبط بالصفات الرسوليّة التي تتّصف بها كنيستهم، بل بأهمّيّة المدينة على الصعيد السياسيّ والاقتصاديّ. ففي كلّ إقليم تعود تلك القدرة إلى أسقف العاصمة المدنيّة. وإذا استاءوا منه، تجاوزوه وتوجّهوا إلى أشهر مدن الإمبراطوريّة: كرومة والإسكندريّة وأنطاكية وأفسس وقرطاجة. وفي ما يختصّ برومة، فعدا أنّها عاصمة الإمبراطوريّة، هناك عنصر آخر عمل على شهرتها، وهو أنّ الرسولَيْن بطرس وبولس استُشهدا فيها. لٰكنّ هٰذا الظرف لا يفسّر وحده المَقام الذي احتلّته رومة في الكنيسة المسيحيّة. ويمكننا أن نكون واثقين بأنّه، لو مات بطرس وبولس في لِدّة، لما لجأت الكنائس الأُخَر إلى أسقف لِدّة. فتلك الأهمّيّة التي اتّخذها أساقفة المدن الكبرى ظهرت بطريقة أخرى: فمنذ ذٰلك العصر، كان أساقفة القرى أو المدن الصغيرة الواقعة في محيط المدن الكبرى تابعين لأسقف المدينة الكبرى، حتّى إنّهم كانوا يبدون وكأنّهم جزء من إكليرسه. وهٰذا الأمر معروف في أنطاكية منذ النصف الثاني من القرن الثالث. ونجد معلومات أوفى في وثائق مجمعَي أَنقِيرَة وقيصريّة الجديدة المنعقدَين في السنوات الأُوَل من القرن الرابع. فنعلم مثلًا أنّ أساقفة الأرياف لم يعد يحقّ لهم أن يرسموا كهنةً أو شمامسة إلّا بإذنٍ صريح من أسقف المدينة الكبرى. وهم

يوصَفُون بخلفاء التلاميذ الاثنين والسبعين، لا بخلفاء الرسل، وهو لقب يحتفظ به أسقف المدينة الكبرى لنفسه. وفي البداية، كانت كلّ جماعة محلّيّة تنتظم ضمن حدودها وكان لها مجمع شيوخ، منه برز الأسقف. ونستطيع أن نعبِّر عن الصورة التي انتهى الوضع إليها عادةً بالصيغة التالية: «لكلّ مدينةٍ أسقفها الخاصّ، ولكلّ مدينةٍ أسقفٌ واحد». ثمّ أزاح أساقفةُ المدن الكبرى أساقفةَ التجمّعات الصغرى تدريجًا، محتفظين، من المقولة السابقة، بقِسمها الثاني: «لكلّ مدينة أسقف احد»، في حين أنّ العنصر الأوّل: «لكلّ مدينة أسقفها الخاصّ»، قد اختفى نهائيًّا. وهٰكذا نشأ، على الأقلّ في الشرق، تقسيم الكنيسة الإداريّ إلى دوائر أوسع بكثير من جماعة العيش الطبيعيّة.

علاقاتٌ من الندّ إلى الندّ بالسلطة المدنيّة

إنّ السلطة التي كان الأسقف يمارسها على عدد كبير من المواطنين في المدينة دفعته حتمًا إلى إقامة علاقة بالسلطة المدنيّة. وخلافًا لما لا نزال نعتقده في أغلب الأحيان، لم يكن القرنان الثاني والثالث حقبة اضطهادات متواصلة للكنيسة. لا بل يجب الإقرار بأنّ الاضطهادات كانت أوقاتًا استثنائيّة، وبأنّها كانت من جهةٍ أُخرى محلّيّة في معظم الأحيان. وخارجًا عن تلك الحقبات، كان الأساقفة يحظون بتقدير السلطة المدنيّة. فحوالى العام ٢٢٥، حين أراد أحد حكّام الجزيرة العربيّة المهتمّين بالمسائل الفلسفيّة والدينيّة أن يُحضِر إليه أوريجانيس، وكان يعرفه من مؤلَّفاته الأُولى بلا شكّ، أرسل جنديًّا إلى الإسكندريّة حيث كان يقيم أوريجانيس، وبعث بالرسائل التي تعبِّر عن طلبه، لا إلى أوريجانيس نفسه، بل إلى حاكم مصر وإلى ديمتريوس أُسقف الإسكندريّة. وما يلفت الانتباه هو أن نرى هٰذا الحاكم الإقليميّ يتوجّه تلقائيًّا إلى الأسقف وكأنّه نظيره المسيحيّ.

وهناك قول مميَّز ذكره ديونيسيوس، وهو أسقف آخر في الإسكندريّة، يروي فيه ما كابده في أثناء اضطهاد داقيوس: «إدانةٌ ومصادرات وبَيع بالمزاد وانتزاع الملكيّات وتجريد من الرتَب، ومجد دنيويّ يُعتبَر باطلًا، والثناء على الحكّام وأعضاء الديوان المحتَقرين». وهٰذا ما يَفترض أنّ أسقف الإسكندريّة كان يتمتّع، قبل الاضطهاد، بمرتبة اجتماعيّة تُوجب له الاحترام من قِبل حاكم مصر ومجلس شيوخ المدينة. ففي أزمنة السلام كان الوضع مشابهًا لما كان عليه اعتبارًا من عهد قسطنطين. وما من أمرٍ أكذبُ من الاعتقاد أنّ «اهتداء» قسطنطين أحدث تغييرًا واسعًا في العلاقات القائمة بين الكنيسة والدولة، إذ إنّه، منذ القرن الثالث، كانت الدولة تعتبر الأسقف أحد أبرز الشخصيّات في المدينة بسبب موارده والسلطة المعنويّة التي كان يتمتّع بها.

وكان أهل الكنيسة، من جهتهم، يجدون اللجوء عند الحاجة إلى الإمبراطور، لتسوية النزاعات القائمة بينهم، أمرًا طبيعيًّا. ولدينا مثال على ذٰلك يرقى إلى حوالى السنة ٢٧٠: لمّا واصل بولس الشُمَيشاطيّ، بعد إدانته، احتلال كنيسة أنطاكية الرئيسيّة ومباني الجماعة، لجأ الفريق الآخر إلى الإمبراطور أُوريلْيانُس لإجبار الأسقف على إخلائها، تمامًا كما حصل في مطلع عهد قسطنطين وقبل اهتدائه، حين لجأ الدوناطيّون إليه للردّ على الأسقف قِقِليانُس القرطاجيّ.

ذهنيّات وتصرّفات

كان من المحتَّم، بعد أن رُقِّي الأساقفة اجتماعيًّا إلى مرتبة محامين ذَوي نفوذ، أن يتَّخذوا طبعًا الذهنيّة والمواقف والنمط الحياتيّ التي تميِّز بها الناس المنتمون إلى الطبقة الاجتماعيّة نفسها. في ما يختصّ بالنمط الحياتيّ أوّلًا، لا شكّ في أنّ الأسقفيّة كانت منصبًا يُحسَد عليه، إلّا في أفقر المدن. وكان من الطبيعيّ أن

يستفيد عدد كبير من الأساقفة من الامتيازات التي كانت تتضمّنها. ويشهد على ذٰلك قبريانُس القرطاجيّ، حين يصف الحالة النفسيّة عند الأساقفة الذين طالهم حكمٌ بالعزل: «إنّهم يأسفون على المال والتقادِم والأرباح التي كانوا يحتضنونها سابقًا بعينٍ نهمة، وما زالوا يفغرون أفواههم عند تذكُّر الولائم والمآدب السابقة التي كان ثقلها يدوم عدّة أيام ويجعلهم يتجشّأون».

ولٰكن ما هو أبلغ من ذٰلك بكثير، من وجهة نظرٍ سوسيولوجيّة، هو أن نعرف أنّ المرتبة التي كان الأسقف يحتلّها طَبعت أيضًا تصرّفه في معاملة المؤمنين. وليس من المصادفة أن تأخذ مقدِّمةُ مجمع أنطاكية السينودسيّة على بولس الشُمَيشاطيّ تبنّيه مواقف حاكِم إقليم، وأن تصفه «وهو يمشي بفخرٍ في الساحات العامّة مع موكب من الناس الذين يتقدّمونه ويتبعونه، قارئًا عرائض تُقدَّم إليه ومجيبًا عنها». ولا نتصوّر أنّ ذٰلك المظهر الخاصّ بحاكم إقليم اقتصر على بولس. فقبل عشرين سنة، استخدم أوريجانيس التشبيه نفسه، حين وصف ما رآه عند أساقفة المدن الكبرى. ونحن نعلم أنّه عرف أساقفة الإسكندريّة، وروما وأورشليم، وقيصريّة فلسطين وقيصريّة قپدوقية، وأفسس وآثينة، وإليكم ما قاله: «أحيانًا ما نفوق بكبريائنا أمراء هٰذا العالم السيّئين، ونكاد نحيط أنفسنا بحرّاس خاصّين على غرار الملوك. إنّنا بلا رحمة، ولا يستطيع الناس أن يقابلونا، ولا سيّما الفقراء. وحين يصلون إلينا ويرفعون إلينا طلبًا، نكون أكثر وقاحةً من المستبدّين والأمراء القساة القلوب في معاملة مَن هم أكثر توسُّلًا إليهم. هٰذا ما يمكننا أن نراه في عدّة كنائس مشهورة، ولا سيّما تلك الواقعة في أكبر المدن». كُتب هٰذا النصّ حوالى السنة ٢٤٧، أي قبل عهد قسطنطين بنصف قرن.

تلك هي أبرز الملامح التي يكتشفها المؤرِّخ في تطوّر وظائف السلطة طوال القرنَين الثاني والثالث. ولا مجال هنا لتحليل أسبابها الحقيقيّة، ولٰكنّنا سنكتفي بذكر ملاحظتَين وجيزتَين حول هذا الموضوع:

١ - إنّ اهتداء قسطنطين ودخول الأساقفة البلاط الأمبراطوريّ لم يغيِّرا حياة الكنيسة المسيحيّة في العمق الذي كنّا نعتقده. وحين يرى الناس في الكنيسة طرق حياة وتصرُّفٍ تصدم التطلّعات العصريّة، فكثيرًا ما نسمعهم يقولون إنّها نتيجة ما سُمِّي «القيصريّة البابويّة». أوَلم يُردَّد ذٰلك ويُكتَب كثيرًا في أثناء المجمع الفاتيكانيّ الثاني؟ لا بدّ أن نعلم بأنّ في هٰذا القول نظرة دفاعيّة لا تتّفق مع التاريخ. ليس الحقّ على قسطنطين، فإنّ البنى والذهنيّات والتصرّفات التي أشرنا إليها تعود كلُّها إلى ما قبل القرنِ الرابع.

٢ - كذٰلك، لا يكون الأمر أكثر صحّةً إن قلنا إنّ السبب هو نهم السلطة عند رؤساء كنيسةٍ في غمرة تطوّرها. كان لدى الكثير منهم، بلا شكّ، ميل إلى السيطرة. ولٰكن لا يجوز أن ننظر إلى تلك الأمور من وجهة نظر أخلاقيّة. فإنّ الأسباب الحقيقيّة هي سوسيولوجيّة، لأنّ مثل هٰذا النوع من المجتمعات يفرز تلقائيًّا مثل تلك الذهنيّة وتلك المواقف عند معظم الناس.

فلنجرؤ إذًا على القول بأنّ المسؤوليّة لا تقع على الأفراد، ولا على قسطنطين أو الأساقفة، بل على الكنيسة نفسها بسبب البنى التي اختارتها. ولنُضِف فقط أنّه كان من المحتَّم، في ظروف القرنَين الثاني والثالث، أن يصل بها الأمر إلى اختيار تلك البنى، التي ليس فيها أيّ ميزة مسيحيّة، بل هي مطابِقة بدّقةٍ لبنى المجتمع المدنيّ في ذٰلك العصر.

الفصل الخامس

المتوحّدون الأوّلون

بقلم لُوقا ڤرهِيجِن(*)

«كان المثال التوحّديّ، من وجوه كثيرة،
ردّة فعل على الحلول الوسط المحتومة التي رضخت
الكنيسة لها في العصور القسطنطينيّة».



القدّيس أنطونيوس الكبير

في القرن الرابع، كَثُر عدد المتوحِّدين في القسم الشرقيّ من الإمبراطوريّة الرومانيّة - بمصر في مطلع القرن، مع ظهور القدّيس أنطونيوس - كما كثر في القسم الغربيّ - في غاليا في نهاية القرن، مع ظهور القدّيس مرتينُس -. فمن أين أتى هٰذا الفيض من الأشخاص المشغوفين بالله والتاركين كلَّ شيء للانصراف إلى حياة النسك والتقشّف، من مصر خاصّةً؟ وكان القدّيس أنطونيوس «مثال» المتوحِّدين، كما وصفه أثناسيوس الإسكندريّ في كتابه **حياة القدّيس أنطونيوس**، الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في انتشار الحياة التوحّديّة. كانت الظروف مؤاتية لتشجيع انطلاقتها، والأرض جاهزة، وكان عصر الاضطهادات قد انتهى، وأخذ كرم النفس والبطولة في الإيمان يجدان طُرق تعبير جديدة. فحلّ المتوحِّد محلّ الشهيد. وتمّ ابتكار نوع جديد من أنواع القداسة. ومنذ ذٰلك الوقت، أصبحت الحياة التوحّديّة مثال الحياة المسيحيّة في زمن السلم.

(*) Luc Verheijen، باحث في المركز الوطنيّ (الفرنسيّ) للبحث العلميّ.

صورة مركّبة

ولٰكن، من هو المتوحِّد؟ هو رجل يعيش في العزلة – عزلة نسبيّة، لأنّ أشخاصًا آخرين، مشغوفين بالمثال نفسه، كانوا يأتون إليه ويقيمون في جواره ويلتمسون نصائحَه. لم يتجمّعوا بادئ الأمر في «دير»، بل في «مستعمرة نسّاك» منعزلين ومرتبطين في وقت واحد. فالمتوحّد هو رجل يعيش وحده على بعض المسافة من قريته، وليس له امرأة ولا أولاد. يعش عيشة فقيرةً جدًّا. ويعمل بيديه ليكسب رزقه، ويحمل إنتاج أعماله إلى أهل القرية، في مقابل ما يحتاج إليه لمعيشته. وحاجاته قليلة لأنّ حياته هي في منتهى التقشّف.

ولٰكن ليس ذٰلك كلّه إلّا تمهيدًا لما هو أساسيّ في حياته: فهو رجل يصلّي. تحرَّر من كلّ اهتمام مادّيّ، فأصبح في إمكانه أن يتكرَّس لموضوع تفكيره الوحيد، وهو الله. إنّ المتوحّد هو رجل الله. وليست حياته مقدَّمةً بكاملها وحسب، بل عنده شعور حيّ بتلك التقدمة الإجماليّة. إنه يصلّي بلا انقطاع، ويوجّه أفكاره كلّها – على قدر ما هو في استطاعة الإنسان – إلى إلٰهه، يخاطبه بواسطة المزامير أو بكلمات شخصيّة، أو حتّى في «تفكيرٍ صامت». وهو يتعلّق بالله، قدرَ المستطاع، بكلّ إرادته الحسنة وكلّ عاطفته. ويعيش كلّيًّا لله ومع الله، كما فعل يسوع نفسُه. وله عدوّ – واحد – هو الشرّ، الذي يجسِّده في شخص هو الشيطان.

لا شكّ في أنّ ما ذكرناه هو «صورة مركَّبة»، ومثال حيّ، حاضر في ذهن جميع المتوحّدين في ذٰلك الزمن. ولٰكن، في إطار «الصورة المركَّبة»، ما أكثر الإمكانات وما أكثر التنوّعات! فعلى سبيل المثال، هل كان متوحِّد القرن الرابع يشارك في الاحتفال بالإفخارستيّا كلّ صباح أو كلّ أحد؟ وهل كان يرفع في صلاته اهتمامه بجميع البشر الذين يحبّهم الله، من دون أيّ استثناء؟ وهل كان يعمل لكي يؤمِّن لنفسه الحدّ الأدنى الضروريّ لمعيشته، أم لكي يساعد هو نفسُه الفقراء المنتشرين في محيطه؟ وهل كان ترويضُه لذاته يجعله أكثر تحرُّرًا من نفسه، لكي يتمسَّك بربّه على وجه أفضل، أم أنّ هٰذا الترويض أصبح اهتمامًا خطرًا، يُراد به نوع من الحصول على نتائج قياسيّة، تكون مصدر افتخار. وهل يعي، في تلك الحالة، أنّ طريقته في عيش المثال التوحّديّ تعرِّضه ليصبح أشبه بمسخ لما يريد أن يكون فعلًا؟ وهل كان تبتّله نتيجةً لاحتقار الأمور الجسديّة وردّة فعل على عادات عصره، أم علامة الحبّ المطلق الذي يكنّه لله؟ وهل كان يرحّب بأولٰئك الذين يقصدونه ليسمعوه وهو يتحدّث عن الله، وفي بعض الأحيان ليعيشوا على مقربة من «عزلته»؟

ما قبل تاريخ الحركة التوحّديّة

إن الحياة التوحّديّة لم تكن من ابتكار أنطونيوس الناسك الذي يُدعى «أبا المتوحّدين». لا يمكننا أن نتوسّع في الحالات الأقلّ شيوعًا والتي سبقت أنطونيوس، ولٰكنّ للحركة التوحّديّة تاريخًا أقدم. ففي وقت مبكّر من حياة الكنيسة، عزم رجال ونساء مشغوفون بالله على تكريس حياتهم له. وكما فعل المتوحّدون في وقت لاحق، كانوا يسعون إلى تحويل حياتهم اليوميّة إلى صلاة. وكانوا لا يتزوّجون، لكي يتكرّسوا كلّيًّا لله. ومع ذلك كانوا يختلفون عن المتوحّدين، لأنّهم كانوا لا يبتعدون عن المدينة التي كانوا يقيمون فيها. وكانوا يشاركون في الحياة العاديّة. ولو استطعنا أن نقرأ حياتهم الداخليّة لتبيَّن لنا عمق اتّحادهم بالله. ولقد كان هٰذا العمق تمهيدًا لولادة الحركة التوحّديّة المسيحيّة.

وهناك روّاد آخرون نعرفهم أيضًا، وهم الشهداء. فعند لحظة القرار الأخير، كان الشهيد يترك ذويه وزوجته (أو الشهيدة وزوجها) وأولاده. ولا يعود يفكّر في مستقبله. وكانت الأمّ تتخلّى عن هبة الحياة. وكان الشهداء يسلّمون ذواتهم إلى الله بتكريس دمهم المسفوك تكريسًا مطلقًا. وهٰذه النظرة الروحيّة نفسُها نجدها عند

المتوحّدين في القرن الرابع. فالمسيحيّون الذين تكرّسوا لله بنوعيّة حياتهم، ومِثلُهم الشهداء، قد مهّدوا، من دون أن يكونوا على علم بالأمر، لظهور الحياة التوحّديّة بوفرة في القرن الرابع.

لقد ذكرنا أنّ الأمر كان يقتصر في البداية على رهبان منعزلين أو «مستعمرات رهبان». ولٰكن سرعان ما حانت ساعة تجمُّع «المنعزلين»، داخل حرم واحد، وخضوعهم لسلطة واحد منهم. وهٰكذا نشأت «أديرة المتوحّدين» وهي نمط جماعيّ اتّسمت به الحياة النسكيّة. وتعايَشَ النَّمَطان مدّةً من الزمن. لٰكنّ الإنسان هو كائن اجتماعيّ، فعرفت الحياة الجماعيّة تطوُّرًا واسعًا.

الجماعات الرهبانيّة

لم يمرّ التنظيم الجماعيّ من دون أن ينعكس على نمط حياة المتوحّدين. فقد انتزعهم العمل المنظَّم لخدمة الجميع من الصلاة الصريحة. ولٰكن، كان من الممكن أن يحوِّل العمل اليوميّ المتواضع إلى صلاة ضمنيّة. أفلا يمكن، في نظر الله، أن يُصبح صنع الخبز لإطعام الإخوة نشيدًا صامتًا له قيمة جليلة؟

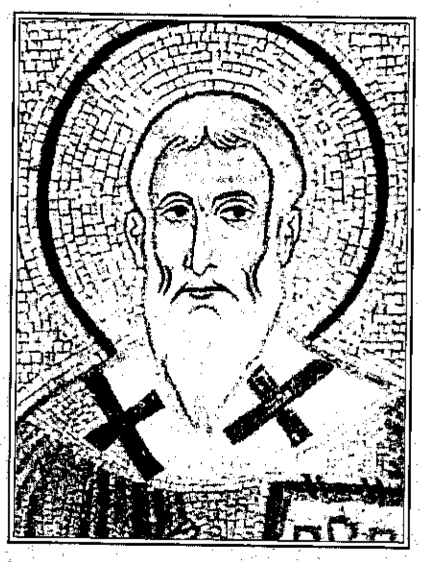
وإن كانت الجماعة الرهبانيّة تقع في قلب المدينة أو القرية – أي في داخل الكنيسة المحلّيّة – فهي لا تعزل الرهبان تمامًا عن محيطهم. فهل أصبحوا لهٰذا السبب «رهبانًا كاذبين»؟ لم يعتقد أوغسطينُس ذٰلك، فقد أسَّس عدّة أديرةٍ رهبان جماعيّة في المدن. وداخل كلِّ راهب ديريّ، أي داخلَ كلّ راهب يعيش في جماعة، يُفتَرَض أن يوجد مبدئيًّا ناسك، أي إنسان يرغب بكلّ إخلاص أن يرفع إلى الله صلوات صريحة و«يقف في حضرة الله» باطنيًّا. كان القدّيس أوغسطينُس يقول في رسائله كلِّها إنّ الذين يجتمعون في جماعة رهبانيّة يشبهون «دانيال»، أي هم أناس يصلّون بهدوء في وسط «أسود هٰذا العالم» (**شرح المزمور** ١٣٢).

في البدء، نادرًا ما كان الراهب الناسك كاهنًا أو أسقفًا، وإنْ كان أحدَ الاثنين، فلم يكن يمارس مسؤوليّات الكهنوت في خدمة إحدى الجماعات المسيحيّة. ولٰكن، حين كان الدير يقع في قلب المدينة، كان في وسع الراهب الأسقف أو الراهب الكاهن أن يمارس وظيفته الراعويّة. إلّا إنّ ذٰلك الأمر لم يرُق للجميع. فقد أورد كاسِيانُس هٰذه الجملة الرهيبة: «على الراهب أن يهرب تمامًا من النساء... والأساقفة» (**المؤسَّسات** XI، ١٨). وعلى الرغم من مقاومة بعضهم، فقد ظهر رهبان أساقفة عظماء أحبّوا شعبهم. ولٰكنّهم كانوا يحنّون إلى العزلة والصلاة الصريحة: تلك كانت حالة القدّيس مَرْتِينُس، والقدّيس باسيليوس، والقدّيس أوغسطينُس... كتب سُلبِيقِيُوس ساويرُس في مؤلَّفه **حياة القدّيس مرتينُس** ما نصّه: «بعد أن تولّى مرتينُس الأسقفيّة على مدينة تُور...، سكن لبعض الوقت في قلّاية متّصلة بالكنيسة. ثمّ لم يعد يتحمَّل أن يزعجه زائروه، فأقام لنفسه محبسة تقع على مسافة ميلَين تقريبًا خارج أسوار المدينة. وكانت تلك الخلوة منعزلةً حتّى إنّه لم يكن ينقصها شيء من **عزلة الصحراء**». ونعرف من **اعترافات القدّيس أوغسطينُس**، الذي بقي في مدينته هِيبُّونَة، أنّه «عَرض في قلبه مشروع الهرب في العزلة وتأمَّل فيه» (X، ٧٠). ولٰكن، لو اختلى مرتينُس وأوغسطينُس وباسيليوس القيصريّ وكثيرٌ غيرهم في عزلة مطلقة طوال أيّام حياتهم، لَما صُنع كلّ ذٰلك الخير الذي صنعوه!

لقد اتّسمت الحياة الرهبانية، على مرّ الزمن، بأكثر الأشكال تنوُّعًا. على كلّ حال، ربّما لم تُعرَف قطّ «الحياة الرهبانية المحض»: بل ظهرت متجسِّدةً دائمًا. وإنّ معرفة الجذور تفيدنا كثيرًا، لا للتقليد، بل للابتكار.

وثيقة

أنطونيوس


القدّيس باسيليوس

«كان أنطونيوس محبوبًا، يحبّه الجميع. وكان هو نفسه
يخضع طوعًا للغيورين (المتروّضين) الذين
يزورهم، فيتعلّم لديهم ما يخصّ كلّ واحد من فضيلةٍ وترويض
نفسيّ. وكان يتأمّل اللطف في أحدهم
والمواظبة على الصلاة في آخر، ويرى الصبر عند هٰذا
ومحبّة القريب عند ذاك، ويلاحظ سهر الليالي لدى
أحدهم والمواظبة على المطالعة لدى آخر، ويُعجَب بثبات هٰذا وبأصوام
ذاك وراحته على أرض عارية. ويراقب حِلم أحدهم
وكرم نفس آخر.
وعند الجميع، يلاحظ في الوقت نفسه التعبُّد للمسيح والمحبّة
المتبادلة. وبعد أن يمتلئ على هٰذا النحو، كان يعود
إلى الموضع الذي ينصرف فيه هو نفسه إلى ترويض
النفس، ملخّصًا فضائل الجميع ومحاولًا التعبير عنها في شخصه.
لم يكن يحسد معاصريه إلّا في أمر واحد:
وهو ألّا يكون أدنى منهم في الأفضل. وكان يفعل ذلك
من دون أن يسبّب لأحد غمًّا، بل كان يحمل
الجميع على الشعور بالفرح في شأنه. وحين يراه سكّان القرية،
والخيّرون الذين يخالطونه، يعيش على هٰذا النحو،
كانوا يدعونه جميعًا صديق الله، وكان
بعضهم يحبّونه كأنّه ابنهم، وبعضهم الآخر يحبّونه كأنّه أخ».

(أثناسيوس الإسكندريّ، **حياة أبينا القدّيس أنطونيوس وسيرتُه I، ٤**)

انتشار الحياة التوحّديّة



القدّيس باسيليوس يملي تعليمه

نشأت الحركة التوحّديّة المسيحيّة في مصر، في النصف الأوّل من القرن الرابع، كردّة فعل على كنيسة ظافرة ومتمركزة في المجتمع.

ومن مصر، انتشرت موجة الحركة التوحّديّة انتشارًا سريعًا: فأقام هِيلارِيُون، تلميذ القدّيس أنطونيوس، في مايُوما الواقعة حاليًّا في شريط غزّة الساحليّ، ثمّ أُسّست أديرة قرب الأماكن المقدّسة في فلسطين وسيناء. وفي سورية، تجمّع النسّاك السوريّون حول خَلْقِيس ونافسوا نسّاك مصر. ولكنّ الحركة التوحُّديّة خطت خطًى أكبر وعَمِل على نشرها أشخاص بارزون: فحوالى ٣٥٧، قام باسيليوس القيصريّ بجولة في أنحاء الشرق الأدنى حيث احتكّ بالمتوحّدين وزار الأديرة. وفور عودته إلى آسية الصغرى، أسّس ديرًا للرجال في مِلْك يخصّ عائلته. واستوحى قانون القدّيس باخُومِيُوس، فأقام توازنًا بين ترويض النفس والاعتدال، طَبَع الحياةَ التوحّديّة كلّها في الكنيسة الأرثوذكسيّة.

ثمّ عاد زائرون آخرون كالقدّيس هِيرُونِيمُس ويوحنّا كاسِيانُس إلى الغرب وأثنَوا على المتوحّدين. فأسّس يوحنّا كاسيانُس ديرَين على النمط المصريّ في مرسيليا حوالى السنة ٤٠٠ وأنشأ هُونُوراطُس ديرًا على الشاطئ الأزرق في لِيرانس سنة ٤١٠.

ولكنَّهما لم يكونا الأوَّلَين، إذ سبق لانتشار كتاب **حياة أنطونيوس** ولِنَفْيِ الأساقفة المتكرِّر، كنفي أثناسيوس الإسكندريّ، أن أسهما في نموّ الحياة التوحّديّة في الغرب. فحوالى السنة ٣٦٠، أقام القدّيس مَرتِينُس في لِيغُوجِه (Ligugé)، ثمّ أسّس دير مَرمُوتِييه، عند انتخابه أسقفًا على تور. وعمِل عددٌ آخر من المتوحّدين - الأساقفة والأساقفة - المتوحّدين، كأُوسابِيُوس أسقف فِرْتشِللي وپُولان أسقف نُولا وفِكْتِرِيس أسقف رُوان وغيرهم، على زيادة عدد الأديرة. أمّا في إفريقيا، فقد أسّس القدّيس أوغسطينُس أديرةً «أسقفيّة» في هِيپُّونة وتاغَسْتا.

فالانطلاقة السريعة التي شهدتها الحياةُ التوحّديّة مرتبطة إذًا بالزخم الذي أمدَّها به جميعُ عظماء الكنيسة تقريبًا من القرنيَن الرابع والخامس. فإذا كان للمتوحّدين أعداء من بين الشعب (اتّهامات ببغض البشر وكره الحياة)، فلم يخلوا من مدافعين أشدّاء بين أصحاب السلطة. فإنّ عددًا كبيرًا من الأساقفة تذوّقوا في شبابهم الحياة التوحّديّة وظلّوا متعلّقين بها تعلّقًا شديدًا.

الفصل السادس

الأزمة الأريوسيّة

هزّت الكنيسةَ أزمةٌ خطيرة: هل المسيح هو
أدنى من الآب؟
وهل ألوهيّتُه هي مثار جدل؟
مجمع كبير - عُقِد في نيقية سنة ٣٢٥ - أكّد إيمان الكنيسة.

بقلم كلُود لوپِلّيه(*)

منذ انتصار قسطنطين في ٣١٢، تمتَّعت الكنيسة بحظوة السلطة الإمبراطوريّة. وبعد أن كانت مضطهَدةً في الأمس، ها هي اليومَ ظافرة. وقد أنعش المسيحيّين انقلابُ أوضاعهم حتّى إنّه دفعهم إلى التوهُّم. ولنا في تصريحات أوسابيوس القيصريّ الحماسيّة دليل على دهشهم.

غير أنّ الحماسة لم تدم طويلًا. ففي الشرق، مزّق الكنيسةَ خلافٌ في التعليم ذو خطورة لا مثيل لها منذ قيام الأزمة الغنوصيّة. في السنة ٣١٨، أخذ كاهنٌ إسكندرانيّ، اسمه آريوس، يروّج أفكارًا اعتبرها أسقفُه الإسكندر هرطوقيّة. فانعقد مجمعٌ محلّيّ دان آريوس وحرمه في ٣٢٣. فلجأ إلى فلسطين ونزل عند صديقه أوسابيوس القيصريّ، ولاقى دعمًا من بعض الأساقفة واللاهوتيّين الشرقيّين فتفاقم الخلاف. وحين انتصر قسطنطين على خصمه لِيقِينيُوس وتولّى زمام الحكم في الشرق الرومانيّ، لقي هناك كنيسةً تمرّ بأزمة.

تعليم آريوس

ذلك بأنّ تعليم آريوس يمسّ أمرًا في صميم الإيمان المسيحيّ، وهو سرّ الثالوث. وكان آريوس كثير الاهتمام بالمحافظة على القدرة الكلّيّة التي يتمتّع بها الآب - وهو وحده «غير مولود» - ولٰكنّه كان في الواقع يطرح علامة استفهام حول ألوهيّة المسيح. ففي نظره، الآب وحده إلٰه حقيقيّ، أزليّ، لا بدء له. أمّا الابن، الكلمة المتجسّد في يسوع المسيح، فليس هو أزليًّا ولا غير مخلوق. لا شكّ في أنّ «خَلقه» يرقى إلى «ما قبل الدهور كلّها»، إلّا أنّه ليس سوى بكر الخلائق، ويستمدّ طابعه الإلٰهيّ من هبةٍ من الآب. فالابن هو، في نظر آريوس، تابع للآب وأدنى منه.

ليست تلك الأفكار بجديدة. فقد سبق أن أُعرب عنها في الإسكندريّة في القرن الثالث، ولٰكنّها اتّخذت عند آريوس صيغة نظاميّة، إذ كان المقصود أن يُشرح سرّ الثالوث بوجهٍ يُرضي العقل البشريّ. فإنّه يبدو أنّ هناك تناقضًا بين الإيمان بإلٰه واحد وتأكيدِ ألوهيّة المسيح - وهو إلٰهٌ حقيقيّ مع كونه أصبح إنسانًا، وواحد مع الآب مع كونه متمايزًا عنه -. أراد الأريوسيّون أن يتخطّوا ذلك التناقض، فاستعملوا مفاهيم الأفلاطونيّة المحدَثة، وهي أكثر المذاهب الفلسفيّة شيوعًا في ذلك العصر، وتقول بأنّ هناك مراتبَ كثيرةً من الكائنات الإلٰهيّة تتدرّج بين الألوهة العليا والخليقة.

(*) Claude Lepelley.

رأى خصوم آريوس خطرَ الوقوعِ في موقفٍ يعني إنكار ألوهيّة المسيح. أوليس جوهرُ المسيحيّة يكمن بالضبط في سرّ الله الذي صار بشرًا؟ إلى ذٰلك الحين، لم تكن السلطة الكنسيّة قد حسمت الأمر فعلًا. فقبل عهد قسطنطين، كانت الكنيسة مضطهَدة أو غير معتبَرة، فلم تتمكّن من تسوية مشاكلها الداخليّة. ولمّا جاء قسطنطين، تولّى زمام الأمور، فأكّد أنّ سلام الكنيسة يهمّه بقدر ما يهمّه سلام الدولة. وقرّر، في السنة ٣٢٥، أن يدعو إلى انعقاد مجمع، في قصره النيقاويّ في آسية الصغرى، يضمّ أساقفةً من العالم المسيحيّ كلّه.

مجمع نيقية

كان أوّلَ مجمع اتّضح أنه عالميّ، «مسكونيّ». وقد بذل قسطنطين كلَّ ما في وسعه لكي يتمكّن الأساقفة من الوصول، حتى إنّه منحهم حقّ استخدام البريد الإمبراطوريّ، المخصَّص عادةً لنقل الموظّفين الذين يقومون بخدمتهم. ومع ذٰلك كلّه، لم تَخْلُ العقبات الماديّة من التأثير، فمعظم الأساقفة الثلاثمائة تقريبًا، الذين اجتمعوا في ٢٠ أيّار (مايو) ٣٢٥، كانوا من الشرق. وكان الغرب اللاتينيّ ممثَّلًا بعدد قليل، أي بثلاثة أو أربعة أساقفة فقط، ومنهم هُوسِيُوس أسقف قُرطُبة، «خبير» قسطنطين في المسائل الدينيّة.

افتتح قسطنطين المجمع إذًا في قاعة القصر الكبرى. وسرعان ما ارتسمت ميول المشاركين: فليس الأريوسيّون المتشدّدون، مع أوسابيوس أسقف نيقوميدية، سوى قلّة، وهم يَصدمون غالبيّة الأساقفة بصِيَغهم غير المرنة التي تُنكِر ألوهيّة المسيح. وفي الجهة المقابلة، تجمّع أشدّ خصوم الأريوسيّة عزمًا حول إسكندر الإسكندريّ - يرافقه شمّاسه وخَلَفُه أثناسِيوس - وهوسيوس أسقف قرطبة، وسعوا إلى حمل المشاركين في المجمع على إعلان «تساوي» الآب والابن «في الجوهر»: فالابن، وهو والآب من الطبيعة («الجوهر») الإلٰهيّة نفسها، هو إلٰه مساوٍ للآب. والكلمة اليونانيّة التي تعبِّر عن تلك الوحدة في الطبيعة الإلٰهيّة هي **أومُوأُوسِيُوس**. ورأى عدد من الأساقفة المجتمعين حول المؤرّخ أوسابيوس القيصريّ، وهم أكثر اعتدالًا، أنّ خطر التعليم الأريوسيّ ليس بكبير، فاهتمّوا للوحدة أكثر منهم للدقّة: فلِمَ البحث عن صِيَغ جديدة وعدم الاكتفاء بتعابير الكتاب المقدَّس؟ فرفض الحزبُ «المحافظ» كلمةَ **أموأوسيوس**.

وأخيرًا تبنّى الملتئمون في المجمع **قانونَ الإيمان** المستعمَلَ في قيصريّة فلسطين قاعدةً لإعلان إيمانهم، ولٰكنّهم وضّحوا ذٰلك النصّ بتبنّي كلمة **أوموأوسيوس**، «المساوي في الجوهر»، التي تؤكّد بوضوح ألوهيّة الابن: «إنّه إلٰهٌ آتٍ من إلٰه، ونور آتٍ من نور، وإلٰه حقّ آتٍ من إلٰهٍ حقّ، مساوٍ للآب في الجوهر، وبه خُلِق كلُّ شيء». وقد حفظت الكنائس المسيحيّة ذٰلك النصّ **قانونَ إيمانٍ** لها.

ذيول الأزمة

أسقفان فقط أيّدا آريوس في موقفه حتّى النهاية. فحُرِمَ الثلاثة، وبدا أنَّ القضيّة انتهت.

إلّا أنّ شيئًا من ذٰلك لم يكن. فكثير من الأساقفة الشرقيّين، كأوسابيوس القيصريّ، لم يقبلوا بالتحديد النيقاويّ إلّا على مضض، في حين بقي بعضهم، كأوسابيوس أسقف نِيقُومِيدِية الطَموح، أريوسيًّا في قلبه. وأخذوا على النيقاويّين أنهم خلطوا بين الأقانيم الإلٰهيّة الثلاثة، وجعلوا منهم «أشكالًا» لإلٰهٍ واحدٍ شخصيّ أُوحي به للبشر - وفي الواقع، عرّض بعض النيقاويّين أنفسهم (أمثال مَرْسِلّس الأنقيري وآخرين) لذٰلك الانتقاد. أما الغربيّون - وكنيسة رومة بوجهٍ خاصّ - فكانوا متمسّكين تمسُّكًا شديدًا بتعليم المجمع. وكان ذٰلك بدايةً لحفر هوّة راحت تتّسع تدريجًا بين الشرق اليونانيّ والغرب اللاتينيّ، إذ إنّ كلًّا من الطرفين وضع عِلمَ لاهوتٍ مختلفًا، وفَهِمَ فكرَ الآخر على نحوٍ كان يزداد سوءًا.

وهٰكذا نشأت الأحزاب: حزب النيقاويّين من جهة، مع الغربيّين والإسكندريّين الذين برز أسقفهم الجديد أثناسيوس كبطل الإيمان القويم الذي لا يكلّ ولا يهدأ، ومن جهة أخرى حزب الأريوسيّين المجاهرين الذين يحطّون من ألوهة المسيح إلى أقصى حدّ. وبين الحزبين، ظهرت مدارس لاهوتيّة كانت تسعى إلى إيجاد حلٍّ وسط: وكان زعماؤها يعتبرون المسيح أدنى من الآب، من دون أن ينكروا ألوهته. وكان اليونانيّون يتحرّكون بلا مشقّة داخل تلك النزاعات، لتدرّبهم على المناقشات التي دارت بين مدارسهم الفلسفيّة مدّةَ عدّة قرون. ولٰكن، هل تلك المناقشات «البيزنطيّة» لا فائدة لها لأجيال القرن العشرين؟ لا نؤكّد ذٰلك، فإنّنا هنا أمام جوهر الإيمان المسيحيّ.

وثيقة

القانون النيقاويّ

نؤمن بإلٰه واحد، آب قدير، خالق كلّ شيء،
ما يُرى وما لا يُرى، وبربٍّ واحد يسوع المسيح، ابن الله،
الوحيد المولود من الآب،
أي من جوهر الآب، إلٰهٍ من إلٰه، نورٍ من نور،
إلٰهٍ حقّ من إلٰه حقّ، مولود، غير مخلوق، مساوٍ للآب في
الجوهر، به خُلق كلُّ شيء، ما في
السماء وما على الأرض، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا
نزل وتجسّد وصار إنسانًا، وتألّم وقام في اليوم الثالث،
وصعد إلى السماوات، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات.
ونؤمن بالروح القدس. أمّا الذين يقولون
«كان وقت لم يكن فيه، وهو لم يكن قبل أن يولد»،
و«أُخرج من العدم»، أو يزعمون أنّ ابن الله هو
من أقنوم آخر أو من جوهرٍ آخر، أو أنّه مخلوق، أو متغيّر
أو متبدّل، فأولئك ترشقهم الكنيسة الجامعة
والرسوليّة بالحِرْم.

وما زاد النقاش تعقيدًا هو تدخُّلات الأباطرة. فالأريوسيّون حملوا قسطنطين على تعديل موقفه، فانتهى به الأمر إلى تأييد تعليمهم: فنُفِيَ أثناسيوس واستُدعي آريوس من منفاه وعُقد مجمع أعاد إليه الاعتبار قبل أن يتوفّاه الله سنة ٣٣٥. وأوسابيوس أسقف نيقوميدية الأريوسيّ هو الذي عمَّد قسطنطين على فراش الموت في ٣٣٧. وخلف قسطنطينَ في الغرب ابنُه قسطنطيوس الموالي لمجمع نيقية، وفي الشرق ابنُه قسطنسيوس الثاني المؤيّد لموقف معتدل من الأريوسيّة. وفي ٣٥٣، امتدّت سلطة قسطنسيوس الثاني إلى الغرب أيضًا، فانتصرت الأريوسيّة. وكانت النتيجة أن عُزل ونُفي الأساقفة النيقاويّون، لا القدّيس أثناسيوس وحده، بل القدّيس هيلاريون أسقف پواتييه، وهوسيوس أسقف قُرطُبة العجوز، وليباريوس بابا رومة أيضًا. وإلى جانب ذٰلك، انتشر مذهبٌ أريوسيٌّ أكثر تشدُّدًا، حول آيثيُوس وأُونُومُس، اللذين أنكرا ألوهة

المسيح إنكارًا جذريًّا. وانعقدت مجامع تُنكِرُ إيمان نيقية، في الشرق وحتّى في الغرب، من شدّة خوف الأساقفة أمام قدرة الإمبراطور المطلقة.

ولذٰلك، ففي ٣٦٠، كان الإيمان المسيحيّ مهدَّدًا، والكنيسة ممزَّقة، وعقول الرعاة والمؤمنين في منتهى البلبلة.

آباء الكنيسة

ولحسن الحظّ، ظهر أعظم الكتّاب والمفكّرين في العالم المسيحيّ القديم، أولٰئك الذين دُعوا في ما بعد آباء الكنيسة، وأنقذوا الإيمان المهدَّد. وقد شقّ أثناسيوس الطريق مسلِّطًا الأضواء على معنى التجسُّد، سرّ الإلٰه الذي صار إنسانًا ليؤلِّه الإنسان المخلَّص. وفي قپدوقية، في قلب آسية الصغرى، قام باسيليوس أسقف قيصريّة، وأخوه غريغوزيوس النيصيّ وصديقه غريغوريوس النازيانزيّ، بوضع علم لاهوتٍ أوسع وأعمق حول الثالوث الأقدس. ففي حين كان الأريوسيّون يريدون أن يقصروا السرّ الإلٰهي على استدلالات بشريّة، أكّد الثلاثة أنّ الله لا يُدرَك وأنّه يفوق كلَّ الكلمات وكلّ الأفكار البشريّة. وكانوا رجالَ صلاة، فعلَّموا أنّ الله يُدرَك في الصمت والعبادة، لا في صخب الكلمات. كان أونومس الأريوسيّ يعتقد بأنّه يستطيع أن يحصر كيان الله في التحديدات، وأن يقصره على مقولات العقل البشريّ. وعلى هٰذا الادّعاء، وقد يكون أشدّ المسائل الأريوسيّة هرطقةً، ردّ الآباء بالشهادة التالية: ليس الله من صنع الفلاسفة والعلماء، بل هو، في كيانه الثالوثي، سرّ لا يُدرَك. ولٰكنّ الله عرَّف، في يسوع المسيح، أنّه محبّة، ومكّن كلّ من ينفتح على محبّته من التقرّب إليه.

إنّ السرّ الثالوثيّ هو حركة حبّ أزليّة بين الأقانيم الثلاثة. ويسوع المسيح يدعو المسيحيّ إلى الدخول في تلك الحركة والمشاركة في حياة الله.

وأمام هٰذا التعليم السامي، الذي عبَّر عنه غريغوريوس النيصيّ ببراعةٍ فلسفيّة لا تقبل الجدل، بدت حجج أونومس الأريوسيّة واهيةً وجوفاء. والمسيحيّون الذين يتمتّعون بحسّ روحي حقيقيّ لم يقعوا في هذا الخطأ. وبذٰلك انتصر الإيمان القويم في الشرق، وتوصَّل الآباء القپّدوقيّون إلى المصالحة بين اليونانيّين والغربيّين الذين ظلُّوا أمناء لقرارات مجمع نيقية، وإلى إقناع كِلا الطرفين بوحدة إيمانهما. ولمّا توفِّي القدّيس باسيليوس، في ٣٧٩، كانت المعركة قد تكلّلت فعلًا بانتصار حزبه.

وفي تلك السنة نفسها، تسلَّم الإمبراطور ثِيُودُوسِيُوس السلطةَ في الشرق، وكان غربيًّا ومناصرًا لمجمع نيقية، فأمر بالعودة إلى الإيمان القويم، وعقد سنة ٣٨١، في القسطنطينيّة، المجمع المسكونيّ الثاني. فأكّد هٰذا إيمان نيقية وأعلن أيضًا ألوهة الروح القدس «الربّ، واهب الحياة والمنبثق من الآب».

هُزِمت الأريوسيّة، لٰكنّ الصدمة كانت خطيرة، إذ لم يكن الأمر يختصّ، كما في عصور الاضطهادات، بهجماتٍ من خارج الكنيسة. فإنّ بذور التخريب ظهرت هٰذه المرّة من داخل الكنيسة نفسها، فكان ذٰلك الامتحان شاقًّا. وبفضل الآباء، خرجت الكنيسة متقوّيةً ومقتنعة بضرورة التفكير اللاهوتيّ، وشهد القرن الرابع تطوُّرًا رائعًا في ذٰلك التفكير، وقد بلغ منذ تلك الحقبة نضجًا يصعب تجاوز مستواه.



الفصل السابع

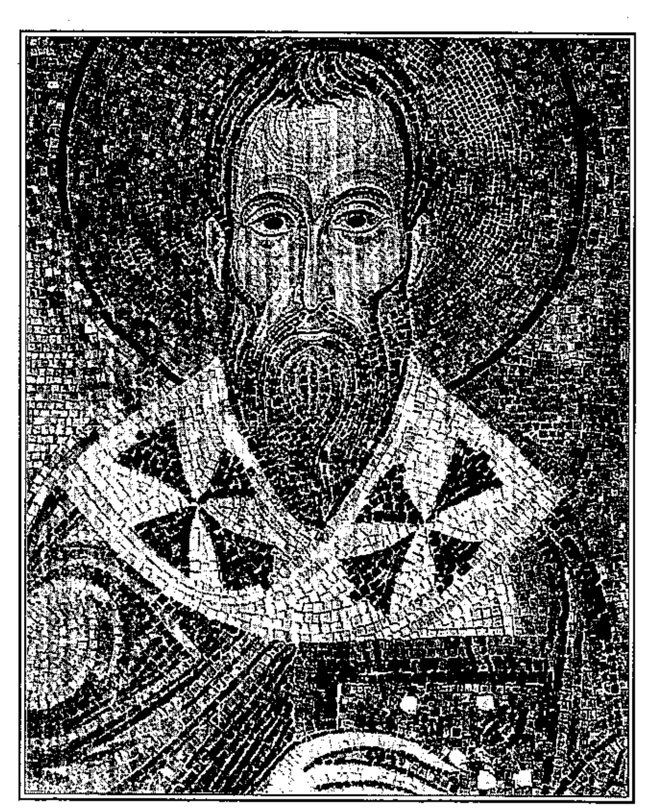
أُسقف مناضل
أَثناسيوس الإسكندريّ

بقلم إليان غُونْدِينيه(*)

لا يكفي تحديد الإيمان في المجامع، فلا بدَّ من الدفاع عنه حين يتعرَّض للهجوم. لم يتهرَّب أثناسيوس من أيِّ نضال، ولم ينثنِ أمام أيِّ سلطة. فلقد جسَّد إيمان الكنيسة.

أثناسيوس الإسكندريّ! إذا كانت هناك شخصيّة مَثارُ جدل في حياتها وبعد مماتها، فهي شخصيّته ولا شكّ. لقد كَرَّم التقليدُ فيه مُنقِذَ الإيمان النيقاويّ: فلولا أثناسيوس، ماذا كان حلَّ بالمسيحيّين الذين هدَّدتَهم الأزمة الأريوسيَّة، وقد زادها رهبةً ذٰلك الدعم الذي كانت تلقاه من السلطة؟ إلّا أنّ هٰذا الاعتبار لم يمنع عددًا من المؤرِّخين من توجيه بعض الانتقادات إليه. لا شكّ في أنّهم يعترفون بأنَّ أثناسيوس ناضَلَ في سبيل الإيمان، ولٰكنّهم يضيفون أنّه فعل ذٰلك من دون تمييز وبتعجرف وشراسة حملاه أحيانًا على ارتكاب الظلم نحو معارضيه. أمّا المدافعون عنه، فيسلّمون بإمكان اتّصافه بالتسلّط، وحتّى بالعنف، ولٰكنّهم يضيفون: أليس في اتّهامه بالتعجرف تناسٍ سريع لما كانت جسامةُ الخطر الأريوسيّ تستدعيه من حزم لا ينثني؟

والحال أنّ الحزم والشعور بالمسؤوليّات لم يُعوِزا قطّ أسقفَ الإسكندريّة. فإنّ المعجَبين به وأخصامه على السواء متّفقون على الأقلّ في الاعتراف بقوّة إرادته وثبات مقاومته لاستبداد الإمبراطور: فقد نُفي أثناسيوس ما لا يقلّ عن خمس مرّات في أثناء سنوات أسقفيّته الخمس والأربعين. وهٰذا رقم قياسيّ!

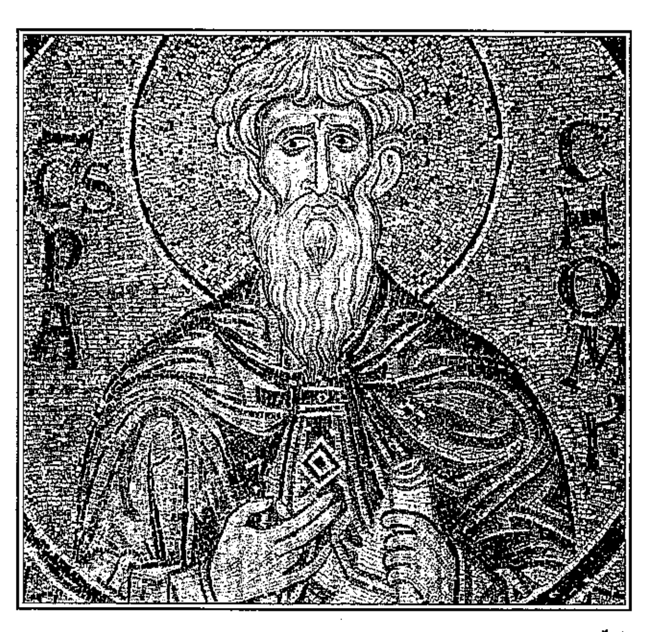

القدّيس أثناسيوس الكبير الإسكندريّ

ولم يكن الأباطرة على خطأ، فقد كان أثناسيوس ذٰلك الرجل الواجب تحطيمه لكسب القضيّة الأريوسيّة.

(*) Eliane Gondinet.

السنون الأُوَل

ماذا نعلم عن طفولته وعن شبابه؟ النزر اليسير. على الأرجح، ولد أثناسيوس حوالى السنة ٢٩٥، لعائلة مسيحيّة من أصل يونانيّ، في غمرةِ أجواءٍ مليئة بالصراع. أَوَلم يحضر الإمبراطور ديوقليتيانُس نفسُه



القدّيس باخوميوس

ليحاصِر الإسكندريّة، في ٢٩٦، من أجل قمع تمرُّدٍ مضت عشر سنوات على قيامه؟ وبعد مقاومة طويلة، استولى على المدينة ودُمِّرت قنواتها وقُتِل عدد كبير من أهلِها. وكان الاضطهاد الذي شُنّ على المسيحيّين رهيبًا. ولا يُعقل ألّا يكون أثناسيوس الصغير قد تأثّر بتلك الأيّام الحالكة. وهل كان له منذ شبابه اتّصالات دائمة بالقدّيس أنطونيوس ومتوحّديه؟ ربّما. على كلّ حال تأثّر بمثالهم في ترويض النفس والحياة الإنجيليّة. ولٰكنّه لم يَدخل حقًّا في التاريخ إلّا سنة ٣٢٠، حين كتب مقالة «في الردّ على الأمم وفي تجسُّد الكلمة»، ظهر فيها إيمانٌ مقتنع بألوهة المخلِّص. وكان، في ذٰلك الوقت، شمّاسًا للأسقف إسكندر الذي اختاره ليكون أمين سرِّه. وبهٰذه الصفة، رافقه إلى مجمع نيقية سنة ٣٢٥.

وفي سنة ٣٢٨، مات إسكندر، فخلفه شمّاسُه على كرسيّ الإسكندريّة، ورُسم أثناسيوس أسقفًا في حزيران (يونيو)، فأصبح في الثلاثين من عمره، أبرز أسقفٍ في الشرق وثاني شخصيّة في الكنيسة بعد أسقف رومة. لٰكنّ أنصار مِلِيتيُوس، وهو أسقف منشقّ، رفضوا الخضوع لسلطته. فجاب أثناسيوس البلادَ التي أُوكِلت إليه، في كلّ أنحائها، جامعًا حوله جميع الأساقفة الأوفياء للإيمان الصحيح. والتقى في جنوب مصر القدّيس باخُومِيُوس، مؤسِّس أديرة المتوحّدين: وكان ذلك بداية – أو تثبيت – صداقة متينة. وإثر تلك الزيارة التي قام بها لمتوحّدي الصحراء «باباهُم»، أيقنوا بأنّه يمكنهم الاعتماد عليه. أمّا أثناسيوس فقد رأى فيهم، بعد ذٰلك، حلفاء أُمناء طوال حياته المضطربة.

اتّهام أثناسيوس بالقتل

وفي أثناء غيابه، لم يضيِّع أخصامُه وقتَهم. فحوالى السنوات ٣٢٨-٣٣٠، نجح أوسابيوس أسقف نيقوميدية في تغليب ردّة الفعل الأَريوسيّة على مجمع نيقية. فأقام علاقةً بأتباع مليقيوس الذين زوَّدوه بالشكاوى على أثناسيوس. ونُقِلت تلك الشكاوى إلى قسطنطين: فقِيلَ له إنّ أثناسيوس يتعدّى على الحقّ الملكيّ بفرضه على رعاياه في مصر ضريبةً يجب أن يدفعوها كتّانًا، وأنه، علاوةً على ذٰلك، أهدى علبةً مليئة بالذهب إلى موظَّفٍ بارز يُدعى فِيلُومِينُس (لو ظلّ فيلومينُس في البلاط مرضيًّا عنه لرأى قسطنطين في ذٰلك تفاهةً، لٰكنّ فيلومينُس فقد حظوته، واعتُبرت «الرشوة» التي قدَّمها أثناسيوس تواطؤًا مع شخصٍ خائن). وأخيرًا، اتُّهم أثناسيوس بانتهاك القدسيّات: ذٰلك بأنّه أراد أن يطردَ إسْخِيراس، وهو كاهن مِلِيقيوسيّ تمّت رسامته بطريقة غير شرعيّة. وقيل إنّ الكاهن تمسَّك بمذبحه، فأراد مبعوث أثناسيوس أن ينتزعه منه، فانقلب المذبح، وكُسِرَت كأس البلّور.

لمّا أُخبِر أثناسيوس بتلك الاتّهامات، صعد من

ساعته إلى نيقوميدية وتوصّل إلى تبرير نفسه لدى الإمبراطور بحيث إنّه غادر البلاط بعد أن زوّده الإمبراطور برسالةٍ تلوم أخصامه على تصرّفهم في معاملة «رجل الله». وبذلك، اعتقد الأسقف أنّه تخلّص من المِليقيوسيّين. ولٰكنّه لم يحسب حسابًا لضغينتهم. فقد رشقوه باتّهام جديد أخطر بكثير، وهو أنّه أوسعَ الأسقفَ المِليقيوسيّ أرسينيوس ضربًا حتى أرداه قتيلًا. فأمر بمباشرة التحقيق. اغتاظ أثناسيوس وطلب من إكليرسه أن يجري تحقيقًا مضادًا... وانتهى الأمر بالعثور على أرسينيوس مختبئًا في أحد أديرة مصر الجنوبيّة. ثار ثائر قسطنطين، وكان لا يحبّ أن يسخر أحد منه، وانتصر أثناسيوس، ولٰكن لا لوقت طويل. فقد هاج أوسابيوس أسقف نيقوميدية والأريوسيّون لدى الإمبراطور. وأخيرًا، فرض قسطنطين على آريوس أن يوقّع شهادة إيمانٍ على جانب من الغموض، وأمر أثناسيوس بأن يعيد قبوله في شِركته الكنسيّة.

فردّ أثناسيوس بأنّ ذٰلك مستحيل، ما دام آريوس لا يقبل قانون إيمان نيقية. وما كان من المِليقيوسيّين والأريوسيّين إلّا أن طالبوا بعقد مجمع، فدعا قسطنطين إليه في صور سنة ٣٣٥. فوجد أثناسيوس نفسه في صفوف المتّهَمين. وكتب المؤرّخ رُوفِينُس أنّ مسألة مقتل أرسينيوس أُعيدت إلى بساط البحث، وتحوّلت الجلسة إلى مهزلة كبرى، إذ قُدِّمت وثيقةُ إثباتٍ لم تكن سوى صندوق يحتوي على ذراع الضحيّة! فسأل أثناسيوس: «من منكم يعرف أرسينيوس ويستطيع أن يُقسِم بأنّ هٰذه هي ذراعه؟» فتقدّم بعض الأساقفة. وإذا بأثناسيوس يقدّم شاهدًا كان قد أحضره سرًّا... ولم يكن سوى أرسينيوس الحيّ والمحتفظ بذراعيه الاثنتين. ولٰكن، بالرغم من ذٰلك، لم يُبَرَّأ أثناسيوس. ولمّا سَئِمَ من الحاجة إلى تبرئة نفسه أمام مجمع مؤلّف في غالبيّته الساحقة من أخصامه، قصد الإمبراطور طالبًا إليه أن ينصفَه. فاستفاد أعضاء المجمع من هروبه وحكموا عليه رسميًّا وعزلوه.

ومع ذٰلك، توصّل أثناسيوس إلى مقابلة قسطنطين، وقد بدأ ينزعج من تلك الأُمور كلّها. فماذا حصل بينهما؟ هل ضايق الأسقفُ الإمبراطور بشموخ أقواله (كما روى القديس إِبِيفانِيُوس)؟ وهل أقنع أخصامُ أثناسيوس الإمبراطور بأنّ الأسقف تباهى بقدرته على تجويع القسطنطينيّة بمنع نقل القمح من الإسكندريّة إلى المدينة الإمبراطوريّة (كما روى أثناسيوس نفسُه)؟ على أيّ حال، نُفي أثناسيوس إلى ترِير، عاصمة إمبراطوريّة الغرب. وفي مصر، أحدث ذٰلك ضجّةً كبيرة تجعلنا ندرك مدى تعلّق الشعب المسيحي بِ«باباه». فاحتجّ الأساقفة، وتظاهر الشعب في الكنائس، وكتب القدّيس أنطونيوس نفسُه عدّة رسائل إلى قسطنطين ليحمله على الرجوع عن قراره. إلّا أنّ ذٰلك كلّه ذهب سدى. فقد أصبح الأريوسيّون أسياد اللعبة، وكادت الإسكندريّة أن تبقى المدينةَ الكبرى الوحيدة التي توصّل فيها أنصار أثناسيوس إلى الحفاظ على التقليد القويم. وكانت علامة ذٰلك الانتصار أنّ أوسابيوس، أسقف نيقوميدية الأريوسيّ، هو الذي عمّد قسطنطين على فراش الموت سنة ٣٣٧.

انقلابات فجائيّة متتالية

ولم يكن نفي أثناسيوس سوى الأوّل ممّا كابده لاحقًا من هٰذا القبيل. فقد تواصلت المأساة الهزليّة. ذٰلك بأنّ أبناء قسطنطين تقاسموا الإمبراطوريّة، فتملّك قسطنطينُ الثاني وقسطنطيوسُ الغرب، وتملّك قسطنسيوس الشرق. كان قسطنطين الثاني نيقاويًّا، فطلب إلى أثناسيوس أن يعود إلى الإسكندرية. وفرح المسيحيّون بعودة أُسقفهم بعد انقضاء سنتين على غيابه.

ولٰكن، هل كسب المعركة؟ لا، إذ واصل أوسابيوس أسقف نيقوميدية دسائسه لدى قسطنسيوس، وهو يعلم أنّه لا يؤيّد أثناسيوس، كما حاول أن يحرّض عليه يُوليوس أسقف رومة. وأراد أثناسيوس أن يدافع عن نفسه، فوجّه نداءً إلى المتوحّدين. وفي شهر آب (أغسطس) وصل أنطونيوس نفسُه إلى الإسكندريّة، وكان يكرَّم في ذٰلك الوقت تكريم القديسين، في أنحاء

مصر كلِّها، وقد جاء ليُعلِن ثقته المطلقة بالأسقف أثناسيوس الذي كان في حاجةٍ ماسّة إلى مثل هٰذا الإعلان. ذٰلك بأن أتباع أوسابيوس نصَّبُوا أسقفًا مضادًّا هو غريغوريوس. فطُرِد أثناسيوس من قصره الأسقفيّ في آذار (مارس) ٣٣٩، ونجح في الإبحار إلى رومة، متجاوزًا حراسة الشرطة بفضل مساعدة البحّارة الذين كانوا يكنّون له كلّ إخلاص. وقد مكّنه هٰذا النفي من توثيق روابطه بكنيسة رومة. وفي تلك الأثناء، كان الأباطرة المشاركون في الحكم يتحاربون، فقُتِل قسطنطين الثاني. ولٰكنّ قسطنطيوس، الذي واصل حمايته للإيمان النيقاويّ، طلب من قسطنسيوس أن يُعيد أثناسيوس إلى الإسكندريّة. وقد تيسَّر ذٰلك الأمر بوفاة غريغوريوس في ٣٤٥. وظهرت رحلة عودة أثناسيوس بمظهر الانتصار: ففي مصر، تجلّت الحماسة الشعبيّة، اعتبارًا من مخرج الصحراء، حتّى إنّ الموظّفين أنفسَهم جاؤوا لينتظروه على بعد أكثر من مائة كيلومتر من العاصمة. ورقصت الجموع ولوّحت بالأغصان. ودخل أثناسيوس وسط الهتافات. واستحقّ عشر سنوات من الهدوء، فعاشت مصر حقبةً من الزمن في حرارة مدهشة.

لٰكنّ قسطنطيوس توفّي. ولم يبقَ لأثناسيوس مَن يحميه، في حين أنّ قسطنسيوس لم يُلقِ السلاح. ففي ٣٥٦، حاصر الإسكندريّة بكتائبه ونصَّبَ أسقفًا أريوسيًّا مكانَ أثناسيوس، بعد أن التجأ إلى صحراء مصر، حيث خبَّأه أصدقاؤه المتوحّدون. وأصبحت الإمبراطوريّة أريوسيّةً رسميًّا، كما عُزِل الأساقفة النيقاويّون واضطُهِد رعاياهم. وكان أثناسيوس يطارَد ولا يُقبَض عليه، فضاعف من المقالات الهجائيّة والمؤلّفات التعليميّة.

وفي ٣٦١، خلف قسطنطيوسَ يوليانُسُ الجاحد. فرجع أثناسيوس إلى مدينته بعد أن تساهل معه الإمبراطور، إذ كان هذا العاهل يعلن أنّه لا يودّ التدخُّل في الخلافات التعليميّة. وكانت سياسة يوليانُس تقضي بأن يدع الذئاب تفترس بعضها بعضًا. ولٰكنّ الحزم الذي أمسك به أثناسيوس زمام الوضع ما لبث أن غطّى على الإمبراطور، فنُفي الأُسقف للمرّة الرابعة. ولكثرة ما أصبح ذٰلك الأمر اعتياديًّا، كان ينسى أحيانًا أن يختبئ: أولم يكن واثقًا من حماية شعبه له؟ وفي ذات ليلة، كان يَصعد مجرى النيل في زورق، حين أخذ شرطيّو يوليانُس يطاردونه. فقال أثناسيوس للجذّافين: «دعوني أتصرَّف». وبإيعازٍ منه أداروا زورقَهم على نفسه واقتربوا من مركب الشرطة. فسأله الشرطيّون: «هل رأيت أثناسيوس؟» فأجاب: «أعتقد أنّي رأيته». - «وهل هو بعيدٌ من هنا؟» - «لا، إنّه قريبٌ جدًّا. جذِّفوا بقوّة!» وبينما كان المركب يبتعد، أكمل زورق أثناسيوس سيره بهدوء.

ولمّا توفِّيَ يوليانُس في ٣٦٣، عاد أثناسيوس وغادر مرّة أُخرى عند وصول ڤالَنس سنة ٣٦٥. وكان هٰذا نَفْيُه الأخير والأقصر: فبعد مرور أربعة أشهر، وافق الإمبراطور على عودته، ولا نعرف السبب الذي دفعه إلى ذٰلك. وكان قد بقي من عمر أثناسيوس سبع سنوات، عرف في أثنائها شيئًا من الهدوء. وفي تلك الحقبة، كتب **حياة القدّيس أنطونيوس**. وكان الناس يستشيرونه من أقصى الإمبراطوريّة إلى أقصاها. وحين توفّيَ، في الثاني من أيّار (مايو) ٣٧٣، لم يكن انتصار الإيمان القويم شاملًا، وكان لا بدّ من انتظار مجمع القسطَنطينيّة، في ٣٨١، ليتحقّق ذٰلك الأمر. ولٰكنّ البديل كان مؤمَّنًا: فمنذ سنتين أو ثلاث سنوات، كان القدّيس باسيليوس والقدّيس غريغوريوس النيصيّ والقدّيس غريغوريوس النازيانزيّ قد أصبحوا أساقفة. أمّا القدّيس أمبروسيوس والقدّيس أوغسطينُس والقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، فقد أصبحوا أساقفةً بعد ذٰلك بقليل.

«رُكن الإيمان»

تلك كانت سيرة أثناسيوس الذي حمل بذراعيه، مدّة نصف قرن تقريبًا، إيمانَ العالم المسيحيّ كلّه. قليلون هم من أثاروا في حياتهم هٰذا القدر من الكراهية وهٰذا القدر من الحبّ. لقد كان أثناسيوس فعلًا «آيةً معرَّضة

للرفض»، ولا شكّ في أنّ قوّة شخصيّته، وهو لم يكن يتردَّد في استخدام القساوة للدفاع عن الإيمان القويم، لم تساعد بعض أخصامه على العودة إلى الإيمان الصحيح. ولٰكن لا بدّ من الاعتراف بالثقة والعاطفة اللتين أحاطه الشعب بهما دائمًا. فكلّما كانت السنون تمرّ وتجلب معها سلسلةً من المحن، كان مسيحيّو مصر يشعرون بأنّهم يزدادون تضامنًا مع أسقفهم ويرون فيه «ركن الإيمان» الذي يمكن الاستناد إليه في أثناء الاضطرابات. وحين كان السلام يعود، كان أثناسيوس المرشدَ الروحيّ الذي يلجأ الناس إليه ليتقدّموا في طريق الإنجيل. وبين المتوحّدين والأسقف خصوصًا، نشأت صداقة لم تفتر. فقد شعر أثناسيوس دائمًا بأنّه أخٌ لأولٰئك الرجال ذوي الحياة القاسية والإيمان العميق، ولقد شجّع عددًا من الدعوات الرهبانيّة، لا لأنّه كان يعتبر الحياة التوحّديّة مثالًا في حدّ ذاتها. والدليل على ذٰلك، الرسالة التي وجّهها إلى دَراقُنْطِيُوس، وهو متوحّد هرب يوم انتخابه أسقفًا:

«قبل انتخابِكَ، كنتَ تحيا لنفسِك، وبعده، عليك أن تحيا للآخرين. قبل أُسقفيّتكَ، لم يكن أحدٌ يعرفك، والآن ينتظر الشعب أن تُحضِر إليه غذاءً وتعليمًا موافقًا لما جاء في الكُتُب. إنّهم جائعون في انتظارهم، وأنت لا تغذّي إلّا نفسك، وحين يأتي ربّنا يسوع المسيح ونمثل أمامه، كيف تدافع عن المؤمنين الذين يضيّق الجوع عليهم؟».

كان أثناسيوس يرى في الحياة التوحّديّة خميرة لا بدّ منها لتنمية الإنجيل في مجمل كنيسته.

لم تبلغ مؤلّفاته الشأن الذي بلغته مؤلّفات أوريجانيس أو أوغسطينُس. فبالمقارنة معهما، كانت كتاباته اللاهوتيّة فقيرة. ذٰلك بأنّ أثناسيوس لم يكن يهتمّ بالأبحاث النظريّة في حدّ ذاتها، فهو راعٍ أكثر منه لاهوتيّ. وإيمانه حيّ وواقعيّ. وإذا كتبَ، فلكَي يحافظ على الحدس الأساسيّ الذي يوجّه، في نظره، الحياة المسيحيّة كلّها: إنْ لم يكن الابن إلٰهًا، فلا يمكنه أن يخلّص الإنسان. والسرّ الذي في قلب الإيمان المسيحيّ هو ناسوت الكلمة. وردًّا على الأريوسيّين، ثمّ على أولٰئك الذين أنكروا ألوهة الروح القدس، شدَّد على إظهار ما لم يكفّ الكتاب المقدّس - مُلهِمُه الأكبر - والتقليد عن تأكيده، وهو أنّ الابن والروح هما الله، تمامًا كما هو الآب. وعَبرَ تعاقب النجاح والإخفاق والاستدعاء والنفي، التي قد تُنهك مصارعًا أقلّ جرأةً، وقف أثناسيوس حياته كلّها لنشر ذٰلك الإيمان.

الفصل الثامن

شِجار في أفسس

كيف تترسَّخ الحقائق الإيمانيّة
عَبرَ تقلّبات التاريخ وعلى الرغم من حدوثها.


أفسس

سنة ٣٢٥، في مجمع نيقيه، وسنة ٣٨١، في مجمع القسطنطينيّة، تحدَّد ما في العقيدة الثالوثيّة من خطوطٍ عريضة، أي أنّ الكلمة والروح القدس مساويان للآب ومن طبيعته نفسها. وهناك مناظرة أخرى امتدَّت طوال القرن الخامس، دارت حول سرّ المسيح الله والإنسان: إنّ المسيح واحد، ولٰكن، بما أنه إلٰه وإنسان في وقتٍ واحد، فله طبيعتان: الواحدة إنسانيّة والأُخرى إلٰهيّة. إنّه ابن وحيد، ولٰكنّه ابن الله وابن مريم في وقتٍ واحد. وما في هٰذا السرّ مِن وجهٍ مزدوج قابَلَه خَطآن: خطأ نَسطُور الذي عرّض وحدة المسيح للخطر، ومن ثمّ، وفي الاتّجاه المعاكس، خطأ أُوطِيخا الذي كاد أن يذوّب ناسوت المسيح في لاهوته. ففي السنة ٤٣١، حكم مجمع أفسس على نسطور مؤكِّدًا وحدة شخص المسيح، وفي السنة ٤٥١، حكم مجمع خَلْقِيدُونية على أوطيخا محدِّدًا أنّ المسيح هو إلٰه كامل وإنسان كامل.

إنّ ذٰلك العرض المبسَّط لا يعطي فكرة عن تعقّد المشكلة، ولا سيّما عن الصعوبة التي واجهها المتخاصمون في توحيد مفرداتهم اللاهوتيّة، علمًا بأنّ كلمتَي «طبيعة» و«شخص» لا تعنيان الحقيقةَ نفسَها في مختلف المدارس اللاهوتيّة. ولٰكن، ما زاد الوضعَ الغامض تعقيدًا هو المنافسات والمطامع الشخصيّة التي حوّلت المناقشات إلى شجارات حقيقيّة، وتدخُّل الإمبراطور في النقاش، وإلقاء الأساقفة في السجن... وتكفينا بعض الملاحظات حول الأحداث المضطربة التي رافقت مجمع أفسس، لنلمسَ لمسَ اليد أجواء الغموض التي عُقِدت فيها الجلسات. والعجيب في الأمر هو أنّ العقيدة المسيحيّة دُرست في العمق وحُدّدت في مثل تلك البلبلة!

مجمع، مجمعان... ثلاثة مجامع

أقلق تعليمُ نسطور الشعبَ في القسطنطينيّة، فما كان من البابا قِلِسْتِينُس، وقد نُبِّه إلى الخطر الذي يجسِّده ذٰلك التعليم، إلّا أن حكم عليه وعبَّر عن ثقته المطلقة بأشدّ أخصام نسطور عزمًا، ألا وهو كيرِلُّس

الإسكندريّ. ولٰكنّ الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني هو الذي دعا إلى انعقاد مجمع أفسس في عنصرة ٤٣١ (٧ حزيران/يونيو). ودُعي قِلِستينُس، فأعلن أنّه سيرسل سفراءَه.

وبعد عيد القيامة، انطلق الأساقفة. وعَيّن قِلِستينُس سفراءَه وكلّفهم بأن يحرصوا على إدانة نسطور وبأن يعملوا بالتوافق مع كيرلّس. وأرسل ثيودوسيوس إلى أفسس الكونت قنديديانس، ليتولّى مهمّة الحفاظ على أمن الاجتماعات. أما كيرلّس فقد أبحر من الإسكندرية يرافقه أكثر من أربعين أُسقفًا مصريًّا (وهٰذا ما تجاوز عدد «بعض الأساقفة» الذين يحقّ لكلّ رئيس أساقفة أن يستصحبهم، كما ورد في دعوة الإمبراطور)، إضافةً إلى موكب ضخم من الإكليريكيّين والمتوحّدين وحتّى من «المجذِّفين» المفتولي العضلات استعدادًا للمشاركة في المعركة، إذا اقتضى الأمر.

ولٰكن، في السابع من حزيران (يونيو)، كان النصاب غير مكتمل إلى حدٍّ بعيد، فلم يُفتتح المجمع. وفي الثاني عشر منه، وصل الأساقفة الفلسطينيّون أخيرًا. فكان عدد الحاضرين حتّى ذٰلك اليوم نحو ستّين أسقفًا. وكان الحاضرون ينتظرون وصول السفراء الرومانيّين، وينتظرون، بوجهٍ خاصّ، وصول البطريرك يوحنّا الأنطاكيّ ومعه أساقفة سورية الذين يوفّرون لنسطور بعض التأييد. وأمسى الانتظار شاقًّا: فالحرّ لا يطاق، وبعض الأساقفة يمرضون وآخرون يموتون. أمّا الأحاديث التي كان الأطراف الحاضرون يتبادلونها فلم تؤدِّ إلّا إلى تصلُّب المواقف.

وفي ٢١ حزيران (يونيو)، قرّر كيرلّس فجأةً أن يفتتح المجمع ودعا إلى عقده في اليوم التالي. فاحتجّ ثمانية وستّون أسقفًا على هٰذا الاستعجال، وطلب قنديديانس أن يَنتظر الحاضرون وصولَ الأنطاكيّين. إلّا أن كيرلّس بقي على قراره.

وفي غياب الأنطاكيّين، لم يكن أحد حاضرًا ليتولّى الدفاع عن نسطور، وهو رفض الحضور قبل أن يصل جميع الأساقفة. فأخذ المجمع علمًا بغيابه، وحكمَ عليه بالإجماع بعد تلاوة مؤلَّفاته. وأُبلغ الحُكمَ برسالة عنيفة اللهجة. وقد اشتكى منها نسطور بمرارة، في ما بعد، قائلًا: «من كان القاضي؟ كيرلّس. ومن كان المتَّهم؟ كيرلّس. ومن كان أسقف رومة؟ كيرلّس. لقد كان كيرلُّس كلَّ شيء».

لم يرضَ قنديديانس عمّا جرى، فوجّه تقريرًا واحتجاجًا إلى الإمبراطور. وكذٰلك فعل نسطور من جهته.

وفي ٢٦ حزيران (يونيو)، وصل أخيرًا يوحنّا الأنطاكي وأساقفة سورية معفَّرين بالتراب. فغضبوا حين علموا بما جرى، وعقدوا «مجمعَهم» الذي عَزل كيرلّسَ ومِمنُون أسقف أفسس، ولكي يعادلوا الكفّة، حرموا سائر الأساقفة. ثمّ أرسلوا، هم أيضًا، تقريرًا إلى الإمبراطور.

ومنذ ذٰلك الحين، حلّت الفوضى في أفسس: فتبادل المجمعان المتنافسان الحُرم، واندلعت المشاجرات بين أنصار هٰذا المجمع، وطردوا بعضهم بعضًا من الكنائس بالحجارة، وكلّ طرف على يقين بأنّ الحقّ إلى جانبه.

وفي ٢٩ حزيران (يونيو)، وصلت رسالة من ثيودوسيوس يلغي فيها، بلا قيدٍ أو شرط، كلَّ ما حدث حتّى ذاك الوقت، ويمنع الأساقفة من مغادرة أفسس، ويعلن وصول موظَّف رفيع المستوى مكلَّف بالتحقيق في الأحداث.

وفي مطلع تمّوز (يوليو)، وصل سفراء قِلِستِينُس بعد طول انتظار. فانعقد مجمع كيرلّس مرّةً أُخرى في ١١ تمّوز (يوليو)، وأعلن السفراء تأييدهم الصريح للحكم الذي كان قد أصدره. وفي السادس عشر منه، عُقدت جلسة أُخرى وحرمت يوحنّا الأنطاكيّ.

ولٰكن، في مطلع شهر آب (أغسطس)، وصل الموظَّف الرفيع المستوى الذي وعد به الإمبراطور ثيودوسيوس: وهو الكونت يوحنّا، فأراد تسوية الأمور، فعزل نسطور وكيرلّس ومِمنون، وطلب إلى كلٍّ من الأساقفة الآخرين العودة إلى بلاده «في سلام ووئام»! ومَن تجرّأ من الأساقفة المعزولين على الاعتراض كان التوقيف ينتظره.

وعندها، تشابكت الاحتجاجات والرسائل والمكايد

والوفود المتّجهة إلى البلاط... إلى أن أعلن ثيودوسيوس حلَّ المجمع في شهر أيلول (سبتمبر).

محاولة تقييم

في ختام تلك القصّة المؤسِفة في كثير من جوانبها، تأخذنا الحيرة. والسؤال الأوّل الذي نطرحه هو التالي: أيًّا كان مجمع أفسس الحقيقيّ؟ أهو المجمع الذي عقده كيرلّس من دون أن ينتظر وصول السفراء والشرقيّين؟ أم المجمع الذي عقده يوحنّا الأنطاكيّ، وقد ظهر بمظهر التكفير عن عمل جائر وأمكنه أن يفتخر بدعم الإمبراطور له؟

إنّ استعجال كيرلّس وما رافقه من مآخذ وما أثاره من شكوك ليس إلّا وجهًا من وجوه المشكلة. فهناك أمر بات أكثر وضوحًا في القرن الخامس، وهو أنّ الموقف المهمّ في تقرير صحّة مجمعٍ من المجامع، ليس هو موقف الإمبراطور، بل موقفُ أسقف رومة (فوّض البابا قِلِستينُسُ إلى كيرلّس أن يتصرّف باسمه، وإلى مجمعه انضمّ السفراءُ الرومانيّون، وقراراتِه أيّدوا). وفي وقتٍ لاحق، وجدت الكنيسةُ أنّ ذٰلك المجمع يعبِّر عن إيمان نيقية ويثبّته. وقد وافق يوحنّا الأنطاكيّ نفسه على نتائجه في ٤٣٣.

وقد ظهرت سلطة البابا على وجه أوضح في مجمع خلقيدونية، حيث مثَّل القدّيسَ لاون سفراؤه، كما سبق أن مُثِّل قِلِستينُس في أفسس.

ولٰكنّ النتيجة الأساسيّة التي يمكن استخلاصها ممّا جرى، هي، رغم كلّ شيء، تطوُّر الفكر المسيحانيّ (الكرِيستُولُوجيّ) في أعقاب مرحلةٍ نضج طويلةٍ مرَّ بها إيمان الكنيسة. وفي ٤٥١، بعد انعقاد مجمعَي أفسس وخلقيدونية، وُجدت الصِيَغ النهائيّة للجمع بين قطبَي سرّ المسيح الإلٰه الحقّ والإنسان الحقّ، واحترامِ سرّ تجسُّده.

الفصل التاسع

محور النزاع

هل يمكننا أن نلخِّص في بضعة أسطر
رهان أزمات الإيمان
والمناقشات المجمعيّة الكبرى التي قامت
في القرنين الرابع والخامس؟

أريوسيّة، ونسطوريّة، ومونوفيزيّة. . . إنّها كلمات غريبة توحي عادةً بنزاعات لاهوتيّة تبدو دقائقُها وقِدَمُها محفوظةً لذوي الاختصاص وحدهم. ومع ذٰلك، فإنّ المجادلات الكبرى التي شهدها القرنان الرابع والخامس تَعني المسيحيّين جميعًا - لا اللاهوتيّين وحَسْب - لأنّها تُلزِم جوهر الإيمان المسيحيّ، وهو التأكيد أنّ الله صار إنسانًا في يسوع المسيح، وبكلام آخر، سرُّ التجسُّد.

وإذا صحّ أن سرّ المسيح هٰذا خَلَق مشكلةً في وقت مبكّر، فذٰلك لأنّ المسيحيّة الناشئة، المتحدِّرة من اليهوديّة، تأصّلت في عالمٍ يونانيِّ الحضارة ومتمرِّسٍ في المناقشات الاعتراضيّة الخاصّة بالفلسفة. وقد اهتدت عدّة تيّارات فكريّة إلى ما كان يبدو لها مستحيلًا أو متناقضًا، وحاولت أن تجرّ النارَ المسيحيّة إلى قرصها. وأراد بعض المسيحيّين، بحكم ثقافتهم أو بحكم الضرورة، أن يردّوا على تلك التيّارات وأن يدافعوا عن تقليد الكنيسة القديم، فتخصَّصوا في علم اللاهوت، واقتبسوا من الفلسفة الشائعة في محيطهم، على غيرِ علمٍ منهم أحيانًا ولٰكن عن قصدٍ في أغلب الأحيان، صِيَغًا تقنيّة. وحاولوا بذٰلك أن يأتوا بتعبيرٍ مدروس عن الوحي - وهو أمر لا يمكن أيَّ ديانة أن تستغني عنه، بدرجات متفاوتة، وإلّا بقيت حقيقةً عاطفيّةً في جوهرها. ولٰكنّهم عرَّضوا أنفسهم، باستخدام تلك المفردات الجديدة، لأن يُدخلوا في الحقائق الإيمانيّة، مشاكلَ جديدة تكون مصدرًا لنزاعات جديدة.

التجسُّد، مسألة مُتنازَع عليها

إنّ التجسُّد هو عبور لا ينقطع من الله إلى الإنسان ومن الإنسان إلى الله. وما ابتكرته المسيحيّة هو عدم إلغاء ما هو بشريّ في الإلٰهيّ ولا ما هو إلٰهي في البشريّ، بل الربط بينهما. و«العثار» في شهادة الإيمان المسيحيّ هو التبشير بأنّ ذٰلك الاتّحاد وذٰلك العبور ليس هما موضع رجاء فقط، بل تَحقّقا فعلًا في شخصٍ هو شخص يسوع المسيح. فكيف يمكن إدراك ذٰلك السرّ وعدم الاكتفاء بالموافقة عليه موافقةً غامضة؟ ذٰلك هو محور كلّ المناقشات «حول المسيح» (أو «المسيحانيّة») التي هزّت القرون المسيحيّة الأُولى. ولٰكنّ لذٰلك السرّ وجهين: فإذا صحّ أنّ المسيح إلٰه، فكيف يكون كذٰلك مع كونه إنسانًا؟ هٰذه هي المشكلة المسيحانيّة بحصر المعنى، التي تختصّ بطبيعة المسيح الإلٰهيّة. وهناك وجه آخر متماثل، وهو: إذا صحّ أن المسيح إلٰه، فكيف يكون كذٰلك بدون أن ينال من وحدة الله. هٰذه هي مشكلة «أقانيم» الثالوث. وهٰكذا، تبدو المسائل الثالوثيّة والمسائل المسيحانيّة مرتبطةً ارتباطًا لا ينفكّ، كوجهَي قطعة نقد أو كسَداةِ ولُحمة نسيجٍ واحد. وكلُّ محاولةٍ للتمييز بأيّ وسيلة من الوسائلِ ستكون مصطنعةً بعض الشيء.

وفي الواقع، كان لأصغر النزاعات المسيحانيّة، منذ فجر المسيحيّة، نتائج ثالوثيّة. وسواء اعتبروا أنّ شخص

المسيح ليس واحدًا في الحقيقة، أم تصوَّروا أنّ لاهوته يجاور ناسوته أكثر مما يتَّحد به، فإنّ وحدانيّة الله تبقى محفوظةً ولا تُثير بعد ذٰلك أيَّ مشكلة. وعلى عكس ذٰلك، فإنْ أصرُّوا بشتّى الوسائل على حفظ وحدانيّة الله، مالوا إلى ألّا يَروا في المسيح سوى إنسان، حتى ولو اعترفوا له بجميع الكمالات التي يمكن تصوُّرها بشريًّا. وليست تلك المسائل كلُّها بلا جدوى، بل هي تدور حول الجوهر: فهل يلتقي الله البشريّةَ حقًّا في يسوع المسيح ليبثَّ فيها رجاءَ طبيعته؟ أم أنّه يبقى متفوّقًا ومنفصلًا في عزلة رائعة؟ وعلى كلّ حال، هل يمكن أن نتصوَّر إلٰهَ المحبة منطويًا على أُلوهته، وحيدًا مع نفسه؟ أفلا يجب، خلافًا لذٰلك ، أن يُصرِّف كِيانُه في صيغة الجمع؟ أوليست ميزة المسيحيّة أنّها فهمت أنّ ذٰلك الإلٰه هو، في جوهره، علاقةٌ وتَبادل وثالوث؟

المتطرّفون

بعد أن وضعنا حدود الإطار العامّ المحيط بالمناظرات حول طبيعة المسيح، نستطيع أن نرسم الخطوط العريضة في لوحة أهمّ «البِدَع». وعلى غير صعيد، ليست بدع القرنين الرابع والخامس بجديدة، بل كثيرًا ما هي تُواصِل النزاعات التي ظهرَتْ في وقت مبكّر، بعد أن تكون قد نظَّمَتْها.

وإحدى تلك البدع، نَبَعت، في القرن الأوّل، من الأوساط المسيحيّة المتحدِّرة من أصلٍ يهوديّ أو من الغنوصيّة. وتُدعى **التبنّيّة**، لأنّها تقول بأنّ يسوع إنسان كسائر الناس وأنّ الله **تبنّاه** عند اعتماده في الأردنّ. وفي أواخر القرن الثالث، نشر عاملٌ في الجِلد، يُدعى ثيودوطس، وهو بيزنطيّ الأصل، مِثلَ ذٰلك التعليم في رومة، فحرمه البابا ڤِكْتُورِيُوس (١٩٨).

ومن عدّة وجوهٍ، يندرج مفهوم آريوس (وقد حرمه مجمع نيقية سنة ٣٢٥) في هٰذا المنحى، لأنّه قال بأنّ المسيح ليس في يدَي الله سوى **أداة خاضعة** دُنيا، وبكلمة واحدة، مخلوقة.

وفي الطرف الآخر، أعلن أصحاب نزعةٍ أُخرى أنّ المسيح ليس إنسانًا في الحقيقة. بل هو، على العكس، شديد الاتّحاد بألوهة أبيه، حتّى إنّه ليس في الواقع سوى وجه وشكل له، ومن هنا تسمية **الشكليّة** التي أُطلقت على ذٰلك التعليم.

ومنذ القرن الأوّل، برزت نظريّة، هي **الظاهريّة**، تؤكّد، بوجهٍ مشابه، أنّ آلام المسيح لم تكن سوى آلام ظاهريّة، وأنّ المسيح الحقيقيّ انسحب في أثناء الآلام من سَنَدِه البشريّ، وهٰذا السند وحده مات على الصليب. وفي القرون اللاحقة، اتّخذت الشكليّة، بحسب الظروف والأفراد، أسماءً مختلفة (كالمونارخيانيّة والصابليّة، إلخ.). لم تنكر التجسّد صراحةً، ولٰكنّها عملت دائمًا على **الانتقاص** من سلامة المسيح البشريّة.

النزاعات المسيحانيّة الكبرى في القرون الأوائل من عصرنا(١)

	يسوع هو إنسان أوّلًا	ليس يسوع إنسانًا في الحقيقة	
الله واحد ومتعالٍ حتّى إنّه لا يمكن أن يتجسّد	التبنّيّة (يسوع الإنسان **تبنّاه** الله يوم اعتماده)	الظاهريّة (لم يتألم يسوع إلا في **الظاهر**)	القرون الأوّل والثاني والثالث
الله واحد، لٰكنّ الابن والروح القدس يشاركانه في طبيعته الإلٰهيّة. ومن هنا، يبرز إمكان تجسُّد ابن أدنى أو «صورة» لله	الأريوسيّة (الابن **تابع** للآب)	الشكليّة (ليس الابن سوى **وجه** من وجوه الآب)	القرن الرابع
الله مؤلّف حقًّا من ثلاثة أقانيم (الثالوث)، والأقنوم الثاني هو الذي تجسّد	النسطوريّة، (في المسيح، اللاهوت والناسوت **يتجاوران** أكثر ممّا يتّحدان)	المونوفيزيّة (ليس للمسيح إلّا طبيعة واحدة، هي الطبيعة **الإلٰهيّة**)	القرن الخامس

(١) يمكن قراءة هٰذه اللوحة بطريقتين: عموديًّا، مختلف التعاليم حول طبيعة المسيح (جدال في المسيحانيّة)؛ أفقيًّا، اختلاف تلك التعاليم في نظرتها إلى وحدانيّة الله (جدال في الثالوث).

المسألة مسألة فروقات دقيقة

في القرن الخامس، عادت تلك المشاكل إلى الظهور و«تجسَّدت» في مدرسَتين لاهوتيَّتين «عدوَّتين»، هما مدرسة الإسكندريّة ومدرسة أنطاكية في سورية. وكانت المدرستان تقولان بأنّ الله كائن في ثلاثة أقانيم متميِّزة وأنّ الابن تجسَّد حقًّا. ولٰكنّ الاختلاف كان في وجهات النظر والكلام، ومن ثمَّ في الفروقات الدقيقة. والحال أنّ المسألة، كلّ المسألة، تكمن في الفروقات الدقيقة: ففي نظر التقليد الإسكندرانيّ، وهو ينتسب إلى أثناسيوس وكيرلّس، يُشبِه الاتّحادُ بين الإلٰهيّ والإنسانيّ في شخص المسيح الاتّحادَ بين النفس والجسد. ولٰكنّ هٰذا التشبيه لا يصحّ في جميع وجوهه، لأنّنا إن قسمنا طبيعة المسيح على هٰذا النحو، اقتصر ناسوتُ يسوع على جسده: ولم تبقَ له شخصيّة إنسانيّة، بل اختلطت نفسه في الواقع بلاهوته، وخرج ناسوت المسيح من مثل هٰذا التصوُّر منتقصًا. وقد دفعَ تلك النزعةَ إلى ذورتها شخصٌ يدعى أُوطِيخا، وهي أدَّت إلى **المونوفيزيّة** التي لا تنسب إلى المسيح سوى طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلٰهيّة، وإليها ينضمّ جسدٌ بشريّ. حَكَمَ مجمع خلقيدونية (٤٥١) على **المونوفيزيّة**، غير أنّ كنيسة مصر - أو الكنيسة القبطيّة - لم تقبل بقرار المجمع وانفصلت بذٰلك عن الكنيسة الجامعة الكبرى.

أمّا التقليد الأنطاكيّ، وهو ينتسب إلى دِيُودُورُس الطَرسوسيّ وثيودورس المَصِّيصيّ، فقد شدَّد بالعكس على إنسانيّة المسيح: وقال إنّ يسوع هو في الحقيقة، ككلّ واحدٍ منّا، فردٌ كامل بصفته إنسانًا. ويُخشى إذًا، في أقصى الحالات، أن يَظهر لاهوتُه مجاورًا لناسوته أكثر ممّا يكون متّحدًا به. وقد دفع بذٰلك الموقف إلى التطرُّف نسطور، وهو متوحّد أنطاكيّ أصبح أسقفًا على القسطنطينيّة، فشَجَبَه مجمع أفسس المسكونيّ (٤٣١). ومع ذٰلك، تبنَّت الكنيسةُ السريانيّة (سورية والعراق حاليًّا - والمستقلّة عن الكنيسة الرومانيّة منذ ٤٢٤)، المذهب النسطوريّ بعد مضيّ خمسين عامًا، ونقلته إلى الهند وفي القرن الثامن إلى الصين.

حوار طرشان؟

بعد مرور عدّة قرون، تُشعِرنا تفاصيل تلك النزاعات، ولا شكّ، بأنّنا أمام بلبلة كبيرة، لا بل أمام حوار طرشان. فإنّ الآباء اللاتين واليونان كانوا لا يتكلّمون اللغة نفسها: ولم يكن لمفهومَي «الطبيعة» (فِيزِس) و«الشخص» (بِرُوسُوبُون وهِيپوستاسِيس) الأصداء نفسها في رومة وأنطاكية والإسكندرية. ولٰكن، ممّا وراء مسائل اللغة، نَفهم اليوم بوجهٍ أفضل أنّ شهادات الإيمان، التي تعوَّدناها، لم يكن لها في ذٰلك العصر ما نعرفه اليوم من الوضوح. ومن خلال تلك المواجهات، وبسبب تطرّفها إلى حدّ ما (!) تمَّ بناء علم اللاهوت المسيحيّ. وأفضل من ذٰلك، فإنّ ما تتميَّز به المسيحيّة هو ما عَرَفَ آباءُ المجامع الكبرى كيف يحافظون عليه.

الفصل العاشر

كيف يصبح المرء مسيحيًا في القرن الرابع

في ذلك الزمن، غالبًا ما لا يولد المرء مسيحيًّا
بل يصبح مسيحيًّا في ختام مسيرة طويلة:
وكانت مرحلة طلب العماد تنتهي ليلةَ عيد الفصح.

في القرن الرابع، ولّى الزمن الذي كان يمكن فيه الانضمام إلى جماعة «المؤمنين» وقبول العماد بمجرَّد إعلان الإيمان المسيحيّ. وأصبح على الوثنيّ الراغب أن يكون عضوًا كاملًا في الكنيسة أن يجتاز مراحل استعداد أخلاقيّ ودينيّ يتوّجها قبول سرّ العماد. فمنذ مطلع القرن الثالث على الأرجح، تمَّ وضع ذلك النظام المعقَّد تدريجًا، بما فيه من عادات وطقوس دقيقة. وإن راقبنا بعض التعديلات، العائدة إلى اختلاف مناطق الإمبراطوريّة، رأينا أن التصميم العامّ للتدرُّج قد تمَّ تحديده هو أيضًا.

الوثنيّ يكاشف الأسقف

سواء أجاء الوثنيّ راغبًا في الاهتداء أم مستعلِمًا فقط عن الديانة المسيحيّة، من دون أن يكون قد قرَّر الانتساب إليها حتمًا، يسعى الكاهن أو الأسقف، في أوّل الأمر، إلى تثبيته في رغبته أو في فضوله: فيأخذ مكانه بلباقة ويتوسَّع في شرح تعليم دينيّ تدرُّجيّ يهدف إلى القضاء على الأحكام المسْبَقة التي ورثها من عدم إيمانه. وإن حصل على موافقته، استعدّ لقبوله في حضن الكنيسة، وأخذ يستخبر بكل تأنٍّ عن مهنة المرشَّح وعن السمعة التي يحظى بها. فإن كانتا جديرتَين بالاحترام، قُبِل المهتدي الجديد في الكنيسة بصفته طالب عماد. فيصبح عضوًا جديدًا في القطيع و«يوسَم» على جبينه بإشارةِ الصليب، ويَرشّ الكاهن قليلًا من الملح على رأسه لأنّ «الأحشاء التي يتأكّلها فساد (الخطيئة) تبقى سليمةً لمدّة طويلة إن رُشّ الملح عليها»، (القدّيس أمبروسِيوس أسقف ميلانو، **شرح الإنجيل كما رواه لوقا** X، ٤٨).

عضوٌ حرٌّ في القطيع

وبعدئذٍ يصبح طالب العماد في الكنيسة وكأنّه في بيته. غير أنّه يخضع لنظام السرّيّة. وفي أثناء الرُتبِ التي تقام يوم الأحد، لا يجوز له أن يحضر إلّا القسم الأوّل من القدّاس (أي القراءة والعظة) وينسحب بعد ذلك. فالمؤمنون المعمَّدون وحدهم يحقّ لهم أن يشاركوا في الوليمة الإفخارستيّة داخل الباسيليكا، فهي مُقفلة على العيون المتطفِّلة.

وبذلك، يبقى طالب العماد في جهل للطبيعة الحقيقيّة التي تتميَّز بها أسرار دينِهِ الأساسيّة، ولا يصل إليها إلّا بعد قبوله العماد. وفي تلك الأثناء، يجب عليه أن يُتِمّ تدرُّجَه من دون اللجوء إلى أيّ تعليم دينيّ خاصّ: فهو يتعلَّم بسماعه عظة يوم الأحد أو بِتَجاوُرِه مع الكاهن والمؤمنين في الجماعة. ورويدًا رويدًا، يقيم الأدلّة على صحّة اهتدائه ويبرهن بسلوكه عن صدق

تعلُّقه بالكنيسة. وعندئذٍ، يقرِّر اتّخاذ الخطوة الحاسمة بتسجيل اسمه على لائحة طالبي العماد. ولٰكنّهم لا يُظهرون جميعهم مثل هٰذا التلهّف، فهناك طالبو عماد هم على تلك الحال منذ أمدٍ بعيد ولا يُعربون عن أيّ استعجال لترك هٰذه الحالة القليلة المتطلّبات إجمالًا. وهٰذا أمر لا يخفى على الأساقفة، فهم لا يكفّون عن التشكّي منه بحرارة في العظات التي يُلقونها الأحد. فنرى القدّيس أمبروسيوس أسقف ميلانو يتحسّر قائلًا: «لَمْ يتسجَّل أحدٌ حتّى اليوم، والدنيا ما زالت سوداء في عينيّ. لقد ألقيتُ شبكة الكلمة في عيد الظهور، ولم أصطد شيئًا حتّى الآن» (**شرح الإنجيل كما رواه لوقا IV، ٧٦**). وهناك مؤمنون كثيرو الوساوس يستحوذ عليهم الشعور بضعفهم، ولٰكن هناك أيضًا من يحسُبون إلى بعيد ويؤخّرون وقت إصلاح حياتهم إلى ما لا نهاية. وفي كلتا الحالتين، لدينا برهان على الصورة المتشدِّدة التي كان المسيحيّون الأوّلون يتصوَّرون بها عمادهم.

زمن الرياضة الروحيّة

جريًا على العادات المحلّيّة، كان العماد يُمنَح في عيد القيامة أو العنصرة أو الظهور (ولا سيّما في الشرق). في ميلانو مثلًا، كما في هِيپُّونَة عند القدّيس أوغسطينس، كان العماد يُمنَح مرَّةً في السنَة ليلة عيد الفصح. وكان في وسع المرشّحين أن يعلنوا عن رغبتهم و«يعطوا أسماءَهم»، اعتبارًا من عيد الظهور وحتّى أوّل يوم من أيام الصوم الكبير. وفي ذٰلك التاريخ، تبدأ الرياضة العماديّة الكبرى أو الرياضة الأربعينيّة (٤٠ يومًا). وفي أثناء الفرز الأوّل أو امتحان السيرة، كان الأسقف يفحص كلّ «راغب» ويقرِّر هل يستحقّ أن يستعدّ للعماد. وبعد ذٰلك، تبدأ أعمال التعزيم اليوميّة لمساعدة «المصارعين» على محاربة الشيطان. فكانوا يصومون ويتوبون ويخضعون لعدة «فحوصات»، ويتحرّرون شيئًا فشيئًا من «الإنسان القديم» المتواطئ مع «العالم». وبذٰلك، كان كلّ واحد يستعدّ «للتغيُّر» الكبير الذي يُحدِثه عماده ويواصل تنشئته بمتابعته تعليمًا دينيًّا خاصًّا.

ولٰكن، «الصفة الأُولى عند المسيحيّ هي الإيمان» (القدّيس أمبروسيوس أسقف ميلانو، **في الأسرار ٩، ٥٥**): وإذا صحّ أنّ الذين سيقتبلون العماد كانوا يتشبّعون بمعنى ما سيعيشونه، فهم لا يزالون يجهلون الرتب التي كان عليهم أن يمرّوا بها. نستغرب اليوم كيف أن العماد، ذٰلك المحور الذي تدور حوله الحياة المسيحيّة كلُّها، كان محاطًا بمثل تلك السرّيّة: ذٰلك بأنّه كان على المؤمن، الذي تستقبله الكنيسة، أن يُظهِر لها أوّلًا ثقةً تامّة. وقد ارتأى الآباء أنفسهم أنْ تسبق الفهمَ صدمةٌ عاطفيّة وروحيّة. ويجب أن يبقى التعليم الدينيّ تدرُّجيًّا: فلا يجوز أن يُعلَن في وقت مبكّر عن أكثر الرتب تعقيدًا وغنى، خوفًا من أن يتعذَّر تقديرها حقّ قدرها. «إحفظ الأسرار العميقة ساخنةً في قلبك، خوفًا من أن تقدِّم، بحديث سابق لأوانه، إلى آذانٍ عدائيّة أو واهية، أطباقًا غير ناضجة، إذا صحّ القول، وخوفًا مِن أن ينصرف مَن يستمع إليك ويشعر باشمئزاز يداخله الذعر» (القدّيس أمبروسيوس، **في قاين وهابيل I، ٩، ٣٧**).

فكان المرء يستعدّ إذًا للعماد، من دون أن يعرف تمامًا ما يقوم عليه، وكان يتهيّأ ليعيش رتبًا غريبة لم يكن يدرك معناها إلّا في الأيّام الثمانية التي تلي عيد الفصح. وأخيرًا، كان عيد الشعانين يحين: «حتّى الآن، كنّا نسعى لأن نكتشف هل ما زالت أيّ نجاسة عالقة بجسد أحدكم، والآن، جاء اليوم الذي نُطلِعكم فيه على الرمز» (القدّيس أمبروسيوس أسقف ميلانو، **شرح الرمز I**). في ذٰلك اليوم، بعد القدّاس، كان الأسقف يجمع «الراغبين» في بيت العماد ليشرح لهم بالتفصيل بنود قانون الإيمان الاثني عشر. وكان عليهم أن يحفظوها غيبًا على الفور، لأنهم «سيتْلونها» علنًا في الأسبوع المقدّس أمام المؤمنين المجتمعين. وهٰذه هي المرحلة الأخيرة قبل حلول اليوم الكبير.

عيش الولادة الجديدة

ذاك هو جوهر تلك الساعات المتهافتة. وبقدر ما كانت المسيرة بطيئة، لا بل طويلة، ها هي كلّ دقيقة بعد ذٰلك ترخي بثقل السرّ والرتَب. ويصعب علينا اليوم أن نتصوَّر ما كانت عليه حماسة أولٰئك الراغبين وفضولهم أيضًا ولا شكّ، فهم لم يكونوا يصدِّقون ما يرونه.

الدهن بالزيت قبل العماد، الكفر بالشيطان، تبريك المياه، العماد، الدهن بعد العماد، ارتداء القمصان البيض، الميرون، الزيّاح في الباسيليكا، وأخيرًا الإفخارستيّا: لن نفصِّل هنا المراحل المتتالية التي تمرّ بها ليترجية العماد في ليلة عيد الفصح. ولٰكنّنا سنكتفي بإنهاء ذٰلك السير في ضوء النجمة، تلك المسيرة التي تقود المهتدي الذي ينضم إلى الكنيسة: لقد أصبح الراغب المعمَّد حديثَ التنصُّر، أصبح ولدًا: إنّه مولود جديد بين ذراعَي أمّه. وهو لا يُخلط، منذ اليوم التالي لعماده، بجمهور المؤمنين. فهو يحتفظ لأسبوع آخر بثوبه الأبيض الذي يلفت انتباه إخوته. وهو لا يشترك في «قدّاس المؤمنين»، لأنّه يجب عليه قبل ذٰلك أن يستبطن ما عاشه مرّةً ليتمكّن من عيشه ثانيةً بفهمٍ وعمقٍ مرّاتٍ أُخَر. فلا بدّ له من أن يحضر، من الاثنين إلى الأحد الذي يلي عيد الفصح، العظات السبع التي يتضمّنها التعليم المعروف بالمِستاغُوجِيّ والذي يعدّه الأسقف له: وفيه يكتشف ما في الرتب التي مرّ بها ليلة الفصح من معنى شامل. وفي أثناء تلك «الأيّام الثمانية» الممتدّة من أحد الفصح إلى الأحد الجديد، كان يتعرّف إلى أسرار الديانة تعرّفًا تامًّا. ولم يعد بعد ذلك أسرارٌ في نظره. ويومَ الأحد الجديد، كان يستطيع أن يخلع ثوب المتدرّج لينصهر في «جسد» المسيح.

الفصل الحادي عشر

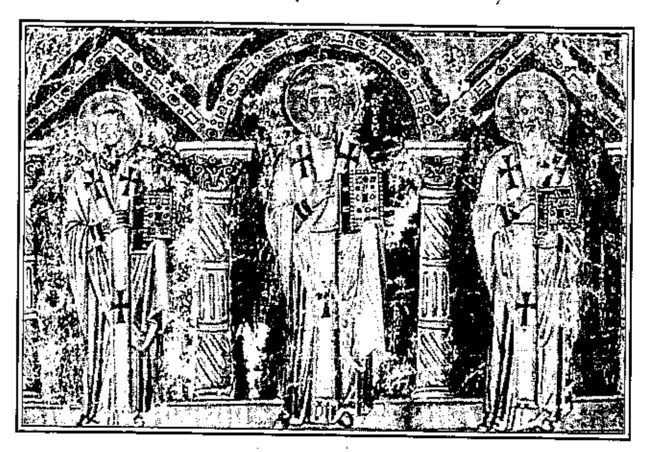
الأقمار القبّدوقيّون الثلاثة

بقلم جان برنَردي (*)

كان للأخوَين باسيليوس القيصريّ وغريغوريوس النيصيّ
ولصديقهما المشترَك غريغوريوس النازيانزيّ
مصير واحد.
فقد أصبحوا أساقفة من دون أن يرغبوا في ذلك.
وكانوا متصوّفين، بل ورجال عمل أيضًا، فالتزموا في كلّ
المناقشات التي قامت في عصرهم.

إن نظرنا إلى خارطة تركيا الحديثة، وجدنا، في وسط البلاد، اسم مدينةٍ تُدعى «قَيْصِري»، وهي تجمّع سكنيّ كبير في منطقة يكتشفها السيّاح بإعجاب في أيّامنا. فعلى بعد كيلومترات قليلة، نجد مشهدًا طبيعيًّا من أغرب مشاهد العالم بمداخنه الساحرة ومساكنه الكهفيّة وكنائسه المحفورة في الصخر والمغطّاة جدرانها برسوم بيزنطيّة رائعة.

ليست «قَيْصِري» سوى قيصريّة القديمة، عاصمة قبّدوقية ووطن آباء الكنيسة الذين نلقّبهم بالقبدوقيّين، أي الأخوين باسيليوس القيصريّ وغريغوريوس النيصيّ وصديقهما غريغوريوس النازيانزيّ. ويُدهشنا، على كلّ حال، أن نلاحظ أنّه، إذا كنّا نكتشف اليوم مرّة ثانية، بوجه من الوجوه، مسقط رأسهم، فإنّ شخصيّتهم ومؤلّفاتهم هي، منذ نحو ثلاثين سنة، موضع اهتمام متزايد! إنّ عصر القبدوقيّين هو، القرن الرابع، عصر السلام الذي أعاده قسطنطين إلى الكنيسة. فغداة اهتداء الإمبراطور، برزت قبّدوقية من خلف الضباب ولمعت بكلّ أنوارها، بعد أن ظلّت مدّةً طويلةً منطقةً بعيدةً ومتخلّفة في الإمبراطوريّة الرومانيّة. وبعد أن كانت ناحيةً حدودية، أصبحت في قلب إمبراطوريّة الشرق.



الأقمار الثلاثة

كانت قبّدوقية ممرًّا إجباريًّا بين العاصمتين القسطنطينية وأنطاكية، فتعلّمت أن تدفع بأولادها إلى البلاط، فغادرها عدد من المغامرين العلمانيّين والإكليريكيّين، بحثًا عن أعلى الوظائف في الإمبراطوريّة، حتّى إنّ قيصاريوس، أحد إخوة غريغوريوس النازيانزيّ، ظلّ في بلاط يوليانُس الجاحد ليجمع ثروة، رغم ما أبدَتْه مدينة نازيَانز الصغيرة من استنكار شديد. ولٰكنّ قبّدوقية صنعت أفضل من ذٰلك، فقد قدّمت للكنيسة ثلاثةً من أكبر ملافنتها.

(*) Jean Bernardi، أستاذ في جامعة مُونْپلييه.

أشراف مسيحيّون

ولد باسيليوس وغريغوريوس وغريغوريوس الآخر في حوالى السنة ٣٣٠، فكانوا ينتمون إلى أوّل جيلٍ يولَدُ مسيحيًّا في إمبراطوريّةٍ مسيحيّة.

وكان الثلاثة متحدِّرين من أُسَر كبار المالكين. وكان والد باسيليوس وغريغوريوس النيصيّ خَطيبًا - وكانت الخطابة مهنةً محترمة ومربحة - يرقى شرفُ نَسَبِه إلى مجاهل الأزمنة. وكانت ممتلكات العائلة تمتدّ على ثلاثة أقاليم. أما والد غريغوريوس النازيانزيّ فقد مارس وظائف عامّة، قبل أن يصبح أسقفًا، هو أيضًا، واعترف ابنُه، مستخدمًا عبارةً لم تبطُل، أنّه كان يملك «ثروةً محترمة».

وكان من واجب عائلاتهم أن تمكّنهم من الانصراف إلى دروس جيّدة. فظلّ باسيليوس وصديقه غريغوريوس النازيانزيّ في الجامعة حتّى سنّ السادسة والعشرين تقريبًا، إلى أن نالا تلك الدرجة التي خوّلتهما هما أيضًا أن يدرِّسا الطلّاب. ولقد أُرسِلا إلى آثينة لتُطبَع دروسُهما بأكثر ما يمكن من الجدّيّة والشهرة. أمّا غريغوريوس النيصيّ، فقد مارس مهنة الخطابة مدّةَ سنوات، قبل أن ينتقل إلى الأسقفيّة.

وأخيرًا، كانت تلك الأُسر مسيحيّةً منذ جيلَين. وهٰذا يعني أنّ مسيحيَّتهم ترقى إلى عهدٍ إنْ هم أعلنوا فيه أنّهم مسيحيّون لَما ربحوا شيئًا بل خسروا كلَّ شيء: فقد تخلّى أجداد باسيليوس وغريغوريوس النيصيّ عن ثروتهم، ولو موقّتًا. فنحن إذًا أمام عائلات تُحمَل فيها خدمة الكنيسة على محمل الجِدّ. وتُعتَبر عائلة باسيليوس وغريغوريوس النيصيّ عائلةً مميَّزة في هٰذا المجال: فبالإضافة إلى أبوَي الكنيسة، ضمَّت قدّيسًا ثالثًا هو بطرس السَّبَسطيّ، وناسكًا. ومن بين الفتيات، يحب ألّا ننسى أيضًا وخصوصًا مَكْرِينا، الأخت الكبرى في العائلة، فقد أثّرت في أخويها تأثيرًا حاسمًا، فوجّهت حياة الكنيسة إلى حدٍّ بعيد.

صورة الأسقف النموذجيّة

سنلاحظ بعد قليل أنّ كلَّ شيء، بما فيه الوضع الاجتماعي والثروة والدروس الطويلة، ساعد القپّدوقيّين الثلاثة على أن يكونوا رعاة ثاقبي الفكر وأذكياء وجريئين، لكنيسة كانت في أمسّ الحاجة إليهم في ذٰلك العصر، إذ إنّ حركة التحالف التي أطلقها الموقف الدينيّ الذي اتّخذه قسطنطين وأولاده طرحت على الكنيسة مشكلة رهيبة هي مشكلة الأُطُر، وقد شقّ عليها كثيرًا أن تحلّها.

ولٰكن، ما هي الشروط التي كانت مطلوبة للحصول على أسقف صالح في ذٰلك العصر؟ لا شكّ في أنّ صحّة الإيمان ومتانته كانتا ولا تزالان ضروريّتين، ولٰكن، منذ ذٰلك الوقت، كان لا بدّ من توافر صفات أخرى.

ذٰلك بأنّ الأسقف في القرن الرابع كان واعظًا قبل كلّ شيء. وإذا وجب عليه أن يكون متمرّسًا في درس الكتاب المقدّس، فإنّ الثقافة العامّة الواسعة لم تكن أقلّ ضرورة. وإلى جانب ذٰلك، كان عليه أن يحسن التحدُّث أمام الشعب. وكان ذٰلك كلُّه يفترض المرور المطوَّل عند أحد الخطباء الذين دأبوا، منذ نحو ألف سنة، يدرِّسون البلاغة لبعض الشبّان من الطبقة الميسورة. وقد أصبح تعليم الجموع المسيحيّة في القرن الرابع مهنةً تختلف كلَّ الاختلاف عن تثبيت الإيمان لدى الجماعات الصغيرة في العصر السابق، فضلًا عن أنّ الشعب أصبح أكثر تطلّبًا وأصبحت آفاقه أكثر تنوّعًا. ولذا لم يكن في وسع أسقف من أساقفة قپّدوقية في ذٰلك العصر إلّا أن ينتمي، خارج الحالات الاستثنائيّة، إلى تلك الطبقة الصغيرة من المسؤولين الذين كانوا يمكّنون أولادهم من متابعة دروس طويلة ومكلِّفة.

ولٰكن هناك صفات إنسانيّة كانت مطلوبة أيضًا. فمن

واجبات الأسقف أن يكون قائدًا للناس ومديرًا للشؤون الماليّة. ولمّا كان هو أيضًا من الوجهاء، كان لا بدّ له معنويًّا من التوصية برعاياه وحمايتهم في كلّ ظروف حياتهم. فكان ضغطُ الشعب يوجّه اختيار الأساقفة في اتّجاهٍ معيّن. وكان على المرشّح أن يتّخذ له حلفاء انتخابيّين ويقيم علاقات واسعة ومنتقاة، وأن يكون ذا خبرةٍ في الشؤون العامّة. وإن كان غنيًّا، فَرضت عليه رتبتُه الجديدة أن يُشرك مواطنيه في ثروته. نضيف إلى ذلك أنّه، في المدن الصغيرة حيث الملل يترصّد الناس، كلّما كان صوت الأسقف عذبًا وكلامه مبتكرًا، قدّر المؤمنون تلك التسلية المجّانيّة. وأخيرًا، فبما أنّ أعمال التكفير المترتّبة على الخطايا كانت علنيّة والعقوبات ثقيلة، كانوا يفضّلون المرشّح المتساهل على المرشّح المتشدّد! تلك كانت إذًا متطلّبات القاعدة. ولم تكن تَحمل حتمًا إلى الكراسي الأسقفيّة رجالًا ذوي روحانيّة سامية جدًّا. ولا شكّ في أنّ كثيرًا من الأساقفة كانوا يشبهون رؤساء البلديّات في مدننا العصريّة الكبرى.

من وجهة النظر هٰذه، كان القبّدوقيّون يختلفون عن جيلهم وعن زملائهم في الأسقفيّة. فإنّ غريغوريوس النازيانزيّ ظلّ طوال حياته شديد الانتقاد للإكليرس وشديد الانتباه إلى المشاكل التي يطرحها اختياره وتكوينه. فاقترح أن يُختار الإكليرس في صفوف المتوحّدين وألّا يُرسَم الأُسقف إلّا بعد أن يُختَبَر بالمرور في الصفوف الأدنى مرتبة. ولم يُخفِ تهكّمه على أولٰئك الأساقفة «المرتَجلين» وهم كُثُرٌ يثرثرون ويضيّعون وقتهم في المجامع، وبعد وفاة باسيليوس، اقترح مسيرةَ صديقه كنموذج يُحتذى به.

تجربة التوحُّد

في الحقيقة، كانت تلك المسيرة مسيرته التي اتّبعها هو نفسُه، ففي حوالى السنة ٣٥٦، حين أنهى الصديقان دروسهما، تركا أثينة عائدَين إلى قبّدوقية مسقط رأسيهما. وما لبث باسيليوس أن اعتزل في أحد الأملاك الريفيّة التي كانت لعائلته على نهر إيريس. ونظّم هناك جماعات مُتوحِّدين ووضع قوانين من أجلهم. إلّا أنه عُيِّن سنة ٣٦٤ كاهنًا لكنيسة قيصريّة، وأصبح في ٣٧٠ أسقفًا على تلك المدينة الهامّة. أما غريغوريوس النازيانزيّ فلَم تكفَّ الحياةُ الرهبانيّة يومًا عن اجتذابه. وفي سنة ٣٦٢، لم يَقبل الكهنوت إلّا إثر الضغط الشديد مارسه عليه أبوه، أسقف نازيَانز العجوز.

وفي سنة ٣٧٢، وقع حدثٌ كان حاسمًا في حياة الرجال الثلاثة. فقد أراد باسيليوس أن ينشئَ كراسيَ أسقفيّةً جديدة. فأقام في نيصص أخاه غريغوريوس الخطيب والمتزوّج في ذٰلك الوقت. وطلب إلى صديقه غريغوريوس أن يوافق على تولّي مهمة كرسيّ أُنشئ في قرية ساسيم الصغيرة. رفض غريغوريوس أوّلًا بشدّة، إذ إنّه كان ينتظر وفاة والده لينصرف إلى عزلة يحبّها في أحد الأديرة. فكان قبول الأسقفيّة يعني التخلّي عن الحلم. غير أنّه وافق في آخر الأمر، ولٰكنّه، أمام المقاومات التي واجهته، رفض الذهاب إلى ساسيم حتى إنّه هرب إلى الجبال.

وتركت هٰذه الحادثة في نفس غريغوريوس الحسّاسة ذكرى أليمة للأبد. فقد ظلّ إلى جانب والده بصفة أسقف مساعد. وبعد قليل من وفاة الأسقف العجوز، في سن المئة تقريبًا، أصبح في وسعه أخيرًا أن يجد الصمت في أحد أديرة سلوقية إيزوريا وينصرف فيه إلى التأمُّل.

المدافعون عن الإيمان النيقاويّ القويم

لٰكنّه توجّب عليه أن يتخلّى عن عزلته قُبيل وفاة صديقه باسيليوس في أوّل كانون الثاني (يناير) ٣٧٩. ولبّى الدعوةَ الوحيدةَ القادرة على انتزاعه من تأمُّله، وهي حاجة الكنيسة الملحّة. ذٰلك بأنّ الصراع

الأَريوسيّ كان لا يزال قائمًا، علمًا بأنّ مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ لم يحلّ شيئًا في الواقع. فمنذ أربعين سنة، كانت الأريوسيّة تسود من دون منازع في القسطنطينيّة بحماية الإمبراطور الأريوسيّ ڤالَنس. والحال أنّ غريغوريوس، على غرار صديقَيه، كان شديد التعلّق بالإيمان القويم المحدَّد في نيقية: وهو أنّ الابن مساوٍ للآب في الجوهر. وكان هٰذا القول الطريقةَ الوحيدة للتأكيد من دون أيّ ذريعة ممكنة أنّ الابن والآب إلٰه واحد، مع تجنُّب الإساءة إلى وحدة الألوهة أو إلى ثالوث الأقانيم.

وفي شهر آب (أغسطس) ٣٧٨، قُتل ڤالَنس في محاربة الغوط، وعُيِّن إسپانيٌّ قويم الإيمان يدعى ثيودوسيوس للحلول محلّه. عندها، طلبت الجماعة المسيحيّة الصغيرة الوفيّة لمجمع نيقية إلى غريغوريوس أن يترأَّسها. أَوَلم يكن خطيبًا مشهورًا وصاحب إيمان قويم متحمِّسًا وأسقفًا لا كرسيّ له؟

طُلب إلى غريغوريوس أن يدافع عن الثالوث: فلم يكن في وسعه إلّا أن يوافق. فتوجَّه إلى القسطنطينيّة حيث لم يكن للنيقاويّين القليلي العدد أيّ كنيسة في تصرّفهم. وكان مصيرهم غامضًا. وكان من واجب ثيودوسيوس أن يقوم بكلّ ما في وسعه للدفاع عن حدوده في وجه الغوط. فلم يتمكّن من دخول عاصمته إلّا في ٢٤ تشرين الثاني (نوڤمبر) ٣٨٠. وبعد مرور ثلاثة أيّام، طَرد من المدينة الأسقف الأَريوسيّ وعمل هو نفسه على تنصيب غريغوريوس محلَّه، رغم موقف الشعب المهدِّد لبعض الوقت.

وفي أيّار (مايو) ٣٨١، عقد ثيودوسيوس مجمعًا هو ثاني المجامع المسكونيّة. من الناحية اللاهوتيّة، أعلن الآباء مجدِّدًا قانون إيمان نيقية وأكملوه في ما يختصّ بالروح القدس. وثبّتوا كذٰلك غريغوريوس على كرسيّه. ولٰكنّه لم يكن قائدًا للناس ومناورًا كباسيليوس، كما أنّه لم يكن أسقفَ بلاط. فلمّا كان عرضةً للنزاع، (إذ لامه داماسيوس أسقف رومة، بواسطة أحد الأشخاص، وبعد أن وصلت إليه المعلومات على وجه مغلوط، على انتقاله من ساسيم إلى القسطنطينيّة)، استقال في غمرة انعقاد المجمع، وسط دهشة الجميع. واعتبارًا من شهر تمّوز (يوليو)، عاد إلى قپّدوقية مسقط رأسه، حيث توفّي سنة ٣٩٠.

ولم يبقَ على قيد الحياة إلّا غريغوريوس النيصيّ. وظهر لعدّة سنوات بمظهر مستشار ثيودوسيوس للشؤون الكنسيّة. فهو الذي كُلِّف بطرد الأساقفة الأَريوسيّين وتنصيب النيقاويّين. وفي سنة ٣٩٤، شارك في السينودس للمرّة الأخيرة. وتوفّي بعد ذٰلك بقليل.

مرآة عصرهم

إنّ أعمال القپّدوقيّين الثلاثة المكتوبة وافرة جدًّا. فلا ننسَ أنّنا نتحدَّث عن أساقفة، أي عن وعّاظ. فقد تركوا لنا عددًا كبيرًا من المواعظ – أكثر من مائة – يُظهِر تحليلُها أنّها كثيرة الدلالة. فإنّ العظة، كالرواية، هي مرآة: نتبيَّن فيها ملامح المستمعين وملامح الراعي على السواء.

والعالَم الذي ينعكس فيها هو عالمٌ خالٍ من الطبقات المتوسِّطة، حيث يجانب الغنى الفاحشُ الفقرَ المدقع. توجَّه الأساقفة الثلاثة إلى الفقراء طالبين منهم أن يخضعوا للنظام القائم، وتوجَّهوا إلى الأغنياء مذكِّرين إيّاهم بواجبهم المحتَّم أن يعطوا المحتاجين كلَّ ما يفيض عنهم، أي ما لا يُستعمل، بما أنّهم المالكون الحقيقيّون. وهو أيضًا عالَم يستدين فيه الناس بكثرة، لأسباب مختلفة، وقد يؤدّي ذٰلك إلى العبوديّة. فحمل الوعّاظ بقساوة على جميع الذين يمارسون القرض بالفائدة، المقترِضين والقارضين على السواء.

تحدَّث أولٰئك المفكِّرون عادةً إلى مستمعين من المدينة لهم بعض الثقافة. ولٰكنّهم كانوا يهتمّون أيضًا بما كان غريغوريوس النيصيّ يدعوه «القِسم الطفوليّ وغير المثقَّف من الشعب». ومن أجل تلك الفئة من المؤمنين خصوصًا، شجّعوا إكرام الشهداء. وكان المقصود رفع مستوى الاحتفالات الشعبيّة الأخلاقيّ

وإحلال الأعياد المسيحيّة، المغمورة بجوٍّ آخر مختلف، محلَّ الاحتفالات الوثنيّة. وكان المقصود أيضًا أن يُتاح للأسقف، وهو عادةً واعظ الطبقات المتعلِّمة في المدينة، أن يتحدّث إلى الناس غير المثقّفين في الأرياف، علمًا أنّهم يؤلّفون غالبيّة السكّان.

محاربة الرذائل

في تلك المواعظ، كان من الطبيعيّ أن تحتلّ الأخلاق مكانًا مرموقًا. وهٰذا الأمر يلاحَظ بوجهٍ خاصّ عند باسيليوس، وهو الوحيد الذي تعكس مواعظُه المنشورة تمامَ الانعكاس اهتماماتِ أسقفٍ يتحدّث أمام مستمعين عاديّين في ظروفٍ هي ظروف الحياة اليوميّة. والرذائل التي تُحارَب هي رذائل كلّ الأزمنة، منها الفسق والحسد والغضب والسكر وشهوة الترف. ولكي يحارب المسيحيون تسلُّط الحواسّ، كان عليهم أن يمارسوا، في أثناء الصوم الكبير الذي يدوم في الشرق ثمانية أسابيع يتألّف كلٌّ واحدٍ منها من خمسة أيام، صيامًا مشابهًا لصيام رمضان. ويبدو، بحسب ما ورد على لسان الوعّاظ، أنّ الصيام كان متبَعًا بطريقة دقيقة، حتّى إنّ نشاط المدينة كلَّها كان ضعيفًا بسبب ذلك إلى حدٍّ بعيد. وكان المؤمنون يجتمعون صباحًا ومساءً في الكنيسة ليصلّوا ويسمعوا قراءة كلمة الله وشرحَها. ولٰكنّ الجسد ضعيف، فكان زمن الرياضة السنويّ هٰذا ينحصر غالبًا بين جلستَي سكر. ولم يتعزَّ باسيليوس عن هٰذا الأمر!

في ما يختصّ بالصوم على الأقلّ، كان الناس يطيعون الإكليرس. ولٰكنّ الطاعة كانت أضعف بكثير حين كان الأمر يتعلّق بعنصر حيويّ هو العماد. فلمناسبة عيد الظهور، كان الأسقف يوجِّه كلّ سنة دعوةً رسميّة لتسجيل الأسماء بين أولٰئك الذين سيقبلون العماد ليلة عيد الفصح، بعد تعليم دينيّ يمتدّ طوال الصوم الكبير. وقد ترك كلٌّ من القبّدوقيّين الثلاثة حول هٰذا الموضوع عظةً مهيبةً وملحّة ومفصَّلة. ونشعر بأنّ الذي يلقي العظة لم يكن يجهل أنّ نداءاته لن تلقى كثيرًا من الآذان الصاغية. فباستثناء عدد ضئيل من الشبّان الورعين، كان المرشَّحون للعماد من الرجال والنساء ذوي الشعر الأبيض. ذٰلك بأنّ الاضطهادات لم تكن بعيدة في الزمن، وقد حصدت شهداءَ أماجد اجتازت ذكراهم القرون وأدّت إلى مواجهات لم تُنسَ إلى ذٰلك الوقت. وبوجهٍ عامّ، لم يعمَّد «المسيحيّون» في القرن الرابع، إمّا لأنهم كانوا يحترمون العماد ويخافون من الالتزام بتغيير الحياة الذي يستدعيه، وإمّا لأنّهم كانوا يفتقرون إلى الثقة بمغفرة الخطايا المرتكبة بعد العماد. وأوّل إمبراطور قَبِلَ العماد، قبْل أن يكون على فراش الموت، لم يكن قسطنطين، بل يوليانُس الجاحد.

أَبطال الثالوث

ولٰكنّ همّ القبّدوقيّين الأعظم كان يختصّ بالإيمان القويم الثالوثيّ، وقد دافعوا عنه طوال حياتهم، بالقلم والكلمة على السواء. ظهر هٰذا الاهتمام، بوجهٍ خاصّ، في المجادلة الطويلة التي تَواجهوا فيها لمدّة عشرين سنة مع أُونُومُس، زعيم المتطرِّفين من الآريوسيّة وهم «اللاشبيهيّون» (القائلون بأنّ الكلمة لا يشبه طبيعة الآب). دشَّن باسيليوس تلك المجادلة وواصلها غريغوريوس النازيانزيّ في القسطنطينيّة بخمس **خطب لاهوتيّة**، وهي مؤلَّف معروف في علم اللاهوت الثالوثيّ. أمّا غريغوريوس النيصيّ فقد تابع الجهاد ونشر تباعًا أربعة مؤلَّفات للردّ على المُدافع عن نظريّة اللاشبيهيّين. والمقصود هنا مقالات تتوجَّه إلى الشعب الذي يحسن القراءة، ولٰكنّ ما ورد في عدد من المواعظ يشهد على أنّنا لسنا أمام مجرّد نزاعات بين أهل الاختصاص. فإنّ الجمهور كان يهتمّ اهتمامًا شديدًا بالمشكلة الثالوثيّة ويسارع إلى اتّخاذ موقفٍ في أيِّ لحظة. وكانوا يفعلون ذٰلك عن فضول، يدفعهم حبُّ التأمّل النظريّ والكلمة، ويقومون به بشغف، وبعنف أحيانًا.

وفي محادثات القسطنطينيّة، قام علم اللاهوت وألعاب الميادين بدورٍ يشبه الدور الذي تقوم به السياسة والرياضة أحيانًا في أيّامنا.

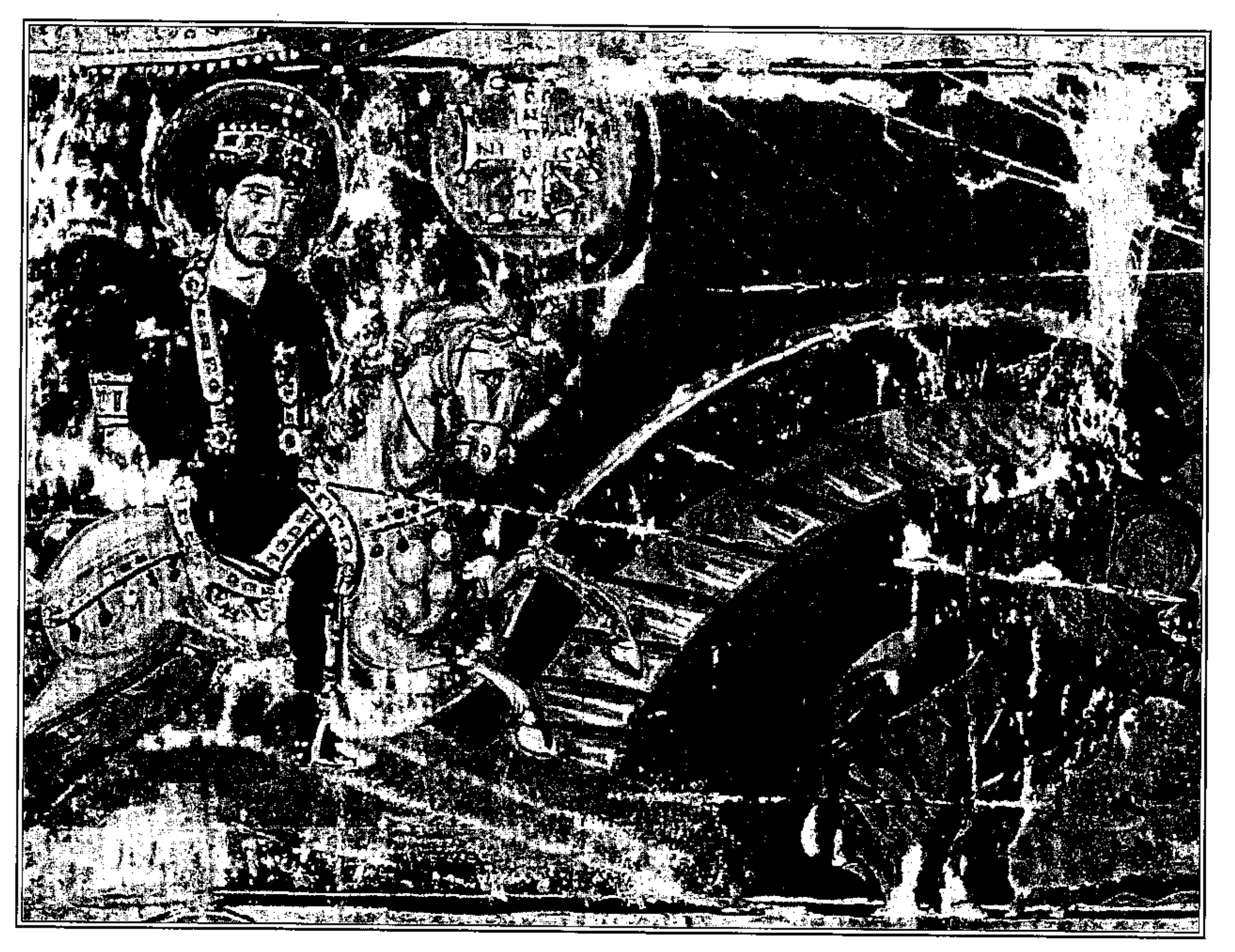
عمل وتأمُّل

إنّ تقدُّم القپدوقيّين في هٰذا المضمار لم يتمّ من دون تردّد أو حتّى من دون نفور: ففي حركة التراجع هٰذه ردّةُ فعل تشبه ردّة الفعل التي يشعر بها المتصوّفون، بوجهٍ عابر على الأقلّ، حين يُطلب إليهم أن يفصحوا عن اختبارهم التأمُّليّ. والاقتراب من الله هو دائمًا الدخول في اتّصال بالعلّيقة المتّقدة.

ويعود الفضل إلى غريغوريوس النيصيّ، أي إلى ذٰلك الذي عاش في رباط الزواج، في صياغة علم لاهوت روحانيّ شامل، تجلّى في عدد من المؤلّفات، كانت كلمته الأساسيّة «إپكْتازِس» Epektasis أي التمطّي إلى الأمام (راجع **الرسالة إلى أهل فيلبّي ٣/١٣**). فإنّ الكمال ليس هو بحالة، بل يقوم عند الإنسان على الحركة التي يزداد بها اقترابًا من الله.

أمّا غريغوريوس النازيَانزيّ، فقد ترك لنا عددًا من القصائد، وفيها تحاول نفسُه العميقةُ التصوُّف أن تَنقل بعضًا ممّا اختبرته أو استشفّته.

كان الآباء القپّدوقيّون ارستقراطيّين ومفكّرين، ورعاةً ومعلّمين، ولٰكنّهم كانوا قبل كلّ شيء مولعين بالتأمُّل. ولم يخشَ غريغوريوس النازيَانزيّ أن يقول ذات يوم في كاتدرائيّته في القسطنطينيّة، من أعلى الكرسيّ الأسقفيّ الأوّل بعد كرسيّ رومة، إنّ «العمل مبنيٌّ على التأمُّل».

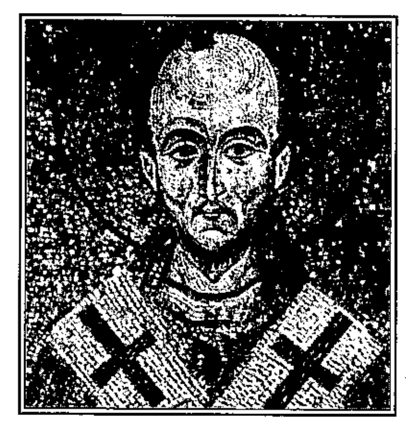


القدّيس غريغوريوس النازيانزيّ

الفصل الثاني عشر

واعظٌ شعبيّ

بقلم آن-ماري مَلانغرِيه(*)


القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم

يوحنّا «الذهبيّ الفم»

وُلد يوحنّا حوالى السنة ٣٤٩ في أنطاكية على العاصي
(في جنوب تركيا)، وربّته والدته
أنْتُوزا التي ترمّلت في عزّ شبابها. وبرع في دروسه،
ومن الراجح أنه أخذها عن لِيبانِيُوس، أعظم أساتذة البلاغة
في عصره. فتعلَّم كيف يسحر المستمعين الشرقيّين
وكانوا يتقلّبون بين شرود الفكر والتحمّس.
وكانت العادة في ذلك العصر أن
يؤخَّر منح العماد أحيانًا. وقد قبِله يوحنّا في سنّ
الثالثة والعشرين. وما لبثت دعوته الرهبانيّة أن تثبَّتت.
فحمله مزاجه المتَّقد على اللجوء إلى الجبال القريبة
من أنطاكية، ولكنّ صحّته عرَّضتْها للخطر ستُّ سنوات من التقشّفات،
فأجبرته على العودة إلى العالم.
وتأثّر بمِلِيتِيُوس، أسقف أنطاكية، وفلافِيانُس خَلَفِه،
فتعلّم أن يضعَ في المرتبةِ الأُولى تعاليم الإنجيل الصحيحة.
وظلّ يوحنّا، في شماسيّته ثمَّ في كَهنوته، مدّة أربع عشرة سنة،
أكبر واعظ يصغي إليه الناس في أنطاكية،
وهذا ما أكسبه في ما بعد لقب الذهبيّ الفم.
وفي السنة ٣٩٧، أصبح أسقفًا
على القسطنطينيّة. وكان قريبًا جدًّا من شعبه، فلم يخشَ
أن يندِّد بإفراط الأغنياء وفساد الأحبار الذين يتردَّدون
إلى البلاط الإمبراطوريّ.
وفي السنة ٤٠٤، نجحت الإمبراطورة أفدوكِيَة
في عزله ونفيه إلى أرمينيا حيث توفّي
بعد ذلك بثلاث سنوات.

(*) Anne-Marie Malingrey، أستاذة في جامعة لِيل الثالثة.

كانت التربية، في نظر اليونانيّين، تعني قبل كلّ شيء، تنمية العقل وتدريبه. وكان يوحنّا الذهبيّ الفم يتوجّه إلى مستمعين تعوّدوا المناقشة والتعبير عن الأفكار بجميع الوجوه. وقد تمرّس هو نفسه في ذلك التدريب. ففي نظره، لا يمكن أن يكون الإيمان مجرّد خضوع للكنيسة يعفي من التفكير. وطلب من الشعب الذي يسمعه قائلًا: «انتبهوا إلى ما سأقوله لكم... اشحذوا عقولكم... وأعيروني نفسًا متيقّظة، ونظرًا ثاقبًا وأذنًا متنبّهةً». وكان يكشف مسبقًا عن الفقرة التي ستدور حولها عظته في الغد ليتمكّنوا من التأمّل فيها، ويُعنى بتفسير كلمات النصّ الكتابيّ ويريد أن يعرف هل فهموا جميعًا كما يجب. ولكي يرشد عمل العقل، كان يستعين بمختلف أساليب البلاغة، ويستعمل النقد اللاذع باستمرار ليعبّر عن اعتراضات المستمعين، ويردّ عليها بعد ذلك، ولا يخشى أن يطبّق على النصوص المقدّسة أساليب التفسير المُستعمَلة عند الوثنيّين.

إنّ أجمل مدعاة للافتخار عند الإنسان وميزتَه الخاصّة، هي العقل. وقد شبّهه يوحنّا تباعًا بأجنحة العصفور التي تساعده على تجنّب الوقوع في الفخاخ، وبالشكيمة التي تلجم الحصان، وبالإصبع التي نضعها على فتحة المصباح لنحمي الشعلة من تيّارات الهواء... تلك الصور كلُّها تُظهِر إلى أيّ حدّ اعتبر العقل ضروريًّا لنموّ الحياة المسيحيّة. وهٰذا الاعتبار هو صحيح جدًّا، حتّى إنّ الشيطان يصوَّر دائمًا بصورة ذاك الذي يُظلم نورَ العقل ويشوِّش المشاريع ويهدم في الإنسان أحد أثمن أدوات تقدُّمه الروحيّ.

ولٰكن لا يجوز أن تُستخدَم معرفة الكتاب المقدّس لمنفعة المسيحيّ الروحيّة فقط. فالمقصود هو الدفاع عن الإيمان في وجه عالم معادٍ وحتّى في وجه الضعفاء الذين ينقادون إلى الانحرافات في التعليم. وكتب يوحنّا قائلًا: «من المُستغرَب أن يدافع الطبيب عن فنّه بمهارة وكذٰلك السكّاف والحائك وسائر الحرفيّين، وأن يبقى الذي يعتبر نفسه مسيحيًّا عاجزًا عن التكلّم بحرارة على إيمانه الشخصيّ» (**عظة في إنجيل يوحنّا** XVIII، ٣).

حدود العقل

للعقل إذًا دور أساسيّ عليه أن يقوم به في معرفة الله. غير أنّ له حدودًا. لأنّ جوهر الله نفسَه لا يُدرَك، كما أكّد يوحنّا ذٰلك مرارًا وبشدّة: فهو يفوق تمامًا قدرات كلّ مخلوق، أبشرًا كان أم ملاكًا. وقد سعى يوحنّا لأن ينقل إلى مستمعيه رعشة المهابة التي تعتريه أمام عظمة الله اللامتناهية. وحين كان يشرح رؤيا أشعيا (**أش ٦/ ١-٤**)، كان يعرض الملائكةَ المحدقين بالعرش الإلٰهيّ نموذجًا يُقتدى به: فهؤلاء مُشبَعون بشعور العبادة، لأنّ عقلَهم، وهو يفوق عقلَنا، يمكّنهم من أن يدركوا أنّ الله لا يُدرَك. وتظهر هٰذه القناعة في الليترجيا التي تُسمّى باسم القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم. وإنْ لم يكن هو واضعَها، فهي متشبّعة بروحه.

إنّ الله يفوقنا إلى أقصى حدّ. ومع ذٰلك، كان يوحنّا يعرف كيف يكتشف حضوره في الخليقة، حيث يستطيع الإنسان أن يتبيَّن الدلائل على حبّه، ولا سيّما في مجيء ابنه يسوع المسيح. «وأعظم صنائعه أنّه لم يضنَّ بابنه الوحيد». يبقى سرّ التجسُّد بعيدَ الغور. لكنَّ حياة المسيح على الأرض حاضرة هنا، وهي معروضة على الجميع في الإنجيل. يُنشد يوحنّا بلا ملل محبَّةَ الله التي تفوق كلَّ محبّة، «محبّة الأب لأبنائه، والأمّ لصغارها، والبستانيّ لنباتاته، والمهندس لعمله، والعريس لعروسه، والشابّ لخطيبته» (**في عناية الله** VIII، ١٢).

العيش بحسب الإيمان

لم يشدِّد أحدٌ من آباء الكنيسة أكثر من يوحنّا على الرباط الذي ينبغي للمسيحيّ أن يجتهد في إقامته بين إيمانه ونشاطه البشريّ: «إليكم معنى محبّتنا للمسيح: هي أن نفعل كلَّ شيء حبًّا لله».

ولم يكن تعليمه سوى تطبيق، يومًا بعد يوم وعلى مرّ الساعات، لذٰلك التعريف. فنلتقي في ذٰلك التعليم

المسيحيَّ في صلاته الفرديّة أو الجماعيّة، في مشاركته في الحياة الطقسيّة والأسراريّة، وفي علاقاته بسائر الناس. وفي كلّ مكان، نرى يوحنّا ينتبه فيقول للمسيحيّ كيف عليه أن يحبّ الله في هٰذه الظروف أو تلك. في الصلاة أولًا: إنّها قلب الحياة المسيحيّة ومنها تغتذي محبّة الله. ويشدِّد يوحنّا على كرامة الإنسان الذي يرتفع، وهو يصلّي، فوق ضعفه وأهوائه، فيدخل في علاقة بالله. إنّ الصلاة هي أشرف نشاط يستطيع الإنسان أن يقوم به. وهي أبسط نشاط أيضًا. ولا ينسى يوحنّا أنّه يوجّه كلامه إلى علمانيّين ملتزمين في واجبات حالتهم، فيكرِّر على مسامعهم أنّه لا المكان ولا الوضع ولا حتّى الكلمات هي ما يرفع مِن قيمة الصلاة، بل خلوص النيّة. «فالمرأة التي تحمل مِغزَلها وتنسج قماشها يمكنها أن ترفع عينَيها إلى السماء وتبتهل إلى الله بحرارة، والرجل الذي يتوجَّه مسرعًا إلى الساحة يمكنه، وهو سائر، أن يصلّي في قلبه بحرارة، والرجل الجالس في مشغله، يخيط الجلود بعضها مع بعض، يمكنه أن يرفع نفسه إلى المعلِّم، والخادم، وهو يشتري، ويروح ويجيء، ويساعد الطاهي الأوّل، حين لا يُسمَح له أن يذهب إلى الكنيسة، يمكنه أن يصلّي صلاةً متنبِّهة ومتيقِّظة. فإنّ الله لا يتشكّك من المكان، بل هو يبحث عن أمر واحدٍ، ليس هو إلّا الروح الحارّة والنفس المسيطرة على ذاتها» (**عظة في حنّة IV**، ٦).

ومع ذلك، قد يحدث أحيانًا أن تكون الصلاة سيِّئة. فيحلِّل يوحنّا بخبرته الكهنوتيّة، أنواع التشتُّت التي تَنقضُّ على النفس. فحين لا تلتقي الله، لا تكون قد بحثت عنه بسبب انشغالها بهموم أُخرى. وعندئذٍ، تكفي هبَّةُ ريح لينطفئ كلُّ شيءٍ في تَمتَمةٍ لا شعوريّة، كما تنطفئ شعلة قنديلٍ صغير.

وكان يوحنّا يعلم عن خبرة أنّ «معرفة الكُتُب المقدّسة تحرِّر النفس من قيود الجسد وتجعل أجنحتَها أخفّ وتُدخِل في نفوس القرّاء كلَّ ما قِيل إنّه خير». وإذا صحّ أنّ صلاة المتوحّدين تغتذي بالتأمُّل في الكُتُب المقدّسة، فلِمَ لا نحمل المسيحيّين العائشين في العالم على الاستفادة منها؟ فضلًا عن أنّ القراءة الروحيّة ضروريّة لهم أكثر منها للمتوحّدين، «لأنّهم (المتوحّدين) يعيشون بعيدًا عن الصراع ولا يتعرَّضون لجروح كثيرة، أمّا أنتم الذين ينجرّون باستمرار إلى الصراع ويصابون باللطمات بدون توقُّف، فإنّكم في حاجةٍ أمسّ إلى العلاج» (**عظة في لعازر III**، ١). ومن بين العلمانيّين، تحتاج النساء إلى العلاج أكثر ممّا يحتاج إليه الرجال، لأنّهنّ «مسمَّرات في المنزل بسبب الانشغالات المنزليّة» ولا يستطعن دومًا أن يستفدن من التعاليم التي تلقى في الكنيسة.

الصلاة المشتركة

لكنّ الصلاة المنفردة لا تكفي. وقد اقترح بعض المؤمنين أن يكتفوا بالصلاة في بيوتهم. فهل هم يجهلون ما في الصلاة المشتركة من قوّة لا مثيل لها؟ لذا يدعوهم يوحنّا إلى الحضور ليصلّوا معًا، مستصحبين أقرباءَهم وأصدقاءَهم. ويشعر بحاجةٍ تبلغ حدَّ القلق إلى تعاونٍ فعّال بين الكهنة والمؤمنين. ولا بدّ لصلواتهم من أن تساندهم مساندةً متبادلة، ولشكرهم من أن يُعبَّر عنه على وجهٍ جماعيّ. في الكنيسة، كلّ اجتماع هو «إفخارستيّا» (والكلمة تعني الشكر)، وهو يرتفع إلى مستوى البُعد الشامل: لذا يستدعي مشاركة الجميع. «في أثناء الاحتفال بالأسرار الرهيبة، يصلّي الكاهن من أجل الشعب ويصلّي الشعب من أجل الكاهن. وعبارة «مع روحك» لا تعني شيئًا آخر. وصلاة الشكر هي أيضًا مشتركة، لأنّ الكاهن لا يَشكر وحده، بل يشكر الشعبُ كلُّه معه» (**عظة في الرسالة الثانية إلى أهل قورنتُس XVIII**، ٣).

ولمناسبة الأعياد الطقسيّة الكبرى، يأتي إلى الكنيسة مَن هم أقلّ إيمانًا، وقد جذبهم الاحتفال. فيستفيد يوحنّا من مرورهم لينعش حماستهم. وكان يومَ العيد يُحتفل بوجهٍ من وجوه السرّ المسيحيّ، فيدعوهم إلى التأمُّل فيه. وفي مواعظه عن الميلاد والفصح والصعود والعنصرة، نجد باستمرار اهتمامه بمحاربة الرتابة

والطقوسيّة الفارغة من المعاني.

لأنّ المواظبة على حضور الرتَب لا تكفي، إذ لا بدّ من الخروج منها في حالةٍ أفضل. ولكي يفسّر يوحنّا كلمة «كاتيخِسيس» اليونانيّة (تعليم دينيّ)، ربَطَها بالفعل اليونانيّ «كاتِيخَين»، أي أحدثَ صدى: فيجب أن يكون للوعظ صدى على الحياة كلّها. ويهزّ يوحنّا الضمانات الكسولة فيقول بدون مجاملة: «أتعتقدون بأنّ التقوى تقوم على ألّا نتغيَّب عن رتبةٍ من الرتب؟ إنّ الرتبة لا قيمة لها، إن لم نستفد منها؛ وإنْ لم نجنِ شيئًا منها، فمن الأفضل أن نبقى في بيوتنا» (**عظة في «أعمال الرسل»** XXIX، ٣).

الأسرار

وكما أنّ الأعياد الطقسيّة ترافق المسيحيّ طوال السنة، كذٰلك الأسرار ترافقه طوال حياته. ففي أنطاكية، قام يوحنّا، لمّا كان شمّاسًا ثمّ لمّا أصبح كاهنًا، بتعليم المرشَّحين للعماد. وكانت تعاليمه التي يلقيها على «أولٰئك الذين سيستنيرون» مليئةً بالفرح والرجاء. فكان يتحدَّث بطيبة خاطر عن التغيير الجذريّ الذي يُحدثه العماد: مِن عودة النشاط، والتحرير، والولادة الثانية ولا سيّما الحياة الجديدة التي تتوق فيها إرادة المسيحيّ إلى الكمال.

وكانت النصوص التي وضعها في الإفخارستيّا تنبض بإيمانٍ عظيم وحبّ كبير. وفي عصر الإسلاح، دُعِيَ يوحنّا «ملفان الإفخارستيّا». وفي **مقالته في الكهنوت**، المليئة بالحرارة، يذكّر الكهنة بالأسباب التي تدعوهم إلى الإيمان بخدمتهم: «هم الذين نالوا من أجلنا مهمّة الولادات الروحيّة... وبهم نلبس المسيح، ونُدفَن مع ابن الله، ونصبح أعضاءً لذٰلك الرأس الطوباويّ». ومن هنا المسؤوليّة الملقاة على أكتافهم، ومن هنا الاحترام الذي يستحقّونه. لٰكنّ ذلك لا يمنع أن يكون لكلّ واحد دور يقوم به في الجماعة الكنسيّة: «إنّنا نؤلّف جسدًا واحدًا ولا نختلف إلّا بمقدار ما يختلف الأعضاء بعضهم عن بعض. فلا نُلقِيَنَّ المسؤوليّة كلّها على الكهنة، بل لِنَهتمَّ بالكنيسة جمعاء اهتمامَنا بجسدٍ هو للجميع» (**عظة في الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس** XVIII، ٣).

وعن الزواج يتحدَّث يوحنّا بطُرق تختلف باختلاف مَن كان يتحدّث إليهم، من نساءٍ اخترن أن يعشن حياة التقشّف، ومن أناس متزوِّجين. فيشدِّد على المساواة بين الزوجين وعلى العون والسند اللذين تستطيع المرأة أن تمدّ بهما زوجها. وكان من أوائل الذين وضعوا علم لاهوت الزواج، واصفًا إيّاه، على غرار ما علَّمه القدّيس بولس، بأنّه صورة لحبّ المسيح والكنيسة. وقد نبَّه إلى خطر احتقار الجسد: فهو ليس في نظره ثقلًا يحتجز الإنسان على الأرض، كما اعتبره تيّار من تيارات الفلسفة اليونانيّة. فإنّ الجسد مدعوّ، بحسب التقليد الكتابيّ، إلى تأمين استمرار الجنس البشريّ، وإلى الترنّم بمديح الله، وإلى أن يصير قربانًا حيًّا بالقيام بأكثر الأعمال اليوميّة ضعةً.

شهادة الحياة

في بيئةٍ يتجاور فيها الوثنيّون والمسيحيّون تجاورًا دائمًا، أيقن يوحنّا أنّ شهادة الحياة وحدها قادرة على هداية القلوب. «حين لم يكن الإنجيل منتشرًا، كانت المعجزات تثير الإعجاب وبحقّ. أمّا الآن، فلا بدّ من الإعجاب بالحياة». وما من أحدٍ شدَّد أكثر منه على العثار المزدوج الذي يَظهر في المسيحيّين: وهو الانشقاق واللامبالاة أمام البؤس: «فلنتذكَّر أنّ المحبّة هي سمة تلاميذ المسيح، وأنّ لا قيمة لشيء من دونها وأنّها أمر سهل، إن أردنا». فأجاب أحد المحاورين: «أَجَل، إنّنا نعلم ذٰلك، ولٰكن ما السبيل للوصول إليه؟ وما السبيل إلى تحقيقه؟ ماذا علينا أن نعمل لكي نحبّ بعضنا بعضًا؟» من الراجح أنّ السؤال لم يكن بلا

جدوى، لأنّ يوحنّا أضاف قائلًا: «حتّى إنّ معظمنا، نحن الذين يأتون إلى هٰذا المكان، لا يعرف بعضهم بعضًا!» فقيل له: «إنّ عددنا المرتفع هو السبب». فأجاب: «أبدًا! بل جَهْلُنا هو السبب» **(عظة في «أعمال الرسل»** XL، ٣-٤).

وكان يوحنّا قدوة، يبذل من شخصه: كشمّاس مكلَّف بوجهٍ خاصّ بالأعمال الخيريّة، ثمّ ككاهنٍ في أنطاكية، وكأسقفٍ في القسطنطينيّة حيث تتجاور الثروات الطائلة وأشنع أنواع البؤس. فكان يوحنّا لا يكفّ عن التذكير بواجب الصدقة. وكانت حجَّته الأساسية أنّ الفقير هو المسيح. وعلى المسيحيّ أن يستمدّ قانون إحسانه من كلمة المسيح: «إنّ ما صنعتموه لأحد أصغر الناس، فلي قد صنعتموه». وتحدَّث يوحنّا عن الفقراء بشغف وحنان: «ليكن لديكم غرفة يأتي المسيح يسكن فيها. هٰذه هي حجرة المسيح، الغرفة المخصّصة له... وليكلِّف أوفى الخدام بأن يُدخِل إليها ذوي العاهات والشحّاذين والذين لا سقف لهم... ولا بدّ من استقبالهم في العلّيّات. وإذا لم تقبلوا ذٰلك، فاستقبلوهم في الأسفل على الأقلّ. أجل. حيث تكون البغال ويكون الخدّام، استقبلوا المسيح» **(المرجع نفسه** XLV، ٤).

تحدَّث يوحنّا إلى مسيحيّين يعيشون «في العالم». ولٰكن، ما العمل لجذبهم إلى المسيح؟ لقد بحث مع شعبه عن الطريق. فهناك النسّاك الذين اختاروا طريق البرّيّة، ولٰكن هناك طرق أُخَر، مختلفة في مسارها، متشابهة في هدفها، «لأنّ طرق الفضيلة متنوِّعة، كما هي متنوِّعة ألوان الحجارة الكريمة». والطريق التي اقترحها لا تتيه في الأراضي المجهولة، بل تقود إلى الله من خلال الواجب اليوميّ، وأحزان الحياة العائليّة وأفراحها، والعلاقات الاجتماعيّة.

ومن بين الذين شقّوا للعلمانيّين آفاق التقدُّس في العالم، يحتلّ يوحنّا الذهبيّ الفم مكانةً مرموقة. فإنّ كلامه، المشبَع من الكتاب المقدَّس والمستنير باليقين والفرح، يتوجَّه اليوم أيضًا إلى الراغبين في الاستقاء من الينابيع.

الفصل الثالث عشر

مرتينُس أسقف تُور
رسول الأرياف الجوّال

بقلم جاكلين ڤِييه(*)

في القرن الرابع، غزت المسيحيّة المدن
ثمّ بدأت تغزو الأرياف.
ويُعدّ القدّيس مرتينُس مثال الأسقف الجوَّال.

طوال المأساة التي سبَّبَتها الحروب الأهليّة والغزوات البربريّة من بعدها، شهدَتْ غاليا المنكمشةُ على نفسها بضعَ سنوات من الهدوء والازدهار في النصف الثاني من القرن الرابع. لٰكنّ المستقبل كان مهدَّدًا ولا شكّ: فكانت المدن تختبئ خلف الأسوار الحالكة. وكان للأرستقراطيّة في المدن «ڤِيلّات» هي مراكز لأملاكها الزراعيّة الواسعة، فكانت تظهر بمظهر الحصون. ولٰكنّ الخوف من البرابرة، المنتشر في كل مكان، لم يوقِف الحياة ولم يمنع الناس من العمل. فقام أباطرة أذكياء ونشيطون، كيُوليانُس «الجاحد» وڤالَنْتِينيانُس، بتدعيم الحدود وتلافَوا الخطر الداهم. ثمّ خلفَهُما غراطِيانُس، وقد إشتهر لأنّه عرف كيف يمنح غاليا «أيّامها السعيدة الأخيرة».

مطاردة الآلهة

شجَّعت أجواء السلام هٰذه على انطلاقة المسيحيّة. لا شكّ في أنّ المدن الغاليّة الرومانيّة كانت مسيحيّةً في معظمها. وكانت تأوي أسقفها بفخر وتسارع إلى تقديم الاحترام الواجب لمقامه.

ولٰكن ما إن يَترك المسافرُ المدينة حتّى يدخل في الممالك الريفيّة التي كثرت فيها الآلهة. وأكّد الكاتب بِتْرُونيوس في القرن الأوّل أنّ مصادفة الآلهة على طُرق غاليا أسهل من مصادفة البشر. وبعد مرور ثلاثة قرون، لم يتغيَّر الوضع إلّا قليلًا. ذٰلك بأنّ معتقدات الأجداد، التي جُدِّدت أو لم تُجدَّد بفضل إضافة بعض التفاصيل المأخوذة عن الآلهة اليونانيّة أو الشرقيّة، ظلّت متجذِّرةً بعمق في الأراضي الغاليّة. وفي القرن الرابع، غزت المسيحيّة المدن والدولة، وبقي لها أن تغزو الأرياف.

وكان المقصود هو الغزو فعلًا، والهدف هداية كلّ الشعب الذي يؤَلِّف غاليا: من مزارعين وحُرَّاث وفلّاحين أحرار أو مستوطنين مرتبطين بقطعة أرض، ومتجمِّعين في قرى مستقلّة (vici) أو تابعة لإحدى «الڤيلّات». وكانت الوسائل المعتمدة سريعة: فالمهمّة الأُولى هي القضاءُ على العبادات القديمة. وكان المقصود، في كلّ مكان، «قلب تماثيل الآلهة، وقطع

(*) Jacqueline Vier.

أشجار الغابات المقدّسة، وحرق الهياكل والمعابد، وتشييد كنيسة كبيرة أو صغيرة، وتكريس مذبحٍ فيها والبدء بتعميد الجموع»...[١].

وعلى الصعيد الدينيّ، عرفت غاليا ميول يوليانُس الجاحد الوثنيّة، ثمّ الحياد المتفهّم الذي أبداه ڤالَنْتِينِيانُس. وهي تواجه الآن محاربة غراطيانُس العدائيّة للوثنيّة... وفي الواقع، استطاع علماء الآثار أن يُثبتوا أنّ معظم المعابد الريفيّة الوثنيّة دُمِّرت، على ما يبدو، أو نُهِبت أو أُخلِيت ما بين السنة ٣٧٥ والسنة ٣٩٠...

وكانت عمليّات التبشير بالإنجيل مدعومةً، إن لم تكن مقرَّرة، تدعمها وتقرّرها السلطة الإمبراطوريّة، فطالت غاليا بكاملها.

وترأّس تلك العمليّات أساقفة مُرسَلون ورجالُ عمل وصلاة ومغامرة، جابوا غاليا من دون توقُّف وفي كلّ اتّجاه. وكانوا يحتاجون إلى الشجاعة في كلّ مكان، لأنّ الفلّاحين «المتورّطين في ضلال الوثنيّة»[٢] كانوا يواجهونهم بمقاومة شديدة. ولٰكن، لم ييأسوا... وقد أسَّسوا، خطوةً خطوة، أُولى الرعايا الريفيّة، ومن قرية إلى قرية تأصّلت المسيحيّة.

من روّاد الإيمان هٰؤلاء لم يبقَ إلّا أسماء قليلة. فإلى جانب مرتينُس أسقف تُور، يجب أن نذكر ڤِكْتْرِيس أسقف روان (Rouen) الذي بشّر شمال غاليا، وسِمْپِلِيقِيوس أسقف أُوتون (Autum)، ودلْفِينُس أسقف بُوردُو... ولٰكنّ مرتينُس كان أشهرهم...

واعظ شعبيّ

لقد شَطَر رداءه وأشرك الآخرين في إيمانه: كان القدّيس مَرتينس، أسقف تور، وهو عسكريٌّ سابق ومناضلٌ بطبعه، أكثرَ مرسلَي الأرياف شعبيّة. ويعود الفضل في تألُّقه إلى الكنيسة، ولٰكنّ شهرتَه مدينةٌ كثيرًا لموهبةِ واضع سيرته وتلميذه، الكاتب سلپيقيوس ساويرس. ومهما يكن من أمر، فإن «حياة» مَرتينُس، السلافِيّ الأصل والرومانيّ الثقافة والغاليّ بالتبنّي، كانت مثاليّة: فهي تُعيد إلى الحياة بطلًا من أبطال المسيحيّة وتبعث عصرًا بأكمله.

وُلد مرتينُس، وهو ابنُ جنديّ، سنة ٣١٥ أو ٣١٦ في سَبَرّيا (المجر) وترعرع في شمال إيطاليا، في ﭙاڤِيا. ورُقِّي والده إلى رتبة حاكم عسكريّ، فأدخله، كما درجت العادة، في سلك الجنديّة. وقد ظلّ مرتينُس فيها طوعًا أو كرهًا... حتّى أن أتمّ الأربعين من عمره. وساعدته تنقُّلات كتيبته على التعرُّف إلى غاليا. ولٰكنّ ذٰلك العسكريّ المسيحيّ، الذي اهتدى منذ حداثته واعتمد في سنّ الثامنة عشرة، كان يحمل في نفسه طموحات أُخرى تختلف عن الجَوَلان على مواقع الإمبراطور. وحين حصل أخيرًا على ترخيص بترك الجيش، لجأ إلى هيلارِيُون أسقف پُواتِييه. ولٰكنّه لم يُقِم عنده طويلًا، لأنّ هيلاريون، الذي قاوم الأريوسيّة - وكانت رسميّةً آنذاك في غاليا - أُرسِل إلى المنفى. فأخذ مرتينُس عصا المسافر، واجتاز جبال الألپ، متوجّهًا إلى إلِّيرِيَة (على ساحل الأدرياتيكيّ) وفيها هدى أُمَّه، ثمّ عاد إلى إيطاليا وتدرَّب على الحياة التوحّديّة.

وحين رجع هيلاريون، في حوالى السنة ٣٦٠، إلى مقاطعة پُواتُو، انضم مرتينُس إليه. ولٰكنّه عاش في عزلة صومعة صغيرة، على بعد بضعة كيلومترات من پُواتِييه في لِيغُوجِه (Ligugé). وسرعان ما انضمّ إليه بعض «الإخوة».

إنّ بدايات الحياة التوحّديّة في غاليا ما زالت غامضةً إلى حدٍّ ما. ولعلّ أثناسيوس، في أثناء نفيه إلى ترِير، لم يكن غريبًا عن بعض الاختبارات. ولٰكنّ ليغوجه هي أوّل مركز توحّديّ غاليّ رومانيّ معروف...

---

(١) «Vie des saints Julius et Julianus d'Orta», cité par H. Marrou in **Nouvelle Histoire de l'Eglise**, t.1.

(٢) سُلْپِيقِيوس (Sulpicius) ساويرُس، **حياة القدّيس مرتينُس**.

أسقف جوّال

عُيِّن مرتينُس أسقفًا على تور بإرادة الشعب المسيحيّ، غير أنّه لم يتخلَّ عن الحياة التوحّديّة. وقد اعتبره كثير من نظرائه «رجلًا ذا منظرٍ يثير الشفقة، وثيابٍ وسخة وشعرٍ أشعث»، إلّا أنّ هٰذا الأسقف الذي اتّبع نمطًا جديدًا، أسَّس ديرًا مميَّزًا ذائع الصيت: هو دير مَرمُوتِييه (Marmoutier).

كان في مَرموتييه ثمانون متوحّدًا وقد ساهم في تنشئة عدد كبير من الأساقفة، تعوَّدوا الصلاة والفقر، فاختلفوا، تمامًا كمرتينُس، عن أساقفة البلاط وثرواتهم. وكان مرتينُس متوحّدًا، ولٰكنّه كان أيضًا مسافرًا جريئًا لا يبالي بالتعب، كان أسقفًا جوّالًا.

لقد وصفه سلبيقيوس ساويرس وهو يذرع منطقتَي تُورِين (Touraine) وبِرّي (Berry)، وقال فيه: «صحيحٌ أنّه، قبل مَرتينُس، لم يتّخذ اسمَ المسيح في تلك البلاد إلّا عدد قليل من الناس، أو حتّى لا أحد تقريبًا»... وقد وصل أيضًا إلى نُورمَنْديا، ووادي الرُّون، وأوفِرن وسَنتُنج (Saintonge). وشوهد في باريس وترير... وفي أثناء رحلاته، لم يكفّ عن هدم الأصنام وحرق الهياكل الوثنيّة وقطع الأشجار المقدَّسة... وكثيرًا ما كانت المقاومة عنيفةً، «ولٰكن بوجهٍ عامّ، حين كان الفلّاحون يسعون بعداوةٍ لإقناعه بعدم تهديم معابدهم، كان وعظه المقدَّس يليِّن عددًا كبيرًا من نفوس الوثنيّين، حتّى إنّهم كانوا يستنيرون بالحقّ فيُقدمون هم أنفسُهم على تدمير هياكلهم».

ومع ذٰلك، كان بعض «الملائكة» - وهم يُشبِهون الجنود الرومان شبهًا كبيرًا -، «المزوَّدون بالرماح والتروس» يُضطرّون أحيانًا إلى مدّ يد العون له...

وفي القرن السادس، كتب البابا غريغوريوس الكبير إلى المرسَلين المبعوثين إلى بريطانيا العظمى يقول لهم: «ينبغي أن تكرَّس المعابد المخصَّصة لعبادة الآلهة الكاذبة للعبادة الحقيقيّة، لكي يؤدّي الوثنيّون المهتدون العبادةَ لله في الأمكنة التي اعتادوا أن يتردَّدوا إليها».

وهٰذا ما حصل فعلًا في غاليا بحمايةٍ من الإمبراطور، في أيّام مرتينُس. فبفضل إجراءٍ قانونيّ، بعد أن دُمِّرت المعابد الوثنيّة، عادت الأراضي المقدَّسة المحيطة بها إلى الكنيسة. وشُيِّدت على أنقاضها مصلَّيات ومعابد، وسُمِّيت عدّة أملاك «أملاك القدّيس مرتينُس» بعد أن كانت تحمل أسماء آلهة كمرقوريوس وبيلِينُس (Bélénus).

وكتب سُلبيقيوس ساويرس أنّ ظواهر كثيرة فائقة الطبيعة ساعدت مرتينُس في رسالته. فإنّ الرؤى والمعجزات ملأت حياته، إذ إنه شفى المرضى وأقامَ الموتى وطردَ الشيطان، ذٰلك «الوحش الدمويّ»، الذي عرفه دائمًا في مظاهره المتعدِّدة والوثنيّة.

وقد عملت قدراتُه العجائبيّة، بالإضافة إلى رأفته وتواضعه، على إثارة الحماسة الشعبيّة. وحين توفّي مرتينُس، حوالى السنة ٣٩٧، حضر دفنَه جميع سكّان «الأرياف والقرى» في أبرشيّته، وحتّى سكان «المدن المجاورة». وإذا بمؤسِّس أُولى الرعايا الريفيّة في معظم غاليا يدخل التاريخ والأسطورة.

وثيقة
دير مَرمُوتييه

«كانت تلك الخلوة بعيدةً بحيث لم ينقصها شيء
من عزلة الصحراء. فمن جهة، كانت
محاطة بجرف شديد الانحدار تابع لجبل عالٍ،
وكان ما تبقّى من الأرض محصورًا بين منعطف طفيف
يولّده نهر اللُوار.
ولم يكن هناك سوى طريق واحدة ضيّقة جدًّا
تؤدّي إليها.
وكان مرتينُس يسكن في حجرة من خشب، ومعه عدد
كبير من الإخوة يسكنون على الشكل نفسه.
ولكنّ معظمهم حفَرَ ملاجئ في صخور الجبل
المشرف عليهم.
وهناك، كان يعيش نحو ثمانين تلميذًا يتدرّبون على
مثال معلّمهم الطوباويّ.
لم يكن أحدٌ يملك شيئًا خاصًّا، بل كان كلّ شيء مشتركًا بينهم.
وكان ممنوعًا عليهم أن يشتروا أو أن يبيعوا أيّ شيء كان
(كما جرت العادة عند الكثير من المتوحّدين).
ولم يكونوا يُمارسون أيّ فنّ، ما عدا عمل النسّاخ،
مع أنه لم يكن يعيّن فيه إلّا من هم أصغر سنًّا؛
فإنّ الكبار كانوا يتفرّغون للصلاة.
ونادرًا ما كانوا يخرجون من حجرهم، إلّا للاجتماع
في مكان الصلاة.
وحين تنتهي ساعة الصوم، كانوا يتناولون الطعام معًا.
ما من أحد كان يعرف الخمر، باستثناء
من يرغمه المرض على ذلك.
وكان عدد كبير منهم يلبس وبر الجمال؛
أمّا ارتداء الألبسة الفاخرة فكان يُعَدُّ خطأً جسيمًا...»

(سلبيقيوس ساويرس، **حياة القدّيس مرتينُس**)

الفصل الرابع عشر

الفنّ الانتصاريّ في القرن الرابع

في القرن الرابع، خرجت المسيحيّة
من «شبه الخفاء» الذي كانت غارقة فيه.
وأصبح المسيح رئيس كنيسة منتصرة.

رأينا سابقًا أنّ الرسوم على جدران الديامیس، في القرن الثالث، كانت في الأساس رسومًا تشير إلى سرّ الخلاص. أي أنّها كانت تذكّر المسيحيّين، من خلال أبطال ورد ذكرهم في الكتاب المقدّس، كَنُوح أو دانيال، بجميع العظائم التي صنعها الله في سبيل خاصّته. وهي تعبّر عن شعور المعمَّد بأنّه مات عن كيانه العتيق بدخوله في الحياة الحقيقيّة التي تعيشها الكنيسة. وتعبّر أخيرًا عن رجائه سعادةً نهائيّة في الفردوس.

ولٰكن، ماذا حلّ بتلك الموضوعات في القرن الرابع؟

إنّها لم تختفِ، بل ظهرت إلى جانبها موضوعات أُخرى أَغنت جَعبة الفنّ المسيحيّ وأَلَّفت مجموعةً أكثر انتظامًا، ملبِّيةً بذٰلك اهتمامات التعليم والتنشئة الدينيّة.

وفي القرن الرابع، سعى الفنّانون إلى تحديد ملامح المسيح: المسيح المنتصر المعلِّم، المسيح المشترع. حتّى ذٰلك الوقت، كانوا يشيرون إلى حضوره بالوجوه الرمزيّة التي تصوِّر أُورْفِيُوس (الذي كانت موسيقاه تسحر الحيوانات المتوحِّشة)، أو القارئ أو الراعي الصالح.

فكان اقتباس تلك الموضوعات من الفنّ القديم والوثنيّ يجسّد للمؤمنين، على وجهٍ أفضل، الخلاص الذي حقّقته لهم حياةُ المسيح ومعجزاته. فلم تكن صورة الراعي الصالح، مثلًا، إلّا رمزَ التفاني في سبيل البشريّة، رمز ما كان الرومان يسمّونه **الفِيلَنْترُوپيا** (حبّ البشر). وقد اقتُبِست تلك الصورة من أسطورة يونانيّة تروي أنّ هِرْمِس، وهو «إلٰهٌ صديقٌ للبشر»، أنقذ مدينة تَنَغْرا من وباء الطاعون بدَوَرانه ثلاثَ مرّات حول أسوارها، وهو يحملُ كَبْشًا على كتفيه. فحين تناول المسيحيّون هم أيضًا ذٰلك الموضوع، لم يكونوا يسعون إلى تمثيل شخص المسيح بقدر ما كانوا يسعون إلى التعبير عن حبّه للبشريّة.

لٰكنَّ المسيحيّة خرجت في القرن الرابع من «شبه الخفاء» الذي كانت غارقة فيه طوال القرن الثالث. ولم يعد المسيح فقط ذٰلك الراعي الصالح الذي يرعى النفوس، بل أصبح مؤسِّس كنيسةٍ منتصرة. وبعد أن اجتازت هٰذه الكنيسة مِحَن الاضطهاد، اعتُرِفَ بها في كيانها وسلطتها الروحيّة اعترافًا شرعيًّا تامًّا... فبنت صروح عبادة أكثر عددًا وأوسع مساحةً وزيَّنتها بالرسوم الجداريّة والفسيفساء وطوَّرت مجموعتها الأيقُونُوغرافِيّة. وكان تصوير المسيح المنتصِر أحد مظاهر هٰذا التطوُّر. وكان تصوير المسيح المعلِّم وسط الرسل مَظهَرًا آخر من مظاهره. وهٰذا الموضوع هو نقلٌ مباشر للمشاهد القديمة التي كانت تُظهر الحكيم أو الفيلسوف محاطًا بتلاميذه. ولٰكنّه كان ربّما يتّسم بمعنى إضافيّ مرتبط بالصدى الواسع الذي أحدثه مجمع نيقية: لأنّه، للمرّة الأُولى في تاريخ الكنيسة، انعقدت جمعيّةُ الأساقفة بدعوة من الإمبراطور قسطنطين شخصيًّا، مع كل الأبّهة والمراسم اللازمة. والكنيسة المجتمعة على

هٰذا النحو هي حقًّا تلك التي تسنّ القوانين وتعبِّر عن الحقائق الإيمانيّة وتصوغها بسلطان.

ويرقى ظهور الصليب، صليب الجلجلة، إلى القرن الرابع أيضًا: فقبل ذٰلك، لم يكن يُصوَّر إلّا الصليب المعقوف، رمز الأزليّة الشمسيّ، أو الصليب العاديّ، المرسوم عادةً على شكل مشبّكة XP (المؤلَّفة من الحرفين اليونانيّين اللذين تبدأ بهما كلمة مسيح). وفي المقابل، وربّما على مثال الصليب الكبير الذي نصبه قسطنطين على الجلجلة والذي تحدَّث عنه أوسابيوس القيصريّ في تقريظه، رُفع صليب الآلام، وهو رمز الخلاص، لا بل رمز الانتصار خصوصًا، على النواويس وعلى جدران الدياميس وفسيفساء الباسيليكات (ولا سيّما في كنيسة القدّيسة پُودُونْتِيينا). وعلى الصليب، اكتسب المسيح ملوكيّةً حقيقيّة. وبالتالي، كان تصوير أداةِ تعذيبه تذكيرًا بانتصاره وبالفداء أكثر ممّا كان تذكيرًا بعذاباته.

أمّا معجزات الإنجيل، وقد سبق أن صُوِّرت في القرن الثالث، فقد تكاثرت وواصلت تعليمها للمؤمنين: إنّ المسيح، بمعجزاته وموته وقيامته، أتمّ مشروع الخلاص الذي افتتحه الله في العهد القديم، حين ربّى شعبه وصنع العظائم في سبيله. وعلى الكنيسة أن تواصل الآن ذٰلك العمل بالأسرار.

فالفنّ المسيحيّ في القرن الرابع يشهد إذًا على اهتمامٍ بالتعليم أوضحَ ممّا كان عليه في القرن الثالث. فإنّ رسوم الدياميس ومنحوتات النواويس، وهي في السابق أشبه بكتاب صُوَرٍ عائليّ يخصّ الجماعة المسيحيّة، أصبحت تعبِّر، لا عن مشاعر المؤمنين المعمَّدين وآمالهم وحَسْب، بل عن تعليمٍ دينيّ منظَّم.

الباسيليكات الأُوَل

يرقى عهد الباسيليكات الأُولى إلى مطلع القرن الرابع، وتسمَّى قسطنطينيّة لأنّ قسطنطين وأمّه القدّيسة هيلانة هما اللذان أقدما على بنائها. نحن نعرف أين شُيِّدت – في الأماكن المقدَّسة وفي رومة على الأخصّ – ونعرف تصميمها. ولٰكن، لسوء الحظّ، لا يمكننا أن نقول الكثير عن شكلها القديم، إمّا لأنّها دُمِّرت وإمّا لأنّها رُمِّمَت إلى حدٍّ كبير، والرسوم التي تُطلِعنا على زخرفتها لا ترقى إلّا إلى القرن السابع عشر.

وفي رومة، لم تُبنَ تلك الباسيليكات في أماكن الرعايا القديمة وحسب. فقد بُنِيَ بعضها، ككنيسة القدّيس بطرس في الڤاتيكان، وكنيسة القدّيس سِبَستيانس «قرب الحفرة» («ad catacumbas»، على الطريق الآپّيّة)، على مقابر الرسل أو الشهداء – كما هي حال الكنائس المشيَّدة خارج المدينة، خارج الأسوار extra muros. وفي المقابل، عُثِر، تحت باسيليكات أُخَر، ككنيسة القدّيسة سابينا، والقدّيسة پريشكا، والقدّيسة پُودونْتِيينا، والقدّيسين يوحنّا وبولس، والقدّيس كاليستُس، على بُنى تحتيّة لبيوت قديمة. وهناك فرضيّاتٍ تقول بأنّ تلك البيوت كانت منازل قديمة خاصّة تُستَخدَم كأماكن عبادة (كنائس منزليّة domus ecclesiae)، اشترتها الكنيسة أو وهبها لها أصحابها، في القرن الثالث على الأرجح، ثمّ تحوَّلت ورُقِّيت شرعيًّا إلى مرتبة «كنائس» (tituli) على اسم شفيع (لم يكن قدّيسًا بالضرورة). قد تكون تلك الفرضيّة معقولة في بعض الحالات، ولٰكن يُستَبعد أن تكون أكيدة في جميع الأحوال. وإنّنا نتحاشى اليوم أن نجزم إيجابًا في هٰذه المسألة. والأكيد هو أنّ الكنيسة، حين باشرت في القرن الرابع تشييد الباسيليكات، فعلت ذٰلك على أراضٍ كانت تمتلكها. ومن هنا إلى التأكيد أنّ الأبنيّة التي شُيِّدت على تلك الأراضي كانت تقوم مقام الكنائس، هناك خطوة لا يمكننا أن نخطوَها إلّا ببراهين قاطعة، خطّيّة أو أثريّة. والحال أنّ تلك البراهين ليست كثيرة.

هندسيًّا، كانت الباسيليكات عبارةً عن قاعة مستطيلة كبرى، ينتهي أحد أطرافها بقَبا نصفِ دائريّ. وليس ذٰلك التصميم ابتكارًا مسيحيًّا، إذ إنّنا نجد مثالًا مصغَّرًا له في «منزل أوغسطس» الذي ما زال قائمًا على تلّة پَلاتِينا في رومة.

وكلمة باسيليكا كلمة يونانيّة مشتقّة من بازِيلُوس Basileus التي تعني «الربّ». فبكلام آخر، يشبه تصميم

الباسيليكا تصميم قاعة كبرى مخصَّصة للجلسات العامّة، وموضوعة خصوصًا للقضاء. فكان الملك يجلس في آخر القاعة، وسط نصف الدائرة، مع وزرائه ومستشاريه المحيطين به في شكل نصف دائرة. وفي العصر المسيحيّ، كان الأسقف يجلس في المكان نفسه، ويتحدّث «من على كرسيّه» (ex cathedra)، ومن هنا اسم الكاتدرائيّة (أو الكنيسة الأسقفيّة).

لم تكن الباسيليكات مقبّبة، بل كانت مغطّاة ببنى خشبيّة فقط. فكان عرض القاعة تُحدِّده أحجام العوارض المتوافرة. ومع ذٰلك، كان يمكن تكبير المبنى بصحنين جانبيَّين أو بأربعة صحون أحيانًا.

وكان المذبح يوضع عامةً في وسط القبا. وفي ما بعد، رُفِع أحيانًا، لأنّه، حين نُقِلت أجساد الشهداء إلى الباسيليكات، إعتبارًا من القرن الثالث، وأرادوا أن يُرسوا الكنيسة كلَّها على ذخائرهم، حفروا في مساحة نصف الدائرة نوعًا من المعابد نصف المطمورة وضعوا فيها أجساد القدّيسين. وبفضل «نافذة» مخرَّمة يستطيع المؤمنون أن «يتمشّوا» حولها، بقيت القبور المكرَّمة ظاهرة. وفوق تلك النافذة، وضِع المذبح. وعلى سبيل المثال، ما زال هٰذا النوع من الأبنية، وهو يُدعى «الاعتراف»، قائمًا في كنيسة القدّيس كريزُوغُون.

كيف كانت زخرفة تلك الكنائس القسطنطينيّة؟

من الداخل، كانت مزّينةً بفسيفساء فخمة. ويبدو أنّها كانت تفضِّل موضوع انتصار المسيح، مصوِّرةً إيّاه على طريقة انتصار الأباطرة، محاطين بأصحاب المراتب الرفيعة. ومن الراجح أنّ هٰذا النوع من الزخرفة كان النوع الذي يذكِّر المسيحيّين، على أفضل وجه، بالنصر الذي أحرزته الكنيسة مؤخّرًا. أوَلَم يَهزم قسطنطين، وهو أوّل إمبراطور جذبته المسيحيّة إليها، خصمَه مكسانسيوس، قبل ذلك بقليل، على جسر مِلْفِيوس في ٣١٣؟

لٰكنّ زخرفة الباسيليكات الأُوَل لم تكن انتصاريّةً وحَسْب، بل نرى هناك مشاهد من حياة المسيح أو مواضيع مثاليّة بمغزاها اللاهوتيّ تزيِّن الجدران أيضًا: كالمسيح الذي يعطي الشريعة الجديدة لبطرس (Legis traditio) في مقابل إعطاء الشريعة القديمة لموسى (ضريح القدّيسة كونستانسيا)، والمسيح الذي يعلِّم بين رسله (كنيسة القدّيس أَكْويلِينُس الصغيرة في ميلانو)، والصعود، والعنصرة، ومجيء المسيح الثاني، إلخ، حتى إنّه أُثبِتَت فكرة تقول بأنّ المواضيع التي تزيِّن «المصابيح» المحفوظة في مُنْزا تصوِّر بإيجاز فسيفساء الباسيليكات في الأماكن المقدَّسة. وهٰذه المصابيح عبارة عن قوارير من فضّة كان يعود بها الحجّاج، وهي تحتوي زيتًا يحترق في قناديل المعابد في الأرض المقدَّسة، كما يَحصل اليومَ تقريبًا حين يَعُود الحجّاج من لورد أو لِيزِيُو وهم يحملون أشياء صغيرة تذكِّرهم زخرفتُها بأحد المشاهد الطبيعيّة أو الأماكن الخاصّة أو الكاتدرائيّات... وكان ذٰلك طريقة تذكِّرهم بسَفَرٍ اعتُبِر، في ذٰلك العصر، ولا شكّ، حدثَ الحياة كلِّها. والحال أنّ تزيين تلك «المصابيح» كان يصوِّر بعض الرسوم ذات الثبات المدهِش، كالصعود والعنصرة والمجيء الثاني، مجموعةً معًا، والعذراءِ والطفل، وعدمِ إيمان توما، الخ.

خِتامًا، فإنّ لدينا، رغم كلّ شيء، عدد لا بأس به من المعلومات التي تمكّننا من أن نستشفّ نموذج التزيين المتَّبع في الباسيليكات الأُولى. وفي حين كان كلّ شيء مركّزًا على العماد في القرن الثالث، تمّ التشديد في القرن الرابع على تعليم الكنيسة المنظَّم وعلى انتصارها. وكانت أُبَّهة البلاط الإمبراطوريّ تُستخدَم بوجهٍ خاصّ كنموذج للاحتفال بانتصار المسيح وكنيسته.

الفصل الخامس عشر

القدّيس أوغسطينُس

بقلم أندرِه مَنْدُوز(*)



القدّيس أوغسطينس

إذا كان ثمّة قدّيس استهوى كاتبِي السِيَر، فهو القدّيس أوغسطينُس ولٰكنّنا نضيف: يا للأسف! لأنّهم أعادوا إلينا، في معظم الأحيان، لا حياته أو شخصيّته، بل بالأحرى هٰذه أو تلك من الصور المشوّهة التي ولّدتها التقوى الجاهلة والرغبةُ في الحثّ على الفضيلة. صحيحٌ أن أوغسطينُس ليس بريئًا على وجهٍ كامل من تلك المصائب التي غالبًا ما تكرّرت، لأنّه ترك وراءَه أغرب دفترِ صُوَر عائليّ، وهٰذا الدفتر الذي هو، ولا شك، أحد أكثر الكتب مبيعًا في الأدب العالميّ، يُدعى **الاعترافات**. ولعلّ أوغسطينس شعر، بعد فوات الأوان، بأنّ كتابه قد يُستعمل استعمالًا سيئًا، فإذ كان يخاطب الله - كما دأَبَ عليه منذ بداية مؤلَّفه - تنبَّه في الباب العاشر من الكتاب - الذي يضمّ ثلاثة عشر بابًا - وطرح السؤال التالي: «لماذا يسعى الناس لأن يسمعوا منّي ما أنا عليه، مع أنّهم لا يريدون أن يسمعوا منك ما هم عليه؟ ومِن أي يعرفون، إذا سمعوني أتحدَّث أنا نفسي عن نفسي، أنّني أقول الحقّ. . .؟»

ما أسعدها مناسبةً للذين يضعون سِيرَة هٰذا القدّيس، فالفرصة متاحة أمامهم «ليرتّبوا» على طريقتهم شهادةَ البطل، ويراهنوا على جوادين معًا فيتوجّهوا إلى جمهورين ويجمعوا في الحالة الخاصّة الواحدة لا بين الوثنيّة والمسيحيّة وحَسْب، بل حتّى بين الجنس والقداسة! فليعذرنا القارئ إنْ فضّلنا، من جهتنا، على الطابع القصصي، دقَّة الخطوط العريضة التي اتّسمت بها حياةٌ بدأت في ١٣ تشرين الثاني (نوڤمبر) ٣٥٤ وانتهت في ٢٨ آب (أغسطس) ٤٣٠.

اهتداء متأخِّر

ما من شيء أصحّ من أن نرى في القدّيس أوغسطينُس مثال «المهتدي». ولٰكن لا يجوز أن نتصوّره آتيًا من وثنيّةٍ طائفيّةٍ في جوهرها ولها مظهر عدائيّ. فعلى حدود الجزائر وتونس الحاليّتين، حيث

(*) André Mandouze.

دارت أبرز أحداث حياة أوغسطينُس، عمل التطوُّر الدينيّ، منذ أيّام قسطنطين، على زيادة انتشار مسيحيّة ازدهرت منذ نهاية القرن الثاني، وتقوّت جدًّا في أثناء الاضطهادات التي شنَّها داقيوس وڤاليريانُس وديوقليتيانُس. ومن الراجح أنّ أوغسطينُس كان من دمٍ مختلَط يستحيل فيه تقدير نسبة ما هو رومانيّ أو فُونِيّ أو بربريّ، ولا شكّ في أنّه وُلد من «زواج مختلَط». ولٰكنّ الديناميّة كانت بالتأكيد من جهة أمّه المسيحيّة التقيّة مُونِيكا، ولا من جهة زوجها الوثنيّ پَتْرِيقِيُوس، ولقد اهتدى هو أيضًا في نهاية حياته.

وبعبارة أُخرى، إذا أُجِّل عمادُ أوغسطينُس لأكثر من اثنين وثلاثين عامًا، فلم يكن ذٰلك لأنّه كان من أنصار الآلهة التقليديّة في الوثنيّة الرومانيّة أو الأفريقيّة، بل لأسباب هي أكثر قربًا منّا بكثير. فإنّ «وثنيّة» أوغسطينُس الأُولى تدلّ في الوقت نفسه - وفي حالاتٍ نفسيّةٍ مختلفة - على إغراءٍ ومعارضة.

إغراء شعر أوغسطينُس بأنّه يشدّه إلى الحياة بكلّ مظاهرها، وقد قال لنا «كنتُ أُحِبّ أن أُحِبّ»، ليُشعرنا بتلك الرغبة الشديدة في الحياة التي اجتاحته حين نزل إلى قرطاجة، وهو في السابعة عشرة، ليحصّل علومه فيها. إغراء مارسَتْه المرأةُ ولا شكّ، بل الثقافة أيضًا والكُتُب والمسرح. إغراء مارسه أساتذةُ الفلسفة القديمة والفلكيّون على السواء. . .

ومعارضة أيضًا. معارضةٌ واجه بها ديانةَ أُمّه التي اعتبرها «حكايات امرأة بسيطة ومسنّة» (والتعبير مُقتبَس منه). معارضة واجه بها المحاولات اللبقة اليائسة التي قامت بها مونيكا لتحمل هٰذا الإكليريكيّ أو ذاك من أصدقائها على التأثير في ابنها. معارضة واجه بها محاولةً أُخرى نجحت لتعميد أحد أعزّ أصدقاء أوغسطينُس على فراش الموت. وأخيرًا، معارضة واجه بها الابنُ، «الذي يبحث»، أمّا ذات إيمان مستعِدٍّ للتساهل لتوفّق، شرطَ أن يُعقد زواجٌ «قانونيّ»، بين مهنة أستاذٍ لامعة ونداءٍ لا يقاوَم وجّهَهُ المسيحُ ذات يوم إلى الشابّ الغنيّ.

إيّانا أن نضخّم «خطايا الصبا» التي ارتكبها أوغسطينُس، جاعلين منه ذٰلك الوحش الشهوانيّ، الذي ندّد به أسقُف هِيپّونة الجديد، حين كتب **الاعترافات**، بعد مرور عشر سنوات على اهتدائه. ولا يجوز أن ننفعل، إن لامَ ذٰلك الفتى نفسَه لأنّه سرق مع رفقائه، وهو في السادسة عشرة، إجاصًا من بستان جاره. فإنّي أرى في ذٰلك، على العكس، برهانًا مُطمَئِنًا على أنّ ذٰلك الولد العبقريّ كان صبيًّا، «مثل سائر الصبيان». فلنسمعه بالأحرى يقول: «. . . بغياب ما أَستندُ إليه لأتمكّن من أن أساوي نفسي بأشدّ الرفاق فسادًا، كنتُ أتظاهر بإتيان ما لم آتِه أصلًا، خشيةَ أن أَظهر حقيرًا بقدر ما كنت بالفعل بريئًا، وأن يَعُدّني الناسُ رذيلًا بقدر ما كنتُ بالفعل عفيفًا». وهٰذا ما يمكّننا من أن نردّ «اعترافًا» آخر أَدلى به أوغسطينُس، في الإطار نفسه، إلى حجمه الحقيقيّ: «وعلى دفعات، راحت تتصاعد فيَّ الرغبة في إشباع عالم مراهقتي بأفراح جهنّميّة ولم أكن أرفض وفرة الملذّات المتبدّلة والمظّلمة على حدٍّ سواء».

وإذا صحّ أنّ أوغسطينس لم يكن قبل اهتدائه مثالًا في الفضيلة، فلا يجوز مع ذٰلك أن نجعل منه إنسانًا فاسدًا. فلقد سارع الطالب، على العكس، وهو ما زال صغير السنّ، إلى الارتباط بامرأة نجهل اسمها وَلَدت له ابنًا دعاه أَدِيُوداتس (Adeodatus). إنّ كاتبِي السِيَر الذين تحدّثوا عنها وكأنّهم يتحدّثون عن مجرّد عشيقة، يُظهِرون فقط بذٰلك جهلَهم لذٰلك النظام الذي كان القانون الرومانيّ يعترف به وهو «الاستسرار». وإذا كان أصلها، على ما يبدو، أوضع من أن تَسمح بنيةُ المجتمع الرومانيّ الأرستقراطيّة بعقد زواج حقيقيّ، فإنّ ذٰلك لم يمنع أوغسطينس من أن يتصرّف معها، لنحو عشر سنوات أمضياها معًا، كزوجٍ في غاية الأمانة. ولٰكنّ مونيكا كانت تسهر، متمسّكة بالحصول على طالبة زواج ممتازة لابنها. فرضي عن جبن أن ينفصل عن رفيقته الأُولى، ولمّا لم تكن «الموعودة» قد بلغَتْ سنّ الزواج، «اتّخذ امرأةً أُخرى». وكان ذٰلك استراحةً قصيرة جدًّا: فإنّ الأمر الوحيد الذي لم تحسب له مونيكا حسابًا هو أنّ أوغسطينُس لم يعد قادرًا على

العيش في العالم، بعد أن حُرم المرأة الوحيدة التي أحبّها حبًّا حقيقيًّا. ولم يكن ممكنًا إلّا أن يكون اهتداؤه، الذي تأخّر كثيرًا، تكريسَ حياته لله.

طريق مِيلانُو

في الواقع، لم تكن عذابات الروح عند أوغسطينس أقلُّ بلبلةً من عذابات اللّحم والدم. فإنّ حدّة ذكائه لا يضاهيها إلّا حدّة إحساسه. ولم يكن قد بلغ العشرين من عمره، حين كانت حاجته إلى الحقيقة شاملة.

وإذا كان قد انخرط، منذ البدء، في الشيعة المانويّة، فلأنّه استشفّ عند أنصارها رغبةً شديدة في الكمال، ولأنّ الطريقة المتّبَعة عندهم للوصول إلى الكمال تزعم أنّها مستمدَّة من العلم، لا من الإيمان. وكان الكلام يدور فيها على ذلك المسيح الذي لم يزل ذكره يستحوذ على فكره، ولكن يبدو أنّ الوصول إليه ممكن بطريقة أخرى تختلف عن ديانة مونيكا.

ولمدّة عشر سنوات - وهي المدّة التي قضاها مع المرأة - جدَّ في ذلك السبيل. وكان يشعر فيه تارةً بأنّه مبرَّر بتأكيدِ وجود مبدإٍ شرٍّ يبرّئه من نقائصه الشخصيّة، وطورًا بأنّه محتار بسبب الحدود التي يفرضها ذلك الشرّ على الله الذي لا يعود إلٰهًا بوجهٍ تامّ إن لم يكن كلّيَّ القدرة.

وكان الأمل الوحيد في التغلّب على تلك الصعوبات يكمن في لقائه - الذي طالما انتظره - مع المانويّ الشهير فَوسْتُس. ولكنّ أمله خاب خيبةً مريرة. ومع دنوّ أوغسطينُس من سنّ الثلاثين، كان على حافَة اليأس، فغادر أفريقيا متوجّهًا إلى رومة. وبعد مرور سنة، وجد نفسه - وهو على حافَة الشكّ هٰذه المرّة - في مِيلانو.

وكانت ميلانو في ذلك الوقت مقرًّا للإمبراطور ومكانًا للبلاط الإمبراطوريّ. وإذا حاز أوغسطينُس فيها تعيينًا مشرِّفًا «بصفة أستاذ في البلاغة»، فكان ذلك بفضل سِمّاخُس، ممثّل التقليد الوثنيّ العريق وحاكم المدينة، وقد حاول، في تلك السنة ٣٨٤، أن يُعيد مذبح النصر إلى قاعة جلسات مجلس الشيوخ الرومانيّ. ولكنّه لم يتوصّل إلى ذلك، إذ تصدّى له أمبرُوسيوس، وهو حاكم سابق على مقاطعة إميليا - لِيغُوريا، أوصلته إلى الأسقفيّة هتافاتُ شعبِ ميلانو منذ عشر سنوات. وكان لقاء أوغسطينُس وأمبروسيوس لقاءً حاسمًا. لا لأنّ أوغسطينس أقام مع الأسقف اللامع علاقات يمكننا أن نَصِفها بأنّها كانت حميمة. فهو لم يكن في آخر الأمر سوى ريفيّ بسيط، في حين كان أمبروسيوس يتعامل في الواقع تعامُلَ النِدّ للندّ مع أعضاء العائلة الإمبراطوريّة من جهة، ومع البابا من جهةٍ أُخرى، علمًا بأن البابا الذي نتحدّث عنه هو البابا داماسيوس ذو الشخصيّة القويّة.

وكان اللقاء بين أوغسطينس وأمبروسيوس أوّلًا لقاءً غير مباشر، ومهنيًّا إلى حدٍّ ما. فكثيرًا ما أشاد الناس أمامه بفصاحة أمبروسيوس، والفصاحة هي مهنة أوغسطينُس، يمارسها ويعلّمها. وكانت أفضل طريقة للتحقّق من صحّة ما يُشاع عن أمبروسيوس في هٰذا المجال أن يتوجّه إلى الكاتدرائيّة لسماع مواعظه. وقد روى قائلًا: «كنتُ مواظبًا على حضور تعاليمه العامّة، ولٰكنّي لم أستعدّ لها كما يجب... وكانت صيغةُ خطابه تلفت انتباهي، أمّا جوهره فكان يثير، لا فضولي، بل احتقاري».

والواقع هو أنّ أمبروسيوس، رغم تقصيره في الوسائل المستعملة، خرج منتصرًا من الصراع الذي واجهه، بدون علمه، مع فَوسْتُس. فقد جاء أوغسطينُس ليسمع محترفًا في الخطابة، فاستماله رجل ماهر في ما نسمّيه التفسير الروحيّ. ويتابع أوغسطينُس قائلًا: «أدركتُ في بدء الأمر أنّ أفكار أمبروسيوس مقبولة في حدّ ذاتها، وغيّرتُ رأيي في الإيمان الكاثوليكيّ: فمِن عاجزٍ عن ردّ انتقادات المانويّين القهّارة، أصبحتُ اليومَ قويًّا، ولا سيّما بعد أن سمعتُه يشرح شرحًا تمثيليًّا بضعة مقاطع من العهد القديم حيث كنتُ أُضني نفسي بشرحها حرفيًّا. وما إنْ شَرح عدّة نصوص شرحًا روحيًّا حتّى شعرت بأنّي أستنكر فتور همّتي الماضي...»

الحقيقة أنّ تعليم أمبروسيوس - بحسب ما اكتُشف مؤخّرًا - وَضَع في خدمة الكتاب المقدَّس سلسلةً كاملة من المفاهيم التي أَلِفَها أوغسطينُس، فكان يوفّق بين المسيحيّة والفلسفة من دون مجهود يُذكَر. فأفلوطين اليونانيّ وشَيْشَرون اللاتينيّ كانا يتناوبان، وبفضل هٰذا، أصبحت قراءة الكتاب المقدّس ممكنة.

لا ندخل هنا في تفاصيل المسيرة الباطنيّة التي سار عليها أوغسطينُس آنذاك، واللقاءات التي قام بها والتي تكمِّل تردُّده على أمبروسيوس. وقد انكبَّ بشغف على قراءة رسائل القدّيس بولس وما كتبه القدّيس يوحنّا، حتّى ذٰلك اليوم الشهير حيث كان في حديقة منزله في ميلانو، وفَهِمَ، بعد اضطراباتٍ رهيبة، وعلى غرار ما حصل في السابق للقدّيس أنطونيوس، أنّ ما من شيء يمكنه أن يُرْوي غليلَه إلّا التخلّي عن كلِّ شيء من أجل المسيح...

أسقف رغمًا عنه

من هنا نرى ما أشدَّ الخطر الذي نقع فيه بتحويل «الاهتداء» إلى معجزة، في حين أنّ حادث الحديقة الشهير لم يأتِ إلّا في نهاية تطوُّر بطيء وأليم جدًّا. ولٰكن سرعان ما نُدرِك أنّنا نضع الأمور في غير محلّها، إن استنتجنا منطقيًّا من ذٰلك «الاهتداء» كلَّ ما يليه. فإنّ جلّ ما نستطيع أن نقوله هو أنّ العناية الإلٰهيّة - وهي دائمًا في منتهى الغرابة - ظلّت، على العكس، ترشد أوغسطينس، طوال القسم الثاني من حياته، إلى حيث لم يكن يرغب في الذهاب.

فبعد أن ترك أوغسطينُس مهنة الخطابة التي كان يمارسها، وبعد أن قام مع عائلته وبعض الأصدقاء برياضةٍ فكريّة وروحيّة دامت نحو ستّة أشهر في كَسِّيسِياكُم، اعتمد عن يد أمبروسيوس سنة ٣٨٧، هو وابنه أدِيُوداتُس وصديقه أَلِيبِيُوس، ليلةَ عيد الفصح على الأرجح.

أمّا بقيّة المسار فكانت على النحو التالي: أوستيا، حيث شاركت مونيكا ابنَها، قبل موتها بقليل، في انجذاب رائع. وروما، حيث افتتح المانويُّ السابق بمؤلّفين ذٰلك الجدال الطويل الذي استمرّ في ما بعد مع أصدقائه السابقين. وقرطاجة، حيث انهال عليه، ولا شكّ، سيل من الذكريات أوفر من أن يقدر أحد الأصدقاء الذين التقاهم على أن يقنعه بالبقاء فيها طويلًا. وتاغَستا، مسقط رأسه، وهي سوق أهراس الحاليّة، التي قرّر أن يقيم فيها، لينشئ، مع أصدقائه الذين يراودهم الحلم نفسه، نوعًا من كَسّيسياكم دائم ونهائيّ. ولٰكن، إليك ما يرويه لنا بُوسِيدِيُوس الأمين، وهو أوّل من كتب سيرة أوغسطينُس:

«في الوقت (الذي كان أوغسطينس متوجِّهًا فيه إلى هيبّونة ليزور أحد أصدقائه لتشجيعه في الطريق الروحيّة)، كانت الكنيسة الكاثوليكيّة في هيبّونة في يد الأسقف القدّيس ڤالِيرِيُوس. وكان (هذا الحبر) يحدّث الشعبَ المسيحيّ ذات يوم، بكثير من الاقتناع، عن حاجة الكنيسة المحلّيّة الملحَّة إلى رسامة كاهن. غير أنّ الكاثوليك كانوا يعرفون القانون الذي اتّبعه أوغسطينُس والتعليمَ الذي اتّخذه لنفسه، فأمسكوه مستفيدين من وجوده الهادئ في وسط الجمع، من دون أن يرتاب بما كان سيحصل... فتحقّقوا من شخصه، وكما هي العادة في مثل هٰذه الحالات، ذهبوا به إلى الأسقف ليرسمه... ولٰكنّه كان يذرف دموعًا غزيرة... وإذا كان يئنّ، فلأنّه شعر مسبقًا بالأخطار الجسيمة والكثيرة التي ستثقل كاهله من جرّاء قيادة الكنيسة وإدارة شؤونها... وأخيرًا، حصل المؤمنون على ما أرادوه ورأوا أمنيتهم وقد تحقَّقت».

والرواية التي ذكرها أوغسطينُس نفسه عن الحادثة هي أكثر إيحاءً. كتب: «لقد أَجبروني... وقدِمتُ إلى هٰذه المدينة (هيبّونة) لأرى صديقًا... فقبضوا عليّ، ورُسِمتُ كاهنًا، وقادني ذٰلك في آخِر الأمر إلى الأسقفيّة».

في ذٰلك العصر، يظهر أنّ طرق الربّ كانت تمرّ بسبل لم يكن فيها أيّ شيء من البيرُقراطيّة، وكان

صوت الشعب يُعتَبَر حرفيًّا صوتَ الله، حتّى لو أدّى ذٰلك إلى إزعاج... الشخص المعنيّ بعض الشيء، سواء أكان اسمه أمبروسيوس في ميلانو أم أوغسطينُس في هيپّونة.

مهنة مستحيلة

إيّانا أن نتصوَّر أوغسطينُس مقيمًا في قصر أسقفيّ. فإنّ الأسقف، في نهاية القرن الرابع، والأسقف الإفريقيّ بوجهٍ خاصّ، كان رجلًا لا تختلف مسؤوليّاته ونشاطاته عن تلك التي يقوم بها حاليًّا كاهن برتبة خورأسقف (ففي السنة ٤١١ - أُحصي في المنطقة التي تغطّي اليوم تونس والجزائر - أكثر من مائتين وخمسين أسقفًا كاثوليكيًّا، وعدد مماثل من الأساقفة في الكنيسة المنشقّة التي تُدعى الكنيسة الدوناطيّة!).

وفي إحدى تلك الجماعات، وحجمها محدود حتمًا، لا يصعب علينا أن نتصوَّر ما أشدَّ القوّة التي يستمدّها رجل كأوغسطينُس من أمرِ وَضْعِه على رأس الخليّة الكنسية هٰذه من قِبَل أعضائها أنفسِهم.

ولٰكنّها كانت قوّة معتدلة، لأنّ مسيحيّي هيپّونة لم يتنازلوا نهائيًّا عن سلطتهم. بل كانوا، على العكس، في أمسّ الحاجة إلى أسقفهم بحيث إنّهم لم يدَعوه يتصرَّف على هواه! وحين كان يغيب ليعظ في مكان آخر أو ليشارك في مجمع، أو حتّى ليرتاح فقط، كان عليه أن يطلعهم على ما فعل. ولدينا رسائل تشهد على ذٰلك. وإن رأى أوغسطينُس نفسَه مرهقًا من كثرة العمل، كان يستأذن عند الحاجة ويحصل من رعاياه على التزام خطّيّ بأن يُترَك له الوقت الكافي من الأسبوع ليُنهيَ المؤلّفات اللاهوتيّة الكبرى التي باشر وضعها - كالمقالة **في الثالوث** أو **مدينة الله** - التي كان يسعى عبثًا لإنهائها منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة. ولٰكن عبثًا: فإنّ الاتّفاق السابق كان يُنقض باستمرار، ودائمًا على حساب الأسقف الذي أنهكته وظيفته. وكثيرًا ما كان يتنهّد قائلًا: «إنّ الأسقفيّة لَحملٌ ثقيل» مشبِّهًا إيّاها بالأمتعة التي كان الجنديّ يحملها معه دائمًا.

ذٰلك بأنّه كان لا بدّ من القيام بكلّ شيء، وأوّلًا بترؤُّس الليترجية، علمًا بأنّ العظة - وهي ملقاة بوجهٍ خاصّ على عاتق الأسقف - لا تُنجَز في بضع دقائق، بل قد تدوم أكثر بكثير من ساعة، إن نظرنا إلى طول بعض المواعظ التي وصلت إلينا. ومع ذٰلك، كان من المفروض على الأسقف أن يهتمّ بحياة المؤمنين كلّها وحتّى بحياة غير المؤمنين، إذ إنّ هناك عددًا كبيرًا من الفقراء يجب إغاثتهم وعددًا كبيرًا من النزاعات المحلّيّة يجب تسويتها، لا بين الأزواج ونسائهم أو بين الأولاد وذويهم فحَسْب، بل بين الجيران أيضًا وبين الوثنيّين والمسيحيّين، الخ. لأنّه، إذا أُقِرّ للأسقف بسلطةٍ قضائيّة، فلا يمكنه أن يتهرَّب من ممارستها.

وفي بعض الأحيان كانت أصوات المعارضة تدوّي، وكان لا بدّ من مواجهتها. ففي مطلع خدمة أوغسطينُس الكهنوتيّة، وجب عليه أن يواجه لمدّة ثلاثة أيّام «أبناء رعيَّته» الثائرين على منعهم إيّاهم من أن... يسكروا في الكنيسة إكرامًا للقدّيس لِيُونتِيُوس، بعد أن تعوَّدوا الاحتفال بعيده على هٰذا النحو. وفي السنة ٤١١، وجد نفسه في حاجة إلى لباقة فائقة لكي يتجنَّب أن يتعرّض صديقُه اليِپيُوس، أسقف تاغستا، في قلب الكنيسة، لمضايقات وخصومات إثر الاشتباه بأنّه أراد أن يحتفظ لأبرشيّته برجل ثريّ جدًّا يدعى پِنْيانُس، كان متزوِّجًا فلم يفكِّر بالكهنوت على الإطلاق، فسرَتْ أخبار تقول إنّه إذا ما وافق على أن يصبح كاهنًا، فتستفيد كنيسة تاغستا من أمواله! فكما نلاحظه، لم تكن الدوافع سليمةً دائمًا، ولٰكنّ البؤس أيضًا كان منتشرًا، حتى إنّ أوغسطينُس اضطرّ، في مثل تلك الحالة، وبدعوةٍ من أمبروسيوس، إلى تذويب الأواني المقدَّسة من أجل مساعدة المحتاجين. ويضيف النصّ باختصار أنّ ذٰلك لم يرُق الجميع. ويمكننا أن نثق بأوغسطينُس: فقد كان أقوى من أن يؤثِّر فيه بعض المتطرِّفين في عصره.

وإذا كان يردِّد باستمرار أنّ الأسقف جُعِل ليخدم الشعب الذي أُوكل إليه، لا ليتسلَّط عليه، فإن الظروف نفسَها التي جعلت منه مختارَ ذٰلك الشعب منحته سلطةً

لا يمكن أيّ أسقف حاليّ أن يطمح إليها. وبوسعنا أن نطّلع على ذلك من خلال ما ورد في عظتين ألقاهما في نهاية خدمته، حيث ذكّر فيهما العلمانيّين بأنّه يجدر بهم أن يساهموا في العمل بدلًا من أن يغتابوا الإكليرس، كما ذكّر الإكليريكيّين أيضًا بأنّهم إذا ما خالفوا نذر الفقر الذي جدّدوه لتوّهم بكلّ حريّة، يمكنهم أن يذهبوا إلى رومة ليشتكوا: فإنّ أوغسطينُس لن يقبلهم مرّةً أُخرى في عداد الإكليرس.

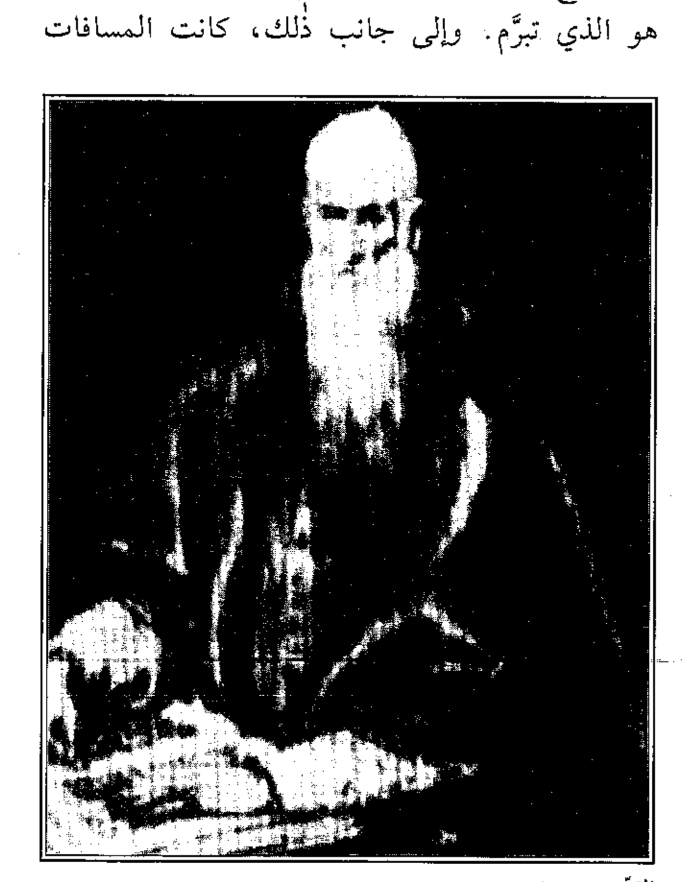
خلاف هيرونيمُس وأوغسطينُس

كان أوغسطينُس رجلًا حازمًا لا يعرف التهاون. ومع أنّه كان قدّيسًا (ولأنّه كان قدّيسًا)، فلا شكّ في أنّه كان مزعجًا لمن اختلفَ عنه في نهج القداسة. والدليل على ذلك خلافه مع القدّيس هِيرُونيمُس.

وفي الواقع، كان الرجلان مختلفين بالقدر الذي يمكن أن نتصوّره. كان في وسعهما أن يلتقيا في أثناء إقامة أوغسطينُس الأُولى في رومة. ولكن يبدو أنّ الإفريقيّ الواصل حديثًا اعتقد بأنّ هيرونيمُس بعيدُ المنال أكثر ممّا سيكون عليه أمبروسيوس نفسه في السنة التالية، وعلى الأقلّ حتّى وفاة البابا داماسِيوس في ١١ كانون الأوّل (ديسمبر) ٣٨٤. ففي تلك المدّة بالذات تقرّر مصير هيرونيمُس.

فبعد أن كان هيرونيمُس أمين سرّ داماسِيوس ومرشدًا روحيًّا لعدد من سيّدات أڤِنْتِينُو الراقيات، إذا بخصومه يتهجّمون عليه عند وفاة حاميه بسبب ما اعتبروه إفراطًا في ترويض النفس وبسبب لذعة لسانه على ما يبدو، فإنّه لم يوفّر أخصامه. وللمرّة الثانية، سافر هيرونيمُس إلى الشرق، لا ليحاول أن يعيش منعزلًا في الصحراء، بل ليؤسّس في بيت لحم ديرًا، أو ديرَين بالأحرى، في ختام زيارة حجّ طويل إلى الأماكن المقدّسة. وهناك عمل هيرونيمُس، بفضل مجهود جبّار، لا على إعداد شروحه الكتابيّة البارعة فقط، بل على إنجاز ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغة اللاتينيّة، وهي ترجمة استُعمِلت من بعده طوال خمسة عشر قرنًا من عمر المسيحيّة باسم «الترجمة الشائعة» (Vulgate).

أمّا أوغسطينُس - الكثير الجرأة في مجالٍ لاهوتيّ لم يكن من اختصاص هيرونيمُس - فبادر إلى إظهار تحفُّظه حيال مشروعٍ قد يؤدّي، بحسب رأيه، إلى إعادة التقليد الكتابيّ إلى بساط البحث. فلنقل صراحةً في هذا الموضوع إنّ هيرونيمُس هو الذي جدَّد وإنّ أوغسطينُس هو الذي تبرّم. وإلى جانب ذلك، كانت المسافات



القدّيس هيرونيمس

بعيدةً جدًّا بين هِيپُّونة وبيت لحم، فحين كانوا يكلّفون رسولًا بنقل المراسلات، لم يكن أكيدًا أنّه لن يسعى في الطريق لأن يُطلع على مضمون الرسائل، الموجَّهةِ من رجل عظيم، رجلًا عظيمًا آخر. وهٰذا ما حصل للرسائل التي بعث بها أسقف هيپّونة إلى راهب بيت لحم، وقد علم هٰذا - بعد مرور عدّة سنوات على كتابة الرسالة - أنّه طاب للناس طوال الطريق أن يعلّقوا على «مظاهر الحفاوة» الغريبة الموجّهة إليه والتي كان... آخرَ من تلقّاها.

ومن هنا، برزت، بين «عمودَي الكنيسة» الجديدَين، قضيّةُ أنطاكية التي سبق أن اختلف حولها العمودان السابقان بطرس وبولس. ولمّا كان أوغسطينُس لا يهادن في موضوع الكذب، فقد اتّهم هيرونيمُس، من جملة ما اتّهمَه به، بأنّه من أنصار «الكذب من أجل الخير»، في حين تذمّر هِيرونيمُس بشدّة من عيوب مَن هو أصغر سنًّا منه ومن وقاحته.

وكما يجري دائمًا في هٰذه الأحوال، أدّت المصائب المشتركة إلى تحقيق المصالحة. فقد تحوَّل هيرونيمُس بحزم من أوريجانيس والأوريجانيسيّين، ووجد نفسه، دفعةً واحدة، على اتّفاق مع أوغسطينُس، فضلًا عن أنّ پيلاجِيوس وقِلِسْتيوس أَمِلا، في الصراع الذي قام حول حرّيّة الاختيار والنعمة، أن يتمكّنا من إثارة الشرق على الغرب والعكس بالعكس. وهٰذا ما أدّى إلى تثبيت المصالحة بين بطلَي الإيمان القويم للردّ على «أعداء النعمة».

البطل

ليست كلمة «بطل» الواردة هنا صورةً مبتذلة، بل هي تعبّر تمامًا عن المآثر التي اضطرّ رجلٌ كأوغسطينُس إلى تحقيقها طوال حياته، ولا سيّما في محاربة البِدَع على الصعيد اللاهوتيّ وقد شنّ أوغسطينُس على المانويّة أوّلًا، ثمّ على الدُوناطِيّة، وأخيرًا على اليِلاجِيّة، حربًا قلّما نتصوَّر ضراوتها في أيّامنا.

ولكي نفهم مثلًا عنفَ الصراع الضاري الذي كان على أوغسطينُس أن يخوضه - معرِّضًا حياته أحيانًا للخطر - أو أن يشنّه هو نفسه باستبسال على الدوناطِيّين، فلا بدّ لنا من العودة قرنًا إلى الوراء حيث انقسمت الكنيسة الإفريقيّة إلى قسمَين بسبب تبادل تهمة «الخيانة» بين إكليرس نُومِيدِية وإكليرس قرطاجة. وكانت «الخيانة» تعني تسليم الكُتُب المقدّسة وأموال الكنيسة إلى الموظّفين الوثنيّين الذين كلّفهم ديوقليتيانُس بالقمع. وقد وقعت تلك الأحداث منذ أمد بعيد حتى إنّه لم يعد يُعرف بالضبط كيف جرت الأمور. فكان ذٰلك سببًا إضافيًّا لتبادل الاتّهامات جُزافًا.

يُشتقّ اسم الانشقاق من دوناطُس أسقف منطقة الأكواخ السوداء (في نوميديا) أو إلى دوناطُس الكبير. وهل وجود شخصين يحملانَ هٰذا الاسم أمر أكيد؟ لم يكن ذٰلك معلومًا بالضبط، ولٰكنّ الأكيد هو قيام خلاف تامّ حول النظام الأسراريّ. ففي نظر الدوناطيّين، كانت صحّة الأسرار مرتبطة بصفة «الخادم»: من هنا ضرورة إعادة منح العماد لمسيحيٍّ سبق له أن اعتمد عن يد كاهن رسمه أحد المتحدِّرين من «الخونة». أمّا الكاثوليك (الذين توصّلوا إلى أن يستميلوا إليهم، خلافًا لأيّ احتمال، القدّيسَ قِبريانُس، في حين لم يكن غريبًا قطّ عن جوهر الصراع)، فقد اعتبروا أنّه لا يجوز على الإطلاق إعادة منح العماد، حتّى ولو كان «خادم» السرّ منشقًّا، أو غير أهل، لسببٍ من الأسباب.

والحال أنّ أوغسطينُس، حين أصبح أسقفًا على هِيپّونة، تسلّم المسؤوليّة عن كنيسة كاثوليكيّة هي الأقلّيّة، والزمن الذي امتنع فيه الخبّاز عن توفير الخبز للكاثوليك لم يكن بعيدًا. وكانت الأجواء أجواء حربٍ دينيّة، يعزِّزها أحيانًا اللجوء إلى عصابات يصعب ضبطها «كالجوّالين حول الإهراءات»(١) المتحالفين مع الدوناطيّين تبادلوا الاتّهامات حول هٰذا الأمر ولٰكنّهم قاموا به كلَّ مرّةٍ ناسَبهم ذٰلك. وباختصار، تباروا في القتل وألقى بعضهم بعضًا من النوافذ، ومزجوا الخلّ بالكلس ليزدادوا نجاحًا في إعماء الخصم. هٰذا ما اتّهم الكاثوليك الدوناطيّين بأنّهم يفعلونه، ولٰكنّ الوثيقة التي اعتمدناها كاثوليكيّةُ المصدر في الأساس، ويَشهد ما ورد في بعض توبيخات أوغسطينُس للكاثوليك أنَّ العكس كان صحيحًا أيضًا. هٰذا وإنّ التشريع الإمبراطوريّ المعادي للهراطقة ازداد وضوحًا وخطرًا في أثناء العقد الأخير من القرن الرابع والعقد الأوّل من

(١) بالفرنسيّة Circoncellions، أي الذين يحومون حول الأهراء (لنهبها؟) وكانوا عمّالًا أحرارًا مياومين من البربر ثاروا على الأغنياء الظالمين، وما عتّم أن اختلط بهم الكثير من الخارجين على القانون (الناشر).

القرن الخامس، كما أنّ جدليّة أوغسطينُس القويّة لم تكن بلا فائدة في اعتباره الدوناطيّة هرطقة (لا انشقاقًا فقط). وفي آخر الأمر، انتهى اجتماع قرطاجة، الذي ضمَّ سنة ٤١١ جميع المنتمين إلى الكنيستين المتناوئتَين، بانتصار ساحق حقّقته الكاثوليكيّة على الدوناطيّة – وهو انتصار ناجم، في قسم كبير منه، عن الجهود التي بذلها أوغسطينُس في أثناء السنين العشرين الماضية.

إنّ الحرب الكلاميّة التي قادها أسقف هيپّونة الجَلُود في السنين العشرين الأخيرة من حياته (٤١١-٤٣٠) تستحقّ تفصيلًا طويلًا. وقد كانت أحدَ العوامل التي أثّرت في القرون اللاحقة في الصراع حول الجانْسينيّة. نكتفي في الوقت الحاضر بالقول إنّها تعبّر عن إشعاع أوغسطينُس العالميّ في أثناء حياته. ففي تلك المسألة، عمد أوغسطينُس، في كلّ مكان، ومن دون أن يغادر إفريقيا، إلى فضح خِدَع أخصامه، مواجهًا إيّاهم في الواقع، بوساطة رسائله أو مبعوثيه إلى رومة وأورشليم ودِيُوسْپُولِيس وإلى قرطاجة أيضًا، كما أنّه توصّل على الأخصّ، بفضل انعقاد مجمعَين إفريقيَّين استخدما طروحاته القاسية، إلى تغيير رأي الإمبراطور والبابا الميّال إلى التوفيق، بعد رجوعه مدّةً من الزمن عن مواقف سلفه.

ومع ذٰلك، لا نتصوّرنّ رجلًا جالسًا في بيته وهو يدير الأمور من وراء الستار. فهو فعلًا ذٰلك البطل الذي دخل، بنفسه، الحلبة وشنّ حربًا في الوقت المناسب أمام الجماهير المحتشدة، سواء أكان الخصم مانويًّا ويُدعى فُرتُوناطُس أم دوناطيًّا ويُدعى فُرتُونِيُوس أو إمِرِيتُس، أم أريوسيًّا ويدعى مَكْسِيمِينُس. وفي تلك الاجتماعات «العامّة والاعتراضيّة» – التي عُقِدت بحسب الظروف على أرض هيپّونة أو على أرض الخصم – كان الناطق باسم الانشقاق أو البدعة حاضرًا مع أنصاره. وكان النقاش أقرب إلى مشهدٍ أو مباراة أو بطولة رياضيّة منه إلى جَدَل لاهوتيّ من النمط الكلاسيكيّ. وكانت العلامات تُحسَب، إذا جاز القول، وكانت محاضِر المختزِلِين تَضمن شيئًا من التحكيم: وهٰذا لم يمنع أن تصبح «المباراة» غامضةً والجوّ صاخبًا، لأنّ الفريقَين الحاضرَين كانا أشدَّ التزامًا مما يمكن أن نتصوّره للوهلة الأولى. وأخيرًا، كان مصير «المساندين» نفسُه على المحكّ: ففي حال سقط الخاسر، كان من الحتمل أن يجرّ معه مسانديه عاجلًا، أو حتى أن يعطي الإشارة بالانضمام إلى ديانة الرابح. ولٰكن لم يُخشَ على أوغسطينُس من أيّ خطر: فهو البطل الذي لا منازع له وفي جميع الفئات.

مفكِّر ومتصوّف

لٰكن علينا هنا أيضًا أن نحذر التضخيم، لأنّ صورة أوغسطينُس الأخيرة هٰذه قد تُنسِينا وجهًا آخر من وجوه شخصيّته، وهو وجه حاول كثيرٌ من الرسّامين أن يفهموه: فصوّروا المفكّر وهو يعمل مكبًّا على الكُتُب. والروح القدس يزوره.

نتساءل كيف توصّل ذٰلك الرجل، وصحّته نحيفة على ما يبدو، إلى تحقيق هٰذا القدر من الأعمال وتأليف هٰذا القدر من الكُتُب. لأنّه، بالإضافة إلى ٢٢٥ رسالة حُفِظَت لنا من مراسلاته الواسعة، وبالإضافة إلى ٥٠٠ عظة وصلت إلينا (بغضّ النظر عن نحو ٣٠٠ عظة أُخرى ومقالات في **إنجيل يوحنّا**، و**شروح المزامير**)، ثمّة بين أيدينا وثيقة ثمينة تساعدنا على تكوين فكرة عن «نتاجه». فقبْلَ وفاة أوغسطينُس بثلاث أو أربع سنوات، عكف على «مراجعة» – في مؤلَّف يحمل العنوان *Retractationes* (= استدراكات) وغالبًا ما يُترجَم خطأً بـ«مراجعات» – كلِّ مؤلَّفاته، ما عدا مواعظه ومراسلاته (علمًا بأنّ ذٰلك يستثني المؤلَّفات التي وضعها في نهاية حياته). والحال أنَّ **المراجعات** أحصت ٩٣ مؤلَّفًا تضمّ ما مجموعه ٢٥٢ كتابًا (لا ٢٣٢ كما زعم تقليد خطّيّ مغلوط)!

وهٰذا النتاج متنوّع جدًّا، تتمثّل فيه جميع المجالات: لاهوت، وفلسفة، وتفسير كتابيّ،

وأخلاق، وتعليم دينيّ، وفوق ذلك كلّه، أجوبة عن جميع أنواع «الأسئلة» التي وردت إليه من جهات الكون الأربع. واستُخدِمت فيه جميع الفنون الأدبيّة: من حوارات، وشروح أو تعليقات على نصوصٍ كتابيّة، ونُسَخ أو ملخَّصات لمحفوظاتٍ جَمَعَها أو لمناقشاتٍ شارك فيها، ومقالات ومؤلَّفات دعته الظروف إلى وضعها ويمكن أن تُصبح - كـ**مدينة الله** الذي وُضِع إثر نهب رومة في ٤١٠ - روائعَ أدبيّة بفضل قلمه. ويستحيل علينا أن نصنِّف ذٰلك كلّه إلّا بطريقة التسلسل الزمنيّ، كما فعل هو نفسه في **المراجعات**، أو بطريقة اختباريّة، كما فعل عمليًّا تلميذُه وصديقه پُوسِّيدِيوس، مقسِّمًا إيّاها - وهو أمر ذو مغزى - إلى تسعة أبواب «جدليّة» وبابٍ عاشر... لِما تبقّى!

والحقيقة أنّ مبدأ تصنيف مؤلَّفات أوغسطينُس يتجاوز المؤلَّفات نفسها. ومَن يحصر أوغسطينُس في أبعاد «مُناضل فعّال» أو لاهوتيّ عاديّ، يرتكب خطأً فادحًا. فإنّ سرَّ أوغسطينُس الأعمق لا يُبحَث عنه إلّا في علاقاته الحميمة بإلٰهه. ويمكن القول بأنّ حياته كلَّها كانت امتدادًا للحادثة الشهيرة التي جرت في حديقة ميلانو.

ولدينا على ذٰلك سيل من البراهين، وهي متواضعة دائمًا - وخجولة بعض الشيء - ولٰكنَّها لا تقبل الجدل. فعلى سبيل المثال، لم يبادر أوغسطينُس قطّ إلى كتابة أحد مؤلَّفاته أو إلى الإقدام على عملٍ ما من دون أن يضع نفسه صراحةً في نظر الله، أو من دون أن يُشهده، أو من دون أن يلتزم في حضرته. ولم يقبل أوغسطينُس أن يُجيب عن سؤال يتخطّى إمكاناته. فكان جوابه يلخِّص بهٰذه العبارة: «إنّ هٰذا التعليم يأتي من المعلِّم الوحيد والحقيقيّ» - والذي دعاه «المعلِّم الباطني»، وقد اختبره هو نفسه اختبارًا لا يوصف، فكتب في **الاعترافات** يقول:

...«وفي بعض الأحيان، تُوصِلُني (يا ربِّ) إلى عمقٍ في المشاعر لم آلَفْه إلى حدّ بعيد، وهو عذب حتّى إنّه، إذا بلغ مِلأه فيّ، لا أدري ما سيحصل من أمورٍ لا تُقاس بالحياة الدنيا».

أليس صحيحًا أنّ كلّ تعليق يكون بعد ذٰلك غير مُجدٍ، بل في غير محلّه؟ وفي الختام، نفضِّل أن ندع أوغسطينُس نفسه «يعترف» للقارئ بنشيد حبّه:

«وماذا أحبّ (يا ربِّ)، حين أحبّك؟
لا أحبّ الجمال الجسديّ وامتيازه الزائل،
ولا أحبّ النور الساطع - الذي تعشقه عيناي -
ولا أنغام الأناشيد العذبة المختلفة الإيقاع،
ولا أريج الزهور الفوّاح ولا العطور ولا الطيوب،
ولا المنّ ولا العسل ولا الأعضاء التي تتعرّض لعناق اللحم والدم.
لا أحبّ شيئًا من ذٰلك كلِّه حين أحبّ الله.
ومع ذٰلك هناك نور، وصوت، وشذا وقوت وعناق أُحبُّها حين أُحبّ إلٰهي:
هو نور الإنسان الباطنيّ وصوته وشذاه وعناقه الذي فيّ،
حيث يسطع لنفسي ما لا يحدّه مكان،
ويدوّي ما لا يسلبه الزمان،
ويعطِّر ما لا تبدِّده الريح،
ويُذاق ما لا يُفنيه النهم،
ويبقى معانقًا ما لا يفكّه الشبع.
ذاك ما أحبّ حين أحب إلٰهي».

وثيقة
في حديقة ميلانو

«وكان لبيتنا حديقة صغيرة... توجَّهتُ إليها، فتبعني أليبيُوس خطوةً خطوة... وجلسنا في أبعد مكان عن البيت. كنت أرتعش في كلّ كياني، من شدّة السخط الذي انتاب نفسي، وكانت موجة السخط هٰذه ناجمة عن عدم استسلامي للعهد الذي كنتَ تريد أن تراني أقطعه معك، يا إلٰهي:... استولى عليّ اضطرابٌ بسبب تردُّدي، فوصل بي الأمرُ إلى القيام بكلّ أنواع التلوّي: فرحت أنتف شعري، وألطم جبيني، وأحبس ركبتيّ بأصابعي المنقبضة...

كنتُ مريضًا ومعذَّبًا، أتّهم نفسي بأكثر ما يمكن من المرارة، وأتقلّب وأتململ في قيودي، وأنتظر أن أراها تتحطّم تحطُّمًا نهائيًّا. وكادت لا تحتجزني بعد اليوم، ومع ذٰلك كانت لا تزال تحتجزني....

فقلت في قرارة نفسي: حان أوان التخلّص منها، حان الأوان لأقول «نعم». وفي الوقت الذي كنت أفكّر في الأمر، كنت أسير نحو القرار. في السابق، كنتُ على وشك القيام بالعمل، ولٰكنّ العمل لم يكن يأتي. غير أنّي لم أسقط مرّةً أُخرى في الهوّات السابقة: بقيت على الحافة من دون حراك واستعدت أنفاسي. حاولت مرّةً أُخرى، ولم يبقَ لي إلّا القليل القليل. كدت أصل إلى الهدف وأُمسك به. ولٰكن كلّا، لم أصل إليه، ولم أمسك به، بل كنتُ متردِّدًا في أن أموت عن الموت وأن أحيا للحياة... وكلّما كانت اللحظة تقترب، كانت تُفزعني فزعًا شديدًا. كلّا، لم تكن تُرجعني إلى الوراء، ولم تدفعني إلى تغيير الاتّجاه، بل كانت تتركني معلّقًا...

وإذ كنتُ على هٰذه الحال، تنبّه (أليبيُوس): لأنّه يبدو أنّ بضع كلماتٍ أفلتت منّي، على ما أظنّ، وهي محمّلة بنبرة صوت يجهش بالبكاء. وحينذاك قمت، في حين ظلّ أليبيوس حيث كنّا جالسَين: كان في ذروة الذهول. أمّا أنا فاستلقيتُ، كيفما كان، تحت شجرة تين وأطلقتُ العنان لدموعي... وهٰذا ما قلته، وإن لم يكن بالتفصيل وبهٰذه الكلمات، فعلى الأقلّ بهٰذا المعنى: «وأنت، يا ربُّ، فإلامَ؟ إلامَ تغضب يا ربّ؟ أإلى المنتهى؟ لا تذكر آثامنا السالفة». لأنّني كنتُ أشعر بأنّها ما زالت تقيّدني. وأطلقت صرخات مسترحمًا: «إلامَ؟ إلامَ؟ أإلى غد أم بعد غد؟ ولماذا لا يكون في الحال؟ ولماذا لا يوضَع حدٌّ فوريٌّ لخزيي؟».

هٰذا ما كنتُ أقوله. ثمّ بكيت في مرارة قلبي المنسحق. وإذا بي أسمع صوتًا خارجًا من المنزل المجاور. وعلى نغم أغنية، كان الصوت يقول ويردِّد، على غرار صبيّ أو فتاة، من دون أن أتحقّق من ذٰلك بالضبط: «خذ وأقرأ. خذ وأقرأ».

سرعان ما تغيّر تصرّفي، ورحت أركّز انتباهي لأتذكّر هل مثل هٰذه اللازمة معروفة في بعض الألحان الصبيانيّة. فلم أذكر قطّ أنّه سبق لي أن سمعت مثل ذٰلك في أيٍّ من الأماكن. ثمّ حبست غزارة دموعي وقمت. والتفسير الوحيد الذي تبيّنته من ذٰلك الأمر الإلٰهيّ هو أنّه يُطلب منّي أن أفتح الكتاب وأقرأ أوّل فصل يقع عليه نظري. وقد علمت قبل ذلك بقليل أنّ أنطونيوس وصل في أثناء قراءة الإنجيل وسمع عبارةً منه وكأنّها توبيخ شخصيّ موجّه إليه: «اذهب وبع أموالك وأعطها للفقراء، فيكون لك كنزٌ في السماء، وتعالَ فاتبعني» (متى ١٩/ ٢١). وعلى الفور، حمله هٰذا الكلام على الاهتداء إليك.

فأسرعت في العودة إلى المكان الذي كان أليبيوس جالسًا فيه: لأنّني، حين قمت، تركت هناك كتاب بولس الرسول. فأخذته (الكتاب) وفتحته وقرأت بصوتٍ خافت أوّل فصل وقع عليه نظري: «لا قصفٌ ولا سُكرٌ، ولا فاحشةٌ ولا فجور، ولا خصامٌ ولا حسد. بل البسوا الربَّ يسوع المسيح، ولا تُشغَلوا بالجسد لقضاء شهواته» (روم ١٣/ ١٣).

لم أشأ أن أقرأ المزيد. لأنّني لم أعد في حاجة إليه. فما إن فرغت من قراءة تلك الآية حتّى انتشر في قلبي شبه نورٍ مهدّئ. وتبدّدَتْ ظلمات شكّي كلُّها...».

(الاعترافات VIII، ٨-١٢ (مختارات))

الباب الرابع

تَباعُد تَدرِيجيّ

يتناول هٰذا الباب حقبةً من التاريخ
تمتدّ على ألف سنة، من القرن الخامس حتّى الخامس عشر.
والهدف منه تسليط الضوء على سؤال واحد:
كيف انتهت الأمور بروما والقسطنطينيّة،
بالغرب والشرق، أن تمّت الفرقة بينهما؟
ثمّة أسباب داخليّة، كالاختلافات
اللاهوتيّة وأولويّة البابا...،
ولٰكن لا بدّ من مراجعة التاريخ لفهم
هٰذا الطلاق التدريجيّ بين الكنيستين الشقيقتين.
والتاريخ هنا معقّد،
تختلط فيه اختلافات اللغة والثقافة،
والنزاعات السياسيّة، والأهواء الشعبيّة.
ذٰلك هو قَدَر الممالك العُظمى الغريب!
وفي الواقع، ليس الخلاف بين «الكاثوليك» و«الأرثوذكس» فقط،
بل إنّه، ومنذ زمن بعيد، قائم بين اللاتين والإغريق،
إلى أن بدا الانفصال، في سنة ١٢٠٤، وكأنّه نهائيّ.
إلّا أنّ الرغبة في الوحدة
ما زالت تسكن قلوب النخبة المنفتحة،
وفي أيّامنا تقرّب بين الكنائس روحٌ جديدة
تهدف إلى الشركة والمصالحة.

الفصل الأوّل

طريقان يتباعدان

بقلم هنري مَرُو(*)

الشرق والغرب: عالمان مختلفان، من حيث العقليّة،
واللغة، وطريقة النظر إلى الحقائق الروحيّة.
وفي زمن غزوات البرابرة، ازدادت الطرق تباعدًا.
ومع هٰذا كلّه، لم تتمّ القطيعة كلّيًا...

تطوُّر العلاقات بين الكنيستَين اللاتينيّة والشرقيّة

في القرنين الخامس والسادس، ظهرت بعض الدلائل تنذر بالقطيعة التي حدثت بعد ذٰلك. وإذا كانت الهوّة قد حُفِرت تدريجًا بين الكنيستين، فلأنّها حُفِرت أوّلًا بين الشرق والغرب، فقد ازداد مصيراهما اختلافًا.

في القرن الأوّل من عصرنا، كان لبلدان حوض البحر الأبيض المتوسّط كلّها حضارة واحدة، كانت يونانيّة في الأصل، ثم استوعبها اللاتين. و كان الرومان في مطلع تاريخهم برابرة أشدّاء. ولٰكنّهم، لمّا اكتشفوا الحضارة اليونانيّة، بلغوا من الذكاء ما حملهم على أن يقدّروها ويفهموا أنّ أبسط ما يمكنهم القيام به هو أن يقتبسوها. وفي عهد شَيشَرُون كانت الثقافة تعني أن يكون المرء هلّينيًّا. ولٰكنّ اللاتين رفضوا شيئًا فشيئًا أن يبقوا تلامذةً طيِّعين خاملين، فأصبحوا تلامذةً ناجحين، قادرين على اكتساب شخصيّةٍ مستقلّة. كان الأولاد اليونان يحفظون أشعار هوميرُس عن ظهر القلب، والأولاد اللاتين أيضًا، إلى أن نبغ عندهم ڤرجيليوس، فأتت مؤلّفاته تسدّ حاجة، حتى إنّها أُدرجت في «البرنامج» وصاحبُها على قيد الحياة. وكذٰلك، فحتّى عهد شيشرون، كانت البلاغة والفلسفة تُدَرَّسان انطلاقًا من النصوص اليونانيّة، وبفضله، تعلّم اللاتين أن يكتبوا ويعالجوا المسائل الفلسفيّة بلغتهم. فأصبحت الثقافة اللاتينيّة مستقلّة.

ومع نموّ المسيحيّة في الغرب، برزت ظاهرة مماثلة، مع فارق زمنيّ بسيط. فالمسيحيّة أتت من الشرق، وكانت يونانيّةً في البداية وكان المسيحيّون الغربيّون الأوّلون من المغتربين. فالقدّيس پُوتِينُس، مثلًا، وهو أوّل أسقف على لِيُون، كان يحمل اسمًا يونانيًّا، وخَلَفُه القدّيس إيريناوس، الذي نعرفه معرفةً أفضل، كان يونانيًّا من آسية الصغرى. فالمسيحيّة إذًا أخذت تُنعش التأثير الهلّينستيّ. وفي البداية، اكتفى الأساقفة اللاتين بانتحال علم اللاهوت اليونانيّ، والأمر مدهش في ما يختصّ بعلم اللاهوت الثالوثي. فيومَ أراد القدّيس أمبرُوسِيوس أن يلقي على مؤمنيه تعليمًا في لاهوت الروح القدس، أرسل في طلب آخر ثلاثة كُتُب ظهرت باليونانيّة عن تلك المسألة، وهي كُتُب القدّيس باسيليوس، وديديمُس الإسكندريّ والقدّيس غريغوريوس النَازيانزيّ. أمّا التحوّل الحقيقيّ، فقد حدث بعد وفاة القدّيس أمبروسيوس وظهور شخصٍ عبقريّ، هو القدّيس أوغسطينُس، فقد طبعت مؤلّفاتُه الكنيسةَ اللاتينيّة بطابع لا يزول. واعتبارًا

(*) Henri Marrou، عضو المجمع الفرنسيّ. أستاذ في جامعة باريس – السوربون.

من القدّيس أوغسطينُس، ظهرت طريقةٌ لاتينيّة في تعليم عقيدة الثالوث.

عندما كان اليونانيّون يتحدّثون عن الله، كانوا يتحدّثون أوّلًا عن الآب الذي ينبثق منه الابن والروح. وعندما كان اللاتين يتحدّثون عن الله، كانوا يفكّرون في الثالوث كنقطة انطلاق: الله واحد وثالوث. وتطوّرت كلتا المسيرتين في اتّجاهٍ معاكس.

وأصبح أوغسطينُس معلِّمَ الفكر في الغرب المسيحيّ، كما كان شيشرون وڤرجيليوس معلِّمَيه على صعيد الثقافة الدنيويّة. فنضجت المسيحيّة اللاتينيّة وازدادت إثباتًا لأصالتها في وجه المسيحيّة اليونانيّة. ولٰكنّ ذٰلك كلّه لم يمنع اليونانيّين واللاتين من أن يظلّوا إخوة: فلا داعي إلى الاختلاف، سوى أنّ الإخوة يكبرون بطريقة مختلفة، وتتنوّع أذواقهم، ولا تعود اهتماماتهم واحدة.

وقد تجلّى ذٰلك بوجه خاصّ في مجال البدع. فإنّ البدع الأولى كانت مشتركة بين اليونانيّين واللاتين: ومع أنّ الصراعات حول مسألة الثالوث نشأت في الشرق، فقد كانت تستهوي هٰؤلاء وأولٰئك على السواء. لا شكّ في أنّه كانت لهم وجهات نظر مختلفة وكانوا يجدون صعوبةً في الاتّفاق على المفردات التي يستعملونها، ولٰكنّهم لم يزالوا يهتمّون بالمسائل نفسها. بيد أنّ الأمور تغيّرت اعتبارًا من القرن الخامس. فقد انكبّ الشرقيّون على معالجة الموضوعات المسيحانيّة، فتساءلوا: كيف يمكن أن يكون يسوع المسيح إلٰهًا وإنسانًا في وقت واحد؟ وكيف يكون شخصًا واحدًا، إذا كان إلٰهًا حقيقيًّا وإنسانًا حقيقيًّا؟ وكانت البدع التي نشأت في ذلك الوقت، كالأپوليناريّة والنسطوريّة والمونوفيزيّة، مسائل خاصّة بالشرقيّين. ونتج من ذٰلك صراعات خطيرة مزّقت الكنيسة (ولم يكن مجمعا أَفسس وخلقيدونية كافيَين لتسويتها: فقد استمرّت الكنيستان النسطوريّة والمونوفيزيّة حتّى يومنا هٰذا). ولٰكنّ المسيحيّة اللاتينيّة لم تتأثّر بذٰلك إلّا تأثّرًا طفيفًا. وكانوا يستشيرون أسقف رومة يومًا بعد يوم، فشعر ببعض الصعوبة في الاطّلاع على القضايا.

وفي المقابل، راح الغربيّون يواجهون مشاكلهم الخاصّة: ففي عهد أوغسطينُس، برزت مشكلة العلاقات بين الطبيعة والنعمة، أو بدعة پيلاجِيُوس، التي تركت أثرًا بعيدًا في مجمل تاريخ الغرب المسيحيّ (وقد تولّد منها في ما بعد الإصلاح والجانْسينيَّة). كان الغربيّون يتساءلون: هل الله الذي يُجري الخلاص أم هو يعود إلى مجهود الإنسان؟ شدَّد پيلاجيوس المتوحِّد على المجهود الذي يقوم به الإنسان. أمّا أوغسطينُس الخاطئ المرتدّ فكان أشدّ تأثّرًا بعمل الله. وكان الشرقيّون ينظرون إلى أبناء الغرب بعين الدهشة وهم يتشاجرون. فلو طُرح السؤال عليهم، لأتوا بجواب هو في غاية البساطة في رأيهم: في الخلاص، كل شيء يأتي من الله، ولٰكن لا شيء يحدث من دون الإنسان. ومع ذٰلك لم يقلّل الغربيّون من وجوه التمييز، وفي السنوات الأخيرة من حياة أوغسطينُس، توصّلوا إلى الدخول في تفاصيل مدهشة (إنّها مشكلة «بدء الخلاص»): فهل يجب أن يكون في الإنسان رغبة أُولى صغيرة في الخلاص لكي يستطيع الله أن يأتي إلى معونته، كما أعلن أنصار ما سمِّي في ما بعد «شبه الپيلاجية»؟ أم أنّ تلك الرغبة الأُولى تأتي من الله كما أكّد الأوغسطينيّون؟). وهي تفاصيل لا تَقلّ في دقّتها، على كلّ حال، عن تلك التي تميَّزت بها بعض المناقشات الشرقيّة بين الخلقيدونيّين والمونوفيزيّين.

ولٰكنّ ما يلفت انتباهنا الآن ليس هو تفاصيل المناقشات، فالمهمّ هو أن نلاحظ أنّ اليونانيّين واللاتين لم يعودوا يتقاسمون الشواغل نفسها.

إختلاف في نمط الحياة أيضًا

تطوَّر نمط الحياة المسيحيّة تطوّرًا فيه الكثير من التنوّع والاختلاف. فإنّ التعارض لم يَقُم بين التيّارات اللاهوتيّة فقط، بل عمليًّا بين ممارسات الكنائس الشرقيّة والغربيّة، كالمسألة المرتبطة باهتداء الجماهير الريفيّة. فالكنيسة التي نشأت من الحضارة القديمة، كانت مدنيّة في أول أمرها: فهناك أسقف في كلّ مدينة، وكانت الجماعة تلتئم حول الأُسقف. ولمّا وصل إعلان

الإنجيل إلى الأرياف، طُرحَت مسألة التنظيم. فحُسِمت في الشرق عن طريق إقامة خُور أساقفة - حرفيًّا، أساقفة أرياف - علمًا بأنّ كلمة «خُورا» اليونانيّة تعني البلد العاديّ، بالاختلاف عن المدينة: فكانوا «نوّاب أساقفة» يتمتّعون ببعض السلطات الأسقفيّة من دون أن يكون لهم جميع سلطات الأسقف الحقيقيّ، أسقف المدينة. أمّا في الغرب، وعلى عكس ذٰلك، فلم يقبلوا أن «يُضعِفوا» سلطات الأسقف. ووكلوا كنائس الأرياف إلى كهنةٍ عاديّين، وحاولوا أن يُلزموا المسيحيّين الريفيّين بالتجمّع حول الأسقف، أقلّه للاحتفال بعيد الفصح، في الكنيسة الكاتدرائيّة - ولا شكّ في أنّ ذٰلك كان أمرًا صعب التحقيق.

والليترجيا أيضًا تنوّعت. ففي الشرق تأثّرت بعظمة البلاط البيزنطيّ. وكانت أبّهتها المهيبة تهدف إلى توفير شعور مسبَق بليترجيّة السماء الأبديّة. أمّا في الغرب، فكانت أبسط، إذ إنّهم عبّروا فيها عن شعورهم بالقدسيّات بشكلٍ آخر أكثر بساطة في الوقار والرزانة. فكان الذهاب إلى القدّاس في رومة والذهاب إليه في القسطنطينيّة دخولًا في عالمَين مختلفَين وانتقالًا من العظمة الرومانيّة غير المزخرفة إلى الإعجاب أمام أبّهة شرقيّة محض - ولا شكّ في أنّ الأولى، مع كونها جميلة، تبدو شاحبةً، إن قورنت بالأُخرى. وعلى كلّ حال، يبدو أنّ هٰذا كان رأي السلافيّين، فقد قاموا بتجربة ليعرفوا هل يتبنّون المسيحيّة اليونانيّة أم اللاتينيّة، وعادوا من كنيسة القدّيسة صوفيا مفعمين بالإعجاب فاختاروا الطقس اليونانيّ دونما تردُّد.

والمثال الأعلى النسكيّ كان يُفهم أيضًا بطرق مختلفة. ففي الشرق، كانت الحياة النسكيّة تعني رفض العالم. فكان النسّاك يهربون من المدينة ويلجأون إلى الصحراء كردٍّ فعل على كنيسة منغمسة في العالم ومتعاطفة مع السلطة الإمبراطوريّة. وهناك، كان كثيرون من بينهم يعيشون عيشة الحبساء. وكان الناسك المثاليّ ذٰلك الذي يتمكّن وحده من مقاومة تجارب الشيطان. أمّا في الغرب، فلم يغب ذٰلك المظهر، ولٰكنّ النسّاك كانوا يزدادون اضطلاعًا بدور الممدِّن: فكانوا يستصلحون الأراضي ويعلِّمون الأمّيّين القراءة... ومنذ ذٰلك الوقت، بدأت جماعاتهم تتحوّل إلى دُورِ ثقافة كما نراها في القرنين السابع والثامن.

البرابرة في الغرب

وعلى صعيدٍ آخر، لا بدّ لنا من أن نشير إلى أنّ الشرق والغرب انطلقا في منحيَين تاريخيّين مختلفين كلّ الاختلاف. وهٰذا أمر أساسيّ يساعد على فهم التاريخ المسيحيّ الذي لا ينفصل عن التاريخ العامّ.

في الغرب، سقطت الإمبراطوريّة سنة ٤٧٦ في يد البرابرة الغزاة، في حين استمرّت الإمبراطوريّة البيزنطيّة في الشرق حتّى سنة ١٤٥٣. ولم تكن الظاهرة عرضيّةً وحَسْب. فإنّ جزءًا من المسؤوليّة يقع بدون شكّ على عاتق الشرقيّين، فإنّهم تخلّصوا بمهارة من الغُوط الغربيّين أوّلًا، ثمّ من الغوط الشرقيّين، محوّلين خطاهم نحو الغرب: فبفضل المفاوضات التي أحسنوا قيادتها، توصّلوا إلى إبعاد البرابرة عن دول البلقان وإرسالهم أوّلًا إلى إيطاليا. وكان الموقع الجغرافيّ عاملًا أساسيًّا في اللعبة: فكان الشرق يدافع عن نفسه باستناده إلى الأقاليم الأسيويّة، في حين وجد الغرب صعوبةً في المقاومة. ولٰكن، في الأساس، كانت هناك ردود فعل الناس المختلفة: فإذا صحّ أن أمبراطوريّة الشرق نجحت في دفع البرابرة، فذٰلك بفضل نظرتها التوتاليتاريّة إلى الدولة واستبدادها الماليّ والبوليسي. وهٰذه الإجراءات مكّنتها من الحصول على القوّة اللازمة. أمّا الغربيّون فقد فضّلوا الاستسلام للبرابرة على دفع ذٰلك الثمن. وهناك العديد من النصوص التي تُثبِت لنا ذٰلك. فمنذ القرن الرابع، كان للثورات التي قام بها الفلّاحون دلالة خاصة: فإنّ الفلّاحين رفضوا قمع الإمبراطوريّة الماليّ والإداريّ والبوليسيّ، وبين الاستبداد والبرابرة، اختاروا البرابرة. أمّا في الشرق، فنكاد لا نجد ما يوازي مقاومة الفلّاحين في الجبال: فقد رضي الشرقيّون بالنظام القاسي الذي فرضته الدولة التوتاليتاريّة، في حين كان الغربيّون ينفرون منها أيّما نفور. ومن وجهة النظر هٰذه، نلاحظ تواصلًا واضحًا

بين الإمبراطوريّة البيزنطيّة وروسيا القياصرة، وبين روسيا القياصرة والنظام الروسيّ الشيوعيّ: فليست قدرةُ الشرطة المطلقة وطردُ المواطنين المعادين للنظام أمورًا مستحدَثة في بلاد بطرس الأكبر، ذٰلك القيصر الذي حَكم على ابنه بالإعدام لأنّه ارتكب جريمة السفر إلى الخارج. إنّ ردود فعل الناس العميقة تفسِّر الكثير من الأمور.

الافتراق بين مسيحيّي الشرق والغرب

إنّ بذور الافتراق تعود إلى ما قبل أزمة ١٠٥٤. فحين يصبح أخَوان شديدَي الاختلاف، تتضاعف الصراعات العائليّة. وقد سُجِّلت سلسلة من الافتراقات الموقّتة بين الكنيسة اللاتينيّة والكنيسة البيزنطيّة. أحصى المؤرِّخ الكبير، المُنسنيور دُوشِين، ما لا يقلّ عن مائتين وثلاث سنين كانت في أثنائها خلافات بين الكنيستين منذ وصول قسطنطين سنة ٣٢٣ إلى المجمع المسكوني سنة ٧٨٧: ٢٠٣ سنين من أصل ٤٦٤ سنة! وأشار المنسنيور دوشين إلى ما لا يقلّ عن خمس أزمات خطرة قبل الافتراق النهائيّ، بالإضافة إلى حقبات التوتّر التي شهدت بعض الصراعات القليلة الشأن. ويومَ يتواجه خصمان يتمتّعان بطبع فظّ، تكفي شرارة واحدة لوضع النار في البارود. وكان لبعض المسائل التي دار حولها النقاش طابع قليل الأهميّة، حتى إنّه يلامس حافة السخافة (إرخاء اللحية أو عدمه عند الكهنة، واستعمال الخبز الفطير أو عدمه للاحتفال بالإفخارستيا...). لقد بلغ الأخوان درجة من التباعد كاد معها أن لا تبقى هناك حاجة إلى البحث عن أسبابٍ للصراع. ويبدو أخيرًا أنّ الرغبة المتبادلة في الانشقاق طغت على الأهميّة الفعليّة التي تميَّزت بها الخلافات في ما يختصّ بالعقيدة.

الانشقاقات قبل الانشقاق

في الوقت الذي تمَّ فيه الانشقاق، كان الناس يتّجهون إليه منذ قرون طويلة. وقد تعوَّدوا فكرة الانعزال النهائيّ، لا بل جرّبوا ذٰلك عدّة مرّات. منذ وصول قسطنطين إلى إمبراطوريّة الشرق (٣٢٣) حتّى المجمع المسكونيّ السابع (٧٨٧)، أي على مدى أربعمائة وأربع وستّين سنة، يمكنني أن أحصي ما لا يقلّ عن مائتين وثلاث سنين ثبت فيها أنّ الأساقفة سواء في الشرق كلّه (بما فيه مصر والّيريكُون) أم في المناطق التابعة لأنطاكية والقسطنطينيّة فقط، أي في الكنيسة الإمبراطوريّة، كانوا وما زالوا منشقّين عن الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ. عدّوا معي:

١ – في شأن القدّيس أثناسيوس والأريوسيّة، من مجمع سَرْدِيقِيَة (٣٤٣) إلى اعتلاء القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ كرسيّ القسطنطينيّة (٣٤٣–٣٩٨) ... ٥٥ سنة.

٢ – في شأن إدانة يوحنّا الذهبيّ الفمّ (٤٠٤–٤١٥) ... ١١ سنة.

٣ – في شأن أكاكيوس والهِينُوطِيقيّة (الوحدة الدينيّة) (٤٨٤–٥١٩) ... ٣٥ سنة.

٤ – في شأن المُونُوتيليّة (٦٤٠–٦٨١) ... ٤١ سنة.

٥ – في شأن الأيقونات (٧٢٦–٧٨٧) ... ٦١ سنة.

المجموع ٢٠٣ سنين.

هٰذا وإنّي أهملت بعض الافتراقات الصغيرة العابرة. فإبّان القرون الخمسة التي تبعت نهاية الاضطهادات، أمضت الكنيسة اليونانيّة نصف الوقت تقريبًا خارج الشركة الرومانيّة.

المُنسنيور دوشين، **الاستقلال الكنسيّ والكنائس المنفصلة**، باريس، ١٨٩٦، ص ١٦٤–١٦٥ (بالفرنسيّة).

الأساقفة الشرقيّون وأسقف رومة

في بعض الأحيان، كان الأساقفة الشرقيّون يلجأون إلى أسقف رومة للاحتماء من التعسّف الإمبراطوريّ في المسائل الإيمانيّة. وقد انصرف مؤخَّرًا الكاتب شارل پِياتْرِي إلى درس هٰذه المسألة بدقّة، فذكر كلّ الحالات التي لجأ فيها الأساقفة الشرقيّون إلى رومة. منذ القرن الرابع، وعلى الأخصّ في القرنين الخامس والسادس، كانت الكنيسة البيزنطيّة مقرَّبةً جدًّا من السلطة الإمبراطوريّة التوتاليتاريّة التي ذكرناها أعلاه. وكانت تستند إليها، ولٰكن سرعان ما استعبَدَتها السلطة!

فالإمبراطور هو الذي يدعو إلى عقد المجامع وهو الذي يقرّر أين هو الرأي القويم. ولم يتبقَّ للأساقفة سوى أن يوافقوا. وإذا اعترضوا، نفاهم الإمبراطور، وحين كان الإمبراطور يغيّر رأيه، فلا بأس، إذ إنّه كان يستدعي الأساقفة المنفيّين وينفي أولٰئك الذين أيّدهم في السابق.

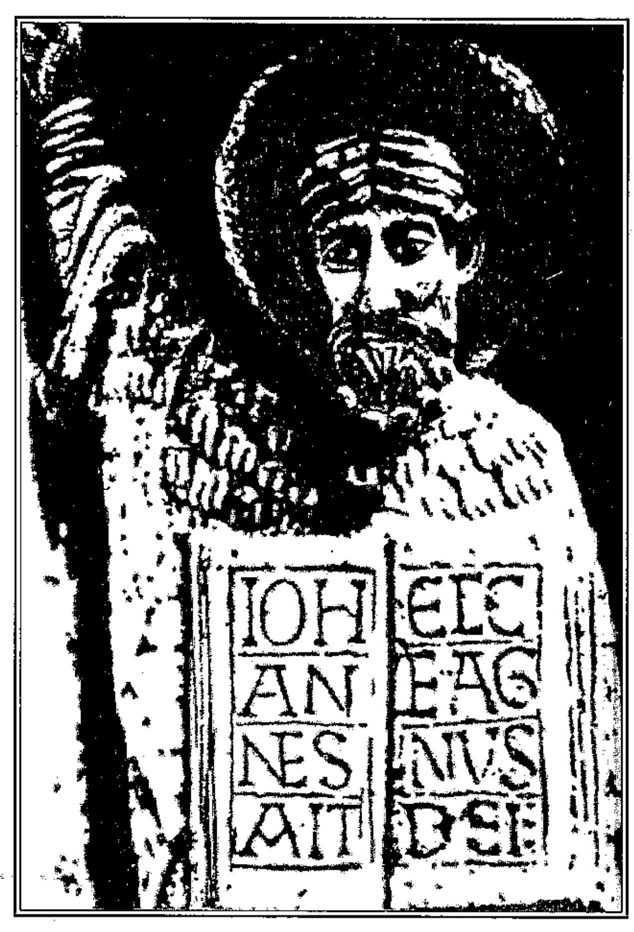
وفي وجه تلك الكنيسة المُستعبَدة، برز أسقف رومة ولَطالما اعترفت له الكنائس بالأوّليّة الفخريّة. لم يكن المقصود، حتّى ذٰلك الزمن، أوّليّة الولاية، بل كان بطريركَ الغرب بلا منازع، وكان الشرقيّون لا يشعرون براحة الضمير إلّا إذا كانوا على اتّفاق معه. والحال أنّ أسقف رومة كان محظيًّا بالإقامة بعيدًا عن إمبراطور القسطنطينيّة. لقد كان من رعاياه نظريًّا، ولٰكنّ عدّة أسابيع من السفر البحريّ كانت تفصل بينهما. ومنذ القرن الرابع، لم تعد رومة عاصمة الإمبراطوريّة، بل كان إمبراطور الغرب يقيم إمّا في تْرِير Trères، على حدود نهر الرين، وإمّا في مِيلانُو، وإمّا في سيرْمِيُوم (في يوغوسلاڤيا)، وكان أكثرَ انشغالًا بالدفاع عن حدوده من أن يحضر إلى رومة ليقوم فيها بدور الشرطيّ. إلّا أنّ هٰذا قد جرى فعلًا، وذٰلك حين نُفي البابا لِيبارِيُوس لأنّه رفض سنة ٣٥٦ أن يوافق على الإدانة التي رشق بها الإمبراطور قُسطَنْسِيوس صديقه أثناسيوس الإسكندريّ. ولٰكنّ ذٰلك بقي أمرًا نادرًا. لقد ازدادت كنيسةُ رومة استقلاليّة عن الإمبراطور، ولا سيّما اعتبارًا من اهتداء الأرستقراطيّة الرومانيّة إلى المسيحيّة. فكانت النتيجة على النحو التالي: أصبحت رومة في نظر الشرقيّين ملاذ الحرّيّة، وحين كانوا يعتبرون أنّهم على حقّ، من وجهة النظر اللاهوتيّة، في وجه إمبراطور أمسى هرطوقيًّا، كانوا يزدادون ميلًا إلى البحث عن النجدة عند ذٰلك الذي أصبح «البابا» في ما بعد.

لم يكن المقصود، حتّى ذٰلك الزمن، الاعتراف لرومة بسلطة عامّة. ولٰكنّ الأوّليّة الفخريّة التي كان يتمتّع بها أسقفها، وأجواءَ الحرّيّة الدينيّة التي كانت سائدة فيها تضافرت فثبّتت تدريجًا تلك السلطة. وحين كان الأساقفة الشرقيّون يعيشون في وئام مع الإمبراطور. ويتوصّلون إلى التفاهم في ما بينهم، كانوا يَنسون بابا رومة، ولٰكن ما إن يتبلبل الوضع حتّى تراهم يلتفتون إليه مجدّدًا. وقد حدث مثل ذلك منذ زمن مبكّر، حين تعرّضت الأسقفيّة الشرقيّة لاضطهاد الإمبراطورَين الميّالَين إلى الأريوسيّة، قسطنسيوس وڤالَنْس. وحين أقال مجمعٌ شرقيّ أثناسيوس الإسكندريّ وطاردته الشرطة الإمبراطوريّة سنة ٣٣٩، لجأ إلى رومة عند البابا يوليوس، وطلب إليه أن يقوم بدور الحكَمَ في المسألة وقد أحرج ذٰلك موقفَ الأساقفة الشرقيّين المعادين لأثناسيوس: فوجّهوا رسالة إلى البابا يوليوس يشرحون له فيها كيف أدانوا أثناسيوس في مجمع صور (٣٣٥)، ويطلبون، هم أيضًا، تحكيمه في المسألة. فدرس يوليوس القضيّة وأقرّ لأثناسيوس بالحقّ.

وبعد نحو ثلاثين سنة، أي عند استئناف الاضطهاد الأريوسيّ، لجأ باسيليوس القيصريّ إلى داماسِيُوس، أسقف رومة. ولم يكن داماسيوس راغبًا فعلًا في التورّط في عقدة الصراعات الشرقيّة، ولٰكنّ جميع الأطراف طلبت تدخّله، فدعا سنة ٣٧٧ إلى عقد مجمع رومة. والمجمع هٰذا أصدر، قبل مجمع القسطنطينيّة بأربع سنوات، صِيَغًا تعلن، بسلطان، ألوهة الروح القدس. ثمّ وصل ثِيُودُوسيوس إلى السدّة الإمبراطوريّة (٣٨٠-٣٩٥)، وبما أنّه جاهر بإيمان قويم، فقد كفّ الأساقفة الشرقيّون لبعض الوقت عن الالتفات إلى رومة. ولٰكن، عندما وقف أسقف القسطنطينيّة يوحنّا الذهبيّ الفم في وجه حفيده ثيودوسيوس الثاني وعلى الأخصّ في وجه الإمبراطورة التي أدان فسادها، وعندما انتهى الصراع بنفي الأسقف، سرعان ما أوفد إكليرُسُه مفوَّضِين رسوليّين إلى البابا إنوقنْطِيوس يطلبون مساعدته. لم يَحُل ذٰلك دون وفاة يوحنّا الذهبيّ الفم في المنفى، ولٰكنّ الكنيسة الرومانيّة رفضت لمدّة إحدى عشرة سنة الشركةَ مع كنيسة القسطنطينيّة إلى أن قبلت القسطنطينيّة بإعادة إدراج اسم يوحنّا في لائحة الأساقفة المتوفّين الذين ترد أسماؤهم في تذكارات القدّاس.

وفي مجمع أفسس، المنعقد سنة ٤٣١، حرّك

كيرلّس الاسكندريّ السلطةَ الروحيّة التي اكتسبها أسقف رومة، ليحمله على إدانة نظريّة نسطُور اللاهوتيّة. وبعد



القدّيس كيرلّس الإسكندريّ

مرور عشرين سنة، لم تلاقِ سلطة البابا لاون أيّ اعتراض في مجمع خلقيدونية. وقد بتّ البابا، في المناقشات العقائديّة، بحزم لم يحظَ به أسلافُه.

وفي نهاية القرن الخامس، ثمّ في أثناء القرنين السادس والسابع، رغب أباطرة القسطنطينيّة، لأسباب سياسيّة، أن يعيدوا الوحدة الدينيّة إلى الشرق المسيحيّ الممزّق بين الأرثوذكس والمونوفيزيّين - أو بالأحرى بين الذين قبلوا ما حدَّده مجمع خلقيدونية والذين رفضوه. فضاعفوا محاولات التقارب مع اللاخلقيدونيّين مع ما في ذلك من خطر التعاطف مع الهراطقة بسبب كثرة التنازلات التي قدّموها. فما كان من المتوحّدين الموالين للرأي القويم إلّا أن هربوا من القمع الوحشيّ الذي مارسته الشرطة الإمبراطوريّة وهرعوا إلى رومة - وطن الإيمان الصحيح وأرض الحرّيّة - حيث اعتصموا بالبابا.

وقد حدثت حركة مماثلة في القرن الثامن حين أثار الأباطرة البيزنطيّون بدعةَ محاربة الأيقونات. وأحصي في رومة آنذاك أربعة عشر ديرًا يونانيًّا ساهمت في إغناء ثقافة الغرب المهدَّد من قبل بربريّة «العصور المظلمة». ومن السنة ٦٨٥ إلى السنة ٧٥٢، كان تسعة بابوات، من أصل عشرة، شرقيّين!

لقد تدعّمت الرئاسة الرومانيّة إذًا، بناءً على طلب الشرق المسيحيّ نفسه، ولكنّ الأمر انتهى بهذا الشرق، في القرون التالية، إلى اعتبار رومة متعسِّفة، فثار عليها. وتلك هي مفارقة من المفارقات التي تعوّدها التاريخ. والتطوّر الذي حصل يشبه ما حدث في فرنسا حين بدا اللجوءُ إلى المَلَكيّة الكاپيتيّة خشبةَ خلاص للشعب الذي يعاني قمع أسياده. وشيئًا فشيئًا، وانطلاقًا من الفوضى الإقطاعيّة الرهيبة، وصل الناس إلى مَلَكِيّة لويس الرابع عشر المطلَقة. كذلك، كانت سلطة البابا في بادئ الأمر ملجأً للكنيسة الشرقيّة من نير الحكم الإمبراطوريّ، وكانت عاملَ حرّيّة قبل أن تَظهر هي أيضًا بمظهر المَلَكِيّة ذات الطابع المركزيّ.

الفصل الثاني

قصّة الافتراق الطويلة

بقلم ميشال لُوكْلِير[*]

يعتقد الجميع أن الانشقاق بين رومة والقسطنطينيّة
يعود إلى السادس عشر من تموز (يوليو) ١٠٤٥.
ولٰكنّ الأمور ليست في هٰذه البساطة.
فهناك أحداث تاريخيّة متوالية فرّقت شيئًا فشيئًا
بين أولئك الذين كان الإيمان الواحد يجمعهم في وحدة عسيرة.

«يعود تاريخ الانشقاق بين رومة والقسطنطينيّة إلى السادس عشر من تمّوز (يوليو) ١٠٥٤. ففي ذٰلك اليوم، وضع الكردينال هُمْبِرْتُو، وهو مفوّض رسوليّ من قبل البابا لاوُن التاسع، على مذبح كنيسة القدّيسة صوفيا، في القسطنطينيّة، براءةً بابويّة يحرم فيها البطريرك ميخائيل قِيرُولارِيُوس، المتّهم بالتحرّش برومة، بسبب مسائل تافهة تتعلّق بالخبز الفطير والصوم يوم السبت. إلّا أنّ الإمبراطور البيزنطيّ أحرق البراءة البابويّة، ودعا قيرولاريوس إلى عقد مجمع حَرم هو أيضًا الكردينال وأدان علنًا بِدَع اللاتين المزعومة...».

هٰذا النصّ من أمثال ما كُنّا نجده في الماضي مُدرجًا ضمن كتبنا الدفاعيّة. فهٰكذا كانوا يكتبون التاريخ.

إلّا أنّ الأمور لم تكن في هٰذه البساطة. فقد ضُخّمت قطيعةُ ١٠٥٤ واعتُبرت أنّها نقطةَ لاعودة تمّ عندها الخلاف النهائيّ بين الكنيستَين. ولٰكن مِن الأصحّ أن نقول إنّ الخلاف كان يحضّر منذ عدّة قرون.

يرى بعضهم أنّه لا بدّ من العودة إلى السنة ٣٣٠ لمعرفة جذور الخلاف، وأنّ المسؤول الأوّل عن الانشقاق، في نظرهم، هو قسطنطين نفسه، الإمبراطور المسيحيّ الأوّل. أفليس هو الذي خطرت على باله الفكرة المشؤومة، فكرة نقل عاصمته إلى ضفاف البوسفور؟ إذا صحّ أنّ القسطنطينيّة أصبحت منافِسةً لرومة، فمن الطبيعيّ أن يكون بطريركها منافسًا للبابا.

ولٰكن، على الرغم من العواصف الكثيرة، صمدت وحدة الإمبراطوريّة ووحدة الكنيسة للعديد من الأعوام، نظرًا إلى قوّة شعور التضامن الذي كان يربط بين مواطني الأُولى ومؤمني الثانية. إلّا أنّ روابط الوحدة تراخت في آخر الأمر. فأخذ الرومانيّون والبيزنطيّون يشعرون بأنّهم مختلفون، لا بل غرباء. ومنذ ذٰلك الوقت فُتحت الطريق أمام كلّ أنواع التمزّق.

تراكم الأحقاد

في القرن السابع، تسارعت مسيرة الاغتراب المتبادل على نحوٍ لا يقاوَم.

فقد اندلع جدال مسيحانيّ جديد. نحن نعلم أنّ القرون السابقة عرفت البدعة الأريوسيّة، ثمّ النسطوريّة

(*) Michel Leclercq.

والمونوفيزيّة. وعلى الرغم من الانتصار الباهر الذي أحرزه القدّيس لاون الكبير في مجمع خلقيدونية (٤٥١)، فقد خلّفت البدعة الأخيرة خاصةً جروحًا عميقة في الشرق، وظلّت جماعات كبيرة من الموالين لتعليم الطبيعة الواحدة، في أرمينية وسورية ومصر، في الانشقاق (ومعظمهم ظلّ فيه حتّى أيامنا)، وهٰذا ما استاء منه أسياد القسطنطينيّة استياءً شديدًا. ثمّ ظهر إمبراطور كبير هو هِرَقْل (٦١٠-٦٤١)، وقد تسربل بالمجد بعد أن سحق الفرس واستعاد منهم أورشليم. فقرّر، بعد هٰذا الانتصار، أن يعيد بناء وحدة العالم المسيحيّ - أو الإمبراطوريّة، لأنّ الأمر سيّان عنده - واقترح على الإخوة المنقسمين حلًّا وسطًا: نعم، في المسيح طبيعتان، إلٰهيّة وإنسانيّة، كما يعلّم مجمع خلقيدونية. ولٰكن، وفي هٰذا ظهر التنازل للمونوفيزيّين، هناك قوة واحدة فاعلة، أو طاقة واحدة تحييه - من هنا اسم ذٰلك التعليم: **الطاقة الواحدة** التي أصبحت في ما بعد المشيئة الواحدة أو **المُونُوتيليّة**-.

للوهلة الأُولى، بدا أنّ تلك التسوية أرضت الجميع. وتظاهرت الكنائس المونوفيزيّة بالانضمام إلى الوحدة، في حين خُدِع البابا هُونُورِيوس (٦٢٥-٦٣٨) ومنح المونوتيليّة موافقة غامضة لن يغفرها له التاريخ.

إلّا أنّه سرعان ما ارتسمت ردود الفعل. فأبدى بعض اللاهوتيّين، أمثال مَكْسِيمُس المعترف، اعتراضًا شديدًا. وعُقِدت مجامع إقليميّة شجبت البدعة الجديدة. وأخيرًا نظّم المقاومةَ كرسيّ بطرس، المتمثّل في شخص مَرْتِينُس الأوّل (٦٤٩-٦٥٥). فدعا البابا إلى عقد مجمع في اللاتران شجب المونوتيليّة شجبًا علنيًّا. وما كان من الإمبراطور قسطنطيوس الثاني إلّا أن استشاط غضبًا وطلب من جنوده المقيمين في رافِنّا أن يخطفوا مرتينُس. فزجّه سرًّا في أحد سجون القسطنطينيّة، وحاكمه أمام مجلس الشيوخ بتهمة الخيانة العظمى. ثمّ نفاه إلى القِرْم حيث مات بعد ذٰلك بقليل شهيدًا حقيقيًّا للإيمان.

ولم تخرج الكنيسة من تلك الأزمة إلّا بعد مرور ثلاثين سنة، بفضل مجمع القسطنطينيّة الثالث: فأعلن الشرق والغرب تعليم الكنيسة الجامعة الحقيقيّ، وأُدين المسؤولون عن الضلال - بمن فيهم البابا هُونُوريوس - بعد وفاتهم.

هناك بابا ألقاه الإمبراطور في السجن كأنّه قاطع طُرُق بسيط، وهناك بابا آخر اتُّهم بالضعف حيال البدعة. إنّ أقلّ ما يمكن قوله في ذٰلك أنّ مقام الكرسيّ الرومانيّ لم يربح شيئًا في المغامرة المونوتيليّة. وقد تأكّد ذٰلك في السنة ٦٩١ حين التأم البيزنطيّون في مجمع جديد، دعي «مجمع القبّة» (in Trullo)، ليُكملوا عمل المجامع السابقة على صعيد النظام الكنسيّ. وفي الواقع، تجرّأ ذٰلك المجمع على أن يعلن أنّ بطريرك القسطنطينيّة «له الحقوق نفسها» التي يتمتّع بها بابا رومة. وعلاوة على ذٰلك، ابتعد كثيرًا عن العادات اللاتينيّة، فقَبِل مثلًا أن يصبح (الرجال) المتزوّجون كهنة، واستنكر الصيام يوم السبت، وهي عادة متّبعة في أنحاء الغرب كلّه. ولا داعي للتذكير هنا بأنّ البابا سِرجيوس الأوّل شجب تلك القرارات، وبأن صراعًا جديدًا نشب ولم ينتهِ إلّا بعد مرور عشرين سنة...

وثيقة

احتقار اليونانيّين

نَقَل أحدُ موفَدي الإمبراطور أُوتّو الأوّل - مؤسّس الإمبراطوريّة الرومانيّة الجرمانيّة المقدّسة في السنة ٩٦٢ - الكلام الذي وجّهه إليه بعض الموظّفين البيزنطيّين:

«إنْ فكّر سيّدك في محاربتنا، فعليه أن يهرب،
لا من إيطاليا وحدها، بل حتّى من هٰذا البلد الحقير
الذي أبصر النور فيه والذي يلبس السكّان فيه جلود
الحيوانات. وسنحطّمه كإناء من طين.
وبما أنّنا نفترض أنّك اشتريت بعض المعاطف الثمينة
لتكرمه، فنحن نأمرك بأن تُرينا إيّاها:
فالمعاطف التي تليق بكم... سندعكم تأخذونها، والمعاطف
المحظّرة على جميع الأمم، ما عدانا، سنردّ لكم ثمنها
وسنستردّها منكم».
وهٰذا ما حدث، فصادروا منّي خمسة معاطف أرجوانيّة
باهظة الثمن، معتبرين أنّنا لا نستحق تلك الملابس.
يا للعار، يا للإهانة! أولئك الناس المائعون،
المخنّثون، والمعتمرون التيجان والعمائم، والكاذبون،
والمستهترون، يلبسون الأرجوان،
والأبطال، الرجال الممتلئون إيمانًا ومحبّةً،
الخاضعون لله، والمغمورون بالفضائل، لا يلبسونه.
(ليُوتبراند الكريمونيّ، **بعثة إلى القسطنطينيّة**)

عالَم مشطور

لٰكنّ الصراعات التعليميّة أو الكنسيّة هيهات أن تكون المسؤولة الوحيدة عن التباعد الحاصل بين الكنيستَين. لأنّ القرن السابع شهد انقلابات أُخَرى قامت بدور بالغ في التمهيد للانشقاق. ففي تلك المرحلة زحف على الإمبراطوريّة الغزاة العرب والبرابرة.

توفّي محمّد، الذي دعا إلى الإسلام، في السنة ٦٣٢. وفي أقلّ من قرن، سيطر خلفاؤه على قسم كبير من آسية الصغرى وأفريقيا المتوسّطيّة كلّها، بالإضافة إلى إسبانيا نفسها. أفلن تحاصِر جيوشُهم القسطنطينيّة؟ وقد تسبّبت في نهب الجماعات المسيحيّة المزدهرة في سورية وأرمينية وفلسطين ومصر، وتدمير معظمها. وأدّت الفتوحات الإسلاميّة إلى نتيجة غير متوقّعة، فعزّز سقوط الأقاليم الإمبراطوريّة في الشرق سلطةَ بطاركة القسطنطينيّة إلى حدّ بعيد، إذ إنهم تخلّصوا من كلّ منافسة مع خصومهم الأقدمين في أنطاكية والإسكندريّة – بعد أن أصبحوا عاجزين عن التحرّك – واستطاعوا أن يقفوا في وجه رومة بصفتهم قادة العالم المسيحيّ الشرقيّ بلا منازع. وفي الوقت نفسه أو على وجه التقريب، تعرَّضت دول البلقان لغزو البرابرة، وهم وثنيّون أفاريّون وسلافيّون. وتحت وطأة ذٰلك الاجتياح الجارف، زالت الجماعات المسيحيّة في تلك المناطق التي كانت خاضعة كلّها تقريبًا لولاية رومة الكنسيّة. وخلال قرنَين، خسر العالم المسيحيّ معظم شبه الجزيرة البلقانيّة من مقدونية إلى إليريَة.

وعلى الفور، أمست المواصلات البرّيّة بين القسطنطينيّة وإيطاليا معرَّضة للخطر الشديد. وإنْ تذكّرنا من جهة أُخرى أنّ الطرق البحريّة كانت مهدَّدة باستمرار من قبل القراصنة العرب الذين كانوا يسيطرون على البحر الأبيض المتوسّط، فهِمْنا إلى أيّ حدٍّ بلغ توتُّر العلاقات بين الشرق والغرب.

فلا عجب، والحالة هٰذه، إن انتصب حاجز آخر،

هو حاجز اللغة، بين الشرق والغرب. فقد حلَّت اليونانيّة محل اللاتينيّة التي كانت لغة الإمبراطوريّة الرسميّة، وما لبث الشرقيّون أن نسوها.

«وحتّى الأوساطُ المثقّفة في القسطنطينيّة سرعان ما كفَّت عن التعرّف إلى الغرب والاهتمام به. وقد ظلّت تقاليد الإمبراطوريّة القضائيّة والإداريّة، وتطلّعاتها السياسيّة إلى الشموليّة، حيَّةً في إمبراطوريّة الرومانيّين (Rhomaioi) الشرقيّة. ولٰكن، بفضل اللغة والثقافة والديانة، أصبحت بيزنطية في القرن السابع إمبراطوريّةً يونانيّة إلى حدّ بعيد»[1]. ولم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتّى أخذ اليونانيّون يحتقرون اللاتين ويصفونهم بأنّهم أناس غير مثقّفين وبرابرة، في حين كان اللاتين يرشقون اليونانيّين وحذلقاتهم العقيمة والبيزنطيّة بأسوإ الأحكام المسبقة. فنتج من ذٰلك ازدياد في عدم التفاهم بين الشرق والغرب.

رومة تلتفت نحو الفرنج

پُواتِيه، ٧٣٢: شارل مارتِل. إنّ الذي أنقذ الغرب المسيحيّ من الفتح الإسلاميّ لم يكن إمبراطورًا، بل أميرًا بربريًّا فرنجيًّا. وكان ذٰلك حدثًا بالغ الأهميّة لمستقبل الكنيسة اللاتينيّة التي راحت تزداد التفاتًا نحو المهتدين الجدد البرابرة، وعلى الأخصّ نحو الفرنج، ليحصلوا منهم على العون والحماية. فكانت متّهمة، في نظر القسطنطينيّة، بارتكاب جريمة بحقّ وحدة الإمبراطوريّة، هي جريمة الخيانة.

إلّا أنه لم يكن لدى البابوات حرّيّة الاختيار. فاللُومْبَردِيُّون الذين أصبحوا أسياد إيطاليا الشماليّة ضاعفوا ضغوطاتهم، وإكْسَرْخُسِيَّة راڤنّا، التي كانت آخر نقطة ارتكاز في تلك المناطق من إمبراطوريّة الشرق، انهارت في منتصف القرن، و«تراث القدّيس بطرس»، الخاضع قضائيًّا للقسطنطينيّة وإداريًّا للبابويّة، تعرّض هو أيضًا للخطر. فإلى من تلتفت رومة لتفلت من الاختناق؟ كانت القسطنطينيّة تردّ على طلب النجدة بإرسال مذكّرات رسميّة. فلم يبقَ عندئذٍ إلّا شارل مارتِل وسلالته. ومع ذٰلك فقد تصامَّ الفرنج في بادئ الأمر، إذ إنّ شارل مارتل لم يرَ أيّ سبب لمعاداة أصدقائه اللومبرديّين. لٰكنّ ابنه پِيپان القصير فاقه فطنة. اعترف به الكرسيّ الرسوليّ سنة ٧٥١ ملكًا على الفرنج (بئس الأمر للمِيرُوڤِينيِّين!)، فسدّد دينه بعد مرور بضع سنوات، عندما طرد اللومبرديّين من أراضي راڤنّا وقدَّمها إلى البابا (٧٥٦). تلك هي «هبة پيپان» الشهيرة التي كانت بمثابة وثيقة ولادة الدَولة البابويّة، ولٰكنّها كانت أيضًا سببًا جديدًا للتباعد بين رومة والقسطنطينيّة. فإنّ البابا، اعتبارًا من ذٰلك الوقت، لم يعد يعتبر نفسه تابعًا لإمبراطور الشرق.

في الواقع، إنّ ما قامت به البابويّة كان مجرّد مقايضة سيِّدٍ بعيد بآخر أقرب. وكان لهٰذا الوضع أيضًا مساوئه، مع أنّه ضَمَن للكنيسة عدّة فوائد بما فيها الأمن. فقد اختبرت الأمر مع مارتل الذي نهب الأديرة، وها هي تتثبّت من ذٰلك بالتعامل مع شارلمان الذي أسّس امبراطوريّة الغرب الحديثة. ولٰكنّ ذٰلك مسألة أخرى. فقد تميّز القرن الثامن بصعود الكارُولِينِيِّين الجامح، وتأسيس إمبراطوريّتهم، وانتقال البابويّة المحتّم إلى معسكرهم. وفي غضون ذٰلك، كان الشرقيّون غارقين في صراع داخليّ طويل الأمد ومأسويّ أحيانًا: كما حدث في أزمة محاربة الأيقونات (٧٢٦-٨٤٣). إلّا أنّ تلك الأزمة لم تحسّن العلاقات بين الشرق والبابويّة، فقد أصرّت هٰذه بشدّة على شرعيّة إكرام الصور. ولٰكن على الأخصّ، حين انقلبت رومة نحو الفرنج، لم يكن لدى البيزنطيّين متّسع من الوقت ليهتمّوا بالمسألة. أَوَلم يُعقَد مجمع القسطنطينيّة المُعارِض لإكرام الصور سنة ٧٥٤ في الوقت الذي حُضِّرت فيه هبة پيپان؟ لقد عارض الإمبراطور قسطنطين الخامس تلك الهبة ولا شكّ،

(١) د. أوبُولِنسكي، في **تاريخ الكنيسة الحديث**، ج٢، ص١٠٧، منشورات لُوسُوي (بالفرنسيّة).

ولٰكنّه كان عاجزًا عن التدخّل. . .

وتوالت السنون، وحصل شارلمان من يد البابا، ليلة عيد الميلاد سنة ٨٠٠، على التاج الإمبراطوريّ. وامتدّت سلطته على الغرب كلّه، وقويت الكنيسة - الكنيسة اللاتينيّة طبعًا - في الوقت الذي قويت فيه الإمبراطوريّة. ثم توفّي شارلمان سنة ٨١٤، وفي السنة ٨١٧ اقتسم أبناؤه الإمبراطوريّة وبدأ الانهيار السريع. فضاعف النورمنديّون والعرب غزواتهم، كما أنّ بعض القراصنة المسلمين وصلوا سنة ٨٤٦ إلى رومة حيث نهبوا باسيليكا القدّيس بطرس.

أمّا الشرق فقد خرج من نَفَقِه المظلم. وفي سنة ٨٤٣، استنكر مجمع القسطنطينيّة محاربة الأيقونات، وبوجهٍ نهائيٍّ هٰذه المرّة. صحيحٌ أنّ الأحقاد المتراكمة طوال قرن لم تخمد إلّا بعد وقت طويل. فقد طُرح السؤال: هل يجب اللجوء إلى تطهير الإكليِرُس المعارض لإكرام الأيقونات تطهيرًا جذريًّا؟ أم يجب على العكس مسامحة أولٰئك الذين ندموا على أخطائهم؟ وهٰكذا تَواجَه المتشدّدون والمعتدلون تواجهًا عنيفًا: فشبّ صراع مرير تدخّلت فيه رومة وأسفر عن قيام أزمة خطيرة أطلق عليها التاريخُ اسم «انشقاق فُوطِيُوس».

إغناطيوس أم فوطيوس؟

مَن هو فوطيوس؟ إنّه رجل مميَّز، مقتنع بـ«الاعتدال»، وعالِم لامع لا يفوته شيء ممّا يمتّ إلى الثقافة أو إلى العلوم بِصِلة. وُلد في عائلة نبيلة، وبرع في مهنته السياسيّة إلى أن انتُخِب بطريركًا على القسطنطينيّة في حوالى نهاية السنة ٨٥٨. ولمّا كان مجرَّدَ علمانيّ، اقتبل مجمل الدرجات في أربعة أيّام ورُسم أسقفًا يوم عيد الميلاد. وقد عُقِدت عليه آمال كبيرة: فلعلّه يكون مُحِلَّ السلام في كنيسته وبطريركًا عظيمًا.

ولٰكنّ انتخابه تعرَّض للانتقادات. فصحيح أنّ سلفه البطريرك إغناطيوس المتصلّب استقال بصفة شرعيّة، ولٰكن أَلَمْ يُرغَم على ذٰلك؟ لم يستسلم فريق المتشدّدين، فأصبح إغناطيوس - ربّما كرْهًا - رمز مقاومة «المتطرّفين».

ومع ذٰلك، وجّه فوطيوس رسالةً إلى البابا، كما جرت العادة، ليطلعَه على خبر انتخابه بطريركًا. وفي الوقت نفسه، دعا الإمبراطور الكرسيّ الرومانيّ إلى إيفاد ممثّلين للمشاركة في مجمعٍ جديد يهدف إلى بتّ ما تبقّى من نتائج أزمة الأيقونات. والحال أنّ البابا، الذي كان آنذاك حبرًا عظيمًا هو نيقولاوس الأوّل (٨٥٨-٨٦٧)، قد حمل وظيفته كرئيسٍ أعلى للعالم المسيحيّ على محمل الجدّ. فعيَّن موفدَين بابويَّين ولٰكنّه ارتاب من حدوث شيء ما. فأمرهما بأن يسوّيا أوّلًا مسألة البطريرك الجديد.

افتُتِح المجمع في القسطنطينيّة سنة ٨٦١. وبموافقة الموفدَين البابويَّين، اعترف المشاركون في المجمع بفوطيوس بطريركًا شرعيًّا.

إلّا أنّ المتطرِّفين لم يظلّوا مكتوفي الأيدي. فأرسلوا موفدِين إلى رومة ليدافعوا عن إغناطيوس. وقد أحسنوا الدفاع عنه حتى إنّ البابا اتّخذ قرارًا رهيبًا من دون أن يستمع إلى حجج الفريق الثاني: فنقض قرارات موفَدِيه المؤيِّدة لفوطيوس، وحرمه، وأعلن أن البطريرك الحقيقيّ الوحيد هو إغناطيوس (٨٦٣). ولا داعي إلى التذكير بأنّ هٰذا القرار تَرك انطباعًا سيّئًا جدًّا في أوساط البيزنطيّين. فكانت القطيعة بين رومة والقسطنطينيّة.

«انبثاق الروح من الابن»

في الوقت نفسه، ظهر سبب آخر لنشوء الخلاف بين الكنيستين: هو بلغاريا. فقد اهتدى بُورِيس، ملك ذٰلك البلد، إلى المسيحيّة. وقام المرسَلون البيزنطيّون بتبشير بلده. إلّا أنّ ملكها، وهو سياسيّ محنّك، لم يشأ أن

يرتبط فقط بالقسطنطينيّة وهي قريبة جدًّا من أراضيه. فتوجّه إلى البابا طالبًا إليه إن يقيم سلطة كنسيّة بلغاريّة، وكان البابا مسرورًا جدًّا بالاستفادة من الفرصة: فأوفد مرسَلِين رومانيّين إلى بلغاريا، متسبّبًا بذلك في خلق امتعاض شديد لدى الشرقيّين.

وكان الامتعاض، ولا شكّ، في محلّه. كتب د. أُوبولِنسكي(٢) يقول: «كان التأثير السياسيّ الفرنجيّ يهدِّد بالوصول، في خطى المرسلين الغربيّين، إلى أبواب القسطنطينيّة. فخافت الحكومة البيزنطيّة، وذهلت السلطات البيزنطيّة حين علمت أنّ الإكليرس الرومانيّ فرض في بلغاريا إضافةَ كلمة «والابن» إلى القانون النيقاوي». وكيف لا نتفهَّم موقفها؟ فلا بدّ من الاعتراف هنا بأنّ تلك الإضافة إلى قانون الإيمان لم تكن ضروريّة. فالبابوات أنفسهم يرحّبوا بها في بادئ الأمر: ولٰكنّ المجتمعات المسيحيّة الفرنجيّة فرضتها في آخر المطاف. إنّ اللاهوتيّين يشرحون لنا اليوم أن الذهنيّتين الغربيّة والشرقيّة كانتا تتناولان سرّ الثالوث من ناحيتين مختلفتين، ولٰكنّهم يضيفون أيضًا أنّ الشرقيّين والغربيّين كانوا متّفقين في آخر الأمر على جوهر المشكلة: أي وحدةِ الطبيعة الإلٰهيّة وتَمايُز الأقانيم. فهل يجب الاعتراف بأنّ الروح القدس ينبثق من الآب وحده، كما يؤكِّد الشرقيّون، أم من الآب «والابن» (Filioque)؟ إنّها مجرّد مسألة وجهات نظر، لأنّ هاتين العبارتَين تعبّران في الواقع عن حقيقة سرّيّة واحدة. . .

وعلى كلّ حال، فإنّ مسألة **انبثاق الروح من الابن** زوّدت فوطيوس الذريعةَ التي كان يحتاج إليها لينقل النقاش إلى المستوى اللاهوتيّ. ولمّا كان مجادلًا رهيبًا، استنكر في إحدى رسائله بدعة اللاتين (٨٦٧). ثمّ عُقِد مجمع في القسطنطينيّة حَرَمَ المشاركون فيه البابا نيقولاوسَ الأوّل وأقالوه. إلّا أنّ الوضع ما لبث أن تبدّل. فقد اندلعت ثورة جديدة في القصر أطاحت بالإمبراطور ميخائيل الثالث والبطريرك فوطيوس معه. فاستدعى الأمبراطور الجديد إغناطيوس إلى الكرسيّ البطريركيّ. وعلى الفور، أعيد السلام مع رومة. غير أنّ أنصار فوطيوس لم يستسلموا. ولمّا مات إغناطيوس (٨٧٧)، عاد فوطيوس إلى السلطة. ولحسن الحظّ هدأت الخواطر ورجحت كفَّةُ الاعتدال: ولم يعد يحدث أيُّ انقسام جديد.

الانشقاق

«انطلاقًا من اختلافات دارت إجمالًا حول جميع الأمور، تطوّر الوضع وتباينت الآراءُ إلى أن انتهت «بتغرّب» ومجافاة وجهل متبادل. وكان التطوّر تدريجيًّا على مختلف الصُعُد في الوقت نفسه. ففي بعض الأحيان سادت العناصر السياسيّة، وفي بعضها الآخر سادت العناصر الكنسيّة. ولٰكن، من أوّل الأمر إلى آخره، تغلّب «التغرّب» على مجمل الوضع، حتّى إنّه لا بدّ من أن يُعاد تركيب مختلف الوجوه التي أبرزناها وعالجناها على حدة، في مسيرة معقّدة ومتواصلة كالحياة. فتارةً يتحدّثون عن الخُبز الفطير، وطورًا عن **انبثاق الروح من الابن**، ومرّةً عن البربريّة، ومرّة أخرى وأخيرًا عن المَلكيّة البابويّة. وكان هناك، وما يزال، كثير من نقاط التعارض، ولٰكن هناك، في آخر الأمر، تعارضًا واحدًا وهو التعارض بين الشرق والغرب.

وقد زادت حدّة الانقسام بعد انغلاق كلّ فريق من العالم المسيحيّ في تقليده الخاصّ وحُكمه على الفريق الآخر من وجهة نظر تقليده. وبعد الانفصال الذي شهده القرن الحادي عشر، تصلّبت أنواع التعارض بوجه نهائي، لمّا اعتبر كلُّ طرف أنّ تقليدَه هو المطلق. وهٰكذا انتهت كلُّ مقاربةٍ حاولت إعادة الوحدة، بمزيد من التباعد. . . ومن جهة أُخرى، لا بدّ من الإقرار بأنّ القرن والنصف الذي تلا الانفصال شهد كثيرًا من التغيُّرات في الغرب. وحين نعيد، على مرّ السنين، البحث في اختلافاتنا والحوار مع بعض الأصدقاء الأرثوذكس، ونلقي نظرةً عن كثب إلى النقاط اللاهوتيّة التي يتعثّرون بها، نلاحظ أنّها تطوّرت أو تجمّدت كما هي عندنا وبوجه ملحوظ، اعتبارًا من نهاية القرن الحادي عشر الذي تحوّل فيه «التغرّب» إلى افتراق».

(إيڤ كُونغار، **بعد تسعمائة سنة**، منشورات شوفتون، ١٩٥٤)

(٢) المرجع السابق، ص١٢٤.

الاتّحاد المستحيل

عادت الوحدة إذًا بين الكنيستين، وحلّ السلام ثانيةً: ودام نحو مائتي سنة. ولٰكنّه كان «سلامًا غريبًا»، لأنّ الظلمة ما لبثت أن خيّمت على الغرب. فإنّ الإمبراطوريّة التي أسّسها شارلمان كانت فاسدة. ولم تكفِ الجهودُ التي بذلها بعض البابوات الشجعان - كالبابا يوحنّا الثامن (٨٧٢-٨٨٢) - لقلب مجرى التاريخ. فإنّ الكارُولِينيِّن الأخيرين كانوا عديمي الكِفاية. وبعد ذٰلك، أُصيبت البابويّة نفسها بالفساد في القرن العاشر المعروف «بالقرن الحديديّ».

وفي مقابل ذٰلك، كان الشرق في ذروة نهضته، بعد أن أعادت سلالةُ المقدونيّين، التي أسّسها باسيليوس الأوّل سنة ٨٦٧، الإمبراطوريّة البيزنطيّة إلى ذروة مجدها. وبتوافر السلطة والقوّة والثروة، عادت القسطنطينيّة عاصمةَ العالم.

فعندما هدّد النورمنديّون والمسلمون الغربيّون تراثَ القدّيس بطرس، ماذا كان بوسع البابا أن يفعل سوى أن يلتفت نحو إمبراطوريّة الشرق طلبًا للحماية؟ فما كان من الإمبراطور، المسرور برؤية سلطته تُفرَض مجدّدًا على إيطاليا، إلّا أن أرسل أسطوله... وبعد أن ذُلّل العائق الفرنجيّ، زال السبب السياسيّ الأساسيّ الذي أدّى في الماضي إلى الخلاف بين رومة والقسطنطينيّة.

ومع ذٰلك، لم تَعُد القلوبُ متحمّسة. فعلى الصعيد الدينيّ، ظلّت مشاعر الحسد والحقد تتراكم، بدل أن تخمد هي أيضًا، تمامًا كما يحصل عادة بين زوجين فقدا القدرة على التفاهم. فكلّ شيء كان ذريعة للانتقادات، وأدنى اختلاف في التقاليد المتّبعة يتّخذ حجم بدعة كبيرة. والاحتقار التقليديّ الذي كان الشرقيّون يكنّونه للبرابرة الغربيّين وجد غذاءً مفضّلًا في مجد بيزنطية المستعاد ومصائب رومة. وحتّى على الصعيد اللاهوتيّ، لم يعد البيزنطيّون يتردّدون في إعادة طرح مسألة امتيازات كرسيّ بطرس التعليميّة التي لم يشكّوا فيها قطّ بجدّيّة حتّى ذٰلك الوقت. ولم تزل الكُتُب المعادية للرومانيّين، التي كتبها فوطيوس في حمّى مجادلات ٨٦٧، تنتشر وتقوم بدور بارز في تغيير الأجواء.

وكذٰلك حصلت بعض المصادمات التي أثارت الأهواء المدفونة وأنذرت بالمأساة. فعلى سبيل المثال، حين رغب الإمبراطور لاون السادس في التزوّج مرّةً رابعة، رفض البطريرك السماح له بذٰلك: لأنّ التقليد الشرقيّ ينفر من الزيجات المتكرّرة. أمّا رومة، فلم تمنع قطّ أن يتزوّج الأراملُ مرّةً أُخرى. فاستنجد الإمبراطور بالبابا، فوقع البابا في الفخّ وأقرّ له بالحقّ. كان الحدث أمرًا ثانويًّا، إلّا أنّ غضب الأكليرس الشرقيّ كان شديدًا: ولم ينسوا قطّ تلك الإهانة.

ولٰكن، عند حلول القرن الحادي عشر، بدأ الغرب يستعيد قواه. وقد أعاد إليه بعضَ الوحدة هنري الثالث، ملك ألمانيا وإيطاليا وبُرغونيا. ثمّ إنّ «الإمبراطوريّة الرومانيّة الجرمانيّة المقدّسة» أبصرت النور سنة ١٠٤٦. وكذٰلك نهضت البابويّة مجدّدًا. وهيّأت حبريّةُ لاون التاسع (١٠٤٨-١٠٥٤) حبريّةَ غريغوريوس السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) والإصلاحَ الكبير الذي دُعِي باسم ذٰلك البابا.

هٰذا هو الوقت الذي اختاره بطريرك القسطنطينيّة، ميخائيل قِيرُولاريوس، وكان رجلًا عنيفًا وطموحًا، لشنّ أعمال عدائيّة. ولمّا كان مقتنعًا بأفضليّة كرسيّه، أراد أن يحسم الأمر نهائيًّا في ما يختصّ بالرئاسة الرومانيّة. فنشر بيانًا شديد اللهجة يشجب فيه التقاليد اللاتينيّة المغلوطة.

عندئذٍ، أوفد البابا إلى القسطنطينيّة همبرتو، وهو لُورينيٌّ متعطّش إلى الإصلاح الكنسيّ ولٰكنّه أقلّ الناس لباقةً. فكانت المواجهة، مع أنّها لم تكن أكثر أو أقلّ خطورة من سابقاتها. ولٰكنّ التمزّق كان حاسمًا في مجرى التاريخ، فلم يُرَقَّع هٰذه المرّة.

الفصل الثالث

محاربة الأيقونات: الرهان

وراء تلك «الخلافات البيزنطيّة» التي قامت حول الصُوَر،
يبرز سؤال ما زلنا نطرحه اليوم:
هل يمكن الإيمان أن يتجرّد من تعبيراته الحسّيّة
حتّى فُقدان تجسّده في الحقائق البشريّة؟

٨٤٣: عُقد مجمع في القسطنطينيّة أعاد بوجهٍ نهائيّ إكرامَ الصُوَر. وأتى ذلك في ختام أزمة دامت نحو مائة وعشرين سنة، تفجّرت فيها الأحقاد تفجّرًا لم يسبق له مثيل ونتج منه سقوطُ عشرات الشهداء وتراكُمُ الكثير من الدمار الذي لا يعوَّض.

إنّ محاربة الأيقونات هي تدمير الصوَر الدينيّة. تحوّلت إلى نظريّة، فأمست بدعةً من البدع. تعود جذورها إلى عدائيّة نحو كلّ أنواع الفنّ الدينيّ، وهي عدائيّة ورثتها الكنيسة من المجمع اليهوديّ وتتأصّل على كلّ حال في الكتاب المقدّس نفسه (راجع خر ٢٠/ ٤)، مع أنّ التقليد المعادي للفنّ الدينيّ زال منذ زمن بعيد في الكنيسة. إنّ إكرام الصور المقدّسة - أو الأيقونات - التي كانت تمثّل بوجهٍ خاصّ المسيح أو القدّيسين، نجده للمرّة الأُولى في القرن الخامس. ثمّ انتشر في القرن السادس وأصبح في القرن السابع ميزة شائعة في التقوى الشعبيّة البيزنطيّة. وقد حمل الطابعُ الشعبيّ، الذي تميَّز به ذلك الإكرام، أولئكَ المتديِّنين إلى عدم التمييز في الواقع بين الصوَر وما كانت تمثّله، وبالتالي إلى اجتياز الحدود الدقيقة الفاصلة بين الإكرام الحقيقيّ وعبادة الأصنام الخرافيّة. ولا نستغرب الارتيابَ الذي شعر به عددٌ من رجال الدين البيزنطيّين - ومنهم أوسعهم ثقافةً في كثير من الأحيان - حيال تلك التقوى التي لا تقاوم في الظاهر. وهكذا، كان الدافع الأوّل الذي حرّك محاربِي الأيقونات الخوف المبرَّر إلى حدٍّ ما من العودة إلى عبادة الأصنام الوثنيّة. إلّا أنّ العنف لم يحلّ قطّ ذلك النوع من المشاكل. ومن جهة أُخرى، أراد محاربو الأيقونات أن يضعوا نظريّةً تفسّر عدائيّتهم للصور. فاعتقد الإمبراطور قسطنطين الخامس أنّه من الأفضل أن يستخدم الحجج المسيحانيّة لتبرير مواقفه المعادية بعنف للأيقونات فقال إنّ الصور الحقيقيّة تنقل ما تمثّله، وبالتالي لا يمكن أن تكون صُوَر المسيح إلّا هرطوقيّة، لأنّها إمّا تفصِل بين طبيعتَي الربّ - الإلهيّة والإنسانيّة - وإمّا تخلط بينهما.

أمّا أنصار الصور والأيقونات فلم يصعب عليهم أن يعارضوا ذلك التفكير. فكانوا يعتبرون أنّ الصورة مختلفة في جوهرها عمّا تمثّله، وأنّ إكرامها لا يمكن أن يُعتَبَر عبادة أصنام، تمامًا كما أنّ إكرام صور الإمبراطور المطبوعة على النقود مثلًا لا يعني حتمًا عبادته كإله.

أُزيلت تلك الصعوبة في النصف الأوّل من القرن الثامن، ويعود الفضل في ذلك إلى القدّيس يوحنّا الدمشقيّ، اللاهوتيّ الأوسع نفوذًا في عصره. فقد توصّل إلى تقديم حجج المدافعين عن الصُوَر في تعليم واضح وشامل. وهو الذي عَرف كيف يشرح أنّ الأيقونات «عِظات صامتة» و«كُتُبٌ للأمّيّين»، وهو الذي أقام صلة أساسيّة بين معنى الأيقونات ولاهوت التجسّد، وميَّز العبادة والتعبُّد الواجبَين لله وحده عن الإكرام الواجب للصُوَر. وقصارى القول إنّ القدّيس يوحنّا الدمشقيّ هو الذي عمل على إحلال السلام. وكان أحد كبار المدافعين الأوّلين عن الفنّ الدينيّ.

الفصل الرابع

اهتداء السلافيّين

شقيقان ورسولان عظيمان، هما كِيرلُّس ومِيتُودِيُوس،
أصبحا، في القرن التاسع، مرسلَين إلى
الشعوب السلافيّة. من هنا ابتدأت ملحمة دينيّة حقيقيّة.



القدّيسان كيرلّس وميتوديوس إلى جانب المسيح يحرسهما ملاكان.

كانت الكنيسة البيزنطيّة على الدوام كنيسةً إرساليّة. ولٰكن، بعد الاحتجاب الذي فرضته أزمةُ محارَبة الأيقونات، نشهد قيام عصر رسوليّ ذهبيّ حقيقيّ، استفاد منه السلافيّون بوجهٍ خاصّ.

وتأثّرت تلك الحركة الإرساليّة خصوصًا برسولَين عظيمَين شقيقَين، هما كِيرلُّس ومِيتوديوس. تنسّك ميتوديوس منذ ٨٤٠. أمّا أخوه قسطنطين - الذي لم يتّخذ اسم كيرلّس إلّا في نهاية حياته - فقد لمع في مهنته علّامةً ودبلوماسيًّا. ولٰكنّهما أمضيا طفولتهما في تِسالُونِيقي، وكانت في ذٰلك الزمن مدينةً مزدوجة اللغة، وكانا يُتقِنان إلى أبعد حدّ اللهجة السلافيّة المحكيّة في مقدونية. فحين طلب أمير موراڤيا، في سنة ٨٦٢، مُرسَلًا يعرف اللغة السلافيّة، كان من الطبيعيّ أن يُعيِّن الإمبراطورُ ميخائيلُ الثالث كيرلّسَ وميتوديوسَ للقيام بتلك المهمّة.

مُرسَلان عظيمان

وهٰكذا ابتدأت ملحمةٌ دينيّة حقيقيّة ما زلنا اليوم نشعر بانعكاساتها. فقد ضفر الأخَوان، الناسك والعالم، جهودَهما ليزوِّدا المُوراڤيّين ثقافةً دينيّة حقيقيّة متأصِّلة في الثقافة السلاڤيّة، بدءًا بالشعائر الطقسيّة نفسها: فكانت الرتب تقام بلغة البلاد، وتُرجِم الكتاب المقدَّس إلى تلك اللغة نفسها، لا بل ابتكر قسطنطين أبجديّة أصبحت في ما بعد الأبجديّة «الكيرِلّسيّة»، وهي ما زالت تُستعمل اليوم في روسيا.

إلّا أنّ موراڤيا كانت موضع تنافس سياسيّ شديد بين الشرق والغرب. فكان ملك باڤاريا، لويس الجرمانيّ، يريد أن يمدّ إليها منطقة نفوذه. وأرسل إليها هو أيضًا مرسلين نظروا نظرةَ استقباح إلى نجاح المرسَلين البيزنطيّين. هٰذا وإنّ الإكليرس الشرقيّ كان يعتبر أنّ استخدام اللغة الخاصّة بالبلاد في الليترجية أمر يقارب البدعة. فتلقّت رومة، ولا عجب، تقاريرَ قليلة التأييد للشرقيّين. ولٰكنّ البابا نيقولاوس الأوّل كان يتمتّع بما يكفي من السلطة فخفّف من حسد الجرمانيّين.

وأخيرًا، قرّر الأخوان أن يسافرا إلى رومة، فوصلا إليها في شتاء ٨٦٧–٨٦٨. وكان قد اعتلى عرشَ القدّيس بطرس بابا جديد هو هدريانُس الثاني. فقرّر، رغم المعارضة الجرمانيّة، أن يؤيّد الإرساليّة البيزنطيّة في موراڤيا تأييدًا تامًّا. فكان ذٰلك نصرًا عظيمًا لكيرلُّس وميتوديوس ولٰكنّ كيرلُّس كان خائر القوى فتوفّي في رومة. وعاد أخوه وحيدًا إلى البلقان، وتحديدًا إلى پَنّونيا حيث كلَّفه البابا بتطبيق الوسائل التي استخدمها بنجاح في موراڤيا. وأصبح سنة ٨٦٩ رئيس أساقفة پَنّونيا، وهي أبرشيّة كبيرة كانت تشمل موراڤيا نفسَها.

وعاش خمس عشرة سنة أُخرى من الصراعات والآلام - فخصومه لم يستسلموا قطّ - لا بل خصوصًا من النشاط الذي لا يكلّ: لقد دافع ميتوديوس عن علمه بكلّ قواه. غير أنّه توفّي سنة ٨٨٥ وانهار كلُّ شيء: فسارع عدوُّه الأكبر، الأسقف الجرمانيّ ڤِيشِنغ، إلى رومة وحصل من البابا إسطفانُس الخامس على استنكار الليترجية السلاڤيّة. فأُوقِف أبرز تلاميذ ميتوديوس وطُرِدوا من البلاد.

روسيا تُصبح مسيحيّة

لٰكنّ ذٰلك لم يمنع أن يستفيد غيرُ الموراڤيّين استفادةً ثابتة من عمل الشقيقَين البيزنطيّين. فالليترجية والكتاب المقدّس اللذين ترجماهما إلى السلاڤيّة انتشرا في بلغاريا أوّلًا، ثم وصلا إلى روسيا. وسنة ٩٥٧، اقتبلت الوصيّةُ الروسيّة أُولغا العمادَ، ثمّ زارت الإمبراطور البيزنطيّ قسطنطين السابع. وقد جَعل ڤلادِيمِير، حفيدُ أُولغا، مِن إمارة كِييڤ كلِّها أمّةً مسيحيّة جديدة في فَلَكَ بيزنطية الدينيّ والثقافيّ.

صحيحٌ أنّ الاهتمامات السياسيّة قامت بدورٍ موازٍ لدور الدين في قرار ڤلاديمير: ففي القرن الوسيط، كان اعتناق ديانةٍ ما يقتضي التعلّق بإحدى الحضارات. وإنّ كتاب **أخبار نسطور** الروسيّ الشهير هو صورة صحيحة لتردُّدَ الأمير أمام مختلف الخيارات التي واجهها آنذاك: الإسلام، أو المسيحيّة الغربيّة، أو الأرثوذكسيّة البيزنطيّة، أو حتّى اليهوديّة التي اعتنقها جيرانُه الخَزَر. لا شكّ في أنّ تلك «الأخبار» تتضمّن شيئًا من الأسطورة، ولٰكنّها تعكس وضعًا حقيقيًّا. وقد عرف المرسَلون البيزنطيّون أن يستفيدوا من الظروف السياسيّة ليحوِّلوا الوضع إلى مصلحتهم. ففي السنة ٩٨٧، اختار ڤلاديمير بيزنطية، وقَبِل العماد في عاصمته كييڤ. وكان الإمبراطور باسيليوس الثاني عرّابه. ولٰكنّه، في مقابل التبعيّة الثقافيّة والسياسيّةالتي فرضها ذٰلك الاهتداء، طالب بثمنٍ لا سابق له: أن يتزوّج حنَّة، الأميرة «المولودة في الأُرجوان» وشقيقة الإمبراطور. قاوم البيزنطيّون مدّةً طويلة ذٰلك الزواج، قبل أن يوافقوا عليه. ولم يحصل الأمير الروسيّ على ما كان يتمنّاه إلّا

بعد أن أرسل جيشه، الذي نقله أسطول صغير إلى القسطنطينيّة بسرعة فائقة، ليحمي باسيليوس من تمرُّد بَرداس فُوقاس. وفضلًا عن ذٰلك، كان عليه أن يحتلّ مدينة خِرْسُون في القِرم ويستخدمها رهينةً، للقضاء على جيوب المقاوَمة.

وأخيرًا، لم تُصبح الأرثوذكسيّةُ البيزنطيّة الديانةَ الرسميّة في روسيا إلّا سنة ٩٨٩ أو ٩٩٠. واعتمد أهل كييف عمادًا جماعيًّا في نهر الدنيِبْر عن يد الكهنة اليونانيّين الذين رافقوا الأميرة حنّة التي أصبحت أخيرًا زوجةَ ڤلاديمير. وهٰكذا انضمّت روسيا إلى أسرة الشعوب المسيحيّة.

اهتداء ڤلاديمير أمير كييف

«دعا ڤلاديمير نُبَلاءَه وشيوخَ المدينة وقال لهم: «ها قد جاء البلغاريُّون إليَّ قائلين: «تَبَنَّ شريعتنا». ثمّ جاء الألمان وأشادوا بشريعتهم. وبعدهم جاء اليهود، ومن ثمّ جاء اليونانيّون يذمّون جميع الديانات ويشيدون بديانتهم، وتكلّموا كثيرًا فروَوا تاريخ العالم كلَّه منذ البداية. كانوا يتحدَّثون بمهارة، فكان الاستماع إليهم أمرًا رائعًا، وكان كلّ واحد يستمتع بالإصغاء إليهم وهم يُعلنون أنّ هناك عالمًا آخر. وكانوا يقولون: «إن اعتنق أحدٌ إيماننا، فسيقوم بعد الموت ولن يموت ثانيةً، ولٰكن إن اعتنق إيمانًا آخر، فسيحترق في النار في العالم الآخر». فما رأيكم؟ وبمَ تجيبون؟»

فأجاب النُبلاء والشيوخ قائلين: «أنت تعلم أيّها الأمير أنّ ما من أحدٍ يذمّ ما له بل كلّ واحد يُشيد به. فإذا أردتَ أن تستخبر بدقّة، فلديك عددٌ من الرجال: أرسِلْهم ليتبيَّنوا ديانة كلّ أحد وكيف أنّ كلّ واحد يكرم الله». فطاب هٰذا الكلام للأمير ولجميع الحاضرين. واختاروا عشَرة رجال صالحين وحكماء، وقالوا لهم: «اذهبوا أوّلًا إلى البلغاريّين وتبيَّنوا إيمانهم». فذهبوا، وما إن وصلوا إلى هناك حتّى رأوا فظاعة أعمالهم وعبادتهم في جوامعهم. فعادوا إلى بلادهم. ثمّ قال لهم ڤلاديمير: «اذهبوا الآن إلى الألمان وراقبوا أيضًا، ثمّ توجَّهوا من هناك إلى بلاد اليونانيّين». فوصلوا إلى بلاد الألمان وأبصروا خدمتهم الإلٰهيّة، ثمّ قصدوا القسطنطينيّة وزاروا الإمبراطور. فاستفسر الإمبراطور عن سبب مجيئهم. وأخبروه بكلّ ما جرى. ففرح الإمبراطور كثيرًا لسماعه هٰذا الكلام وأحسن وِفادتَهم في ذٰلك اليوم. وفي اليوم التالي، أرسل إلى البطريرك يقول: «لقد حضر بعض الروس ليتبيَّنوا إيماننا، فأعِدَّ الكنيسة والإكليرُس، والبَس الحُلَلَ الحبريّة ليرَوا مجد إلٰهنا» (. . .).

ولمّا عاد موفَدو ڤلاديمير إليه، قالوا: «لَمْ نَعرِف هل كنّا في السماء أم على الأرض، لأنّنا لا نجد مثل ذٰلك الجمال على الأرض. لذٰلك لا نعرف ما يجب أن نقول، ولٰكنّنا نعرف تمامًا أمرًا واحدًا: وهو أنّ الله يقيم هناك مع البشر . . .»».

(مِن **أخبار نسطور**، في كتاب الأب رينه ماريشال: **المسيحيّون الأوّلون في روسيا**، باريس، ١٩٦٦ (بالفرنسيّة) إنّ **أخبار نسطور**، التي تعود إلى القرن الثاني عشر، مصدرها دير پِتْشِرسْكي في كييف. حكم ڤلاديمير من ٩٧٢ إلى ١٠١٥)

الفصل الخامس

مجد بيزنطية

بقلم جان مِينْدُورف(*)

على عتبة العام الألف، وبينما كان الغرب فريسةً لأزمة شديدة،
كانت بيزنطية المستعادة تسطع بكلّ بهائها.
إنّها مدينة النور في ذٰلك العصر. على رأسها
إمبراطور وبطريرك متّحدان اتحادًا فريدًا في نوعه،
وفي قلبها شعب من النسّاك
ظلّت الكنيسة الشرقيّة بفضلهم وفيّةً للإيمان
على الرغم من تقلّبات تاريخها.

«لم نكن ندري هل كنّا على الأرض أم في السماء...» هٰذا ما أعلنه الموفَدون الروس العائدون من مهمّة في القسطنطينيّة.

نحن في السنة ٩٨٧، على أبواب العام الألف. وفي حين بدا الغرب غارقًا مرّة أُخرى في البربريّة، كان الشرق يسطع بكلّ أنواره. فقد أتى الإصلاح المقدونيّ، الذي بُوشر قبل مائة سنة، بجميع ثماره، وأصبحت القسطنطينيّة قِبْلة أنظار العالم. لٰكنّ زوّارها كانوا يدهشون على الأخصّ، من بين روائع كثيرة، بأبّهة البلاط الإمبراطوريّ وعظمة الليتُرجيا البطريركيّة.

ليتُرجيتان منسَجِمتان

ما هي الليترجية البطريركيّة؟ إنّها الليترجية التي كان يُحتَفل بها خصوصًا في «الكنيسة الكبرى»، كنيسة القدّيسة صوفيا، وكانت أوسع وأعظم بناء ديني في العالم المسيحيّ. فبعد أن شوّهها محاربو الأيقونات، أُعيد تزيينها: فتغطّت جدرانُها وقببُها بفسيفساءات رائعة.

وكان مئات الكهنة والشمامسة والشمّاسات وغيرهم من الإكليريكيّين يتولّون الاحتفال بالرُتب التي كانت تجري وفق طقس جليل – هو الطقس الذي ما زال متّبعًا حتّى اليوم باسم «الطقس البيزنطيّ».

أما البلاط الإمبراطوريّ، فكان أكثر بهاءً، ويقوم فيه نوع من الليترجية. فكما كانت الحال في سائر الدول إبّان القرن الوسيط، هٰكذا كانت الحياة الدينيّة في الإمبراطوريّة البيزنطيّة غير منفصلة عن حياتها السياسيّة، حتّى إنّ قانون يُسْطِنْيانُس نفسَه كان يُستهلّ بشهادة إيمانٍ مسيحيّ. وكانت رتابة البلاط اليوميّة، وقد ورد وصفها بالتفصيل في **كتاب الاحتفالات** لقسطنطين «المولود في الأرجوان» (٩١٣-٩٥٩)، تتخلّلها الأناشيد الليترجيّة أو شبه الليترجيّة، والتطوافات والأعمال الطقسيّة: وكان ذٰلك كله يهدف إلى اعتبار الأمبراطوريّة مدينةً لله، والملِكِ ممثّلًا للمسيح على الأرض.

ولٰكنّ الإمبراطور لم يكن يُعتَبَر وحده صورةً للربّ:

(*) Jean Meyendorf، أستاذ في إكليريكيّة القدّيس ڤلاديمير – نيويورك.

فإنّ المجموع الشهير المنسوب إلى فوطيوس والمعروف باسم **إيباناغوغِه** يتحدَّث عن «نعمتَين عَظيمَتين» وهبهما الله للبشريّة، هما الكهنوت والإمبراطوريّة. ويصف بطريركَ القسطنطينيّة بأنّه «صورة حيّة للمسيح» في شؤون الكنيسة والدولة على السواء.

فالمجتمعُ المسيحيّ كان يديره ثنائيٌّ أعلى – «مَلَكيّة ثنائيّة» –. ونجد تلك الفكرة في العديد من النصوص. وقد كَتب يوحنّا مُورُوپُوس، وهو أسقف من القرن الحادي عشر، يقول: «إنّه لقضاء إلٰهيّ حكيم أن يستحقّ الإمبراطور والبطريرك أن يُدعى أحدهما ملك الأجساد والآخر راعي النفوس». وقد ساهم قيام تلك الملكيّة الثنائية مساهمة كبرى في مجد الحضارة البيزنطيّة – وطرافتها وتفرُّدها –.

تآلُف السلطات

كان ملكُ الأجساد وراعي النفوس، أي الإمبراطور والبطريرك، يستمدّان سلطتهما من الله، وكان كلٌّ منهما صورةً للمسيح. غير أنّ وظائفهما كانت مختلفة. كان تمايز السلطات واضحًا من حيث المبدأ. أمّا في الواقع، فلم تكن مجالات كلٍّ واحد محدَّدة بوضوح كافٍ يحول دون حصول بعض التداخل. وهنا دَورُ التوافق أو التآلف بين السلطتين، كما ورد في نصّ قوانين يُسطنيانُس عدد ٦. فعلى سبيل المثال، كان جائزًا أن يتولّى الإمبراطور حراسةَ الإيمان والتشريعَ في المجال العمليّ كلّه من حياة الكنيسة: فهو الذي يضع حدود الأقاليم الكنسيّة، وهو الذي يدعو إلى عقد المجامع، وله الكلمة الفصل في انتخاب كبار رؤساء الكنيسة.

وعلى عكس ذٰلك، كان البطريرك والأساقفة يمارسون وظائف سياسيّة هامّة. ففي غياب الملك، غالبًا ما كان البطريرك يتولّى إدارة الإمبراطوريّة. وفي حال تُوفّي الإمبراطور، وكان الوريثُ الشرعيُّ قاصرًا، كان البطريرك يُدعى أيضًا إلى ممارسة الوصاية. وهٰذا ما حصل في أثناء طفولة قسطنطين السابع، حين أتاحت وصاية نيقولاوس المتصوِّف الشهيرة (٩١٢-٩٢٥) للحبر أن يقوم بدورٍ حاسم في إبّان غزو الإمبراطوريّة الذي شنّه شمعون البلغاريّ.

إذًا، لم يكن يُنْظَرُ إلى الكنيسة والدولة في بيزنطية على أنّهما كيانان منفصلان انفصالًا قانونيًّا: فلم يكن هناك سوى مجتمع مسيحيّ واحد هو المسكونة، أي الإمبراطوريّة الرومانيّة الشاملة نظريًّا، التي مُزِجت حدودها بحدود الكنيسة الشاملة أيضًا، منذ عهد قسطنطين. فليس هناك سوى مجتمع واحد تديره سلطتان تجسِّد كلٌّ واحدة منهما القطبَين الروحيّ والزمنيّ اللذين تقوم عليهما حياة المسيحيّ في العالم.

هل يمكننا أن نفصل النفس عن الجسد؟ هل يمكننا أن نتصوَّر في العالم المسيحيّ نشاطًا بشريًّا لا يكون مقياسه النهائيّ ملكوت الله؟ وأخيرًا، هل يمكننا – باستثناء أسرار الكنيسة السبعة – أن نحصر دائرةً يكون فيها الروحيُّ منفصلًا عن الزمنيّ انفصالًا تامًّا؟ إنّ المشكلة الشائكة، مشكلة العلاقات بين الإيمان والسياسة، لم تجد قطّ حلًّا نهائيًّا في تاريخ المسيحيّة. ونستطيع أن نقول، في المجرَّد على الأقلّ، إنّ الحلّ الذي توصَّلت إليه بيزنطية هو حلٌّ مُغْرٍ. فمِن وجهة نظرٍ مثاليّة، ألا يراعي «التآلف» بين الإمبراطور والبطريرك طبيعةَ الإنسان المسيحيّ بطريقةٍ أفضل من الانفصال البارد بين الكنيسة والدولة؟

دولة تستأثر بالكنيسة

ومع ذٰلك، كثيرًا ما كان الإمبراطور يتجاوز الحدّ في التعدّي على مجال البطريرك: فالأمثلة على الاستبداد الإمبراطوريّ الصرف كثيرة في تاريخ الكنيسة البيزنطيّة. أوليس «التآلف» سوى تلطيف للإشارة إلى نظام «قيصريّ بابويّ» في الواقع؟ كان من السهل على الإمبراطور الحازم، القابض على زمام السلطة، أن

يعزل البطاركة والأساقفة أو يُنَصِّبهم، وأن يضغط على المجامع، وحتّى أن يسنَّ القوانين في مجالات خاصّة بالكنيسة، كنظام الزواج أو الوضع القانونيّ في أحد الأقاليم الكنسيّة. وهٰذا ما حدث فعلًا حين ولّى لاون السادس أخاه إسطفانُس على الكرسيّ البطريركيّ، وهٰذا ما صنعه رومانُس لِيكابِينُس لابنه ثاوُفِيلاكتُس البالغ من العمر ستّ عشرة سنة فقط، علمًا بأن ثاوفيلاكتُس سبَّب طوال مدّة ولايته البطريركيّة، كثيرًا من العثرات لمعاصريه، بولعه المفرط بجياد السباق.

ولٰكنّنا لا نقصد هنا إلّا حالات استثنائيّة. ففي الواقع، ظلّ الإمبراطور في بيزنطية «مجرّد مؤمن يخضع لقوانين أعلى من قوانينه، وتنتهي سلطته عند حدود الكنيسة: فإن كان هرطوقيًّا أدانته، وإن كان أرثوذكسيًّا خضع لها» (إميل بريهييه). إنّ الملوك الذين خانوا الإيمان القويم في ماضي بيزنطية هم أكثر من أن يستطيع خلفاؤهم ادّعاء العصمة. ولٰكن إذا حصل بعض التجاوزات، فهي الشواذ الذي يثبت القاعدة. فهل هناك قيصريّة بابويّة؟ لا يجوز الاتّهام هنا. فإنّ المسيحيّة الشرقيّة لم تعرف أيّ دافع دينيّ أجبَر المؤمنين على الاعتراف بسلطة الإمبراطور التعليميّة. ومن جهة أُخرى، فقد وُجد دائمًا كهنة ورهبان وعلمانيّون قاوموا التجاوزات، بدءًا بالبطاركة، فقد كانوا يَغارون بشدة، في معظمهم، على امتيازاتهم.

والأمثلة على ذٰلك كثيرة. فالبطريرك پُولِيُكتُس (٩٥٦-٩٧٠)، خليفة ثاوفيلاكتُس الذي سبَّب العثرات، لم يتأخّر في إعادة الهيبة إلى كرسيّه في وجه الإمبراطورَين العسكريَّين نِيقِفُور الفقّاس ويوحنّا بن شِمَشقِيق. وقد مكَّنته سلطته الشخصيّة من القيام بدور حاسم في وصول نيقفور إلى الامبراطوريّة (٩٦٣)، ولٰكنّه هو الذي تجرّأ أيضًا على أن يحرم الإمبراطور بسبب زواجه بثاوفانُو، أرملة رومانُس الثاني الإباحيّة، وإصدارِه مرسومًا يستملك بموجبه ممتلكات الكنيسة. وهو الذي فَرَضَ على يوحنّا بن شِمَشقيق تكفيرًا علنيًّا بسبب مقتل نيقفور (٩٦٩) ومَنَعَه، لا أقلّ ولا أكثر، من أن يتزوّج ثاوفانو، التي عادت فأصبحت حرّةً من أيّ رباط.

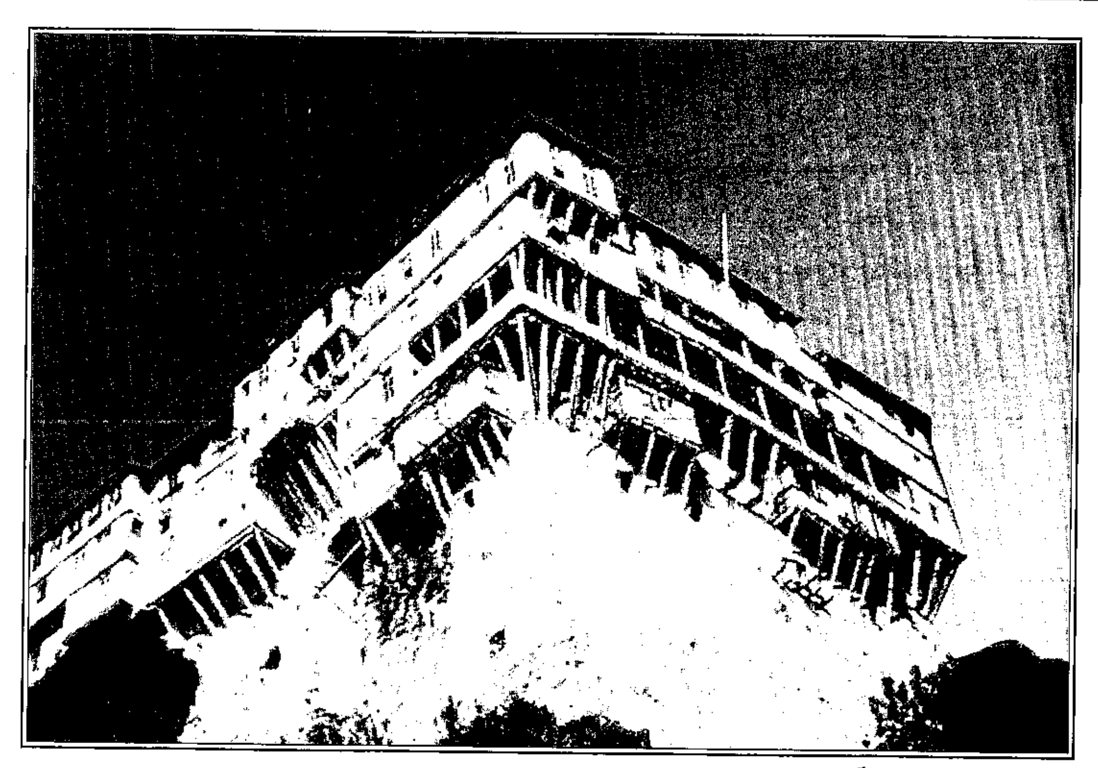
وفي القرن الحادي عشر، نرى ميخائيل قِيرُولارِيُوس (١٠٤٣-١٠٥٨) - وكان شخصًا غير جذّاب، ولٰكنّه عرف كيف يفرض نفسه على معاصريه - يُظهر بأعماله ذٰلك الاستقلال عن الإمبراطوريّة، الذي يستطيع البطاركة البيزنطيّون أن يتمتّعوا به، في مسألة العلاقات بالغرب: وقد تثبَّت ذٰلك الاستقلال في أثناء محاولات الاتّحاد بروما، التي قام بها أباطرة سلالة پالِيُولُوغُس.

وقصارى القول إنّ «التآلف»، أو المَلَكية الثنائيّة التي مارسها الإمبراطور والبطريرك، والتي لم يضمن أيُّ قانون ثابت استمرارَها، قام خصوصًا على ضمير المسيحيّين البيزنطيّين إجمالًا وعلى إيمانهم الدينيّ: فكانت هيبة السلطة الكنسيّة ترتكز على وظائفها الأسراريّة والتعليميّة، وهي وظائف لم يفكّر أيّ إمبراطور في منازعة هٰذه السلطة عليها، علمًا بأنّ تلك الوظائف كان يصعب إبطال مفعولها حين يمارسها أشخاص مثل پُولِيُكتس أو ميخائيل قيرُولارِيوس.

الازدهار النسكيّ الواسع

إلى جانب البطريركيّة والإمبراطوريّة، وهما السلطتان المتوازنتان توازنًا دقيقًا بفضل مبدإِ «التآلف»، ساهمت سلطةٌ ثالثة - وبطريقة قد تكون أكثر ثباتًا - في إعلاء مجد بيزنطية: وهي التنسُّك.

لقد اعترفت الكنيسة الشرقيّة على الدوام للحركة النسكيّة بوظيفةٍ هامّة تقوم على الشهادة لملكوت الله المختلف في جوهره عن العالم. وفي هٰذا بُعْدٌ أساسيّ أُخيريّ - تتميَّز به الرسالة المسيحيّة. في بيزنطية، ازدهر التنسُّك في أكثر أنماطه تنوّعًا، من الجماعات الكبرى المنظَّمة حتّى المحابس المنعزلة، حيث تُقام صلوات متواصلة. ولا شكّ في أنّ تعدُّد البيوت الرهبانيّة وإثراءَها كان من شأنه أن يؤدّي، كما في الغرب، إلى



دير ديونيسيوس في جبل آثوس

تجاوزات مؤسفة. لٰكنَّ ذٰلك لم يمنع التنسّك من أن يكون أعظم قوّة روحيّة منظَّمة في الكنيسة والدولة. ففي القسطنطينيّة نفسها، كان دير إستُودِيُوس الكبير يحافظ على التقاليد المتشدِّدة التي أتى بها الأباتي الكبير القديس ثِيُودُورُس (+ ٨٢٦). وقد ضمَّ هٰذا الدير جماعةً كبيرة مؤلَّفة من من ألف ناسك. وكان الدير مختبَرًا لقواعد ترويض النفس والليترجية والهمنوغرافية، ومبنيًّا على الطاعة المطلقة للأب الرئيس، وعلى الفقر الشخصيّ والعمل، إذ كان يُشرف على مستشفًى ومدرسة ومنسخ ضخم. وكان هٰذا المنسخ مصنعًا للمخطوطات بكلّ معنى الكلمة، ضُبط فيه على الأرجح نظام الأحرف اليونانيّة الصغيرة. وكان الرهبان الإستوديّون يحظَون بشهرة واسعة. وغالبًا ما كانوا يعارضون سياسة الإمبراطور وموقف السلطة الكنسيّة المتشدِّد في المحافظة على التقاليد. وقد اعتلى عددٌ كبير منهم السدّة الأسقفيّة، وتميَّزوا بصلابة قناعاتهم، في حين فضّل نسّاك آخرون أن يقيموا بعيدًا عن الحضارة. وفي السنة ٩٦٣، أنشأ القدّيس أثناسيوس جماعة رهبانيّة في طرف شبه جزيرة جبل آثوس، فوُلدت هناك جمهوريَّة نُسكيّة بكلّ معنى الكلمة، ما لبثت أن امتدّت إلى شبه الجزيرة الأثوسيَّة كلّها. ومن أبرز الخصائص التي يتميَّز بها جبل آثوس، التنوّع المدهش في الأنماط النسكيَّة التي عرفها في مختلفِ العصور، من القرن العاشر إلى القرن العشرين. ونحو العام الألف، تجاوز عدد الساكنين في جبل آثوس الثلاثة آلاف ناسك، وقد عُرِف منهم الآلاف حتّى يومنا هٰذا. ولمدّة ثلاثة قرون على الأقلّ، ظلّ دير الأَمَلفيتيّين اللاتينيّ يشهد لاستمرار الوحدة المسيحيَّة الطويل في معقل التنسُّك هٰذا.

إلّا أنَّ جبل آثوس لم يكن هو المتحكِّم فعلًا بالحياة الروحيَّة عند الكنيسة الأرثوذكسيَّة في مطلع القرن الحادي عشر، بل شخصيَّة أحد أكبر المُتصوّفين المدهشة في الكنيسة الشرقيَّة، أعني القدّيس سمعان اللاهوتيّ الجديد (٩٤٩-١٠٢٢).

كان سمعانُ راهبًا إستوديًّا في أوّل أمره، لٰكنَّه لم يبقَ طويلًا في الجماعة الكبرى: فقد تركها ليؤسِّس جماعةً خاصَّة به، هي جماعةُ القدّيس ماما، التي أصبح رئيسَها. فإنَّ الطابع المواهبيّ الذي ميَّز تعليمه وإدارته

أدخله في صراع مع البطريركيَّة. فنُفي، ثمّ أُعيد إليه اعتباره، إلّا أنَّ وظائفه كرئيس لم تَعُد إليه، فتوفّي منعزلًا في كرِيزُوپُولِيس.

قد تكون تفاصيلُ سيرتِهِ هٰذه تافهة، لو لم تُخفِ وراءها شخصيَّةَ رجل غير عاديّ، فقد كاد أن يكون وحدَه، من بين معلِّمي الشرق المسيحيّ الروحيّين، في التجرّؤ على التحدّث عن اختباراته الشخصيَّة حول مشاهدة الله. فإنَّ التصوّف الأرثوذكسيّ لم يكن يؤيّد قطّ مفهوم الديانة الفرديّ حيث يقوم الشعور الشخصيّ بدور حاسم: ذٰلك بأنَّ الكتّاب الروحيّين البيزنطيّين لا يشدّدون إلّا على واقع الاختبار المسيحيّ الذي هو في متناول جميع المعمَّدين. أمّا سمعان فكانت له طريقة خاصَّة تمامًا في وصف ذٰلك الاختبار: فيتحدّث، كالقدّيس بولس، عمّا رآه هو نفسه ويدعو الآخرين إلى اتّباعه. وقد عكست كتاباته اهتداءه الشخصيّ، كما أكّدت بشدّة أنَّ المؤسَّسة والأسرار والصلاة لا تهدف إلّا إلى إرشاد الإنسان نحو لقاء الله الشخصيّ والمباشر. ويعتقد سمعان أنَّ أكبر البِدع هي القول باستحالة مشاهدة الله الشخصيَّة.

كانت مواعظُ سمعان وفصوله وأناشيده (كان شاعرًا أيضًا) شعبيَّة إلى أقصى حدّ طوال العصر الوسيط البيزنطيّ وفي البلدان السلافيَّة، ولٰكنّها ظلَّت مجهولةً لمدّةٍ طويلة في الغرب. وهي تشهد على سِمةٍ خاصَّة تفرَّدت بها المسيحيَّة الشرقيَّة: هي التشديد على الطابع الحرّ والشخصيّ التي تتميَّز به الحياة في الروح القدس.

وهٰكذا، ففي قلب إمبراطوريَّة مجيدة وفخورة بانتصاراتها العسكريَّة وثقافتها ومآثرها، بقيت شعلةٌ أكثر ديمومة، شعلة طالما مَنحت الإيمانَ القويم استمراره الحقيقيّ منذ عهود المسيحيَّة الأُولى حتّى قرننا هٰذا: هي شعلةُ الروحانيَّة.

تقلُّص الإمبراطوريّة البيزنطيّة

الأباطرة البيزنطيّون الأوّلون

السنة	في الغرب	السلالة	في الشرق
٤٥٠	٤٥٥: موت ڤالنتينيانُس آخر إمبراطور رومانيّ على الغرب	السلالة الثيودوريّة (٤٥٧)	٤٥١: مجمع خلقيدونية بشجب المونوفيزيّة
٥٠٠	٤٨١ عهد كلوڤيس ٥١١	السلالة التراقيّة (٥١٨)	
	٥٥٨: كلوتاريوس ملك الفرنج الوحيد	السلالة اليُسطنيانيّة (٦١٠)	٥٣٥: جيوش يسطنيانُس تغزو مرّة ثانية شمال أفريقيا
٦٠٠	٥٩٠ حبريّة غريغوريوس الكبير ٦٠٤		٥٥٥: وإيطاليا
		السلالة الهرقليّة (٧١٧)	٦٤٠: العرب يجتاحون فلسطين وسورية، وبلاد ما بين النهرين ومصر
٧٠٠			٦٩٥: العرب يجتاحون شمال أفريقيا لاون الثالث يشنّ حرب الأيقونات
	٧٤١: موت شارل مارتل	السلالة الإيزوريّة (٨١١)	٧٥٣: مجمع هييرا: شجب الأيقونات
	٧٥١ حكم پيپان القصير ٧٦٨		٧٦٧: مجمع نيقية الثاني: إعادة الأيقونات
٨٠٠	حكم شارلمان ٨١٤	السلالة الأموريّة (٨٦٧)	
		السلالة المقدونيّة (١٠٨١)	٨٦٧: كيرلّس وميتوديوس في بلغاريا المرسلان الأوّلان إلى روسيا
٩٠٠	٩٨٧: هُوغ كاپيت ملكًا		
١٠٠٠			١٠٠٩: النورمنديّون في جنوب إيطاليا
	١٠٦٦: وِلْيَم الفاتح في إنكلترا		١٠٥٤: الانشقاق بين الشرق والغرب
١١٠٠	١٠٩٥-١٠٩٩: الحملة الصليبيّة الأُولى ١١٤٧-١١٤٩: الحملة الصليبيّة الثانية ١١٩٠-١١٩٢: الحملة الصليبيّة الثالثة	السلالة الكومنينيّة (١٢٠٤)	
١٢٠٠	١٢٠٤: الحملة الصليبيّة الرابعة	إمبراطوريّة نيقية (١٢٦١)	١٢٠٤: ١٣ نيسان (إبريل): الصليبيّون يستولون على القسطنطينيّة اقتسام الإمبراطورية البيزنطيّة بين البندقيّة والفرسان الفرنج
	١٢٢٦: القدّيس لويس ملكًا		١٢٦١: إحياء الأمبراطورية البيزنطيّة
١٣٠٠	١٢٨٥ عهد فيليب الجَميل ١٣١٤	السلالة البلاليولوغيّة (١٤٥٣)	
	١٣٤٠: بدء حرب المائة سنة		الحركة السكينيّة
١٤٠٠	١٣٧٨: الانشقاق الغربيّ الكبير ١٤٣١: محاكمة جان دارك وتعذيبها		
١٤٥٣			١٤٥٣: الأتراك يستولون على القسطنطينيّة

الفصل السادس

خمسة قرون من سوء التفاهم

بقلم ميشال بالار(*)

احتدم سوء التفاهم بين الكنيستَين الشرقيّة والغربيّة
حين انتهى الأمر بالحملات الصليبيّة
إلى الاستيلاء على القسطنطينيّة سنة ١٢٠٤
فارتفع بين اللاتينيّ المحتلّ واليونانيّ المذلول
جدار من العداء.

في السادس عشر من تمّوز (يوليو) ١٠٥٤، وضع الموفَدون البابويّون، بقيادة الكردينال هُمْبِرتُو، على مذبح كنيسة القدّيسة صوفيا في القسطنطينيّة، براءة الحُرم بحقّ البطريرك ميخائيل قيرولاريوس وأنصاره. ثمّ «نفضوا الغبار عن أقدامهم»، واستأذنوا الإمبراطور البيزنطيّ، وبدأوا رحلة العودة «بقلوب مجروحة». وبعد مرور بضعة أيّام، أصدر البطريرك حرمًا بحقّ كاتبِي البراءة وأُحرقت علنًا.

طالما رأى الناسُ في أحداث ١٠٥٤ الانفصال النهائيّ الذي أبعد كنيسة رومة عن كنيسة القسطنطينيّة لعدّة قرون. في الواقع، لم تكن للحركات الاستعراضيّة التي قام بها الموفدون الرسوليّون والبطريرك سوى أهمّيّة محدودة: فإنّ الحرم المزدوج كان يستهدف الأشخاص. فمن جهة، البطريرك وأصدقاؤه، لا الكرسيّ البطريركيّ، ولا بالأولى الكنيسة الشرقيّة، ومن جهة أخرى، الموفَدون الرسوليّون، لا الكرسيّ الروماني، ولا على الأخصّ الكنيسة الغربيّة. لا بل لم يكن لتلك الأعمال أيّ قيمة. فبسبب وفاة البابا لاون التاسع، لم يكن في وسع همبرتو ورفاقه أن يدّعوا التعبير عن فكر الحبر الأعظم. وكان ميخائيل قيرولاريوس، من جهته، مضلَّلًا بطموحاته السياسيّة، وقد أبعده إسحق الأول كُومْنِينُس عن الكرسيّ البطريركيّ بعد سنوات قليلة.

لذلك، لم يُعِر المعاصرون، أيونانيّين كانوا أم لاتين، أيّ أهميّة لحادثة بسيطة كانت أخطر بقليل فقط من الحوادث السابقة.

اختلافات دينيّة سطحيّة

وفي الواقع، لم تخلُ العلاقات بين رومة وبيزنطية، حتّى ذلك التاريخ، من أسباب التوتر كما ذُكر سابقًا. فقد كانت كلُّ كنيسة تأخذ على الأخرى اختلافات في الليترجية والنظام الكنسيّ. فكان الكهنة اللاتين يقدِّسون جسد المسيح بالخبز الفطير، أي الخبز من دون خمير، ذلك الذي استعمله اليهود في العهد القديم. وعلى

(*) Michel Balard، أستاذ مساعد في جامعة باريس - السوربون.

عكس ذلك، كان اليونانيّون يستعملون خبزًا مختمرًا يرون فيه رمزًا للخمير الذي أتى به المسيح إلى البشريّة. وكان اللاتين يجهلون رتبة الدخول الكبرى المعروفة في الرُتب الطقسيّة البيزنطيّة، كما أنّ الشرق كان يعترف بحقّ رجال الإكليرس في الزواج، بشروط شديدة، في حين كان الغرب يعود فيُبرز قيمة التبتُّل الكهنوتيّ. وفي بعض الأحيان، كانوا يصلون إلى حدّ التعارض في شأن تفاصيل تنظيميّة، كالامتناع عن الأكل أيّامَ السبت في الصوم الكبير، وإرخاء اللحية عند رجال الإكليرس الشرقيّين ورتبة قصّ الشعر عند الغربيّين.

وكانت هناك أيضًا، ولا شكّ، خلافات عقائديّة. ولٰكنّها لم تكن غير قابلة للحلّ، وتعني اللاهوتيّين خصوصًا أكثر بكثير ممّا تعني جمهور الشعب المسيحيّ. أمّا المسألة الأكثر تعقيدًا فكانت مسألة الأقنوم الثالث من الثالوث. فإنّ قانون الإيمان الذي تبنّاه مجمع نيقية، سنة ٣٢٥، أوضح أنّ الروح القدس ينبثق من الآب. لٰكنّ المؤمنين في الغرب تعوّدوا، اعتبارًا من القرن الثامن، أن يضيفوا أنّ الروح ينبثق أيضًا من الابن (Filioque). والبابويّة، التي بدت متحفِّظةً في بادئ الأمر، قَبِلت أن تُضاف عبارة «الابن» إلى قانون نيقية، في مطلع القرن الحادي عشر. ولٰكنّ اليونانيّين اعتبروا أنّ قرارات الآباء المجمعيّين لا تُمَسّ، فشجبوا تلك الإضافة منذ عهد فوطيوس، وهٰذا البطريرك كان في نزاع مع رومة (٨٥٨-٨٦٧).

ومع ذٰلك، ظلّت تلك المسألة ثانويّةً في أثناء أحداث ١٠٥٤، إذ إنّ المشكلات الأساسيّة دارت حول مسائل الولاية، المرتبطة هي أيضًا بالأفكار المختلفة التي كان يتصوّرها كلّ فريق عن العلاقات بين الكنيسة والدولة.

مناقشات سياسيّة شديدة

في الغرب، كانت سلطة البابا تقوم على التعليم الرسوليّ القائل بأوّليّة بطرس. وبعد أن خضعت البابويّة مدّةً طويلة لسلطة الإمبراطور، باشرت في القرن الحادي عشر نهضةً قادتْها، في ظلِّ حبريّةِ غريغوريوس السابع، إلى تأكيد تفوُّقها على السلطة العلمانيّة.

أمّا في الشرق، فقد سادت الفكرة القائلة بإمبراطوريّةٍ مسيحيّة بقيادة إمبراطور القسطنطينيّة، البازِيلُوس، الذي لا بدّ لرئيس الكنيسة الجامعة من أن يقف إلى جانبه. ويُلقَّب البطريرك بالمسكونيّ لأنّ سلطته تتوافق وسلطة الإمبراطور. وقد بدا أنّ ذٰلك اللقب، الذي حمله فوطيوس ومِن بعده قِيرولاريوس، يهدّد الأوّليّة الرومانيّة، في الوقت الذي أشاد بها الإصلاح البابويّ في القرن الحادي عشر. وعلاوةً على ذٰلك، أدّت بعضُ الخلافات حول الولاية إلى تسميم العلاقات بين رومة والقسطنطينيّة. وقد دارت تلك الخلافات حول موراڤيا وبلغاريا، ولا سيّما إيطاليا الجنوبيّة المنقسمة بين الطقسين اللاتينيّ واليونانيّ.

وباختصار، شهد القرن الحادي عشر اتّساعَ الهوّة بين شطرَي العالم المسيحيّ - وتعود الأسباب إلى تعارضٍ سياسيّ أكثر ممّا تعود إلى خلافات دينيّة-. ولٰكنّ الجميع كانوا يبحثون في مجال العقيدة والنظام عن حجج تدعم موقفهم السياسيّ، كما أنّ جهل اللاتين اللغة اليونانيّة وجهل اليونانيّين اللاتينيّة عَمِلا على زيادة سوء التفاهم.

ومع ذٰلك، لا يمكننا حتّى الآن أن نتحدّث عن الانقسام. فبعد سنة ١٠٥٤، وفي أثناء القرن الحادي عشر، تمّت محاولات للتقارب، على رغم التوتُّر الذي سبّبته الحملات الصليبيّة. ولم تَنْعَتْ قطّ أيُّ كنيسة الكنيسةَ الأُخرى بأنّها منشقّة، لا بل كان ميخائيل السابع دُوكاس (١٠٧١-١٠٧٨) يراسل باستمرار غريغوريوس السابع الذي شجب تعدّيات نيقفور الثالث بُوتانِيات سنة ١٠٧٨ وألكسيس الأول كومنينُس سنة ١٠٨١. غير أنّ العلاقات استؤنفت في عهد ألكسيس الأول. وإذا لم يثبت أنّ البازيلوس هو الذي استنجد بالغرب ليُرسِل إليه مرتزقةً يحاربون الأتراك، فإنّ تاوفيلاكتُس، أسقف أُخريدا، اعترف في

كتاباته بأوّليّة البابا الفخريّة وبأنّ الاختلافات العقائديّة التي تُثار أحيانًا لا تحمل في طيّاتها أيّ جفاء.

وفي حوالى السنة ١١٥٠. أدّت السياسة الغربيّة التي اتّبعها مانويل الأوّل كومنينُس، وكان يحلم بقيام إمبراطوريّةٍ رومانيّة جامعة، إلى حمل البازيلوس على إقامة علاقات طيّبة مع البابويّة، إذ كان يرجو الحصول على تحالف للقضاء على العدوّ المشترك. فريدريك الأوّل بَربَرُوس. لٰكنّ المناقشات حول اتّحاد الكنيستين كانت تصطدم بمشكلة الأوّليّة الرومانيّة، فضلًا عن أنّ البابويّة وقّعت مع بَربروس معاهدة سلام البندقيّة، ممّا أدّى إلى القضاء على مشاريع البازيلوس الغربيّة.

وفي حوالى السنة ١١٨٠، تُوفّي مانويل الأوّل كومنينُس، فازدادت حدّة الخلافات بين رومة والقسطنطينيّة. فكان البازيلوس يعتقد بأنّ اتّحاد الكنيستين يندرج في إطار خطّة سياسيّة تهدف إلى السيطرة على مجمل العالم المسيحيّ، وكانت البابويّة ترى أن لا مجال للتساهل في مسألة أوّليّة رومة. أمّا اليونانيّون فادّعوا، من جهتهم، أنّ الأوّليّة قد انتقلت إلى القسطنطينيّة في الوقت الذي انتقل فيه كرسيّ السلطة الإمبراطوريّة إليها. وهٰكذا ازداد سوء التفاهم الدينيّ حدّةً بسبب الخلافات السياسيّة الأساسيّة، فأظهَرَت البابا شريكًا في الدسائس الغربيّة التي دبّرها النورمنديّون وخصوصًا الصليبيّون للقضاء على بيزنطية.

محنة الصليبيّين القاسية

بينما كانت البابويّة تسعى إلى التحالف مع بيزنطية، في حوالى السنة ١٠٥٠، لمنع انتشار النورمنديّين في جنوب إيطاليا، اتّجهت السياسة البابويّة، بعد مرور عشرين سنة، نحو سبل أُخرى. فإنّ غريغوريوس السابع كان يحتاج إلى المساندة النورمنديّة في صراعه مع الإمبراطور الجرمانيّ هنري الرابع. لذٰلك امتنع عن إدانتهم حين هاجموا الإمبراطوريّة البيزنطيّة، بقيادة رُوبِر غِسكار سنة ١٠٨١. فرأى اليونانيّون في ذٰلك مؤامرة لم تكن البابويّة غريبةً عنها. وبعد مرور بعض سنوات، اعتُبِر زحف الصليبيّين على القسطنطينيّة محاولةَ غزوٍ تُجدِّد غزو النورمنديّين، وزاد في التباس الأمر على البيزنطيّين أنّ أحد قادة الحملة الصليبيّة كان بوهِمندُ بن غسكار نفسه.

ولم يكن هناك مناص من حصول التصادم بين الصليبيّين واليونانيّين. فإنّ عقيدة أولٰئك «الحجّاج المسلَّحين» وسلوكهم كانا غريبَين تمامًا عن العقليّة البيزنطيّة، وقد عملا على مضاعفة الخلافات بين شطرَي العالم المسيحيّ. ومع أنّ إمبراطوريّة اليونانيّين تعرّضت في بعض الأحيان لهجمات العرب، فإنّهم لم يحاربوا الإسلام قطّ باسم «الجهاد المقدّس»، لا بل كان الأمر في نظرهم مجرّد غزوات وغزوات مضادّة تُشَنّ في المناطق الحدوديّة. وبينما كانت بيزنطية تنتظر العون من الغربيّين لمواجهة الأتراك، نشطت على أراضيها عصاباتٌ غير منظَّمة ومتطرّفة يقودها إكليريكيّون مسلّحون - وهٰذه ذروة الكفر في نظر اليونانيّين - وفرسان يُشتَبَه بأنّهم ينوون الاستيلاء على القسطنطينيّة.

وقد ولَّد تطوّر الحملات الصليبيّة حيال اللاتين، وبالتالي حيال البابويّة المسؤولة عن تلك الحملات العسكريّة، عداءً مبدئيًّا يَنسب إلى الغزاة سلسلة من العيوب الفطريّة الميؤوس منها: فقد وصفَتْهم حَنَّة كُومْنينُس بأنّهم كائنات بربريّة، فظّة، ثرثارة، متكبِّرة، متقلِّبة وكافرة بوجهٍ لا يُصدَّق، لأنّهم لا يصلّون كاليونانيّين ويسيئون حتّى معاملة الإكليرس الأرثوذكسيّ. وهٰكذا انتشرت أسطورة اللاتينيّ الخبيث الذي ينقضّ على الإمبراطوريّة كسرب من الجراد فيمسي خطرًا أكبر بكثير من خطر التركيّ الذي اعتقدت بيزنطية أنّها تستطيع استخدام مسيحيّ الغرب لمحاربته.

ولهٰذه الصُوَر العقليّة الخاصّة باليونانيّين ما يقابلها عند اللاتين. ففي أثناء الحملة الصليبيّة الأُولى، كانت فكرة وجود جماعةٍ مسيحيّة لا تزال حيّة جدًّا: فكان

الحجّاج المسلَّحون ينوون أن يحصلوا على عون من اليونانيّين، من دون أيِّ خلفيّةٍ سياسيّة. لكنّ أَلِكْسِيس الأوّل سعى إلى ربط قادة الحملة الصليبيّة بالقَسَم. وبعدما جعلهم يتوقّعون العون اللازم، حاول أن يحصل منهم على إعادة الأراضي، التي كانت لبيزنطية سابقًا والتي قد يسيطرون عليها، إلى الإمبراطوريّة. وقد أثار ذلك الموقف حذرًا شديدًا حتّى إنّ بُوهِمُند النورمنديّ، الذي أصبح سيّد أنطاكية أطلق دعايةً مضادّةً للبيزنطيّين، ظهر فيها موضوع خيانة اليونانيّين للصليبيّين. وفي ما بعد، نُسِب إخفاق الحملة الصليبيّة الثانية إلى مخاتلة البيزنطيّين على الرغم من اعتدال الإمبراطور الجرمانيّ قُنْراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع حيال البازيلوس مانُويل كومنينُس. غير أنّ الصليبيّين بدأوا يؤكّدون أنّ اليونانيّين هراطقة وأنّ شنّ الحرب عليهم، لهٰذا السبب، أمر شرعيّ. فلطّف البابا أُوجِينيوس الثالث حماسة المتشدّدين وأقام علاقات طيّبة مع مانويل كومنينُس.

وفي أثناء الحملة الصليبيّة الثالثة، ازداد سوء التفاهم أيضًا، إذ إنّ البازيلوس إسحٰق الثاني «الملاك» تفاوض مع صلاح الدين ورفض أن يسمح للحملة الألمانيّة بالمرور، لأنّه كان يحترس من فريدريك الأوّل بَربرُوس ويعتبره حليف النورمنديّين الذين هاجموا تسالونيقي وهدّدوا القسطنطينيّة. لذٰلك رأى اللاتين في حوالى السنة ١١٩٠، أنّ عليهم أن يستولوا على القسطنطينيّة، لأنّها كانت عقبةً أساسيّة على طريق أُورشليم.

وبسبب الحملات الصليبيّة، اتّسعت الهوّة إذًا بين شطْرَي العالم المسيحيّ في نهاية القرن الثاني عشر. فكان اللاتين يعتبرون اليونانيّ خائنًا، وكان اليونانيّون يعتبرون اللاتينيّ بربريًّا. وأدّت تلك الموضوعات، التي تأصّلت في العقليّة الشعبيّة، إلى ازدياد الانفصال. وكان الجميع يستخدمون الاختلافات الدينيّة ليبرّروا سوء التفاهم الذي زادت من حدّته الحملاتُ الصليبيّة والتوتّرات السياسيّة مع الغرب. وظهرت رومة بمظهر المتآمر مع البندقيّة والنورمنديّين، ممّا دفع بيزنطية إلى رفض الأوّليّة الرومانيّة. فعلى الصعيدَين السياسيّ والدينيّ، وعلى صعيد المواقف التي اتّخذتها الذهنيّات، كان كلّ شيء مهيَّئًا لوقوع المواجهة الحاسمة في أثناء الحملة الصليبيّة الرابعة.

اللاتين يَستولُون على القسطنطينيّة

للمرّة الأُولى، وعلى رغم تحفّظات البابا إنُوقنطيوس الثالث، أصبحت القسطنطينيّة، عاصمةُ إمبراطوريّة الشرق المسيحيّة، هدفًا للحملة الصليبيّة. وبحجّة إعادة أحد الأُمراء البيزنطيّين إلى عرشه، استولى اللاتين على «المدينة التي يحرسها الله». وبعد اختفاء محميّهم، انصرفوا إلى أسوإِ أنواع التجاوزات: من مجازر ونهب، وانتهاك حرمة الكنائس، وسرقة أقدس الذخائر، وطرد الإكليرس اليونانيّ. واقتسموا غنائم بيزنطية وأنشأوا إمبراطوريّةً لاتينيّة حول القسطنطينيّة. وبرّأوا تصرّفهم أمام البابا مدّعين أنّهم حقّقوا فعلًا اتّحاد الكنيستين وفرضوا بطريركيّةً لاتينيّة. فتظاهر إنُوقنطيوس بأنّه صدّق كلامهم، واعترف بالدولة الجديدة. إلّا أنّ القوميّةَ اليونانيّة راحت تنمو عن كرهٍ للاتين الذين اعتُبِروا متسلّطين أفظاظًا وعديمي الذمّة، لا يتورّعون من تحطيم الجماعة المسيحيّة. ورأس الحربة في تلك القوميّة كانت الأرثوذكسيّة.

وفي رومة، أدرك المسؤولون سريعًا أنّ الحملة الصليبيّة التي شُنَّت سنةَ ١٢٠٤ وسّعت الهوّة الفاصلة بين رومة والقسطنطينيّة بدل أن تعيد الكنيسة اليونانيّة إلى الطاعة البابويّة. أمّا الاختلافات في التعليم والنظام، التي كانت موضع نزاع بين اللاهوتيّين، فأمست اختلافاتٍ ثانويّة. فإنّ كراهية الشعب اليونانيّ للاتين وعداء المغلوبين للفاتحين أصبحا بعد ذٰلك اليوم أهمّ بكثير. وتذكّر الجميع الأحداث السابقة وحادثة سنة ١٠٥٤، فتبادلوا الاتّهامات بالهرطقة. وفي مثل تلك الظروف، بدا التقارب بين شطرَي العالم المسيحيّ أصعب كثيرًا ممّا كان في أي وقتٍ مضى.

وعلى الرغم من ذٰلك، جرت عدّة محاولات لجمع

الكنيستَين، حتّى عشيّة سقوط بيزنطية سنة ١٤٥٣. ومنذ منتصف القرن الثالث عشر، بدأ اللاتين يتعرّفون إلى آباء الكنيسة اليونانيّين بفضل نشاط رهبانيّات المتسوّلين - كالفرنسِسكان والدومينيكيّين - المقيمة في القسطنطينيّة.

فدارت مناقشات بين اللاهوتيّين حول الخبز الفطير وانبثاق الروح من الابن. ولٰكنّ ذٰلك لم يؤدِّ إلى نتيجة، ما دامت السيطرة اللاتينيّة مستمرّةً على القسطنطينيّة.

المحاولات الأخيرة

حين استعاد اليونانيّون عاصمتهم سنة ١٢٦١، اقترح البازيلوس ميخائيل السابع پالِيُولُوغُس على رومة اتّحاد الكنيستين، وفي المقابل طلب إلى البابا أن يعارض مشاريع الأُمراء اللاتين الطامعين في القسطنطينيّة. وازداد التمسُّك بالعرض، حين استعاد شارل أَنجو السياسة التي اتّبعها أسلافهُ النورمنديّون والصُّوابيُّون، فبدا أنّه يهدِّد الإمبراطوريّة البيزنطيّة العائدة إلى الحياة. وعندئذٍ، رأى البازيليوس في شخص البابا غريغوريوس العاشر، الذي كان يرغب رغبةً شديدة في توحيد الكنيستين قبل شنّ حملة صليبيّة جديدة، محاوِرًا متفهِّمًا. فأدّت المفاوضات في مجمع ليون الثاني (١٢٧٤) إلى توحيد الكنيستين، بالرغم من معارضة القسم الأكبر من الكنيسة اليونانيّة. وكان على البازيلوس أن يَفرض بالقوّة على إكليرسه المتشدِّد «وحدةً رسميّة ومفروضة». وبعد مرور سبع سنوات، بعد أن اختفى في وقتٍ واحد التهديد الأنجيّ وأبرزُ الساعين إلى التقارب بين الكنيستين - انقطع الاتّحاد. وعارض خلفاءُ ميخائيل الثامن الكنيسةَ الرومانيّة ونفوذَ الثقافة الغربيّة على السواء. ومع ذٰلك فقد توجّه يوحنّا الخامس پالِيُولُوغُس سنة ١٣٦٩ إلى رومة آملًا في الحصول على مساعدات من الغرب، بعد أن أقلقه الزحف التركيّ. وفي غياب أيّ ممثّل عن الإكليرس البيزنطيّ، جحد علنًا إيمان آبائه. إلّا أنّ ذٰلك الاهتداء الفرديّ لم يلفت الأنظار ولم يقرِّب قطّ بين الكنيستَين. فكان لا بدّ من انتظار مطلع القرن الخامس عشر حتّى تتطوَّر العلاقات مجدّدًا بين الكاثوليك الرومانيّين والأُرثوذكس.

وبفضل بعض اللاهوتيّين البيزنطيّين (أمثال كالِيكاس وكِيدُونِس)، والجهود التي بذلها البابا مرتينُس الخامس والأسفار التي قام بها الإمبراطوران مانويل الثاني ويوحنّا الثامن إلى الغرب (للحصول على مساعدة عاجلة من اللاتين لمواجهة الأتراك)، قبِل الطرفان أن يعقدا مجمعًا للبحث في وحدة الكنيستين.

فعُقد مجمع فِرَّارِه فلورنسا. وفي إثر مناقشات طويلة انتهت بوضع صِيَغ غامضة تمَّ التوصُّل إليها بالتراضي، أُعلن الاتّحاد عن يد الكردينال تشِيزارِيني وبِسّارِيُون رئيس أساقفة نيقية، في السادس من تمّوز (يوليو) ١٤٣٩. ولٰكنّ غالبيّة الأساقفة الموالين للاتّحاد تراجعوا عن موقفهم فور عودتهم إلى بيزنطية. وأمام الغليان الشعبيّ، تردَّد البازيلوس في إصدار مرسوم الاتّحاد. ولم يقم بذٰلك إلّا في شهر كانون الأوّل (ديسمبر) ١٤٥٢، قبل بضعة أشهر فقط من سقوط القسطنطينيّة في يد العثمانيّين، وبعد الإخفاق المريع الذي مُنِيَت به «الحملة الصليبيّة» الغربيّة على الأتراك (ڤارْنا، ١٤٤٤). فاستاءت موسكو، وقطعت العلاقة مع رومة وبيزنطية وادّعت أنّها ترفع مشعل الأرثوذكسيّة. وحين اقترح الأباطرة البيزنطيّون اتّحاد الكنيستين، كانوا يضمرون هدفًا سياسيًّا وهو الحصول على مساعدة من الغرب لمواجهة الأتراك. أمّا اللاتين فكانوا ينتظرون براهين ملموسة تُثبت تحالف اليونانيّين مع الكنيسة الرومانيّة، قبل أن يأتوا إلى نصرة الإمبراطوريّة الشرقيّة. ولٰكنّ اتّحاد الكنيستين، الذي أعدَّه اللاهوتيّون، كان خدعة ولم يحظَ بالموافقة الشعبيّة. ولمّا كانت محاولات التقارب بين رومة والقسطنطينيّة مبنيّة على سوء التفاهم هٰذا، فإنّها لم تؤدِّ إلّا إلى الإخفاق. وكان اليونانيّون يذكرون دائمًا أحداث سنة ١٢٠٤، ففضَّلوا أن يروا في عاصمتهم العمامة التركيّة على رؤية التاج الأسقفيّ اللاتينيّ.

الفصل السابع

نظرة أُرثوذكسيّة إلى التاريخ

بقلم أُوليڤِييه كلِيمان(*)

أُوليڤييه كليمان، أُستاذ في التاريخ
وأحد اللاهوتيّين المرموقين في الكنيسة الأرثوذكسيّة،
يطرح في هٰذا الفصل
أسئلةً على الكاثوليك حول طريقتهم
في كتابة تاريخ الانفصال.

يشدِّد المؤرِّخون الغربيّون عادةً على العوامل «غير اللاهوتيّة» التي أدّت إلى الانشقاق. أمّا «الأُرثوذكس»، بمن فيهم المؤرِّخون، كجورج أُسْترُوغُورسكِي، فهم يعيرون أهميّة أكبر للمشاكل الروحيّة، ويعتبرون المغالاة في الأوّليّة البابويّة ودور الروح القدس في الكنيسة مسألتين خطيرتين فينبغي لمسيحيّي الغرب أن يتنبّهوا لتساؤل «الأرثوذكسيّة» هٰذا.

في ما يختصّ بالحقائق التاريخيّة بحصر المعنى، نذكِّر بأنّ الغرب، منذ وصوله إلى التفوّق المادّيّ (في القرنين الثاني عشر والثالث عشر)، انقضّ على الشرق! وأوّل دائرة خضعت للاستعمار الغربيّ كانت الشرق المسيحيّ: نهبُ القسطنطينيّة سنة ١٢٠٤، الوكالات التجاريّة، التابعة لأهل البندقيّة وجَنَوى، في الإمبراطوريّة البيزنطيّة، هجوم الفرسان التُوتُونِيُّون على نُوفْغُورُود، الرغبة الدينيّة في اللَّيْتنة، وقد تميَّزت بعد إخفاق «اتّحاد» فلورنسا بإنشاء كنائس «متّحدة»، في بولونيا والنمسا خصوصًا، أي كنائس بيزنطيّة الطقس، ولٰكنّها متّحدة بروما بإرغام من الدولة... وقد احتلّت إيطاليا جزءًا من العالم اليونانيّ (رُودُس والدُودِيكانِيز) حتّى سنة ١٩٤٥، وكانت لذٰلك نتائج دينيّة. وشهدت الحرب العالميّة الثانية مجزرةً سياسيّة دينيّة نُفِّذت بحقّ مئات الألوف من الأُرثوذكس الصرب. وإنّ تصفية الكنائس المتّحدة بروما في بلدان الشرق، في حوالى ١٩٥٠، بإكراهٍ مماثل لذٰلك الذي استُخدم في إنشائها، لم تسوِّ الأُمور. فكان لا بدّ من مبادرات البطريرك الأرثوذكسيّ أثيناغوراس الأوّل والبابا بولس الأوّل لكي لا يبقى ذٰلك الخلاف التاريخيّ الكبير عقبة، ولكي يَحلّ الحوار محلّ احتقار بعضهم وحذر بعضهم الآخر.

والحال أنّ هٰذا العالم الأرثوذكسيّ الذي هاجمه الغرب، قد أنقذ الغربَ من آسية وساعد على توطُّد أوروبا المسيحيّة: فهناك هزيمة العرب، في نهاية القرن السابع، أمام أسوار القسطنطينيّة، وانتصار الروس على التتر، في كُولِيُوكُوڤو، سنةَ ١٣٨٠، وملحمة الأمير الرومانيّ ميخائيل الشجاع الذي صدّ هجوم الأتراك في نهاية القرن السادس عشر، وهناك كذٰلك معارك كثيرة شبيهة بالتي حصلت في پُواتِيِيه والتي ما زال الغرب في إجماله يجهلها...

(*) Olivier Clément.

مشكلة الأوّليّة

وفي القرنين السابع والثامن، وتحديدًا عند قيام الأزمة المُونُوتِيليّة وأزمة محاربة الأيقونات، اللتين حلَّهما المجمعان المسكونيّان السادس والسابع، لم يبتعد الشرق عن الغرب ابتعادًا سريعًا، كما اعتقد بعضهم. فإنّ معظم البابوات كانوا شرقيّين، ولا يمكننا أن نذكر استشهاد البابا مرتينُس الأوّل من دون أن نشير في الوقت نفسه إلى استشهاد مكسيمُس المعترف (وهو الذي، على كلّ حال، شرح انبثاق الروح من الابن شرحًا «أرثوذكسيًّا» وافيًا في أثناء إقامته الطويلة في الغرب). وفي تلك المدّة أكمل الشرقُ بوجهٍ خاصّ «تلقّي» الصيغ اللاتينيّة المختصّة بالأوّلية، لا بعزلها، خشية أن تُضَخَّم، بل بوضعها في «سمفونيّة» الوسائل التي تَملِكها الكنيسة لتكون متنبِّهةً للروح القدس. ووُضّح أنّ المجمع يكون مسكونيًّا فعلًا عندما يلبّي خير الكنيسة كلّها، ويعبِّر عن «غريزة الحقيقة» عند شعب الله، وعندما يُجمِع الأساقفةُ عليه وتَقْبَله رومة. وقد أكّد علم اللاهوت البيزنطيّ، بعد الانشقاق بكثير، أنّ البابا بين الأساقفة «يوازي» بطرس بين الرسل. ولٰكن ليس له، بموجب قانون نيقية الخامس وقانون أفسس الثامن، أن يتدخَّل في حياة البطريركيّات الأُخرى، إلّا في حال اللجوء إليه، وفقًا للطرق التي حُدِّدت في القرن الرابع في سَرديقِيَة والتي قَبِلها الشرق في «مجمع القبّة» in Trullo (٦٩١): إذا رُفعت دعوى إلى البابا، فلا يحقّ له أنْ يبتّ الأمر وحده، بل يمكنه أن يدعو إلى فتح دعوى محلّيّة جديدة يشارك فيها مفوَّضوه الرسوليّون.

ولٰكن، في الغرب، اعتبارًا من القرن الحادي عشر، تغلَّب مفهومٌ مختلف تمامًا للأوّليّة، كان الانشقاق أحد مخلَّفاته. فبعد «الإصلاح الغريغوري»، حاول البابا أن ينصِّب نفسه سلطةً مطلقة تعيِّن الأساقفة وتعزلهم. واعتُبِرَت حقوق الأساقفة، وحتّى حقوق رؤساء الأساقفة والمتقدِّمين في رؤساء الأساقفة، مجرَّد مشاركة في «كمال السلطة» الرومانيّة. «وهٰكذا ظهرت ملكيّة من النمط الكنسيّ، مُحكمَة التنظيم، حلَّت محلّ الكنيسة الجامعة القديمة التي كانت مؤلَّفة من كنائس محلّيّة تتمتّع بالاستقلال بقدر كبير أو قليل (**الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة**، بقلم Wilhem de Vries، باريس، ١٩٦٧، ص٨٨)، وفي الوقت نفسه، بدل أن يكون أسقفُ رومة، كسائر أعضاء الكنيسة، من رعايا السلطة السياسيّة المحلّيّة ، نصَّب نفسه مصدرًا لتلك السلطة (بتبرئته اغتصاب السلطة عن يد الكارولينيّين، ثمّ بتتويجه شارلمان إمبراطورًا) وأصبح هو نفسه ملكًا زمنيًّا.

لم يرضَ الشرق المسيحيّ بذٰلك التغيير. ورفض العقيدة التي أعلنت العصمة البابويّة سنة ١٨٧٠. وعلى عكس ذٰلك، يبدو أنّ التطوّر الذي أطلقه المجمع الفاتيكانيّ الثاني في هٰذا المجال يفتح سُبُل الحوار.

مشكلة «انبثاق الروح من الابن»

وفي أساس تلك العقبة التعليميّة التي فصلت وما زالت تفصل بين الغرب والشرق المسيحيّين - وهي العقبة التي أدّت، أكثرَ مِن مشكلةِ الأوّليّة، إلى إحباط محاولات الاتّحاد في القرن الثاني عشر -، نجد في الواقع مقاربَتَين، مختلفتين، لا متعارضتين، لسرّ الروح القدس في داخل الثالوث الأقدس. فإنَّ الآباء اللاتين، وكذٰلك بعض الآباء الإسكندريّين، شدَّدوا على تجلّي الروح منذ الأزل من خلال الابن، وعلى انبثاقه من «الآب والابن». ويظهر إذًا أنّ عبارة «والابن» قديمة جدًّا في الغرب حيث تسلَّمها القدّيس أوغسطينُس من تقليدٍ قائم، أعلنته سلسلة كاملة من المجامع المحلّيّة، من القرن الخامس إلى القرن الثامن. وفي علاقة الله والبشريّة، يشدِّد الغرب على أنّ الابن الممجَّد يَهَب لنا الروح. والشرق يُعلن **أيضًا** أنّ الروح المستقرّ على الابن منذ الأزل يهب لنا الابن. وبهٰذا أقام الشرق بين الابن والروح صلةَ تبادُلٍ وخدمةً متبادلة. إلّا أن الطريقة

المختلفة التي يَنظر بها الشرقُ والغرب إلى طبيعة العلاقات في داخل الثالوث، بين الابن والروح، توحي بطرق مختلفة في النظر إلى الكنيسة. فإنّ الغرب هو أكثر تشديدًا على كنيسة هي جسد المسيح المبنيّ على الأسرار والسلطة. أمّا الشرق فهو أكثر بكثيرٍ تشديدًا على دور عطايا الروح، أو المواهب، وعلى قيمة كهنوت المعمَّدين الشامل. وعلاقة التبادل هٰذه، التي تراها الكنيسة الأرثوذكسيّة قائمةً بين الابن والروح، نراها أيضًا بين كهنوت الكهنة وكهنوت المسيحيّين، فإنّهما لا يتعارضان، بل، على العكس، يُخْصِب واحدهما الآخر. وهٰذا ما يُفضي إلى كنيسةٍ أكثر التفاتًا نحو الروح منها نحو تعاليم السلطة. والأُرثوذكسيّة تتحدَّث أيضًا عن الكنيسة بصفتها جسدَ المسيح، ولٰكنّها لا تقصد الجسد التراتبيّ بقدر ما تقصد الجسد الذي تخترقه طاقات الروح فيكون مكانًا تتجلّى فيه عنصرةٌ دائمة.

ففي هٰذا الاتّجاه، لا في اتّجاه المناقشة المجرَّدة حول مسألة انبثاق الروح من الابن، يجب، كما يبدو لي، أن يسير الحوار بين الكنيستين. واليوم تدعونا الحركة المواهبيّة، أكثر منها في أيّ وقت مضى، إلى أن نعود فنكتشف الطابع غير المنفصل بين المسيح والروح والتبادل القائم بينهما، حتّى تبدو الكنيسةُ، جسدُ المسيح، مكانًا لعنصرة متجدِّدة.

فوطيوس وميخائيل قِيرُولارِيُوس

بعد الأبحاث التي قام بها دْفُورْنِيك وغرُومِل، يجب أن ننظر إلى البطريرك فوطيوس لا «كأبٍ للانشقاق» بل كخادمٍ كبير لوحدة المسيحيّين. فإنّ القدّيس فوطيوس لم يعترِض على الأوّليّة الرومانيّة في حدّ ذاتها، بل طلب أن تُمارَس ضمن احترام القوانين وضمن شركة الكنيسة الجامعة. وقد قَبِلَ أن يدعو البابا إلى فتح دعوى جديدة في القسطنطينيّة بحضور مفوّضِيه الرسوليّين، لأنَّ ذٰلك كان مطابقًا لشريعة الكنيسة. ولٰكنّه رفض أن يتصرَّف البابا، في رومة نفسها، بعرش القسطنطينيّة: لأنَّ ذٰلك كان مخالفًا لتلك الشريعة. ومن جهةٍ أخرى، اعتبر أنّ الغرب وحده لا يمكنه أن يضيف عبارة «والابن» إلى قانون الإيمان من دون موافقة الكنيسة الجامعة، واستنكر - نظريًّا، كما نعرف - الأخطار التي قد تنجم عن الاعتراف بانبثاق الروح من الابن. وكان، إلى جانب البابا يوحنّا الثامن، أوّل من دعا إلى مجمع الاتّحاد الكبير سنة ٨٧٩-٨٨٠، وهو مجمع الاتّحاد الوحيد الذي نجح حتّى يومنا هٰذا بين الشرق والغرب المسيحيَّين! وكانت أُسس ذٰلك الاتّحاد مبنيّةً على التوازن، الذي تنظّمه القوانين، بين الأوّليّة الرومانيّة والأنظمة المستقلّة المحلّيّة، وعلى التنوُّع المعترَف به في العادات الكنسيّة، وعلى النصّ الأصليّ الذي ورد فيه قانون الإيمان النيقاويّ القسطنطينيّ، من دون إضافة عبارة «والابن».

وكذٰلك لا يسعنا أن نقول إنّ البطريرك ميخائيل قيرولاريوس «شنَّ الأعمال العدوانيّة» في القرن الحادي عشر. فإنّ البابويّة استفادت من غزو النورمنديّين لجنوبِ إيطاليا فحاولت أن تُلَتِّنِ الإيطاليّين اليونانيّين، وعلى الأخصّ، كانت تضطهد الكهنة المرتبطين بالزواج (وهو مسموح به بحسب العادة في الشرق)، وتعتبرهم مثالًا رديئًا لإكليرس الغرب... وفي هٰذا الإطار يجب أن نضع مبادرات ميخائيل قيرولاريوس الخرقاء والعنيفة.

وفي القسطنطينيّة، سنة ١٠٥٤، حاول الكردينال همبرتو أن يستفيد من الإمبراطور لمواجهة البطريرك. وفي آخر الأمر طرده الشعب، وهو أمر تكرّر في أثناء «إعلانات الاتّحاد» الموقّعة على عجل في القرنين الثالث عشر والخامس عشر. وفي السابق، أدان ميخائيل قيرولاريوس، بعد أن اتّهمه بعشر بدع كان أخطرها رسامة المتزوّجين كهنةً وحذف عبارة «والابن» من قانون الإيمان!

وبعيدًا عن تلك المجادلات التفصيليّة، عبَّر البطريرك بطرس الثالث الأنطاكيّ عن شعور الشرق

الثابت، بعد أن أطلعه قيرولاريوس على حقيقة الأمر، فأجاب: «إنْ وافق اللاتين على حذف الإضافة، أي عبارة «والابن»، من قانون الإيمان، لن أطلب منهم شيئًا آخر، وسأضع ما تبقّى في عِداد الأمور القليلة الأهمّيّة... فلتُترك شؤون اللحى للحلّاقين!».

إخفاق محاولات الاتّحاد

في نهاية القرن الثالث عشر وفي القرن الرابع عشر، عَرَف العالَمُ البيزنطيّ، الذي كان في عزّ تجدّده الروحيّ والثقافيّ، جهودًا جبّارة بُذِلت لاكتشاف الفكر اللاتينيّ. فتُرجِمت إلى اليونانيّة المؤلّفات الهامّة التي وضعها القدّيسان أوغسطينُس وتوما الأكوينيّ. وأدّى ردّ الفعل على «اتّحاد» لِيُون إلى التعمّق في علم لاهوت الروح القدس، بحيث إنّ عبارة «والابن» لم تعد مرفوضةً بل وضِعت ضمن نظرةٍ شاملة وغنيّة ومتوازنة، كما هي عند الآباء. وعلى نطاق أوسع، سُجِّل في الشرق أيضًا صعود الطابع الإنسانيّ، الذي كان يميِّز الغرب والذي بلغ ذروته في النهضة، ولٰكن من دون أن ينفصل عن الطابع الإلٰهيّ، من زاوية «إلٰهيّة أَنَسيّة» (يكفي أن نتذكّر مؤلَّفات عن قاباسِيلاس، وفنّ ميسترا أو جامع كارييه في إستانبول[1].

إلّا أنّ كلّ شيء انتهى بمأساة. فحين لاح انفتاح مماثل في الغرب، في مطلع القرن الخامس عشر، بفضل الحركة «التوفيقيّة» ومرحلة ما قبل الإصلاح، وأخيرًا بفضل بابويّة ضعيفة رضيت بمجمع اتّحاد، كان الأوان قد فات لبيزنطية التي كانت فريسة الأتراك. فعرفت الكنيسة الشرقيّة موتًا وقيامةً في سلسلة الميتات والقيامات التي ميّزت تاريخها بوجه غريب. فلم يعد لديها الوقت ولا الحيّز الثقافي لتستنهض خلاصةً لاهوتيّة وتتعمّق في الأَنَسيّة. وقد حمل العلماء البيزنطيّون هٰذا الأدب الإنسانيّ إلى الغرب بعد سقوط القسطنطينيّة. ولٰكنّ علمَ لاهوت - وممارسةَ - «الطاقات الإلٰهيّة» القادرة على تحويل ما هو إنسانيّ، بقيت مجهولةً عند الغرب، وأصبحت - ربّما باستثناء رومانيا لبعض الوقت - سرَّ النسّاك الشرقيّين. وبينما كانت الأُرثوذكسيّة تحتجب تحت وطأة الهيمنة العثمانيّة أو في روسيا البعيدة وذات الطابع الوسيط، كان الإصلاح والأمم والثقافة العلمانيّة تبرز في الغرب بروزًا جامحًا. فالوقت الحاضر هو الوقت الأنسب لاستئناف عمل العودة إلى ما كانت الأمور عليه.

(١) أنظر الفصل التالي.

الفصل الثامن

نقولا قاباسيلاس

بقلم أُوليڤييه كلِيمان(*)


غريغوريوس پالاماس

وُلد نقولا قاباسِيلاس، الأديب واللاهوتيّ والروحانيّ العلمانيّ، في حوالى السنة ١٣٢٠ في تسالونيقي وتوفّي، على ما يبدو، في مطلع القرن الخامس عشر. وقد اختلط بأفراد الطبقة السياسيّة في بيزنطية، فمارس مهنةً مزدوجة كموظّف رفيع المستوى وكأديب. وشارك لبعض الوقت في أعمال حلقة الإخوة سِيدُونِس، حيث كانت مؤلّفات القدّيسَين أوغسطينُس وتوما الأكوينيّ تُترجَم ويعلَّق عليها. ولٰكن، بينما كان كثير من أولٰئك الأدباء المدرسيّين يميلون إلى الغرب، انضمّ قاباسيلاس إلى الروحانيّة الأرثوذكسيّة التقليديّة – أي السكينة (في اليونانيّة هِزيكِيا hesychia أي صمت وسلام في الاتّحاد بالله) التي ألهَمت الخُلاصة الجبّارة التي توصّل إليها غريغوريوس پالاماس والتي عَرَفَت منذ ذٰلك الوقت تجدّدًا كبيرًا في أوساط النسّاك. وعلى هٰذا، ظلّ قاباسيلاس علمانيًّا ملتزمًا في العالم وأديبًا أنسيًّا، حتّى إنّه، بفضله وفضل فنّ ميسترا وجامع كارييه، وسياسة أُمراء رومانيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (الذين وطّدوا أواصر الصداقة مع بطريركيّة القسطنطينيّة)، تجسّدت الروحانيّة الأرثوذكسيّة في أدب أنَسيّ مسيحيّ هو في الحقيقة أدب إلٰهيّ أنسيّ.

أنسيّة متسامية

اجتهد قاباسيلاس في وضع روحانيّة للعلمانيّين الملتزمين في المجتمع، الذين لا يستطيعون أن «ينصرفوا إلى العزلة». فإنّ الحياة الروحيّة لا تتطلّب أمورًا خارقة، كما كان يقول، لأنّ «الله ليس غائبًا عن أيّ مكان، ويستحيل ألّا يكون حاضرًا فينا، لأنّه يلتصق بأولٰئك الذين يبحثون عنه التصاقًا أوثق من التصاق قلبهم بهم». وأكثر من ذٰلك، فإنّ الشعور بالحضور الإلٰهيّ «يساعد مَصالحنا العليا والحيويّة» و«يقدّس» مشاغلنا.

الأسرار حياة في المسيح

وتتأصّل تلك الروحانيّة في الحياة الطقسيّة والأسرار. وقد شرح قاباسيلاس الليترجيا الإفخارستيّة (**شرح الليترجيا الإلٰهيّة**، «المصادر المسيحيّة»، باريس، ١٩٧٢)، فشدّد في الوقت نفسه على واقعيّتها الفائقة وبُعدها الجماعيّ والدور الأساسيّ الذي يقوم به الروح القدس. لو كنّا نستطيع أن ننظر إلى كنيسة المسيح على أنّها متّحدة به وتشارك في جسده الكلّيّ القداسة، لما رأينا شيئًا آخر غير ذٰلك الجسد. لذٰلك كتب بولس إلى

(*) Olivier Clément.

أهل قورنتس يقول: «أنتم جسد المسيح وكلّ واحد منكم عضوٌ منه». والمسيح ليس رأس الكنيسة وحسب، بل «قلبها»، بحيث إنّ «قلب» كلّ واحدٍ منّا، أي عمقنا الذي لا يُسبَر، موجود فيه. وجسد المسيح الكنسيّ «غنيٌّ بطاقات الروح»، وهي مكان عنصرة دائمة تُخرِج باستمرار أكثر المواهب تنوعًا، كما نقرأ في سفر **أعمال الرسل**. «ما هي نتيجة آلام المسيح، وتعاليمه وأعماله؟... لا شيء سوى نزول الروح القدس».

وقد فهم قاباسيلاس «الأسرار» المسيحيّة الكبرى في وحدتها الديناميّة. وطبّق عليها قول القدّيس بولس: «فيه حياتنا وحركتنا وكياننا» (رسل ١٧/٢٨). ففي المعموديّة ننال الكائن الجديد، وفي المَيْرَنَة (المسح بالميرون)، ننال حركة الروح، وفي الإفخارستيّا ننال «الحياة في ذروة قوّتها». «إنّ الطين الذي يَقبل الكرامة الملكيّة لا يبقى طينًا، بل يتحوّل إلى جوهر الملك». ولغة الحياة هٰذه هي أيضًا لغة جمال: فالخطيئة تجعلنا «قبيحي الشكل»، وفي «الأسرار»، ننال شكلًا رائع الجمال، و«التمثال يصبح مطابقًا للمثال الإلٰهيّ».

الخلاص بالمحبّة

لكي يصبح الإنسان واعيًا «كرامته الملكيّة»، ولكي يصل إلى استخدام الوجود استخدامًا طقسيًّا، ينصح قاباسيلاس في كتابه **الحياة في المسيح** بأن نتذكّر، في الوقت المناسب وغير المناسب، «المحبّة الجنونيّة» التي يكنّها الله لنا. ويقول بلهجةٍ أوغسطينيّة: لا شكّ في أنّ القلب الإنسانيّ خُلق «كعلبةِ مجوهرات كبيرة وواسعة بما يكفي لتسع الله نفسه»، لٰكنّ الله لا يستطيع أن يُرغم الإنسان على محبّته، لأنّ «الإنسان كلّه يقوم على الضمير والحرّيّة. والله «يشبه عاشقًا حقيقيًّا» يمَّحي ويحاول أن يجذب الإنسان في الوقت نفسه، مظهرًا له محبّته بتواضع. «لمن خلَقَ السماء والأرض والعالم كلّه... ولماذا يفجّر تعاليم الخليقة... إلّا لكي يجذب الناس إليه فيحبّوه؟» وعندما يبتعد الإنسان وينغلق على نفسه، من دون أن يَشبع على كلّ حال، «لأنّ النفس البشريّة عطش إلى اللامحدود»، «ينصبّ الله خارج نفسه»، ويخرج من تعاليه العديم التأثّر، لأنّه على «العاشق الحقيقيّ» أن يتمكّن من تحمّل الألم في سبيل من يحبّه. فها هو «مَلكٌ من دون عاصمة» إلى أن مكّنته موافَقة مريم من أن يستعيد خليقته من الداخل ويفتح أمام البشر طريق الحياة الشاملة. «يؤاكل المجرم ويناجي الخائن»، ويصير «لجلّاديه مَعين حياة لا ينضب». «وبابتداعه ذٰلك الذلّ، رضي بأن يخضع للآلام والأوجاع لكي يُقنِع بمحبّته أولٰئك الذين تألّم من أجلهم، ولكي يجذب إليه البشر الذين يهربون من الصلاح المثاليّ لاعتقادهم بأنّه كان يبغضهم».

لقد قام الله، في المسيح، بكلّ شيء من أجلنا، ولا يدعنا المسيح نشارك في آلامه وموته. فقد أراد أن يصارع وحده. ولٰكن ما إن تُوِّج، حتّى «أشركنا في مجده». ويقول قاباسيلاس، بلهجة مهّدت الطريق لدوستويفسكي، إنّ نصيب الإنسان هو أن يردَّ على المحبّة بالمحبّة. «فالله يُظهر نفسه ويُعلن حبَّه، ويرجو أن نردّ عليه في المقابل، وعند الرفض، لا ينسحب، ولا يستاء من الإهانة، وعندما يُطرَد، ينتظر عند الباب...». إنّ الخطيئة الحقيقيّة هي قلّة الثقة: وأيّ خطيئة تمنعنا من العودة سريعًا إليه، نحن الذين يشعرون بحنان الله، ويعرفون تمامًا أنّ الله مستعدٌّ، ما إن يدعوه الخاطئ، لأن يقول: «هاءنذا»؟

وهٰكذا «يُشعِل الإنسانُ المُعجَبُ قلبَه بنار الحبّ الإلٰهيّ». ويجد في المسيح انسانيّته الحقيقيّة، لأنّ المسيح يتمِّم كلّ تطوّر العالم والتاريخ. والحياة الروحيّة المتجسِّدة في «أنَسيّة إلٰهيّة» تُعِدُّ مجيءَ الربّ الثاني الذي يشير إليه قاباسيلاس بقوّة رؤيويّة، حيث يلتقي معنى الجمال عند الهلّينيّين بمعنى الجسد في الكتاب المقدّس: «عند مجيء الربّ... يا له من مشهد!... أُناس يستسلمون لأعياد غريبة: تجَمُّع آلهةٍ حول الإلٰه، ومخلوقات جميلة تؤلّف إكليلًا حول الجمال المثاليّ...». منذ الان، علينا أن نكتشف أنّنا «نعيش مع تلك الشمس» في سبيل الحقيقة وخدمة الحياة.

الباب الخامس

اعتماد البَرابِرة

بين القرنين الخامس والعاشر،
انهار العالم الرومانيّ
وأطاحت به غزوات البرابرة،
وعلى أنقاضه، قامتْ أوروبا شيئًا فشيئًا.
وفي وسط البلبلة، ظهرت الكنيسة بمظهر
الملجإِ الأخير أمام الشعوب المذعورة،
والقوّة الوحيدة
القادرة على التأثير في البرابرة،
وقام الأساقفة والنسّاك بدور حاسم
في هديهم إلى المسيحيّة،
فنشأت عندئذٍ حول الأديار
«الحضارة المسيحيّة».

الفصل الأوّل

نشأة
العالم المسيحيّ

بقلم بيار ريشِيه(*)

منذ اهتداء قسطنطين، أمكن المسيحيّين أن يأملوا العيش بسلام، والعمل على نموّ الإمبراطوريّة، والحصول بالتالي على المدينة السماويّة. ولٰكن، ويا للأسف، استؤنفت غزوات البرابرة بوجهٍ أعنف بعد أن صُدَّت بنجاح في القرن الثالث. وفي هٰذه المرّة، انهارت الإمبراطوريّة في الغرب. واحتلّ رومة، مدينةَ بطرس وبولس، قائدُ الغوط الغربيّين. وما إن استقرَّ البرابرة الجرمانيّون في أوروبّا، حتّى خرج المسلمون من عمق شبه الجزيرة العربيّة، بدافع إيمان جديد، ودمَّروا جزءًا من إمبراطوريّة الشرق واجتاحوا شمال أفريقيا وإسبانيا وغاليا الجنوبيّة فجمع شارلمان الفرنجيّ أراضي الغرب وأسَّس إمبراطوريّة، ولٰكنّ البناء كان غيرَ ثابت. فقام برابرةٌ سكَنديناڤيّون ومجريّون جُدد، بالإضافة إلى العرب، وساهموا في تفكيك الإمبراطوريّة.

وفي هٰذه السلسلة من الكوارث التي تكوّنت منها شعوب أوروبّا الجديدة، ماذا حلّ بالكنيسة؟ وكيف قَبِلَ المسيحيّون، الذين ألِفوا نمَطَ حياة حوض البحر المتوسط، أولٰئك البرابرةَ الآتين من الشرق والشمال؟ لمدّة خمسة قرون، ووسط كثير من العذابات، كانت المسيحيّة، التي ما زال يُعرَف عنها القليل، تُكيِّف نفسها. ومنذ السنة الألف، تمّ رسم خريطة أوروبّا الدينيّة: ربحت الكثلكة الأراضي الممتدّة من سكنديناڤيا إلى الدانوب، ومدَّت نطاقها إلى نهر ڤيستولا، في حين سيطرت الكنيسة اليونانيّة على قسم من أوروبا الشرقيّة. أمّا أسقف رومة، الذي أصبح رئيسَ دولةٍ ظلَّ محتفظًا بها حتّى ١٨٧٠، فقد جمع حوله الكنائس الغربيّة، وكان ضريح القدّيس بطرس يجذب كالمغنطيس الحجّاج الآتين من مختلف الأقطار. والليترجيا التي مارسها الغرب حتّى القرن العشرين، وُلدت في تلك الحقبة: فاللاتينيّة، وهي اللغة الدينيّة، فرضت نفسها في كلّ مكان، والثقافة المسيحيّة، التي حلّت محلّ الثقافة القديمة، صاغت ثقافةَ أوروبّا الحديثة. والمؤسَّسات المسيحيّة، التي ظلّت قائمةً مدّة خمسة عشر قرنًا، تمركزت في ذٰلك الزمن. واتّخذت إحدى القوى الدينيّة، التي صاغت الغرب أكثر من سواها، أي الحياة النسكيّة، انطلاقتَها الأُولى في العصر الوسيط الأوّل. ولم يكن القدّيس بِنِدِكْتُس (مُبارك)، «أبو الغرب»، وحدَه مَن طَبَع العقليّة الأوروبيّة بطابعه، بل ساعده في ذٰلك الكهنةُ الإيرلنديّون والأنكلوسَكْسون والجرمانِيّون: فظهرت الحياة الرهبانيّة المشترَكة الموزَّعة بين الصلاة والعمل اليدويّ، والخوف من المرأة ورفض كلِّ حياة جنسيّة، والإشادة بالجمال الشكليّ في الحديث أو الغناء أو المخطوط الملوَّن.

فإنّ الناسك الذي ينقطع عن العالم ينعش العالم في الواقع من خلال سعيه لإيجاد الفردوس المفقود.

لقد أمسكَت الكنيسة بالغرب البربريّ. ولٰكن ألم تخاطر بأن تصبح بربريّةً هي أيضًا؟ وعندما فتحت

(*) Pierre Riché، أستاذ في جامعة باريس العاشرة.

أبوابها على مصراعيها أمام الجميع من دون أيّ رقابة، وأجبرتهم أحيانًا على دخولها، أفلم تضحّ بالنوعيّة على حساب الكمّيّة؟ وعندما عمّدت الزعماء والملوك، أفلم تُخضِع نفسَها لسلطة العظماء وحتّى لنزواتهم؟ وعندما أصبحت غنيّة، أفلم تتعرَّض لتجربة الرغبة في القوّة؟ وهل كانت المسيحيّة، التي نشأت بين القرنَين الخامس والعاشر، والتي نراها تُحْتَضَر في أيّامنا، أمينةً دومًا على رسالة الإنجيل؟ عن هذه الأسئلة الكثيرة، يستطيع القارئ أن يجيب، إن اطّلع على الوقائع. أما المؤرِّخ فعليه أن يلاحظ أنّه في تلك القرون العسيرة، نشأ ما يحقّ لنا أن نسمّيَه «الحضارة المسيحيّة» بكلّ ظلالها وأضوائها.

الفصل الثاني

لقد عادوا!

بين القرنين الخامس والعاشر
خرج البرابرة من كلِّ صوب.
فانهارت الإمبراطوريّة الرومانيّة
ووُلد عالمٌ جديد في الآلام.

«انقضَّ الهُون (الهياطِلَة) على الألينيّين، وأنقضَّ الألينيّون على الغُوط وانقضّ الغوطُ على التايغاليِّين والسَّرْماتِيّين، والغوط الذين طُردوا من بلادهم طردونا إلى إلِيرِيكُوم. ولم ينتهِ الأمر عند هٰذا الحدّ!». هٰذا ما أعلنه القدّيس أمبروسيوس، أسقف ميلانو، متحسّرًا، في نهاية القرن الرابع. فكان برابرة شمال أوروبّا وشرقها يتدافعون وينقضّون على الإمبراطوريّة الرومانيّة المنازِعة في غزوات متواصلة مستسلسلة.

لم تكن الظاهرة جديدة: فمنذ نهاية القرن الثالث، عرفتْ غاليا وإسبانيا وإيطاليا الشماليّة - إن اكتفينا بالجزء الغربيّ من الإمبراطوريّة - أضرارَ الفرنج والألَمان وشعوبٍ جرمانيّةٍ أُخرى. لٰكنّ هٰؤلاء لم يسعوا لتحقيق احتلال ثابت، فسرقوا وأحرقوا ودمّروا المدن والأملاك الكبرى والأرياف، فانزوت المدن التجاريّة الغنيّة في غاليا الرومانيّة داخلَ مساحة ضيِّقة تحيط بها أسوار عالية محصّنة. ووضع الفلّاحون أنفسهم تحت حمايةٍ تثاقلت يومًا بعد يوم، مارسها كبار الملّاكين الذين أصبحوا قادةَ زُمَرٍ عسكريّة. وبسبب الانزواء في المدن وانحطاط الزراعة، وتراجُع عدد السكان، كان العصر الوسيط المظلم يولد في قلب الإمبراطوريّة.

وها هم عادوا! لم يكن عددهم كبيرًا، إذ إنّه ليس هناك شعب بربريّ تجاوز عدده مائة ألف شخص، ولم يمثِّل مجموعهم أكثرَ من ٥٪ من عدد السكّان في الإمبراطوريّة. لٰكنّ المقاومة الضعيفة التي واجهوها ومدّةَ تجوّلهم أحدثتا بلبلةً عظيمة. فكانوا يتقدَّمون هاربين، يدفعهم من هو أقوى أو أشرس منهم. وكانوا يطلبون مأوى، وبطريقة مسالمة أحيانًا. وكان بعضهم أقلّ وحشيّة ممّا كانوا عليه في القرن الماضي: فقد كانوا مقيمين على مقربة من الإمبراطوريّة، وعُمِّدوا أحيانًا لا بل جُنِّدوا كمساعدين في الجيوش الرومانيّة، فتعلَّموا كيف يحترمون حضارةً تفرض عليهم رهبتها.

إلّا أنّ النصوص التي تعود إلى القرن الخامس لا تدع أيَّ مجالٍ للشكّ في الرعب الذي زاد البلبلة. فقد صرخ الأسقف الإسبانيّ إداقيوس: «إنّ الأوبئة الأربعة، السيفَ والمجاعة والمرض والوحوش، تتفشّى في أنحاء العالم كلّه». وأضاف أوْرِنْس، أسقف أوش في غاليا: «مَن لم تروِّضه القوّة، روَّضته المجاعة. لقد سقطت الأم سقوطًا مؤلمًا مع أولادها وزوجها، واستُعبِد السيّد وعبيده معًا. فكان بعضهم قوتًا للكلاب، ورأى كثيرون منازلهم المحترقة تَنتزع منهم الحياة، ثمّ تصبح محرقةً لهم. وفي القرى والأملاك والأديار، وعند مفارق الطرق، وفي جميع الأقضية، يسود الموت والعذاب والدمار والحريق والحداد. محرقة واحدة حوَّلت غاليا بأسرها إلى دخان».

كان السيف والمجاعة والوباء والوحوش زمرةً مشؤومة افتتحت العصر الوسيط الأوّل واجتازته كلّه. وعلى دفعات متتالية حتّى القرن العاشر، عمل الغزاة

الوافدون من كلّ صوب، من جرمانيّين وأتراك منغوليين وعرب، على دفع أوروبّا كلّها إلى الرقص على إيقاع الموت. وأدّى التقهقر الأخلاقيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ الهائل إلى تقويض قوى الغرب.

بعض المعالم التاريخيّة

٣٧٥ الهُون ينقضّون على أوكرانيا
٣٧٨ الغوط الغربيّون يهزمون الإمبراطور الرومانيّ على الشرق في أندرِينُوپُوليس
٤٠١ الغوط الغربيّون في إيطاليا الشماليّة
٤٠٦ حماية نهر الرين تتداعى: الڤاندال والبُرغونديّون والصُّوابيّون يجتاحون غاليا
٤٠٩ الڤاندال والصُّوابيّون يعبرون إلى إسبانيا
٤١٨ الغوط الغربيّون يستقرّون في غاليا الجنوبيّة
٤٢٩ الڤاندال يعبرون إلى أفريقيا الشماليّة
٤٣٠-٤٤٠ السكسون يجتاحون بريطانيا العظمى
٤٤٩-٤٥٢ الهون يُغيرون على الشرق وغاليا وإيطاليا الشماليّة
٤٥٥-٤٨٠ البُرغونديّون يستقرّون في وادي نهر الرون
٤٨٦ الفرنج أسياد غاليا حتّى نهر اللوار
٤٨٩ الإمبراطور الرومانيّ على الشرق يُرسل الغوط الشرقيّين إلى إيطاليا
٥٠٧ الفرنج يطردون الغوط الغربيّين إلى إسبانيا
٥٣٣ البيزنطيّون يستعيدون أفريقيا الشماليّة
٥٣٤ البُرغونديّون يُلحقون بمملكة الفرنج
٥٣٦-٥٥٢ البيزنطيّون يستعيدون إيطاليا
٥٦٨ الأڤاريّون يستقرّون في سهل الدانوب
اللومبرديّون يجتاحون إيطاليا الشماليّة
٦٠٠ البلغار على الدانوب الأسفل
٦١٧-٦١٩ السلاڤيّون ينهبون دول البلقان
٦٣٠-٦٣٢ شبه الجزيرة العربيّة في يد الإسلام
٦٣٦ العرب يفتحون سورية
٦٣٩ العرب يفتحون مصر
٦٤٧ العرب يبدأون اجتياح أفريقيا الشماليّة
٦٩٨ العرب يستولون على قرطاجة
٧١١-٧١٩ العرب يستولون على إسبانيا
٧٣٢ شارل مارتل يهزم العرب في پُواتييه
٧٥٩ العرب يُطرَدون من لَنغدوك السفلى
٧٨٦ النورمنديّون يغيرون للمرّة الأولى على إنكلترا
٧٩٩ النورمنديّون يغيرون للمرّة الأولى على غاليا
٨٣٤ النروجيّون يفتحون إيرلندا
٨٤٠ النورمنديُّون يبدأون غزواتهم الكبرى على إنكلترا
٨٤٥-٨٥٠ العرب يغيرون على إيطالياوپروڤانس
٨٥٦-٨٦١ النورمنديّون ينهبون إيل دو فرانس
٨٦٠ المجريّون على نهر دنْيِپر
٨٨٠ المجريّون يبلغون جبال الكارپات
٨٨٦-٨٨٨ النورمنديّون ينهبون بُرغونيا وشمپانيا
٨٩١ الدانمَركيُّون في إنكلترا
٩٠٢ العرب يفتحون صقلّية
٨٩٩-٩٣٥ المجريّون يغيرون على باڤاريا وإيطاليا الشماليّة وألمانيا الجنوبيّة وفرنسا
٩٥٥ المجريّون ينهون غزواتهم في الغرب

نزوح شعوب كبير

لا نعرف بالضبط ما هي الأسباب التي حرّكت قبائل السُّهوب المترحّلة في شمال القوقاز في نهاية القرن السابع. ولٰكنّ الواقع هو التالي: في حوالى السنة ٣٧٥، قام الهُون، وهم شعب يتكلّم التركيّة، بطرد الغوط المقيمين في أوكرانيا، ثمّ توجّهوا نحو السهل المجريّ الحاليّ وأسّسوا فيه إمبراطوريّة شنّوا، انطلاقًا منها، غارات مدمِّرة على اليونان وغاليا وإيطاليا الشماليّة.

فتحرَّك الغوط الغربيّون، المتنصّرون منذ السنة ٣٤٠، ولجأوا إلى الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ولٰكنهم سرعان ما دخلوا في نزاع مع مضيفهم. وقد ساعدهم الانتصار الذي حقّقوه في أندرِينُوپُوليس على التجوّل مدّة عشرين سنة عبر اليونان، إلى أن قادهم ملكهم ألارِيك إلى إيطاليا الشماليّة. فاستولوا على رومة سنة ٤١٠، ثمّ واصلوا تقدّمهم إلى غاليا الجنوبيّة حيث أنشأوا مملكةَ أكيتانيا. وبعد ذٰلك، طردهم الفرنج إلى

ما وراء جبال البِيرِينيه (معركة ڤُويِيه سنة ٥٠٧)، وانتهى بهم الأمر إلى الإقامة في إسبانيا.

أمّا أشقّاؤهم الغوط الشرقيّون فظلّوا خاضعين أوّلًا للهُون، ثمّ اتّحدوا بالبيزنطيّين فأسكنوهم في مقدونيا. ولٰكن ما لبث البيزنطيّون أن سعوا للتخلّص منهم، فأرسلوهم إلى إيطاليا. فاحتلّ الغوط الشرقيّون، بقيادة تِيودُوريك، ڤِينِيسِيا (٤٨٩) ثمّ أصبحوا أسياد إيطاليا كلّها. وظلّوا مقيمين فيها حتّى استعادها البيزنطيّون بمشقّة، بفضل حملات الإمبراطور يُسْطِنيانُس، بين السنة ٥٣٦ والسنة ٥٥٢.

وفي غضون ذٰلك، اهتزّت أوروبّا الشماليّة تحت وطأة غزاة آخرين: فالهُون أرغموا شعوبًا جرمانيّة، هي الڤاندال والصُّوابيُّون والبرُغونديّون والأَلَمانيّون، على تغيير اتّجاهها، فاجتازت نهر الرين بجماهيرها عند ماينتس (سنة ٤٠٦). ولعدّة سنوات، أخذت تجوب غاليا في مختلف الاتّجاهات. فوصل الڤاندال والصُّوابيُّون إلى إسبانيا (٤٠٩). وبعد أن ضغط الغوط الغربيّون على الڤاندال (٤١٨)، عَبَر هؤلاء مضيق جبل طارق ونهبوا أفريقيا الشماليّة. وامتلكوا أسطولًا فساعدهم على أن يصبحوا أسياد الجزر كلّها في غرب البحر المتوسّط (٤٤٠-٤٥٥).

وأخذت شعوبٌ شماليّة أُخرى، جرمانيّة هي أيضًا، طريقَ البحر: فنزل الأَنكْلِيُّون والسَكسون على شاطئ بريطانيا العظمى، فطردوا البَريطانيّين الكلتيّين إلى غرب البلاد أو أرغموهم على النزوح إلى أرموريكا - بريتانيا الفرنسيّة اليوم - (٤٣٠-٤٤٠).

وفي نهاية القرن الخامس، قرّر الفرنج أن يجرّبوا حظّهم في غمرة تلك التقلّبات الكثيرة: ففي مرحلة أُولى استولى زعيمهم كلوڤيس على السلطة في غاليا الشماليّة. وسنة ٤٨٦، امتدّت المملكة الفرنجيّة إلى نهر اللُّوار، وسنة ٥٠٧ (معركة ڤُويِيه) إلى البِيرِينِيه، وفي آخر الأمر، سيطرت على المملكة البُرغونديّة سنة ٥٣٤.

الكمّاشة

بوجهٍ عامّ، شهدت نهاية القرن الخامس استقرارًا في الوضع السياسيّ في أوروبّا الغربيّة، حتّى إنّ يُسطنيانُس، إمبراطور بيزنطية، شرع في استعادة عدّة أراضٍ غربيّة من الإمبراطوريّة الرومانيّة القديمة (أفريقيا الشماليّة وإيطاليا، إلخ). ولٰكنّ موجةً جديدة من الغزوات ما لبثت أن أحبطت ذٰلك المسعى.

ووصلت إلى أوروبّا شعوب جديدة آتية من السهوب الشرقية: الأڤاريّون، الذين يتكلّمون اللغة التركيّة كالهون - والبلغار في وقت لاحق -، ساروا وعاليةَ مجرى نهر الدانوب. واللومبرديّون، وهم شعبٌ جرمانيٌّ ساعد البيزنطيّين على سحق الغوط الشرقيّين، احتلّوا إيطاليا (٦٦٨). ولمدّة قرنين، ظلّ الأڤاريّون يغيرون باستمرار على اليونان وإيطاليا الشماليّة وباڤاريا، وقطعوا الطريق التجاريّة التي كانت تربط بين البحرين الأدرياتيكيّ والبلطيقيّ، فسهّلوا تقدّم السلاڤيّين في بوهيميا ونحو اليونان. وحوالى السنة ٦٨٠، دخل البُلغار مسرَح الأحداث، فاجتازوا نهر الدانوب الأسفل وأقاموا داخل الإمبراطوريّة البيزنطيّة، في بلغاريا الحاليّة. ولم يصبح انتشارهم في قمّة خطورته إلّا في القرن التاسع.

ولٰكنّ أهمّ حدثٍ عرفه القرنان السابع والثامن كان التقدّم الجامح الذي أحرزه الإسلام: فقد استفاد العرب من ضعف الإمبراطوريّتين الساسانيّة والبيزنطيّة واحتلّوا، في أقلّ من قرن، مساحات واسعة تمتدّ من إيران إلى إسبانيا. وفي بداية القرن الثامن، انتصروا على الغوط الغربيّين وأقاموا في منطقة لَنْغدوك السُفلى. أوقفهم شارل مارتِل في پواتِييه (٧٣٢) ولٰكن كان لا بدّ من انتظار الهجوم المضاد الذي شنّه پيپان القصير (٧٥٩) ليعبروا البيرينيه ثانيةً.

وفي منتصف القرن الثامن، بدا الغرب المسيحيّ إذًا وكأنّه محتجَز في كمّاشة بين الإسلام في الجنوب والبرابرة الجدُد في الشمال والشرق. وقد توصّل شارلمان إلى فكّ الطوق، ولٰكن كان على أوروبّا أن تأخذ بعين الاعتبار قادمين جدُدًا آخرين.

انقلابات جديدة

وفي حين كان الكارولينيّون يُحكِمون سيطرتهم على البرّ، بدا أنّ البحار كانت تُفلت منهم. وحتّى قبل وفاة شارلمان (٨١٤)، كان أهل الشّمال، من نروجيّين ودانمَركيّين وسُوَيْدِيّين (أو ڤاريغيّين)، في الشرق والغرب على السواء، يغيرون على السواحل، ويسيرون وعالِيَةَ النهر، وينهبون الأديار ويحاصرون المُدن. فاحتلّ النروجيّون إيرلندا (٨٤٣). واستعمر السويديّون روسيا اقتصاديًّا، وانقضّ الدانمَركيُّون على إنكلترا وفرنسا وبلغت غاراتهم إسبانيا وإيطاليا. واستقرّ بعضهم في نورمَنديا (٩١١)، وبعضهم في إيطاليا الجنوبيّة (١٠٢٩)، وبعضهم الآخر في إنكلترا التي احتلّوها في آخر الأمر سنة ١٠٦٦.

غير أنّ الخطر الأكبر في البحر المتوسّط كان ناجمًا عن القراصنة المسلمين الذين نزلوا على شاطئ جزيرة كورسيكا (٨٠٦) واحتلّوا صقليّة (٨٢٧-٩٠٢) وأقاموا رأس جسر على پروڤانس وعلى إيطاليا. وسنة ٨٤٦ ازدادوا جسارةً فنهبوا كنيسة القدّيس بطرس في رومة.

وفي الغرب، كانت أوروبّا مسرحًا لانقلابات جديدة سبَّبها المجريّون الذين نزلوا من الأُورال، وأقاموا في القرن السابع على ضفاف نهر الڤولغا من جهته السفلى، واختلطوا بالخَزَر، وهم شعب من الأتراك المهتدين إلى الدين اليهوديّ كانوا يمارسون تجارةً نشطةً بين العالم الإسلاميّ وروسيا وسكنديناڤيا. وفي منتصف القرن التاسع، قوّض أتراك آخرون، هم البِتْشِنِيغِيُّون، أركان الإمبراطوريّة الخزريّة وطردوا المجريّين نحو الغرب. وأقام هٰؤلاء في سهل الدانوب الأوسط، ومن هناك شنّوا غارات دامية على إيطاليا وباڤاريا وألمانيا وفرنسا مدّةَ خمسين سنة. وسنة ٩٥٥، أوقف زحْفَهم أوتّو، ملك جرمانيا، ونشأت المَجَر في نهاية القرن العاشر نتيجةً لاستيطانهم.

وبعد مرور خمسة قرون من المحَن، أُقفِلت حلقة الغزوات البربريّة. غير أنّ الوحدات السياسيّة التي نتجت منها ظلّت مزعزعةً ولم تستقرّ وتثبت إلّا بعد عدّة قرون.

الفصل الثالث

لقاء البرابرة

بقلم بيار رِيشِيه(*)

استولت الدهشة على العالم المسيحيّ بعد سقوط رومة.
ولٰكنّه سرعان ما استردّ رباطة جأشه.
وفي ظلّ الصدمة التي سبّبتها غزوات البرابرة،
اكتشف دعوته شيئًا شيئًا:
وهي أن يحمل الإنجيل إلى شعوب جديدة.
فنشأت أوروبّا في وقتٍ متزامن مع نشوء «الحضارة المسيحيّة».

منذ مطلع القرن الرابع، أصبحت الكنيسة كاملة الحقوق في الإمبراطوريّة. وهلّل المسيحيّون «لاهتداء» قسطنطين. فقد أصبح في وسعهم أخيرًا أن يمارسوا شعائرهم الدينيّة بحرّيّة، وأصبح في وسع الكنيسة أن تنظِّم نفسها في وضح النهار وتمدّ نفوذها إلى كلّ «الأمّة» الرومانيّة. وتوصّلت إلى ذٰلك بفضل اندراجها في المؤسّسات القائمة أصلًا. وطابقت بدقّة بين تنظيمها وتنظيم الإمبراطوريّة: ففي كلّ مدينة، أي في كلّ دائرة إداريّة محلّيّة، يقيم أسقف، وفي كل مقاطعةٍ متروپوليت، سُمِّي في ما بعد، في القرن الثامن، رئيسَ أساقفة. واقتَسمت خمسُ بطريركيّات، بعدد أصابع اليد، السلطةَ الدينيّة في الإمبراطوريّة: وهي بطريركيّة الإسكندريّة، وأنطاكية، وأورشليم والقسطنطينيّة، ورومة. ومنذ ذٰلك الوقت، ثَبّت أسقفُ رومة، المقيم على ضريح الرسل، أوّليّته المعنويّة، ولٰكنّه ترك لنُظرائه ملءَ السلطة القانونيّة والإداريّة في بطريركيّتهم.

ولم تكتسب الكنيسة حرّيّتها وحسب، بل نالت الكثيرَ عن يد الأباطرة الذين أصبحوا مسيحيّين: فهناك إعفاءات ضريبيّة للإكليريكيِّين وامتيازات قانونيّة باسم «المحكمة الكنسيّة». ولهٰذا كان الإكليريكيّون فوق الشرع العامّ. وبالإضافة إلى ذٰلك، كانت تستفيد من هبات الأمراء والأرستقراطيّين المسيحيّين، وبدأت تبني ما أصبح، في ما بعد، ثروتها الطائلة. وكان في وسعها أن تتدخّل في الحياة السياسيّة، وتؤثّر تأثيرًا إنسانيًّا في التشريع الإمبراطوريّ، وإن لم تُحرز دومًا نجاحًا باهرًا. وأخيرًا، استطاعت الكنيسة أن تعتمد على السلطة المدنيّة، أي على تدخّل الإمبراطور في مقاومة الوثنيّين. ففي سنة ٣٩١ حرّم ثيودوسيوس الأوّل رسميًّا إقامة الاحتفالات الوثنيّة في رومة. وبادر قسطنطين إلى عقد مجمع نيقية الذي أدان الأريوسيّة. وهٰكذا لم يستطع المسيحيّون أن يتطلّعوا إلى نظام سياسيّ آخر غير النظام الذي يحميهم ويمنحهم الامتيازات. وقد أشاد أوغسطينُس عدّة مرات بالإمبراطور المسيحيّ وأسدى الأساقفةُ النصح للأمير الحاكم. فلا نستغرب دهشتهم الأليمة، لا بل يأسهم، حين غزا البرابرة الجرمانيّون الإمبراطوريّة في نهاية القرن الرابع.

(*) Pierre Riché، أستاذ في جامعة باريس العاشرة.

العالم الرومانيّ ينهار

سبق للمسيحيّين أن عرفوا أولٰئك البرابرة لأنّ رومة كانت قد نجحت في صدّ الغزوات الأُولى التي شنّوها في القرن الثالث. ومنذ ذٰلك الوقت، قبِل الأباطرة أن يُسكنوا جماعات عسكريّة بربريّة، لا بل شعوبًا بأكملها، ضمن حدود الإمبراطوريّة، وأُلحق مرتزقون بالجيش الرومانيّ، وسُلِّم قادةٌ برابرة، حملوا الجنسيّة الرومانيّة، مراكز قيادة. وبهٰذه الطريقة كانوا يأملون تدارك الخطر. ولٰكنّ سمعة أولٰئك البرابرة لم تكن حسنة. فالاسم الذي أُطلق عليهم يُظهر هو نفسه أنّهم لم يكونوا يشاركون في الحضارة والثقافة القديمَتين. وقد أكّد الشاعر المسيحيّ پُرودَنْتيُوس أنّ «التعارض القائم بين الرومانيّ والبربريّ يشبه التعارض القائم بين ثنائيّ الأقدام ورباعيّ الأقدام، وبين الكائن الناطق والبهيمة الخرساء». فإذا انتصر البرابرة، قُضي على الحضارة الرومانيّة وعلى كلّ الفوائد التي حملتها إلى العالم. لا بل هناك أكثر من ذٰلك: أفلا يُنذر دخولُ البرابرة الإمبراطوريّة بنهاية العالم؟ فلا نستغرب ردّ فعل المسيحيّين، حين أُعلن عن تقدّم الشعوب البربريّة التي اجتازت الدانوب سنة ٣٧٦ والرين سنة ٤٠٦. وقد خَشي القدّيس أمبروسيوس نفسه حلول نهاية العالم، فكتب: «ما من أحدٍ يمكنه أن يشهد للكلمات السماويّة أفضل منّا نحن الذين نُشرف على نهاية العالم، نظرًا إلى كثرة الحروب والإشاعات عن الحروب! انقضّ الهُون على الألينيّين، وانقضّ الأَلينيّون على الغوط، وانقضّ الغوط على التايغاليّين والسَرماتيّين، والغوط الذين طُردوا من بلادهم طردونا إلى إلِيريكُوم. ولم ينتهِ الأمر عند هٰذا الحدّ!». أمّا القدّيس هِيرونيمُس، المقيم في ديره في بيت لحم، فقد تلقّى بأسًى أخبار الغزو وقال: «العالم الرومانيّ ينهار». وأضاف: «إنّ خطايانا هي التي تقوّي البرابرة، وإنّ رذائلنا هي التي تُضعف الجيش الرومانيّ... إنّ غضب البرابرة هو أداةٌ لغضب الله».

ولم يكن هيرونيمُس، المطَّلع على كلّ ما يجري في الغرب، قد بلغ ذروة دهشه المؤلم. ففي السنة ٤١٠، علم أنّ الغوط الغربيّين يقتربون من رومة ويحاصرونها ويستولون عليها. فكتب: «لقد وصلتنا من الغرب إشاعة رهيبة: رومة محاصرة... إنّ صوتي يختنق والشهيق يقاطعني وأنا أُملي هٰذه الكلمات. لقد استُولي على تلك المدينة التي استولت على العالم». نعم، إنّ المدينة الخالدة، التي لم تعرف الغزوات منذ السنة ٣٨٣ قبل الميلاد، سقطت ونُهِبت عن يد برابرة القائد ألاريك. فكان لذٰلك الخبر وقع الصاعقة. إنّها حقًّا نهاية العالم.

لا يُمكِننا أن نتّهم الله

عندئذٍ، وكما يحصل بعد وقوع كلّ كارثة، بدأ البحث عن المسؤولين. فأكّد الأرستقراطيّون الوثنيّون أنّ رومة سقطت لأنّها تخلّت عن الآلهة القديمة: «عندما كنّا نقرّب الذبائح لآلهتنا، كانت رومة منتصبة، أمّا الآن وقد سادت تقدمة الذبائح لإلٰهكم... فانظروا الشرور التي تعانيها رومة». وراح المسيحيّون أنفسُهم يشكّون في فعّاليّة العون الإلٰهيّ. فإنّ جثمانَي الشهيدَين بطرس وبولس، وهما جثمانان مكرّمان، لم يتمكّنا من إيقاف نهب مدينتهم وحرقها. وفي محاولة لتطمين المسيحيّين، باشر أوغسطينُس، أسقف هِيپُّونَة، تأليف **مدينة الله**، ذٰلك الكتاب الذي أصبح إحدى أكبر روائع الفكر المسيحيّ. في الأقسام الأُولى، التي نشرها منذ السنة ٤١٣، لم يشأ أن يقدّم مجرّد رفضٍ للوثنيّة، بل دعا إلى التأمُّل في الكارثة التي عرفها العالم قبل ذلك بقليل، وإلى استخلاص العِبَر منها. وقد رأى هو أنّ سقوط رومة أمر خطير، ولٰكنّه لا يعني نهاية العالم. إنّ ما سقط هو مدينة من حجارة وخشب، لا الإمبراطوريّة الرومانيّة حتمًا. والغزو البربريّ هو حادثة من حوادث التاريخ، عرفنا غيرها وسنعرف غيرها أيضًا. لا يمكننا أن نتّهم الله الذي يشرق شمسه كلّ يوم على الأخيار

والأشرار. ومقاصد الله تختلف عن مقاصدنا. فليكن سقوط المدينة عبرةً للمسيحيّين. ويستنتج متأسّفًا «أنّ المسيحيّين ينسون بسرعة: فما إن ينهضون من الكارثة حتّى يتدافعوا مجدّدًا إلى المسرح ويبحثوا في الملذّات عن نسيان مصائب الدهر».

غير أنّه كان من شأن واقع الأمور أن يدعو المسيحيّين إلى التيقّظ. فإنّ الغزو الذي حدث في السنة ٤٠٦ أوصل الڤاندال وبرابرةً آخرين إلى طُرُق غاليا وإسبانيا. وقد وصف لنا المعاصرون بتأثّرٍ شديد الخراب الذي سبّبته الحرب ومشاهد الرعب التي كانوا شهودها وضحاياها.

الغرب يتعوَّد حضور البرابرة

لم يكتفِ البرابرة بالعبور، بل احتلوا دول الغرب واستقرّوا ضمن مجموعات صغيرة في الممتلكات الكبرى وأجبروا أصحابها على أن يُشركوهم في خيراتهم وعبيدهم. فتعوّد الرومانيّون شيئًا فشيئًا حضورهم، وتبيّن لهم أنّ أولٰئك الجرمانيّين، وإن كانوا برابرة، هم بشر وأنّ العيش المشترك أمر ممكن. ومع مرور الزمن، أصبح التقارب واردًا، حتّى إنّه حدث تطوُّر في الذهنيّات إبّان القرن الخامس. وقد أراد أُورُوسِيوس، أحد تلامذة القدّيس أوغسطينُس، أن يواصل عمل معلّمه، فكتب نوعًا من التاريخ العالميّ وفيه يشير إلى الغزوات الكبرى. وأراد هو أيضًا أن يردّ على الوثنيّين فوضع نظريّةً في التاريخ المبنيّ على العناية الإلٰهيّة. وأظهر أنّ الله أرسل ابنه حين كان الرومان على عتبة توحيد العالم، وأنّه، في هٰذا الإطار السياسيّ، يُدخل الآن البرابرة المدعوّين إلى الاهتداء:

«إذا كان البرابرة قد أُرسلوا إلى الأرض الرومانيّة لكي تمتلئ الكنائس المسيحيّة في الشرق والغرب بالهُون والصوابيّين والڤاندال والبُرغونديّين، فلا بدّ لنا من أنّ نسبّح الرحمة الإلٰهيّة ونعظّمها، لأنّ أممًا كثيرة أوحي إليها بالحقيقة، ولو كان ذٰلك بسبب انهيارنا، ولم يكن في وسعها، ولا شكّ، أن تكتشفها إلّا في تلك المناسبة».

وفي تلك الأثناء، كان البرابرة المقيمون في الإمبراطوريّة لا يتمنّون شيئًا أفضل من وضع قواهم الفتيّة في خدمة الإمبراطوريّة العجوز التي يُعجَبون بعظمتها. وقد أكّد ذٰلك علنًا الأمير آتهوف، عندما تزوّج أميرةً من البلاط الإمبراطوريّ تُدعى غاليا پلاسِيدِيا.

«لقد طمح في بادئ الأمر، بحماسة شديدة، إلى محو الاسم الرومانيّ وتحويل الأراضي الرومانيّة إلى إمبراطوريّةٍ غوطيّة... إلّا أنّ اختباره الطويل بيّن له أنّ الغوط كانوا عاجزين كلَّ العجز عن الانصياع للقوانين بسبب بربريّتهم التي لا تعرف رادعًا. ولٰكن، بما أنّه لا يمكن إلغاء القوانين في الدولة، لأنّه بدونها لا تعود الدولة دولة، فقد فضّل أن يضع مجده في إحياء الاسم الرومانيّ بكامله وإعلائه، بمساعدة الغوط، لكي ترى فيه الأجيال القادمة مُحييَ الإمبراطوريّة الرومانيّة، لأنّه لم يستطع أن يحوّلها» (خطبة نقلها أُوروسِيوس).

والبرابرة يتحلّون بصفات لا بدّ من الإقرار بها. وقد ميّز سالڤيان المَرسِيليّ بين الرومانيّين والبرابرة. فشجب العيوب عند هٰؤلاء وأشاد بالصفات الطبيعيّة عند أولٰئك. وظهر عندئذٍ مفهوم «البربريّ الصالح» الذي يَجهل الشريعة الدينيّة، ولٰكنّه لا يستطيع أن يخطأ حقًّا. «الشعب السكسونيّ شرس، والفرنج غدّارون، والغِپيدِيُّون قساة، والهُون فاحشون. ولٰكن، هل عيوبهم مستنكَرة أكثر من عيوبنا؟... وهل ندهش لمخادعة الهون أو الغِپيديّين، علمًا بأنّهم يجهلون أنّ المخادعة خطيئة؟ وهل نستغرب الحنث عند الفرنجيّ، علمًا بأنّه يعتقد أنّ الحنث باليمين كلام عاديّ، لا جريمة؟».

واعتبر سالڤيان أنّهم ساهموا هنا وهناك في تحرير الرومان من استبداد الموظّفين وجشع الجباة. «إنّهم يعاملون الرومان كرفاق وأصدقاء، حتّى إنّنا نجد رومانيّين يفضّلون العيش أحرارًا وفقراء مع البرابرة على البقاء قلقين وحدهم ومُرغمين على دفع الضريبة». ونرى

أنّ الڤاندال أنفسهم، مع أنّهم كانوا أكثر تطرّفًا من سواهم، أحلّوا الفضيلة في قرطاجة فألغوا الدعارة واللواط. وقد تنبّه سالڤيان إلى أنه من شأن تلك الأقوال أن تكون حجر عثرة. ولٰكنّها تثبت أنّ المسيحيّين بدأوا يستعدّون لاستقبال الوافدين الجدد، وأنّ الكنيسة بدأت «تنتقل إلى البرابرة» كما قيل.

وفي منتصف القرن الخامس، وقع حادث خطير أثبت أنّ التعاون بين الرومان والبرابرة أمر ممكن. فإنّ الهون، الذين أرغموا الجرمانيّين على دخول الإمبراطوريّة، غزوا الغرب هم أيضًا بقيادة أتّيلا. ونجح القائد الرومانيّ آيتيُوس في تنظيم جيشٍ رومانيّ جرمانيّ انتصر على ملك الهون في معركة كامْپُس مورياكُس الشهيرة قرب تْرُواي. وفي السنة التالية، اجتاح أتّيلا إيطاليا. وفي هٰذه المرّة، نجت إيطاليا بفضل لباقة البابا لاون الكبير. وأدرك الجرمانيّون والرومان أنّ خلاص الغرب على المحكّ، وأنّ انتصار الجيوش الهُونيّة يمثّل نهاية الحضارة. ولئن كنّا لا نقول بأنّ أوروبّا وُلدت من كامپُس مورياكُس إلّا أنّنا نشير هنا إلى أنّ الأوروبّيّين دافعوا عن حضارتهم للمرّة الأُولى. وقد دخلت صورة أتّيلا، «آفة الله»، في الأساطير. وعندما عمل غزاة أسيَويُّون آخرون في القرون الوسطى، من أڤاريّين ومجريّين ومنغوليّين وأتراك، على تهديد الأوروبّيّين، كانت ذكرى انتصار السنة ٤٥١ هي التي سندت جهودهم.

الفصل الرابع

عالم البرابرة الدينيّ

بقلم پيار ريشيه(*)

كان للبرابرة ديانة.
وقد مكّنتهم معتقداتهم وتقاليدهم،
المتأصّلة بعمق في ثقافتهم، أن يقاوموا طويلًا جهود
المرسَلين المسيحيّين الذين بشّروهم بالإنجيل.

عندما نتحدث عن وثنيّة البرابرة، يجب ألّا نظنّ أنّها مجرّد خرافاتٍ غامضة وممارسات سحريّة. فإنّ الجرمانيّين والكلتيّين والسلافيّين ورثوا من الديانات الهنديّة الأوروبيّة معتقدات راسخة بآلهة تسيطر على السماء والأرض وتتميّز أحيانًا بالصفات نفسها، وإن كانت تحمل أسماء مختلفة. فإنّ قوى الطبيعة كالسماء والماء والعاصفة والنار كانت مشخصَنة. وإذا كانت العبادات قد اتّخذت أشكالًا متنوّعة، فإنّ المسيرة الدينيّة ظلّت كما هي.

ديانة الجرمانيّين

كان الجرمانيّون يعتقدون بأنّ الطبيعة ساحة معركة واسعة، تتصارع فيها الآلهة. فتِيواز، إله السماء المنير والهادئ والمعتدل، يرئس المجالس السماويّة، وهو يكرَّم في اليوم الثاني من الأسبوع (Dienstag, Tuesday). ووُدان أو أُودان هو إله المعارك، وصيّاد متوحّش يجوب الكون في ليالي الشتاء الاثنتي عشرة المقدّسة. إنّه الإله الآب، الذي يعرف المستقبل. وزوجته فرِيا هي إلهة الحب والزواج والعائلة، والحاكة والغزّالين، وهي في الوقت نفسه مِينِرڤا وڤِينُوس، ويومُ الجمعة مكرَّس لها (Freitag, Friday). ولِوُودان وفرِيا ولدان، دُونار إله الفأس المطرقة، والعاصفة والصاعقة – ومن اسمه اشتُقّ يوم الخميس بلغتهم (Donnerstag, Thursday) – وبالْدِر، إله النور والسلام والصداقة، ولسوء الحظّ قتله لُوكِي الذي يجسّد قوى الشرّ. فإنّ الآلهة الجرمانيّة تتحارب كالبشر، وعالمها محاط بالمستنقعات والظلمات، ولا يمكنها أن تفلت من مصيرها الذي يؤدّي إلى «مَغِيب الآلهة». وإلى جانبها يعيش عالم من الجنّ التي تمثّل قوى الطبيعة، الأقزام وجنّ المياه والجنّيّات والساحرات، وأشهرهنّ الوَلْكِيرِيّات اللوتي يخدمن في «وَلهلّا» المحاربين الذين سقطوا في ساحة المعركة. والعبادة الجرمانيّة بسيطة: فعلى قمّة الجبال المقدّسة، قرب الأشجار التي ترمز إلى محور العالم، كشجرة إرمِنسول التي أتلفها شارلمان في ساكسِن، قُربَ الينابيع، كانت تقرَّب الذبائح الحيوانيّة أو الإنسانيّة. وهناك يُحرق حصان، فيُحفَظ قسم من لحمه للآلهة، في حين يُسلق القسم الآخر ويتقاسمه الحاضرون. وتنتقل القرون المملوءة بيرة من يدٍ إلى يد في حين ترتفع الأدعيَة المقدّسة. ولم

(*) Pierre Riché، أستاذ في جامعة باريس العاشرة.

يكن الكهنة الذين يترأسون الاحتفالات منظّمين في جماعة كهنوتيّة كما في البلاد الكلتيّة. فكان ربّ العائلة أو القائد العسكريّ يقوم بدور الكاهن.

لم يكن أولئك المحاربون الشجعان والأفظاظ يؤمنون بالموت. فكان عليهم أن يحفظوا، بالقرب من الموتى، الذين تُحرَق جثثُهم أو يُدفنون في أغلب الأحيان، أدواتٍ وأسلحة وحلى توَصّل علماء الآثار إلى اكتشافها. ولكي يقي الأحياءُ أنفسَهم من هجمات القوى الشرّيرة، كانوا ينصرفون إلى ممارسة السحر. فكانوا يحملون التعاويذ (الطلاسم) المأخوذة من الحيوان (قرون الأيائِل) أو النبات (العنبر) أو المعدن (كرة من البلّور)، ويحفرون على أسلحتهم حروفًا أبجديّة يعرفها المتدرِّجون وحدهم، أو رسومًا كالسُّواسْتِيكا أي الصليب المعقوف الذي يمثِّل الشمس وهي تتحرَّك. وبذلك تقترب عاداتهم من عادات شعوب بربريّة أُخرى.

ديانة الكلتيّين

للكلتيّين، وهم متحدِّرون من الأصل الهنديّ الأُوروبيّ نفسه، ديانات قريبة إلى حدٍّ ما من ديانات الجرمانيّين. فإنّ لُوغ، إله الشمس، يشارك تارانيس في السيطرة على السماء. ولكنّهما إلهان بعيدان. فهناك آلهة أقرب إلى البشر كالآلهة الحيوانيّة الشكل: الإله الحصان، الإله الحيّة، الإله الكلب... وقد عاشت تلك الآلهة على الأرض في الحظائر المقدَّسة أو قرب مجموعة من الحجارة الضخمة. وكانت أقرب إلى الأبطال الذين يفوقون قدرة البشر منها إلى الكائنات التي تفوق الطبيعة. فغالبًا ما كانت الآلهات، كبريجَنْتِيا (برِيجِيت)، تتدخّل في عالم البشر، تمامًا كالجنّيّات والساحرات.

وكان الكلتيّون يجتمعون في احتفالات ضخمة لمناسبة أربعة أعياد تتوافق مع الفصول الأربعة: الأوّل من تشرين الأوّل/ أُكتوبر (سامان)، عيد الموتى، والأوّل من شباط (فبراير)، عيد الإلهة بريجيت، والأوّل من أيّار (مايو)، عيد الماشية، والأوّل من آب (أغسطس) عيد زواج لُوغ. أمّا الذبائح البشريّة فقد حلّ محلّها منذ زمن بعيد مذابح البقر والثيران. وكان الكهنة الكلتيّون (الدروِيدا) يحضرون تقدمة الذبائح ويتنبّأون بالمستقبل. فكانوا كهنةً وعرّافين وحتّى سحرة. وكانوا يقومون بدور سياسيّ لا شكّ فيه، ولكنّهم كانوا مربّين في الوقت نفسه. وهم علماء يعرفون معاني الحروف المقدّسة، أو «الأُوغام»، وفقهاء يحكّمون في النزاعات. وإلى جانبهم، كان الشعراء الملهَمون (الفِيلِيدز أو البارِدُس) يَروُون قصص الآلهة والأبطال والملوك.

وكان الكلتيّون يؤمنون بخلود النفس، ويعتقدون أنّ الموتى يقيمون في نواحي الجزر المسحورة المحاطة بأسوار ناريّة والمزروعة ببساتين فواكه دومًا خُضْر، والمأهولة بنساء فاتنات. وقد تنصَّرت الأفكار في ما بعد، واغتنى الغرب المسيحيّ بالمعتقدات والصور الشعريّة الكلتيّة.

ديانة السلافيّين

ورد عند المؤرّخ البيزنطيّ پرُوكُوپِس، وهو حَسَن الاطّلاع عمومًا، مختصَر عن المعتقدات السلافيّة، كُتب فيه: «كانوا يَعترفون بأنّ هناك إلهًا واحدًا خالق الصاعقة وسيّد الكلّ - هو الإله فِرُون -: وكانوا يقرِّبون له الماشية وكلّ أنواع الحيوانات. وكانوا يجهلون كلّ شيء عن القَدَر ولا يعتقدون أنّ له أيّ سلطة على الإنسان. وكانوا يعبدون الأنهار وحوريّات الماء وبضعة شياطين أُخرى، ويقرِّبون لها الذبائح وينتظرون أجوبتها في أثناء الذبيحة.

ففي الواقع، كان السلافيّون لا يخشون الآلهة بقدر ما كانوا يخشون الشياطين والجنّ التي تسكن السماء والأرض والتي يَرونها في قوى الطبيعة كلّها. فكانوا يسكّنون غضبها بتقدمة الذبائح الفصليّة، في مطلع السنة مع فصل الشتاء (كولِيدا)، وفي الربيع، وفي الانقلاب

الصيفيّ، وبعد جمع الغلّات. وكان الكهنة الملتئمون في مجمع شرعيّ يحرسون المعابد ويتنبّأون بالمستقبل. وإلى جانبهم كان هناك السحرة، وغالبًا ما يؤثّرون في الوثنيّين تأثيرًا أكبر من تأثير الكهنة أنفسهم. وقد تزعّموا المقاومة لصدّ التغلغل المسيحيّ. وإنّ اكتشاف أدواتٍ سحريّة في القبور، بالإضافة إلى روايات المؤرّخين اللاتين في القرنين العاشر والحادي عشر، تُطلعنا على قوّة الوثنيّة السلافيّة.

فمِن الخطأ أن يُعتقد أنّ مختلف أنواع الوثنيّة التي حاربها الغرب اعتبارًا من القرن الخامس لم يكن مضمونها سوى معتقدات سطحيّة وممارسات فُلكلوريّة. فإن الجرمانيّين في حقبة الغزوات الكبرى أو في حقبة الغزوات السكَندنافيّة، والكلتيّين في بريطانيا العظمى، والسلافيّين في أوروبّا الوسطى والغربيّة، قد نجحوا في مقاومة التبشير بالإنجيل مدّة طويلة، وعندما اهتدوا، ظلّوا محتفظين بعددٍ لا بأس به من بقايا ممارساتهم الوثنيّة.

الفصل الخامس

اهتداء البرابرة

بقلم أوجين إڤيك(*)

ماذا حلّ بالكنيسة في الفوضى التي سبّبتها الغزوات؟

صَعُب عليها الصمود أوّلًا، ولٰكنّها استعادت الأمل شيئًا فشيئًا. خسرت الكنيسة كثيرًا من القوّة المادّيّة التي استمدّتها من الأباطرة المسيحيّين: فقد دُمِّرت المباني، وصودِرَت الأراضي أو أصبحت بائرةً وحُرِمت اليدَ العاملة، وقلّت المداخيل. فكان لا بدّ من إعادة جمع الخيرات الزمنيّة، لا لكي يعيش الإكليرُس وحسب، بل للتعويض عن تقصير السلطات العامّة. وأصبح الأساقفة والإكليرس زعماءَ متعدِّدي الكِفايات يشرفون على عالم مفكَّك. فكانوا ينظِّمون مقاومة العدوّ، ويتفاوضونَ بمهارة معه، ويوزِّعون الموادّ الغذائيّة والحسنات، ويحمون الفقراء من جشع الكبار. ولقد قال في ذٰلك ف. لُوط: «كان الأسقف يتدخّل في كلّ شأن لأنّ الجميع كانوا يرجونه». وكان كلُّ شيء يعنيه: مِن بناء الكنائس وحتّى من ترميم الأسوار وجرّ المياه وإنشاء المستشفيات. وكان الأساقفة، وكادوا أن ينتموا جميعًا إلى الطبقة الأرستقراطيّة، لهم من صفات التنظيم ما جعلهم أسياد المدن. وكانت تلك الصفات ضروريّة، ولٰكن خطرة لِمَن لا يعرف كيف يهتمّ بواجبه الرعويّ قبل اهتمامه بتنظيم مدينته.

سارت الكنيسة قُدُمًا واعتمدت على قدرة الإيمان المسيحيّ لتنظّم العالم. وفي البلبلة التي سبّبها مجيء الشعوب البربريّة، التي لم يكن تعرف ذٰلك النمط من التناسق العضويّ الذي توصّلت رومة إلى خلقه في إمبراطوريّتها، عملت الكثلكةُ، وريثةُ المزايا الرومانيّة، على إعادة إحلال النظام. فكان عليها أن تعمل كلّ شيء. ولم تكن الوحدات السياسيّة المنبثقة من الغزوات سوى تكتّلات موقّتة لم تصل إلى الاستقرار إلّا بعد أجيال. كان بعضها وثنيًّا، وبعضها الآخر متعلّقًا بالأريوسيّة المعتَبَرة نوعًا من الديانة القوميّة. ولم يكن أيٌّ منها كاثوليكيًّا. وهٰذا يعني أنّ الرهان كان خطيرًا. ولعدّة قرون ظلّ المرسلون والبابوات والأساقفة والنسّاك يعملون بلا هوادة. وكان المسرح يتنقّل، والممثِّلون يتغيَّرون وتتغيَّر معهم الدوافع والأساليب. وغالبًا ما كان الاقتناص مدعاةً للافتخار. وكثيرًا ما كان التبشير المسيحيّ يخفق، عندما يسعى للتوجّه مباشرةً إلى الجماهير الوثنيّة. فكانت استمالة القادة ورؤوس السلطة الاجتماعيّة ضمانًا أفضل للنجاح. وبذٰلك، وعلى عكس ما حصل في عهد الكنيسة الناشئة، كان العالم المسيحيّ الجديد يكسب الشعوب في رؤسائها وبالقوّة غالبًا.

فمن الممكن أن نتحدّث عن «جبهةٍ» إرساليّة حقيقيّة: وقد تنقّلت تلك الجبهة على خارطة الغرب. وسنتتبّع تقدُّمها أو تراجعها على مرّ العصور.

مركزان لإعلان الإنجيل: غاليا وإيرلندا

بعد تدمير المدن وانهيار التجارة والاقتصاد، لم يكن النظام الذي أحّلته رومة في أوروبّا الغربيّة الأمرَ الوحيد الذي جرفه هيجانُ الغزوات البربريّة في مطلع القرن السادس، فقد بدا أنّ القوّة السياسيّة التي كانت الكثلكة

(*) Eugène Evig، أستاذ في جامعة بون (ألمانيا).

تتمتّع بها تلاشت هي أيضًا. فكان ثلاثة أرباع أوروبّا في يد الأمراء الأريوسيّين. وكان الزعماء الوثنيّون يتنافسون على الباقي، وكانت المسيحيّة الأرثوذكسيّة على شفير الهاوية. وعلى الرغم من ذٰلك، انطلق الاسترداد من كنائس غاليا والجيوب الكاثوليكيّة في إنكلترا وإيرلندا. ومن الغريب أنّ الوثنيّين الفرنج أصبحوا الأداة التي حملت الغرب على العودة إلى الكثلكة.

أساقفة غاليا يعملون باستمرار

إنّ انقاذ الكثلكة في اللحظة الأخيرة عن يد كنائس غاليا لمدهش بقدر ما كان تبشير ذٰلك الإقليم متأخّرًا، من عدّة وجوه، عن تبشيرِ مناطقَ أُخرى في الإمبراطوريّة الراحلة. وكان هناك أسقفيّات في واديَي المُوز والرِين ولا يرقى عهدها إلّا إلى النصف الأوّل من القرن الرابع. وإذا صحّ أنّ العالم المسيحيّ الغاليّ الرومانيّ قد أغنى الكنيسة بأساقفة مميَّزين كالقدّيس مَكسِيمِينُس والقدّيس پُولِينُس، أسقف ترِير، والقدّيس هِيلارِيُوس، أسقف پُواتِييه، والقدّيس مَرتِينس، أسقف تُور، فإنّها لم تتخطَّ في إشعاعها حدود الإمبراطوريّة الرومانيّة. وظلّ عدد المسيحيّين الجرمانيّي الأصل قليلًا جدًّا. والشعوب التي تُدعى «متَّحِدة»، أي الفرنج والبُرغونديّون والأَلَمان المقيمون في الإمبراطوريّة على طول نهر الرين، لم تتأثّر بالمسيحيّة إلّا تأثّرًا قليلًا، أو اعتنقت الأريوسيّة قبل ذلك بقليل عند اتّصالها بالغُوط الغربيّين. وعندما عبرت جماهير الوثنيّين الفرنج نهرَ الرين، في نهاية القرن الخامس، وانتشرت في الأقاليم البلجيكيّة وشمال فرنسا وشرقها، نتج من ذٰلك تراجع ملحوظ للمسيحيّة في شمال نهر الصُوم وغرب نهر الرين. فزالت بعض الأُسقفيّات تمامًا، ونُقل بعضُها الآخر إلى أماكن أكثر أمانًا، وبقيت بعض الجماعات المسيحيّة، غير أن تنظيمها الأُسقفيّ ضعف أو زال.

ومع ذٰلك، هيهات أن تكون جماعات غاليا كلُّها قد استسلمت للغرق في الاضطرابات! فسرعان ما أتى التقارُبُ بين الجرمانيّين والغاليّين الرومانيّين، واندماجهم التدريجيّ، ببواكيره! وهناك أكثر من دليل على قيام اتّصالات بين الأساقفة وملوك البرابرة. وتجاوبَ كلوڤيس مع المحاولات التي قام بها القدّيس رِيمِي، أسقف رِمْس، الذي نصحه «بتكريم الأساقفة، والتماس نصائحهم». وعجَّل زواجُ الملكِ الفرنجيّ بالأميرة الكاثوليكيّة كلوتِيلد مسيرةَ التقارب هٰذه. وحصلت الملكةُ الجديدة على إذن بتعميد أبنائها. وعلى أثر نذرٍ تعهّد به الملك سرّيًّا في معركته مع الأَلَمان في تُولْبِياك، اقتبل العماد في رِمس، خلال أحد أعياد الميلاد ما بين السنة ٤٩٥ والسنة ٥٠٠. هٰذه الخطوة الباهرة قام بها الزعيم الميروڤينيّ فدفع معه إلى الاعتماد ثلاثة آلاف من مقاتليه وكتب لشعبه كلِّه أن يكون يومًا في المعسكر الكاثوليكيّ، قاضيًا بذٰلك على محاولات الزعماء الغوطيّين لأن يستميلوه إلى الأريوسيّة.

وفي السنة ٥١٧، اعتنق الملك البُرغونديّ سيجِسْمُوند الإيمانَ الكاثوليكيّ، وبعد مرور عشرين سنة، ضمّ أبناءُ كلوڤيس إلى مملكة الفرنج بُرغونديا التي كانت أريوسيّةً في السابق (٥٣٤) وپروڤانس (٥٣٧). وهٰكذا عادت غاليا الموحَّدة بأكملها إلى سلطة الملوك الكاثوليك.

وقد دعم كلوڤيس الأساقفةَ في عهده، ومنحهم، بالإضافة إلى حمايته، مبالغ من المال، وقدَّم إلى الكنائس بعض الأملاك. ورُمِّمت باسيليكا أرّاس وتُورنيه. وأحضر أبناءُ كلوڤيس بعضَ رجال الإكليرس من أكيتانيا وأُوڤِرن وليمُوزِين ليملأوا الفراغ في صفوف الكنائس في أَودِية المُوزِيل والمُوز والرِين. وهٰكذا برز أوائل الأساقفة الميروڤينيّين، حوالى السنة ٥٥٠، في ماستريخت وكُولُونيا ومايِنتس وستراسْبُورغ، وبعد نصف قرن من ڤورْمس وشپيرِه.

اهتداء صادق أم حسابات سياسيّة؟

لا شكَّ في أنّ هناك اعتبارات سياسيّة أثّرت في القرار
الذي اتّخذه كلوڤيس بالاعتماد:
ففي الوقت الذي كان يستعدّ فيه لردّ الغوط الغربيّين
من أكيتانيا إلى إسبانيا (معركة ڤوييه سنة ٥٠٧).
كان يرغب في أن يستقطب حول شخصه آمال جميع الكاثوليك المقيمين
في أقاليم الغرب الرومانيّة القديمة،
وأن يضمن ولاء الإكليرُس الغاليّ الرومانيّ له.
كان كلوڤيس يتمتّع بحسّ سياسيّ لا يُخطئ أبدًا،
غير أنّه لم يكن ذاك الذي يحسب إلى بعيدٍ دون سواها من المميّزات،
ولا كان مَكْياڤِلِيًّا قبل مكياڤِلّي. أقلقته الآيات
الآتية من فوق فتردّد طويلًا قبل أن يتّخذ قرارًا
كان لسلطة القدّيس ريمي الشخصيّة تأثيرٌ فيه،
ولا شكّ، إلى حدٍّ بعيد.
مهما يكن من أمر، وحتّى وإن بدَّل كلوڤيس ورعاياه إيمانهم
من دون أن يبدّلوا عاداتهم، فقد قَلَب
اعتمادُهم مصيرَ الغرب المسيحيّ،
إذ إنّ الأريوسيّة أخذت تتراجع، وتجدَّد العمل الإرساليّ
وعُهِد به إلى الأساقفة.

أمّا القسم الأكبر من الظلام الذي غشي العالمَ المسيحيّ الفرنجيّ فكان ما يختصّ بالأخلاق. فعلى المدى الطويل، تأثّر الأساقفة والإكليرُس بمجتمع يقرّ بمبدأ الانتقام والحرب الخاصّة. وفي نهاية القرن السادس، كانت الكنيسة الميروڤينيّة في حاجةٍ إلى ولادة ثانية بفضل الزخم الجديد الذي زوّدها إيّاه رهبان إيرلندا.

أسفار الرهبان الإيرلنديّين في سبيل المسيح

طُرِدَت الشعوب الكلتيّة الكاثوليكيّة القاطنة في ما سيصبح إنكلترا إلى الغرب (بلاد الولش) وكُورنُوُل بسبب غزوات الأنكليّين والسَكسون، أو أرغمت على عبور المانش واللجوء إلى بريطانيا الصغرى، فاضطرّت في بداية القرن السادس إلى الدفاع عن نفسها وشهدت ضعفًا شديدًا في الحيويّة الدينيّة.

وعلى عكس ذلك، كان الكلتيّون الإيرلنديّون في مأمن، تحميهم الجغرافية من الموجة البربريّة كما حمتهم دائمًا من الاستعمار الرومانيّ، فنجحوا في الحفاظ على تنظيمهم الدينيّ. أمّا اهتداؤهم المتأخِّر إلى المسيحيّة فلم يتمّ إلّا تدريجًا، اعتبارًا من مطلع القرن الخامس، ولا سيّما بفضل العلاقات التجاريّة، مع بعض المسيحيّين من بريطانيا العظمى. وفي سنة ٤٣١، توجّه الشمّاس پالادِيُوس، بعد أن رسمه البابا أسقفًا، إلى إيرلندا ليزور أولئك «الإسكوتيّين الذين يؤمنون بالمسيح».

غير أنّ تلك البعثة الغاليّة الرومانيّة سبقتها بعثة القدّيس پاتريك، وهو أسقف متحدّر من الغرب

البريطانيّ. فإنّ القراصنة الإيرلنديّين كانوا قد خطفوه في سنّ السادسة عشرة، ولٰكنّه نجح في الفرار بعد قضاء ستّ سنوات في العبوديّة، وعاد إلى الجزيرة اعتبارًا من السّنة ٤٣٠، فاجتهد بوجهٍ خاصّ في تبشير المناطق التي لم يكن النفوذ الرومانيّ والمسيحيّ قد وصل إليها (في الشمال والوسط والغرب). عاش باتريك حياة جوّالة، مستندًا إلى زعماء العشائر وملوك القبائل الصغار، فتوصّل إلى تكييف الدستور الكنسيّ التقليديّ على واقع اجتماعيّ متحرّك في جوهره. ولم يُنشئ، بحصر المعنى، أبرشيّات أسقفيّة لها حدود جغرافيّة واضحة، بل كان رؤساء الأديرة الكبيرة يَجمعون أحيانًا، إلى جانب الأكليرُس التقليديّ، بين وظيفتَي رئيس الدير وأسقف الأراضي المجاورة.

إنّ تغلّب الحياة الرهبانيّة هٰذا في هيكليّات كنيسة إيرلندا هو مصدر حيويّتها المُشِعّة وأصالتها الأساسيّة. وبعد مرور نصف قرن على وفاة القدّيس باتريك (سنة ٤٦١)، شهدت الكنيسة الإيرلنديّة انفجارًا رهبانيًّا حقيقيًّا: فراح الرهبان يزدادون اهتمامًا بالنفوس، علمًا بأنّهم كانوا يوفّرون تربيةً دينيّة أكثف من تربية الإكليرُس التقليديّ. وعلى الصعيد الروحيّ، تميّزت الحيويّة الروحيّة في كنيسة إيرلندا بميل شديد إلى الدرس وترويض النفس: فهناك الأصوام الطويلة والمجالد عند ارتكاب أدنى هفوة، والاعترافات المتواترة، وحمّامات الماء القارس لقمع أهواء الجسد، إلخ. ولٰكن أكثر ما يميّز الحرارة الدينيّة عند الكلتيّين كان يكمن في النشاط الإرسالي الذي تحلّى به الرهبان المتجوّلون، فقد تركوا عائلاتهم وأديرتهم ووطنهم ليواصلوا «حجّهم الترويضي» في الأماكن النائية. وكان ذٰلك الاغتراب الطوعيّ في سبيل المسيح، وقد حلّ محلّ الاستشهاد، يدفع الرهبان إلى طُرُق الشمال والبرّ. فأسّس كولومبا الأكبر، سنة ٥٦٣، في جزيرة إيونا، ديرًا أصبح في ما بعد مركز الإرساليّة بين الإسكوتيّين والپيكتيّين المقيمين في إسكُتلَنْدا. في السنة ٥٩٧، توفّي رئيس الدير، فشملت «رعيةُ» إيونا إسكتلندا كلّها.

وسنة ٥٩٠، هاجر القدّيس كولومبان إلى البرّ وأقام أوّلًا في جبال الڤُوج الجنوبيّة، حيث أسّس أديرة في لُوكْسُوي وأنْغْريه وفُونتان. وبسبب تشدّد القدّيس كولومبان في الأمور الأخلاقيّة، طرده الملك الفرنجيّ البُرغونديّ، تِييري الثاني (٦١٠)، فتوجّه نحو بحيرة كُونستانس. لٰكنّه لم يبقَ فيها إلّا وقتًا قليلًا، بعد أن ترك لتلميذه القدّيس غالّ أمرَ إنشاء ديرٍ اتّخذ على مرّ الأيّام أحجامًا ضخمة. ثمّ اجتاز كولومبان جبال الألپ، وسافر إلى إيطاليا وأسّس أخيرًا ديرًا في بُوبِّيُو قبل وفاته بسنة واحدة (٦١٥).

وفي نشاط الرهبان الإيرلنديّين الذي لا يكلّ دليلٌ على وفرة الكنوز الروحيّة التي جمعتها كنيستُهم البعيدة، وقد ظلّت منقطعةً عن رومة لمدّة طويلة، كواحة دينيّة أصيلة ومضطرمة. واستطاعت أن تستخدم تلك الكنوز، طوال القرن السابع، في إنعاش قوى العالم المسيحيّ الأوروبيّ المنحطّة.

إسبانيا وإنكلترا تصبحان كاثوليكيّتين

بعد أن تفكّكت أوروبّا الكاثوليكيّة بسبب الاجتياحات البربريّة في القرن الخامس، وتقسّمت في ظلّ سلطة الزعماء الوثنيّين، عادت لتلتقطَ أنفاسها في النصف الثاني من القرن السادس. وهناك عدّة عوامل، كإعادة سلطة إمبراطور بيزنطية على أفريقيا الشماليّة وإيطاليا من جهة، واهتداء ملوك إسبانيا الغوط الغربيّين إلى الكثلكة، وتقدُّم البعثة التي أوفدها البابا غريغوريوس إلى إنكلترا من جهة أخرى، قد ساهمت في إعادة إرساء هيكليّات الكثلكة في كلّ مكان.

غير أنّه تبيّن، في الوقت نفسه، أنّ الخطوط الممدودة في عمليّة إعادة الإرساء الضخمة هٰذه لم تكن كلّها متينة. فما إن توفّي النبيّ محمّد (٦٣٢) حتّى انتزع الإسلام من الإمبراطوريّة البيزنطيّة سورية وفلسطين ومصر وليبيا (٦٤٠) وأفريقيا الشماليّة (٧٠٤) وإسبانيا (٧١١). وفي أثناء ذٰلك، تدفّق اللومبرديّون، وهم شعبٌ جرمانيّ مقيم في النمسا السفلى، على إيطاليا

ودمّروا ما استعادته بيزنطية قبل ذلك بقليل (اعتبارًا من السنة ٥٧٠). ولم ينجُ من تلك الويلات التي جرّتها موجة الغزوات الجديدة إلّا العالَمان المسيحيّان الفرنجيّ والإيرلنديّ وكنائس إنكلترا.

الفاصل البيزنطيّ

أعاد يُسطنيانُس تنظيم الإمبراطوريّة البيزنطيّة بيدٍ من حديد (٥٢٧-٥٦٥)، فحاولت، اعتبارًا من السنة ٥٣٣، أن تستعيد القسمَ الغربيّ من الإمبراطوريّة الرومانيّة. وتوالت الحملات العسكريّة على أفريقيا الشماليّة (٥٣٥) وعلى جميع الجزر الواقعة في غرب البحر المتوسّط وجنوب إسبانيا، وفي إيطاليا أخيرًا (٥٥٥).

وكانت الحرب مع الغوط الشرقيّين سهلةً إلى حدّ ما في أفريقيا الشماليّة، ولٰكنّها بدت طويلةً ومُرهِقة في إيطاليا. وبعد انقضاء عشرين سنة (٥٣٥-٥٥٥)، ظلّت البلاد تنزف في يد إدارةٍ بيزنطيّةٍ تدقّق في أمور طفيفة، وتتّصف بالتعسّف وعدمِ الثبات في وجه خطرٍ لومبرديّ بدأ يظهر منذ السنة ٥٦٨. وعلى كلِّ حال، بالغت بيزنطية في تقدير موارد إمبراطوريّتها العسكريّة والاقتصاديّة. وعند وفاة يُسطنيانُس، تعب الجنود ونَفِدَت أموال الخزينة حتّى استحال كلُّ دفاعٍ فعّال عن الفتوحات الجديدة في حال تكرّرت الهجماتُ البربريّة.

وعلى الصعيد الدينيّ، إذا صحَّ أنّ أوّلَ فعلٍ قامت به الشعوب الكاثوليكيّة في أفريقيا وإيطاليا كانَ استقبال البيزنطيّين بصفتهم محرِّرين، فإنّ ثقل الوصاية ما لبث أن حملها على تغيير رأيها. لا شكّ في أنّ الأريوسيّة أُزيحت تمامًا وسريعًا، وصودِرَت ممتلكات أنصارها، ونُفي كهنتها، ولٰكنّ المظاهر الأُخرى التي ميّزت سياسة يُسطنيانُس الدينيّة سرعان ما سبّبت اضطرابات خطيرة: فقد صدَّرت بيزنطية، بالإضافة إلى إدارتها، تلك الذيول المزعجة الناتجة من الصراعات المسيحانيّة التي سمَّمت أجواء الحياة الدينيّة الشرقيّة منذ القرن الرابع. وفي آخر الأمر طالت أعمالُ القمع هيئةَ الأساقفة الأفريقيّين، وفي إيطاليا رفَضَ عدّة أساقفة، ومن بينهم أساقفة ميلانو وأكُويلا، أن يكونوا في شركة مع البابا بيلاجِيوس الأوّل الذي فَرَضه إمبراطور الشرق. وكذٰلك عملت طلائع الغزو اللومبرديّ (اعتبارًا من السنة ٥٦٨) على ازدياد البلبلة. فكانت نتيجةُ الإصلاح البيزنطيّ سيّئةً من جميع الوجوه: فإنّ إيطاليا المنهَكة عادت فسقطت في يد الأمراء الأريوسيّين وخسرت كثيرًا في المبادلة، حين انتقلت من الغوط المهذَّبة أخلاقُهم إلى حدٍّ ما إلى اللومبرديّين الأكثر فظاظة. وضعفت البابويّة ففقدت سلطتها إلى أقصى حدّ. أمّا الوضع في أفريقيا فكاد أن لا يكون أفضل: فإنّ الكنيسة التي سحقها الڤاندال في الماضي، كانت تحاول بمشقّة أن تتغلّب على القمع البيزنطيّ. وفي مطلع القرن السابع، كانت الوسائل تنقصها لتستعيد قوًى جديدة تواجه بها الفتح الإسلاميّ.

اهتداء رِكّاريدُس

في إسبانيا، لم يتخطَّ الإصلاح البيزنطيّ قطّ أقصى الجنوب في شبه الجزيرة. وقد تخلّى الغوط الغربيّون له، لبعض الوقت، عن منطقةِ قرطبة، ولٰكنّهم سرعان ما استعادوا السيطرة على الأوضاع. فلا يجوز البحث إذًا من جهة بيزنطية عن أسباب التحوُّل المفاجئ الذي أصاب إسبانيا الأريوسيّة سنة ٥٨٧، بل إنّ قُرب الفرنج الكاثوليك في الشمال، وخصوصًا رغبة الملك رِكّاريدُس (Reccarède) في أن يوطِّد بالديانةِ الوحدةَ القائمة بين الغوط الغربيّين وكاثوليك إسبانيا الرومانيّين كانا السبَبين الحاسمَين في هٰذا المجال.

اهتدى الملك إذًا إلى الكثلكة ودعا، سنة ٥٨٩، إلى عقد مجمع حافل في طُليطِلَة شَجَبَ الأريوسيّة. وعلى الرغم من بعض التردّد في ما بعد، كان التحوُّل نهائيًّا، لا بل سرعان ما اتّخذ أهمّيّةً سياسيّة حتّى إنّ السلطات المدنيّة والدينيّة درجت على التعاون الوثيق بينها. وكثيرًا ما كان مجمع طليطلة يلتئم، كلّ سنة أحيانًا، وكانت

تُعرَض عليه جميع المسائل التي تهمّ الأمّة، أسياسيّة كانت أم دينيّة.

وهٰكذا واصلت السلطة الإسبانيّة المركزيّة، بدعم مشترك من الكنيسة والدولة، سياسةَ توحيدٍ ناشطةً على الصعيدَين الاجتماعيّ والسياسيّ: ففي العشرينيّات بعد الستّمائة، أُرغم اليهود على الاهتداء إلى المسيحيّة بالقوّة، وفي سنة ٦٥٤، صدر قانون مشترك لجميع الإسبانيّين.

وفي نهاية القرن السابع، كادت الأريوسيّة أن تختفي من أوروبّا الغربيّة من دون أن تترك أيَّ أثر. وفي السبعينيّات بعد الستمائة، كان اللومبرديّون الإيطاليّون آخر من اهتدى إلى المسيحيّة. ويمكن أن نردّ زوال الأريوسيّة إلى ضعفها الداخليّ أكثر منه إلى الانتصارات التي حقّقها ملوك الفرنج على جيرانهم، أو إلى التدابير القمعيّة التي اتّخذها البيزنطيّون. كانت الأريوسيّة ديانةَ محتلّين قليلي العدد، وكانت تعاني ضعفًا في التراتبيّة وسوءًا في التركيب، فلم تكن مجهّزةً بما يكفي لتقاوم الهزيمة العسكريّة أو الاستيعاب.

الإرساليّة الإنكليزيّة

أنشأ الإرساليّةَ الإنكليزيّة غريغوريوسُ الكبير (٥٤٠-٦٠٤) وهو الذي أعاد سلطة البابويّة. وُلد غريغوريوس في أسرةِ أشراف، وأصبح محافظ مدينة رومة (٥٧٥)، ثم ترهّب وصار سفير البابا لدى إمبراطور بيزنطية. وبعد ذٰلك بايعه الرومانيّون وأيّد إمبراطور الشرق انتخابه بابا في أيلول (سپتمبر) ٥٩٠. وما إن انتُخب البابا الجديد حتّى انهالت عليه المهمّات المادّيّة. وأمام تقصير البيزنطيّين، أخذ على عاتقه أن يتفاوض عدّة مرّات مع اللومبرديّين، وتوصّل إلى فكّ الطوق الذي كانوا يسعون لحبس رومة فيه. وحتّى موته، لم يكفّ عن بذل جهوده لهدايتهم إلى المسيحيّة.

ولٰكنّ اهتداء الأنكلوسكسون، الذين تحوّل عنهم الإيرلنديّون، كان الهدف الأكبر في حياته. ففي حين كاد إخفاقُ الإصلاح البيزنطيّ أن يترك الكنيسة الغربيّة وشأنها، كان لغريغوريوس الكبير الفضل بأنّه أدرك أنّ مصير الكثلكة مرتبط بنقل الإرساليّات إلى الشمال.

فأعدّ غريغوريوس للمشروع بعناية. وفي السنة ٥٩٥، اشترى عبيدًا أنكلوسكسون في غاليا ليجعل منهم مُرسَلين، وبقيادة الأبّاتي أوغسطينس - القدّيس أندراوس، انطلق هٰؤلاء ليدعوا الشعوب الكلتيّة في إنكلترا إلى المشاركة في عملهم. ومن رومة، كان البابا يتابع تقدُّم الإرساليّة باهتمام.

وفي حزيران (يونيو) ٥٩٧، اهتدى الملك إِثِلبِرت، عاهِل كِنْت، بعد أن تزوّج أميرةً فرنجيّة كاثوليكيّة، واهتدى معه كثير من رعاياه. وفي سنة ٦٠١، عُيّن أوغسطينُس رئيسَ أساقفةٍ وطُلِب إليه أن يقيم في لندن، وتحديدًا في منطقة إِسِّكْس. غير أنّ ردّ الفعل الذي أظهره الوثنيّون عند وفاة الملك إِثِلبرت، سنة ٦١٦، أرغمه على الانكفاء إلى مملكة كِنْت واللجوء إلى كنتُربِري، التي أصبحت منذ ذٰلك الوقت مركز الكنيسة الأنكلوسكسونيّة الرئيسيّ (مِتْرُوپُول).

واعتبارًا من ذٰلك التاريخ، توقّف تقدُّم الإرساليّة الرومانيّة، إذ إنّ هزائم ملك نُورثُمْبِرِي سنة ٦٣٢ أدّت إلى القضاء على بذور التبشير التي يُرجى منها كلّ خير في تلك المملكة. وفي هٰذه الأثناء، توفّي القدّيس غريغوريوس ولم يعد التشجيع يصل من رومة. وعلاوةً على ذٰلك، رفض الأساقفة الكلتيّون أن يعترفوا بأوّليّة رئيس أساقفة كنتُربِري، وأن يتخلّوا عن عاداتهم الطقسيّة الخاصة، وخصوصًا أن يساهموا في هداية السَكسون.

وأخيرًا، فمن غاليا وإيرلندا أتت المساعدة: واعتبارًا من السنة ٦٣٠، راح المرسَلون الفرنج يعملون في شرق البلاد، والرهبان المرتبطون بِلُوكْسُوي في وِسِّكس، والرهبان الإيرلنديّون الآتون من دير إيونا الإسكتلنديّ في نورثمْبري. وفي السنة ٦٥٤، انهارت مملكة مِرسِي، بعد أن كانت حصن الوثنيّة الأخير، على أثر هزيمة مَلِكها في وجه ملك نورثمبري.

وهٰكذا التقى الكلتيّون والغاليّون الفرنج والرومانيّون

في ميادين الرسالة من دون أن يصطدم بعضُهم ببعض. ولكنّ الجدال في شأن العادات الطقسيّة المتّبعة في المناطق عادَ إلى الظهور في بلاط مملكة نورثمبري غداةَ تحقيق النصر. وفي مجمع وِتْبي، المنعقد سنة ٦٦٤، حكم الملك أُوسْوِيُو لمصلحة العادات الرومانيّة. وأيّده العالَم الأنكلوسكسونيّ المسيحيّ في قراره. أمّا الإيرلنديّون والكلتيّون في كُورنُوْل وبلاد الوِلْش فقد استمرّت مقاومتُهم حتّى منتصف القرن السابع. ومع ذلك، فقد ربح القدّيس غريغوريوس الرهان.

العالَم المسيحيّ في الكمّاشة

في ٧١٠، شنّ العرب المقيمون في أفريقيا منذ النصف الثاني من القرن السابع غارةً أولى على إسبانيا ونهبوا منطقة ألخَسيراس (الجزيرة الخضراء).

وفي ٧١١، لم يكن من المنتظر أن تتحوّل الغارة الثانية، بقيادة طارق بن زياد البربريّ الأصل، إلى انتصار إسلاميّ ساحق. وقُتل ملك الغوط الغربيّين رُوذْرِيك في أحد الاشتباكات.

وفي السنة التالية، احتلّ طارق بن زياد إسبانيا من دون عناء، وربّما كان ذلك بمساعدة اليهود الذين رأوا فيه محرِّرًا.

وكانت فرنسا الميروڤينيّة عاجزةً عن التحرّك الفوريّ، بعد أن أنهكتْها الصراعات الداخليّة. فاحتلّ العرب لبعض الوقت أكِيتانيا وپرُوڤانس، وساروا في وادي الرُون صعودًا حتّى أُوتُون وجابوا فرنسا الغربيّة إلى أن أوقفهم شارل مارتل، رئيس الإدارة الملكيّة في القصر الميروڤينيّ، في بُواتِييه سنة ٧٣٢.

أمّا بيزنطية فقد اضطرّت إلى الدفاع عن نفسها بعد إخفاق محاولاتها لاستعادة الأراضي. فقد حرمها العرب نصفَ مملكتها، وكانت أكثرَ انشغالًا بالضغط الإسلاميّ في آسية الصغرى منها بأن تستعدّ لأيّ تدخّل في الخارج، كما أنّ إنشاء أسطول عربيّ، يقوم بعمليّاته انطلاقًا من مرافئ سورية، عرَّضها حتّى لحصارات متكرِّرة بين ٦٧٣ و٦٧٨.

وفي شمال أوروبّا وشرقها، برز ضغط البرابرة مرّةً أُخرى. وهدَّد إيطاليا الأتراكُ الأڤاريّون المقيمون على الدانوب. أمّا الشعوب السلافيّة المقيمة في سهول روسيا وبولونيا، وهي شعوب مسالمة عادة ولكنّها تعرَّضت لهزّاتٍ افتعلها الأتراك التتّر في الشرق، فتحرّكت نحو بُوهيميا والبلقان. وهكذا وقع الغربُ الكاثوليكيّ بين فكَّي كمّاشة، فاتّخذ، في مطلع القرن الثامن، شكل ممرٍّ ضيّق وطويل من إسكتلندا إلى اليونان، لا بل ممرٍّ مشطور، منذ أن أدّت الصعوبات الناتجة من استعباد اللومبرديّين لإيطاليا، وخصوصًا عن الخلاف العنيف حول الأيقونات الذي أثارته بيزنطية سنة ٧٢٧، إلى إتمام القطيعة شبه النهائيّة التي قامت بين رومة والقسطنطينيّة.

ولم تتردّد البابويّة في إدارة ظهرها للشرق فاعتكفت في الغرب واكتفت بمساندة السلالة الكارولينيّة الناشئة التي توصّلت إلى أن تعود فتجمع تحت سلطتها فرنسا وألمانيا والقسم الأكبر من إيطاليا.

تقدُّم الإرساليّة الفرنجيّة

غير أنّ جوهر ورشة الإعمار المسيحيّ تواصَلَ في فرنسا وألمانيا فإنّ الكنائس الإسپانيّة، التي أمست في السيطرة العربيّة، لم يعد في وسعها إلّا أن تحيا حياةً هامشيّة: غير أنّ ذلك العالم المسيحيّ، الذي يقال له المستعرِب، لم يتعرّض قطّ لاضطهادٍ مركَّز، إذ ظلّ انتخاب رؤساء أساقفة طليطلة وأساقفة قرطبة يتمّ بحريّة، وبقيت جماعات مسيحيّة كبرى منتشرة في الأندلس. ولكنّ مشكلة الاتّصال الكبرى، والرقابة التي مارسها الحكم الإسلاميّ، على الرغم من كلّ شيء، أبقت الكنيسة الإسبانيّة خارج عمليّة الإعمار الكارولينيّ الجديد.

وأبرز ما تميَّزت به الإرساليّات الأوروبّيّة في القرنين

السابع والثامن كان تجوُّل الرهبان المبشِّرين الواسع، بتشجيع من البلاط والأرستقراطيّة الفرنجيِّين. وهاجر رهبان دير لُوكْسُوي، الذي أسَّسه القدّيس كُولُومبان الإيرلنديّ، اعتبارًا من السنة ٦١٠، في عدّة اتّجاهات. ففي شمال فرنسا، اعتلى الرهبان الآتون من لوكْسوي وأصدقاؤهم بعض الكراسيّ الأسقفيّة: القدّيس أُومِيرفي في تِرُوانّ، والقدّيس أَشِير (من ٦٢٧ إلى ٦٤١) والقدّيس إلوا (من ٦٤١ إلى ٦٦٠) في نُويون، والقدّيس أُوان (من ٦٤١ إلى ٦٨٤) في رُوان (Rouen).

وفي بلجيكا، أسَّس القدّيس أَمَنْدُس، مواطن القدّيس إِلُوا، الكنائس المسيحيّة في غان وأَنفِرْس وأصبح رسول الفلَمَنْكِيِّين. وتميَّزت نهاية الإرساليّة في تلك البلدان بالنشاط الذي مارسه الأسقفان القدّيس لامبِرْت والقدّيس هُوبر الماسْترِيخْتِيّ في البرابَنْت ومنطقة لِياج (حوالى ٧٠٠).

وفي سويسرا، ظهرت الغيرة الرسوليّة، التي تحلّى بها رهبان لوكْسوي في حقلِ عملٍ آخر: فامتدَّ إشعاع دير القدّيس غالّ، على ضفاف بحيرة كُونْستانْس، إلى أنحاء البلاد كلّها وتولَّت أسقفيّة كونستانْس، التي أُنشِئَت في عهد داغُوبِرتُس الأوّل، تبشير الألمان. ومع أنّ المعلومات المتوافرة لدينا عن تقدُّم تلك الإرساليّة قليلة إلى حدّ ما. فإنّنا نلاحظ أنّ النتيجة كانت اهتداء الشعب الألمانيّ إلى المسيحيّة في حوالى السنة ٧٠٠.

وما بين السنة ٦١٢ والسنة ٦٢٩، قام أُستاسِيُوس، رئيس دير لوكْسوي، بالتوجُّه شخصيًّا إلى باڤاريا، في منطقة راتِسبُون، حيث بشَّر بالإنجيل. ثمّ ما لبث أن انضمَّ إليه رهبان آخرون من ديره. وفي النصف الثاني من القرن السابع وفي مطلع القرن الثامن، ما زال رسل باڤاريا - القدّيس إِمَّرام أسقف راتسبون والقدّيس رُوپِرْت أسقف سَلْتسبُورغ والقدّيس كُورِبِينِيانُس أسقف فرايْزِنْغ - من الأساقفة المُرسَلين الذين تدرّبوا على روح لوكْسوي وعلى طريقة القدّيس أَمَنْدُس. وأقاموا بصفتهم «أساقفة أديرة» في مقارّ الدُّوَقَة الباڤاريّين الذين سبق أن أعلنوا إيمانَهم المسيحيّ نتيجةً للروابط التي كانت تجمعهم بالملوك الميروڤينيِّين. وفي مطلع القرن الثامن، انتهت مهمّة الإرساليّة وتوجَّه تِيوُدُون إلى رومة في السنة ٧١٠ ليحصل من البابا على إذنٍ بإنشاء أبرشيّات. غير أنّ الموت الذي عاجله في اللحظة الأخيرة حال دون تحقيق هدفه. فلم تحصل باڤاريا على تنظيمها الكنسيّ إلّا في ٧٣٩ بهمّة البابا بُونِيفاقِيُوس.

واصل إلمرسَلون، الذين أتوا في السابق لنجدة الإرساليّة الإنكليزيّة في نهاية القرن السابع، سواء أكانوا من لوكسوي أو ممّن يحسَبُون عليه عملَهم المشترك في أوروبّا. ففي الشمال والشرق، وفي بلجيكا وسويسرا وباڤاريا، لم تنقطع إرساليّتُهم عن توسيع حدود أوروبّا المسيحيّة. وبفضل تبادل في الخدمات، وفي سنة ٧١٦، ما لبث الأنكلوسَكسون المهتدون حديثًا أن واصلوا العمل الذي باشروه قبلَهم. وكان دوق تُورِنْغِن قد قدَّم سنة ٧١٦ وقفًا إلى القدّيس ڤِلِيبُرورد ليؤسِّس ديرًا في ضواحي فُورْتسبُورغ. غير أنّ هٰذا المرسَل الإنكليزيّ كان منشغلًا بهداية وثنيّي فريزلَند، فرفض. ولم تكن مبادرة الدوق بلا دلالة: فإنّ الكثلكة كانت مدعوّة إلى أن تتوسّع نحو الشرق، حتّى نهر الإلب وما وراءه.

إمبراطوريّة الغرب المسيحيّة الكبرى

في النصف الثاني من القرن الثامن، انطلقت الحضارة المسيحيّة في الغرب انطلاقةً جديدة. واحتلّت السلالة الكارُولِنِيّة، التي كانت تحكم المملكة الفرنجيّة بوجهٍ غير رسميّ منذ جيلَين، مركز الصدارة على مسرح الأحداث السياسيّ والدينيّ. وبتشجيع من البابا الذي اعتبر «أنّه مِن الأفضل أن يُدعى ملكًا ذاك الذي يمسك بزمام السلطة كلِّها»، خلع پِيپانُ القصير سنةَ ٧٥١ آخرَ ملكٍ مِيرُوڤَينيّ، وبعد مرور ثلاث سنوات، لبّى الملك الجديد نداء البابا، وكان هٰذا ما زال يعاني من ضغوط اللُّومْبَرْدِيِّين، فباشر السياسة الكاروليِنيَّة في إيطاليا.

وخارجَ إيطاليا، لم يفكّر پيپان وابنُه إلّا في «توسيع»

مملكة الفرنج وتقوية وحدتها برباط الإرساليّة الدينيّة. ففي ٧٥٩، انتزع پيپان منطقة نَرْبُونّ من العرب ودفع بهم إلى الطرف الآخر من جبال البيرينيه. وكذٰلك في ٧٧٨، دفعهم شارلمان قليلًا نحو الجنوب وأنشأ منطقة إسبانيا الحدوديّة، التي أصبحت في ما بعد كونتيَّة برشلونة. ولٰكن، على الرغم من الجهود التي بذلها، لم تمتدّ الإمبراطوريّة الكارولينيّة في ذٰلك الاتجاه. أمّا في الشرق، وفي جرمانيا، تحديدًا، فكان التقدُّم الذي حقَّقه مدهشًا حقًّا: فبفضل سلسلةٍ من الحملات الموزَّعة بين ٧٧٢ و٨٠٣، فُتحت مقاطعة ساكسِن بصعوبة. وفي ٧٨٨، أقال شارلمان دوقَ باڤاريا الذي حرَّض اللومبرديّين على الفرنج. ومن هناك دفعه تفوقُّه، في ٧٩٦، إلى إخضاع القسم الأكبر من الأڤاريّين المقيمين في سهول المجر الحاليّة. وفي المناسبة نفسها، دخل السلوڤانيّون والكرواتيّون في فلك الإمبراطوريّة الفرنجيّة.

إنشاء ولايات الكنيسة

في ٧٤٩، ارتقى إسْتُلفِيُوس العرش اللومبرديّ.
ولم يَجْرِ الملك الجديد
على سياسة أسلافه في إيطاليا،
بل احتلّ الأراضي البيزنطيّة
المحيطة براڤنّا وهدَّد رومة. وبقيت احتجاجات
البابا إسطفانُس الثاني باطلة،
فطلب النجدة من ملك الفرنج واجتاز جبال الألب
وأقام مدّة طويلةً في فرنسا طوال السنة ٧٥٤
وحتّى مطلع السنة ٧٥٥.
وبعد إجراء مفاوضات سرّيّة مطوّلة،
احتلّ پيپان القصير إيطاليا مرَّتين في ٧٥٤ و٧٥٦
وحمل الملك اللومبرديّ على القبول بشروطه.
فالتزم إستلفيوس بأن يعيد
إلى البابا أراضي راڤنّا البيزنطيّة السابقة
التي يجب أن تُضاف إلى دوقيّة رومة لإنشاء الدولة البابويّة.
وفي الواقع، لم يلتزم الملك اللومبرديّ وسعى لكسب الوقت.
ولمّا رفضَ پيپان القصير أن يعود إلى التدخّل،
اضطرّ البابا إلى الانتظار مدَّة عشرين سنة
قبل أن يعتقل شارلمان الملكَ ديدييه،
خليفة إستلفيوس، في پاڤيا وينتزع منه عرش إيطاليا،
فأصبحت وعود الكارولينيّين حقيقة.
ومنذ ذٰلك الوقت، اشتدت أواصر الصداقة
بين البابويّة وملوك الفرنج وخلفائهم،
فقد أسَّسوا دولة القدّيس بطرس ودافعوا عنها.

إخفاق الإرساليّات الأُوَل

بعد مضيّ وقتٍ قليل على اهتداء آخر الوثنيّين في إنكلترّا، نزل الراهب ڤِلِيبْرُورْد إلى القارّة يبشّر مملكة فرِيزلند. ولٰكنّه اصطدم بعداء الملك رادْبُود. فتوجّه إلى پيپان ده هِرْستال، جدّ پيپان القصير، الوصيّ على عرش المملكة الميروڤينيّة، الذي انتزع، قبل ذلك بقليل، دلتا الرِين والمُوز من يد الفريزلنديّين. فعهد إليه بكنيسة أنقرس والبلاد التي فُتحت مؤخّرًا. وأصرّ ڤيليبرورد على أن ينال تفويضًا من البابا، فتوجّه إلى رومة حيث رُسم أسقفًا. وبعد أن احتلّ الفرنج هولندا الحاليّة (٦٩٥)، عُيِّن ڤيليبرورد رئيس أساقفة واستقرّ منذ ذٰلك الحين في أُوترِخْت. وظلّ يبشّر بالإنجيل في فريزلند مدّة ثلاثين سنة ووصل حتّى إلى الدانمَرك.

وعندما توفِّي پيپان ده هرستال، ٧١٤، أُعيد طرح كلّ المسائل على بساط البحث. فقد ظهر مجدّدًا تحمُّسٌ للوثنيّة أدّى إلى ردّ ڤيليبرورد إلى قاعدة انطلاقه في أنقرس وإخْتِرْناخ. ولمّا أحرز شارل مارتِل انتصاراته، استطاع ڤيليبرورد أن يعود إلى أوترِخْت (٧٢٢)، ولٰكنّ حقل رسالته انحصر في الأراضي التي كان الفرنج يحتلّونها. وقد توفّي ڤيليبرورد سنة ٧٣٩، وأدّى إخفاقه إلى حدّ ما، بالإضافة إلى إخفاق الإرساليّات الحرّة الأخرى التي بُوشرت في مقاطعتَي ڤِستفاليا وساكسِن، إلى إقناع المرسلين الإنكليز بضرورة اللجوء إلى حماية الملوك الكارولينيِّين الناشطة. وقد اتّخذ بونيفاقيوس من هٰذا الأمر قاعدةً له على الرغم من كونه مرسلًا مُسالمًا.

رسول جرمانيا

وُلد بُونِيفاقِيُوس حوالى السنة ٦٧٢ في مقاطعة وِسِّكْس. وقد شعر هو أيضًا بتلك الرغبة في «التجوُّل في سبيل المسيح». فانطلق سنة ٧١٦ إلى فريزلند حيث عمل بإشراف القدّيس ڤِلِيبْرورد. لٰكنّه فضّل بعد ذٰلك أن يستقلّ عنه، فاختار أن يكمّل تبشير مقاطعتَي هِسِّن وتُورِنْغِن: وفي تشرين الثاني (نوڤمبر) ٧٢٢، رسمه البابا غريغوريوس الثاني أسقفًا وضَمَن لنفسه حماية شارل مارتِل. وبعد مرور عشر سنوات، اقتضى تقدُّمُ الإرساليّة إنشاءَ مقاطعةٍ كنسيّة في تلك المناطق، في حين أصبح بونيفاقيوس، الذي عُهد إليه في تنظيمها، رئيسَ أساقفة. وبناءً على أوامر البابا غريغوريوس الثالث، باشر سنة ٧٣٩ عمليةَ التنظيم الكنسيّ في باڤاريا. ولٰكنّ عداءَ أساقفة مناطق رينانيا، الذين اعتبروه دخيلًا، وفقدانَ الحظوة لدى شارل مارتل حالا دون قيامه بتنظيم مماثل عند الألمان. غير أنَّ الوضع تغيَّر حين توفِّي شارل وأمسك ابنُه الأكبر كارلُمان زمام الأمور، وأسَّس بونيفاقيوس، سنة ٧٤٣، عدّة أسقفيّات في جرمانيا (ڤُورْتسبُورغ، فرِيتْسلار، إيرفُورت وأَيْخشتِيت). وأسند إليه مجمعٌ فرنجيّ عُقِد سنة ٧٤٥ مدينةَ كولونيا.

ومن هناك، كان يمكنه، ولا شكّ، أن يتفرَّغ للمشروع الذي كرّس له حياته، وهو هداية مقاطعة ساكسن. لٰكنّ الفرنج لم يفوا بوعدهم، ولم يتسلَّم بونيفاقيوس أسقفيّة مايِنْتس. فترك الأسقفُ المرسَل كرسيّه لتلميذه لُول، وعاد إلى فريزلند، وبعد أن هدى عدّة مناطق، في صيف ٧٥٣، استشهد مع عدد من رفقائه في صيف ٧٥٤.

كان العمل الذي أنجزه بونيفاقيوس ضخمًا في الواقع: فبفضل تبشيره وحده، استطاع، لا أن يكسب عددًا كبيرًا من الأراضي فحسب، بل أن يؤسِّس أيضًا كنيسةَ جرمانيا التي كانت على علاقة وثيقة برومة وتبنّت ليترجيتها وعاداتها.

«الجهاد المقدَّس» السَكسونيّ

وحين توفّي بونيفاقيوس، ظلّت ساكِسن البلد الجرمانيّ الوحيد الوثنيّ بأكمله. صحيح أنّ شارل مارتل أوقف التقدُّم السَكسونيّ نحو الجنوب الغربيّ، غير أنّ الغارات على رينانيا وهِسّن لم تتوقّف من جرّاء ذلك. ولأسبابٍ سياسيّة أضيفت إليها أسباب دينيّة، انتقل شارلمان إلى الهجوم سنة ٧٧٥، فخضع السَكسون وظنّ الملك أنّه حقّق أهدافه. وعندئذٍ، نُظِّمت عمادات جماعيّة، ولٰكن، من دون تلقين تعليم مسبَق، فاعتُبر ذلك بادرةً لا سابق لها. ولم يرَ فيه السَكسون سوى احتفالٍ سياسيّ إلى حدٍّ ما، إذ إنّهم استفادوا سنة ٧٧٨ من هزيمة شارلمان أمام سرقسطة في إسبانيا وتمرّدوا بقيادة الزعيم ڤيدُوكِنْغ. فدُمِّرت مراكز الإرساليّات وقُتِل المُرسَلون أو طُرِدوا. حينئذٍ، أصدر شارلمان قانونًا رهيبًا يحكم بالموت على من يرفض العماد. وبسبب صدور ذٰلك القانون على الأرجح، أُعدِم عدد كبير من السَكسون في ڤِردِن سنة ٧٨٢. وأخيرًا انتهت الحرب باستسلام ڤيدوكِنْغ واعتماده في أَتِّينيي سنة ٧٨٥. وكان عرّابه شارلمان نفسه.

فاستطاع المرسلون إذ ذاك أن يعاودوا عملهم بصبر. ولم يكتفِ شارلمان أن أشْرَكَ في العمل الأساقفةَ ورؤساء الأديار في أبرشيّات ماينتس وفورتسبورغ وكولونيا وأوترخت ولِيبج المجاورة، بل استعان أيضًا بكنائس ترِير ورِمْس وشالُون، وحتّى بِدَيْر كُورْبِي.

ومن الخطإِ أن نعتقد بأنّ العنف وحده أدّى إلى اهتداء مقاطعة ساكسِنْ. فإنَّ الإجماع لم يتمّ على مقاومة الفرنج والمسيحيّة. ففي ساكسِنْ، ظهرت مجموعات موالية للفرنج اعتمد عليها المرسلون، ولم يخلُ بعضُ هٰؤلاء من التعاطف مع الشعب الذي كانوا يعملون على هدايته. ولا شكّ في أن الطرق التي استخدموها كانت أقرب إلى الفهم من طرق الملك، والعمل الذي قاموا به ساهم كثيرًا في تهدئة النفوس اعتبارًا من السنة ٧٨٥.

وكان ألْكُوِين الأنكلوسكسونيّ هو الذي نجح في إقناع شارلمان بأنّ التعليم الديني يجب أن يَسبق العماد، لا أن يتبعه. وفي الوقت نفسه، شدَّد أساقفة سَلْزبُورغ وأَكِيلِه، المسؤولون عن الإرساليّة لدى السلاڤيّين والأڤاريّين في سهول الدانوب، على أنّ الاهتداء هو عمل الله وحده، فيجب أن يتمّ من دون اللجوء إلى العنف. وسنة ٧٩٧، أُلغي قانون الحرب واستُبدل به نظام يمهِّد لدمج السَكسون في المملكة. وتُوِّج عمل الإرساليّة بانقسام جرمانيا كلّها إلى ثلاثة أقاليم كنسيّة هي: كولونيا وماينتس وسَلْتسبُورغ.

نحو شعوب بعيدة

في الشرق، تمّ اهتداء سلاڤيّي (صقالبة) الدانوب والأڤاريّين أو كان يسير نحو غايته على الأقلّ. وإذا بالستار يُرْفَع بعد ذٰلك عن شعوب بعيدة. فأصبحت كنيسة هَمبُورغ، التي أُسِّست في عهد لويس الورع، مركز الإرساليّة السكَنديناڤيّة. وحين اهتدى الموراڤيّون والبلغار في النصف الثاني من القرن التاسع، فكّرت البابويّة في إنشاء إقليم سلاڤيّ كبير مركّز على متروپول سِيرمِيُوم العريقة. غير أنّ قدرة الكنيسة اللاتينيّة على الانتشار كانت قد وصلت إلى حدودها. فأَحبطت الغزواتُ النورمنديّة والمجريّة آمالها. ولم تعد الإرساليّة الغربيّة إلى الحياة في سكنديناڤيا وبُولونيا والمجر إلّا في القرن العاشر، بعد وقف الغزوات.

الفصل السادس

نجاة الغرب من خطر الأريوسيّة

بقلم بيار رِيشِيه(*)

بينما كان البرابرة، ومن بعدهم الإسلام،
يهدِّدون الكنيسة من الخارج،
ظهر خطرٌ رهيب يقوِّضها من الداخل.
وبفضل اهتداء كلوڤيس،
نجت المسيحيّة من الغرق في البدعة الأريوسيّة.

هل كان في وسع المسيحيّة أن تخرج سالمةً من تحت «محدلة» البرابرة؟ ذلك بأنّ مستقبلها كان مهدَّدًا بخطرَين جسيمَين. الخطر الأوّل الذي يراود أذهاننا تلقائيًّا هو خطر الإسلام: وقد قُضِي عليه بفضل مقاومة شارل مارتل الشديدة. أمّا الخطر الثاني، وهو أقلّ ظهورًا من الأوّل، فلعلّه كان أكثر جسامة، لأنّه لم يكن خطرًا خارجيًّا، بل في داخل الكنيسة، وهو خطر الأريوسيّة.

وكانت الأريوسيّة، التي أطلقها الكاهن آريوس في القرن الرابع، تشويهًا في أساس الإيمان المسيحيّ، يسيء إلى ألوهة المسيح بإدخاله اختلافًا في الطبيعة بين الآب، الأزليّ وحده، والابن المولود منه. وقد انضمّ الغُوط إلى تلك البدعة عن يد أُلْفيلا (Ulfila) الذي اهتدى ورُسِم أسقفًا سنة ٣٤١ بوضع يدي أوسابيوس أسقف نِيقُومِيدِية. وقد عمل أُلفيلا على نشر الإيمان بحرارة وحماسة: فترجم الكتاب المقدَّس ووضع ليترجية باللغة الغوطيّة. وأيَّد الإمبراطورُ الأريوسيّ ڤالَنْس عمله التبشيريّ: فبعد مرور بضع سنوات، أرسل إلى الأمير الغوطيّ الغربي فريتيغِرن (Fritigern) أساتذة تعليم مسيحيّ أريوسيِّين. وكان فريتيغِرن، باعتناقه ديانة الإمبراطور، قام بعمل تديُّن سياسيّ، إذ إنّه انضمَّ إلى إلٰه القسطنطينيّة القدير، مختارًا بذٰلك محاميًا إلٰهيًّا يستطيع أن يمنحه النصر على أعدائه، أو على الأقل، أن يكون ملجأً له. وهٰذا ما حدث سنة ٣٧٦ حين ارتدّ الغُوط الغربيّون إلى أراضي الإمبراطوريّة بعد أن دحرتهم هجمات الهُون.

اشتداد الخطر

لقد أدّى نزوح البرابرة إذًا إلى تدفّق موجة من الأريوسيّة على الغرب. وقد نقلها الغوط الغربيّون إلى الغوط الشرقيِّين. وعرفها الڤاندال والألَمانيّون واللّومبرديّون أيضًا. وفي نهاية القرن الخامس، كان أمراء أريوسيّون يحكمون إيطاليا الغوطيّة الشرقيّة، وأفريقيا الڤانداليّة، وإسبانيا الغوطيّة الغربيّة وغاليا

(*) Pierre Riché.

الجنوبيّة الملحَقة بها، وبُرغونديا. ويعود نجاح الأريوسيّة في جزءٍ منه إلى تنظيمها التراتبيّ، المنقول عن تنظيم الكاثوليك، وفي جزء آخر هامّ إلى استخدام اللغة القوميّة في الليترجيا والوعظ.

وكانت الغيرةُ الرسوليّة التي أظهرها الإكليريكيّون الأريوسيّون تهديدًا كبيرًا للكثلكة. وكتب سِيزير أسقف آرل (Césaire d'Arles) يقول: «يعمل المنتمون إلى الديانة الأُخرى على إثارة بعض الكاثوليك غير المتنبِّهين فيطرحون عليهم أسئلةً حاذِقة ومعقَّدة. وعندما تتناقش معهم في سرّ الثالوث الأقدس، تكون أسئلتهم شديدة التمويه حتّى إنّهم يخرجون من المناقشة بمظهر المنتصرين، إن عَجز محاوروهم عن الإجابة كما يجب بسبب بساطة عقلهم أو جهلهم». وكان ردُّ فعل سيزير أنّه ألّف مقالةً في أسرار الثالوث، في حين كان الكاثوليك في أفريقيا وإيطاليا يعيدون قراءة مقالات أوغسطينُس وهيلاريوس في الموضوع نفسه.

وأراد بعض الأمراء الأريوسيّين أن يكونوا متساهلين، مع بقائهم أُمَناء لإيمانهم. فقد أدرك كلٌّ مِن غُندبُو (Gondebaud) البُرغونديّ وتيُودُوريك (Théodoric) الغوطيّ الشرقيّ، على الأقلّ في مطلع عهده، أنّه لا يمكن فرض الديانة بالقوّة. غير أنّ المُلوك الغوط الغربيّين والقانْدال كانوا يرغبون في القضاء على الكثلكة، إذ كان أُوريك (Euric) الغوطيّ الغربيّ رجلًا متعصّبًا. فقد أمر بإقفال كنائس غاليا الجنوبيّة ونفْيِ أساقفة آرل وليمُوج وتُور. أمّا ملوك القانْدال فقد فعلوا أكثر من ذلك أيضًا. فدعا هُونِريك (Hunéric) بن جنسِريك (Genséric) إلى عقد مجمع في قرطاجة سنة ٤٨٤ برئاسة البطريرك الأريوسيّ. وحين رفض الأساقفة الكاثوليك أن يجحدوا دينهم، أمر بنفي مئات الأساقفة والإكليريكيّين. أمّا خلفاؤه، وكانوا أقلّ قساوة منه، فقد مَنعوا، مع ذٰلك، جميع مظاهر الحياة الدينيّة الكاثوليكيّة. فانتظر كثيرٌ من المؤمنين الخلاص من بيزنطية وتمنّوا سرًّا أن يتدخّل الإمبراطور الذي كان كاثوليكيًّا في ذٰلك الزمن.

وفي غاليا، لم يكن الكاثوليك يعرفون نحوَ من يلتفتون، حتّى زمن الفتوحات الأُولى التي حقّقها كلوڤيس. فبينما كان الغوط الغربيّون والبرغونديّون يجاهرون بالأريوسيّة، ظلّ الفرنج وثنيّين. ولم يَفُت الأساقفة الكاثوليك أن يتمسّكوا بخشبة الخلاص هٰذه، فحثَّ رِيمِي، أسقفُ رِمْس، كلوڤيسَ على إقامة علاقات طيّبة معهم. وقد لقيَت دعوته أُذنًا صاغية.

اهتداء كلوڤيس

لٰكن حتّى ذٰلك الوقت، لم تكن الأمور قد اتّضحت بعد. فَحَوْلَ كلوڤيس قام صراع للتأثير فيه: فشقيقته التي تزوّجت الملك الأريوسيّ تيودوريك سعت لاستمالته إلى إيمانها. ولو نجحت في ذٰلك، لكان الغرب كلُّه أريوسيًّا. غير أنّ كلوڤيس تزوّج أميرة برغنديّة كاثوليكيّة تُدعى كلُوتِيلْد. وقد توصّلت، هي والأسقف رِيمِي، إلى هدايته. فقبل العماد في رِمْس يومَ عيد الميلاد بين السنة ٤٩٥ والسنة ٥٠٠، ولا نعرف في أي سنةٍ تحديدًا. وما إنْ أُعلن خبر اهتداء الملك، حتّى علت هتافات النصر في العالم الكاثوليكيّ. فبعث أڤِيتُس أسقف ڤيينّا (Avit de Vienne)، الذي لم ينجح في هداية الملك البرغوندي غُنْدُبُو، برسالة تهنئة حارّة إلى كلوڤيس ورَد فيها: «إنّ إيمانك هو انتصارٌ لنا». كما أَمَلَ إمبراطور الشرق، الذي علم بالحدث أيضًا، أن يكون كلوڤيس بطل الكاثوليكيّة في الغرب ويحارب الأريوسيّة.

وهٰذا ما حدث فعلًا. استعدّ الملك ليعبر إلى جنوب اللوار، تلبيةً لدعوة الكاثوليك المقيمين في جنوب غاليا. وخشي تيودوريك أن تتفكّك الجبهة الأريوسيّة في وجه التقدُّم الكاثوليكيّ، فنظّم عبثًا حملة دبلوماسيّة حقيقيّة: وأكثَرَ من توجيه الرسائل إلى مختلف الأمراء، ومن بينهم كلوڤيس. وفي الواقع، انتصر كلوڤيس في ڤوييه (Vouille)، سنة ٥٠٧، واجتاح غاليا الجنوبيّة كلّها وطرد الغوط الغربيّين إلى إسبانيا وعندما عاد إلى

تور، هنّأه إمبراطور الشرق، ومنذ ذلك الوقت، بدأت الأريوسيّة تنهار. وسنة ٥١٧، قَبِل الملك سيجِسْموند (Sigismond)، خليفة غندبو، عمادَ الكاثوليك وجعل أڤيتُس مستشارًا له. وفي إيطاليا، ردّ تيودوريك العجوز بتنظيم اضطهادات بحقّ الكاثوليك، ولكنّه مات بعد ذلك بقليل.

وفي السنة ٥٣٥، قرّر البيزنطيّون أن يستعيدوا إيطاليا ويعيدوا الكثلكة إليها. وهذا ما جرى في أفريقيا التي عادت فأصبحت كاثوليكيّة، بعد أن استعادها يُسطِنيانُس. أمّا المملكة الوحيدة التي ظلّت أريوسيّة فكانت إسبانيا الغوطيّة الغربيّة. وكان لا بدّ من انتظار السنة ٥٨٥ حتّى يعتنق الملك رِكّارِيدُس الكثلكة بتأثير من لِياندرُس أسقف إشبيلية (Léandre de Séville). ولكن، في حين اعتقد الجميع أنّ الخطر الأريوسيّ أُزيل نهائيًّا، اجتاح إيطاليا برابرةٌ جدد هم اللّومبرديّون، وكانوا هم أيضًا أريوسيّين. ولم يهتدِ الملوك اللّومبرديّون إلى الكثلكة إلّا في منتصف القرن السابع بفضل البابوات والرهبان.

وهكذا لم تكن الأريوسيّة في الغرب الخاضع للبرابرة مجرّد حادث عابر. فقد كان انهزامها البطيء مرتبطًا بالأحداث السياسيّة وبعمل الأساقفة الدؤوب. ولو لم يهتدِ كلوڤيس، لاجتاحت الأريوسيّة الغرب كلّه، مع أنّها كانت مجرّد ديانة قوميّة لإحدى الأقلّيّات.

اعتماد كلوڤيس

لا يجوز أن يقلّل الأسلوبِ المفخّم، المستخدم في هذا النصّ الخاصّ بسِيَر القدّيسين، مِن أهمّيّة اعتماد كلوڤيس في نشأة الغرب المسيحيّ.

«عندئذٍ، استدعت الأميرة سرًّا رِيمِي، أسقف رِمْس، وسألته أن يُطلع الملك على كلمة الخلاص. فوصل الأسقف وبدأ يُقنع الملك بأنّ عليه أن يؤمن بالإله الحقيقيّ، خالق السماء والأرض، ويتخلّى عن الأصنام التي لا تقدر أن تكون مفيدة له وللآخرين.

فقال له كلوڤيس: «إنّي أصغي إليك بكلّ طيبة خاطر، أيّها الأب القدّيس، ولكنّ عائقًا واحدًا ما زال قائمًا، وهو أنّ شعبي لا ينوي التخلّي عن آلهته. غير أنّي سأنقل إليه رسالتك». فالتقى الملك ذويه. ولكنّ قدرة الله سبقته، فقَبْل أن يفتح فاه، صرخ الشعب كلّه بصوت واحد: «أيّها الملك الورع، إنّنا ننبذ الآلهة الزائلة ونستعدّ لاتّباع الإله الذي يُعلن ريمي أنّه لا يموت». ولمّا أُعلم الأسقف بالخبر، غمره الفرح وأمر بإعداد كلّ ما يلزم للعماد. فزُيّنت الساحات بأقمشةٍ ملوّنة، والكنائس بستائر بيض، وأُعدّ بيت العماد، فعُطِّر، وأُضيئت الشموع وفاحت منها الروائح، وكان صرح المعموديّة يعبق برائحةٍ إلهيّة. وبتأثير من النعمة الإلهيّة، ظنّ الحاضرون أنّهم يتنشّقون روائح الفردوس. ثمّ بادر الملك إلى الحبر طالبًا إليه أن يعمّده. وتوجّه قسطنطين الجديد إلى بركة العماد ليَطهُر فيها، بمياهٍ جديدة، من أدناس البرص القديم والشوائب القذرة التي أُصيب بها في السابق. وحين كان كلوڤيس يستعدّ لقبول العماد، خاطبه قدّيس الله بعبارات بليغة قائلًا له: «إحنِ رأسك بتواضع، أيّها السِيكَمْبرِيّ، واعبد ما أحرقتَه، واحرق ما عبدتَه» (...). وبعد أن اعترف الملك بالله القدير، الإله الواحد في ثلاثةِ أقانيم، عُمِّد باسم الآب والابن والروح القدس ودُهِنَ بالميرون المقدَّس على شكل صليب المسيح. وقَبِلَ العمادَ أكثرُ من ثلاثة آلاف رجلٍ من جيشه وشقيقتُه ألْبُوفلِيد (Alboflède) التي انتقلت إلى رحمة الله بعد ذلك بوقتٍ قصير. (...) واهتدت كذلك شقيقةٌ أخرى لكلوڤيس تُدعى لانتِيلْد (Lantilde)، وكانت قد سقطت في البدعة الأريوسيّة. فبعد أن اعترفت بأنّ الابن والروح القدس مساويان للآب، دُهِنت بالميرون المقدّس».

(غريغوريوس أسقف تُور، **تاريخ الفرنج**، II/ ٣١)

الفصل السابع

جنڤياڤ والبرابرة

بقلم إليان غُونْدِينِه(*)

القدّيسة جنڤياڤ تسهر على باريس: هٰكذا خلَّدها الرسّام الفرنسيّ پُوڤي دُو شاڤانّ (Puvis de Chavannes) في لوحاته الجداريّة التي يأتي السائح للتمتّع بمشاهدتها في الپانتِيون (Panthéon) بعد صعوده «الجبل» المسمَّى باسمها. ونادرًا ما كانت إحدى القدّيسات شعبيّةً إلى هٰذا الحدّ، وعزيزةً على قلوب الباريسيّين من مختلف الطبقات وحتّى. . . من مختلف المعتقدات، «تفضّلي إذًا وكفّي عن مهاجمتي في شأن المعجزات التي تُجريها جنڤياڤ الطيّبة. فإنّ معجزة الحُمْرَوِيّين (Les Ardents) مثلًا أُثبتت لي كما أُثبت لي موت طيباريوس أو شراسة كَلْڤين. وما إن يدور الكلام على جنڤياڤ حتّى أشعر بعاطفة الأولاد. فهي راعيتي وعذرائي الطيّبة. فلا نُطِلِ الحديث عنها، يا سيّدتي، إلّا إذا عزمتِ على مضايقتي». من هو صاحب هٰذا الدفاع الحماسيّ؟ إنّه ڤُولتِير (ولو كان ذٰلك أمرًا غير متوقَّع على الإطلاق)، يردّ على رسالة السيّدة كريكِي (créquy) التي تجاسرت على التشكيك في صحّة المعجزات التي أجرتها حامية باريس.

اتّكلت باريس طوال تاريخها على جنڤياڤ، على تلك القدّيسة التي عاشت في القرن الخامس والتي أبعدت عن المدينة هجمات الهون. ولٰكن هل تعود تلك المآثر إلى الأساطير أم إلى التاريخ؟ قبل حوالى الستّين سنة، أكّد أحد العلماء العقلاء أنّها تعود إلى الأساطير: فبعد أن درس بدقّة مخطوطات **سيرة جنڤياڤ**، صُدِم بتصرّفات جنڤياڤ، فقد بدت له غير لائقة بفتاة، وبأَولى حجّةٍ بعذراء مكرَّسة. كيف ذٰلك؟ يقول العالِم إنّها أجازت لنفسها أن تخطب في الباريسيّين بدل أن تظلّ مختبئة باحتشام في الدير، وأن تزعج الملوك لتلتمس منهم العفو عن المحكومين بالإعدام، وأن تكون على رأس موكب السفن المتوجِّهة لإغاثة الباريسيّين الجائعين! وهٰذا ما ليس معقولًا إلى حدّ بعيد. وختم قائلًا إنّ **السيرة** هي تزوير يعود إلى القرن الثامن، ونفى أن يكون لها بالتالي أيُّ قيمة تاريخيّة.

السيرة تزوير؟ لا، على الاطلاق، يجيب معظم أهل الاختصاص. فبعد أن بذلوا جهودًا جديدة لدرس المخطوطات، اعتبروا أنّه يمكن الركون إلى صحّة النصّ، وهو يبدو أنّه خُطَّ بيد راهب من رهبان دير القدّيسة جنڤياڤ، بعد مرور ثماني عشرة سنة على وفاة القدّيسة. وفي ما يختصّ بتصرّفات القدّيسة جنڤياڤ، لاحظ المؤرِّخ غُودفرُوا كُورث (Godefroid Kurth)، بشيءٍ من الظرف، أنّه يمكن تفهّمها، على ما يبدو، عِلمًا بأنّ نمط حياة العذراء المكرّسة في القرن الخامس لا يشبه على الإطلاق نمط حياة الراهبة الكرمليّة، وأنّ القدّيسة، حين قامت بمهمّة لدى الملك شيلدِريك (Childéric)، كانت «فتاةً» لها من العمر نحو ستّين سنة!

إنّ **سيرة جنڤياڤ** تعود إذًا إلى التاريخ، لا بل هي «النصّ الوحيد الذي يُخبرنا شيئًا عن النصف الأوّل من القرن الخامس في غاليا» (غ. كورث). ولٰكن لا يجوز أن ننتظر منها (من **السيرة**) أكثر ممّا يمكنها أن تقدّمه لنا، لأنّ كاتبها يهتمّ قبل كلّ شيء بمعجزات جنڤياڤ أكثر منه بالإطار التاريخيّ الذي جرت فيه. وهٰذا ما يفسّر أن يكون هناك تشويه في النظرة، أو، على الأقلّ،

(*) Eliane Gondinet.

تسليط أضواء على المعجزات التي أجرتها القدّيسة.

وُلدت جنڤياڤ في نانْتِير (Nanterre) حوالى السنة ٤٢٠، لوالدَين كاثوليكيَّين. وحين كانت بعدُ فتاةً صغيرة، استرعت انباه القدّيس جِرْمانُس أسقف أُوكِسير (St. Germain d'Auxerre)، فشجَّع رغبتها في التكرّس للمسيح. وقد أصبح ذلك التكرُّس فعليًّا بعد مرور بضع سنوات. ولمّا توفّي والداها، انتقلت إلى باريس وأقامت عند عرّابتها. وكانت هناك في سنة ٤٥١. وفي باريس كان الحديث الدائم يدور حول قدوم الهون: فقد استولوا، قبل ذلك بوقتٍ قصير، على تْرِير وتُونغر (Tongres) ومِيتز... وكان الباريسيّون يرتاعون لسماعهم أخبار الفظائع التي يرتكبها أتّيلا وزمرته. فأخذ الناس يهاجرون، ونقل بعضهم أموالهم إلى خارج المدينة. ولكنّهم لم يحسبوا حسابًا لوجود جنڤياڤ، فعارضتهم بكلّ قواها، وأقنعت النساءَ أوّلًا، وطلبت إليهنَّ أن يرفعن الصلاة عدّةَ أيّام. ثمّ حرَّضت الرجال على عدم مغادرة المدينة وأعلنت لهم أنّ باريس ستنجو بفضل حماية المسيح. منهم من صدَّقها. ومنهم من لم يستحمل كلامها واتّهمها بأنّها تقود الشعب إلى المجزرة. وفضّلوا التخلّص منها «إمّا برجمها وإمّا بإلقائها في قعر هوّة». ولو لم يتدخّل رئيس شمامسة أوكسير ويدافع عنها بسلطته، لفعلوا. ظلّت جنڤياڤ إذًا على قيد الحياة... ونجت باريس، لأن أتّيلا توجَّه إلى أورليان، خلافًا لكلّ التوقّعات. ويقول كاتب سيرتها إنّها، منذ الخامسة عشرة وحتّى الخمسين من عمرها، كانت تأكل يومين فقط في الأسبوع، مكتفيةً بخبز الشعير والفول. وبعد بلوغها الخمسين، أضافت إلى طعامها السمك والحليب نزولًا عند نصيحةٍ من الأسقف. وكانت الأشفية والمعجزات التي تُجريها أكثر من أن تحصى. فكان لها من القداسة ما يمكّنها من قراءة أفكار الناس. وازداد تأثيرها في الشعب يومًا بعد يوم، حتّى إنّ شيلدِريك نفسه، خليفة مِيرُوڤه (Mérovée)، ملك الفرنج، حاول أن يُعدم سجناءَه في الخفية تحاشيًا لتدخُّل القدّيسة!

وفي سنة ٤٨٢، خلف كلوڤيس شيلدِريك. وبعد أن تخلَّص من السيطرة الرومانيّة، راح يتنقَّل مع جيشه في شمال غاليا ويخضع كلَّ مَن يقاومه. أمّا باريس المحاصَرة، فقد رفضت الاستسلام. واستمرّ الحصار عدّة سنوات. «وقد سبَّبت المجاعة أضرارًا كبيرة حتّى إنّنا نعرف عدّة أشخاص قضوا من الجوع». وعندئذٍ، لم تخشَ جنڤياڤ - وكانت في حوالى السادسة والستّين - أن تتوجّه مع أحد عشر مركبًا لتشتري القمح من أَرْسِي سُور أُوب (Arcis-sur-Aube). وتوصّلت بالفعل إلى خداع الحرس الفرنج وإلى إيصال الحمولة بأمان. وبعد ذلك، نظّمت توزيع القمح «وفقًا لما يحتاج إليه كلُّ واحد».

وتُغفل **سيرة جنڤياڤ** ما لحق من الأحداث، أي المصالحة التي جرت بين كلوڤيس والباريسيّين واعتماد الملك. ولكنّها تذكر «المودّة» التي كان كلوڤيس يكنّها للقدّيسة: فكان يتصرّف كأبٍ لها ويحترم شخصها، «فيعفو أحيانًا عن المساجين» و«يطلِق غالبًا مجرمين كان يجب أن يُسلَموا إلى التعذيب، من دون أن يضربهم بحدّ السيف. حتى إنّه باشر، عن عطفٍ عليها، بناء تلك الباسيليكا التي أكملتها الملكة الجليلة كلُوتيلد بعد وفاته». كانوا يريدون أن تأتي تلك الباسيليكا إكليلًا لـ«جبل القدّيسة جنڤياڤ (مكان مدرسة هنري الرابع حاليًّا) وتُشيَّد إكرامًا للقدّيسَين بطرس وبولس. ولكن اسم جنڤياڤ طغى على اسم القدّيسَين منذ القرن التاسع وأُطلق على الكنيسة اسم «القدّيسة جنڤياڤ».

توفِّيت جنڤياڤ في الثالث من كانون الثاني (يناير) سنة ٥١٢، بعد أن تجاوزت الثمانين. كانت شعبيّتها، وهي على قيد الحياة، كبيرةً جدًّا، فازدادت بعد وفاتها. ونعرف من غريغوريوس أسقف تُور أنّها كانت تكرَّم في بلجيكا منذ نهاية القرن السادس. ولكنّ باريس هي التي اتّخذتها شفيعةً لها، والتفتت نحوها في أحلك ساعات تاريخها، ملتمسةً منها المساعدة والحماية، فإنها تبقى في نظر الباريسيّين تلك التي استطاعت، بصلاتها فقط، أن تردّ البرابرة.

الفصل الثامن

انتقال الكنيسة إلى البرابرة

بقلم بيار رِيشِيه(*)

في القرن الثاني من العصر المسيحيّ، التفتت الكنيسة، بعد مجهودٍ كبير، نحو الحضارة الهلّينيّة. فبعد انتقالها إلى اليونانيّين، ها هي الآن تنتقل إلى البرابرة. أثار هٰذا الانتقال الثاني، وقد يكون أكثر مأسويّةً، آراء ملؤها الإعجاب. فالكثيرون أشادوا بما أظهرته الكنيسة من قدرة على التكيّف، ورأوا في ذٰلك نوعًا من المعجزة التاريخيّة. لا شك في أنّ إغراء التفسير الدفاعيّ حاضر هنا. فكيف لنا أن نقيّم ذٰلك الحدث، من دون أن نقع في هٰذا الإغراء؟

حيويّة الروح الإرساليّ

للوهلة الأُولى، يبدو أنَّ المعجَبين هم على حقّ، لِما أظهرته القرون الستّة الممتدّة من زمن الغزوات إلى اقتراب العام الألف من حيويّة وثبات وذكاء في الاندفاع الإرساليّ. وكان لرجال الدين في ذٰلك الوقت، ولا سيّما أُولٰئك الذين ما زالوا يذكرون الحياة الرومانيّة، بعض الفضل في تحقيق ذٰلك «الهروب إلى الإمام». فإنّ الإمبراطوريّة التي انهارت كانت قد أصبحت مسيحيّة في نهاية الأمر، وكان آباء الكنيسة، وفي غمرة الغزوات، قد دفعوا بالآداب والحضارة القديمة في ما يُشبِه نهضةً مشبَعة بالصبغة المسيحيّة، مع أنّه من الجائز أن يتغلّب فتور الهمّة والخوف المحافِظ.

والحال أنّه ما إن عبرت المخاوف الشديدة الأُولى حتّى استعادت الواقعيّةُ حقوقها. كان البرابرة هناك ولم تتوقّف الحياة: حياةٌ منتقَصة طبعًا وفاترة اقتصاديًّا وواهنة ثقافيًّا، ومُهَدَّدة كثيرًا! ونتج من ذٰلك ضنًى متسرّع في المدن القديمة والمشهورة: فأصبح العالم الرومانيّ ريفيًّا شيئًا فشيئًا. ومنذ ذٰلك الوقت، برزت الحاجة إلى مواصلة الجهود المبذولة منذ العهد الإمبراطوريّ: أي هداية أهل الأرياف ومحاربة الوثنيّة التي عزّزها وجود البرابرة. وتمَّ التواصل، إذ إنّ المرسلين في الممالك البربريّة استَلْهموا مباشرةً المُثُلَ التي تركها أساقفة العهود الأُولى.

فأينما حلّوا، اجتهدوا في استئصال الممارسات الوثنيّة وحرّموا الاحتفالات التي كانت تُقام حول المعابد، وهدموا تماثيل الآلهة القديمة والأشجار والأشياءَ التي كانوا يعبدونها، وقمعوا كلّ أنواع السحر الأسود الهادفة إلى تدبير حِيَلٍ سحريّة مؤذية. ولٰكنّ الصرامة لم تنفِ الليونة ولا الصبر. فقد قال غريغوريوس الكبير للرهبان الذين أرسلهم إلى إنكلترا: «لا يمكننا أن نرتقي الجبل بالقفز، بل بالارتفاع البطيء». ومنذ ذٰلك الوقت، لم يتردَّد المرسَلون في إعادة استخدام المعابد الوثنيّة، ونصرَنة الأماكن المقدّسة التقليديّة، وتكييف الأناشيد ذات الصبغة الدينيّة على الألحان الوثنيّة، واستبدال القصائد وصلوات التبريك المناسِبة بأغاني الحبّ والمراثي واحتفالات الربيع الطقسيّة. لا بل، تعلّم المرسلون، بشيءٍ من الجرأة، استخدام جميع اللغات القوميّة. ففي إنكلترا وجرمانيا، أُقيمت احتفالات العمادَ وأُلقيت

(*) Pierre Riché.

المواعظ باللغة الجرمانيّة، وتُرجِمَ الكتاب المقدَّس ووُضعت للأناجيل تفسيراتٌ شعريّة. صحيح أنّ الليترجيا بقيَت لاتينيّة، لٰكنهم كانوا يشرحون «الأبانا» و«النؤمن» باللغات القوميّة. وأخيرًا، أدرك المرسَلون والأساقفة والبابوات أنَّ عليهم أن يُظهِروا تساهلًا وصبرًا حيال المتنصِّرين حديثًا. فلا يجوز أن يُعامَل هٰؤلاء، سواء أكانوا أُمراء يَعبُدون أودين (الإلٰه الإسكندينافيّ) والمسيحَ معًا، أم فلّاحين عادوا إلى احتفالاتهم الوثنيّة، بالطريقة التي يُعامَل بها سائر المسيحيّين. كتب أسقفٌ، أقلقه تصرُّفُ النورمَنديّين المهتدين حديثًا إلى المسيحيّة، إلى رئيس أساقفة رُوان يقول له: «لو كانوا مسيحيّين قُدامى لحكمنا عليهم بحسب ما تفرضه صرامة القوانين، ولٰكن بما أنّهم ما زالوا مبتدئين في الإيمان، ترى حكمتُك أن تُلطِّف صرامة القوانين الكنسيّة، خوفًا من أن يسحقَهم الحِمْل الجديد فيجدوه لا يطاق ويعودوا إلى الإنسان القديم الذي خلعوه».

لقد تميَّز إذًا ذٰلك العمل الطويل لهداية الشعوب البربريّة بالمثابرة على بذل الجهود والواقعيّة في التنفيذ. ولٰكن لا يجوز أن نتصوَّره مثاليًّا: فلا الشراسة ولا الحسابات السياسيّة غابت عنه. غير أنّ الذين شجّعوه، - من بابواتٍ كلاون وخصوصًا غريغوريوس الكبير، وأساقفةٍ كسِيزير أسقف آرْل وإلْوا (Eloi) أسقف نُوَيُون (Noyon) وكثيرين آخرين، ورهبان ككولومبان وبونيفاقيوس - سطَّروا في تاريخ الكنيسة إحدى أروع صفحات انتشارها الرسوليّ.

الكنيسة تواصل عمل الإمبراطوريّة

لٰكنَّ غيرة البشر وحرارة إيمانهم لا تكفيان لتبيّن أسباب النجاح الذي أحرزه مشروع التنصير الضخم. فمَن أراد أن يفهم سبب نجاحٍ بهٰذا الحجم، لا بدّ له من أن يعود إلى قلب العصور المظْلِمة التي امتدّت من القرن الخامس إلى القرن السابع. فَتَحْتَ ضربات البرابرة المتكّررة، تمَّ انهيار كلُّ ما كان يؤلِّف وحدة الإمبراطوريّة الرومانيّة: مِن تنظيم السلطات، والشبكات التجاريّة، والمراكز الثقافيّة. وحيث كان الصرح القديم والعظيم، لم يقم أيُّ شيء، لأنّ البرابرة لم يكونوا سوى حفنة (نحو ٥٪ من مجموع الشعب). وحتّى في أفضل الحالات (كحالة إيطاليا في ظلّ تيودوريك)، كانوا عاجزين وحدهم عن إصلاح ما خرَّبته أيديهم. ومنذ ذٰلك الوقت، حلّ عهد الفوضى والانقسام وحتّى التقهقر. وفي ذٰلك الفراغ الشامل، ظهر بوضوح ذٰلك الدور الذي قامت به الكنيسة: فتدريجًا، وبفضل تحوّلات مهمّة، تلقَّت خلافةَ الإمبراطوريّة المنهارة. على الصعيد السياسي، تمّ ذٰلك بكلّ بساطة. فإنّ اختلال الإدارة الإمبراطوريّة وانقراض الأرستقراطيّة لم يتركا أمام الزعماء البرابرة سوى شخصٍ واحد قادر على الإدارة والتفاوض، وهو الأسقف. ففي زمن الغزوات، كان يحلّ محلّ السلطات (كما فعل غريغوريوس الكبير في رومة)، وينظّم الدفاع (كما فعل القدّيس سِڤرِين Severin على الدانوب والقدّيس إينْيان Aignan في أُورلِيان)، فكان الملجأ الوحيد الفعّال للشعب القلق. وفي وقتٍ لاحق، حين شَيَّد الزعماءُ البرابرة ممالكَهم، ظلَّ الأساقفة يقومون بدور الوسيط الطبيعيّ بين الأمراء والشعب. وسرعان ما اتّخذهم الملوك مستشارين أو أمناءَ سرٍّ لهم (كما كان القدّيس أڤِيتُس عند الملك البُرغونديّ غُندبُو).

وعلى الصعيد الثقافيّ، تمَّت الحركة نفسُها ولٰكن بوضوح أكبر. فإنّ الدمار وانضمام الأرستقراطيّة الرومانيّة النهائيّ إلى المسيحيّة لم يُبقيا في الصرح المتهدِّم سوى مركزٍ واحد للثقافة، وهو الكنيسة، التي ورثت الحضارة القديمة وأنشأت حضارةً جديدة في وقتٍ واحد. هي وريثةٌ لأنّ فيها استمرّت تقاليد الثقافة القديمة، ولو شاحبة، ومنشِئةٌ لأنّ النظام الجديد بُني على السرّ المسيحيّ وعلى نظرة قدسيّة إلى العالم. وثمّة مَثلٌ واحد يبيّن ذٰلك التحوّل الأساسيّ، وهو مَثل الليترجيا الرومانيّة التي نشأت في غمرة تلك العصور

المظلِمة، فإنّ الليترجيا الرومانيّة هي، في وقتٍ واحد، آخرُ تحفة أنتجتها الثقافةُ الكلاسّيكيّة القديمة، واللحمةُ العقائديّة التي استطاع الغرب المسيحيّ بفضلها أن يستعيد وحدته، إعتبارًا من عهد شارلمان.

الكنيسة والبرابرة

يمكننا أن نفهم الآن بوجهٍ أفضل كيف نشأ توازن القوى الذي أدّى إلى قيام ما عُرِف بالعصر الوسيط. فمِن جهة، هناك الكنيسة التي استفادت من التنظيم الذي وُضع اعتبارًا من القرن الثاني - مِن تأليف شبكةٍ كثيفة من الأساقفة، وازديادِ عدد الكنائس الريفيّة، وتجمُّعِ الأساقفة بحسب الأقاليم، وفوق ذلك كلِّه، مِن اعترافٍ، تقوّى شيئًا فشيئًا، بالأوّليّة الرومانيّة - فألّفت القوّةَ الوحيدة القادرة على إعادة إحياء مثال الوحدة الرومانيّة الذي فُقد ولم يُنسَ قطّ. ولديها، فضلًا عن ذلك، رجالٌ قادرون على الاضطلاع بمهامّ كثيرة وصعبة: فهناك الأساقفة، وهم ورثة تقليدٍ فكريّ وسياسيّ واسع، والرهبان المؤمنون بإمكان إحلال مدينة الله على الأرض والعاملون على بنيانها على أُسسٍ واقعيّة، والرهبان الأساقفة، كغريغوريوس الكبير، الذين أرسَوا أُسس صرحٍ جديد هو العالم المسيحيّ، من دون أن يكون لديهم تصوّر واضح عنه.

ومن جهةٍ أخرى، هناك البرابرة، ولا شكّ في أنّهم لم يكونوا تلك البهائم التي وصفهم بها شهود الغزوات الأوّلون. ففي أثناء تنقّلاتهم الطويلة، «شاهدوا الكثير وتعلّموا الكثير وحفظوا عددًا لا بأس به من الأمور»، على حدّ قول ج. لُوغُوفّ J. Le Goff. وظهر عند الكثيرين منهم اهتمامٌ بالمحافظة على شخصيّتهم وعاداتهم وقوانينهم وديانتهم القوميّة، الوثنيّة أو الأريوسيّة، في وجه الشعوب التي سيطروا عليها. يبقى أنّهم تبنّوا، حيثما استطاعوا، ما أورثتهم الإمبراطوريّةُ الرومانيّة المحتضرة من أمور أفضل. ومن هنا ذلك الإغراء الدائم الذي مارسته الحضارة الرومانيّة على الملوك البرابرة. وهذا ما يساعدنا على أن نفهم أمرًا أساسيًّا وذا شأن: وهو اهتداء الأُمراء إلى المسيحيّة وإلى وجهها الرومانيّ، أي الكثلكة، بعد زوال زمن الأريوسيّة. وبهذا المعنى، كان اعتماد كلوفيس أكثر من حدث عاديّ، كان آيةً ساطعة. وقد أثبت سطوعُ نجم الفرنج حتّى القرن الثامن، تجاه سوءِ حظّ الممالك الأريوسيّة، أهمّيّةَ قدرة الكنيسة بما فيها من أساقفة ورهبان. فإنّ التحالف مع الكثلكة هو الذي ضَمَن نجاح الفرنج، وضمن، في ما بعد، أيّام شارلمان، إحياء إمبراطوريّةٍ جديدة. وقد فهم البرابرة أنّ الكنيسة كانت قطبَ القدرة والثقافة الأخير في عالمٍ متفكّك، فعملوا على تدعيم ممالكهم وتوصّلوا إلى حضارة سامية باهتدائهم إلى الكثلكة. فلقد انتقلت الكنيسة فعلًا إلى البرابرة. ولكنّهم هم الذين انتقلوا بالقَدر نفسه، عن اقتناع، أو عن مصلحة، أو بطبيعة الحال أيضًا.

وثيقة
«قضيّة ميتُوديُوس»

في حزيران (يونيو) ٨٧٩، دعا البابا يوحنّا الثامن
ميتوديوس إلى رومة ليتحقّق من استقامة ما كان يبشّر به،
فمنعه من الاحتفال بالقدّاس باللغة السلافيّة.
وبعد مرور سنة،
اطمأنّ يوحنّا الثامن تمامًا واعترف بأنّ المبادرة

التي اتّخذها المرسَل كانت مناسبةً.
«... قيل لنا أيضًا إنّك ترتّل القدّاس بطريقة بربريّة،
أي باللغة السلافيّة، وسبق لنا أن منعناك، في رسالتنا
التي نقلها إليك بولس أسقف أنكون (Ancône)،
أن تقيم احتفالات الذبيحة الإلٰهيّة
بتلك اللغة:
فعليك أن ترتّله باللاتينيّة أو اليونانيّة،
كما تفعل سائر الكنائس المنتشرة في العالم كلّه
وعند الأمم كلّها. غير أنّه يجوز لك أن تبشر
الشعب وتلقي المواعظ كما تشاء، لأنّ الرسول
وصاحب المزامير دعيا جميع الشعوب إلى تسبيح الله
بالكلمات التالية: «ويشهد كلُّ لسانٍ أنّ
يسوع هو الربّ تمجيدًا لله الآب» (مز ١١٧ وفل ٢/ ١١)
(رسالة يوحنّا الثامن إلى ميتوديوس، حزيران (يونيو) ٨٧٩).
«... لقد استجوبنا إذًا ميتوديوس،
رئيس أساقفتكم الموقّر،
بعد أن عرض علينا أخوتُنا الأساقفة قضيّته...
وقد رأينا أنّه يدافع بنجاح عن التعاليم
والعادات الكاثوليكيّة. لذا نعيده
إليكم لكي يواصل إدارة كنيستكم.
فاستقبلوه بصفته راعيكم الشرعيّ مع كلّ ما يستحقّه
من مظاهر الإكرام والإحترام...
إنّنا نؤيّد تمامًا ما كتبه الفيلسوف قسطنطين (أي كيرلّس)
باللغة السلافيّة تسبيحًا لله ونأمر بأن تُعلَن أعمال ربّنا
يسوع المسيح وأقواله بتلك اللغة:
لأنّ السلطة المقدّسة تحثّنا على تسبيح الربّ،
لا بثلاث لغات، بل بجميع اللغات -
«سبّحوه يا جميع الشعوب» -
لأنّ الرسل، الذين امتلأوا من الروح القدس،
تكلّموا بلغات بمعجزة إلٰهيّة، والقدّيس بولس
نفخ في البوق السماويّ قائلًا:
«ويشهد كلُّ لسان أنّ يسوع المسيح هو الربّ
تمجيدًا لله الآب».
فلا شيء يحول إذًا دون استخدام اللغة السلافيّة
في ترتيل القدّاس، وقراءة الكتُب الإلٰهيّة
من عهدٍ قديم وعهد جديد، بعد أن تُرجمت

بعناية، وترتيل الساعات والرُّتَب الأُخرى...
بذْلك الذي وَضع ثلاث لغاتٍ أساسيّة هي العبرانيّة
واليونانيّة واللاتينيّة، وخَلق جميع اللغات
لتسبيحه وتمجيده.
غير أنّنا نأمر بأن يُتلى الإنجيل في جميع كنائس
مملكتكم باللغة اللاتينيّة، كعلامة احترام،
على أن يُترجَم بعد ذْلك إلى اللغة السلافيّة
لمن لا يفهمون اللاتينيّة، كما يظهر ذْلك
في بعض الكنائس».
(رسالة يوحنّا الثامن إلى دُوق سڤِنْتابلُوك (Sventapluc)، حزيران (يونيو) ٨٨٠)

أوروبّا تُصبح مسيحيّة

وفي الختام، ماذا نقول في النتائج الصادرة عن حركة اللقاء المزدوجة هٰذه؟

نلاحظ أوّلًا نوعًا من التقهقر في المجال الدينيّ وفي المجالات الأُخرى أيضًا. فإنّ عهد البرابرة كان قاسيًا وعنيفًا، وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها الكنيسة لتهذيب العادات بفرضها نظامَها الخاصّ بالتوبة وتشريعًا قانونيًّا غزيرًا، لم يتمكّن أيّ شيء من إيقاف تدهورٍ حقيقيّ في الروحانيّة والحياة الدينيّة. وعلى كلّ حال، لم ينجُ رجال الدين أنفسُهم من ذْلك التدهور. وبوجهٍ عامّ، فإنّ انتشار إكرام الذخائر انتشارًا مدهشًا، وتعزيزَ أخلاقيّةٍ تقوم على التحريمات، والدعوة القديمة إلى حكم الله على شكلِ يَدَين مغموسَتَين في المياه المغليّة أو صراعٍ قضائيّ (كان على الله أن يمنح النصر للذي يصارع في سبيل قضيّة محِقّة)، كلّ ذْلك يدلّ على تراجع في ما يقتضيه الدين، حتى إنّ الناس تحدّثوا عن إضفاء طابع فُلكلوريّ على المسيحيّة! فهل كان البرابرة مسؤولين عن ذْلك؟ في جزءٍ منه ولا شكّ، ولْكنّ ذْلك يعود بالأولى إلى تداعي الحضارة وتقلُّص العالم الثقافيّ الذي طال تلك الحقبة الطويلة.

ومع ذْلك، لا يجوز لنا أن نرسم صورةً سوداء عن الوضع: فما فُقِد من جهة الكمّيّة (وهناك استثناءات رائعة) عُوِّض عنه من جهة الصلابة والاتّساع. كان إيمان تلك الحقبة بسيطًا بعض الشيء، ومتأثّرًا بخوارق الأمور، والخرافات أحيانًا. ولْكنّه كان إيمانًا صلبًا وقادرًا، في آخر الأمر، على تمييز حضور ما هو مقدَّس.

ومن ناحية أُخرى، أدّى اهتداء الأمراء الوثنيّين إلى إطلاق حركةِ تنصيرٍ ونقلِها حتّى الحدود الأوروبّيّة. وسواء أكانوا خلفاء كلوڤيس أم ملوكًا أنكلوسكسون، فقد عملوا على مساعدة الرهبان والأساقفة. أمّا شارلمان فقد شنَّ على السَكسون «حملةً صليبيّة» بكل معنى الكلمة. وفي القرن العاشر، كان الأمراء المسيحيّون هم الذين بادروا إلى التوجّه نحو الصقالبة: فبعد مرور ثلاثين سنةً على اهتداء الدُوق مِييشكُو (Miesco)، نشأت كنيسة بولونيّة مستقلّة في العام الألف بدافع من الإمبراطور أُوتّو الثالث. وبعد مضيّ قرن تقريبًا، نُصِّرت بوهيميا، ثمّ المَجَر، وسارتا في تيّار جرمانيا. ولا شكّ في أنّ ذْلك الخلط بين مشاريع المرسَلين وطموحات الأمراء الزمنيّة كان محفوفًا بالمخاطر وأشعل بين المحاربين والكهنة صراعًا خفيًّا على السلطة دام طوال العصر الوسيط. ومع ذْلك، أصبحت أوروبّا مسيحيّة بأسرها في نهاية تلك التطوّرات.

طبعًا، كان هناك انتقال، ولْكنّه لم يكن على نحو ما

تكون الهجرة. فعلى الرغم من الفوضى والمخاطر والانهيارات المتلاحقة والنكسات المؤلمة، عرفت الكنيسة أن تستمرّ وتمارس تقاليد أورثها إيّاها أساقفة الإمبراطوريّة المسيحيّة ومؤسّسو الحياة النسكيّة، وأن تستثمر إرث الآباء. لم تنجح في ذٰلك دائمًا، ولٰكنّ ما قامت به يُعتَبَر إنجازًا في زمن الأزمات، فقد استطاعت أن تبقى على ما كانت عليه. وكان ذٰلك كافيًا ليضمن لها دورًا مميّزًا ويجعلها المنشّطة الروحيّة في العالم الجديد الذي كان على وشك الولادة. ويعود ذٰلك النجاح الباهر، الذي رأى فيه عددٌ كبير من المراقبين دلالةً على خلود الكنيسة، إلى عبقريّة بعض الشخصيّات البارزة وإلى المحافظة على حيويّة الإيمان ولا شكّ، لا بل كان ذٰلك النجاحُ ثمرةَ ظروف مؤاتية، على عكس ما يظهر للوهلة الأولى. وقد عَرفت الكنيسة فعلًا أن تستفيد من هٰذه الفرصة.

مخاطبة العقل

لم يَعد المطلوبُ تعميد الوثنيّين بالقوّة،
بل بإقناع عقولهم. تلك هي النصيحة
التي عرضها دانيال أسقف وِنشِسْتِر على صديقه بونيفاقيوس،
مقترحًا مُحاجَّةً تُدهِش بعضُ عناصرها عقولَنا العصريّة.

«لا يجوز أن نحارب مباشرةً أضاليل الوثنيّين ولا أن نجادلهم في نسب آلهتهم، بل يجب أن نطرح بعض الأسئلة المعتدلة ونستفسر بها عن معتقداتهم. فنحملهم أوّلًا على الاعتراف بأنّ آلهتهم أزليّة، بل أنّها ولدت بالتناسل على طريقة البشر. وليُسألوا: هل العالم أزليّ؟ وإذا كانت له بداية، فمن الذي خلقه؟ ليس آلهتُهم ولا شكّ. فلم تكن آلهتهم موجودةً قبل أن يوجد العالم، وإلّا لما كان لها مقرّ ولا وسيلة للعيش. وإن قالوا إنّ العالم لم يبدأ، يجب أن نبيِّن لهم أنّ ذٰلك مستحيل، وأن نسألهم مَن كان يديره قبل آلهتهم وما فَعَلَتْه لتُخضعه؟ وما هو مصدر الإلٰه الأوّل، وهل تُواصل الآلهة والإلاهات توالُدَها؟ إذا لا، فلماذا كفّت عن التوالد؟ يا له من إحراجٍ يشعر به البشر حين يبحثون عن الأقوى مِن بين تلك الآلهة، وأيّ خوف يغمرهم حين يسيئون إليه بعدم رفع إكرامهم له! ثمّ في سبيل أيّ شيء يعبدون الآلهة؟ أفي سبيل خيراتٍ ينالونها أو سعادةٍ أبديّة؟ إذا كان في سبيل الخيرات، فليُظهروا لنا بماذا يفضَّل الوثنيّون على المسيحيّين! ولماذا يُرضون الآلهةَ بالذبائح، ما دامت تملك كلَّ شيء؟ ولماذا تسمح تعود الخيرات التي تقرَّب لها إلى من يؤمن بها؟ وإن كانت في حاجةٍ إليها، فلماذا لم تأخذها لنفسها وبحجم أكبر؟ وإن لم تكن في حاجة إليها، فكيف يأملون إرضاءَها بتقريبهم لها ما صنعته هي؟ يجب أن يُعرض ذٰلك كلُّه بلطف واعتدال، لا بلهجةِ مناظرةٍ حامية ومسخِطة.

وحينًا بعد حين، قد يؤدّي استخدامُ المقارنة عَرَضًا بين أوهام الأساطيرِ الوثنيّة وتعاليمِ المسيحيّة إلى جزيل الفائدة: فيَخجل الوثنيّون أكثر ممّا يغضبون من الردّ غير المباشر على معتقداتهم المغلوطة، وعلاوةً على ذٰلك، يحسن بنا أن نبيِّن لهم، بطريق المصادفة، أنّنا، إذا كنّا نحارب تعاليمهم، فليس ذٰلك لأنّنا نجهلها. ويمكننا أيضًا أن نسترعي انتباه المستمعين الوثنيّين إلى السؤال التالي: إن كانت الآلهة قديرةً وصالحة وعادلة، فعليها أن تكافئ مَن يعبدها وتعاقب من يحتقرها. ولٰكن كيف يُفسَّر إذًا ازدهار المسيحيّين الذين كادوا أن يسلبوهم العالم كلَّه والذين يملكون أغنى المناطق وأخصبها، تاركين لأتباع الآلهة الأقطارَ القارسة حيث لا يحتفظون إلّا بشبه حُكم، بعد أن طُردوا، إذا جاز القول، من أنحاء العالم كلّها؟ وينبغي لنا أن نشدِّد على أنّ المسيحيّين يؤلّفون البشريّة جمعاء تقريبًا: وما يكون، بالمقارنة بهم، ذٰلك القطيع الصغير من عبّاد الأصنام الذين ظلّوا أمناء لضلالتهم القديمة؟ يجب ألّا نترك الوثنيّين في سيطرة تلك الفكرة المغلوطة القائلة بأنّ عبادة الآلهة شرعيّة لأنّها موجودة منذ القِدَم. أجل، لقد أُسلم العالم كلُّه إلى الأوثان إلى أن أتى يسوع وعلّم الحقيقة. إنّ ذٰلك لصحيح حتّى إنّ المسيحيّين أنفسهم مُلزَمون بأن يغسلوا أولادهم في أمواج العماد، وإلّا فلن يتخلَّصوا من النجاسة الأصليّة».

(رسالة دانيال أسقف وِنْشِسْتِر إلى بونيفاقيوس. راجع كورث، **القدّيس بونيفاقيوس**، باريس، ١٩٠٢ (بالفرنسيّة)).

الفصل التاسع

قوّة جديدة: الحركة الرهبانيّة

بقلم جان لُوكلِير[*]

من أغرب الأمور التي عرفها هٰذا العصر أنّ الرهبان، الذين يَنذرون الابتعاد عن العالم، كانوا في أصل قيام المجتمع الجديد الذي ظهر في هٰذا الزمن. فإنّ الأديرة، بتأثير من قوانين القدّيس بندكتس (مبارك)، نشأت في الغرب كلّه.

يومَ كانت السلطة القديمة التي مارستها الإمبراطوريّة الرومانيّة تنتهي من الانهيار في الغرب، برزت قوّة جديدة شيئًا فشيئًا، وما لبثت أن أحرزت نفوذًا أساسيًّا، ألا وهي الحركة الرهبانيَّة. ومن الغريب أنّها حركةُ أناس يريدون التخلّي عن ممارسة أيّ سلطة، حتّى على أنفسهم، فينذرون الخضوع لرئيسٍ في كلّ شيء. كان هناك رهبان، منذ القرن الرابع، في أكثر المناطق التي توطَّنت فيها الكنيسة: فقد وَجد القدّيس أوغسطينس بعضَهم في أفريقيا، فأصلح أوضاعهم بفرضه عليه قوانين ثابتة، وأقام القدّيس مَرتِينُس مجموعةً منهم في لِيغُوجِه (Ligugé)، بالقرب من پُواتِييه (Poitiers). لٰكنّهم ظهروا، في غاليا كما في إسبانيا ورومة وفي أماكن أخرى، بمظهر أناس هامشيّين لا يخلون من الشبهة. وها إنّهم أخذوا، في أثناء القرن السادس، يُلزمون أنفسهم بالقوانين وينظّمون أمورهم. فأصبحوا في كلّ مكان، في المدن والأرياف، يعملون ويستحقّون تقدير الناس جميعًا: فكان من واجب البابوات والأساقفة والملوك، لا أن يأخذوا فقط بعين الاعتبار حضورهم ونشاطهم، بل أن يستخدموهم.

فمن هٰذه الناحية، اختلف تطوّر الحركة الرهبانيّة في الغرب عمّا عُرف به في الشرق. كانت بُنى الإمبراطوريّة وثقافتها قائمةً في الشرق، ولا سيّما في اليونان، فكانوا هناك أقلَّ حاجةً إلى الرهبان لإنشاء بُنى وثقافة جديدة، وكانت الحركة الرهبانيّة مندرجة في المجتمع أيضًا، ولٰكنّها غالبًا ما كانت تعارض السياسة المدنيّة أو الكنسيّة، ولم يكن للرهبان فيه، بوجهٍ عامّ، دور راجح.

أمّا في الغرب، فكانت الحركة الرهبانيّة أكثر اندماجًا في أوساط السلطة الكنسيّة وفي الحياة الاجتماعيّة. وكان بعض أعضائها من الإكليرس، يعيشون تحت سقفٍ واحد ويخضعون لقوانين القدّيس أوغسطينس، وكانوا في أغلبيّتهم علمانيّين يقبلون أن يكون بينهم بعض الكهنة لخدمة سرّ الإفخارستيّا.

نفوذ غريب

كان الرهبان أناسًا انقطعوا عن المجتمع. لم يبتعدوا دائمًا عن المراكز السكنيّة، لٰكنّهم كانوا يسيرون سيرةً تختلف عن حياة سائر الناس العاديّة. وكانوا يلتزمون العزوبةَ بملء إرادتهم ويتخلّون عن امتلاك أيّ شيء

(*) Jean Leclerq، راهب في دير كلِرْڤُو Clervaux (بلجيكا).

بصفةٍ شخصيّة ويرفضون أن يبتّوا، هم أنفسهم، تحديد نشاطهم. وهٰؤلاء المنفصلون هم الذين غيّروا إلى حدٍّ بعيد، ذٰلك العالم الذي تركوه. ففي الحقل الثقافيّ، كان القدّيس بندكتس، الذي هرب من المدرسة، في أصل قيام نهضةٍ واسعة في مجال التعليم. وفي الحقل الاقتصاديّ أيضًا، كان تجرّدهم، من جرّاء نتائجه نفسها، سببَ نفوذهم. وتلك النتائج هي التي يحسن بنا أن نشير إليها، قبل التذكير بمراحل تاريخ الحركة الرهبانيّة، إن أردنا أن نُدرك كيف تمَّ إشعاعها.

إن القوانين التي وجَّهت إسهام هٰذا التاريخ في تطوّر الغرب تَظهر بمظهر سلسلةٍ من المفارقات. فمن جهة، وبحسب قوانين القدّيس بندكتس وغيره من المشرّعين، كان العمل واجبًا، لأنّه يقتضي بذلَ المجهود ويشكّل وسيلة للسيطرة على النفس والطاعة وكسب العيش. ولٰكن، لا بدّ من التوفيق بين العمل وساعات الفراغ اللازمة للانصراف، في سلام، إلى ممارسة شعائر العبادة وإلى التأمل، فيجب أن يكون العمل محدودًا، إذ إنه لا يتمتّع في حدّ ذاته، لا هو ولا النتيجة التي يأتي بها بقيمة مطْلَقة. والعمل الرهبانيّ هو عمل يخلو من المصلحة، لأنّه مبنيّ على الزهد في النفس. فلا يعمل الراهب ليُنتج، لأنّ النتيجة ليست غاية العمل بل ما يؤدّي إليه فقط، أو، بعبارة أدقّ، المكافأة عليه. فيعمل الراهب ليتقدّس، ويُزاد له الباقي. نحن أمام نظام اقتصاديّ لا يسعى إلى الإنتاج ولا إلى الاغتناء. وإذا فُرض على الراهب أن يبيع بأسعارٍ دون أسعار العلمانيّين، فلا يُراد بذٰلك مزاحمةً تكون غير مشروعة في نظام اقتصاديّ منظَّم كنظامنا، بل يُراد به الإشارة إلى أنّ الراهب لا يرى في العمل وسيلةً لكسب المال. ومن جهةٍ أُخرى، فإنّ النظام الاقتصاديّ الرهبانيّ هو نظام الاكتفاء الذاتيّ، لأنّه خاضع للحصن والاستقرار. ولٰكن، مع أنّ هٰذا المطلب يحدّ من ذٰلك النشاط، فهو يوفّر الخصب ويؤدّي إلى فوائد كبيرة، فإنّ قانون الحصن، بدل أن يجعل من النظام الاقتصاديّ نظامًا مغلقًا، يؤول إلى توسيع حقل الإنتاج وتوفير إمكانات تبادل واسعة.

وها إنّ الواقع يثبّت فعّاليّة تلك المعطيات المحيِّرة، فإنّه يمكّن من معايَنة مجموعةٍ من التباينات، بالنسبة إلى القوانين التي يبدو من شأنها أن توجِّه كلّ ازدهار اقتصاديّ - من تلك القوانين، أوّليّة الإنفاق: إنّ الحياة الرهبانيّة عيشة كثيرة الكلفة، لأنّها حياة مشاهدة وتأمّل - تقتضي صرف الوقت في القراءة والتعبّد والصلاة - وإحسان: فالرهبان يتصدَّقون، ولكي يتمكّنوا من ذٰلك، يعملون، وينظّمون عمل الذين يعيشون حول الدير، من دون إلزام أنفسهم بالنظام - فينتهي الأمر بالرهبان إلى إلحاق جماعتِهم بـ«عائلة»، بمجموعة من المستخدَمين، قد تصبح واسعة، وإلى توزيع المهامّ بين الرهبان وبينهم، وإلى تخصيص الوظائف، وبكلمة وجيزة، إلى التخطيط ووضع تنظيم تفتقر إليه بقيّة المجتمع.

ومن تلك القوانين أيضًا، الاقتناع بأنّ العطاء أفضل من الأخذ: فإنّ النظام الاقتصاديّ الرهبانيّ لا يفسح في المجال للتوفير إلّا بقدر ما هو ضروريّ لتحقيق حياة الصلاة والإحسان في الحاضر والمستقبل المباشَر. فلا تُكدَّس المؤَن الماليّة الكبيرة ولا تُخزَن السلع لإجراء العمليّات التجاريّة. عملٌ بلا أجرة للرهبان - وهم تخلَّوا عنها - وللمستخدمين أيضًا، فهم راضون أن يتقاسموا، مع الرهبان وعلى أراضيهم، أسباب عيشٍ تكفيهم. والعزلة نفسها تدعو إلى التعمير، إذ حولَ «حِصن الدير»، حيث يبقى الرهبان منفصلين، يعيش «مستخدمو الدير» وعائلاتهم في حَرَم الدير وهو واسع، ثمّ في البلدة التي تنشأ حول الدير، وأخيرًا في المزارع والأهراء والقرى التي تظهر على أراضيه. هٰذا وإنّ الحِصن نفسه هو في أصل نموّ النقليّات، فإنّ عدم تنقّل الجماعات الرهبانيّة يؤدّي إلى توفير وسائل الاتّصال بين هٰذه الجماعات، وبين كل جماعة وأراضيها. ومن هنا شبكةٌ واسعة من الطرق والجسور والقنوات، ومجموعة من المرافئ النهريّة والأسواق يتردّد إليها «تجّار الأديرة» الذين يؤمّنون تنقّل الموادّ بين مراكز الإنتاج والاستهلاك. وكان لا بدّ من وضع الشروط المادّيّة والقانونيّة لضمان هٰذه التبادلات، وكلّ ذٰلك في نظرة

روحيّة، إذ إنّ المعارض التي تنظّم هي في الوقت نفسه مناسَباتٌ للقيام بالنشاطات التجاريّة واللقاءات الاجتماعيّة وحفلاتِ الابتهاج والاحتفالات الدينيّة.

لا شك في أنّ هٰذا البرنامج الرائع لم يخلُ تحقيقه من أنواع التقصير. كان يلبّي رغبات المؤسّسين والمشترعين والمصلحين القدّيسين. ومع ذٰلك، لم يخلُ من تعريضِ الرهبان المكلّفين بتطبيقه للمخاطر.

بعد أن تخلّوا عن العالم، اكتسبوا سلطة عليه، أحيانًا ما كانوا معرَّضين للإفراط في استعمالها، لأنّ رغبتهم الشديدة كانت «التماس وجه الله» عن طريق اتّحادهم به بالصلاة وممارستهم الإحسان في حياتهم الجماعيّة. ولٰكنّهم كانوا أناسًا خاطئين، معرّضين لتجارب الكبرياء والأنانيّة والطموح. فتأثّر تاريخهم كلّه بالتأرجح بين مثالهم الأعلى وضعفهم.

ومن حسن الحظّ أنّ شخصيّات مسيحيّة قويّة خرجت من بينهم وذكَّرتهم بواجباتهم عند اقتضاء الحال. نجد أمثال أولٰئك القدّيسين في جميع مراكز الإشعاع الرهبانيّ الكبرى، وقد انتشر نفوذهم مدّةَ حياتهم، وإكرامُهم ونصوصُهم بعد موتهم، سالكةً خطّ الطرق الرومانيّة القديمة والطرق النهريّة، وعابرةً البحار ومختلطةً بعضها ببعض. بين أيدينا نحو عشرين مجموعة قوانين وضعها رجال الله، منذ نهاية القرن الخامس حتّى حوالى منتصف القرن السابع. وهناك شخصان يمثّلان ذٰلك التاريخ المتشعّب إلى حدّ بعيد: القدّيس بندكتس والقدّيس كولومْبان.

القدّيس بندكتس النُّرسيّ (de Nursie)

نعرف حياة القدّيس بندكتس من مؤلَّفٍ رائع وضعه كاتبٌ موهوب، كان في الوقت نفسه، لاهوتيًّا متبحّرًا، هو القدّيس غريغوريوس الكبير (بابا من ٥٩٠ إلى ٦٠٤). إنّ كتابه **الحوارات** هو مجموعة روايات قصيرة تتّسم، إلى حدٍّ قريب أو بعيد، بطابع الأسطورة، وتظهر بمظهر «الزهَيرات» (fioretti) والذكريات الظريفة أو الأمثال ذات المغزى الأدبيّ، أي إنّ ما توردِه ليس له كلّه قيمة تاريخيّة أكيدة. فبحسب ما ورد في الكتاب الثاني، المخصَّص للقدّيس بندكتس، أنّه وُلد في إقليم نُرْسي (Nursie)، القريب من رومة، في حوالى ٤٨٠. صدمته أخلاق رفاقه في المدرسة برومة، فلجأ، بعد عدّة حوادث، إلى مغارة منعزلة تقع بالقرب من أحد الأديرة، في سُوبياكُو. وبعد أن تغلّب بحزم على الرغبة في العودة إلى العالم، وسيطر على نفسه، أصبح قادرًا على أن يكون مرشدًا روحيًّا، فأنشأ هناك اثنَي عشر ديرًا صغيرًا أشرف عليها وأدار شؤونها. لٰكنّ إشعاعه أثار حسد الكاهن المكلَّف بالقرية المجاورة. فانطلق، في سبيل السلام، إلى مقاطعة كَمْپانيا، وهناك، في منتصف الطريق بين رومة ونابولي، أنشأ ديرًا جديدًا، دير جبل كَسِّينُو، حيث توفّي في ٥٤٧ أو بعد ذٰلك بقليل. ومن آخِر مشاهد حياته، التي رواها القدّيس غريغوريوس، مشهد طعام الصداقة الذي تناوله مع شقيقته التي تُدعى شكولَسْتِيك (Scolastique). شعرت الأخت بأنّ هٰذا اللقاء هو الأخير، فطلبت إليه أن يواصل الحديث في الأمسية، فرفض متذرّعًا بالقوانين. لٰكنها صلّت ونالت من الله أن يُنزل عاصفة أرغمت بندكتس على البقاء معها. المغزى «أنّها فاقت أخاها قدرةً لأنّها فاقته حبًّا». فلا يستطيع حفظُ القوانين أبدًا أن يحلّ محلَّ ممارسة الحرّيّة الروحيّة، شرط أن تتأصّل في محبّة الله.

القوانين البندكتيّة

تتّسم قوانين القدّيس بندكتس كلّها بطابع التوازن بين النظام والعفويّة المشروعة. استوحى واضعُها من نصٍّ سابق كان طويلًا ودقيقًا يسمّى **قوانين المعلّم**. لٰكنّ بندكتس بسّطه، لأنّه كان يعرف ما هو في إمكان الإنسان، ولم يَنْسَ أنّ رهبانًا في منطقة سوبياكو حاولوا أن يسمّموه. وفي الوقت نفسه، حافظ على ثقةٍ مدهشة

بما تُخفيه الطبيعة من حِيَل السخاء وما تُنميه النعمة. كانت على لسانه هٰذه العبارة الرائعة: «يجب أن يرغب الشُجْعان في القيام بالمزيد وأن لا يفقد الضعفاء شجاعتهم». ولم يكن يعرض مثالًا أعلى بقدر ما كان يعرض برنامجًا عمليًّا، في متناول ذوي الفضيلة المتوسّطة، مشدِّدًا على طهارة القلب والتواضع والاهتمام بالله، وواضعًا بدقّةٍ قواعد صلاة الفرض الإلٰهيّ. وفي ما يتعلّق بالسلطة، كان أكثر تشدُّدًا على الذين يمارسونها – الرئيس ومندوبيه – منه على الذين يطيعونهم، فيذكّر الرئيسَ «بأنّه ليس حرًّا في استخدام سلطته» وبأنه لا يمتلك «أي تسلّط»، ويفرض عليه أن يستشير الإخوة، بمن فيهم الفتيان. ويعترف للرهبان بحقّهم في تقديم الاعتراضات، أي في الحوار كما نقول اليوم. ويوصي باهتمام خاصّ بجميع أنواع الضعفاء – مِن مرضى وأولاد وشيوخ – وبالضيوف والمسافرين النازلين الذين «لا يخلو الدير منهم أبدًا».

وحين يتحدَّث عن كمّيّة الأكل والشرب، أو عن العمل، أو حين يفرض أعمال تكفيرٍ وعقوبات، يبرهن عن اعتدال يهدف إلى تهذيب الضمائر وتثقيف التمييز الشخصيّ، أكثر منه إلى تحطيم الإرادة. وبكلمة وجيزة، نشعر بأنّه يعمل ذٰلك بدافع من حسٍّ إنجيلي وبوحي من محبّة يمكّنانه من المحافظة على توازنٍ رائع بين العزلة والحياة الجماعيّة، والصلاة والعمل، والصلاة العقليّة الصامتة والفرض الطقسيّ، والطاعة والحرّيّة الباطنيّة، والتقشّف والتكيّف مع إمكانات كلّ واحد.

وكان من شأن هٰذا النصّ الإنسانيّ جدًّا، لأنّه مسيحيّ إلى حدّ بعيد، أن يلقى تفضيلًا على العديد من غيره. وفي الواقع، تبنّته، اعتبارًا من القرن السابع، أديرة في إيطاليا وغاليا وإنكلترة، ونراه أحيانًا مؤتلفًا مع نصّ قوانين أُخرى، صدر هو أيضًا عن حركةٍ رهبانيّة واسعة أُخرى، أي نصّ القدّيس كولومبان.

وثيقة

كيف تتمّ استشارة الإخوة

«كلّما وجب البحث في قضيّةٍ مهمَّة تطرأ في الدير، يقوم الرئيس بدعوة الجماعة كلّها ويعرض عليها المسألة. ثمّ يجمع آراء الإخوة وينظر فيها وحده بروِيّة، ويعمل بعد ذٰلك بحسب ما يراه الأنسب. والسبب الذي يحملنا على الأمر بأن تُدعى جميع الإخوة إلى التداول هو أنّ الله غالبًا ما يُلهم الأصغر سنًّا أفضل الاقتراحات. ومع ذٰلك، فلْيُدلِ الإخوة برأيهم بكلّ تواضع وخضوع، بعيدًا عن الانقياد للدفاع عن رأيهم بلا اعتدال، فإنّ القرار يعود في الحقيقة إلى حكم الرئيس، وعلى الجميع أن يتّخذوا الموقف الذي يراه الأنسب. ولٰكنّه يليق بالتلاميذ أن يطيعوا المعلّم، إلّا أنّه يحسن به أن يأمر، في كل شيء، بتبصُّر وعدالة.

(قوانين القدّيس بندكتس، الفصل ٣)

واجبات رئيس الدير

«... لا يجوز لرئيس الدير أن يحابي الوجوه في الدير. ولا يجوز أن يكون الواحدُ محبوبًا أكثر من الآخر، إلّا مَن رأى الرئيسُ أنّه أكثر تقدّمًا في الأعمال الصالحة وفي الطاعة. ولا يجوز أن يفضِّل الإنسان الحرّ على الآتي من وضع العبيد، ما لم يكن هناك سبب معقول...

على رئيس الدير أن يتّبع في تعاليمه الصيغةَ التي أوصى بها بولس الرسول في قوله: «وَبِّخ وعِظْ وأنذر». فعليه أن ينوِّع طريقة تصرّفه باختلاف الأوقات والظروف، مضيفًا الملاطفة إلى التهديد، مُظهرًا تارةً قساوة المعلّم وتارةً حنان الأب. وعليه أيضًا أن يكون أكثر شدّةً في توبيخ الخارجين على النظام والوَرِشين، في حين يكفي حثّ الطائعين والودعاء والصابرين على إحراز تقدّم جديد. أمّا المهمِلون أو المزدرون، فإنّنا ننذره بتوبيخهم أو بإصلاحهم... وعليه أن يعتبر ما أصعب وأشقّ المهمّات التي عُهد بها إليه في إرشاد النفوس وفي التكيُّف مع ما يقتضيه اختلاف الطباع. فمنهم من يحتاج إلى الإرشاد بالملاطفة، ومنهم بالتوبيخ، ومنهم بالإقناع. فعليه إذًا أن يتكيَّف مع ميل كلّ واحد وذكائه...»

(قوانين القدّيس بندكتس، الفصل ٣)

القدّيس باتريك والرهبان القِلطيّون

لم تعرف إيرلندا الاحتلالَ الرومانيّ وإداراته وحضارته. وكانت إلى ذٰلك الوقت مجتمعًا ريفيًّا محضًا، لا مدنَ فيه حتّى ولا قرى، بل يحتوي على مزارع فقط تعيش في كلٍّ منها عشيرة، أي أسرة واسعة. وكان هٰؤلاء السكّان، جميعهم تقريبًا، وثنيّين، بينهم بعض المسيحيّين، ولٰكن بدون كنيسة منظّمة، إلى أن وصل، في أحد الأيّام، مرسَل هو القدّيس باتريك. وكان، على ما يبدو، من بريطانيا العظمى، فأُلقي القبض عليه في أثناء غزوة إيرلنديّة خاطفة في ذٰلك البلد، واستُعبِد في إيرلندا مدّة ستّ سنوات، ثمّ فرَّ وسافر إلى غاليا وأقام في أُوكْسِير، عند أسقفٍ هو القدّيس جرمانس، كان يعيش محاطًا بإكليرس يعيش عيشةً رهبانيّة. فدُرِّب باتريك على التقليد الرهبانيّ المرعيّ في عدّة مناطق في غاليا، والمَدينِ للتراث الآتي من مصر وسورية. وبعد أن عاد إلى بريطانيا العظمى، أرسل إلى إيرلندا التي يعرفها، ليُعلن فيها البشارة. وطوال نحو ثلاثين سنة، أي من ٤٣٢ إلى ٤٦١، تنقَّل فيها، غارسًا الكنيسة في كلّ مكان، ومنشئًا الجماعات، ومقيمًا الأساقفة على رأس أهمّها. لٰكنَّ باتريك وخلفاءه لم يزالوا متأثّرين بطابعٍ رهبانيّ قويّ، فأصبحت الكنيسة الإيرلنديّة، قبل منتصف القرن الخامس، كنيسةً رهبانيّة. فكانت عائلات في كلّيّتها، عند اعتناق المسيحيّة، تتحوّل إلى أنواع من القرى الأديرة، تتنوّع فيها الأنماط الحياتيّة باختلاف الأشخاص والمجموعات، وتميل ميلًا بارزًا إلى أعمال التوبة والصلاة. وكان أولٰئك الناس، الذين لا يزالون بدائيّين وفرديّين لا يتردّدون أمام النزوات الغريزيّة العنيفة، يتمتّعون بجَلَد طبيعي شديد، فحين اهتدوا إلى الدين المسيحيّ، كانوا يأخذون العهد الجديد على حرفيّته ويبرهنون عن سخاء لا حدّ له.

وخلافًا للنظام الرهبانيّ الأوروبّيّ، المتأثّر بالاعتدال والاستقرار، كثيرًا ما كان نظام البلدان الكلتيّة يقع في الإفراط. ولٰكن يكفينا أن نرى، حيثما لا تزال، تلك «القلالي»، لكي نفهم أنهم عرفوا أن ينشئوا نظامًا رهبانيًّا ينسجم مع الطبيعة التي وهَبهم الله إيّاها.

التنظيم الإيرلنديّ

كانت بنية المجتمع الديني على النموذج الرهبانيّ، وكانت تحتفظ ببعض العناصر التي أخذتها عن الوثنيّة السابقة وتنصُّرُها. وشيئًا فشيئًا، أصبح رؤساء الأديرة أرفع شأنًا من الأساقفة. وكان لوظيفة رئيس الدير جاه عظيم، حتّى إنّهم كانوا ينعتون البابا بــ«رئيس دير رومة»، والشيطان بــ«رئيس دير جهنّم». وفي ذروة

النظام التراتبيّ، غالبًا ما نجد رئيس دير، أو رئيسة دير، يخضع له أو لها الأسقف ومعلّمو الاعتراف وأساتذة المدارس. وقد نما نشاطان لازَما الحياةَ الرهبانية. النشاط الأوّل هو الاعتراف، المستوحى من كشف الضمير التقليديّ لمرشدٍ روحيّ، الذي أصبح اعترافًا بالخطايا المرتكَبة، وكان اعترافًا متواترًا، لا بل يوميًّا، في الأديرة على الأقلّ، إذ كان واجبًا في بعض الأحيان، قبل التقدّم من سرّ الإفخارستيّا. وكانت «الأعمال التكفيريّة» المفروضة عن الخطايا موضوع أحكامٍ دقيقة، لا بل موضوع أنواعِ تعرفة، نشأ عنها إنتاج هو إنتاج «كُتُب التكفير». وكانَ على كلّ واحد أن يكون له معلّم اعتراف، يُدعى «صديق النفس». وكان هناك مَثَلٌ يقول إنّ الإنسان الذي ليس له معلّم اعتراف هو كالجسد بلا رأس. وكان هناك مَثَلٌ آخر يضيف: «كما يُكنس البيت كلَّ يوم، يجب أيضًا أن تُنظَّف النفس كلّ يوم بالاعتراف». وقد أسهم ذٰلك إلى حدّ بعيد في تأنيس أولٰئك الناس الخشان وتمكينهم من الشعور بالحياة الباطنيّة. أمَّا المطلب الآخر لكلّ حياة رهبانيّة منظّمة، في الغرب - وهو مطلب يلبّى في إيرلندا أيضًا -، فهو إنشاء مدارس يُنَشَّأ فيها رهبان المستقبل. فكانت هٰذه المدارس في أصل قيام ثقافةٍ واسعة، إذ كانوا ينسخون فيها النصوص، ويفسّرون الكتاب المقدّس، ويؤلّفون الصلوات، ويزخرفون المخطوطات، ويحفرون الصلبان وينقشون مختلف أنواع الأشياء المقدَّسة. وإلى جانب الفنّ، ازدهر الشعر، في أبيات لاتينيّة أو كلتيّة، جُمّلت فيها الحيوانات والأزهار والأشجار والبحر، وجميع عناصر طبيعةٍ عارية من الزينة. وازداد عدد بعض الجماعات، حتّى إن أحداها ضمّت، على ما قيل، ألفي عضو. لٰكنّ هٰذا الزخم لم يَخلُ من أنواع التقصير، ولا سيّما من التنافس بين الأديرة، إذ كان كلّ دير يدعو إلى قدّيسيه وإلى الإكرام - الذي لا يخلو دائمًا من المصلحة - المؤدّى إلى ذخائرهم. فكانوا يروون أنّه اختلف ذات يوم القدّيسان بطرس وپاتريك حول قبول أحد الإيرلنديّين في الفردوس، فضرب القدّيس بطرس ضربة قويّة بمفاتيحه رأسَ القدّيس پاتريك، لٰكنّ پاتريك طالب، على سبيل التعويض، بأن ينظّم جمعَ صَدَقات!... وكانوا يقولون أيضًا إنّ المسيحيّين الإيرلنديّين، عند الدينونة الأخيرة، لن يدانوا إلّا عن يد قدّيسين إيرلنديّين، لا بل كلّ واحد عن يد قدّيسي عشيرته.

إنّ تلك الانطلاقة الرهبانيّة، بكنوزها الثقافيّة والروحيّة، وبالرغم من أنواع التقصير التي تلازم كلّ ما هو بشريّ، دامت حتّى حوالى ٦٣٠. وعندئذٍ، بدأ انحطاطٌ ازداد تفاقمًا في القرن الثامن بسبب غزوات الڤيكنغ (Vikings). فتعلمن المجتمع وفقَد طابعه المسيحيّ المحض المتأثّر بالنظام الرهبانيّ. لٰكنّ تجدُّدًا طرأ على الأوضاع، وأحدث، إذا صحّ القول، موجةً جديدة من الرهبان كانوا، في هٰذه المرّة، متوحّدين بوجه خاصّ، وهم أولٰئك النسّاك الذين دُعوا «خدّام الله». ولقد ألَّف بعضهم قصائد ظريفة، أشركوا فيها جميع الخلائق في تسبيح الخالق.

«التجوُّل في سبيل المسيح»

من أشهر ممارسات الحركة الرهبانيّة الإيرلنديّة «التجوّل في سبيل المسيح»، أي الاغتراب الاختياريّ. ففي مجتمع كانت فيه روابط القرابة وثيقةً جدًّا، كان أشدُّهم سخاءً يفضّلون الانفصال التامّ عن عائلتهم، بالابتعاد عن العشيرة، وحتّى عن البلد. فقد اجتاز العديد منهم إلى بريطانيا العظمى وحتّى إلى أوروبّا، إبتداءً بشواطئ بريطانيا، للعيش فيها كنسّاك متنقّلين، وللرضى بمخاطر بلدان لا تحميهم فيها الشرائع ولا يعرفون لغتها - وكانوا يرتدون قميصًا أبيض سميكًا ويقصّون شعرهم بالعرض من أذن إلى أذن، على طريقة الكهنة الغاليّين، ويرسلون شعرهم الطويل على ظهرهم، ويحملون خُرجًا يضعون فيه أحيانًا كتاب مزامير صغير الحجم. وكان الناس يرونهم يجوبون أوروبّا، منفردين أو في مجموعات، في صحبة رفاق

أتوا معهم أو اختاروهم في الطريق. وكانوا يتسوَّلون ويصلّون ويتقشّفون على الطرقات. لم ينطلقوا، بوجهٍ عامّ، لإعلان البشارة، بل كانوا يؤدّون الشهادة بقدوتهم، وإذا استطاعوا أن يعبّروا عن أفكارهم بلغة البلد، فبكلامهم. وقد انتهى الأمر بالعديد منهم إلى الاستقرار، فكان هناك نوع من الغزو الإيرلندي أدّى إلى تأسيس عدد كبير من أديرة الرهبان والراهبات...

وفي ٥٤٧، قام أحد الرهبان وعبر البحر وقدم إلى غاليا. وكان اسمه كولومبان. وابتدأ بالتجوّل، على مثال الكثير من الآخرين، ثمّ استقرَّ في لوكْسوي (Luxeuil) في جبال الڤوج (Voges)، حيث أنشأ ديرًا بالقرب من مركز مياهٍ حارّة قديم متروك. وليست هٰذه الحالةَ الحالةَ الوحيدة التي أنشأ فيها رهبان مستشفياتٍ بالقرب من ينابيع تفيد ماؤها... وبعد ذٰلك واصل كولومبان سيره في اتّجاه نانْتْ (Nantes)، ثمّ عَبَرَ سويسرا، حيث أنشأ أحدَ تلاميذه، القدّيس غال (Gall)، ديرًا في المدينة التي ما زالت تحمل اسمه. وجاء أخيرًا، في حوالَي ٥٩٠، إلى إيطاليا الشماليّة، بالقرب من جَنَوى حيث توفّي. وكرَّمه الناس على أنّه قدّيس. وروى سيرَتَه وسيرةَ بعض رفاقه أحدُ تلاميذه ويُدعى يُونان. لا شكّ في أنّ هٰذه الرواية تعطي عنه صورةً مثاليّة، لٰكنّها مليئة بالفائدة والظرف. وقد وضع كولومبان **قوانين للرهبان** و**قوانين جماعيّة**، هي عبارة عن قانون عقوبات أو كتاب تكفير. ولم تَخلُ هٰذه النصوص من الجودة والاعتدال، فتبنّاها الرهبان في كثيرٍ من الأماكن، ثم حلَّت محلّها شيئًا فشيئًا **قوانينُ القدّيس بندكتس**.

الرهبان الأنكلوسَكْسُونيّون والانطلاقة الإرساليّة

وفي الممالك البربريّة التي عرفها القرن السابع والقرن الثامن، تكاثرت الأديرة. وأصبح بعضها مراكز ناشطة للحياة الدينيّة والثقافيّة والاقتصاديّة. وكان العديد من الجماعات لا يضمّ إلّا عددًا متواضعًا من الرهبان، لٰكنّ جماعات أخرى كانت كبيرة، تعادل المدن...

لا شكّ في أنّ الورع والازدهار لم يكونا ثابتَين في كلّ مكان. لٰكنّ الأديرة بقيت، على وجهٍ عامّ، مراكز مشعَّة. وفي الكثير من الحالات، كان اختيار الأساقفة يتمّ من بين أعضائها. ولم يكن تأثيرها في حياة الكنيسة كبيرًا فحسب، بل كان مقبولًا بلا نزاع. أمّا الدور الذي قامت به في تلك الحقبة الزمنيّة، فقد يمكن تجسيده في الحركة الرهبانيّة الأنكلوسكسونيّة، التي نمت في مناطق بريطانيا العظمى التي اجتاحها السَكْسُونيّون.

ففي ٥٩٦، أرسل غريغوريوس الكبير إلى إنكلترا مجموعة صغيرة من الرهبان الرومانيّين، وعلى رأسهم أوغسطينس، فأقاموا في كَنْتُرْبِري. ليس من الثابت أنّ البابا كان ينوي تبشير البلد، حيث كان بعض المسيحيّين. بل كان يرغب أن يغرس فيه الحياة الرهبانيّة كما كان يتصوّرها، فإنّ نسّاكًا وجماعاتٍ ومرسلين سبق أن أتوا من إيرلندا وإسكتلندا. ويبدو أنّ إشعاع الرهبان الرومانيّين كان، مدّة خمسين سنة، محدودًا جدًّا. ثمّ، وفي حوالى منتصف القرن السابع، ولا سيّما ما بين ٦٥٥ و٦٧٠، كثر عدد الأديرة، وكانت مزدوجةً أحيانًا، وكانت الأُسَر الملكيّة تؤسّسها وتحميها... وفي ٦٦٨، نرى راهبًا يونانيًّا، يدعى ثيودورس، يصبح رئيس أساقفة كنتربري، وبعد ذٰلك بقليل، دخلت إنكلترا **قوانينُ القدّيس بندكتس**. وازدهرت الثقافة في كلّ مكان وبجميع الوجوه – من الزراعة إلى الأدب والفنّ – في الأديرة الكبيرة. وبلغت المؤلَّفات ذاتُ الطابع التاريخيّ في ذٰلك البلد نوعيّة لم تُعادَل في غيره من البلدان.

وأفضل مثال لنشاط الرهبان هٰذا وخصبه نجده في ما سُمّي «معجزة بِيدُس (Bède)»: ذٰلك بأنّ راهبًا بسيطًا رُسم كاهنًا، بعد اهتداء سكّان الشمال بجيلَين أو ثلاثة، استطاع أن يستوعب كلّ ما كانوا يعرفونه في الغرب على أيّامه، من كتابٍ مقدّس وعلمِ لاهوت وعلومٍ زمنيّة، وأن يعرضه في لغةٍ لاتينيّة ما زلنا حتّى اليومَ نُعجب

بوضوحها وجمالها وظرفها. وقد ترك لنا **تاريخ كنيسة إنكلترا** الذي ما زال أثرًا رائعًا نظرًا إلى معلوماته وقيمة أحكامه. إنّ بِيدُس، الذي كان حفيد وثنيّين أمّيّين، والذي استحقّ أن يُنعت بـ«المكرَّم»، قضى حياته الطويلة الهادئة في الصلاة والمطالعة والعمل فقط.

وقبل أن يموت في ٧٣٥، ترك وصيّة صرّح فيها ببساطة: «اجتهدت في درس الكتاب المقدَّس. وفي وسط المواظبة على الحياة النظاميّة، والاهتمام اليوميّ بترنيم فرض الكنيسة، لم أنقطع يومًا عن الاستمتاع بالدرس والتأليف والتعليم».

حياة القدّيس بُونيفاقِيُوس

اختلفت تمامًا حياة راهب أنكلوسكسونيّ آخَر من الجيل التابع، وهو ڤِنْفْريد (Winfrid) الذي أطلق عليه اسم يعني «صانع الخير»، بونيفاقيوس. قضى أوّلًا عشرين سنة في أحد الأديرة. ثمّ شعر، ربّما بتأثيرٍ من مثال التجوّل الإيرلنديّ، أنّه مدعوّ إلى مغادرة وطنه، ولٰكن بالعزم على أن يكون مبشّرًا. ولمّا خرج من أوساط إنكلترا المسيحيّة والرهبانيّة التي كانت فيها الروابط مع رومة أوثق ممّا كانت في إيرلندا، فإنّه أقام طوال حياته علاقات مع البابويّة. وفي ٧١٦، جاء إلى مقاطعة فريزا (Frise) وعمل فيها من دون نجاح مدّة سنتَين، ثمّ ذهب إلى رومة، حيث أعاده غريغوريوس الثاني إلى المقاطعة السابقة. وتعاون هناك مع راهبٍ أنكلوسكسونيّ آخر، هو ڤِلِّيبرُورد (Willibrord). وفي ٧٢٢، عاد إلى رومة، حيث رسمه البابا أسقفًا، وأطلق عليه اسم بونيفاقيوس وكلّفه بتنظيم الكنيسة في جرمانيا.

وفي ٧٤١، عهد إليه البابا زكريّا في إصلاح كنيسة الإفرنج كلّها. فأنشأ الأبرشيّات، مدّةَ أكثر من ثلاثين سنة، وأقام فيها الأساقفة، وترأّس سينودسهم الأوّل في ٧٤٣، وكلَّف بعض رجال الإكليرس بالعمل الرعويّ. وفي الوقت نفسه، أسَّس جماعات رهبان وراهبات. وأرسل رسائل دعوة إلى إنكلترا، فأتى منها رهبان وراهبات فلحقوا به وأنعشوا الأديرة وعلّموا في مدارسها. فنظَّم نوعًا من المستوطنات المسيحيّة كانت أهمّها تلك الأديرة التي يقضون فيها حياةَ عزلة وصلاة، لا بل وعملٍ أيضًا في جميع المجالات. ولقد قام العديد من النساء، في أديرتهنّ في إنكلترا وجرمانيا، بمساعدة بونيفاقيوس ومعاونيه... ولمّا توفّي مقتولًا عن يد بعض الوثنيّين في ٧٥٤، كان قد استحقّ لقب «رسول جرمانيا»، ومهَّد السبيل للعمل الذي ازدهر في الحقبة التاريخيّة التابعة.

الفصل العاشر

تطوّر الحركة الرهبانيّة

بقلم جان لُوكلير(*)

إنّ ما وصلت إليه الحركة الرهبانيّة من ثروات ضخمة ونفوذ سياسيّ عرَّضها للخطر، فقامت هي نفسها بإصلاح أوضاعها. فحاول دير كلُوني (Cluny) أولًا، ثمّ دير سِيتُو (Citeaux) كردّة فعل على «هيمنة كلُوني»، وأخيرًا بعض «النسّاك»، أن يجدّدوا المثال الأعلى الرهبانيّ.

في ٧٦٨، افتتح شارلمان عهدًا دام ستًّا وأربعين سنة وتُوِّج في أثنائه، سنة ٨٠٠، إمبراطورًا. وحين توفّي في ٨١٤، كان قد استخدم الحركة الرهبانيّة إلى حدّ بعيد وحاول أن يضع لها تنظيمًا جديدًا. واجتهد أحدُ أبنائه، لويس الوَرِع (+ ٨٤٠)، في أن يُنجح العمل الذي أقدم عليه أبوه، مستعينًا بالقدّيس بندكتس الأَنْيانيّ، الذي أسّس عدّة أديرة وأصلحها، منذ ٧٨٢. لٰكنّ جهودهما لم تؤدِّ إلّا إلى نجاحٍ جزئيّ وموقَّت. ومع ذٰلك فإنه أثّر تأثيرًا عميقًا في تلك المؤسّسة.

وتوالى إنشاء الأديرة كافّة، بغضّ النظر عن أديرة إيطاليا. وكانت متنوّعة: في المدن جماعات تقوم بالعبادة والعمل الرعويّ في معبد كبير، وفي الأرياف أديرة، وفي المناطق الحدوديّة بيوت متواضعة غالبًا ما أنشئت بفضل كرم الأشراف المحلّيّين. لٰكنّ الحاجة كانت ماسّة إلى تجديد في ذٰلك العالم الرهبانيّ الواسع. ذٰلك بأنّ التقصير قد تسرَّب إلى المواظبة على حفظ القوانين في العديد من الأديرة. واختلف بعضها عن بعض إلى أقصى حدّ، لعدم وجود تنظيم مشترك. وكثيرًا ما كانوا يعيشون في نظام «القوانين المختلطة»، مقتبسين بعض العناصر من قوانين القدّيس أوغسطينس والقدّيس كولومْبان والقدّيس بندكتس وغيرهم. وفي العديد من الأماكن، لم يعودوا يميّزون بين الرهبان الذين كانوا علمانيّين عادةً، والإكليريكيّين الذين يعيشون في جماعاتِ كهنةٍ قانونيّين.

التجديد الكارولينيّ

أراد القدّيس بندكتس الأَنْيانيّ أن ينظّم الأمور، فانصرف إلى أبحاثٍ علميّة في جميع القوانين المعروفة، ونشر مؤلَّفين جمعها فيهما وقارن بينها.

وأصدر شارلمان، من جهته، هو نفسه أو عن طريق السينودسات، قرارات تهدف إلى رفع مستوى الدروس. وفرض على الأديرة الاهتمام بإحدى المدارس. وفي مجال التربية هٰذا، استعان براهب إنكليزيّ يُدعى ألْكُوِين (Alcuin)، أصبح، في ٧٩٦، رئيس دير القدّيس مرتينُس في تُور. وكان العاهل يستخبر عن حاجات كلٍّ من أراضيه، فيستخدم الأديرة لمصلحته... وكان يحاول أن يُدخل في كلّ مكان ليترجيا موحَّدة، مستوحاةٍ مباشرةً من ليترجيا رومة. لٰكنّه كان يهتمّ بالتمييز بين الوظائف: ففي بلدان الإرساليّة، كان يحصر دور الرهبان في العمل الأوّل والأصعب، ولا يلبث أن يُحلّ محلّهم سلطة كنسيّة محلّيّة ورجال إكليرس أبرشيّين. فكان الرهبان يبقون في

(*) Jean Leclercq.

نهج دعوتهم إلى الصلاة والعمل المتواضع، وفي التأهّب للقيام بالمهامّ الشاقّة التي لا يرغب فيها أحد. وعُقدت مجامع في ٨١٦-٨١٧ وُضع فيها تشريعٌ رهبانيّ تبيّن أنّ تطبيقه شاقّ. ولٰكن، على المستوى الثقافيّ والروحيّ، تمّ تجديدٌ حقيقيّ: فقد مكّنت العودة إلى اللغة اللاتينيّة من ظهور إنتاج أدبيّ مكثّف، وألّف بعضُ اللاهوتيّين، في كرامة الإنسان وعلاقاته بالله، وفي الصلاة والأسرار وغيرها من الموضوعات، نصوصًا عقائديّة لا تخلو أحيانًا من الابتكار...

الانحطاط

في أكثر من مكان، كان ثمنُ كَرَم الأشراف وضعَ يدهم على الأديرة التي أسّسوها. فكانوا، بوجهٍ خاصّ، يعيّنون لها رؤساء أشدَّ اهتمامًا بالسعي إلى مصالحهم منهم بخير الجماعات الروحيّ. وحاول شارلمان أن يضع حدًّا لهٰذا الأمر، فقسم عقارات كلٍّ من البيوت إلى قسمين، لا يخضع أحدهما لرؤساء الأديرة العلمانيّين ويؤمّن حاجات الرهبان. وأقرَّ بحقّ بعض البيوت في انتخاب رئيسها. ومنح العديد منها امتيازات تجعلها «أديرةً إمبراطوريّةً»، تتمتّع بحمايته. وبعد موته، وبسبب انقسام إمبراطوريّته وسرعة زوال البنى الإداريّة التي حاول أن يفرضها، عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه، لا بل تفاقمت بانتشار الفوضى في كلّ مكان، فظلّت السلطة الملكيّة إلى مزيدٍ من التدهور، وربحت سلطة البابا شيئًا فشيئًا ما خسرته سلطةُ الإمبراطور...

زِدْ على المشاغب الناتجة من الفوضى الدمارَ الذي سبّبته غزوات النورمنديّين الذين اجتاحوا فرنسا حتّى نهر اللُّوار وما بعده، والمجر الذين دخلوا إيطاليا، وغارات المسلمين الغربيّين على جنوب إيطاليا وفرنسا. وفي المناطق الإسبانيّة التي احتلّها المسلمون، استطاعت بعض الأديرة أن تبقى. ولٰكنّ النظام الرهبانيّ، في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر، عاد فانحطَّ في غير مكان كمؤسّسة، وفي بعض البلدان، كإنكلترا، كاد أن يزول. فكانت السلطات العلمانيّة تواصل التصرّف بأموال الأديرة، وغالبًا لمصلحة المُقطَعين الذين يؤمّنون مصالحهم فيكافَأون. وكانوا يعيّنون في منصب رئيس دير إكليريكيّين كثيرًا ما كانوا غير أهل لذٰلك، لا بل علمانيّين في بعض الأحيان. ولمّا كانت الجماعات بلا موارد، كان أعضاؤها يبحثون عن بديلٍ لها كأفراد. فكان لهم مالٌ خاصّ يتصرّفون به، فيعيشون خارج الدير، مع امرأة لهم وأولاد. ولكي يكونوا على حقّ في الظاهر، كانوا يعتبرون أنفسهم، لا رهبانًا، بل كهنة قانونيّين، ويعيشون بلا قوانين.

الإصلاحات العفويّة

عندئذٍ ظهرت سلسلةٌ من الإصلاحات توالت طوال القرن العاشر. وكانت تمتاز، على وجهٍ عامّ، بعفويّتها. ولم تصدر المبادرة عن البابويّة، لأنّها هي أيضًا عرفت فتراتِ انحطاطٍ تامّ، بل، وبحسب اختلاف الحالات، عن رؤساء أديرة ومجموعاتِ رهبان أو عن علمانيّين رغبوا في اعتناق الحياة الرهبانيّة أو كانت لهم علاقات صداقة مع أحد الأديرة أو أحد رؤسائها. وهٰذه النزعة الإصلاحيّة كلّها كانت تنمّ على حاجةٍ إلى التحوّل الروحيّ، وهو ملازم للحركة الرهبانيّة، إذ إنّها، في حدّ ذاتها، مؤسّسة تُصلح الأشخاص وتدفعهم عادةً إلى إصلاح الجماعات التي يؤلّفونها وإصلاح كلّ المجتمع الذي تندرج فيه.

وأوّل تلك الإصلاحات هو إصلاح دير كلُوني، وهو ديرٌ أنشأه في بُرْغُونيَة، سنة ٩٠٩، الدوق غليوم الورع. وقد أمّن «حرّيّته» بهبته إيّاه للقدّيس بطرس والبابوات. وأراد أن يضمن وحدة المواظبة على القوانين، فجعل لجميع الفروع رئيسًا واحدًا في شخص رئيس ديرِ كلوني: هٰكذا نشأت أوّل جمعيّة رهبانيّة عرفتها

الكنيسة. وفي رعاية ستة رؤساء كانوا قدّيسين وكانت رئاسة بعضهم طويلةً جدًّا، امتدَّ نفوذ دير كلوني إلى مئات البيوت، وقال بعضهم إلى نحو ألفين وتحدَّث عن «إمبراطوريّة كلوني». وكانت هناك مراكز إصلاح أُخرى في فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وإسبانيا.

وقامت الحركة الرهبانيّة بدورٍ ملحوظ في إصلاح البابويّة، وقد أصبح بعض الرهبان بابوات، وقام أحدهم، وهو غريغوريوس السابع، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، باستخدام السلطة الحبريّة لتثبيت تجديدٍ بدأ بدون تدخُّلها.

دير سِيتُو والجمعيّات الرهبانيّة الجديدة

إنّ جميع تلك الإصلاحات، بالرغم من الإفراط في استخدام النفوذ أو ممارسة التنافس، وَضعت، بوجه



القدّيس برنردس

الإجمال، حدًّا للانحطاط، حتّى إنّها أدخلت الازدهار، علمًا بأنّ الازدهار ينتج دائمًا من التقشّف، فإنّ البساطة في المعيشة، والعمل، والتبرّعات التي تجتذبها حياة الصلاة وأعمال التوبة، تُسهم في ازدياد الثروة. ولٰكنّ هٰذه الثروة تهدّد حياة التقشّف. فانطلاقًا من نهاية القرن الحادي عشر، مرَّ العديد من الأديرة بأزمة ازدهار تجسّدت، بوجهٍ خاصّ، في تشييد المباني الواسعة والكثيرة الكلفة - وإن كانت آيةً في الجمال - كباسيليكا دير كلوني - وقد رضي الكثيرون من الرهبان، من دون الاستسلام للانحطاط، بشيءٍ من التساهل في نمط الحياة وأكثروا من إقامة العلاقات بالأساقفة والأشراف العلمانيّين، فألحقت الضرر بما تقتضيه الخلوة مع أنفسهم.

وأدّت ردّة الفعل، والاحتجاج أحيانًا على مثل تلك الأوضاع، إلى ظهور مجموعاتٍ جديدة من النسّاك الذين يعيشون عيشةً مشتركة، فكانوا نواةً لجمعيّات رهبانيّة جديدة وكبيرة، كالرهبان الكَرْتُوزِيّين ورهبان بريمُنْترِه (Prémontré)، وأكثر هٰذه المجموعات نفوذًا كانت مجموعة سِيتُو. وكانت نيّة الذين أسّسوها أن يُحيوا القوانين التي قامت عليها الحركة الرهبانيّة ونظام القدّيس بندكتس، وهي الانفصال التامّ عن العالم، والتشديد على صلاةٍ أقلّ احتفالًا تركّز على الخشوع الداخليّ، والسعي إلى فقر ينسجم مع العمل ورفض الدَّخل. وكان رمز هٰذه العودة إلى البساطة، عند السِسْتِرشِيّين وعند سائر رهبان مطلع القرن الثاني عشر، اللباس غير المصبوغ باللون الأسود، بل «الرماديّ»، أي بلون الصوف الطبيعيّ. ووُضع تنظيمٌ يحدِّده «ميثاق محبّة» لتوثيق الروابط بين دير سيتو وفروعه.

ساعد على تحقيق هٰذا البرنامج، وعارضه في الوقت نفسه، ترهُّب شريفٍ بُرغونيّ شابّ، هو القدّيس برنردس الذي أصبح، في ١١١٥، أوّل رئيس لدير كلِيرڤو (Clairvaux). وأسهمت شخصيّته القويّة والساحرة ومواهبه الطبيعيّة والروحيّة الخارقة في اجتذاب ألوف الشبّان، ثمّ النساء، إلى أديرة السسترشيّين. وعندما توفّي، في ١١٥٣، كان عدد

هٰذه الأديرة نحو ٣٥٠، يخضع نصفها لسلطته. وخرج منها البابا أوجينيُوس الثالث وبعض الأساقفة. وقد تدخَّل برنردس شخصيًّا في السياسة، فنصح الأمراء وقام بدورٍ ناشط في حلّ الانشقاق الذي قسم الكنيسة الرومانيّة، وفي نزاعاتٍ أُخرى. ووجد الوقت اللازم لتأليف كتبٍ تُعتَبَر، نظرًا إلى عمق عقيدتها ودقّة إنشائها، من روائع الأدب العالميّ.

وفي نهاية القرن الثاني عشر، بلغ عدد الأديرة السسترشيّين ٥٣٠. فلا حاجة إلى القول إنّ التنظيم الذي وُضع في الماضي وكان صالحًا لعددٍ قليل من البيوت، كاد أن يمسي غير قابل للتطبيق. هٰذا وإنّ تلك الأديرة اغتنت هي أيضًا وقوي نفوذها، بما يعني هٰذا الازدهار من مخاطر لحياة التقشّف... لٰكنّ اجتماعات رؤساء الأديرة السنويّة، التي سُمِّيَت مجامع عامّة، كانت بمثابة وسيلة دائمة للرقابة والإصلاح، فكانت أُولى المجالس التشريعيّة الكبرى، المنعقدة في فترات منتظمة، في أوروبا، وعبّدت الطريق أمام المجالس التي ظهرت بعد ذٰلك في الدول وفي سائر الجمعيّات الرهبانيّة.

موجة حبساء

في موازاة انطلاقة المؤسَّسات الديريّة، أي القائمة على الحياة المشتركة، كان هناك موجة نُسكيّة عارمة دفعت العديد من المسيحيّين إلى العيش منفردين، متنقّلين غالبًا، وغير قاصدين أن يتجمّعوا. فظهر أناس هامشيّون من شتّى الأنواع، منذ القرن العاشر وخصوصًا في القرن الحادي عشر، وبقي منهم طوال القرن الثاني عشر. كان بعضهم مُصلحين نِشاطًا، كالقدّيس رُومُوالد (Romuald)، وكان بعضهم غرباء الأطوار أحيانًا، يظهرون بمظر المتصاوفين، أو كانوا، على مثال بطرس الناسك (Pierre l'Ermite)، ينصّبون أنفسهم زعماء عصابات مسلّحة في أثناء الحملات الصليبيّة، أو يستغلّون كرم الناس. لٰكنّ معظم الذين كانوا أكثرهم استقامةً انتهى بهم الأمر إلى تأسيس جماعاتٍ أو إلى اللحاق بالجمعيّات الرهبانيّة الكبرى. وكان وجودُهم والأسئلة التي يطرحها على أذهان الكثيرين تذكّر الرهبان على الأقل بأنّ مَثَلَهم الأعلى، إذا صحّ أنّهم يحتاجون إلى مؤسّسات متينة، ليس هو الإقامة في العالم والتمتّع بالسلطة.

وهٰكذا فإنّ أكثر الناس سعيًا لخير المجتمع، عَبرَ القسم الأوّل من العصر الوسيط، من القرن السادس إلى نهاية القرن الثاني عشر، هم الذين انقطعوا عن هٰذا المجتمع، من دون أن يغادروه. ابتعدوا عنه إلى حدٍّ بعيد أو قريب، لٰكنّه لحق بهم ونظّم نفسه في صلةٍ بهم، وحولَهم في بعض الأحيان، وانتعش بفضلهم أيّما انتعاش.

وثيقة

ما الفائدة من ذلك الذهب؟

«ما الفائدة، عند الفقراء أمثالكم، إذا صحّ أنّكم فقراء حقيقيّون، من كلّ ذلك الذهب الذي يلمع في معابدكم؟ أسألكم: من هو الذي نريد أن نثير شفقته بتلك الوسائل كلّها؟ وأيُّ ثمرٍ ندّعي جَنيَه من ذلك؟... صراحةً، لا يصدر ذلك كلُّه إلّا عن بخل هو عبادة أوثان، وما نقصده ليس هو جني ثمرٍ روحيّ، بل اجتذاب العطايا إلينا بهذه الوسيلة. وإنْ سألتموني كيف يكون ذلك، أجبتكم أنّه يتمّ بطريقة مدهشة تمامًا. فإنّ هناك طريقةً في توزيع المال تكثّره، إذ إنّ بعض الناس ينفقونه ليجتذبوه، ويوزّعونه ليكثّروه. ذلك بأنّ الناس، حين يرون تلك الأباطيل الفخمة والرائعة، يشعرون بميل إلى تقديم أشياء مشابهة أكثر ممّا يشعرون بميلٍ إلى الصلاة. هكذا تُجتذب الثروات بالثروات ويُصطاد المال بالمال. فإنّي لا أعرف بأيّ سحرٍ سرّي يشعر الناس دائمًا بميل إلى العطاء حيث يجدون الكثرة. وحين تنفتح العيون إعجابًا لتتأمّل ذخائر القدّيسين المرصّعة بالذهب، تتفتح أكياس النقود هي أيضًا لتدع الذهب يسيل بغزارة... باطلُ الأباطيل، ولكنّه بُطلٌ أحمق أكثر ممّا هو باطل! جدران الكنيسة تتلألأ غنًى، والفقراء هم في العَوَز. حجارتها مطليّة بالذهب وأولادها محرومون اللباس. يُستخدَم مال الفقراء للتجميل الذي يسحر أنظار الأغنياء، ويجد الهواةُ في الكنيسة ما يُشبع فضولهم، ولا يجد الفقراء فيها ما يغذّون به بؤسهم».

(القدّيس برنردس، **دفاع موجّه إلى غليوم**، رئيس دير سان تيبري، نحو ١١٢٥)

الفصل الحادي عشر

ثورة ثقافيّة

بقلم بيار رِيشِيه(*)

اضطُرَّ رجالُ الإكليرس إلى تعلُّم اللاتينيّة ثانيةً، فعادوا إلى اكتشاف كُتّاب الحضارة الوثنيّة القديمة. فقام نزاع بين «حبّ الآداب والتماس وجه الله». لكنّ الثقافة كانت كلّها من وحي الكنيسة، فحلّت محلَّ الثقافة القديمة.

مدّةَ قرونٍ طويلة، عرف العالَم القديم ثقافةً تمكّن الجسد والعقل من الحصول على ما يوفّر نموًّا متكاملًا. فإنّ الفتى الرومانيّ كان يتعلّم، منذ نعومة أظفاره، أن يعيش سعيدًا في علاقاته بأقاربه وبني وطنه. وكان يجد، في النصوص التقليديّة التي يدرسها، تعاليم أخلاقيَّةً تهدف إلى السعادة. وكان أستاذ الصرف والنحو يعلّمه أن يُحسن الكتابة وأن يُتقن الكلام باللاتينيّة الصحيحة. وكان أستاذ البلاغة يدلّه على طُرق تأليف الخطب الرائعة ويضع في يده سلاح الجدل، الذي كان يُعدّ ثالث الفنون الحرّة بعد الصرف والنحو والبلاغة. فيتمكّن، كما قال كُونتِلْيانُس، من الحصول على «القدرة والسعادة والصداقة والمجد في الحياة الحاضرة والآتية». وإلى جانب ذلك، كانت دروسه تؤهّله للحصول على عملٍ في إدارة الإمبراطوريّة.

استمرار الثقافة القديمة

إنّ المسيحيّين، خلافًا لما قيل، لم يقاوموا المدرسة القديمة. لعلّهم قد تعثّروا أحيانًا، وبصواب، بفساد النصوص التي يعرضها علماء الصرف والنحو، واستخفّوا بالخطب التي كان هدفها الأساسيّ فنّ الخطابة. ولعلّ عبادة عرائس الشعر قد صرفت المؤمنين عن عبادة الإله الحقّ. ومع ذلك، كان المسيحيّون في القرنين الرابع والخامس يشعرون بتضامنهم مع الحضارة الرومانيّة، حتّى إنّهم كانوا يعجزون عن رفض الثقافة التقليديّة، تلك الثقافة التي كانت، بفضل الفنون الحرّة، تكوّن الأديب. وحتّى أشدّ الناس تنبيهًا إلى مخاطر الثقافة الوثنيّة، لم يروا بدًّا من إرسال أولادهم إلى المدرسة البلديّة، لأنّهم كانوا يرون أنّها توفّر تعليمًا أساسيًّا، أي تعليمًا إعداديًّا يمكن الإقدام، انطلاقًا منه، على درس الكتاب المقدّس.

فالقدّيس أوغسطينس، الذي كان تلميذًا في مدارس قرطاجة، ثمّ خطيبًا في ميلانو، عرض، في كتابه **التعليم المسيحيّ**، برنامج ثقافةٍ مسيحيّة لا يخلو من الفنون الحرّة. كان المسيحي يفسّر الكتاب المقدّس كما كان أستاذ الصرف والنمو يفسّر فِرجِيلِيُوس، فيستعين بوسائل الفنون الحرّة، من صرف ونحو وبلاغة وجدل وحساب وهندسة وموسيقى، إلى جانب التاريخ والجغرافيا وعلم النبات والطبّ إلخ. ومن جهةٍ أُخرى، كان لا بدّ له من أن يُتقن التعبير، لإقناع الآخرين بالحقّ الإلهيّ. فكما أنّ الشعب الإسرائيليّ تملّك في الماضي كنوز

(*) Pierre Riché.

المصريّين لبناء تابوت العهد، كان في إمكان المسيحيّين أن يستخرجوا من البرنامج التقليديّ ما يؤيّدون به ثقافتهم الخاصّة.

وفي قرن الغزوات، ناضل الرومانيّون، أمسيحيّين كانوا أم وثنيّين، لكي تستمرّ الثقافة القديمة، وهي من أروع صيغ الحضارة الرومانيّة.

ولم يَسْعَ البرابرةُ المتنصرون إلى تدمير تلك الثقافة، على الأقلّ في ممالك البحر الأبيض المتوسّط حيث كانت المحافظة عليها أفضل ممّا كانت في غيرها من الأماكن.

نشأة ثقافة مسيحيّة

ومع ذٰلك، فكلّما كان الوقت يمضي، وكان البرابرة يوطّدون سيطرتهم، كان الكثير من الناس يشعرون بأنّ الثقافة القديمة حُفظت في وسط أرستقراطيّ مُغلق، وأنّه لم يعد لها من منافذ حقيقيّة وأنها تدور في حلقةٍ مُفْرَغة. وحين أُرسل بندكتس الشابّ إلى مدارس رومة، سرعان ما ملَّ دروسه وهرب من رومة ولجأ إلى سُوبياكُو. وفي الوقت نفسه، وصل إلى آرْلْ (Arles) راهبٌ شابّ من لِيرَنْسْ (Lérins)، وهو قيصاريوس (سِيزِير) الذي أصبح أسقفًا. فاستقبله بعض الأرستقراطيّين وأرادوا أن «يهذّبوا بساطته الرهبانيّة عن طريق درس الفنون الحرّة». فعهدوا في ذٰلك إلى أستاذٍ شهير في الصرف والنحو. لٰكنّ الشابّ لم يجد أيّ طعم في قراءة الكتّاب التقليديّين، لا بل، يقول كتّاب سيرته، إنّه نام ذات يوم على كتابِ لأحد الشعراء، فرأى في المنام تنّينًا يخرج منه ويحاول أن يعضّه... كثيرًا ما دار الكلام على هٰذا التصوّر، وهو يعني المقاومة الجذريّة لكلّ درس لا يكون دينيًّا. وكان الرهبان المتصلّبون يرون أنّ النصّ الوحيد الذي يستحقّ الدرس هو الكتاب المقدّس. فالذي يحبّ الشعر يستطيع أن يقرأ المزامير، والذي يهتمّ بالعلوم الطبيعيّة يجد، على حدّ قولهم، في سفر **التكوين** ما يُرضيه. أمّا المؤرّخ فعنده سفر **الأحبار** في العهد القديم. فبدل أن يدرس الإنسان الفلسفة القديمة، وهي مصدرٌ واضح للبدع، من الأفضل أن يتعمّق في معنى الإنجيل ورسائل بولس.

لم يكن كافيًا أن يُشْجَب فساد مؤلِّفي الكتب الزمنيّة وبُطل الدروس المبنيّة على عبادة الشكل والتصنُّع، بل كان لا بدَّ من الذهاب إلى أبعد من ذٰلك، وإحداث «ثورةٍ ثقافيّة» بكلّ معنى الكلمة. فما الفائدة من وجود أساقفةٍ مثقّفين لا يحسنون وعظ الشعب؟ وكان الناس يندّدون بأسقفٍ معروف حاول، عند دخول بعض المؤمنين المثقّفين، أن يستخدم لغةً منمّقة وغامضة، حتّى إنّه كان يثير تصفيق الحاضرين. والحال أنّ الكنيسة، في مطلع القرن السادس، بذلت مجهودًا كبيرًا لتلقّن شعبَ الأرياف التعليمَ المسيحيّ. فمن الواجب أن يكيّف الكلام على المؤمنين ذوي الثقافة المحدودة. إليكم ما كتبه قيصاريوس الأرْليّ: «حتّى ولو كانت لأحد الأساقفة بلاغةُ أهل الدنيا، لا يجوز له أن يعظ بتكلّف وألّا يَفهمه إلّا أقلّيّةُ المؤمنين... ولا يحتاج الواعظ إلى المرور بمدرسة الخطيب، ليذكّر الشعب بحقائق الإيمان وواجبات السلوك». وكان قيصاريوس نفسه قدوةً في ذٰلك. كان ذات يوم يوجّه كلامه إلى قرويّين، فشرح كيف أنّ النفس هي حقل الله الذي يجب زرعه كما تُزرع الأرض، وشبَّه السكّير بالأراضي المستنقعيّة، التي لا تُنتج شيئًا لأنّها متبلّلة، وشبَّه ترتيل المزامير بالزرع الذي يجب تغطيته ودفنه بالصلاة إلخ. فيجب أن يتمَّ تثقيف المؤمنين، حتّى الشعب، انطلاقًا من النصوص المقدّسة:

وثيقة

الكنيسة تأخذ على عاتقها مهمّة التعليم

ظهرت ثقافةٌ جديدة لتحلّ محلّ الثقافة القديمة، وهي كلّها من وحي الكنيسة. فأنشأت الكنيسة ثلاثة أنماطٍ من المدارس لتقوم بنشر تلك الثقافة الجديدة:

– في داخل الأديرة، أخذ الرهبان يدرّبون الأولاد على قراءة الكتاب المقدّس، لا كما كانوا يقرأون ڤرجيليوس، بل كما يتغذّى المؤمن بالأسفار المقدّسة.

– في المدارس الكهنوتيّة، أخذ كهنة رعايا القرى يجمعون الشبّان غير المزوّجين. فمِن بينهم يتمّ اختيار كهنة الغد.

– في المدارس الأسقفيّة، وبإدارة المطارنة، كان الإكليريكيّون يعيشون في جماعات ويتلقّون تعليمًا بدائيًّا، يتدرّبون به على إقامة القدّاس ومنح الأسرار والوعظ في غياب الأسقف. وفي الثامنة عشرة، كان الإكليريكيّ الشابّ يختار، إمّا الزواج فلا يُمنح إلّا الدرجات الصُغرى، وإمّا العزوبة فيصبح شمّاسًا إنجيليًّا أو كاهنًا.

تكوُّن ثقافة العصر الوسيط

في القرنين السابع والثامن، نشاهد، في غاليا وإسبانيا وإيطاليا، تكوُّن اللغة «الرومانيّة» (langue romane)، أي اللغات المشتقّة من اللاتينيّة، وقد أصبحت اللغات المحكيّة. فكانت اللغة الجرمانيّة، في البلدان الجرمانيّة وإنكلترا، أداة الاتّصال الشفهيّ. ولم تبقَ اللاتينيّة إلّا اللغة المقدّسة التي لا بدّ من معرفتها لقراءة الكتاب المقدّس. وكان الرهبان الذين أرسلهم غريغوريوس الكبير إلى إنكلترا يعلّمون تلاميذهم اللاتينيّة، فكانوا يتذوّقون، في مطالعة شَيْشَرُون أو ڤرجيليوس، اللغة اللاتينيّة الأنيقة. ولٰكنّ الصرف والنحو لا يُدرَسان، كما قال أحد الأساقفة لتلميذ له، إلّا لإدراك أعمق معاني الكلام الإلٰهي وأقدسه. هٰذا وإنّ الصرف والنحو نُصِّرا هما أيضًا. فإنّ بِيدُس المكرّم (Bède le Vénérable)، أحد كبار المعلّمين الأنكلوسكسونيّين، قد أخذ عن اللاتينيّة وضوح إنشائه وصحّته. كان شاعرًا، ولٰكنّه لم يضع قريحته إلّا في خدمة الله وقدّيسيه. وما يجب وضعه في خدمة الله لا ينحصر في الآداب، بل يشمل أيضًا الحساب وعلم الفلك اللذين لا يستخدمهما الرهبان إلّا لتحديد الزمن والتقويم. فلا مجال لوجود أيّ معرفة خارجًا عن حقل الإيمان والحياة المسيحيّة.

هٰكذا ظهر، بدافعٍ من الأنكلوسكسونيّين، ما سُمّي «النهضة الكارُولينيّة»، لأنّ الذي ساعد شارلمان على تنظيم الدروس في أوروبّا هو أحد الأنكلوسكسونيّين، ويُدعى أَلْكُوين (Alcuin). فلمّا كان شارلمان شديد الاقتناع بواجبات مهمّته، أراد أن يطّلع جميعُ رعاياه على الرسالة المسيحيّة، وهٰذا ما يقتضي أن يكون الإكليريكيّون مثقّفين. فتمَّ في كلّ مكان تنظيم المدارس الكهنوتيّة والأسقفيّة والرهبانيّة... طَلَب أسقف أُورليان (Orléans) «أن يقوم الكهنة بإدارة المدارس في القرى والبلدات... وأن لا يطالِبوا بأجرة في قيامهم بهٰذه المهمّة». إنّه، منذ ذٰلك الوقت، التعليم الإجباريّ والمجّاني الذي أصبح من الأمور العاديّة في أيامنا. وإذا تثقّف الأولاد، أمكنهم أن يعلّموا والديهم «الأبانا» و«قانون الإيمان». فهل أُطِيع شارلمان؟ نرى أنّه هو نفسه وخلفاءَه كثيرًا ما اضطرُّوا إلى التذكير بهٰذه الواجبات.

ودُعي الأساقفة أيضًا إلى تثقيف إكليريكيّي رعاياهم. وفي ٨١٧، خضعت المدارس الرهبانيّة للإصلاح. فانحصرت، بعد ذٰلك التاريخ، في المنذورين الذين يستعدّون ليكونوا رهبانًا، وقد نظَّمت بعض الأديرة الكبرى، خارجَ حِصنها، حلقات دروس لإكليريكيّي الغد وحتّى للعلمانيّين.

ترك لنا أَلْكُوين الخطوط العريضة التي يقوم عليها

برنامج التعليم المسيحيّ، وهي: درس اللاتينيّة، وقواعد البلاغة، وعلم الفلك، و«فنّ الفنون»، أي الفلسفة المسيحيّة. وحلم ألكوين بأن ينشئ في الغرب آثينةَ جديدة، تسطع فيها، لا الفنون الحرّة السبعة فقط، بل مواهب الروح القدس السبعة.

«حبّ الآداب والتماس وجه الله»

كان من المحتَّم أن نرى الأدباء الذين عادوا إلى اكتشاف الناثرين والشعراء القدماء يستمتعون بدرس هٰؤلاء الكتّاب. فالنهضة الكارولينيّة الثانية، التي ازدهرت على عهد خلفاء شارلمان، شاهدت كوكبةً من الكتّاب اللامعين وهواة المخطوطات الجميلة، وكانوا أدباء مدرسيّين بكلّ معنى الكلمة. لٰكنّ متعة مطالعة الكتّاب الزمنيّين والاقتداء بهم أدّت أحيانًا إلى صرف النظر عن الآفاق الدينيّة. وقد اعترف بعض الأدباء بأنهم ڤرجيليّون أكثر ممّا هم مسيحيّون! فإنّ النزاع بين «حبّ الآداب والتماس وجه الله» كان من ثوابت ثقافة العصر الوسيط. ومع ذٰلك، يجوز لنا أن نقول بأنّ الكارولينيّين أورثوا خلفاءهم برنامج دروسٍ يوفّق بين فنّ التأليف وتذوّق التعمّق في البشرى المسيحيّة.

وبالرغم من قيام الأزمة السياسيّة التي أدّت إلى تفكيك الإمبراطوريّة الكارولينيّة، وبالرغم من ظهور غزواتٍ سكنديناڤيّة وعربيّة ومجريّة جديدة، فإنّ الثقافة الغربيّة المسيحيّة واصلت ازدهارها في الأديرة حيث وجدت ملجأ. أمّا إنكلترا، التي سبق أن أعطت أوروبّا الكثير في القرن الخامس، فقد نالت هي أيضًا حصّتها من دروس الرهبان الآتين من أوروبّا. وأراد ألْفريد الكبير (Alfred le Grand) أن يقتدي بشارلمان، ولٰكنّ اللاتينيّة كانت شبه مجهولة، فأمر بأن تُتَرْجَمَ إلى الأنكلوسكسونيّة مؤلّفات غريغوريوس الكبير وبوئيس (Boèce) وأورُوز (Orose) وبيدُس (Bède)، وفي جرمانيا، كانت أديرة ساكسِن ولوثرانجيا (Lotharingie)، في القرن العاشر، منابتَ أدباء. وإيطاليا أيضًا، بعد أن ضُمَّت إلى جرمانيا، أعطت معلّمين ومخطوطات. وكان الأدباء يُكثِرون من الأسفار. وكانت التبادلات الثقافيّة ناشطة بين المناطق، فولَّدَ تنقُّل الأشخاص والأفكار الدائم وحدةً ثقافيّةً تذكّر بالوحدة التي عرفتها الإمبراطوريّة الرومانيّة.

الأزمة التي عرفها القرن الحادي عشر

في نهاية القرن العاشر، أخذت المدن تخرج من سُباتها. فعلى سبيل المثال، كان جِيْربير الرِّمساويّ (Gerbert de Reims) معلّمًا لامعًا. وفي كولونيا، حيث أتمَّ دروسه، لا يُستَبْعَد أنّه احتكّ بالعلم العربيّ. وقد شُغف، لا بمؤلّفات الأدباء القدماء وحسب، بل بدروس الحساب والموسيقى.

وفي القرن الحادي عشر، فتحت مطالعة كُتُب بوئيس وما ترجمه من أرسطو حقلًا جديدًا للبحث. وهٰكذا نما الميل إلى الاستدلال، وكان تطبيق الطُرُق العقليّة على النصوص غير المقدّسة موضعَ تشجيع كبير، ولٰكن يومَ طبّق بعضُ الجَدَليّين فنّهم في الاستدلال على الكتاب المقدّس والعقيدة، أثاروا القلق. هٰذا شأن أحد الذين تتلمذوا لِفُلبِيرت الشارتريّ (Fulbert de Chartres)، يدعى بِيرانْجِيه (Béranger). فقد كتب: «بالعقل صُنع الإنسان على صورة الله. فرفضُ الاستعانة به هو التخلّي عن عنوانِ شرفٍ وعدم التجدّد يومًا بعد يوم على صورة الله». اعتقد بيرانجيه بأنّ العقل يستطيع أن يتغلّب على السلطة، فأراد أن يطبّق تعليمه على عقيدة الإفخارستيّا. شُجبت طروحات بيرانجيه عدّة مرات، فبدا بعد ذٰلك كلُّ جهد يُبذل للتعمُّق في التعليم المسيحيّ موضعَ اشتباه.

إنّ تلك المناقشات حول استخدام الجَدل ليست

سوى وجهٍ من وجوه الأزمة التي أثارت القلق في العالم المثقّف في القرن الحادي عشر. ففي ذلك الزمن، كان الغرب كلّه يمرّ بأزمة، أي بتحوّل، إذ كان المجتمع الإقطاعي في توسّع كبير، وكانت الكنيسة تُصلح نفسها بإشراف الرهبان والبابوات، وكانت الحياة في المدن تستيقظ وتستيقظ معها التجارةُ والمال، وكان عالَم المدرسة تهزّه ريح التمرّد، ريح «الحداثة». ففي هذه الظروف، عاد المصلِحون الرهبانيّون إلى تأوين الإصلاح الذي تمَّ في ٨١٧، فقرَّروا إقفال المدرسة في وجه غير المُعَدِّين لحياة الدير، ليستطيعوا بذلك، بعيدًا عن العالم وتناقضاته، أن «يتتلمذوا للمسيح». لكنّ مستقبل الثقافة الدينيّة الجديدة كان في مكانٍ آخر، في تلك المدارس التي انتشرت في ظلّ الكاتدرائيّات، والتي خرجت منها الجامعات في القرن الثالث عشر.

وثيقة
شبيبة توّاقة إلى كلّ جديد

«بات كلّ نظام يواجه من يقاومه، وأصبحت قساوة آبائنا والخضوع لهم من العادات البالية. فإنّ صغار السنّ يحصلون على حرّيّة سابقة لأوانها، أو يتخلّصون بهربٍ سريع كأنَّ لهم أجنحة...
يتمرَّدون على تعليم الأخلاقيّة الرزين، فينقادون كالقشّ الخفيف
لريح كلّ تعليم. ويُستَعبدون للمستجِدّات الباطلة والمضرَّة في أمور اللغة والنظام.
وقد قام بعض الذين يعلِّمون تلك التعاليم التي اختلقوها، ولمّا لم يكن لهم من مأوى أمين ولم يكن في إمكانهم أن ينصرفوا إلى مُلْكهم لأنّه لا ملك لهم، فهم يتشرَّدون هنا وهناك في الأرياف والبلدات والمدن ويعرضون تفاسيرَ جديدةً **للمزامير** ورسائل القدّيس بولس وسفر **الرؤيا**، ويجرّون وراءهم، في سراط الملذّات الزَّلِق، شبيبةً توّاقة إلى كلّ جديد، ومولعة بالطياشة، تنفر من نظام الدروس الرزين».

(غُوزْشِين مدير مدرسة في لييج، منتصف القرن الحادي عشر)

الفصل الثاني عشر

حياة المسيحيّين في العصر الوسيط القديم

عالَمٌ متخلّف

إنّ الغرب الذي غزاه البرابرة يشبه، بالعديد من ملامحه، ما يمكن المسافر أن يكتشفه في أيّامنا عندما يزور حوض الأمازون أو أفريقيا الوسطى. إنّه عالم فارغ وخالٍ من السكّان. فالمُنحنى الدِيمغرافيّ الذي لم يزل ينخفض منذ القرن الثالث قد بلغ، في القرن الثامن، أدنى درجاته. ولقد أورد بعض العلماء أرقامًا تثير القلق: فمعدّل السكّان في الكيلومتر المربّع خمسة في غاليا، وساكنان في إنكلترا، وساكنان في جرمانيا. ولم يكن البرابرة مسؤولين عن ذلك. فإنّ الحروب قتلت عددًا من الناس أقلّ ممّا قتل الوباء، كالطاعون الكبير في القرن السادس، أو ممّا أصابت الكوارث الطبيعيّة. وأشار الرواة، حينًا بعد حين، إلى جفاف الصيف وقساوة الشتاء، وإلى الفيضانات والأمراض التي تصيب الحيوانات، وكانوا يعدّون ذلك كلّه شرًّا محتومًا. وكانت قلّة المحاصيل تُحدث المجاعات. كتَبَ غريغوريوس التُورانيّ: «مدّةَ سبع سنوات، دمَّرت مجاعةٌ كبرى غاليا كلَّها، فصنَعَ العديدُ من الناس "حنطةً" من حُبَب العنب وأزهار البندق، وصنَعها بعضهم من جذور الخَلَنْج. وكانوا يجفّفونها ويسحقونها، مضيفين إليها قليلًا من الطحين. وهناك كثير من الناس كانوا يقطفون أعشابًا شتّى ويأكلونها، فينتفخون ويموتون». ذلك بأن الناس كانوا يتضوّرون من الجوع، فيأكلون أيَّ شيء يقع تحت أيديهم، فيضعف الجسد وتصيبه الأمراض. وكان الأولاد يموتون قبل غيرهم، ثمّ يتبعهم البالغون. وكانت الحيوانات الضارية تجوع هي أيضًا، فتخرج من الغابات وتهجم على الباقين. فإذا بالدورة الجهنّميّة – من كوارث ومجاعات وأوبئة ووَفَيات ونقص في اليد العاملة – تنغلق على الشعب وتُطبق عليه.

كانت الأرض قليلة السكّان جدًّا، وقليلة الزراعة أيضًا. فكان القسم الأكبر من الغرب أرضَ غابات ومستنقعات وبُور. وكان إنسان العصر الوسيط يعيش في طبيعةٍ قفرة، ويخشى أن يتوغّل في الغابة الكبرى، مأوى الحيوانات الضارية – من أدباب وجواميس وذئاب – لا بل مأوى اللصوص أيضًا والخارجين على القانون. ولكن لماذا لم يستصلح الأراضي؟ لأنّه لم يكن يملك الوسائل التقنيّة، وخصوصًا لئلّا يحرم نفسه من الموارد التي توفّرها له جوانب الغابة، من خشب التدفئة والبناء، والعسل والشمع وحشائش الدينار إلخ. ومن جهة أخرى، كان الأرستقراطيّون يحتفظون لأنفسهم بأراضي صيد لتلبية ميلهم إلى الرياضة والحصول على لحم الأيّل أو الخنزير البرّيّ. وكان الفلّاحون يزرعون ويحصدون في فُرَج الغابات، لكنّ آلاتهم لم تزل بدائيّة: فكان المحراث خفيفًا جدًّا، وأكثر أدوات الحَرْث من خشب. وكانت الأسمدة غير معروفة، باستثناء السماد الحيوانيّ، ممّا يجعل المردود ضئيلًا جدًّا. وكان الحقل المزروع لا يلبث أن يُستنفَد، فيُهمل عدّة سنوات ويُفلَح حقل آخر. وكان الفلّاحون لا يعتمدون على الغلّات القليلة بقدر ما يعتمدون على القطف وصيد الأسماك والحيوانات، وكأنّهم عادوا إلى العصر الحجريّ الحديث.

أمّا كبار الملّاكين العلمانيّين، وخصوصًا الكنسيّين، وهم أصحاب قسم كبير من الأراضي القابلة الزَرْع، فكانوا يحاولون أنّ يتّخذوا الحيطة لتحسين محصول

أراضيهم. وكان عندهم عبيد كثيرون، ومهاجرون مستوطنون في إقطاعاتٍ منحوهم إيّاها، فيستوفون منهم أتاوى عينيّة ويدويّة. ولٰكنّهم كانوا هم أيضًا يتخوّفون من النقص. فكانت مسألة تأمين الحاجات بين موسمَين زمنًا عسيرًا في كلّ سنة، ولم يكن في إمكانهم أن يخزنوا تحسُّبًا للسنوات العصيبة. وقد كَتب أحدُ رؤساء الأديار: «لم يبقَ عندي قمح إلّا لشهرَين، وأخذ المرضى يشكون وأمسى الضيوف بلا مساعدة، فعليَّ أن أبيع الآنية الطقسيّة».

وهٰذا التخوّف من النقص يفسّر، إن لم يبرِّر، جشع الأرستقراطيّين العلمانيّين والإكليريكيّين. فكان عليهم، مهما كلّف الثمن، أن يزيدوا ثروتهم العقاريّة، إن أرادوا أن يقوموا بجميع النفقات اليوميّة. صحيح أنّ أصحاب النفوذ لم ينقطعوا عن الإصغاء إلى التماس جماهير المرضى والبؤساء الذين يطرقون أبواب الأديرة والقصور. فكان عليهم أن ينظّموا الفنادق والمستشفيات، إذ إنّ «الفقراء»، من غرباء وحجّاج، يأملون الحصول على مساعدة مادّيّة. وهل كان من الممكن أن يأمل الشعبُ أكثر من ذٰلك؟ إنّ فكرة التمرّد على أصحاب النفوذ لم تكن تخطر ببال أحد. ولمّا كانت بعض حركات تمرّد تقوم في أماكن مختلفة، سرعان ما كانت تُقمع. وكان الشعب يَعدّ قَدَرًا محتومًا ذٰلك المصير الذي صادف وأتاه عند مولده.

سواء أكان البؤس الاقتصاديّ أم هاجسُ الجوع والأوبئة، أم هبوطُ المستوى التقنيّ، أم الظلم الاجتماعيّ، فإنّ هٰذا الضعف الطبيعيّ والأخلاقيّ كلّه يفسّر فجائيّة الأزمات الجماعيّة وغرابة الأطوار الدينيّة والمخاوف الكبرى وأعمال التوبة الكبرى التي عرفها العصر الوسيط باستمرار. تلك هي الخلفيّة التي تبرز عليها سائر وجوه حياة العصر الوسيط القديم، أدينيّةً كانت أم ثقافيّة أم أخلاقيّة، والتحقيق التالي يرسم خطوطها العريضة. لٰكن الخبر الظريف أو النكتة لا يجوز أن يحجبا شدائد ذٰلك الزمن.

الإكليرس

كَتب أسقف ليون أَغُوبار (Agobard) إلى الملك لويس الوَرِع: «عسى الله القدير أن يُخضع جميعَ الناس لإيمانٍ واحد، في عهد ملك واحد شديد الورع، فإنّه من شأن ذٰلك أن يفيد إلى حدٍّ بعيد وفاقَ مدينة الله والعدلَ بين الشعوب. ليس هناك برابرة وإسقيطيّون، ولا أكيتانيّون ولُومبَرْديّون وبُرغُونديُّون وألَمان، وعبيد وأحرار: فالمسيح هو كلّ شيء وفي جميع الناس».

هٰذا الدفاع عن إمبراطوريّةٍ متّحدة في الإيمان الواحد، كثيرًا ما تبنّاه أكثر الإكليريكيّين ثقافةً في العهد الوسيط القديم، علمًا بأنّه كان يُعْهَد إلى الملوك الكارولينيّين، يومَ تتويجهم، في أن يُرشدوا إلى الخلاص الأبديّ الشعوب التي اؤتُمنوا عليها، وهٰذه مهمّة لا حدّ لها، لأنّ تلك الشعوب تحتاج إلى تثقيفٍ وتربية... لٰكنّ العالم المسيحيّ، منذ القرن السابع، أخذ ينظِّم أوضاعه. وكان الوثنيّون، الذين ما زالوا كثيرين، خصوصًا في المناطق التي فُتحت حديثًا، يهتدون، طوعًا أو كرهًا. أَوَلَم يكن المثال الأعلى الذي يفرضه أصحابُ النفوذ والأرستقراطيّون والكنسيّون، أن يُعمَّد جميع الناس ويعيشوا عيشة المسيحيّين؟ فإنّ الإنسان يولد مسيحيًّا ويموت مسيحيًّا، ويخضع للنظام المسيحيّ. والوحيدون الذين أفلتوا من هٰذا التسلّط في المجتمع الكارولينيّ كانوا اليهود.

الأساقفة: أرستقراطيّون

كتب أحد رؤساء الأديرة: «إنّ الملك يُخرج إكليريكيّين من قصره بحسب عادة أجداده». لا شكّ في أنّه، بحسب تقليد الكنيسة القديمة، يجب أن يَتمّ اختيارُ الأسقف عن يد رجال الإكليرس والشعب. لٰكنّ الملوك الإفرنج كانوا يتمتّعون منذ عهد كلوفيس، بامتيازٍ يمكّنهم من اختيار الأساقفة. ولمّا كانوا حريصين على

إحاطة انفسهم بمستشارين أُمناء، لم يتردّدوا في ممارسة امتيازهم الملكيّ. وبين المرشَّحين للأسقفيّة، كثيرًا ما نجد موظَّفين ملكيّين سابقين لا يصعب علينا أن نرى فيهم ما يؤهِّلهم لإدارة شؤون الأبرشيّات...

وكان شارلمان يُحسن إحاطة نفسه بأساقفة صالحين، يستطيعون أن يشرفوا على تجديد المملكة الدينيّ - ولٰكنّه كان أدرى بما يرتكبه العديد من الرعاة من تجاوزات... ذٰلك بأنّ المهمّة الأسقفيّة - التي كانت «شرفًا» على غرار مهمّة الكونت، كانت مهمَّة محبَّذة.

كان اختيار الأسقف يتمّ عادةً في المجتمع الأرستقراطيّ، فكان مولًى حقيقيًّا. وكان، خلافًا لما توصي به مجامع ذٰلك الزمن، كثيرًا ما يمارس الصيد ويربّي كلابًا لتلك الرياضة، ويحارب ويعيش عيشةً دنيويّة. وكان قصره من أجمل قصور المدينة، ومائدته مشهورة... وكان الإمبراطور يحاول أن يذكِّر أنّ دور الأسقف هو دور دينيّ بوجهٍ خاصّ، وأنّ واجبه الأوّل هو الاهتمام بأبرشيّته. ولٰكن قلّما كان كلامه يلقى آذانًا صاغية.

رجال إكليرس المدن

كانت الحضارة الريفيّة تسيطر في الغرب الكارولينيّ ومع ذٰلك كانت المدن تنمو وتقوم أحيانًا بدورٍ مهمّ. يصعب علينا تقدير عدد سكّانها بسبب عدم وجود الوثائق. إلّا أننا نستطيع، عن طريق الاعتماد على عدّة مصادر، أن نعتقد بأنّ باريس كانت تضمّ نحو أربعة آلاف ساكن، وميتز (Metz) ستّة آلاف، وأرّاس خمسة آلاف. أمّا رومة التي كان عدد سكّانها يبلغ عشرين ألفًا، فكانت تُعدّ ملكة المدن. وكان لكلّ مدينة رجال إكليرسها، المؤلَّفون عادةً من الشبّان الذين تتمّ تنشئتهم في جوار الأسقف. وكانوا يمرّون بمختلف الدرجات، الدرجات الصغرى والدرجات الكبرى. وكان في إمكان إكليريكيّي الدرجات الصغرى - خدّام المذبح والمعزِّمُون والقرّاء - أن يتزوّجوا ويمارسوا إحدى المهن. وفي المقابل، كان على الإكليريكيّ الذي يرغب في الوصول إلى الدرجات الكبرى - الشمّاسيّة أو الكهنوت - أن يبقى عازبًا.

ومنذ مطلع القرن السادس، أخذ الأساقفة يهتمّون اهتمامًا شديدًا بمراقبة إكليريكيّي المدن.

وكان قيصاريوس، أسقف آرْل، يتمنّى أن يعيش جميع الإكليريكيّين عيشةً جماعيّة في جوار الأسقف. كان هو راهبًا في الماضي، فحلمَ إذًا بتكييف النظام الرهبانيّ على الإكليرس العلمانيّ. إصطدم بقلّة حماسة الإكليريكيّين - وحتّى بمقاومتهم العنيدة - لأنّهم كانوا يرغبون في العيش بين الشعب الذي يبشّرونه، ويفضّلون بوجهٍ خاصّ أن يحتفظوا باستقلالهم. ومع ذٰلك، كان هناك مبادرةٌ أسقفيّة تشابه ما يصبو إليه قيصاريوس أحرزت بداية نجاح صغيرة: إنّها إنشاء الكهنة القانونيّين. ذٰلك بأنّ أحد أساقفة ميتز، في القرن الثامن، سنّ قوانين للإكليريكيّين الذين يعيشون في جوار الأسقف. وفرضت هٰذه القوانين حياةً جماعيّة، فيجلس الإكليريكيّون إلى مائدةٍ واحدة ويتقاسمون مهاجع واحدة (إلّا في حالة المرض). وحاول شارلمان أن ينشر تلك القوانين، لٰكنّ الإكليريكيّين لم يقبلوها إلّا بتحفّظ.

رجال إكليرس الأرياف

كان أحد كبار الملّاكين يبني معبدًا في مزرعته، فيطلب إلى الأسقف إكليريكيًّا ويقيمه في معبده، فيصبح المعبد مركز الحياة الرعويّة في هٰذا المِلْك...

وهٰكذا أُنشئت هنا وهناك كنائس خاصّة في الغرب، في مطلع العصر الوسيط. ومن النتائج المباشرة لهٰذه الظاهرة أنّه كان يصعب على الأسقف أن يراقب كهنة الأرياف، لارتباطهم قبلَ كلّ شيء بالملّاك الكبير. وقد استمرّ هٰذا الوضع حتّى أواخر العصر الوسيط وأثّر حتى

في تاريخ النظام القديم.

وكان إكليريكيّ الريف يُعدّ كأحد خدّام البيت، يفوق الآخرين بعض الشيء: فكان يؤذَن له أن يُشرف على تهيئة مائدة المولى ويراقب سائر الخدّام ويهتمّ بالكتابة. لا شكّ في أنّ وضعه لم يكن مرغوبًا فيه، لكنّه كان يقوم بدورٍ كبير في الرعيّة، فيجمع المؤمنين يومَ الأحد وفي أيّام الأعياد. وبعد القدّاس، كثيرًا ما كان يُطلب إليه أن يقوم بدور كاتب العدل، إذ ينبغي له أن يعرف اللاتينيّة التي لم تزل لغة دوائر الحكومة. ثمّ قد يُدعى إلى الانضمام إلى حفلات الابتهاج الزمنيّة، مِن رقصٍ وغناء. ولمّا كان يفوق الآخرين في الغناء، فكان عليه أن يدلّ على النغمَة. لكنّ العلاقات كانت تتردّى بين الإكليريكيّ ورعاياه، إذ إليه يعود أن يجبي العُشر، وهي ضريبةٌ كنسيّة تمثّل عُشر الدخل، علمًا بأنّ هذه الضريبة، التي يُراد بها إعالة رجال الإكليرس، كانت غير شعبيّة. فكان الإكليريكيّ لا يحصل عليها إلّا بمشقّة. وإذا حصل عليها، فكثيرًا ما كان كبار الملّاكين العلمانيّين أو الكنسيّين ينتزعونها منه. وكان هاجس زيارة أسقفه يُضاف إلى متاعبه الماليّة، إذ إليه يعود الإنفاق على الأسقف وحاشيته...

ولمّا كان كهنة الريف من أصل وضيع، فكانوا فقراء، وكنتَ ترى بعضهم، إذا ما أرادوا أن يحسّنوا أوضاعهم المعيشيّة، يقرضون بالربا أو بالرهن...

ويجب الاعتراف هنا بأنّ قيمة الإكليريكيّين الأخلاقيّة كانت على صورة ضعفهم الفكريّ. وكانوا، بالرغم من معارضة أسقفهم وممّا ورد في قرارات المجامع، لا يتردّدون أمام المشاركة في الأعياد الزمنيّة والحفلات الوثنيّة. وكان لا بدّ من تذكيرهم بارتداء الملابس اللائقة. وقد اجتهد پيپان القصير، ثمّ شارلمان، في إصلاح أخلاق الكهنة، وقاوما، بوجهٍ خاصّ، مساكنتَهم النساء وزواج إكليريكيّي الدرجات الكبرى.

كيف يصير الإنسان مسيحيًّا؟

كان المجتمع الكارولينيّ مجتمعًا متّسمًا بطابع مقدّس، يسيطر عليه رجال الكنيسة. وكان نفوذ الرهبان كبيرًا حتّى إنّ حياة العلمانيّين كانت تفقد شيئًا من قيمتها، ولا سيّما أنّ بعض الإكليريكيّين كانوا لا يتردّدون في التصريح لمن يشاء بأنّ الوضع العلمانيّ هو أسوأ وضع وأنّه تنازلٌ للضعف البشريّ. فالذين لا يستطيعون، بسبب ضعفهم، أن يعيشوا حياة إمساكٍ جنسيّ وفقرٍ وصلاة، لا يصلحون إلّا للزواج ولممارسة مهنة من المهن... فكانوا يؤلّفون فئة «الجسديّين»، الذين هم دون «الروحيّين»... فلا عجب أن يعيش بعضُ العلمانيّين المُوَسْوِسين في مركّبِ نَقْص وأن يقلقوا حتّى في أمرِ خلاص نفوسهم. لكنّ علمانيّين آخرين كانوا يطمئنونهم بأنّ العلمانيّين، «بالرغم من أنّهم علمانيّون»، سيصلون هم أيضًا إلى الفردوس. وكان الناس يقترحون عليهم، ليساعدوهم، قواعد حياتيّة تُدعى «مرايا»، وهي مجموعات نصائح عمليّة وأخلاقيّة.

لكنّ آمَن وسيلةٍ في يد الإنسان لضمان خلاصه، إن كان علمانيًّا، هي القتال في سبيل المسيح، ومحاربة أعداء الكنيسة، وتوسيع حدود العالم المسيحيّ.

وهناك مفهوم ارتسم في العهد الكارولينيّ واتّسع في القرنين العاشر والحادي عشر، وهو الحرب المقدّسة. فإلى جانب الإكليريكيّين والرهبان، ألّف العلمانيّون - في الطبقات الأرستقراطيّة على الأقلّ - «جمعيّةً» فريدة، هي جمعيّة جنود الكنيسة.

تعميد الأولاد وتثقيفهم

إنّ المعموديّة هي أوّل دليل على الانتماء إلى الكنيسة. ولكنّها كانت، في الماضي، في القرنين الرابع والخامس، محصورةً في البالغين، إلّا في حالات الاستثناء، وكانت تتمّ بعد التثبُّت عدّةَ مرّات من حصول

المعتمد على المعلومات اللازمة. وكانت المعموديّة والتثبيت والمناولة تُمنح في آنٍ واحد. وفي نهاية القرن الخامس، قرّرت الكنيسة أن تفتح أبوابها بمزيدٍ من السعة. وكان الأمراء والأساقفة أمناء لرسالتهم، فأخذوا يسعون إلى تنصير شعبهم لتأمين خلاصه.

وباستثناء «بلدان الإرسالية»، أي التي انضمّت حديثًا إلى المملكة، حيث كان تعميدُ البالغين القاعدةَ المتَّبعة، بدأ تعميد الأولاد يتعمّم، ولا سيّما أنّ مسألة خلاص الأولاد كانت تشغَل كثيرًا بالَ العديد من إكليريكيّي ذلك العصر. إذ كانوا يفسّرون، بشيءٍ من الجهل، إحدى النظريّات المقتبسة من مؤلّفات القدّيس أوغسطينوس، فيخشون إلى أبعد حدّ أن يموت الولد قبل المعموديّة، فيُحكم عليه هكذا بالهلاك الأبديّ.

وقد اختاروا لإقامة رتبة المعموديّة، يومَ عيد كبير، أي الفصح أو الميلاد أو العنصرة. وكان الأسقف نفسه يقوم بالتعميد، في أجران معموديّة الكنيسة الأسقفيّة. ولكنّه، مع مرور الزمن وأمام عدد الأولاد الذين يتقدّمون للاعتماد، وجب القبول على مضض باختيار تواريخ غير الأعياد التقليديّة، والاستعانة بالكهنة للحلّ محلَّ الأسقف، وإنشاء أجران معموديّة في الأرياف.

وكانت الرتبة بسيطةً جدًّا، إذ كان الوالدون والعرّابون يتلون قانون الإيمان والصلاة الربّيّة، وهما الصلاتان الأساسيّتان اللتان كان على كلّ مسيحيّ أن يعرفهما. وكانوا يتلونهما باللغة الشائعة، بسبب جهلهم اللاتينيّة. وبعد تلاوة الصلوات، كان الولد يُعمَّد بحسب الطقوس التقليديّة، أي بتغطيسه ثلاث مرّات في جرن المعموديّة. وفي ما يخصّ المسيحيّ الصغير في العصر الوسيط، لم يكن هناك من «تعليم مسيحيّ»، بل كان الولد، بعد تعميده، يعيش الحياة الدّينيّة مع والديه. فيحضر الحفلات الطقسيّة ويُصغي إلى الوعظ ويحصل على تنشئة دينيّة من قِبَل والدَيه، على الأقلّ إن كانا مثقَّفَين بقدرٍ كافٍ. وحين عمل شارلمان على تنمية المدارس وحتّى المدارس الريفيّة، تمنّى أن يستطيع كلّ ولد من الأولاد أن يذهب إليها، ليتعلّم صلواته (الصلاة الربّيّة وقانون الإيمان)، ويعود إلى بيته فيعلّمها والديه أو يعيد تعليمهما.

التثقيف والحثّ على الفضيلة

كان التثقيف يتمّ خصوصًا عن طريق الوعظ. فكان الوعظ أوّل واجبات الأساقفة. ولكنّهم، منذ القرن السادس، لم يعودوا كافين للقيام بهذه المهمّة، فاستعانوا بالكهنة. وكان هؤلاء الوعّاظ الجدد، بإشراف أسقفهم، يعظون على قدر إمكانهم، بحسب علمهم وثقافتهم. فكانوا يجدون عونًا كبيرًا في مجموعاتٍ من المواعظ النموذجيّة، وهي رؤوس أقلام تتناول، مع شيءٍ من التبسيط، مواعظ آباء الكنيسة.

قد تكون العظة شرحًا للأسفار المقدّسة، لكنّها كثيرًا ما كانت أخلاقيّة أكثر منها كتابيّة. فكان الكاهن يذكّر بالفضائل التي يجب حفظها ويندّد بالرذائل التي يجب الابتعاد عنها. وكان يعلّق على سِيَر القدّيسين الشعبيّين ويروي النوادر وهي تحمل على الفضيلة دائمًا.

وكان العديد من الكهنة يحاولون أن يولّدوا في القلوب مخافة الله فكان وصف جهنّم يروّع كثيرًا من المؤمنين. ولا عجب في ذلك، فإنّ إنسان العصر الوسيط كان يعيش في عالم يعاديه، يتشابك فيه دائمًا ما هو طبيعيّ وما هو فوق الطّبيعة. وكان الناس في العصر الوسيط يخافون الموت والهلاك. فالغنيّ والأمير والأرستقراطيّ يتبرّعون للكنيسة بمبالغ كبيرة لينالوا الخلاص. أمّا الفقير والذي من الطبقة الشعبيّة فكانا يلجآن إلى حماية الذخائر.

ومع ذلك، وبالرغم من خوف جهنّم الذي كان الوعّاظ يغرسونه في أذهان السامعين، لم ينجحوا دائمًا في استرعاء الإصغاء. فكان قيصاريوس، أسقف آرل، يشكو من انصراف المسيحيّين قبل نهاية القدّاس، وقعودهم على الأرض والثرثرة في أثناء إقامة الرتب.

ولم يكن حفظ الصمت في الكنيسة سهل المنال، فكان لا بدّ من تكرار التنبيه إليه. وكيف يمكن أن تكون

الأمور على غير ذٰلك؟ فإنّ المذبح، الذي كان في الماضي في وسط الكنيسة تقريبًا، أُبعد في ذٰلك الزمن إلى صدرها الأقصى، يحجبه عن الأنظار جمهور الكهنة والإكليريكيّين الذين يحيطون به. وكانت الرتب تُقام باللاتينيّة، فكان المؤمنون، المجتمعون في صحن الكنيسة، لا يفهمون شيئًا ويشعرون بأنّهم منفصلون عن مجمل الليترجيا. فإذا أراد الإكليريكيّون أن يُنعشوا انتباههم، طلبوا منهم أحيانًا أن يرتّلوا «كيرياليسون» و«المجد لله» و«قدّوس»...

عصر ليترجيا ذهبيّ

عرفت الليترجيا في العصر الوسيط القديم نوعًا من العصر الذهبيّ. ذٰلك بأنّ الكنيسة شعرت أوّلًا بأنّ من واجبها، لكي تُبعد الشعب عن بعض الرتب والممارسات الوثنيّة، أن توفّر له رتبًا وممارسات أُخرى، وتعرض عليه أعيادًا وحفلات دينيّة تمكّنه من المشاركة الحقيقيّة، باستخدام طرقه الخاصّة في التعبير، أي في الحركة والكلام، وفي الرقص والترتيل. وفضلًا عن ذٰلك، كانت الليترجيا، بحسب نظام الأعياد، تمكّن طوال السنة من تثقيف المؤمنين.

وكان شارلمان يعتبر أنّه يستمدّ سلطته من الله، فكان يسهر عن كثب على كلّ ما يمتّ إلى الإيمان في مملكته. فوجّه الكثير من أوامره إلى الممارسة الدينيّة. وقد فرض بها راحة يوم الأحد وحضور القدّاس وواجب الصلاة. وذكّر بنظام الأعياد ونظام الأسرار. وسعى بمشقّة، على ما يبدو، إلى توحيد الليترجيا في الإمبراطوريّة كلّها، طالبًا إلى الأساقفة أن يُحلّوا الليترجيا الرومانيّة محلّ الليترجيات المحلّيّة.

وهناك نصوص تذكّر بالنهي عن الرقص عشيّة أعياد القدّيسين، وعن الأغاني الوثنيّة. ولكن كان لا بدّ من وضع أغاني أخرى مكانها. فحاول المسؤولون أن يعلّموا المؤمنين تراتيل دينيّة وأذنوا لهم في تنظيم الرقص الطقسيّ، ولا سيّما في التطوافات وزيارات الأماكن المقدّسة ونقل الذخائر. وقد استمرّ حتّى أيّامنا شيء من الرقص الطقسيّ...

وفي كلّ يوم أحد، كان المسيحيّون ملزَمين، سواء أكانوا أمراء أم فلّاحين، بالذهاب إلى الكنيسة لحضور القدّاس. وكان شارلمان يشدّد على أنّ مِن واجب الموالي الريفيّين أن يسهروا على ذٰلك، وعلى رعاة الغنم والخنازير، مع أنّهم كانوا يُعدُّون كائنات سُفلى، أن يذهبوا إلى الكنيسة يوم الأحد. ولٰكنّ الأمر لم يجرِ بدون صعوبة، فليس من السهل أن يُفرَض على الجميع حضور القدّاس يوم الأحد. وهذا ما يحمل الكاهن على أن يُكثر في عظاته ذكرَ ما يطرأ من عوارض مأسويّة على أبناء الرعيّة غير الصالحين: فهناك فلّاح يسقط مشلولًا في أثناء عمله، لأنه لم يَخَف أن يدير الرحى يومَ أحد...

وكان القدّاس يستغرق وقتًا طويلًا. فبعد العظة، يُدعى المؤمنون - الرجال فقط - إلى حمل تقادمهم إلى المذبح: خبزًا في سلّة أو على قطعة قماش، لا بل زيتًا أيضًا وشمعًا لأجهزة التنوير، وبواكير الغلّات، ومالًا... وبما أنّ تطواف التقادم كان يُحدِث شيئًا من الضجيج حول المذبح ويُخلّ بالنظام، كان يُشار على المؤمنين بحمل تقادمهم قبل الإنجيل، أو في ختام القدّاس.

وفي أيّام الأعياد الكبرى - التي كانوا يحتفلون بها بشيءٍ من الأبّهة -، كانت تُقدَّم إلى المشتركين أرغفةٌ مكرّسة صغيرة. ولقد استمرّت هٰذه العادة إلى أيّامنا في بعض كنائس الريف الصغيرة. أمّا تقدُّم المتناولين تحت الشكلين، فإنّه فَقَدَ شيئًا من أهمّيّته، لأنّ المؤمنين كانوا يتناولون نادرًا جدًّا، بالرغم من توصية الأسقف والإمبراطور، لأسباب بسيطة، إذ إنّ إلٰه الكارولينيّين هو إلٰهٌ قاسٍ وديّان لا يرحم. وكانت الكنيسة لا تعمل شيئًا لطمأنة المؤمنين، لا بل تصف لهم، بالعكس، ما يطرأ من مصائب رهيبة بعد «تناولٍ سيّئ». ولا بدّ من تأدية الإكرام والرهبة للشكلَين المقدّسين. وكان التناول يفترض الاطّهار، أي الإمساك عن كلّ علاقة جنسيّة

بالزوج، والكفّ عن الرقص وشرب الخمر، وذلك مدة عدّة أيّام. وبناءً عليه، كان المؤمنون يفضّلون عدم التناول إلّا في مناسبة الأعياد الكبرى، كالميلاد والفصح والعنصرة.

كيف كان المسيحيّ يعيش؟

باشر أحد الإكليريكيّين عظته لمناسبة الصوم الكبير بهذه الكلمات: «هذا هو الوقت الذي ينبغي لكم فيه أن تعترفوا بخطاياكم لله وللكاهن وأن تمحوها في الوقت نفسه بالأصوام والصلوات والدموع والصدقات». فكان على المؤمنين أن يتقدّموا إلى الاعتراف مرّة في السنة، في زمن الصوم الكبير: إنها شريعة سنّتها الكنيسة وتبنّاها التشريع.

التوبة الخاصّة والتوبة العلنيّة

كانت الروحانيّة الكارولينيّة كلّها مطبوعةً بطابع الشعور بالخطيئة: فالمطلوب أن يعترف المؤمن بخطاياه ويكفّر عنها. وكان الكثير من المؤمنين يعترفون لله فقط، لكنّ الإكليريكيّين كانوا يفضّلون أن ينصحوهم باتّباع صيغة أُخرى للتوبة. فإنّ العصر الوسيط عرف صيغتين: التوبة العلنيّة التي أتت من الكنيسة القديمة التي تمنّى الأساقفة أن تعود وتُحاط بالاعتبار، والتوبة الخاصّة التي ابتكرها الرهبان الإيرلنديّون. وهناك أيضًا بعض الإكليريكيّين الذين يوصون المؤمنين أحيانًا بالاعتراف بخطاياهم اليوميّة بعضهم لبعض على مثال الرهبان...

لكنّ الخاطئين، سواء أكانوا إكليريكيّين أم علمانيّين، كانوا يُدعَون، في أغلب الأحيان، إلى فتح قلوبهم للكاهن، لأنه طبيب النفس الحقيقيّ، يستطيع أن يساعد التائب على التصالح مع الله.

وكان الرهبان الإيرلنديّون قد وضعوا لوائح من الخطايا يقابل كلًّا منها عملُ التوبة الذي يجب القيام به، مِن صلواتٍ وأصوام وغرامات وتقشّفات جسديّة... وكانت هذه اللوائح تَدْخُل في تفصيل الخطايا وتُعدِّد بدقّةٍ بالغة خَطايا فظيعة، حتّى إنّ الأساقفة والإمبراطور وقعوا في قلق! كتب أسقف أُورليان «إنّ لوائح الخطايا تذكر كثيرًا من الجرائم التي لا يحسن تعريف الناس بها. فلا يجوز للكاهن أن يسأل التائب عن كلّ شيء، مخافة أن يقع، بإيعازٍ من الشيطان، في رذيلةٍ كان يجهل وجودها».

فكان الأساقفة يتمنّون العودة إلى التوبة العلنيّة، للخطايا الثقيلة على الأقل. ولذلك كان الكهنة والمؤمنون يُدعَون إلى الإبلاغ عن الخطايا التي يشاهدونها...

وكانت رتبة التوبة العلنيّة مشهدًا مهيبًا. ففي أربعاء الرماد، يصل الخاطئ مرتديًا الخيش، حافي الرجلين، منخفض العينين، فيتقدّم إلى الأسقف، فيضع الأسقف الرماد على جبينه ويُلبسه المِسح ويعيّن له عمل التوبة المفروض عليه، ثمّ يُطرد الخاطئ رسميًّا من الكنيسة. وبعد أن يُتمّ عمل التوبة، يعود إلى الجماعة المسيحيّة يوم خميس الأسرار.

بين التوبة الخاصّة والتوبة العلنيّة، لا يمكن أن يكون الخيار استئثاريًّا، فإن المؤمنين كانوا يفضّلون التوبة الخاصّة، في حين كانت الكنيسة تفضّل التوبة العلنيّة. فكان هناك حلّ وسط بين الاثنين: التوبة العلنيّة في حال الخطيئة الثقيلة العلنيّة، والتوبة الخاصّة في حال الخطيئة الثقيلة المجهولة.

خطايا الكارولينيّين

«إنّ لوائح أعمال التوبة تفيد عن الخطايا التي كان الكارولينيُّون يقترفونها في أغلب الأحيان. تأتي أوّلًا «الخطايا» الجنسيّة، إذ إنّ الإباحيّة كانت منتشرة في صفوف المجتمع كافّة. وكانت لوائح أعمال التوبة تبيّن

بدقّة تلك الخطايا، محدِّدة كما يجب تعرفة كلّ انحراف أو شذوذ أو جُرْم. وكانت شؤون الجنس، على ما يبدو، تستحوذ على إنسان العصر الوسيط، وتقع المسؤوليّة على الرهبان، لأنّ «خطايا الجنس» كانت هاجسهم. ولمّا كانت للأزمنة العصيبة أخلاقٌ شرسة، فكثيرًا ما يبدو الكارولينيّ، على غرار جدّه الميروفينيّ، مجرَّدَ بهيمة. فإنّه كان يشوِّه أعداءه وينتف لُحاهم ويقتلع عيونهم وألسنتهم ويحطّم أسنانهم ويقطع أيديهم وأقدامهم... وكان القَتلُ كثيرًا. أمّا الشريعة، فإنّها كانت قاسية في أغلب الأحيان بقدر ما كان الانتقام الشخصيّ قاسيًا. فالملك نفسه كان أوّل من يستخدم العنف في حملاته التبشيريّة... وهٰذه الشراسة في الأخلاق، التي كانت أمرًا مبتذلًا، تعرضها لوائح أعمال التوبة، محدِّدةً هنا أيضًا تعرفةَ كلٍّ من الخطايا. لا بل يعاقَب من يخطئون بالرغم منهم: فالجندي الذي يقتُل في الحرب، والعبد الذي يقتُل بأمر من سيّده، ملزَمان بالصوم أربعة أيّام. وفي لوائح أعمال التوبة فصل كامل لقَسَم الزور، فإنّ القَسَم، في حضارةٍ هي حضارة الشفهيّ، لا المكتوب، يقوم بدورٍ أساسيّ، لأنّه يقيم الروابط الجوهريّة بين الناس... وكانوا يُقسمون بالذخائر. وكان الحالف زورًا يرتكب خطيئةً دينيّة تعاقب بقساوة.

وإنْ أمكن الأمر وكان الموسم جيِّدًا، طاب للكارولينيّ أن يتنعَّم بالمأكل والمشرب، فكانوا يُكثرون من القصوف، علمًا بأنّ الخمرة والبيرة هما أفضل طريقة لعدم التفكير في مصائب الزمن. ولقد عُرف الإفرنج بإدمان المُسكرات، وهٰذه السُّمعة يشارك فيها الإكليريكيّون ورؤساء الأديرة... ولٰكن كان على الجميع، سواء أكانوا علمانيّين أم إكليريكيّين، أن يندموا على إدمان المسكرات أو على الشراهة...

وثيقة
الزواج من وجهة نظر بعض الرهبان

«لا يجوز لزوجة تركها زوجُها أن تتزوّج زوجًا آخر، ما دام زوجها الأوّل على قيد الحياة. فعليها أن تنتظر وحدها، بصبر وعفّة، أن يسكّن الله روح زوجها.
أمّا التكفير الواجب على الزوج أو الزوجة الزانية، فالاكتفاء بالخبز والماء مدّة سنة. وعلى الزوجين أن يقوما بالتكفير كلّ واحد بمفرده وأن لا يناما في سرير واحد.
نحثّ على ممارسة الإمساك الجنسيّ في الزواج، لأنّ الزواج من دون إمساك ليس زواجًا حقيقيًّا، بل خطيئة. ولم يهب الله الزواج للتنعّم، بل للإنجاب – فقد كُتب: «سيكونان اثنين في جسد واحد»، أي في وحدة الجسد للإنجاب، لا للذّة الحواسّ.
وفي أثناء كلّ سنة، على الزوجين أن يمارسا الإمساك الجنسيّ ثلاث مرّات مدّة أربعين يومًا، بالرضى المتبادل، للانصراف إلى الصلاة لخلاص نفسيهما. وعليهما أيضًا أن يُمسكا عن العلاقات الزوجيّة ليلة السبت إلى الأحد. وكذلك لا يجوز للرجل أن يقترب من زوجته الحامل، لكنّهما، بعد الولادة، يستطيعان أن يعودا إلى القران، كما كتب بولس الرسول».

(لائحة أعمال توبة، مطلع القرن التاسع)

نحو زواج مسيحيّ

حاولت الكنيسة أن تنصِّر الزواج، على أمل أن تضع حدًّا للإباحيّة الجنسيّة وتليِّن الأخلاق أيضًا. إنّها لخطوةٌ ربّما تمّت بعد فوات الأوان، فإنّ بركة الإكليل، التي نراها في بيزنطية مثلًا منذ القرن الرابع، لم تصبح مألوفةً في الغرب إلّا اعتبارًا من القرن التاسع. أمّا رتبة الزواج الطقسيّة بحصر المعنى، فلم تظهر قبل القرن العاشر.

كان الزواج، بحسب التقاليد الجرمانيّة والرومانيّة، حفلةً مدنيّة وتشارك في المصالح بين عشيرتين أو بين عائلتين. وكانت الخطبة المرحلةَ الأولى من مراحل الزواج، وكانت وعدًا يتّخذ مظهرَ عقدٍ قانونيّ بكلّ معنى الكلمة. فكان فسخ الخطبة يعرِّض للانتقام أو لدفع تعويضات كبيرة. أمّا المرحلة الثانية فكانت تنفيذ العقد، أي الزواج، وكان الابتهاج يدوم عدّة أيّام.

وفي التقليد الجرمانيّ، كان الزوج يسلّم امرأته، صباحَ العرس، لقاءَ بكارتها، «هدّية الصباح»، وهي هبة تمكّن الزوجة من إعالة نفسها، إن تُوفِّي زوجها.

نشأ الزواج المسيحيّ ببطء، ولٰكن ذٰلك لم يمنع الكنيسة من اعتبار نفسها حارسةً لقداسة الزواج ومن التدخّل لتأمين استقراره. وبناءً عليه، كانت تندّد بخطف البنات وتنصح بعدم تزويج النساء كرهًا وتفرض إعلان المناديات. فإذا أراد رجلٌ أن يتزوّج امرأة، كان عليه أن يُعلن عن رغبته مسبقًا، ليمكّن من البحث عن روابط القرابة المحتملة بين اللذين سيصبحان زوجين، والإبلاغ عنها إن اقتضى الأمر. ذٰلك بأنّ الزواج محرَّم حتّى درجة القرابة السابعة. وفي هٰذا تتبنّى الكنيسة تقليدًا جرمانيًّا، نجده في العديد من المجتمعات القَبَليّة، حيث يجب البحث عن الزوجة في خارج العائلة. لا بل كان هناك مانعٌ زواجيّ بين الأقارب الرُوحيّين، فلا يستطيع العرّاب أن يتزوّج ابنته بالمعموديّة ولا عرّابَتَها...

وكان الزواج بين عشائر مختلفة يضايق إلى حدٍّ بعيد رجال العصر الوسيط ونساءه، فإنّهم، في القرى والأملاك، كانوا يعيشون في مجموعاتٍ صغيرة مُغلقة. ويجوز لنا أن نتساءل هل الكنيسة لا تحافظ على الزواج بين عشائر مختلفة إلّا لتستطيع، كما يطيب لها، أن تمارس بعض الضغط على المزوَّجين، فكأنّها تقول لهم: أطيعوا، وإلّا أبلغنا عنكم زواجكم من بنات أعمامكم...!

وعَرَف ذٰلك الزمن مناقشات كبيرة في الطلاق. كانت الكنيسة تحرّمه طبعًا وتقاومه بضراوة. ولم تكن تسمح به إلّا في حالتين: عجز الزوج أو سوء سلوك المرأة. ولٰكن على الرجل، بوجهٍ عامّ، أن يحتفظ بامرأته، «حتّى لو كانت عاقرًا أو مشوَّهة أو عجوز، أو كانت قذرة أو سكّيرة أو بغيًّا أو شهوانيّة أو مغرورة بنفسها أو شرِهة أو متقلّبة أو مشاجرة، أو كانت سريعة الشتم... فإنّ الرجل، حين كان حرًّا، التزم بملء حرّيّته».

مثال المرأة الأعلى: السيّدة

«أيكون الحب اختراعًا يعود إلى القرن الثاني عشر؟». هٰذا ما يقال أحيانًا، ربّما مع شيءٍ من المبالغة. لٰكنّه صحيح أنّ العشّاق الكارولينيّين لم يتركوا إلّا القليل من الشهادات. ويبدو أنّه لم يكن للحبّ في الزواج إلّا دورٌ متواضع: فكانوا يتزوّجون في المجتمع الأرستقراطيّ لإقامة عهدٍ مع أسرةٍ أُخرى أو لتوسيع أملاكهم...

كانت امرأة العصر الوسيط تعيش تحت الوصاية، فتخضع أوّلًا لوصاية أبيها، ثمّ لوصاية زوجها. أمّا في المجتمع الأرستقراطيّ، فكانت مدعوّةً إلى الإسهام في الحياة المشتركة: فهناك نساء يُدرن شؤون أملاكهنّ، ويساعدن أزواجهنّ، ويرافقنهم حتّى في الحرب. وسواء أكانت المرأة مَلِكةً أم أميرة، فبإمكانها أن تقوم بدورٍ سياسيّ، على مثال يهوديت... وكان هناك أيضًا

نساء مثقّفات...

ومن المعروف أنّ الكنيسة كانت تحذر من النساء، غاويات الإكليريكيّين والرهبان، وغنيمة باردة يغتنمها السحر والشيطان. وكانت تستخفّ بالصفات النسائيّة ولا تثني إلّا على المرأة التي تبرهن عن صفات الرجولة...

تكريم القدّيسين والولَع بالذخائر

وراءَ المحسنين الأرضيّين، يبحث الإنسان عن الحُماة الروحيّين. وبما أنّ الله لا يُدرَك، لأنّه في نظر أبناء ذلك العصر كان جامدًا في جلاله وقساوته، فإنّ الكارولينيّ كان يلجأ إلى قدّيسيه، علمًا بأنّ الكنيسة كانت تشجّع هذا النوْع من التديّن.

لكنّ تكريم القدّيسين في الكنيسة يومَ عيدهم لا يكتفي به المؤمنون. فلكي يتثبّتوا من حمايتهم، كانوا يحاولون أن يقتربوا منهم ماديًّا، لشدّة حاجتهم إلى لَمْس ما كان لهم. ومن هنا انتشار تكريم الذخائر ونجاحه، وهو يعود إلى أقدم العصور، وقد انتشر في القرنين السابع والثامن. في الزمن الماضي، كان محرَّمًا أن يقطَّع جسم الميت وأن تكثَّر الذخائر. أمّا العصر الكارولينيّ، فلم يعد يعرف هذه التحريمات الحذرة. فنشأت تجارةٌ بكلّ معنى الكلمة. وبما أنّ عصر الشهداء قد مضى منذ زمن بعيد، فكان لا بدّ من «تفحُّص» القبور القديمة. وهناك وثائق تروي رحلات إكليريكيّين ورهبان في بلدان البحر الأبيض المتوسّط للقيام بتلك التحرّيات!

كانت رومة، بلا شكّ، عاصمة الذخائر. ولقد بلغ «نهب» الدياميس فيها ذورتَه، حتّى إنّ البابا پَسْكال الأوّل قرّر في ٨١٧ أن يُفرغ كنائس القبور في الدياميس وأمر بنقل ٢٧٠٠ جسد مقدّس إلى «داخل الأسوار».

وكانت تجارة الذخائر مُربحةً جدًّا... من الناحيتين المادّيّة والروحيّة. ولقد أثرى فيها كثير من السماسرة. وإذا فشلت الصفقات التجاريّة، لا يتردّدون في أن يسرقوا الذخائر، فإنّ السارقين «يستحقّون الثناء بسبب الغشّ المقدّس»... لا تهمّ الطريقة التي يُحصل بها على الذخائر، بل المهمّ الحصول عليها. وعندئذٍ، يتمّ نقلها بأُبّهة. وكلّما اقترب المرسَلون العائدون وأُخبر بوصولهم، بادرت جماهير السكّان، واتّسمت رحلة العودة بطابع تطوافٍ انتصاريّ. وفي كلٍّ من المراحل توضع الذخائر في إحدى الكنائس أو في أحد معابد الأملاك. ويقوم الإكليريكيّون بتنظيم سهراتِ صلاة، ويُدعى الشعب إلى مآدب يسودها الفرح والابتهاج. وفي الغد، تُستأنف المسيرة...

ولكي يضمن الكارولينيّ لنفسه حماية القدّيسين، لم يكن يتردَّد في ترك كلّ شيء للانطلاق على طرق فرنسا أو إيطاليا أو أفريقيا الشماليّة أو الشرق...

وكان الحجّ يتّخذ أشكالًا شتّى: فمنهم من يزورون الأماكن المقدّسة ويبحثون عن الذخائر، ومنهم من يفون بنذرٍ من النذور، وكانت أغلبيّتهم ترغب في التكفير عن خطيئة مكتومة، أو تفرض على نفسها أن تقوم بعمل من أعمال التوبة...

وكانت رومة أوّل مراكز الحجّ، يفد الناس إليها لتكريم ذخائر بطرس وبولس، ولكنّ أروعها كانت مدينة أورشليم. ولقد أقام شارلمان علاقات دبلوماسيّة مع خليفة بغداد ليستطيع الحُجّاج أن يذهبوا إليها من دون أن يُضايَقوا، لا بل حصل على حقّ الإشراف على تنظيم الأماكن المقدّسة وأنشأ فيها ملجأً للمسافرين.

وكان في تصرّف الحجّاج، الذين يفرضون على أنفسهم الذهاب إلى أماكن نائية، أدلّاء يُرشدونهم إلى الطرق التي يجب سلوكها والآثار التي يجب معاينتها. ولكنّ الكارولينيّ كان يجد دائمًا، من دون الابتعاد كثيرًا عن قريته، مكانًا يزوره ويصلّي فيه...

آثار وثنيّة باقية

إنّ المسافة التي تفصل بين تكريم الذخائر والقدّيسين، والخرافاتِ الوثنيّة، كانت قصيرةً جدًّا في

بعض الأحيان. فلكلّ قدّيس، سواء أكان مشهورًا بالأشفية أم صانعَ معجزات، اختصاصُه ومجال تدخّله الخاصّ. وكان التكريم الذي يؤدّى إليه – ويكفي لذٰلك أن يستجيب أمنيةً من الأماني أو أن يُظهر تسامحه – يَحجب أحيانًا العبادةَ التي ينبغي لكلّ مسيحيّ أن يؤدّيها إلى الله. فكان رجال الإكليرس يتدخّلون عندئذٍ ويندّدون بالتجاوزات ويذكّرون بعقائد الإيمان المسيحيّ...

وإلى جانب أعمال التقوى المسيحيّة التي تتّخذ طابعًا وثنيًّا، كانت هناك بقايا وثنيّة أصيلة متأصّلة تصمد في وجه الضربات التي لا تكفّ الكنيسة عن توجيهها إليها. أمّا العمل الذي فرضَ شارلمان بموجبِ الشريعة المسيحيّة في الغرب، فكاد أن لا يغيّر شيئًا في الأوضاع القائمة...

ولم يألُ الأساقفة جهدًا في مكافحة الخرافات ومعتقدات الأجداد الجرمانيّة والرومانيّة والكلتيّة. إلّا أن الممارسات الحياتيّة والسحريّة حافظت على أنصارها في الأرياف والمدن. ويُروى أنّ القدّيس بونيفاقيوس شكا في مطلع سنة ٧٤٢ من أنّ عددًا من المغنّين والراقصين ظهروا بمظهر الحيوانات واستسلموا للهرج والمرج ليلًا نهارًا لعدَّةِ أيّام حتّى أمام مدخل كنيسة القدّيس بطرس...

هل كانوا مسيحيّين أم غير مسيحيّين؟

هل كان شعب العصر الوسيط مسيحيًّا؟ إنّه السؤال الذي يخطر ببالنا، حين نفكّر في البقايا الوثنيّة التي لم تزل مترسّخة في أذهان أبناء العصر الكارولينيّ. لعلَّ العناصر الوثنيّة، الموروثة من العالم الإغريقيّ الرومانيّ، أو من العالم الجرمانيّ، قد نجحت في تشويه المسيحيّة، والاستفادة منها بوجهٍ من الوجوه، وجعلها تافهة على كلّ حال. إنّه استنتاج يوافق عليه بعض المؤرّخين. ومع ذٰلك، وعلى الرغم من أنّ الوثنيّة كانت عميقة الجذور في المجتمع، والخرافات كانت مستعصيةً وطويلة العمر، لا يمكننا أن نقول إنَّ العصر الوسيط كان عصرًا وثنيًّا. فإنَّ تشارك الكنيسة والدولة، وهو إحدى العلامات التي يمتاز بها ذٰلك الزمن، قد مكَّن من وضع ركيزة اجتماعيّة وحقوقيّة ودينيّة تامّة، مستوحاة من الدين المسيحيّ. لا بل ربّما كان هناك اهتمام بممارسة الدين الخارجيّة يفوق الاهتمام بمضمون الإيمان والحياة الروحيّة. لٰكنّ الحياة الدينيّة كانت «إحاطةَ» المجتمع «بإطار»، ويجوز لنا أن نتساءل هل حَلُمَ شارلمان بإعادة تكوين عالم مسيحيّ في الغرب على صورة العالم اليهوديّ القديم – حيث كان الشعب العبرانيّ محاطًا هو أيضًا بإطارٍ وبقيادة زعماء – ليُحقّق على طريقته ملكوتَ الله في الأرض؟ على كلّ حال، وُلد الغرب المسيحيّ بين القرن الثامن والقرن العاشر...

الباب السادس

البابا والإمبراطور

بعد أن اهتدى قسطنطين، اعتبر أنّ السماء
قَلَّدته مسؤوليَّات دينيّة. وحين أصبح شارلمان مسيحيًّا،
تبنَّى هٰذا التقليد. فكان يعتبر نفسه،
بصفته ملكًا كاهنًا، رئيس الإكليرس الأعلى.
وماذا من أمر البابا؟ عليه أن يقوم بدوره
الذي هو دور الشفيع،
فيتكفَّل الرئيسُ الزمنيّ بالباقي.
فنجَمَ عن ذٰلك سلسلة
من التجاوزات عانتها الكنيسة:
فلم يكن الإكليريكيّون، الذين يعيّنهم الملوك،
خدّامَ الله بقدر ما كانوا خدَّام البلاط.
ولٰكن ظهر في القرن الحادي عشر بابوان كبيران،
وهما لاون التاسع وغريغوريوس السابع،
فقد أَنجزا إصلاحًا في العمق،
وهو الإصلاح المعروف بالإصلاح الغريغوريّ.
فتحرَّرت الكنيسة من تسلّط العلمانيّين،
ولٰكنّ ذٰلك لم يخلُ من الصراع الشديد بين الكهنوت
والإمبراطوريّة.

الفصل الأوّل

المدينتان

بقلم بيار ريشيه(*)

«ليست مملكتي من هٰذا العالَم. . . أدُّوا لقيصر ما لقيصر. . . لا سلطة إلَّا من عند الله. . . ليخضعْ كلّ امرئٍ للسلطات. . .». بهٰذه التعاليم المأخوذة من العهد الجديد استشهد، طوال قرون، جميع الذين أرادوا أن يحدّدوا، في هٰذا المعنى أو ذاك، ما هي العلاقات القائمة بين السلطة الروحيّة والسلطة الزمنيّة. وحتّى القرن الرابع، كان المسيحيّون على صوابٍ أن يتردَّدوا في اختيارهم ويتساءلوا هل تستطيع الكنيسة أن تعيش في العالم أم أن تبقى في خارجه. جاء الجواب من «مرسوم التسامح» الذي أصدره قسطنطين من ٣١٣. مِن حُسن السلوك في أيّامنا أن تُنسَب جميع الشرور التي تعانيها الكنيسة إلى العصر القسطنطينيّ. فيُقال إنّ الإمبراطور، بعد أن أصبح مسيحيًّا، قد جرَّ الكنيسة في طريق لا يجوز لها أن تسلكه. وما الفائدة من الميل إلى كتابة التاريخ مرَّة ثانية؟ لقد قامت إمبراطوريّة مسيحيّة فاستفادت منها الكنيسة إلى حدّ بعيد. وانطلاقًا من تلك الأيّام، كان على الكنيسة أن تواجه خطرَين: من جهة، قدرة الحكم الذي يُخشى أن يُخضع الإكليريكيّين لسلطته، وهٰذا ما يسمّونه عادةً «القيصريّة البابويّة». وهٰذا النظام عرفه الشرق والغرب على السواء. ومن جهة أخرى، تدخُّل الكنيسة في شؤون الدولة، وهو صيغة من الصيغ التي سُمِّيت «الأكليرُسيّة» في القرن التاسع عشر. فهناك عارِض طرأ على التاريخ، وهو انهيار إمبراطوريّة الغرب بعد غزو البرابرة، حمل الكنيسة اللاتينيّة ورئيسها البابا المقيم في رومة على اتّخاذ مسؤوليّات زمنيّة وإدارة شؤون العالم المسيحيّ.

ولمَّا اهتدى الأمراء البرابرة إلى الدين المسيحيّ وأصبحوا أباطرةً بفضل البابويّة، سعوا إلى بناء عالم قائم على الشرائع الدينيّة. فتكيَّفت الكنيسة مع الأوضاع الجديدة، ولٰكنّها خسرت الكثير من حرّيّتها. وابتداءً من القرن الحادي عشر، تحرَّر البابا والأساقفة من وصاية العلمانيّين، ولٰكنّهم أرادوا هم أيضًا أن يُخضعوا الغرب كلّه لسلطتهم الروحيّة، قائلين بأنّ العالم هو في الكنيسة. فبعد دور الملك الكاهن، جاء دور البابا الملك. فكيف الخروج من هٰذا المأزق؟

ولقد وجب انتظار القرن الثالث عشر حتّى شعَرَ الناس باستقلاليّة الحكم السياسي، وحتّى بَدأ تثبُّت القيم العلمانيّة. ومنذ تلك الأيّام، أخذ الغرب يسير نحو العلمنة ونحو التمييز بين السلطتين. ولم يتمَّ ذٰلك فعلًا إلَّا بعد سبعة قرون. ولم يَرَ الإكليريكيّون، إلَّا والحسرةُ في القلوب، تقلُّصَ امتيازاتهم وسلطتهم، ولا عجب في ذٰلك عند الإنسان. وكثر عدد المسيحيّين الذين حلموا مدَّةً طويلة بعودة عصرٍ ذهبيّ أدار فيه الملوك والأساقفة شؤون الغرب المسيحيّ إدارةً متكاملة، ولٰكنّهم برهنوا في ذٰلك عن معرفة تاريخهم معرفةً سيّئة جدًّا. فسنُظهر بالعكس ما كان هناك من مواجهات بين الكهنوت والإمبراطوريّة.

ونحن في أيّامنا نعيش اللحظات الأخيرة من ذٰلك التاريخ الطويل. ففي البلدان التي كان فيها دين الدولة والإكليرسيّة متمركزَين إلى عهد قريب، كأميركا اللاتينيّة وشبه الجزيرة الإيبيريّة، تتحرَّر الكنيسة من بقايا العصر الوسيط الأخيرة. ولٰكن من الإفراط في الثقة بالإنسان

(*) Pierre Riché، أستاذ في جامعة باريس العاشرة.

أن نعتقد بأنّ الكنيسة لن تناضل أيضًا، في القرون الآتية، إمَّا للدفاع عن حرّيتها في وجه رغبة الدولة في السيطرة، وإمَّا لوقاية نفسها من إغواء الإكليرُسيّة، سواء أكانت يمينيّة أم يساريّة. وبين هٰذه العقبات، يسير شعب الله الذي يؤلّف الكنيسة، وسيواصل سيره بمشقَّة، عالمًا بأنّ عليه أن يبني، مع جميع البشر، مدينةً موقّتة هي، كما قال الشاعر پيغي، «صورةُ بيتِ الله وبدايتُه وجسمُه وباكورتُه».

الفصل الثاني

توزيع السلطات

بقلم پيار ريشيه

اتّخذت الكنيسة، في القرون الأوائل من تاريخها، موقفًا من الدولة متناقضًا في الظاهر. فمن جهة، رفضت الدولةَ الوثنيّة، إذ بدا لها أنّها تجسّد المسيح الدجّال، ولم يكن في إمكانها أن تقبل عبادة الآلهة ولا الإكرام المؤدّى إلى الإمبراطور ولا توتاليتاريّة الحكم السياسيّ. ومن جهة أُخرى، لم يكن في إمكان الكنيسة أن تتجاهل الدولة الرومانيّة، إذ كان على المسيحيّين أن يخضعوا للسلطات الزمنيّة، لأنّه لا سلطة إلّا من الله: «والذي يقيم الملوك ويخلعهم هو الله وحده» (أُوريجانيس). والمسيحيّون، مع اعتبار أنفسهم في عالَم موقّت وعلى أرض غريبة، يخضعون، كسائر البشر، لّلشرائع، ما دامت لا تُرغمهم على إنكار إلٰههم. لا بل يعلّمون مواطنيهم أن يستعدّوا الدخول تلك الدولة الأُخرى السرّيّة والسماويّة، مدينة الله التي سيلتقي فيها أصحاب الإرادة الحسنة جميعًا.

الإمبراطور ممثّل الله؟

كان من الممكن أن يدوم هٰذا الوضع طويلًا. لٰكنّ اهتداء الأباطرة إلى الدين المسيحيّ غيَّر ظروف العلاقات بين الكنيسة والدولة. ولا يجوز الاعتقاد بأنّ مرسوم التسامح الذي أصدره قسطنطين، ثمّ تأييده الكنيسة بتزايد، قد حلّا جميع المشاكل. فإنّ قسطنطين، مع اعترافه بحقّ الكنيسة في أن تكون حرّة في المجالات الخاصّة بها، قد ورث من سلفه منصب «الحبر الأعظم»، وهٰذا يعني أنّه كان يعتبر أنّ السماء قلّدته مسؤوليّات دينيّة. ولقد ثبّته في هٰذه الفكرة بعضُ لاهوتيّي البلاط، كأوسابيوس القيصريّ، وهو الذي كتب «أنّ الله يمدّ يده إلى قسطنطين من أعلى السموات ويغلّبه على أعدائه»، وأنّ الإمبراطور «يعادل الرسل»، ويقوم على الأرض مقام الملك الإلٰهيّ. فمفهوم الدولة القدسيّ خرج معزَّزًا من اهتداء الإمبراطور، وكلُّ ما يتعلّق بالإمبراطور والبلاط أصبح يُنعَت بـ«المقدّس». فالإمبراطور هو الذي دعا إلى عقد المجمع النيقاويّ لوضع حدٍّ للأريوسيّة، ولم يقبل أن يعصي الأساقفة أوامره. وحين انضمّ خلَفُه قسطنسيوس إلى الأريوسيّة فأراد أن يفرض هٰذا الإيمان على الإمبراطوريّة كلّها، قامت النزاعات الأُولى بين الكهنوت والإمبراطوريّة. لٰكنّ الأساقفة الكاثوليك قاوموا هٰذا الطغيان الجديد، قائلين: «إنّ الإمبراطور هو في الكنيسة، لا فوقها، وإنّ الإمبراطور الصالح يسعى إلى مساعدة الكنيسة، لا إلى محاربتها».

ونُظِّمت المقاومة بمزيد من الشدّة في القسم الغربيّ من الإمبراطوريّة. أمّا في الشرق، ولا سيّما في عاصمته الجديدة القسطنطينيّة، فإنّ الأباطرة نجحوا في إخضاع الأساقفة. والأسقف الوحيد الذي جرؤ على المقاومة، وهو القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، توفّي في المنفى. فارتسمت أُولى ملامح إمبراطوريّة بيزنطيّة كثيرًا ما تمّ فيها الخلط بين الكنيسة والدولة، في حين قام في الغرب أساقفة كالقدّيس أمبروسيوس يدافعون عن حقوق الكنيسة في وجه القوّة الإمبراطوريّة. لا بل جرؤ أمبروسيوس أسقف ميلانو، في ٣٩٠، على حرم الإمبراطور ثِيودُوسيوس، المتَّهَم بالتساهل في مجزرة سكّان تَسالونيقي. فكان على الإمبراطور أن يكفّر عن

ذنبه مدَّة ثمانية أشهر، قبل أن يستطيع الانضمام ثانيةً إلى الكنيسة.

وكان لهٰذا الحدث الشهير، الذي استغلّته الأسطورة والفنّ، صدى بعيد في الإمبراطوريّة. فقد اتَّضح أنّ الإمبراطور لا يستطيع أن يتصرّف إلّا كما يتصرَّف أوضع المسيحيّين، لأنّ الشريعة الإلٰهيّة تجري على الجميع.

السلطتان

إنّ كنيسة الغرب، بنضالها في سبيل الحرّيّة، استفادت، إذا صحّ القول، من الغزوات الكبرى التي عرفها القرن الخامس. فإنّ هٰذه الكارثة، التي أنذرت، في نظر الكثيرين، بنهاية العالم، مكّنت من تحديد العلاقات التي يجب أن تقوم بين الكنيسة والدولة. فقد وضع القدّيس أوغسطينس، بعد سقوط رومة في ٤١٠، كتابه **مدينة الله**، وطمأن المسيحيّين، مبيّنًا لهم أنّه لا يمكن الخلط بين هٰذه المدينة الإلٰهيّة والإمبراطوريّة الرومانيّة. هناك مدينتان تقومان متشابكتَين: الواحدة بشريّة ومادّيّة قابلة للزوال، والأُخرى سماويّة وفائقة الطبيعة أبديّة. والمسيحيّون، وحتّى غير المسيحيّين، ينتمون إلى هاتين المدينتين. ولا يمكن الخلط بين مدينة الله والكنيسة المنظورة، ولا بينها وبين الإمبراطوريّة المسيحيّة. إنّها مدينة سرّيّة، لا بدّ من أن تكون مثالًا أصليًّا لكلٍّ من المسيحيّين.

وفي الوقت نفسه، حدَّد أوغسطينس، في فقرات أُخرى من كتابه، ما يجب أن تكون العلاقات بين الكنيسة والدولة، فقال إنّ هاتين السلطتين مستقلَّتان الواحدة عن الأُخرى، لأن علّة وجودهما تختلف، فالكنيسة تهتمّ بالمصالح الروحيّة، والدولة بالمصالح المادّيّة. الكنيسة تتمتّع بسلطة أدبيّة، والدولة بسلطة طبيعيّة. لٰكن لا بدّ للملوك المسيحيّين من أن يستوحوا في حكمهم من مبادئ الكنيسة، إذ إنّ المدينة السماويّة هي حتمًا وبحكم طبيعتها فوق المدينة الزمنيّة. إنّ السلطتين مستقلّتان الواحدة عن الأُخرى، ولٰكن يجب أن تتعاونا.

وهٰذا التعاون في إطار الاستقلال أجاد تحديدَه أسقفُ رومة جِيلاسِيوس (٤٩٢-٤٩٦)، في نهاية القرن الخامس، في رسالة بعث بها إلى إمبراطور الشرق أَنَسْطاسِيوس. وقد أزيلت فيها الالتباسات التي قد نجدها عند أوغسطينس. وورد فيها استقلال السلطتين الواحدة عن الأُخرى، ولٰكنّ الملوك يتمتّعون بالقدرة (potestas)، في حين يتمتّع الأساقفة بالسلطة (auctoritas)، أي بتلك السلطة الروحيّة التي تفوق الحكم الزمنيّ. قيل إنّ هٰذه الرسالة تفتتح العصر الوسيط وتضع أسس تعليم السلطتين لألف سنة. وسنرى ما يجب أن يكون رأينا في هٰذا القول.

وإذا استطاع أسقف رومة أن يؤكّد بهٰذه الدقّة تفوّق السلطة الروحيّة، فلأنّه، منذ عهد قريب، لم يعد في الغرب من وجود للإمبراطور: فكان يتكلّم بحرّيّة تفوق كثيرًا تلك التي استطاع بطريرك القسطنطينيّة أن يتكلّم بها. ذٰلك بأنّ الغزوات الكبرى التي عرفها القرن الخامس أدَّت إلى زوال إمبراطوريّة راقِيًا. رسميًّا، خُلع الإمبراطور الأخير في ٤٧٦ عن يد أحد البرابرة، ولٰكنّ سلطة الإمبراطوريّة في الغرب زالت فعلًا عن الوجود منذ منتصف القرن الخامس. وبقي البابا وحده في رومة، مدينة بطرس وبولس. أمَّا الإمبراطور، فإنّه يقيم بعيدًا في القسطنطينيّة. فلم ينتج من ذٰلك تعزيز لسلطة البابا على كنائس الغرب فحَسْب، بل أخذ دورُه في الدفاع عن الغرب يتَّضح أيضًا. فهناك الدفاع الزمنيّ، حين نرى البابا لاون الكبير يتدخّل لدى أتّيلا في ٤٥٢ ويفاوض الغازي، والدفاعُ الروحيّ، حين رفض لاون نفسه أحد قرارات المجمع الخلقيدوني، لأنّه منح بطريرك القسطنطينيّة امتيازاتٍ تعادل امتيازات بابا رومة.

وثيقة
مدينتان متشابكتان

«على أسرة المسيح ربّنا المفتداةِ أن تتذكّر أنّه حتّى بين أعدائها
يختبئ مواطنون مُقبلون. وهي بذلك تمتنع عن وصفهم بالخصوم، في انتظار أن يعلنوا إيمانهم.
وكذلك، ما دام زمن حجّ مدينة الله في هذا العالم، فإنّها تتضمّن أعضاءً
يشاركون في الأسرار نفسها، من دون أن يكونوا جزءًا من نصيب القدّيسين في الأبديّة.
ومنهم من ينضمّون إلى الملحدين للتجديف على الله، مع أنّهم يحملون علامته المقدّسة.
ومنهم من يلحقون بالملحدين في ألعاب المسارح الوثنيّة، مع أنّهم لا يكفّون عن التردّد إلى
الكنائس. أيًّا كانوا، لا يجوز اليأس من اهتدائهم، ولا سيّما وأنّنا نجد، عند ألدّ الأعداء،
أصدقاء مقبلين مختبئين ما زالوا هم أنفسهم يجهلون مصيرهم. فالمدينتان
هما إذًا مختلطتان ومتشابكتان طوال هذه الأزمنة، حتّى التمييز الذي
سيتمّ في الدينونة النهائيّة».

(القدّيس أوغسطينس، **مدينة الله**، ١، ٣٥)

في زمن البرابرة

من سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى تنظيم الإمبراطوريّة الكارولينيّة، في أثناء هذا النوع من الفترة بين مُلْكَين، كيف تظهر العلاقات بين الكنيسة والدولة؟ الدولة يمثّلها إمبراطور الشرق، لا بل الملوك البرابرة الذين تقاسموا الغرب أيضًا. وحين اهتدوا إلى الدين الكاثوليكيّ، لم يكن في إمكانهم أن لا يهتمّوا بحياة الكنيسة. فقد كانوا يشعرون من جهة بما للأساقفة والإكليريكيّين من نفوذ لدى السكّان - كانوا يخشون أن يُثيروا استياء أولئك الذين يفتحون أبواب السماء - ولكنّهم كانوا يرغبون، من جهة أُخرى، في مراقبة اختيار رجال الإكليرس والاطمئنان إلى خضوعهم.

وما إن اهتدى كلوڤيس حتّى أراد أن يُشرف على انتخاب الأساقفة، ودعا من تلقاء نفسه إلى عقد المجمع الأورليانيّ الأوّل وسار خلفاؤه في خطاه. فتمّ اختيار العديد من الأساقفة الميروڤينيّين من بين مستشاري البلاط السابقين... إنّ الكنيسة الميروڤينيّة كانت كنيسةً «قوميّة» أكثر اتّصالًا بالملوك منها بالبابوات.

وكانت الروابط بين الكنيسة والدولة أوثق أيضًا في إسبانيا الغوطيّة الغربيّة. فإنّ مجامع طُلَيْطِلة، التي دعا الملكُ إلى عقدها، كانت مجالس دينيّة بقدر ما كانت مجالس سياسيّة. فكانت جمعيّة الأساقفة تناقش طرق الحُكم واتّخاذ القوانين الجديدة، وتقبل الشكاوى المتعلّقة بإدارة موظّفي الدولة، وكان يجوز لها أن تتحوّل إلى محكمة عدل.

وكان الأساقفة الإسبانيّون يذهبون إلى أبعد من ذلك، فيحدّدون وظيفة المَلِك ويعرضون، بقلم إيسيدُورُس الإشبيليّ، صيغةً أحرزت نجاحًا عظيمًا. فالملك يعيَّن من قبل الله للحفاظ على النظام والأخلاق المسيحيّة. وإن لم يصْنَع ذلك ومارَسَ سلطته بطريقة كافرة وطاغية، يمكن خَلعُه. فالأساقفة كانوا إذًا يراقبون الملكيّة ويسهرون على احترام مفهوم الملكيّة الخَدَماتيّ. وأراد أسقف طليطلة المتروپوليّ أن يعزّز نفوذ المَلِك ويمنحه سلطة دينيّة، فجدّد عمل صموئيل الذي مسح داود، وتوّج الملك. وجعل منه علمانيًّا فريدًا، لا يجوز لأحد أن يمسّه تحت طائلة الاعتداء على شخصٍ مقدّس. ولكنّه طلبَ إلى الملك المتوّج، في الوقت نفسه، أن يُقسم اليمين وأرغمه بالتالي على الدفاع عن الكنيسة والإيمان، هذه سابقة لم تَنْسَها الكنيسة الكارولينيّة.

على عهد غريغوريوس الكبير

أن يكون الملك الكاثوليكيّ في خدمة الكنيسة، هٰذا ما يعتقده أيضًا البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠-٦٠٤). فإنّه، مع احترامه سلطةَ إمبراطور الشرق، قد ذكّره بأنّ «الحكم أتاه من العلاء ليوسّع الطريق المؤدّي إلى السماء ولتكون المملكة الأرضيّة في خدمة ملكوت السموات». ولا يجوز للدولة أن تعرقل بناء مدينة الله. فحين تدخّل الإمبراطور مُوريقيوس ليمنع الموظّفين من دخول الدير، احتجّ البابا، لأنّ الحياة الرهبانيّة تفوق، في نظره، كلّ نشاط. وفضلًا عن ذٰلك، فإنّ الحكم السياسيّ يجب أن يُكرِه الوثنيّين على التخلّي عن ممارساتهم وأن يصبح، في هٰذا المجال، معاونَ الأساقفة. وإذا صحّ أنّ للحكم الزمنيّ دورًا روحيًّا، فإنّ الحكم الروحيّ قد يكون له دور زمنيّ. ومنذ عصر الغزوات، أخذ الأساقفة يتدخّلون مباشرةً للدفاع عن رعاياهم. فغريغوريوس الكبير، الذي تحمّل غزوات اللُّمبرديّين، كان مضطرًّا إلى حماية مدينة رومة، من دون أن ينتظر وصول قوّات نجدة بيزنطيّة، وإلى افتداء الأسرى وتموين المدن الجائعة. ولم يتردّد في التدخّل لعقد الصلح مع اللومبرديّين، وكان فخورًا بذٰلك في قوله: «لو قبلتُ بتدمير اللُّومبَرديّين، لَما بقي اليوم لهٰذه الأمّة دُوق ولا كُونْت ولا مَلِك، ولكانت فريسةَ بلبلةٍ لا يمكن معالجتها. ولٰكن، لأنّي أخاف الله، لم أُرد أن أتدخّل في هلاك أيّ أحد». لقد أخذ بعضهم على غريغوريوس تدخّله في الحقل الزمنيّ، لٰكنّه اكتفى بالسير في خطى سلفه، معوِّضًا عن تقصير الحكم المدنيّ، وساهرًا على سلامة المسيحيّين، وحاميًا صغار الناس من شراسة الكبار. لٰكنّ أسقف رومة ليس أسقفًا كغيره من الأساقفة، فإنّ عمله يُلزم أكثر من مجرّد كنيسته. كان خليفةُ بطرس قدوةً يُقتدى بها، فلم ينقطع نفوذه عن الازدياد. وكان السكّان يرون فيه مدافعًا في وجه الطّغيان السياسيّ أو ثِقل نظام الضرائب البيزنطيّ. وإلى جانب ذٰلك، كان لكنيسة رومة مواريث، وهي عبارة عن أملاك واسعة تبرّع بها بعض العلمانيّين الأثرياء، تبلغ مساحتها في إيطاليا نحو ٥٠٠٠٠٠ هكتار. وكان البابوات يشرفون على إدارة هٰذه الأراضي على غرار كبار الملّاكين ويجنون منها ما يلزم من الموارد للإنفاق على الكنيسة الرومانيّة. فكانت المواريث تبدو حجارةً جاهزة للدولة البابويّة المقبلة.



القدّيس غريغوريوس الكبير

الدولة البابويّة

في منتصف القرن الثامن، أصبح البابا عاهلًا زمنيًّا، إذ إنّه ورث الأراضي التي يقيم فيها اللُّمبرديّون. فكان هٰذا التجديد جازمًا في تطوّر العلاقات بين الكنيسة والدولة. قد نستغرب للوهلة الأولى أن يتمنّى أسقف رومة أن يصبح سيّد دولة محدودة بأرضٍ من الأراضي. ولٰكن لا بدّ من التذكّر بأنّه كان من الصعب أن يتصوّر الناس قوّةً روحيّة أو أدبيّة لا تقوم على سند ماديّ. وكان الحصول على قاعدة أرضيّة، في نظر البابويّة،

ضمانًا لاستقلالها عن القوى السياسيّة. وعلى أثر وجود تباينات تعليميّة وطقسيّة، ابتعد البابا عن القسطنطينيّة، واكتسب في الغرب، بفضل سعيه لإعلان البشارة، سلطة روحيّة. وحلّ معنويًّا محلَّ إمبراطور الغرب السابق. هٰذا ما ورد، على الأقلّ، في «هِبَة قسطنطين» الشهيرة، وهي وثيقة مزوّرة حُرّرت في رومة في القرن الثامن. وقد ورد فيها أنّ قسطنطين، حين أوشك أن يقيم عاصمته في الشرق، قرّر أن يتخلّى عن الغرب للبابا. فحصل البابا، لا على رومة ومدن الغرب كلّها وحسْب، بل على الشعارات الإمبراطوريّة أيضًا. صرَّح الأب كونْغار بأنّ هٰذا النص هو «من أكثر التزاوير إساءةً إلى الكنيسة، فإنّه شجّع على تطوُّرِ العقائديّة البابويّة في اتّجاهِ قوّةٍ سياسيّة ومظاهر إمبرياليّة».

وهٰكذا فمنذ القرن الثامن، اجتمعت العناصر التي تمكّن السلطتَين من إقامة الحوار، وهي: تأكيد وجودِ تبادل خدمات بين السلطة الروحيّة والسلطة السياسيّة، وتفوُّقُ السلطة الروحيّة المعنويّ، وحقّ الأساقفة في أن يراقبوا الملكيّة، وإنشاء دولة يدير شؤونها أسقف رومة، الذي يظهر بمظهر وريث الأباطرة الرومانيّين. أفلا يؤدّي ذٰلك إلى حكم إلٰهيّ بكلّ معنى الكلمة، أي إلى سيادة الكنيسة في الشّؤون الزمنيّة؟ أَوَلا يُخشى أن تُفقَد الأمانة للإنجيل؟

وثيقة

التعاون والاستقلال

في نهاية القرن الخامس، حدَّد أسقف رومة جيلاسيوس ما هي العلاقات بين الكنيسة والدولة، في رسالة بعث بها إلى إمبراطور الشرق أنسطاسيوس:

«هناك، يا جلالة الإمبراطور، مبدآن تقوم عليهما إدارات العالم: سلطة الأحبار المقدَّسة والحكم الملكيّ. والمهمّة التي يقوم بها الأساقفة هي ثقيلة بقدر ما عليهم أن يؤدّوا حسابًا، أمام العدل الإلٰهي، حتى عن الذين هم الملوك. فإنّه لا يخفى عليك، يا بُنيّ الحليم، أنّه على الرغم من أنّ مرتبتك تضعك فوق الجنس البشري، فإنّك تحني رأسك، بحكم الواجب الدينيّ، أمام المكلَّفين بالأمور الإلٰهيّة، وتنتظر منهم وسائل خلاصك. ولكي تنال الأسرار المقدّسة وتوزّعها كما يليق، عليك، وفقًا لقواعد الدين، وأنت أدرى بذٰلك، أن تخضع أكثر من أن تُدير. وبناءً عليه، ينبغي لك في ذٰلك كلّه أن تخضع لحكمهم، ولا يجوز لك أن تُخضعهم لإرادتك. فإذا سلَّم الرؤساء الدينيّون، في ما يتعلّق بقواعد النظام العامّ، بأنّ الأمبراطوريّة وُهبت لك بتدبير من العلاء، وإذا خضعوا هم أنفسهم لقوانينك، لعدم رغبتهم على الأقل، في أن يبدوا مخالفين لقراراتك النهائيّة، أقلّه في شؤون هٰذا العالم، فبأيّ شعور يجب الخضوع للذين كُلِّفوا بتوزيع الأسرار المكرَّمة؟ ولذٰلك، فكما أنّ الخطر الذي يعرَّض له البابوات الذين لم يحثّوا على عبادة الله كما يجب لا يستهان به، كذٰلك لا يُستهان بالخطر - وليته لا يكون - الذي يُعرَّض له من يَحتقرون، في حين يجب أن يطيعوا. وإذا كان طبيعيًّا أن تَخضع قلوب المؤمنين للأساقفة الذين يقومون كما يليق بوظائفهم الإلٰهيّة، فكم بالأحرى يجب الإجماع حول الملك الجالس على هٰذا الكرسيّ، والذي أرادت له السلطة العليا أن يكون متفوّقًا على جميع الأساقفة، والذي أشادت به دائمًا في ما بعد تقوى جميع المؤمنين».

(جيلاسيوس، **رسالة إلى أنسطاسيوس**)

الفصل الثالث

بابا بين عالَمين

بقلم فرنسوا كِنان[*]

«المدن مدمَّرة، والحصون مدكوكة، والحقول خالية من السكّان، والأرض مقفرة. ما من إنسان في الحقول، ولم يبق تقريبًا ساكن في المدن. والتي كانت تبدو سيّدة العالم، نرى في أيّ حال أصبحت. أين مجلس الشيوخ؟ وأين الشعب؟ رومة المقفرة فريسة النار». هٰذا هو المشهد الذي تراءى لغريغوريوس الأوّل، حين رُقّي إلى الرتبة البابويّة في ٥٩٠. احتلّ البرابرة الغرب، وأخذت القسطنطينيّة محلَّ رومة.

في نظر الشعب والإكليرس الرومانيّ، كان غريغوريوس الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحافظ على المدينة القديمة ويعيد إليها شيئًا من المكانة. كان البابا الجديد متحدِّرًا من عائلة شريفة قديمة، وكان له خبرة إداريّة كبيرة، إذ إنّه شغل منصب والي رومة. وكان دبلوماسيًّا لبقًا، فاكتسب الكثير من الأصدقاء في بلاط القسطنطينيّة بصفته ممثّلًا سَلَفه بيلاجيوس الثاني. أسّس عدّة أديرة وترهّب هو نفسه في الجماعة التي أنشأها في رومة، وعُرف بتقواه. فهل إنّ صفاته ستمكّنه من تخليص المدينة وإعادة السلطة إلى البابويّة، بعد أن نِيل منها؟

أصيبت رومة بنكبات طبيعيّة لا يصدَّق عنفها، من طاعون ومجاعة وطوفان. فاستفاد غريغوريوس من مواهبه الإداريّة واستورد قمحًا من صقلّية، وحثّ الموظّفين وشجّع الشعب. وفي مجتمع ينهار فيه كل شيء، ابتداءً من الحكم، فرض نفسه رئيسًا زمنيًّا في العاصمة الساقطة، فكان مثالًا حيًّا للرومانيّ الفاضل، الشديد العزم، المتمسّك بعظمة المدينة... حفظ لنا التاريخُ ذكرى لقاء البابا وملك البرابرة اللومبَرديّين الذي باشر حصار المدينة بجميع جيوشه، وكان هٰذا اللقاء على درجات باسيليكا القدّيس بطرس: «تأثّر الملك بصلوات ذٰلك الرجل العظيم وبحكمته ورصانته الدينيّة» فكفَّ عن الاستيلاء على المدينة (٥٩٣). تلت هٰذه المقابلة معاهدةٌ وُضعت في ٥٩٨، يعود فضلها إلى سعي البابا الدائم (بالرسائل والزيارات والهدايا).

وكما كان غريغوريوس مديرًا ودبلوماسيًّا غيورًا لمدينته، ظهر أيضًا رئيسًا حازمًا لكنيسته... فعلى مستوى الكنيسة الجامعة، سعى لمحاربة عادةٍ متأصّلة، وهي السيمونيّة أو شراء الوظائف المقدَّسة. ودفعته إعادة السيطرة هٰذه على الكنيسة إلى إقامة مراسلةٍ منتظمة مع أساقفته – وصلت إلينا ما يزيد على ثماني مئةٍ وخمسين رسالة–. كانت تدخّلاته كثيرة، تتراوح بين مجرّد الصدقة إلى إحدى المطرانيّات والجدال الكبير مع بطريرك القسطنطينيّة القويّ الذي كان يسمّي نفسه بلا حقّ «البطريرك المسكونيّ»، ودافِعُه إلى ذٰلك اهتمامُه الدائم بكرسيّ بطرس.

أمّا مشروع حبريّته الكبير فكان انطلاقة إعلان البشارة لإنكلترا التي غزاها البرابرة الأنكلوسكسونيّون. لمّا كان البابا غريغوريوس نقطة الاتّصال بين حضارتين، وكان يهتمّ بالمحافظة على صلةٍ وثيقة بالإمبراطوريّة، التفت إلى البرابرة ليُعلن لهم البشارة. وكان هٰذا المشروع ملحًّا بقدر ما كان البابا يعتقد أنّه يعيش نهاية العالم، بسبب تصرّفات الزمن. ومع ذٰلك كانت مبادرته جازمة لمستقبل الكنيسة، فقد استطاعت

(*) François Quenin.

في ما بعد أن توحّد الغرب على طريقة رومة القديمة. وفي الوقت نفسه، باشر غريغوريوس انفتاحًا إلى جهة اللومبرديّين الأريوسيّين، وتقاربًا من الغُوط الغربيّين (في إسبانيا) ومن الإفرنج الكاثوليك.

تعود شعبيّة غريغوريوس وتأثيره، طوال العصر الوسيط، إلى مؤلّفاته العديدة، فهي تضعه إلى جانب أمبروسيوس وهِيرونيمس وأوغسطينس، ملافنة الكنيسة. وكتابه **الحوارات**، وهو نوع من مجموعة سِيَر القدّيسين، قد أثّر تأثيرًا عميقًا في التقوى الشعبيّة...

إنّ غريغوريوس، البابا الملفان والبابا المرسِل، والدبلوماسيّ والمدير - الذي لقّبه العصر الوسيط بالكبير - يبشّر بعصرٍ مجيد لكرسيّ بطرس. فإنّ بنى الكرسيّ البابوي المتينة ارتسمت عَبرَ عمله. هٰذا وإنّ المركزيّة، التي ابتدأت على عهده، اتّسعت قرنًا بعد قرن، فجعلت من البابا عاهلًا روحيًّا بقدر ما هو زمنيّ. وهل توقّع هٰذا التطوُّرَ، ذٰلك الذي أراد أن يكون «خادمَ خدّام الله»؟

الفصل الرابع

المَلِك الكاهن

بقلم بيار ريشيه

على عهد شارلمان، رجحت نسبةُ القوى لمصلحة الإمبراطور، فكانت في يده جميع السلطات. وظهر بمظهر مختار الله وداود الجديد، وظهرت مملكته بمظهر إسرائيل الجديد. فماذا حلّ بالبابا؟ أصبح رجل الصلاة والتشفّع. وهٰكذا نشأ المجتمع القدسيّ.

إنّ جلوس الكارولينيّين على العرش، والتحالف الذي قام بين البابويّة والإفرنج، مهّدا الطريق لجميع النظريّات التي وُضعت منذ القرن الخامس فأتاحت لها أن تصبح واقعًا حتّى القرن الحادي عشر. ونتج من الاتّحاد الوثيق بين الأمراء والأساقفة أنّ الدولة أصبحت دولةً قدسيّة، تتعاون فيها القوى السياسيّة والدينيّة لبناء العالم المسيحيّ. وقد ظهرت عبارة «العالم المسيحيّ» بمعنى المجتمع، وكثيرًا ما اختلطت بكلمة كنيسة. فرأى بعض الإكليريكيّين أنّ الكنيسة والعالم هما شيء واحد، وأنّ مدينة الله تحقّقت، في وجه من الوجوه، على الأرض. وقد ذهب المؤرّخ أُوتُون ده فرايْسِنغ (Othon de Freising) إلى القول، في منتصف القرن الثاني عشر: «بما أنّ جميع الناس، وجميع الأباطرة، باستثناء القليل، أصبحوا كاثوليك، يبدو لي أنّي وضعت، لا تاريخ مدينتَين، بل تاريخ مدينة واحدة، إذا صحّ القول، أسمّيها الكنيسة». فكان هٰذا الخلط بين العالم المسيحيّ ومدينة الله أحد المواضيع الكبرى في ذٰلك الزمن.

إنّ العالم المسيحيّ يؤلّف جسد المسيح. والمسيح، الملك والكاهن، يدير من السماء شؤون تلك الكنيسة الأرضيّة المدعوّة إلى أن تكون مدينته. لٰكنّه يفوّض وظائفه إلى الملوك والأساقفة. وعلى هٰؤلاء وأولٰئك، كلّ واحد في حقل اختصاصه، أن يعملوا على بناء المدينة النهائيّ. ليس هناك، مبدئيًّا على الأقلّ، خلط بين السلطتين، بل ثنائيّة متكاملة. ومع ذٰلك، وبسبب شخصيّة هٰذا الملك أو هٰذا الأسقف، لا يتردّد الناس في تخطّي حدود الروحيّ والزمنيّ. فمن جهة يصرّح الملوك، كشارلمان أو أوتّو، بأنّهم قادرون على إدارة شؤون الكنيسة، ومن جهة أخرى، يحاول الأساقفة والبابا أن يضمنوا حرّيّة عملهم، لا بل لا يتردّدون أمام التدخّل في الحقل الزمنيّ.

شارلمان، داود الجديد

إن شارلمان هو أوّل من أكّد أنه مختار الله وأنّ عليه أن يدير شؤون الكنيسة. وقد استُعملت عبارة «مَلِكٌ بنعمة الله» منذ لحظة تتويج الملوك الكارولينيّين. وبقبول هٰؤلاء المِسحة من يد أحد الأساقفة، أصبحوا غير خاضعين لمصير العلمانيّين المشترك. وبما أنّ المَلِك يعيَّن من قِبَل الله فيصبح «نائبَ الله»، فهو المدافع عن الكنيسة في وجه أعدائها، وله كلّ سلطة لإدارة المؤمنين وتعليمهم. كتب الكاهن كاثُلْف (Cathulf) إلى شارلمان: «أُذكّرك أنّه عليك أن تحفظ وتدير جميع أعضاء الكنيسة مكانَ الله، وأن تؤدّي حسابًا في الدينونة الأخيرة». وكان الملك داودَ جديدًا، ملكًا وكاهنًا، يجب عليه أن يحكم وفقًا للشريعة. . .

واعتبارًا من السنة ٨٠٠، لم يعد شارلمان مجرّد ملكٍ متوّج، بل أصبح إمبراطورًا. كثيرًا ما تساءل المؤرّخون مَن الذي اتّخذ مبادرة تتويج الإمبراطور. هل هو لاون الثالث، لأنّه كان يحتاج إلى الملك لاستعادة وضعه في رومة؟ هل هم مستشارو الملك الكنسيّون؟ هل هو الملك نفسه؟...

بتشجيع من البابا والإكليريكيّين الإفرنج، تُوِّج شارلمان إمبراطورًا يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠. فأصبح رئيس الإمبراطوريّة المسيحيّة، وكانت تضمّ قسمًا كبيرًا من أراضي الغرب. وما لبث الإمبراطور البيزنطيّ، بعد أن عاد فجلس على العرش، أن اعترف به إمبراطورًا. فكان شارلمان طليعةَ مجموعةِ أباطرة العصر الوسيط الذين أرادوا، على مثاله، أن يوحّدوا الغرب تحت سلطة واحدة. لٰكنّ البابويّة لم تتوقّع، حين توّجت الإمبراطور، أنّها تمنحه سلطات ومطامح ستعاني منها بمرارة.

أمّا في ذٰلك الوقت، فكان البابوات والأساقفة مسرورين بإعادة الإمبراطوريّة، فتركوا شارلمان يدير شؤون العالم المسيحيّ. ولقد أظهر الإمبراطور تقوى شديدة، إذ إنّه كان يقضي أوقاتًا طويلة في معبد إكْس لاشابِيل (Aix-la-Chapelle) الذي أمر ببنائه، ويستمع في أثناء الطعام إلى قراءة كتاب **مدينة الله** للقدّيس أوغسطينس، ويتحدّث إلى الإكليريكيّين عن الأمور اللاهوتيّة. ولمّا اجتمع الأساقفة في ماينتس (Mayence) في ٨١٣، شكروا الربّ «لأنّه وهبَ الكنيسةَ رئيسًا في هٰذه التقوى وهٰذا التفاني في خدمة الله...». وفي الواقع، كان شارل يشرّع في الحقل الروحيّ والحقل السياسيّ على السواء، ويهتمّ بتأمين التعليم الدينيّ لرجال الإكليرس والمؤمنين، وبالمواظبة على التناول وحضور الرتب، وبمراعاة راحة الأحد والأعياد الدينيّة، وبالليترجيا والأسرار، ولا سيّما المعموديّة. ويأمر بإقامة الصلوات التكفيريّة عند حدوث المجاعات والنكبات العامّة، ويرفع الشكر بعد الانتصار. ويرئس المجامع التي يُراد بها إصلاح الكنيسة العلمانيّة والقانونيّة، ويفرض على الرهبان قوانين القدّيس بندكتس، ويُرغم الإكليريكيّين على تبنّي الليترجيا الرومانيّة.

لا بل يتدخّل، على غرار الإمبراطور البيزنطيّ، في الخلافات اللاهوتيّة. وسبق له في ٧٩٤، في مجمع فرنكفورت الذي عُقد لمعالجة بدعة «التبنّيين»، أن وضع برنامج العملِ وتدخَّل قائلًا بأنّ المسيح ليس هو ابن الله بالتبنّي، بل ابن الله حقًّا. وفي المجمع نفسه، طلب شارل تحرير «الكتب الكارولينيّة» التي يحدِّد فيها تعليم الغَرب في شأن إكرام الأيقونات. وأخذ على البيزنطيّين عبادتهم الأيقونات، الأمر الذي لم يقوموا به قطّ، وأرسل إلى البابا مذكّرةً طويلة في هٰذا الشأن. وفي وقت لاحق، تصدّى مرّةً أُخرى لبيزنطية، بإدخاله في قانون الإيمان عبارة «والابن»، وفقًا لتقليد كنيسة الغوط الغربيّين. وفي هٰذه المرّة، رفض البابا لاون الثالث التصديق على التجديد وبقي أمينًا لحرفية قانون الإيمان النيقاويّ. ولم تقبل كنيسة الغرب كلُّها عبارة «والابن» إلّا في القرن العاشر، فأصبح هٰذا النص أحد موضوعات الخلاف بين اللاتين واليونانيّين.

الملك يعظ البابا

قد نُفاجأ بموقف البابا لاون الثالث الحازم، حين نعلم بأن أسقف رومة كان قليل الشأن أمام الإمبراطور، ذٰلك بأنّ شارلمان كان قد وزّع الأدوار منذ السنة ٧٩٥: «إليّ يعود، بعون الله، أن أدافع في كلّ مكان عن كنيسة المسيح المقدّسة، بالأسلحة خارجًا في وجه غارات الأعداء واجتياح غير المؤمنين، وداخلًا بالذود عنها عن طريق نشر الإيمان الكاثوليكيّ. وإليك يعود، أيّها الأب الأقدس، برفع يديك نحو الله مع موسى، أن تساعد بصلواتك على انتصار أسلحتنا...». وأعطى موفَدَه إلى رومة هٰذه التعليمات المدهشة: «نبّه البابا إلى أنّ عليه أن يعيش عيشةً مشرّفة وأن يتقيّد بوجه خاصّ بالقرارات المقدَّسة... وكرِّر له غالبًا أنّ الشرف الذي

وصل إليه هو أمر عابر، في حين أنّ المكافأة التي وُعدت بها الأعمال الصالحة هي أبديّة...». الأدوار معكوسة، فإنّ الملك يعظ البابا. إنّ السياسة الدينيّة التي اتّبعها شارل ملخَّصة في هٰذا النصّ.

وكان شارل يعي أنّه رئيس رجال الإكليرس الأعلى. فهو يرئس انتخاب الأساقفة فيقترح مرشَّحًا رسميًّا ويختار أناسًا يُعتَمَد عليهم، تمرَّنوا في القصر. وكان اختياره حسنًا بوجهٍ عامّ. فإنّه كان يعرف كيف يجمع حوله أساقفة لامعين، قادرين على مساعدته في سياسته. وكان يكلّفهم بمهامّ دبلوماسيّة وحتّى عسكريّة، ويستدعيهم إلى البلاط، ويجعلهم من الموالين له. وكان الأساقفة يشكون أحيانًا من عدم استطاعتهم أن ينصرفوا إلى عملهم الرعويّ أو الفكريّ، ولٰكن كان من واجبهم أن يكونوا في تصرّف الملك. فكان شارل يغمر رجال الإكليرس بعطاياه، ولٰكنّه كان يسهر على أن لا تتّسع أملاك الكنيسة العقاريّة إلى حدّ الإفراط. وكان يقيم على رأس الأديرة أقرباءَه والمقرَّبين إليه، حتّى العلمانيّين منهم... ولم يكن في إمكان أحد أن يشكو من سلطته المطلقة، بل إنّ المآخذ على سياسته الدينيّة كانت تنحصر في الأساليب العنيفة التي كان يستخدمها في هداية الوثنيّين إلى الدين المسيحيّ...

إنّ سياسة شارلمان التسلّطية انتهت عند وفاته في ٨١٤. فاستغلّ الأساقفة ضعف خليفته لويس الورِع ليستعيدوا شيئًا من حرّيّتهم، كما سنراه لاحقًا. لٰكنّ الأمراء الأنكلوسكسونيّين ساروا في خطاه في القرن العاشر. فحين عاد أُوتّون وخلفاؤه فأنشأوا الإمبراطوريّة، التي سُمّيت في وقتٍ لاحق الإمبراطوريّة الرومانيّة الجرمانيّة المقدّسة، فرضوا سلطتهم، لا على الكنيسة الألمانيّة وحَسْب، بعد أن أصبحت كنيسةَ الدولة، بل على البابويّة أيضًا. فطلب أُوتّو الأوّل أن يُتوَّج ملكًا في إكْس لاشابيل وجدّد الروابط مع التقليد الكارولنجيّ. واستند إلى الأساقفة في مقاومة الأمراء، ولٰكنّه تدخّل في الانتخابات الأسقفيّة، مقيمًا ابنه رئيس أساقفة ماينْتس، وأخاه رئيس أساقفة كولونيا، كما عيّن أقاربه والمقرَّبين إليه في مراكز مشابهة وكان الأساقفة مُقطَعين له، وموالي أقوياء في أبرشيّاتهم على الصعيد الروحيّ والزمني. وكان خضوعهم لسلطة الملك يُكسبهم امتيازات وخيرات مادّيّة لا يريدون التخلّي عنها... ومن ذٰلك الحين، أخذ الأباطرة يعيّنون البابوات ويرئسون السينودسات... الحقّ يقال إنّ الأباطرة قاموا بعمل مفيد في رومة، ووضعوا النظام في بلاط بابويّ عكَّرته المعاثر والدسائس. فقد حملوا على محمل الجدّ مسؤوليّاتهم كملوك مقدَّسين، وشجَّعوا الإصلاح في بعض الأديرة، ووسَّعوا العالم المسيحيّ شرقًا، بهدايتهم السكّان الصقالبة إلى الدين المسيحيّ وإنشائهم إبرشيّات جديدة. ولٰكن، حين قامت أزمة سياسيّة في القرن الحادي عشر فأحدثت فوضى في الإمبراطوريّة، أخذت الكنيسة الرومانيّة تتحرَّر وتحلّ محلّ السلطة الملكيّة. وكان ذٰلك استعدادًا للإصلاح الغريغوريّ.

الكنيسة تستعيد زِمام أمورها

إن أردنا أن نفهم كيف نشأت الحركة الغريغوريّة، التي عَرفت المواجهة بين الحكم الزمنيّ والحكم الروحيّ، لا بدّ لنا من أن نذكّر كيف أنّ أساقفة العصر الكارولينيّ، على عهد لويس الورع، نجحوا في استعادة المبادرة وصياغة تعليم سياسيّ. فإنّ سياسة لويس الورع التردّديّة والتمرّد الذي لجأ إليه أبناؤه كانا مناسبةً انتهزها الأساقفة لتأكيد سلطتهم تجاه الحكم الملكيّ. استخدموا عبارةً تُنسب إلى إيسيدورس الإشبيليّ فذكَّروا بأنّ الوظيفة الملكيّة هي «خدمة». فالملك، عند تتويجه، يعيَّن للقيام بوظيفة دينيّة، وهي العمل على تأدية الاحترام للشريعة الإلٰهيّة، كما وعد به الأسقفَ الذي مسحه. وإن لم يكن أمينًا لهٰذا القَسَم، أصبح طاغيةً ويجوز أن يدينه الأساقفة، لا بل أن يخلعوه. هٰذا ما جرى للويس الورع. فاعترف بأنّه قصَّر في واجباته

كملك، وبأنّه «أسخط الله وكان حجر عثرة للكنيسة المقدّسة». وقَبِل حكم الأساقفة، فإنّ الملك، إن خطئ، لم يعد يستطيع أن يكون ملكًا. فاستعاد الأساقفة المبادرة وأكّدوا تفوّق الكهنوت في الشؤون الروحيّة، لا بل في الحقل السياسيّ، علمًا بأنّ الوظيفة الملكيّة هي دينيّة. وهٰذا الالتباس كان مصدر مختلف النزاعات التي قامت بين الكهنوت والحكم الملكيّ. ففي دولة قدسيّة يرتبط فيها الحكمان الواحد بالآخر ارتباطًا وثيقًا، يتوقّف كلّ شيء على شخصيّة الملك. فما إن تضعف سلطته حتّى تشتدّ سلطة الأساقفة وتفرض نفسها. . .

مجتمع الطبقات يصبح حقيقة

هيهات أن يشبه مجتمع العصر الوسيط، الذي نشأ في القرن السابع، المجتمع الرومانيّ. فليس هناك أيّ وجه شبه بين الإمبراطور المسيحيّ والإمبراطور الرومانيّ الذي كان موظّفًا على رأس دولة مؤلّفة من مواطنين. أمّا الملك المتوَّج، الذي يستمدّ سلطته من الله، فإنّه يريد أن يُنشئ مجتمعًا يَحترِم فيه كلّ واحد، بحسب طبقته، «السلامَ والوفاق والإجماع». والشريعة التي يفرضها تتّخذ قيمةً مقدَّسة. والشرائع الإلٰهيّة والبشريّة تتكامل ويجب أن تبقى ثابتة. والمثال الأعلى المنشود هو أن تُفرض شريعة واحدة في كلّ مكان. ويذكّر هِنْكمار الرِمساويّ (Hincmar de Reims) بأنّ «المسيحيّين لن يدانوا يوم الدينونة بشرائع رومانيّة أو إفرنجيّة أو بُرغونديّة، بل بشرائع إلٰهيّة ورسوليّة. ويحسن أن تكون الشرائع العامّة مسيحيّة في مملكة مسيحيّة. فعلى «موفَدي» الملك أن يُخبروا «بأنّ الإمبراطور أرسلهم لخلاص جميع الناس الأبديّ»: «نحن مكلَّفون بتنبيهكم إلى أن تعيشوا عيشةً فاضلة بحسب شريعة الله، وعيشةً عادلة بحسب شريعة العالم. ونعلمكم أوّلًا بأنّه من واجبكم أن تؤمنوا بإلٰهٍ واحد، الآب والابن والروح القدس. . . أحبّوا الله من صميم قلوبكم، وأحبّوا قريبكم حبّكم لأنفسكم، تصدّقوا على الفقراء على قدر إمكاناتكم. . .». والأساقفة والموظَّفون الملكيّون يتعاونون للعمل على احترام هٰذه الشريعة.

وكلّ واحد من رعايا المملكة ينتمي إلى طبقة كتبتها له العناية الإلٰهيّة. كتب بُونيفاقيوس منذ القرن الثامن: «في جسدنا نفس واحدة، وعدد من الأعضاء تختلف باختلاف وظائفها. فكذٰلك ليس في الكنيسة إلّا إيمان واحد يجب إعماله بالمحبّة، ولكنَّ فيها رتبًا مختلفة لكلّ واحدة منها خِدْمتها الخاصّة. هناك طبقة رؤساء، وطبقة رعايا، وطبقة أغنياء، وطبقة فقراء، وطبقة شيوخ، وطبقة شباب، لكلّ واحدة سيرها الخاصّ كما أنّ لكلّ عضو وظيفته في الجسد». هٰكذا يرتسم ذٰلك المجتمع الكامل الذي يعمل فيه كلّ واحد، في مكانه، للخلاص المشترَك.

في الرأس، الملك وعائلته. ثمّ الرهبان الذين تقوم وظيفتهم على الصلاة والسير سيرةً ملائكيّة تُنبئ بسيرة الملكوت السماويّ. يأتي بعدهم رجال الإكليرس، وعلى رأسهم الأساقفة، وتقوم وظيفتهم على إدارة جماعة المؤمنين وإنعاشها. وأخيرًا جمهور العلمانيّين الذين يُمنحون حقّ الزواج والحصول على الخيرات الزمنيّة. ومن بين هٰؤلاء العلمانيّين، يُميَّز بين الذين يحاربون والذين يعملون بأيديهم. الأوّلون، الذين يؤلّفون الأرستقراطيّة صاحبة المال والنفوذ، هم مدعوّون إلى مساعدة الملك ورجال الإكليرس في الدفاع عن الإيمان وتوسيع العالم المسيحيّ. وعلى الآخرين، أي الفلّاحين والحرفيّين والتجّار، أن يوفّروا «للطَبقات» الطعام واللباس.

وعلى جميع أعضاء هٰذا المجتمع التراتبيّ، كلّ واحد في اختصاصه، أن يسعى لتحقيق ملكوت الله على الأرض. فإنّ أورشليم السماويّة ليست تلك المدينة التي نصل إليها في نهاية الأزمنة، بل هي تُبنى منذ الآن. والمسيح، الذي يفوّض سلطاته إلى الملوك والأساقفة، يسوس هٰذه الإمبراطوريّة المسيحيّة. إنّ صلاة الباكِرِيّة

الملكيّة الكارولينيّة تُنشد: «المسيح ظافر، المسيح ملك، المسيح إمبراطور». فإنّ مدينة الله، التي رآها القدّيس أوغسطينس تنمو سرّيًّا ولا تتّخذ ملامحها النهائيّة إلّا في نهاية الأزمنة، بعد أن تزول إسقالات العالم الحاضر، قد أصبحت حقيقة.

نزعةٌ أخلاقيّة ضيّقة

كيف نفسّر ذٰلك التوهّم الذي شارك فيه العديد من الإكليريكيّين والعلمانيّين في العصر الوسيط القديم؟ بتأثير من العهد القديم إلى حدّ ما. فإن وضعنا قائمةً بالشواهد الكتابيّة التي وردت في مؤلّفات ذٰلك الزمن، وجدنا أنّ العهد القديم يتغلّب فيها إلى حدٍّ بعيد على العهد الجديد. ذٰلك بأنّ الملوك، داود وسليمان ويوشيّا الجدد، يجمعون حولهم الأساقفة، موسى أو صموئيل الجديدَين. وكانت رتبة التتويج تستوحي من الممارسات اليهوديّة. وكان الشعب الإفرنجيّ، الشعبُ المختار، إسرائيلَ الجديدَ المدعوَّ إلى محاربة مختلف أشكال الوثنيّة وفرض شريعة الإلٰه الواحد، حتّى بالقوّة. وكان الملوك يجدون في أسفار صموئيل **والملوك** أو في ما جرى للمكابيّين، والذي كثيرًا ما صُوِّر في المخطوطات، أمثلةً يُقتدى بها...

وكان أوّل واجبات الشعب تأدية العبادة العلنيّة إلى الله. فكما كان اليهود يراعون السبت، كان على المسيحيّين أن يستعدّوا منذ مساء السبت لتكريس يوم الله، لا يجوز فيه القيام بأيّ عمل. وكانت الليترجيا التي يرئسها الأساقفة والكهنة والشمامسة، الذين استعادوا اسم اللاويّين القديم، قريبةً جدًّا، في عباراتها وسَيْرها – من تطواف وتبخير وحَذَر من الأيقونات – من ليترجيا الهيكل. وكانت العودة إلى التوبة العلنيّة والأصوام التي يفرضها الملك هي أيضًا في نهج التقاليد اليهوديّة. وكان العُشْر، أي دفع عُشر الخيرات إلى رجال الإكليرس، ضريبةً جديدة في العالم الإفرنجيّ، مع أنّها معروفة في إسرائيل. وكانت الأخلاقيّة نفسها، المفروضة على الشعب، كثيرًا ما تستند إلى أحكام سِفر **تثنية الاشتراع** أو سفر **الأحبار**، من تحريم تناول بعض المأكولات، وواجبِ الأمّ أن تَطَّهر بعد ولادة أحد الأولاد، ورفض الزواج بين الأقارب إلخ. إنّ الشكليّة التي نجدها في لوائح أعمال التوبة، والأهمّيّة التي يولونها للعمل على حساب النيّة، ولحرف الشريعة أكثر منهم لروحها، تحملنا على الاعتقاد أنّ الأخلاقيّة الكارولينيّة كانت بعيدة عن التحرير الإنجيليّ.

فلا عجب، في هٰذه الظروف، من أن تكون العلاقات بين المسيحيّين واليهود حسنة بقدر كافٍ. فلم يعرف العصر الوسيط القديم معاداة اليهود. ولقد شكا بعض الأساقفة من الحماية التي كان اليهود يجدونها عند السلطات العامّة. وكان الناس يخشون أيضًا تأثير المجمع، ويأسفون لموقف المسيحيّين الذين يراعون الشريعة اليهوديّة ويفضّلون عظة الحاخام على عظة خادم رعيّتهم.

الفصل الخامس

الإكليرس في أيدي العلمانيّين

تطايرت الإمبراطوريّة الكارولينيّة شظايا. وانتقل الحكم إلى الموالي كبارًا وصغارًا. فأمسى الكهنة والأساقفة وحتّى البابوات في سلطة أولئك «العلمانيّين» الذين يؤلّفون الطبقة الحاكمة. ولم يكن وضعُ يدهم على رجال الإكليرس خاليًا من النتائج الوخيمة. فلمّا انتهى الإكليريكيّون من تحرير أنفسهم، بقوا مدّةً طويلة على حذر من دور العلمانيّين في الكنيسة.

ما دامت الإمبراطوريّة الكارولينيّة قائمة، كانت الكنيسة مدينةً بجوهر تماسكها ومتانتها لدعم الأباطرة الذين كانوا يَعدُّون أنفسهم أوّل المسؤولين عن خلاص رعاياهم، ولأجواء السلام والنظام المسيحيّ اللذين كانوا يحافظون عليهما في قسم أوروبّا الذي يسيطرون عليه (إيطاليا الشماليّة وجرمانيا وفرنسا وإسبانيا الشماليّة). لكنّ النظام الكارولينيّ وسلامه قد زالا مع نهاية النصف الثاني من القرن التاسع. فإنّ خُلَفاء شارلمان تنازعوا ميراثه ودَمَّرت غزواتٌ جديدة (النورمَنديُّون والمجريّون) الحقول، وأفسدت المؤسَّسات، فتجزَّأت الإمبراطوريّة.

الموالي أصحاب الأمر والنهي

شقّت الفوضى طريقها شيئًا فشيئًا، حتّى إنّ الإمبراطوريّة، ثمّ الأمم (القديمة والناشئة)، ثمَّ الإمارات، ثمّ الكونتيّات، ولا سيّما في فرنسا تطايرت شظايا الواحدة بعد الأخرى، في منتصف القرن الحادي عشر. وفي العديد من المناطق، أصبحت الوحدة السياسيّة الأساسيّة، في الواقع، إقطاعيّة العَصر، فكانت قضاءً ريفيًّا صغيرًا يستطيع فيه القصر وحده أن يضمن أمن السكّان الحقيقيّ. لقد استعاد الإمبراطور سلطته في جرمانيا، وفيها فقط. أمّا في سائر الأماكن، ولا سيّما في فرنسا، وهي بلد اضطُرّ فيه الملوك الكارولينيّون ثمّ الكابيتيّون (Capétiens) إلى عدم القيام بأيّ نشاط، فقد كان المَوالي، كبارًا وصغارًا، سادة الموقف. ولم تنجُ الكنيسة من تأثيرهم. فانتقلت إلى أيدي العلمانيّين، واندمجت يومًا بعد يوم في المؤسَّسات الإقطاعيّة. فلا عجب أن يُعَدّ القرنان العاشر والحادي عشر زمنًا حالكًا في تاريخها، إذ إنّها كادت أن تفقد ما لها من طابع المؤسَّسة المميَّزة والمجتمع المنظَّم.

سوق التعيينات

أُولى سلطات العلمانيّين على الكنيسة وأضرُّها هي الحقّ في تعيين الإكليريكيّين. فعلى مختلف المستويات، يقوم طاغيةٌ علماني بتنصيب رجال الإكليرس في وظائفهم. ويصحّ هٰذا في البابوات. ففي القرن العاشر، وقعوا تحت سلطة الأباطرة حتّى إنّ هٰؤلاء كانوا يعيّنونهم...

وفي فرنسا، كان تعيين رجال الإكليرس في يد الملك والإقطاعيّين. فكانوا يفرضون أقاربهم أو

محاسيبهم على رأس الأسقفيات وأهمّ الوظائف الأبرشيّة، وحتّى في الأديرة والرعايا. ذلك بأنّهم كثيرًا ما أسّسوا هم أنفسهم الكنائس، فكانوا يعتبرون أنفسهم مخوَّلين بتعيين من يخدمونها. وبقي في إمكان الأسقف وحده أن يمنح درجات الكهنوت. ولكن، بما أنّه كثيرًا ما كان من أقارب أولياء تلك «الكنائس الخاصّة» أو المدينين لهم، كان يوافق على مرشّحيهم من دون أن يفوه بكلمة. وعلى هذه الطريقة كان يتمّ تعيين جميع رجال الإكليرس تقريبًا.

وما هو أخطر من ذلك أنّ المناصب الإكليريكيّة كانت تُشتَرى، وهذا ما يُسمَّى «سيمونيّة»، إشارةً إلى سمعان الساحر الذي عرض على القدّيس بطرس أن يبتاع منه قدرته العجائبيّة.

وكان الإغراءُ الذي تمارسه مناصبُ كثيرًا ما كانوا يخصّصون لها أملاكًا وأرباحًا متنوّعة – منصُب الأسقف مثلًا – يَدْفَعُ المرشَّحين إلى تنازعها بِرَشوات كان الأولياء أوّل من يلتمسونها. فما إن يموت أسقف حتّى تنشأ سوق بكلّ معنى الكلمة. فكان الوليّ يختار أكرم المرشَّحين. وكان العرض يقدَّم أحيانًا عن يد الأقارب. وكان من الطبيعيّ أن يسعى الأسقف لاستعادة ما صرفه، فيبيع هو أيضًا الكهنة القانونيّين منصبهم وكهنةَ الرعايا رعيّتهم، وهكذا امتدّت السيمونيّة إلى مجمل رجال الإكليرس...

إكليرس مستعبَد

لم يقتصر وضع يد الموالي على تعيين الإكليريكيّين، فإنّ رجال الإكليرس كانوا مُلحَقين بخدمة الأولياء. وإذا كان الإكليريكيّ مُقطَعًا، كان استعباده تامًّا، لأنّه ملزَم بخدمة مولاه والأمانة له. ففي أعلى درجة السلطة التراتبيّة، يُلزَم الأسقف للملك الذي عيّنه «بالخدمة الملكية» – إذ كان رجاله ينضمّون إلى الجيش الملكيّ – و«خدمة المرافعة» أو واجب المساعدة في إدارة شؤون العدل. وعلى مستوى الرعيّة، كثيرًا ما كان الملّاك يستولي على دخل الكاهن، من عشور وتقادم ومعاليم وثمن بيع الشهادات الروحيّة والأسراريّة – ولا تنجو من السيمونيّة –. فكانت وظيفة كاهن الرعيّة، إذا ما حسنت إدارتها، صفقةً رابحة.

إكليرس مُعَلمَن

وفي الواقع، غاص رجال الإكليرس في المجتمع العلماني، حتّى إنّهم فقدوا كلّ نهج خاصّ في الحياة. فكان الأسقف، على سبيل المثال، يظهر بمظهر المولى الإقطاعيّ الكبير. وكان في حوزته العديد من الممتلكات العقاريّة. كانت للكنيسة ولا شك، ولكنّه كان مكلّفًا بإدارتها. وهناك عائدات أخرى تأتيه من التجارة، وقد نجح في الحصول على ضرائب العَرْض (عرض البضائع في الأسواق). وكان يجبي رسوم المرور، ويصكّ النقود، مع أنّ هذا الامتياز كان خاصًّا بالملك، ويمارس السلطة القضائيّة... وأحيانًا ما يقوم الأسقف بدور الكونْت... وكان له حقّ التحصين، لا حول الكنيسة والحيّ الأسقفيّ فحَسْب، بل حول المدينة أيضًا في بعض الأحيان. وكان يمتلك قصورًا، وقد يقوم مقام الكونت الزمنيّ تمامًا. ولم يكن الأسقف الجنديّ أمرًا نادرًا، علمًا بأنّ صورة الأسقف المحارب تظهر في القصائد الملحميّة.

وعليه، كانت الاهتمامات الزمنيّة تشغل مجمل رجال الإكليرس. وكان الكهنة القانونيُّون الذين يُحيطون مبدئيًّا بالأسقف لمساعدته على إدارة شؤون أبرشيّته، يستفيدون هم أيضًا من الدخل ويحصلون على الأموال والأراضي. أمّا في الريف فكان الكهنة من صغار المزارعين.

كهنة أبًا عن جَدّ

وهناك أكثر من ذٰلك، فإنّ الإكليريكيّين كانوا يتزوّجون عادةً – وهٰذا ما يسمّى «النيقولاويّة»، فكان منصبهم ينتقل أحيانًا إلى أبنائهم. . .

وكان زواج الإكليريكيّين أهوَن شَرَّين. فهو، وإن يكن محرّمًا، لم يُعَدّ، حتّى القرن الثاني عشر، لاغيًا باطلًا.

أمّا المساكنة من غير زواج، التي درجت إلى حدّ بعيد، فكانت أسوأ بكثير. ذٰلك بأنّ الإكليريكيّين في الغرب لم يجهلوا أنّ أمثالهم يتزوّجون في الشرق، وبدا لهم أنّ الاقتران بزوجة أمر مشروع، ولو للقيام بتدبير المنزل، مضيفين: «وإلّا نموت جوعًا وبردًا». هٰذا وإنّ الشعب لا يتأثّر بذٰلك فوق الحدّ، بل يسلّم بوجود امرأة تسهر على بيت الكاهن أو المطران. لٰكنّه كان أكثر تعثُّرًا بالسيمونيّة. لا شكّ في أنّه لا يجوز شرعًا للإكليريكيّ أن يتزوّج، ولٰكن، في الواقع، كما قال أحد رؤساء الأساقفة في ذٰلك الزمن، لو وجب حرم جميع الكهنة الذين يساكنون امرأة، لما بقي أحد. . .

على كل حال، فإنّ البابا نفسه كان أوّلهم، وقد سمّى بعض المؤرّخين ذٰلك الزمن «حُكم الخلاعة»، فقد انتصرت فيه السراريّ، وروي أنّه، بين سنة ٩٢٨ و٩٣٢، كانت امرأة تُدعى مارُوسِيا عشيقةَ البابا سرجيوس الثالث.

خدمة رسوليّة غير مُرضية

إن تمّ اختيار أصحاب الوظائف (وتنشئتهم) على مثل هٰذه الطريقة السيّئة، فلا عجب أن يقصّروا في عملهم الروحيّ والرعويّ. فإنّ اهتمامات الأساقفة الزمنيّة كانت أكثر من أن تمكّنهم من السهر على رجال الإكليرس إلّا في بعض الأوقات. فكانوا أكثر اهتمامًا بإدارة الأموال المرتبطة بمنصبهم، ومساعدة وليّهم في المحكمة أو في الحرب، منهم بممارسة خدمةٍ رسوليّة رعويّة ليسوا موهوبين لها حتمًا. أمّا الكهنة الذين يعيشون مع عائلتهم فإنّهم يربُّون أولادهم ويزرعون أراضي الكنيسة التي تنتقل أبًا عن جدّ، ويشاركون في الجولات على الخيل كأبناء رعيّتهم، ويتمتّعون بثقافة لاهوتيّة ومعلومات طقسيّة وأخلاقيّة لا تفوق كثيرًا المستوى المألوف. ولا شكّ في أنّ هٰذه الأوضاع تُلحق ضررًا بالكنيسة من عدّة وجوه.

ويبقى المؤمنون مطّلعين اطّلاعًا سيّئًا على أمور الإيمان، ونادرًا على صِلة بالإنجيل، ومتمسّكين فوق الحدّ بالشعائر الدينيّة والخرافات. وربّما كان إيمانهم بالشيطان أقوى من إيمانهم بالله.

يبقى الإيمان

ومع ذٰلك، فإنّنا نبالغ إن استنتجنا أنّ الإهمال كان يسيطر على رجال الإكليرس جميعًا. فأحيانًا ما كان اختيار الأساقفة حسنًا. . . وهناك أساقفة كانوا رعاةً صالحين وآخرون قدّيسين. فلا يحسن بنا أن نعمّم الحالات القصوى التي يُرثى لها، لٰكنّ هٰذه الحالات كانت صارخة بقدرٍ كافٍ حتّى يشير إليها المُصلحون في القرنين العاشر والحادي عشر، وحتّى يدعوا إلى إصلاحٍ أخلاقيّ يشمل الكنيسة كلّها. وكذٰلك، لا يبدو أنّ حيويّة العالم المسيحيّ قد عانت من سوء سلوك الرعاة. وإذا كانت الحياة الدينيّة خالية من النظام، فإنّها كانت مع ذٰلك، جيّدة المستوى.

هٰذا وإنّ اختلال نظام الكنيسة لم يمنع المسيحيّين من الإيمان، والمشاركة في العديد من الزيارات إلى الأماكن المقدّسة، وتكريم الذخائر، ممّا قد يعوّض عمّا يخيِّب أملهم عند الرعاة.

وفي رومة نفسها، حيث كانت طبقة الأرستقراطيّين تتصرّف كأنّها صاحبة الأمر والنهي في الڤاتيكان، واصل البابوات القيامَ بدورٍ كنسيّ وإقامةَ علاقات

متواصلة مع سائر العالم المسيحيّ. فالبابا بندكتس السابع (٩٧٤-٩٨٣)، على سبيل المثال، وهو أفضل بابوات الإمبراطوريّة، حكم بحزم مدينةَ رومة وأصدر - بالاتّفاق مع الإمبراطور - قرارًا يقاوم السيمونيّة.

ومع ذٰلك، كانت الفوضى ميزةً إجماليّة لحالة رجال الإكليرس في القرنين العاشر والحادي عشر. فهل كان العالم المسيحيّ يرضى عن ذٰلك؟ يبدو أنّه كان يبالي بالأمر، من دون أن يرى كيف يُعيد إلى الكنيسة استقلالها. وكان بعض الإكليريكيّين يقومون منفردين بردّ فعل، كما كان بعض الأساقفة - ولا سيّما الفرنسيّون منهم - يحتجّون ويدعون إلى عقد المجامع للوصول إلى الإصلاح. لٰكنّ ذٰلك كلَّه بقي عبثًا قبل القرن الحادي عشر. ففي ذٰلك التاريخ فقط أقدمت رومة على نفض وصاية العلمانيّين عنها وإصلاح نفسها، بعد أن كانت السلطات الروحيّة والزمنيّة غير متميِّزة.

الفصل السادس

الإصلاح انطلاقًا من الرأس

بقلم شارل ده لارُونسِيار(*)

في القرن الحادي عشر، شعر العديد من الإكليريكيّين بالحاجة إلى التحرُّر من سيطرة العلمانيّين. ولٰكنّه لم يظهر أحد يقدر على تشجيع الإصلاح. وأخيرًا كان «علمانيّ»، وهو الإمبراطور الجرمانيّ هنري الثالث، في نقطة الانطلاق، حين عيَّن في منصب البابا رجلًا بعيد النظر هو لاون التاسع. وقام خلفاء لاون التاسع، ولا سيّما غريغوريوس السابع، بإكمال عمل تحرير الإكليرس، المعروف باسم «الإصلاح الغريغوريّ». ولمّا حُرِّرت البابويّة، جدَّدت الكنيسة.

إنّ خضوع رجال الإكليرس وعدم كفايتهم على أكثر من صعيد كانا يستلزمان استلزامًا ماسًّا أن يستعيدوا السيطرة. ذاك كان رأي بعض المفكّرين الواعين، المتحدّرين من الأوساط التي حُفظت فيها منزلة رجال الإكليرس وتحرُّرُهم من العلمانيّين على أفضل وجه، وهي الأوساط الرهبانيّة ولا سيّما الكلُونيزيّة. هٰذا وإنّ حركات إصلاح جزئيّة كانت ترتسم هنا وهناك بتأثير من سلالات الموالي التي بقيت أشدَّ أمانةً للمثال الأعلى الكارولينيّ. ففي نورمَنْديا مثلًا، حاول عواهل القرن الحادي عشر أن يجدّدوا النظام الرهبانيّ، ثمّ الكنيسة العلمانيّة، منشئين الرعايا ومطوِّرين الإدارة المركزيّة في الأبرشيّات. وفي الإصلاحات الأُولى هٰذه، أسهمت بعض الإديرة، فأسّست معابد ريفيّة، واستعادت الرعايا العلمانيّة، وحسَّنت في هٰذه الجماعات نوعيّة الخدمة الروحيّة. وأحيانًا ما كان بعض الأساقفة يعقدون مجامع إقليميّة ويفرضون في أبرشيّاتهم موقف التوبة والتأهّب الروحيّ اللذين يقوم عليهما سلام الله.

مَن الذي سيقوم بإصلاح الكنيسة؟

لٰكنّ ذٰلك كلّه كان يفتقر إلى الوحدة والسعة. فلكي يمتدّ الإصلاح إلى الكنيسة كلّها، كان لا بد من وجود رئيس جوقة يأخذه على عاتقه. وفي مطلع القرن الحادي عشر، لم يكن في العالم المسيحيّ مَن يقدر على ذٰلك. فبالرغم من انتخاب شخصيّات فذّة بين الحين والآخر، كثيرًا ما كانت البابويّة، على غرار أيّ أسقفيّة، حُكرًا على عائلات البارونات، وكان البابوات مساكين. أمّا الأباطرة، فقد فرضوا سلطتهم على ألمانيا كلّها، لٰكنّ نصف العالم المسيحيّ أفلت من يدهم (فرنسا وإنكلترا وإيطاليا الجنوبيّة والبلدان الصقلبيّة والمجريّة). وكانوا مصمِّمين في إمبراطوريّتهم على إشراك الأساقفة، بصفة كونْت، في الإدارة العلمانيّة، والاستمرار في الإشراف على تعيينهم. ومع ذٰلك فمنهم، وإن بطريقة غير مباشرة، جاء الدافع الحاسم الذي أعطى الإصلاح، والكنيسةَ كلّها، زعيمًا لا شكّ فيه في شخص البابا. ما من أحد كان يضع على بساط البحث دَور الحَكَم

(*) Charles de la Roncière، أستاذ مساعد في جامعة پرُوڤانس.

الأعلى الذي كان الإمبراطور يقوم به في الحقل الدينيّ، وكان له على أسقف رومة، وهي مدينة من مدن الإمبراطوريّة، حقّ الرقابة. كان الإمبراطور هنري الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦) رجل الله، وكان شديد الاقتناع بما عليه من مسؤوليّات، فعزم على التدخّل بمزيد من النشاط في تعيين البابوات، للتثبّت من رزانتهم الأخلاقيّة على الأقلّ. وبعد مدّة من الزمن، تعاقب فيه عدّةُ بابوات لم تطل حبريّتهم، أَمَر، في ١٠٤٩، بتتويج أسقف تُول (Toul)، وهو الذي اتّخذ اسم لاون التاسع، وباشر عودةَ البابويّة الماسّة إلى الساحة.

لاون التاسع يحرِّك العَجَلة

إنّ بُعد النظر عند البابا الجديد يختلف عن قِصرَ نظر الذين سبقوه. فإنّه مدين لمقامه الاجتماعيّ - كان من قرابة الإمبراطور - ومنشإه - في لُورين (Lorraine) - بالمزيد من رباطة الجأش والاستقلال عن التحزّبات الرومانيّة وحتّى عن الإمبراطور. وكانت تنشئته - ترهّب ثمّ رُسم أسقفًا - والفريق الذي نجح في جمعه حوله - وهم رهبان من لُورين مثله - ضمانةً لنزاهته وقيمته الروحيّة وانتباهه إلى مشاكل الكنيسة (إن رئاسة البابا ودوره الرئيسيّ في مقاومة مشاغب الإكليرس كانا من الأفكار المنتشرة في وسط الرهبان اللُورينيّين). فانصرف الفريق إلى العمل، فارضًا على نفسه الوقت اللازم للتفكير، إذ كان لا بدّ، قبل العمل، من التأمّل في الأوضاع إجمالًا.

وقد بدا لهٰؤلاء المسؤولين، ولا سيّما لأبعدهم نظرًا، وهو الكاردينال هُمْبرتو، أنّ هناك انحرافَين خَطِرَين هما في أساس شرور الكنيسة. فكانوا يأسفون أوّلًا لكون سلطة البابا قد ضعفت جدًّا، إذ إنّ حرّيّة انتخابه يعرقلها الرومانيّون أو الإمبراطور، ورئاسته بالتالي لا يُعتَرف بها اعترافًا واضحًا في الكنيسة. فإذا كانت الكنيسة بلا رأس، أصبحت ألعوبةً في أيدي العلمانيّين. والحال أن هناك تقليدًا قائمًا على الكتاب المقدّس يُثبت في نظرهم شرعيّة تلك السلطة وتلك الرئاسة البابويّة، فأقدموا على جمعها من مجموعات القرارات المجمعيّة. ومن جهة أخرى، ندّدوا، على مستوى الأسقفيّات، بوضع يد العلمانيّين على الانتخابات والتعيينات، وهي عادة مؤسفة تولّد سيمونيّةَ الإكليريكيّين وعدمَ عفّتهم ومختلفَ أنواع ضعف رجال الإكليرس. ولذا فإنّ إصلاح الكنيسة يقوم أوّلًا على تجديد البابويّة وتحرير سلطة الكنيسة من سيطرة العلمانيّين.

إنّ هٰذا التشخيص، الذي وضعه بحزم وحتّى بعنفٍ رجلٌ صارم يقول الحقيقة كلّها، قد وجّه عمل لاون التاسع وخلفائه، ولا سيّما عمل نيقولاوس الثاني (١٠٥٩-١٠٦١)، أسقف فلورنسا السابق، وعمل غريغوريوس السابع الكبير (١٠٧٣-١٠٨٥)، الذي ساعد لاون التاسع ونيقولاوس الثاني مدّةً طويلة، والذي امتاز بطبعٍ لا ينثني واستقامة وتقوى، واخيرًا عمل أُربانس الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩) الذي كان رجلًا حازمًا ورؤوفًا.

تحرير البابويّة

كان لا بدّ من إصلاح الرأس قبل كلّ شيء، أي البابويّة، ابتداءً باستخلاص مصدر سلطتها، وانتزاع حقّ الرقابة من العلمانيّين في انتخاب البابا. من العلمانيّين، أي من البارونات الرومانيّين، لا بل من الإمبراطور أيضًا، علمًا بأن وساطته، التي كانت مفيدة في نقطة الانطلاق، هي في مبدإها تدخّلٌ خطِر. وهٰذا ما تمَّ في ١٠٥٩. فقد عُقد في ١٣ نيسان (أبريل) من تلك السنة، في قصر اللّاتران، برئاسة نيقولاوس الثاني، مجلس للإكليرس الرومانيّ عَهِد في انتخاب البابا إلى الكرادلة الأساقفة، وإليهم فقط، ولم تُشِر القرارات إلى أيّ حقّ مُفتَرَض يتمتّع به الإمبراطور، بل أصبح هنري الرابع كالولد العاجز عن ردّ الفعل. أمّا خلفاء البابا نيقولاوس

الثاني، الذين كانوا جميعًا شخصيّات قويّة، غريبة عن رومة وأحزابها، فقد عرفوا، من ساعة انتخابهم، كيف يضعون مسافةً بينهم وبين الإمبراطور، ولو بالدخول في نزاعات عنيفة، إن اقتضى الأمر. وتمّ اختيار الكرادلة على وجهٍ أفضل، فكانوا أكثر ثقافةً وأشدّ استنادًا إلى الشرع الكنسيّ، فإذا اجتمعوا لانتخاب البابا، استطاعوا أن يقاوموا مختلف أنواع الضغط.

فهي ذي البابويّة قد حُرِّرت وأصبح في استطاعتها، بعد ذلك اليوم، أن تأخذ إصلاح الكنيسة على عاتقها، وأن تنظّم ما اكتسبته، وتوسّعه ليشمل العالم المسيحيّ كلّه. وهي تريد ذلك وتعمل على تحقيقه بعزيمة ثابتة. لكنّ العقبات كانت ضخمة، أوّلها على مستوى الاتّصالات. فإن قلّ عدد العاملين وكانوا بعيدين، فكيف يمكن التغلّب، عبر المسافات الشاسعة، على عقبة الانفراديّة المتأصّلة وعناد الأمراء والروتين والمساومة؟ كان البابا يحتاج إلى أدوات، فصاغها مع الزمن. ذلك بأنّ البابوات كانوا يضعون أيديهم في العمل على قدر ما يستطيعون. ومنهم من أخذ يسافر. فكانت الرحلات الطويلة تحملهم على أن يواجهوا هم أنفسهم كثيرًا من الصعوبات المحلّيّة ويجدوا لها حلًّا، وأن يلتقوا رجال الإكليرس الإقليميّ ويوبّخوهم، وأن ينشروا مبادئ الإصلاح... لكنّ الأسفار كانت تشتّت إلى حدٍّ بعيد نشاط البابا وتُلحق الضرر بتصريف أعمال العالم المسيحيّ العامّة، ففي المدّة التي تفصل بين لاون التاسع وأُربانس الثاني، لم يُرد البابوات، ولا سيّما غريغوريوس السابع، أن يغادروا رومة، ولا إيطاليا على الأقلّ.

سلطة البابا وموفديه

وهناك طرق أخرى مكّنت البابوات من التدخّل في كلّ مكان، وأوّلها رسائلهم. فقد اعتاد بعض البابوات الكارولينيّين أن يكتبوا كثيرًا، ثمّ نضب النبع. وابتداءً من لاون التاسع، عاد الديوان البابويّ، وقد ضخم يومًا بعد يوم، إلى تحرير البراءات والبعث بها إلى مختلف كنائس العالم المسيحيّ. وكثيرًا ما كان موضوع هذه البراءات مرهونًا بالظروف ومحصورًا في إحدى المؤسّسات أو أحد الأشخاص. لكنّ البابوات كانوا يُكثرون من اللجوء إليها. فكانت تصل إلى الأقاليم النائية التي أهملتها رومة حتّى ذلك الوقت. وبفضل معالجة العديد من المشاكل المحلّيّة وبتّها، وسّعت تلك البراءات سلطة البابا وثبّتتها في كلّ مكان. وحيثما كانت المسائل عويصة ومهمّة، وحيثما تأصّلت العادات السيّئة إلى حدّ بعيد، أخذت رومة ترسل الموفدين بتفويض كامل. وفي السنوات التي تلت انطلاقة الإصلاح، كانت تلك البعثات موقّتة ومتقطّعة ومحصورة في مشكلةٍ محدّدة (تعزيز الإصلاح في أحد الأقاليم، والدفاع عن أحد الأديرة في وجه أحد العلمانيّين أو أحد الأساقفة)، لكنّ تكرارها الثابت نجح في جعل سلطة رومة مألوفة ومُشَخْصَنة، ومكّنت، في المقابل، جميع أعضاء الديوان البابويّ، ولا سيّما أبرزهم، الكرادلة وبابوات الغد، من جَوْب العالم المسيحيّ والاطّلاع عليه والشعور بما في مشاكله من وجهٍ إنسانيّ. فالكردينال هِلْدِبْرَنْد (Hildebrand) كان قد قام بعدّة بعثات إلى فرنسا قبل أن يشرِّف عرش بطرس باسم غريغوريوس السابع. وفي وقت لاحق، وعلى عهد هذا البابا بالضبط، أصبحت البعثات جهازَ اتّصال دائم. ولقد أثبت فاعليّته، فتمّ توسيعُه. وبعد ذلك، أقام الموفدون مدّة سنين طويلة في المنطقة نفسها. وكانوا يتمتّعون بسلطة – هي سلطة البابا نفسه – مكّنت أنشطهم من القيام بعمل ضخم... ولا نَنْسَ هنا أنّ الموفدين كثيرًا ما كانوا يلوّحون بسلاح الحِرْم الروحيّ الرهيب.

فكلّ شيء أصبح في مكانه، لكي تستعيد الكنيسة السيطرة على الموقف، وتستأصل نفسها من العالم العلمانيّ حيث كان طابعها الخاصّ يذوب. أجل، لم تفقد رسالتها، فإنّ الأديرة الجديدة – خصوصًا كلُوني ومتفرّعاته – كانت تجسّد، منذ القرن العاشر أو مطلع

القرن الحادي عشر، أمثالًا رائعة من الحرارة الروحيّة. ولٰكن، في غياب رئيسٍ مطَّلع ومستقلّ ومستفيد من معاونين كِفاء، كيف تُرَدّ إلى الإكليرس العلمانيّ، في عالم مجزَّأ وشرس، تلك الكرامة وذٰلك الحسّ الرسوليّ اللذان كثيرًا ما كانا يعوزانه؟ والحال أنّ قلّة ثقافة الشعب وتراتبيّة البنية الاجتماعيّة المُحْكَمَة اللتين كان يعيش فيهما، بالإضافة إلى ماضي الكنيسة نفسه، كانتا تجعلان من الإكليرس الوسيطَ الرعويّ الذي لا يُستغنى عنه على الإطلاق. فلا أسرار ولا وعظ ولا كنيسة ولا خلاص بمعزل عن الإكليرس، بمعزل عن إكليرس رزين وقويّ. ذاك هو الاقتناع المُجمَع عليه في القرن الحادي عشر. ولم يبقَ إلّا إنجاز ذٰلك الإصلاح وهٰذا ما جَعَلت منه البابويّة، بعد أن جُدِّدت في كرامتها وسلطتها، هدفَها الأوّل مدّة عشرات السنين.

الفصل السابع

مغامرة دير كْلُوني

بقلم إليان غُونْدِينِه(*)

تزامن إصلاح الإكليريكيّين وإصلاح الرهبان. ولأن دير كلوني كان يخضع مباشرةً للبابوات، فقد قام بدور أساسيّ في الحركة الإصلاحيّة التي عرفها القرنان العاشر والحادي عشر. وظهر رؤساء دير كلوني كأنّهم ضمير الغرب المسيحيّ. ولٰكنّ الإفراط في السلطة والغنى اللذين سيطرا على دير كلوني هدّدا إشعاعه منذ نهاية القرن الثاني عشر.

دير كلوني ينشأ حرًّا

كلّ شيء بدأ في ٩٠٩، حين قرّر غليوم الورع (Guillaume le Pieux)، دُوق أكيتانيا، أن يهب برنُون (Bernon)، رئيسَ دير بُوم وجِنْيِي (Baume et Gigny)، أرضًا لإنشاء ديرٍ بندكتيّ والقيام بالإصلاح الذي كانت الرهبانيّة تحتاج إليه أشدّ احتياج... كان صكّ الهبة يضع الرهبان والأموال في سلطة الرئيس برنون، لٰكنّه امتاز بكون الدير الجديد لا يخضع لأيّ نفوذ خارجيّ مدنيّ أو دينيّ، بل كان يخضع لروما فقط. فلم يكن للموالي والأساقفة أيّ حقّ في رقابة شؤونه. إنّه امتياز «العِصمة» الذي لا يقدَّر والذي ثبّته يوحنّا الحادي عشر في ٩٣٢.

أقام برنون في ذٰلك «الوادي الأسود»، هو واثنا عشر راهبًا أتى بهم من ديرَي بُوم وجِنْيِي. لٰكنّ وصوله لم يلقَ ترحيبًا، لأنّ الناحية كانت حافلةً بالأديرة، يرقى بعضها إلى عهد بعيد ويُولَى أهمّيّة كبرى.

زمن الإصلاح

شُيِّد دير متواضع الحجم في كلوني. وكانت هبة غليوم تضمّ كرومًا وحقولًا ومروجًا ومستنقعَين كثيرَي السمك، إلى جانب العديد من الأراضي البور. فعمل الرهبان على استصلاحها. وعادوا، شيئًا فشيئًا، وبدفع من برنون، إلى ممارسة الصمت والصلاة والعمل. وسمع الناس بهٰذه العودة إلى حياة بندكتيّة أصيلة، فتوافد المبتدئون. وطلب العديدُ من الأديرة مساندة كلوني للقيام بإصلاحها الخاص. وبعد وفاة برنون، أولى البابا يوحنّا الحادي عشر أُودونَ، خليفةَ برنون، حقّ القيام بإصلاح جميع الأديرة التي تلتمس ذٰلك ووضعها تحت سلطته. لا بل أُذن للرهبان الذين كانوا يطمحون إلى حياة رهبانيّة أشدّ حرارة، في مغادرة ديرهم وطلب قبولهم في كلوني. وهٰذه التدابير أدّت إلى إنشاء «إمبراطوريّة» كلونيزيّة بكلّ معنى الكلمة. ففي نهاية القرن الحادي عشر، كان رئيس دير كلوني يملك على أكثر من عشرة آلاف راهب، يوزَّعون على ١٤٥٠ بيتًا!

إلى أي شيء يُنسَب هٰذا الإشعاع الخارق؟ أوّلًا إلى

(*) Eliane Gondinet.

نوعيّة رؤسائه البشريّة والروحيّة، إلى جانب طول عمرهم... وكان من المفروض، بحسب قوانين القدّيس بندكتس، أن يتمّ انتخابهم عن يد الرهبان. لٰكنّ برنون خاف أن يتأثروا بالضغوط الخارجيّة، فاختار خليفته قبل وفاته بسنة. وسار الخلفاء على مثاله، فتم انتخاب رؤساء كلوني بالاختيار التكميليّ، مع المحافظة على وهميّة الانتخاب.

في أيّام رئاسة أودون (٩٢٧-٩٤٢)، تمّ جوهر الإصلاح الكلونيزيّ. إنّ هٰذا الرجل القصير القامة والقويّ الشخصيّة كان متقشّفًا، يشدّد على أهمّيّة الصمت ويمشي مُغمض العينين، حتّى إنّهم كانوا يسمّونه عن تهكّم «حفّار القبور»! لٰكنّ حفّار القبور هٰذا كان أيضًا موسيقيًّا وشاعرًا، شديد الطموح إلى الكمال الطقسيّ وجمال الترنيم: وبفضله سيطرت العبادة الطقسيّة، حتّى إنّها أصبحت جوهر نشاط الراهب. فطالت رتبة الترتيل، وفقدت الأصوام والتقشّفات والعمل اليدويّ أهمّيّتها الكبرى. فكان الراهب الكلونيزيّ يرنّم صلاته بلا حدّ وبوجهٍ رائع، ويجد في ذٰلك ترويض النفس. وكان يجده أيضًا في ممارسة الضيافة. في أيّام رئاسة أُودون، كان الدير يستقبل الفقراء وذوي العاهات بكلّ ترحاب، ولقد بقي تقليد المحبّة هٰذا من ميزات دير كلوني... وعند وفاة أودون، بكاه الدير بُكاءَه على الثاني من مؤسّسيه...

وخلف أودونَ إيمار (٩٤٢-٩٦٣) فجعل من كلوني قوّة اقتصاديّة. وخلفه مايُول (Mayeul) (٩٦٣-٩٩٤) الذي أضحى في زمانه أنفذ الناس كلمةً في الكنيسة، ولمّا قبض عليه المسلمون في إحدى سفراته دفع المسيحيّون فديته عشرة آلاف ليرة فضّة، وثأر له غليوم، كونت بروڤانس، فهاجم المسلمين واسترجع منهم جنوب فرنسا (٩٧٢).

الذُّروة

وفي القرن الحادي عشر، بلغ الدير ذروته. أُعلنت قداسة رؤساء كلوني الستّة الأوّلين. ولٰكن، بين هٰؤلاء القدّيسين برز اسم أُوديلون، إذ إنّ محبّته، في ذٰلك العالم القاسي الذي كان يحيط به، لم تعرف الملل. ففي السنة ١٠١٨، يُروى أنّ الدير أسعف سبعة عشر ألف مُعوز. وفي أيّام المجاعة، لم يتردّد أوديلون في بيع ما كان في كنيسته من آنية مقدّسة وجواهر وحوّلها إلى أكياس قمح. وأجاب الذين أخذوا عليه هٰذا العمل: «لا فائدة من تكديس ذهب الكنيسة، بل من توزيعه». لٰكنّ مهمّته ازدادت ثقلًا يومًا بعد يوم، إذ إنّ عدد الأديرة التابعة لكلوني قفز من ٣٧ إلى ٦٥. فأصبح هٰذا الدير قوّةً دوليّة، وأخذ أوديلون ينتقل من دير إلى دير ويقوم بدور الحَكَم بين البابوات والأباطرة والملوك والأمراء. وقاوم الحرب بكلّ قوّته، واضعًا نفوذه الواسع في خدمة الحركة التي أدّت إلى «سلام الله»...

وخلفه هُوغ (Hugues) الذي شيَّد أكبر كنيسة في العالم (قبل بناء كنيسة القدّيسين بطرس وبولس في رومة، وكان طولها ١٨٧ مترًا ولها خمسة صحون تنيرها ٣٠٠ زجاجيّة)، وقد عامل البابوات والأباطرة معاملة الندّ للندّ. وكان مستشار غريغوريوس السابع وصديقه. وفي ذٰلك الزمان، كان دير كلوني حقًّا المشعلَ الذي ينير العالم المسيحيّ.

التنظيم الكلونيزيّ

أصبح دير كلوني عاصمةً مِلكُها رئيس الدير. يقيم فيه أكثر من ٤٥٠ راهبًا. وإذا احتاجوا إلى قليل من السلام ليستريحوا أو يقوموا برياضة روحيّة، لجأوا إلى الأديرة المجاورة. وكان الدير يستقبل أيضًا المبتدئين من مختلف الأديرة الكلونيزيّة في أوروبّا، يأتون إليه ليُبرزوا نذورهم بين يدي كبير الرؤساء، كما كان يستقبل الرهبان المسنّين الذين يأتون إليه ليقضوا أيّامهم الأخيرة. وكانت الأسرة الكلونيزيّة مُحكمة التركيز

حول الدير الأمّ، وكانت الأديرة الكلونيزيّة تنقسم إلى ثلاث فئات، ولٰكنّها تخضع كلّها، بقدر كبير أو قليل، لكبير الرؤساء.

وكان أكثَر الرهبان، في ذٰلك الزمن، كهنة، وهٰذا ما يعبّر عن شيء جديد في تطوّر الحركة الرهبانيّة وينجم رأسًا عمّا كان دير كلوني يولي الليترجيا من أهمّيّة. كان الرهبان أصلًا علمانيّين، وكان بعضهم فقط يُرسمون لمنح إخوتَهم الأسرار. أمّا الآن، فقد انعكست النسبة. والكلونيزيّون، قبل أن يكونوا رهبانًا يكفّرون، هم إكليركيّون يحتفلون بالرتب الدينيّة. هٰذا وإنّ هٰؤلاء الرهبان الكهنة لا يكتفون بالاحتفال بالرتب الدينيّة، بل يعظون ويسمعون الاعترافات ويبشّرون الأرياف. ولقد قام العديد من الأديرة بدور الرعايا الريفيّة. وحين أقدم البابوات على الإصلاح الكنسيّ، استندوا إلى أولٰئك المعاونين، فإنّ نفوذهم كان يؤثّر في عالم الإكليريكيّين وعالم العلمانيّين على السواء.

كلُوني وسِيتُو

كان دير كلوني في ذروة إشعاعه. لٰكنّ ازدهاره نفسه كان يحمل في طيّاته بذور انحطاطه. فإنّ التبرّعات التي كانت تصل إليه من كلّ جهة والرسوم التي يجبيها من الأديرة جعلت منه ديرًا غنيًّا فوق الحدّ... وفي ذٰلك الوقت، رويدًا رويدًا وبعيدًا عن الأضواء، نشأ دير سِيتُو، وقد أخذ، منذ ١٠٩٨، وفي أغلب الظنّ كردّ فعل على الـ«رخاوة» الكلونيزيّة، يعيد إلى العمل اليدويّ كرامته ويسير في طريق التقشّف. وكان يسعى ليكون هو أيضًا عودةً إلى الينابيع البندكتيّة. لٰكنّ «رهبانه البيض» يتصوّرون ذٰلك على خلاف ما يتصوّره «رهبان كلوني السود»، إذ كانت رغبتهم في التجرّد تبلغ درجة التزمّت، كما كانت شدّة تقشّفاتهم وأصوامهم تكاد أن تبلغ درجة المازوشيّة. فكان الأكل بالكفاية يبدو لهم شراهة والنوم بالكفاية شهوانيّة...

ولمّا انتُخب بطرس المكرّم (Pierre de vénérable) رئيسًا على كلوني (١١٥٦-١١٢٢)، قطع الطريق على الترف، من دون أن يتأثّر بتأنيب القدّيس برنْردس الذي كان يريد منه أن يفرض على كلوني تقشّف رهبانه في سيتو... لٰكنّ بطرس، بالرغم من قيامه بالإصلاح الضروريّ، رفض المزايدة في التقشّف، معتبرًا أنّ رهبانه في حاجة إلى حدّ أدنى من أسباب الراحة لينصرفوا في الفرح إلى تلاوة الفرض، ومُصرًّا على توفير هٰذا الحدّ الأدنى لهم. على كلّ حال، كانت «رخاوة» كلوني أمرًا نسبيًّا، إذ إنّ الرهبان لا يأكلون اللحم إلّا في حالة المرض، وبعض الأديرة كانت تتراجع أمام الانتماء إلى كلوني بسبب ما عندها من صرامة في حفظ القوانين...

نحو الانحطاط

بعد وفاة بطرس المكرّم حلّت حرارة سِيتُو محلّ إنسانيّة كلوني، مع أنّ هٰذا الدير عاش أيضًا، بعد ذٰلك، ساعاتٍ من المجد... وحتى نهاية القرن الخامس عشر، توصّل إلى الحفاظ على ثروته الأرضيّة واستقلاله عن العظماء. ولٰكنّ نظام «العُهدة»، الذي يُجيز لملك فرنسا أن يفرض مرشّحه في انتخاب الرهبان، عجّل انحطاطه...

الفصل الثامن

نزاع بين البابا والإمبراطور

بقلم مَرسال پاكُو(*)

تمّ إصلاح الكنيسة بفضل تعزيز السلطة البابويّة. فنتج من ذٰلك نزاع اختصاص بين الإمبراطور والبابا، وكان الصراع بين الكهنوت والإمبراطوريّة.

إنّ إصلاح الكنيسة الذي حقّقه، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، البابا لاون التاسع وخلفاؤه هو، في حدّ ذاته فقط، حدث عظيم، فإنّه، بإعادة تكوين إكليرسٍ منظّم تنظيمًا أفضل وباستعادة نفوذ المقام البابويّ، وضع أسس كنيسة العصر الوسيط. لٰكنّ نتائجه لم تقتصر على ذٰلك فقط، بل هناك نتائج غير مباشرة أكثر بَهرًا أثّرت في تاريخ أوروبّا السياسيّ.

ولا عجب، لشدّة ما كاد أن يكون الحكم المدنيّ والحكم الدينيّ مختلطَين منذ قرون طويلة. فكان الأباطرة، منذ شارلمان، يعيّنون لأنفسهم وظيفة دينيّة، في حين كان الأساقفة، الذين كانوا مندمجين في شبكة العلاقات بين العظماء التي تُسمّى الإقطاعيّة، يمارسون فعلًا سلطات زمنيّة مهمّة. ولم ينقلب الاختلاط الناتج من ذٰلك إلى فائدة الكنيسة دائمًا. ولٰذلك وَضَع رجالُ الإصلاح في رأس اهتماماتهم استقلال الكنيسة أو، كما كانوا يقولون، «حرّيّتها».

فكان من مسلتزمات الإصلاح تحوُّل في العمق لعلاقات الكنيسة بالسلطات المدنيّة. وفي الوضع الذي ساد المجتمع الغربيّ، سرعان ما بدا أنّ استعادة الحكم الروحيّ من شأنها أن تؤدّي إلى نزاع في الاختصاص بين الشخصيّتين القادرتين على توجيه مصير ذٰلك المجتمع، وهما البابا والإمبراطور. وكان الإصلاح يصبّ أيضًا في الصراع بين الكهنوت والإمبراطوريّة، فأضاف فصلًا جديدًا إلى تاريخ العلاقات الطويل بين الحكم الروحيّ والحكم الزمنيّ.

الكنيسة والإمبراطوريّة والمَلَكيّات

قبل خَوض هٰذه المسألة، يحسن بنا أن نحدّد الوضع الذي كان قائمًا بين السلطتين المتجابهتين: فمن الخطإ أن نتصوّر أنّ هٰذا النزاع يشبه تمامًا ما يفرّق بين الكنيسة والدول في المجتمعات العصريّة. وذٰلك لسبب بسيط، وهو أنّ الدولة لم يكن لها وجود في ذٰلك الزمن، بالمعنى العصريّ على الأقلّ، أي أنّ الدولة هي سلطة عامّة وعليا، تحدّد حقوق كلّ واحد وواجباته، وتهدف إلى غايةٍ هي تحدِّدُها وتسعى لتحقيقها بحسب الوسائل التي تختارها ووفقًا للأخلاقيّة التي تحدّدها وتقبلها. أمّا النظام الإقطاعيّ، فهو يمنع أن تعبّر السيادةُ بوضوح عن نفسها. والمَلَكيّات (فرنسا وإنكلترا وألمانيا إلخ.)، ولو كان لها طموحات عظيمة، ترى امتيازاتها تتقلّص بسبب دسائس الطبقة الأرستقراطيّة أو بسبب الفساد والضعف.

لا شكّ في أنّ هناك سلطات حقيقيّة، تمارَس على المستوى المحلّيّ والأقليميّ. فهي تنظّم وتقضي

(*) Marcel Pacault، أستاذ في جامعة ليُون.

وتراقب وتفرض. وبعضها أقوى من سائر السلطات، وأوّلها المَلَكيّات: نَمت ابتداءً من منتصف القرن الثاني عشر ومارست سلطتها في أراضٍ واسعة إلى حدٍّ ما، لا بل ادّعت التمتّع بسيادة حقيقيّة. لٰكنّها لم تتوصّل قطّ إلى وضع تعليم سياسيّ يقول بأنّ وظيفة الملك لها غائيّة خاصّة. فقد اكتفى أكثر الملوك، في القرن الثالث عشر وبعده، بالاعتقاد أنّ غاية عملهم هو إحلال النظام والعدل لفائدتهم، ولٰكن بطريقة تمكّن رعاياهم من الحصول على الخلاص الأبديّ.

لٰكنَّ هٰذه المهمّة كانت محفوظة بوجهٍ خاصّ للأمبراطور. فالإمبراطوريّة - الإمبراطوريّة المقدّسة - لم تكن سوى التنظيم الزمنيّ في المجتمع المسيحيّ اللاتينيّ، أي الغرب، الذي أخذوا يسمّونه في بعض الأوساط، العالم المسيحيّ. والإمبراطوريّة تضاف إلى الممالك وتشملها: ومن هنا ما كان للإمبراطور من سلطة خارقة، تلك التي كانت سلطة شارلمان نفسه. ولٰكنّ المقصود خصوصًا هو مهمّة دينيّة وأخلاقيّة، هي نشر الإيمان والدفاع عنه، وإدخاله على وجهٍ أفضل في النفوس، وللوصول إلى هٰذه الغاية، مساعدةُ الكنيسة ومساندتُها. فهٰذه المشاريع كلُّها كانت تولي الإمبراطور، أمام الله، مسؤوليّةً زمنيّة لا تضطلع بها أيُّ وظيفة غيرها. وفي المقابل، لا يُطلب إليه أن يحدّد مصير الأمبراطوريّة خلافًا لمصير الكنيسة.

فلا صلة لحكم الإمبراطور بمفهوم الدولة العصريّ. ولا عجب أن نرى أنّه كلّما أخذت الدولة في التثبُّت، ضعفت إمبراطوريّة العصر الوسيط وزالت. على كلّ حال، ففي القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر، لم يتوصّل الإمبراطور قطّ، بالرغم من طموحاته ومحاولاته، إلى إدارة شؤون العالم المسيحيّ كلّه إدارةً فعليّة. فهو لا يحكم إلّا على ثلاث ممالك هي ممالك ألمانيا وإيطاليا وبُرْغُونيا، وكثيرًا ما حكم بمشقّةٍ على هاتين الأخيرتين. وكان يحكم عليهما لأنّه كان ملكًا في كلّ منهما. لٰكنّ ضعفه يعود إلى أنّ مُلكَه على ألمانيا، الذي كان يوليه الحقّ في الحكم على الأخريين وعلى الإمبراطوريّة، كان يؤول إليه بالانتخاب...

وفي المقابل، وإن لم يكن للإيمان من العمق ما يمكّنه من تنظيم حياة البشر كلّها، إلّا أنّ الكنيسة، وقد يكون ذٰلك بسبب هٰذا التقصير، كانت تصرّ على أن تكون حاضرةً في المجتمع السياسيّ كلّه. وكان من المسلّمات أنّ رسالتها، بحسب التخطيط الإلٰهيّ، هي أن تُرشد الجنس البشريّ إلى الخلاص. ولهٰذا السبب، فإنّ سلطتها التي هي أخلاقيّة وروحيّة تتدخّل منطقيًّا في قطاعاتٍ معيَّنة وأعمال معيَّنة تتعلّق بالسياسة. وهٰذه السلطة تختلف طبيعتها عن طبيعة الولايات المدنيّة. وبما أنّها تختصّ بالنفس، في حين تختصّ سائر السلطات بالجسد، فهي من درجة أعلى. لا بل للكنيسة مهمّة، نظرًا إلى الرسالة المسيحيّة التي تحدّدها وتنشرها، وهي أن تعيِّن لكلّ ولاية مدنيّة الدور الذي يجب أن تقوم به لتحقيق العمل الإلٰهيّ.

في مثل هٰذا الإطار، لم يَبْقَ ذكر - في القرن الحادي عشر على الأقلّ - للتعليم الذي عبَّر عنه البابا جِيلاسِيوُس الأوّل في حوالى السنة ٥٠٠، وهو أنّ السلطتين، الروحيّة والزمنيّة، تمتاز إحداهما عن الأخرى أو لا بدّ من أن تبقيا منفصلتَين في ولايتهما. ولٰكن عليهما أن تتعاونا في الأمور التي تختصّ بكلّ منهما. ذٰلك هو التعليم الجِيلاسيّ، مع أنّه لم يحدِّد إلى أيٍّ من السلطتين يعود الإشراف على ذٰلك التعاون.

وفي المقابل، لا ننسى أنّ شارلمان حكم الغرب بسلطانٍ مطلق، في كلا المجالين، لمجده الأعظم، بل لخدمة الله أيضًا وفائدة الكنيسة. فحُفظت الفكرة القائلة بأنّ سلطةً واحدة تستطيع أن تشرف على نشاطات العالم المسيحيّ كلّها.

تأثير الإصلاح الغريغوريّ

والحال أنّ أهمّيّة الإصلاح «الغريغوريّ» تأتيه من أنّه، باستعادته الحكم الروحيّ في وجه الحكم الزمنيّ، قد أدخل خيارًا يختصّ بصاحب تلك السلطة. في الماضي، لم يكن هناك مجال للتردّد، فإنّ الإمبراطور

وحده كان يستطيع، على ما يبدو، أن يطمح إليها. أمّا الآن، فمن الممكن أن يُطرح السؤال، أهو الإمبراطور أم البابا؟

فمنذ عدّة سنوات، وفي قطاعات الغرب كافّة، بُذلت جهود لمكافحة أنواع الفساد والعنف والطمع، وإحلال مثال السلام والعدل الأعلى محلّها. وكانت الكنيسة تريد أن تكون في الصفّ الأوّل لخوض هٰذه المعركة، فسعت بوجه خاصّ لهداية الأشراف، ولا شكّ في أنّهم كانوا أكثر الناس تلوّثًا «بالرذائل»، وبما أنّهم كانوا يمارسون بعض وجوه الحكم، فكانوا أكثر مسؤوليّة، ثمّ إنّ رجال الإكليرس، نظرًا إلى تحدُّرهم وعقليّتهم، كانوا أقرب إليهم بصلة وثيقة. فحوالى السنة ١٠٥٠، أخذت الكنيسة تنسّق تلك المشاريع، فأصبحت بذٰلك تُشرف على التجديد الأخلاقيّ والدينيّ. ولقد حدَّدت أهدافه، وهي إدخال أحكام الأخلاقيّة المسيحيّة في حياة البشر. ووضّحت وسائله وطرقه، وهي أنّ العمل يجب أن تُشرف عليه سلطة واحدة، ولا يمكن أن تكون إلّا سلطة البابا. وإذا أُريد التأثير في المجتمع العلمانيّ، فلا بدّ من البدء بإصلاح رجال الإكليرس، وعلى رأسهم الأساقفة.

كان الاستدلال منطقيًّا. لٰكنّ الإستراتيجيّة، التي حُدِّدت على هٰذا الوجه، كانت تهدف إلى تحويل بنى الكنيسة تحويلًا جذريًّا. الكنيسة؟ كانت، حتّى ذٰلك الزمن، جمعيّة أقاليم وأبرشيّات ورؤساء أساقفة وأساقفة، يشاركون في الإيمان الواحد، وكان للحبر الأعظم عليها شيء من حقّ الرقابة ينسجم مع السلطة التعليميّة العليا في شأن العقيدة، وكان كرسيّه يساعد على تثبيت وحدتها. وبدلًا من هٰذه «المشاركة»، كان الغريغوريّون، ولا سيّما غريغوريوس السابع (١٠٧٣-١٠٨٥)، يريدون أن يضعوا نظامًا مَلَكيًّا. وكانوا يعتبرون أنّ إصلاح رجال الإكليرس الفعّال يتطلّب أن يُنهى الحكم العلمانيّ عن التدخّل في التعيينات الأسقفيّة، لأنّ هٰذه التدخّلات تساهم في تعيين أحبارٍ «أشرار»، قليلي الاهتمام بنشر المسيحيّة. فلن يجوز بعد اليوم لأيّ علمانيّ أن يسلّم العصا والخاتم إلى الأساقفة الجدد، لأنّ هٰذا يعني أنّ أحد العلمانيّين يمنح رجلًا من رجال الكنيسة امتيازات روحيّة.

معارك غريغوريوس السابع

أثار الموقف السابق نزاعًا عنيفًا جدًّا مع الأباطرة الجرمانيّين، وكانوا متمسّكين بسلطة التعيين بقدر ما كانوا يُشركون رؤساء الأساقفة والأساقفة في إدارة شؤون دُوَلهم، لا بل كانوا يفوّضون إليهم حقوقًا ملكيّة، لأنّه لا يُخشى أن يحتكروا لفائدتهم ما يُعهد فيه إليهم من الوظائف، ولا أن ينقلوها إلى ورثائهم.

نشأ الخلاف في مطلع حبريّة غريغوريوس السابع، حين عاد إلى شجب التعيينات فوبّخ ملك جرمانيا الشابّ، هنري الرابع، الذي انتُخب إمبراطورًا. لٰكنّ الردّ كان سريعًا، فلقد عقد الإمبراطور سينودس أساقفة أعلنوا فيه عدم شرعيّة البابا، مدّعين أنّ انتخابه لم يكن مطابقًا للأصول. فاتّخذ غريغوريوس السابع قرارًا غريبًا، وحرم هنري وخلعه. وفي ألمانيا، تمرّد عدّة أمراء على الملك. لٰكنّ الملك دلّ على براعة فأتى إلى كَنُوسا وقدّم خضوعه (١٠٧٧). وبعد أن حصل على غفران البابا واستعاد حرّيّة التصرّف، اتّخذ المبادرة وعاد إلى الصراع. حتّى إنّه حُرم مرّةً أخرى في ١٠٨٠ وخُلع. ولٰكنّ الحظّ كان حليفه، فتغلّب على خصومه واستولى على رومة وأقام فيها بابًا مناوئًا. ومات غريغوريوس السابع في سالِرْنو (Salerne)، منهكًا بالتعب وخيبة الأمل.

وبعد فترة من الهدوء في أيّام حبريّة أُربانُس الثاني، مع أنّه لم يتخلَّ عن أهداف الإصلاح، التهب الصراع مرّةً أخرى على عهد پَسْكال الثاني وجيلاسيوس الثاني. ذٰلك بأنّ هٰذين البابوَين اصطدما بابن هنري الرابع، هنري الخامس. وكان هٰذا مقدامًا فحُرم في ١١١٨، من دون أن يُخلَع. ولم يصل السلام إلّا بعد مفاوضات طويلة، في معاهدة ڤُورْمس (١١٢٢).

حلّ وسط أم قساوة جديدة؟

إنّ تلك المواجهة، التي يعود نهجها المثاليّ إلى حزم غريغوريوس السابع، بقدر ما يعود إلى حذق الملوك الألمان السياسيّ، هي مليئة بالمعاني المتناقضة.

إنّها تنتهي أوّلًا بالتوقيع على أوّل معاهدة عرفها التاريخ بين الكنيسة والدولة، وهي، شأنها شأن كلّ معاهدة من هٰذا النوع، نتيجة حلٍّ وسط. فمن جهة، يُحصر انتخاب الأساقفة في رجال الكنيسة وحدهم، والذي يقلّدهم وظيفتَهم الروحيّة هو رئيس الأساقفة. ولٰكنّ الملك، من جهة أُخرى، يقلّدهم الأموال والوظائف السياسيّة الملحَقة بالمهمّة الأسقفيّة، ومن واجبهم أن يُقسموا الولاء للملك. على مدى طويل، تبدو أهمّيّة هٰذه المعاهدة واضحة، فهي تؤمّن استقلاليّة الحكم الروحيّ. لٰكنّها، من ناحيةٍ أُخرى، تُدخل فكرة الفصل بين البعد الروحيّ والبعد الزمنيّ. ومع أنّ هٰذه الفكرة كانت غريبة عن عقليّة المتنافسين، فهي تستبق التطوّرات الآتية وتنبئ، من بعيدٍ جدًّا، بعلمنة الدولة تدريجًا.

ولٰكنّهم كانوا بعيدين كلّ البعد عن هٰذه النظرة. لا بل أظهر سَيْر النزاع أنّ الخصمين بقيا أمينَين لفكرة الاعتقاد بأنّ سلطةً واحدة يجب أن تُفرَض على مجمل العالم المسيحيّ. ومن جهة البابا، أُثبت هٰذا الادّعاء بقوّة، حتّى إنّ غريغوريوس السابع جرؤ مرّتين على حرم الإمبراطور وخَلْعه. ولٰكن، كان لا بدّ من تبرير مثل هٰذه القرارات غير العاديّة، فاضطُرّ البابا إلى عرض مفهوم جديد للعلاقات بين الحكمَين. ولمّا عُبِّر عن هٰذا المفهوم في حمّى الصراع، صَبَّ في خانة الحكم الإلٰهي.

نجد أساس تلك النظريّة في الخلط بين النظام الزمنيّ والنظام الروحيّ. أجل، كانوا يقولون بالتمييز بين هٰذَين الحقلين، ويعترفون، بحكم الرشد، بأنّ هناك مواقفَ مادّيّة ومواقف روحيّة. ولٰكنّهم كانوا يعتبرون أنّ المواقف المادّيّة لا قيمة لها إلّا بقدر ما لها مضمون دينيّ، في النيّة على الأقلّ. فخارجًا عن حاجات الحياة الأوّليّة، ما من فعل حِياديّ. وبناءً على ذٰلك، فللكنيسة حقّ إشراف على الحياة البشريّة كلّها، إذ إنّها مكلَّفة بالمهمّة الروحيّة العليا، بالمسؤوليّة عن العالم المسيحيّ. وهٰذا الحقّ يُمارَس بمزيد من القوّة، كلّما قصّرت الولايات السياسيّة في القيام بمهامّها.

وإذا وُضعت هٰذه المبادئ، لا يبقى إلّا استخلاص نتائجها. وبما أنّه يجوز أن يَخضع كلّ ما هو زمنيّ لمقاييس الأخلاق والدين، فمن المعقول أن يقال بأنّ الكنيسة تتمتّع، في آخر الأمر، بالسيادة الوحيدة: الكنيسة، والبابا بوجه أخصّ، فهو نفسه، في نظام الغريغوريّين المَلَكي، سيّدها المطلق. فالحبر الأعظم يراقب سائر السلطات أيًّا كانت، بما فيها وبوجهٍ خاصّ سلطة الإمبراطور، نظرًا إلى مسؤوليّته الخاصّة. ففي إمكانه أن يعاقبه دينيًّا (بالحِرم) وزمنيًّا (بالخلع)، إن كان عقبةً، بسبب مشاريعه أو خطاياه، في سياق عمل الكنيسة الأخلاقيّ والدينيّ. ومن هٰذا القبيل، تُلخَّص قراراتُ البابا النظريّةَ الغريغوريّة بعبارات مقتضبة: «إنّ البابا هو الرجل الوحيد الذي يقبِّل الملوكُ قَدَمَيه. اسمه فريد في العالم. في إمكانه أن يخلع الأباطرة. في إمكانه أن يحلّ مِن يمين الولاء المُقسَمة للظالمين. لا يستطيع أحد أن يدينه».

فهل يجوز الاستنتاج من هٰذه الأقوال أنّ البابا يستطيع أن يدير شؤون الإمبراطور والملوك؟ كلّا. فإنّ الملوك، في نظر الغريغوريّين، يستمدّون سلطتهم من الله رأسًا. لٰكنّهم يبقون خاضعين لولاية الإكليريكيّين الأخلاقيّة، وإن سقطوا في الخطيئة، يمكن حرمهم (وهٰذا ما يجعلهم موقّتًا غير أهل للحكم). والإمبراطور نفسه، مع أنّه مدين بتاجه للانتخاب، ينال حكمه من الله، لٰكنّ ممارسة هٰذا الحكم مرتبطة بحفظ بعض الواجبات، بحسب اتّفاقٍ ضمنيّ معقود بين منتخبيه وبينه، والبابا هو الذي يسهر على تنفيذه، باسم الكنيسة.

ولتجسيد تلك النظريّات، يستند اللاهوتيُّون إلى السوابق التاريخيّة، كحرم ثِيُودُوسِيوس عن يد أمبروسيوس. لٰكنّهم كانوا يستشهدون خصوصًا بالكتاب المقدّس، وهٰذا ما يُظهر إلى أيّ حدّ كانت نظرتهم دينيّة. أمَّا الدليل الأكبر على سيادة البابا فكانوا يجدونه طبعًا في نصّ الإنجيل المعروف، حيث يقول المسيح لهامة الرسل: «أنت صخر، وعلى الصخر هٰذا سأبني كنيستي، فلن يقوى عليها سلطان الموت. وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات» (متّى ١٦/١٨-١٩). وهناك نصوص كتابيّة أُخرى كانوا يستشهدون بها، ولٰكن لا يذكر أحد تلك الفقرات التي قد تؤدّي إلى رفض الادّعاءات البابويّة، ولا خصوصًا العبارة الشهيرة، «أدُّوا لقيصر ما لقيصر، ولله ما لله» (متّى ٢٢/٢١)، وهي تُثبت استقلال الملوك وسلطتهم.

إنّ رصيد ذلك الخلاف حول التعيينات يبقى إذًا ملتبسًا، إذ يبدو من جهة أنّ النزاع بين الحُكمَين لا حلّ له إلَّا لقاءَ شيءٍ من التمييز بين الحقلين، ويتّضح، من جهة أُخرى، أنّ هٰذا التمييز لا يمكن أن يكون، في نظر بني ذٰلك الزمن، نوعًا من الكلمة الفصل. فقد كانوا على قدر من المسيحيّة لا يسمح لهم بأن ينسوا أنّ كلّ نشاط زمنيّ له انعكاس روحيّ حتمًا، ولٰكنّهم كانوا أيضًا على قدر من روح الاستقلاليّة تجعلهم لا يقبلون أن يقيم البابا نفسه ديَّانًا شاملًا لأعمالهم، فمهمَا تطوَّرت المشكلة، تبقى هناك الظروف المطلوبة لوجود توتّر، لا بل لوجود نزاع...

الفصل التاسع

البحث عن حلّ

بقلم مَرسال پاكُو(*)

إن الصراع الذي قام بين الكهنوت والإمبراطوريّة، من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، صبَّ، على ما يبدو، في انتصار البابا. في الواقع، ليس هناك غالب ولا مغلوب. وقد ابتدأ زمن آخر ظهر في التواجه بين الكنيسة والدول العصريّة.

ابتداءً من الثلث الثاني من القرن الثاني عشر، طرأت على الغرب تحوّلات عميقة غيَّرت المعطيات التي تقوم عليها العلاقات بين الكنيسة والسلطات السياسيّة. فقد تثبّتت هٰذه السلطات وتركَّزت بين أيدي بعض الملوك. وتنظَّمت الملكيّات الإقطاعيّة، وبفضلها حلَّ النظام. وكانت غايتها المعترَف بها إنصاف كلّ واحد وإعطاءَه مكانه، بحسب مقاييس الدين. وفي الوقت نفسه، أُخذ الناس يعودون إلى الشرع الرومانيّ ويعلّمونه في المدارس. والحال أنّه كان يؤيّد الملوك، إذ إنّه يقول بأنّ «كلّ ما يروق للملوك له سلطان القانون». وأخيرًا ازداد الناس شعورًا بما لبعض النشاطات من طابع غير دينيّ مباشَر، ونفروا من اهتمام الكنيسة بكلّ شيء: وهٰكذا نشأ الروح العلمانيّ.

وهذا كلُّه يصبّ في نتيجة واحدة، وهي أنّهم يؤكّدون أنّ الحقلَين، الحقل الروحيّ والحقل الزمنيّ، لا يتميَّز واحدهما عن الآخر وحَسْب، بل هما منفصلان بحسب النظام الذي أراده الله، فيكاد واحدهما يكون مستقلًّا عن الآخر، أو مستقلًّا بذاته على الأقلّ، إذ إنّ لكلٍّ منهما قواعده الخاصّة. إنّ قرار غراسِيانُس، الذي حُرِّر في حوالى السنة ١١٤٠ والذي هو أهمّ مجموعات العصر الوسيط القانونيّة وأكثرها درسًا، يُبرز هٰذا التمييز. فالكنيسة قد اعترفت إذًا بوجود قطاع لا يخضع لها عادةً.

لٰكنّ هٰذا التطوّر لم يأتِ بالتهدئة، وذٰلك لثلاثة أسباب أساسيّة. أوّلها يعود إلى أنّ الأباطرة، الذين اضطرّوا إلى الاعتراف باستقلاليّة الحكم الروحيّ، لا بل بأوّليّته، أرادوا أن يحفظوا استقلال حكمهم الذاتيّ، فاستأنفوا الصراع. والسبب الثاني يعود إلى موقف الكنيسة، لأنّها كانت، في ذٰلك الزمن، توسّع شيئًا فشيئًا حقل اختصاصها، مُقدِّسةً شيئًا فشيئًا كلّ ما كان مفيدًا للدين، وبالتالي لنفسها (الأملاك الكَنَسِيّة مثلًا). ولٰكنّ استمرار النزاع كان يعود، فوق كلّ شيء، إلى أنّ الدين المسيحيّ لا يزال، في عيون الجميع، مرجع المجتمع الأخير ولُحمته. فكان مستحيلًا أن تُرسَم حدود بين الحكمَين، فتؤمِّن في وقت واحد استقلال الزمنيّات الذاتيّ وأوّليّة الروحيّات. عبثًا كانت النظريّة تتثبّت، لأنّ الحقيقة كانت تصمد، على حساب الإمبراطور، ثمّ البابا، فإنّ الحلول المعروضة لحلّ المشكلة كانت حلولًا موقّتة.

في نهاية الخلاف حول التعيينات، كان نفوذ الإمبراطوريّة ملطَّخًا بسبب الحل الوسط الذي أُرغمت عليه. ولٰكن الأوضاع تغيَّرت عند انتخاب فريدريك بَرْبَرُوس، الذي كان شخصيَّةً قويّةَ العزيمة. فحاول أن يستند إلى سلطةِ مجمعٍ أراد أن يدعو إليه، ليقف في

(*) Marcel Pacault، أستاذ في جامعة ليُون.

وجه البابا إسكندر الثالث. لٰكنّ البابا رفض الذهاب إلى المجمع وحرم الإمبراطور، فاضطرّ هٰذا إلى الخضوع للبابا والاعتراف به.

أمّا إينوقنْطيوس الثالث، فَقَبِل التمييز بين الحكمَين، لٰكنّه أكّد سيادة الكنيسة المتفوّقة، التي يمارسها بصفته بابا. وبذٰلك، نراه يستخلص جميع نتائج تعليم يرجّح كفّة الميزان لمصلحة البابا، مع مراعاته الفصل بين الحقلين. ولٰكنّ الغريب في ذٰلك هو أنّ الظروف، إلى جانب شخصيّة البابا، مكّنت من قبول تحكيمه. فبدا أنّ العالم المسيحيّ وجد أخيرًا حلّ مشكلة لم يستطع زمنُ الكنيسة القديمة ولا زمن شارلمان أن يجدا لها حلًّا نهائيًّا.

في الحقيقة، نستنتج من سياق الأحداث أنّه لم يكن شيء من ذٰلك. فبعد موت إنوقنطيوس الثالث بقليل، استؤنف الصراع بين الكهنوت والإمبراطوريّة. فاضطُرَّ البابا إنوقنطيوس الرابع إلى خلع فريدريك الثاني الذي اجتاح الدول البابويّة. ووسّع إلى ما لا نهاية له قدرة البابا على التدخّل في المجال الزمنيّ، وهٰذا ما ألقى الهلع في قلوب الملوك.

إنّ نتيجة الخلاف الطويل الذي قام بين الكهنوت والإمبراطوريّة لم تقتصر على انتصار رومة، بل تشير في العمق إلى نهاية عصر... فإنّ فكرة الإمبراطوريّة، كصيغةٍ لوحدة العالم المسيحيّ، دامت مدة طويلة بشكل أُسطورة ولم تعد تطابق الحقيقة.

وماذا نقول في البابويّة؟ لا شكّ في أنّ استقلالها توطّد، ولٰكن لا بدّ من لفت النظر إلى أنّها خسرت نفوذها. فإنّ حرصها على الدفاع عن حقوقها السياسيّة وتكرار لجوئها إلى المعاقبات الدينيّة أثارا حذر الملكيّات التي أخذت تتثبّت في أوروبّا. أجل، لم يعد في إمكان الملوك أن يطمحوا، كالأباطرة، إلى نوع من السيادة الشاملة، ولٰكنّهم أصبحوا في وضع أفضل ليفرضوا سلطتهم في دولهم ويحرّروها، قدر المستطاع في ذٰلك الزمن، من رقابة البابا. وهٰكذا حلّت المواجهة، بالمعنى العصريّ، شيئًا فشيئًا بين الكنيسة والدول، محلَّ الصراع بين الكهنوت والإمبراطوريّة.

وهٰذا ما أظهرته الأحداث بعد خمسين سنة، حين قام خلاف بين البابا وملك فرنسا فيليب الجميل، فإنّه أراد أن يبقى سيّدًا في أرضه، في حين أراد البابا أن يحافظ على امتيازات الكنيسة في ما يختصّ بالشؤون الماليّة والقضائيّة. ولمّا أصرّ البابا على الملك أن يخضع لإذعانه تحت طائلة الحرم، أرسل فيليب جماعةً مسلّحةً إلى إيطاليا فقبضت على البابا في أنانيي. إلّا أنّ شعب رومة أنقذ الحبر الأعظم الذي توفّي بعد أسابيع قليلة (سنة ١٣٠٣). وكان الانتصار في النهاية للملك.

الفصل العاشر

الثورة الأُولى في أوروبّا

بقلم جان لويس مُونرُون(*)

غريغوريوس السابع وهنري الرابع، وإنوقنطيوس الثالث، وفريدريك بربروس وفريدريك الثاني، والقدّيس لويس وفيليپ الجميل: ما أكثر هٰذه الشخصيات القويّة، الفاعلة في تاريخ واحد عظيم! من جهةٍ الحُكم الروحيّ: البابا والكاهن، ومن جهة أُخرى الحكم الزمنيّ: الإمبراطور ثمّ الملوك. كان بينهم مواجهةٌ خرجتْ منها، في بطء فَجْرٍ مضطرب، صورةُ غربٍ جديد.

لا يتردّد المؤرّخ في الكلام هنا على ثورةٍ أُولى في أوروبّا، علمًا بأنّ ثورة ١٧٨٩ في فرنسا لم تكن إلّا الثورة الثانية، وثورة ١٩١٧ في روسيا كانت الثالثة. لٰكنّ المقارنة تلقي الحيرة في عقل إنسان القرن العشرين. فإنّ تلك الثورة، إذا صحّ الكلام على ثورة، هي أبعد من أن تحتفظ بملامحها المميِّزة. وهٰذا ما يحملنا على التساؤل عن قيمة المقارنة.

التمييز بين الروحيّ والزمنيّ

ومع ذٰلك، يبقى واضحًا أنّ الإصلاح الغريغوريّ والصراع بين الكهنوت والإمبراطوريّة هما، في حدّ ذاتهما وبفضل نتائجهما، حدثان لهما أهمّيّة كبرى.

كانت «حرّيّة» الكنيسة قضيّةً كبرى، إذ كان يجب تحرير الإكليرس من الروابط المتجاوزة الحدّ التي كانت تربطه بالعظماء، واستعادة السلطة ثمّ النفوذ اللذين كانت البابويّة تتمتّع بهما. وُضع هٰذا المشروع بجرأة وتَواصَلَ بثبات. وفي الختام، ورث الغرب هاتين المؤسّستين اللتين أثّرتا في تاريخه قرونًا طويلة: إكليرسًا منفصلًا وبابويّةً مركّزة. وكيف كان يمكن أن يُتّخذ توجُّه آخر، في عصرٍ كان على الذي يرغب في الوصول إلى الكمال أن يهرب من العالم؟ في زمن كان لا بدّ، بفضلِ تقدُّم الشرع وأقدميّة التقليد، من صيغة الحكمِ الملكيّة؟ فالراهب والملك اتُّخذا مثالَين في عمل الإصلاح. وكان على الإكليرس الجديد أن يكون غير متزوّج ومحرَّرًا من عوائق المال وسائر الاهتمامات العالميّة.

وكان عليه أن يعمل لربّ واحد، هو الله، ولذلك الذي دُعي، ابتداءً من عهد إنوقنطيوس الثالث، «نائبَ المسيح»، أي البابا.

ذٰلك بأنّ تكوين البابويّة كان، إلى جانب تكوين الإكليريكيّين، إرثَ ذٰلك الزمن. فإنّ الحكم الروحيّ أخذ يتنظّم ويتركّز... وأصبحت الكنيسة الكاثوليكيّة مَلَكيّة بكل معنى الكلمة، مخفَّفة أحيانًا بالممارسات المجمعيّة، ومستهواة في وقت لاحق بالاقتداء بالمَلَكيّات العلمانيّة بما فيها من الأمور التي ستكون عرضةً للنقاش الحادّ، وهي القضاء بالطرق السريعة والطمع في جباية الضرائب. ولٰكنّ هٰذا الإصلاح كان ضروريًّا، لأنّه كان ضمانًا للاستقلال.

وأخيرًا، ففي النظام السياسيّ كان التطوّر لا يقلّ وضوحًا، وإن كان بطيئًا جدًّا: فإنّ المثال الأعلى الإمبراطوريّ، الذي انتقل من الطموحات الصعبة المنال إلى المعارك المُنهِكة، أخذ يمّحي لمصلحة

(*) Jean-Louis Monneron، أستاذ محاضر في معهد الدراسات السياسيّة - باريس.

المَلَكيَّات، وهي أوَّل صيغ الدولة العصريّة. انطلقت هٰذه الحركة في وقت مبكّر في إنكلترا وفرنسا، فبلغت ألمانيا وحتّى إيطاليا حيث تصرَّف البابا أحيانًا كأيّ ملك من الملوك. وقد يكون الكلام هنا على العلمنة كلامًا يتجاوز الحدّ، لشدّة تعلّق الملوك بكونهم مسيحيّين. ومع ذٰلك، فإنّ تأثير الشرع الرومانيّ، وتفكير اللاهوتيّين (يعترف توما الأكوينيّ باستقلال الدولة الذاتيّ)، والدفاع عن المصالح الخاصّة بكلّ واحد، أدَّت إلى تمييزٍ ازداد وضوحًا يومًا بعد يوم بين الروحيّ والزمنيّ، ونجده في أصل الفكر والممارسة السياسيّة العصريّة.

يظهر إذًا هٰذا الزمن زمنَ تحديدِ النظام والتمييز بين الأدوار، في حين يأخذ جسم العالم المسيحيّ في التجزّؤ إلى وحدات قوميّة ناشئة.

هل الكنيسة المرجع الأعلى؟

لٰكنّ ساعة الانقسام لم تدقّ، بل كلّ شيء كان يجري كما لو أنّ العصر الوسيط الغربيّ يرفض الموافقة على ما يلده. وبعد أن وصل إلى شواطئ الحداثة، بما أحدثته من تحطّمات ونزاعات، ما زال يحافظ، بالرغم من كلّ العقبات، على الحنين إلى الوحدة، وانتهى به الأمر إلى التطابق، في وجه الهراطقة وغير المؤمنين، مع كنيسة يسوع المسيح نفسها. من هنا تأتي عظمة النزاع الذي قام بين الكهنوت والإمبراطوريّة. لم يقتصر المطلوب على التمييز والارتباط بين الروحيّ والزمني، بل كان المطلوب أيضًا، وربّما أوّلًا، دعم البناء الوحدويّ الذي كان فريسة الانقسام. في الماضي، يوم كان الغرب يتنصّر، تجسّد المثال الأعلى الوحدويّ هذا في فكرة الإمبراطوريّة التي أخذها عن الأزمنة القديمة والتي جدَّدها شارلمان، الإمبراطور الكاهن. وهٰذه الفكرة هي التي أراد الأباطرة الجرمانيّون أن يُحيوها. لٰكنّهم اصطدموا بالبابويّة الغريغوريّة التي قويت باستعادة استقلالها. فمَن الذي يستطيع أن يرفع المشعل مرّةً أُخرى، إلّا البابا نفسه، ذٰلك البابا الذي كان الأباطرة أنفسهم يقصدونه للحصول على التاج، والذي كان الحكم الروحيّ يوليه نوعًا من السلطة العليا على القضايا السياسيّة وعلى مدينة البشر؟ في الحقيقة، لم يكن ما سُمّي الحكم الإلٰهي البابويّ إلّا السعي إلى حلم الوحدة نفسه، والترجمة القضائيّة، وبالتالي المُفرِطة، للمكانة التي احتلّها الدين المسيحي في مجتمع ذٰلك الزمن، فإنّه كان نفسَه ولحمتَه. فلماذا لا تكون الكنيسة حجر زاويته؟ هل كان ذٰلك حُلمَ كهنة أم تجربةَ إكليريكيّين؟ لا شكّ في هٰذا، لا سيّما وأنّ تجاوزات البابويّة بعد عهد إنوقنطيوس الثالث هي دليل كافٍ على ذٰلك. ولٰكن لا يحسن بنا أن نتسرّع في المبالغة. ففي عالم العنف والمواجهات الذي غالبًا ما اتّصف به العصر الوسيط، لم يكن باطلًا أن يُنشأ، فوق الأنانيّات الجامحة، نوع من المرجع الأعلى، يضمن الحقّ والعدل والسلام. والكنيسة والبابويّة قامتا بهٰذا الدور قيامًا يعادل، لا بل يفوق دور المؤسّسات الدوليّة - جمعيّة الأمم أو منظَّمة الأمم المتّحدة - التي ابتكرها القرن العشرون لمقاومة اصطدام الإمبرياليّات والحروب بين الأمم. عَرف هٰذا النظامُ صيفًا قصيرًا، وكان له حكماؤه وقدّيسوه. لٰكنّه كان يقوم على اتّزانٍ دقيق، ويقتضي الكثير من الناس الذين يقومون فيه بالأدوار الأوائل، فلم يستطع أن يبقى مدّةً طويلة. ولم يكن الملوك والبابوات قدّيسين جميعًا. وانحطَّ تحكيمُ الكنيسة المفيد إلى مرتبة الإكليرُسيّة، كما انحطّ استقلال الملوك المشروع إلى مرتبة مصلحةٍ عليا وحشيّة.

عندئذ حلَّت الأمور التافهة محلّ المفهوم الوحدويّ الطَموح. وسرعان ما بدا، من جهة، الكنيسة التي أضعفها منفى البابا إلى أڤينيُون، ثمّ الانشقاق الكبير، ومن جهة أُخرى، الملوك الذين، مع الرغبة في أن يبقوا مسيحيّين، لم يعودوا يحتملون تدخّل الحكم الروحيّ في القضايا التي لا تعنيه في نظرهم. فحدث تمزّق أتلف، شيئًا فشيئًا، نسيج العالم المسيحيّ، وتسرّبت منه الدولة العصريّة وعلمنة الغرب. وحلّ مَكْياڤيلي محلّ القدّيس توما. فنشأ عصر جديد.

حدود الشرع

ماذا نقول، في آخر الأمر، عن تلك الأحداث؟ أيجب علينا أن لا نحفظ منها إلّا قلّة فائدة تلك المعارك في الظاهر؟ وأن لا نلاحظ إلّا مفارقة تاريخيّة في ادّعاءاتٍ أبطلها سياق التاريخ؟ وأن نرتّب كلّ ذٰلك في متحف المؤرّخ الخياليّ؟ ربّما... ولٰكنّنا ننسى عندئذ أنّ ذٰلك العصر طرح بألفاظٍ مثاليّة مشكلةَ العلاقات بين الروحيّ والزمني. وهٰذا ما يستحقّ بعض التفكير.

في الحقيقة، جرى كلّ شيء كما لو أردنا أن نستخلص من بديهةٍ صحيحة نتيجةً لا يمكن استعمالها. فإنّ بديهة الغريغوريّين كانت صحيحة، حين كانوا يقولون: لا وجود لأعمال حياديّة. والاختبار يدلّ على عدم وجود حدودٍ تُرسَم بين الروحيّ والزمنيّ، بين المقدَّس وغير المقدّس. فإن لم يختلط المقدّس بغير المقدّس، أفلا يكون بلا جسد؟ وإن التوى غير المقدّس على نفسه، أفلا يسارع إلى التفاهة؟ فالبابويّة كانت على حقّ، والكنيسة هي على حقّ في أن ترفض انشطار الواقع البشريّ، وهو الخطأ المشترك بين جميع أنواع الليبراليّة. فليس هناك حقلان بقدر ما هناك طريقتان لإدراك الواقع الواحد.

لٰكنّ المأساة تعود إلى أنّهم اضطرّوا إلى أن يجدوا، في الحقل السياسيّ، حلًّا حسابيًّا مفرطًا لمشكلةٍ معقّدة إلى أقصى حدّ. فمن جهة، وجب التمييز بين حقلَين، وهٰذا ما قام به، كلّ واحد لحسابه، البابوات المصلحون، ثمّ الملوك الزمنيّون. ولٰكن، مِن جهة أُخرى، كان ذٰلك الزمن (وهٰذا ما يجعله عظيمًا) أشدّ اقتناعًا بالطابع الثابت الذي تتّسم به الروابط التي توحّد بين الزمنيّ والروحيّ، لٰمن أن لا يرغب في تدوينه في الشرع، فأنهك قواه، لا لأنّه كان على خطأ في البحث عن حلّ، بل لأنّه ضلّ الطريق بطرح الحلّ بألفاظ تمتّ إلى الحُكْم. فإنّ المنطق الحقوقيّ لا يوفّر إلّا أدوات غير قادرة على الإتيان بحلول مُرضية. ومن ثمَّ، حطَّ الزمن العصريّ درجةً من مستوى ادّعاءاته، فلم يلحَّ إلّا على التفاوت، علمًا بأنّ الاستقلال الذاتيّ يصبّ في الانفصال: الدول من جهة، والكنيسة من جهة أُخرى.

لا يُخفى على أحد أنّ هٰذا الحلّ الوسط لا يخلو من الحكمة، ومن المحتمل جدًّا ألّا نستطيع، في هٰذا النظام السياسيّ أو القضائيّ، أن نضيف شيئًا، وعلى كلّ حال، ينسجم ذٰلك مع الواقع نفسه: فالدول الحاليّة هي صاحبة السلطة، ولم يعد يجوز للكنيسة، حتّى لأسباب وجيهة، أن تستعير أسلحة تلك الدول. ولٰكن من الواضح أنّ هٰذا الحلّ يفتقر إلى شيء من السعة، فإنّه لا يذكر شيئًا من الطريقة التي يتمّ بها مصير البشر الروحيّ في قلب البعد الزمنيّ. وهو يهمل بذٰلك ما كان التفكير في العصر الوسيط يتضمَّنه من عمق، ويترك الباب مفتوحًا أمام سؤال لا يستطيع المسيحيّ العصريّ، وإن كان متحرِّرًا من جميع أنواع الإكليرُوسيّة، ألّا يطرحه على نفسه. فلا بدّ من مواصلة الطريق.

ولٰكن، ما لا يستطيع التاريخ أن يعلّمنا إيّاه، هو أنّنا لا نربح شيئًا إن عالجناه، كما فعلوا في ما مضى، بألفاظ تمتّ إلى الحُكم، وأنّنا نخدع أنفسنا إن فرّقنا، على غرار العالم الجغرافي، بين الروحيّ والزمني كأنّهما حقلان مختلفان. لا شكّ في أنّ هٰذا التمييز الضروريّ لا يخلو من الفائدة، ولا بدّ من المحافظة عليه. ولٰكن يجب علينا أيضًا أن نبذل جهدنا لنفهم واقعًا بشريًّا لا يمكن أن يقسَّم إلى قِطَع. لم يعد ذٰلك من اختصاص السياسات، وليس هو أيضًا من اختصاص السلطة الكنسيّة وحدها، بل من اختصاص كلّ إنسان، وكلّ مسيحيّ حرّ ومسؤول.

فهرس أعلام الأشخاص

ب

ف

ق

فهرس أعلام الأمكنة

ب

ت

ج

ص

ط

ع

غ

ف

ق

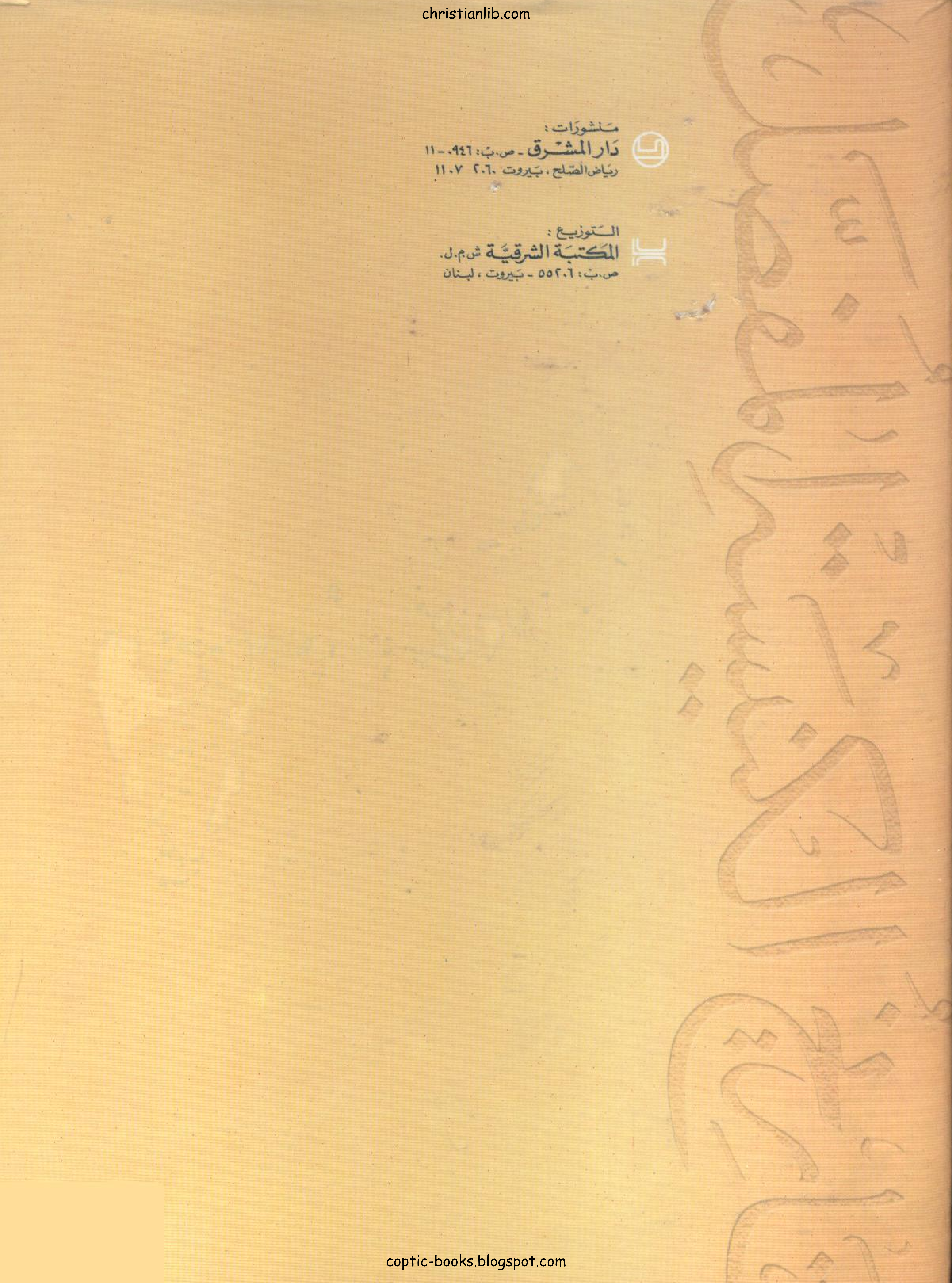
فهرس المحتويات

تصميم الغلاف : **مطبعة ليزار ش.م.م.**

الصفّ والإخراج : **شركة الطبع والنشر اللبنانيّة**
والأفلام : **(خليل الديك وأولاده)**

الطباعة : **مطبعة ليزار ش.م.م.**

٧٣٦-٢-٣١/١٠/٢٠٠٢



منشورات :
دار المشرق - ص.ب : ٩٤٦ - ١١
رياض الصلح ، بيروت ٢٠٦٠ ١١٠٧

التوزيع :
المكتبة الشرقية ش.م.ل.
ص.ب : ٥٥٢٠٦ - بيروت ، لبنان